المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة
شعبة التفسير وعلوم القرآن

التناسق الموضوعي في سورة الأنعام

رسالة علمية مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن

إعداد الطالبة :
أعياد منصور جميل دقنه
الرقم الجامعي : ٤٣٢٧٠٠١٠

إشراف فضيلة الأستاذ الدكتور
عبد الكريم مستور عبدالكريم آل عبدالكريم القرني

العام الجامعي :
١٤٣٥ ــ ١٤٣٦ هـ
٢٠١٤ـ ٢٠١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى والدتي الحبيبة ، ووالدي العزيز

إلى إخوتي وأخواتي

إلى كل من أحبنا في الله وأحببناه فيه

أهدي هذا البحث ...

شكر وتقدير

أحمد الله تعالى على ما من به علي ، الحمد لله الذي بنعمه تتم الصالحات ، حمداً يملأ الأرض والسماوات ، على ما أنعم من الفضائل والخيرات .

ثم أتقدم بالشكر الجزيل إلى أمي وأبي الغاليين ، اللذين بذلا من وقتهما وراحتهما الشيء الكثير ، وكان لهما الفضل الكبير بعد الله تعالى في وصولي إلى ما وصلت إليه ، بتشجيعهما ومؤازرتهما ودعائهما ، وآمل أن تكون رسالتي صورة من صور برهما والإحسان إليهما لرفعة قدرهما في الدارين .

كما أشكر أخوتي أحمد وجميل وجهاد ، وأخواتي الآء وأبرار على ما قدموه من مساعدة ومشورة .

وأتقدم بالشكر الجزيل إلى فضيلة المشرف الدكتور عبد الكريم الذي لم يأل جهداً في توجيهي ونصحي ، وبذل الكثير من الجهد والوقت لتخرج الرسالة على هذا النحو ، ولن أنسى معروفه معي ماحييت .

وأشكر دولتي الكريمة على ما يسرته ووفرته لنا في سبيل طلب العلم ، وأشكر جامعة أم القرى ممثلة في قسم الكتاب والسنة بكلية الدعوة وأصول الدين ، وأشكر مكتبة الملك عبد الله وجميع من يعمل بها على ما قدموه لنا ، كما أشكر كل من ساعدني في الحصول على المراجع وأخص بالذكر الأستاذة مها بوقس ، والسيدة فادية سمسم ، والدكتورة استشهاد حريري ، وأشكر كل من قدم لي يد العون وعرض علي المساعدة ووقف إلى جانبي بمشورة أو نصح أو دعاء من جاراتي وقريباتي وأرحامي وزميلاتي وصديقاتي وأستاذاتي .

جزى الله الجميع عني خير الجزاء وأجزل لهم المثوبة والعطاء ، وشكر الله جهودهم ، وبارك فيهم

هذا وأسأل الله التجاوز عن الزّلة بحسن النية، فيما دللت عليه، وأجريت إليه، والتوفيق للصواب، وحسن الثواب .

وصلى الله وسلم على نبيه محمد أفضل التسليم وأتم الصلوات ، الذي جاء بالهدى وبلغ الآيات البينات ، وعلى آله وصحبه أصحاب المناقب والكرامات .

ملخص الرسالة

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وبعد :

فهذه رسالة علمية بعنوان التناسق الموضوعي في سورة الأنعام ، والتي تهدف إلى إظهار جانب من جوانب الإعجاز القرآني، وذلك من خلال ترابط الموضوعات المختلفة، داخل السورة القرآنية الواحدة، مما يشكل نسقاً واحداً تحت غرض وهدف واحد.

وحتى يتم الوصول إلى هذا الهدف تم تقسيم الرسالة العلمية إلى مقدمة وبابين وخاتمة .

أما المقدمة ففيها أهداف البحث وأسباب اختيار الموضوع والدراسات السابقة والمنهج المتبع في البحث وطريقة الدراسة وخطة البحث .

ثم الباب الأول والذي يتحدث عن التناسق الموضوعي ومقدمات تعريفية عن السورة الكريمة

حيث فيه الحديث عن اسم السورة وفضلها وعدد آياتها وتاريخ نزولها، ومكي السورة ومدنيها ومناسبتها لما قبلها وما بعدها ووجه اختصاصها بما اختصت به من موضوعات، وأسباب النزول الواردة في السورة ومقاصدها وأهدافها،

ثم الباب الثاني ويتناول الدراسة التطبيقية للتناسق الموضوعي في سورة الأنعام

ثم الخاتمة: وتشتمل على نتائج الدراسة الكلية والتي كان أبرزها : أن هناك تناسقاً بديعاً ، وتناسباً لطيفاً ، بين آيات سورة الأنعام وبين معانيها وألفاظها ، وبين موضوعات السورة وترابطها الوثيق ، فهي كلها تمضي في سياق متآلف ، وبأسلوب متناسق ومترابط ، وهناك ترابط وثيق بين سورة الأنعام وما سبقها وما جاء بعدها ، و أن مقاصد السور الثلاث وأهدافها مكملة لبعضها البعض ، وخاصة عندما نتأمل المناسبات بينها ، ونمعن النظر في تناسق موضوعاتها ، فهي في ذلك تمثل جزءا من سلسلة مقاصد سور القرآن الكريم وأهدافه الشرعية ، والإيمانية ، والاجتماعية ، والاقتصادية . وغير ذلك من النتائج .

Abstract

Praise be to God alone, peace and blessings be upon the Messenger of Allah ...

This scientific study entitled "substantive consistency in Surat Alanam " , aims to show aspect of the Quran miracle , through different themes thread, Inside one of Quranic sura, which is a one coordinated under one purpose and one objective .

In order to achieve this objective , the study was divided into an introduction, two parts , and a conclusion.

Introduction contain the study objectives, the reasons for choosing the topic, previous studies, study approach, study method, and the study plan .

And the first part of the study talking about substantive consistency, and introductions for induction Surat Alanam .

This introduction contained talk about Sura's name, its virtues, the number of verses, the history of descent, and Makiya and Madnya of the Sura, and suitability to before and after, and it's competence to the provisions of the subjects, and the descend reasons, and its purposes and objectives.

After that , the second part , deals the applied study for substantive consistency in Surat Alanam .

And the conclusion , includes the study overall results , and that was the most important: That there is a consistent very beautiful, and fit nicely between the Alanam Sura's verses and Sura topics and close interdependence, they are all moving in the context of a monolithic, and in a manner consistent coherent, and there is a close correlation between Sura and before and after, and that the purposes of the three Suras and goals are complementary to each other, especially when we contemplate events themselves, and have a closer look at the consistency of the topics, they represent part of the purposes of the fence series the Qur'an, and the legitimate goals, and faith, and social, economic, and other results.

المقدمة

الحمد لله الرحيم الرحمن ، الخالق الديان ، مبدع الأكوان ، علم القرآن ، خلق الإنسان علمه البيان ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيد ولد عدنان ، صاحب الأخلاق الحسان ؛ نبينا محمد وعلى أله وصحبه أهل التقى والإيمان ، ومن سار على هديهم واقتفى من كل زمان ومكان إلى يوم يزفون فيه إلى الجنان .

أما بعد

فإن قيمة أي علم وأهميته إنما تقاس بأهمية المعلوم، والغرض من تعلمه، وبمقدار حاجة العباد إلى ذلك العلم وضرورتهم إليه، ومن ثَم كان علم تفسير القرآن من أجل علوم الشريعة وأرفعها قدراً، إذ هو أشرف العلوم موضوعاً وغرضاً وحاجة إليه _ لأن موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة ولأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية

وحاجة الناس إليه وضرورتهم له فوق كل حاجة ، وأعظم من كل ضرورة، وإنما اشتدت الحاجة إليه لأن كل كمال ديني أو دنيوي لا بد وأن يكون موافقا للشرع ، وموافقته تتوقف على العلم بكتاب الله . وبمعرفة التفسير يعرف الإنسان منهج الله الذي أودعه كتابه، وما في هذا المنهج من الراحة والطمأنينة والرفعة والبركة والطهارة .

وهذا القرآن يتألف من عدة سور والتالي لأي سورة من مطلعها إلى ختامها لا يشعر بنشاز أو اضطراب ، ولا يرى انقطاعاً أو انفصالاً ، بل يخلص من معنى إلى آخر خلوصاً طبيعياً لا عسر فيه ولا اقتسار ، وتنطوي هذه الخصيصة في تمازج المعاني والأغراض في سور القرآن على عدة حكم من أظهرها أنه يكون سبباً لطرد سآمة القاريء والسامع وتجديد نشاطهما ، مما يجعل الانسان لا يمل من ترداد القرآن الكريم وسماعه .

وعند الإمعان في كتاب الله المجيد نجد الدلائل متضافرة على أن آيات القرآن محكمة البنيان، متناسقة الأركان ، ولا يمكن إدراك ذلك إلا بإعمال النظر، وإمعان التدبر، وعمق التفكير، وسعة التأمل للآية مع ما يتقدمها وما يلحقها من الآيات، وذلك بدوره يوصلنا إلى فهم مقصد السورة ومغزاها .

ومن يمعن النظر يجد أن بعض علوم القرآن لقيت حظاً وافراً من البحث والدراسة ، إلا أن دراسة وعلم أسرار نظم الآيات وترتيبها على هذا النحو داخل السورة الكريمة لا زالت في بداياتها ، وهي دراسة مهمة تسمى بالتناسق الموضوعي في القرآن ؛ حيث من خلالها يتم إدراك ما اشتملت عليه السورة من

المواضيع والقضايا ، مما يسهم في إيضاح الإعجاز البلاغي في نظم القرآن ، والذي من خلاله يظهر مدى تناسب المباني والمعاني ، وتناسق المحاور .

ولقد بادرت جامعة أم القرى ممثلة في كلية الدعوة وأصول الدين قسم الكتاب والسنة إلى فتح المجال لهذه الدراسة في مشروع معتمد من قبلها يتناول التناسق الموضوعي في جميع سور القرآن الكريم

وبعد استخارة الله تعالى ، وتوجيهاً وإشارة من شيخي المرشد الكريم الفاضل سعادة الأستاذ الدكتور **عبد الكريم مستور عبدالكريم آل عبدالكريم القرني** تم اختيار موضوع التناسق الموضوعي في سورة الأنعام حتى يكون بإذن الله عنوان رسالتي في مرحلة الدكتوراه .

أهداف البحث :

١. الوقوف على الارتباط الوثيق بين موضوعات سورة الأنعام، وارتباط آياتها بعضها ببعض.
٢. إظهار إعجاز القرآن العظيم من خلال نظمه ، ومعرفة شيء من أسراره وبلاغته .
٣. بيان التناسق الموضوعي في سورة الأنعام من خلال بحث علمي رصين .
٤. الوقوف على الهدايات القرآنية في سورة الأنعام وتدبرها ، والاستفادة منها في واقع مجتمعنا .
٥. إظهار صورة كاملة متقنة التناسق بشكل يسهم في إبراز شخصية السورة وإظهارها .
٦. الرد على من يطعن في كلام الله تعالى ، ويرى أن موضوعات السورة القرآنية عشوائية ومضطربة.

أسباب اختيار الموضوع :

١. التشرف بدراسة القرآن الكريم ، والارتشاف من معينه الذي لا ينضب والبقاء مع القرآن في كل وقت وحين ، فإنه أحق ما صرفت إليه الأفهام ، وبذلت فيه الجهود.
٢. قلة من كتب في هذا الفن لجدته فرغبت في إثراء المكتبة الإسلامية بهذا الفن المتعلق بعلم من علوم القرآن الكريم المهمة كونه يتناول موضوعات السورة الواحدة بنوع من التفصيل والإشباع .
٣. لكل عصر مطالبه الخاصة به لذا وجب إبراز هدي القرآن وأهدافه بصورة تناسب العصر الذي نعيشه .

٤. الرغبة في خدمة القرآن الكريم بوجه عام وسورة الأنعام بوجه خاص .

٥. مشاركة إخوتي وأخواتي من طلاب وطالبات التفسير وعلوم القرآن بجامعتنا الحبيبة في هذا المشروع الطيب المبارك الذي وافق عليه قسمنا الأغر وهو التناسق الموضوعي في سور القرآن الكريم .

الدراسات السابقة للموضوع :

بعد البحث والتقصي والمراجعة لعدة جامعات وقواعد المعلومات وسؤال أهل الخبرة والاختصاص من أصحاب الفضيلة الأساتذة لم أقف على دراسة تتناول التناسق الموضوعي في سورة الأنعام .

لكن هناك مؤلفات وكتب ومقالات تحدثت عن هذه السورة أو بعضها أو بعض ما يتعلق بها من العلوم ومن خلال اطلاعي على بعضها لم يتحدث أحدها عن التناسق الموضوعي في هذه السورة الكريمة وإلى القارئ الكريم تفصيل ذلك من جانبين :

الجانب الأول : الدراسات العامة :

ويشمل هذا الجانب كل كتب التفسير عامة التي تحدثت في ثناياها عن تفسير سورة الأنعام على مدى العصور ، ومن الملاحظ أن هناك بعض التفاسير اهتمت بربط الآيات بعضها ببعض عن طريق ذكر مناسبة الآية لما قبلها منها ، لكن لم تبين أوجه التناسق الموضوعي الكلي بين موضوعات السورة الواحدة ، ومن هذه التفاسير ما يلي :

١. مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي ٦٠٦ هـ

٢. نظم الدرر للبقاعي للشيخ إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي ٨٨٥هـ

٣. تفسير المنار لمحمد رشيد رضا لمحمد عبده ومحمد رشيد رضا ١٣٥٤هـ

٤. تفسير أحمد بن مصطفى المراغي ١٣٧١هـ

٥. في ظلال القرآن لسيد قطب ١٣٨٥هـ

٦. التحرير والتنوير لابن عاشور لمحمد الطاهر بن محمد بن عاشور ١٣٩٣هـ

٧. الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى ١٤٠٩ هـ .

الجانب الثاني : الدراسات السابقة والمؤلفات المتعلقة بسورة الأنعام خاصة :

القسم الأول : المؤلفات التي أفردت سورة الأنعام بالتفسير

١. بصائر الحق في سورة الأنعام لعبد الحميد محمود طهماز ، دار القلم للطباعة والنشر ، دمشق ، وهو كتاب لطيف يذكر عناوين للآيات ، ويفسرها مع محاولة يسيرة لربط الآيات بعضها ببعض .

٢. تأملات في سورة الأنعام لحسن محمد أحمد باجودة ، مكتبة مصر ، وهذه الدراسة المتأملة لسور الأنعام، تعنى بتنيين أوجه إعجاز السورة الكريمة، هذا إلى محاولة تبيين أوجه الترابط بين الآيات الكريمات، وأجزاء الآية الكريمة الواحدة من ناحية، وتبيين الدروس المستفادة من ناحية أخرى باعتبار القرآن الكريم كتاب هداية اولاً وآخراً ، لكن لم تتعرض لمدى التناسق الموضوعي لموضوعات السورة الكريمة .

٣. تفسير سورة الأنعام لإبراهيم العلي وهي دراسة تفسيرية تحليلية لسورة الأنعام ، لكن لم تتطرق للتناسق الموضوعي بين مقاطعها .

٤. تفسير سورة الأنعام لأحمد عطا محمد عمر ، دار الفكر ناشرون وموزعون ، عمان ، وهي دراسة متوسطة تناولت التفسير التحليلي لسورة الأنعام . لكن لم تتطرق للتناسق الموضوعي بين مقاطعها.

٥. تفسير سورة الأنعام لطه جابر العلواني، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة وهي دراسة تفسيرية مختصرة لسورة الأنعام . لكن لم تتطرق للتناسق الموضوعي بين مقاطعها .

٦. تفسير سورة الأنعام لعفيف عبد الفتاح طباره ، دار العلم للملايين ، يعرض آراء المفسرين من السلف الصالح وآراء المفسرين في العصر الحاضر، يعالج التفسير بطريقة مبسطة بعيدة عن التطويل الممل والإيجاز المخل ، ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنة النبوية وفقه اللغة، يبين التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر إعجازه، يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع ، يفسر المجمل من الآيات بما هو مفصل في آيات أخرى لكن لا يتعرض للتناسق الموضوعي في حديثه .

٧. تفسير سورة الأنعام لمحمد البهي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، وهي دراسة تفسيرية تحليلية لسورة الأنعام ؛ قدم للسورة بلوحة تعريفية تضمنت المكي والمدني ، وأهداف السورة ومقاصدها ، وقسم السورة على حسب تلك المقاصد والأهداف ، لكن القاريء للكتاب يجد بين المقاطع فجوات عديدة ، ولا يجدها متناسقة متناسبة ، أي لم يظهر أي أثر للتناسق الموضعي في السورة الكريمة .

٨.	تفسير سورة الانعام لمحمود محمد حمودة، ومحمد القطناني ، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع ، وهي دراسة إجمالية مختصرة لتفسير السورة .

٩.	تفسير سورتي الأنعام والأعراف لمحمد تقي المدرسي الهدى – طهران .

١٠.	تفسير سورتي الأنعام والأعراف وخواصهما اللغوية لأحمد كمال بولاج، اشراف: حمزة ذو القفار ، جامعة أنقرة .

١١.	تيسير الكريم العلام في تفسير سورة الأنعام عبد الفتاح عبد الغني محمد إبراهيم العواري القاهرة – مصر .

١٢.	التفسير الموضوعي لسورة الأنعام ضمن مشروع التفسير الموضوعي للقرآن الكريم قام به نخبة من العلماء بإشراف الدكتور مصطفى مسلم في الشارقة .

ولقد بذل القائمون على هذا المشروع جهداً يشكروا عليه تجاه كل سورة من سور القرآن، إلا أنهم أغفلوا الجو العام التي نزلت فيه السورة الكريمة ، ولم يبينوا المقاصد والأهداف ولا ما اختصت به ولم يذكروا دلالة السورة على موضوعها ،كما يلاحظ أن هناك فصل بين التفسير وذكر المناسبات مما أدى إلى فقدان التناسق الموضوعي بين المقاطع بين السورة ، وكذلك بالنسبة إلى المعنى الإجمالي لم يتعرضوا فيه الى مراعاة التناسق الموضوعي .

كما أنهم بينوا أن محور السورة الأساسي الذي تدور حوله السورة الكريمة هو إقامة الحجة على الكفار بنقض عقائدهم الباطلة وتقرير العقيدة الصحيحة بالأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة والحجج المتنوعة .

لكن من خلال الاطلاع على تفسير سورة الأنعام تبين لي – والله اعلم – أن السورة لها ثلاث محاور رئيسية المحور الأول قضية تقرير التوحيد بأنواعه الثلاثة ، المحور الثاني قضية الوحي والرسالة ، المحور الثالث البعث والجزاء .

١٣.	الوحدة الموضوعية في سورة الأنعام رسالة دكتوراه في كلية أصول الدين تخصص التفسير وعلوم القرآن بجامعة أم درمان لفضيلة الدكتور عباس عوض الله عباس – أستاذ مشارك بجامعة أم درمان الإسلامية – وكان المشرف على هذه الرسالة فضيلة الدكتور : الطاهر أحمد عبد القادر في عام ١٩٩٣م وتقع في ٤٥٧ صفحة .

وبعد الإتصال بفضيلة الدكتور عباس عوض الله عباس ومهاتفته شخصياً وعرض الخطة عليه وطريقة الدراسة بين لي الدكتور الفاضل أن دراستي التطبيقية تختلف اختلافاً كلياً عن طريقة دراسته التطبيقية حيث إن دراسة الدكتور كانت بعرض أهم المواضيع والمحاور التي تدور حولها السورة وجمع الآيات المتعلقة بكل محور وإدراجها تحت ذلك المحور فمثلاً من المحاور التي عرضها في الرسالة

توحيد الألوهية حيث جمع كل الآيات التي تتحدث عن توحيد الألوهية ووضعها تحت هذا المحور دون الالتفات لتسلسل الآيات في السورة .

حيث تم تفريق آيات السورة وفق الموضوعات التي تتحدث عنها الآيات فبالتالي لن يتم الحديث عن تناسق الآيات وعلاقتها ببعضها البعض لا من قريب ولا من بعيد .

وبعد ذلك بين علاقة المحاور هذه بموضوع السورة الرئيسي .

أما دراستي فلقد كانت تتسم بالالتزام بترتيب الآيات في السورة كما وردت في المصحف دون التفريق بينها ، وتقسيم السورة إلى مقاطع رئيسية وتقسيم المقاطع الرئيسية إلى مقاطع فرعية وبيان مدى الترابط بين المقاطع الفرعية بعضها ببعض وبيان مدى التناسق بينها ثم الربط بين المقاطع الفرعية بالفرع الرئيسي الذي يجمعها ، ثم بيان مدى الترابط والتناسق بين المقاطع الرئيسية بعضها ببعض ، ثم مدى ارتباط المقاطع الرئيسية بمحاور السورة الرئيسية ، ثم مدى ارتباط المحاور الرئيسية باسم السورة .

١٤. التناسب في سورة الأنعام وأثره في التفسير والإعجاز ، رسالة دكتوراه في جامعة اليرموك – إربد – الأردن للباحث أحمد عطا محمد عمر .

وبعد اطلاعي المباشر على الرسالة تبين الاختلاف بين رسالته ورسالتي ، حيث إنه تناول دراسة السورة من الناحية النظرية والتطبيقية بطريقة موجزة جداً ، ففي الناحية النظرية أهمل الكثير من المباحث التي تحتاجها الدراسة للسورة الكريمة ، إلى جانب أوجه الخلل التي ظهرت في بيان العلاقة بين الآيات ، وفي اختيار العناوين للآيات ، وهي كالتالي :

- بين العلاقة بطريقة عامة جداً بحيث نجدها في أي كتاب من كتب التفسير ، التي لم تهتم بعلم المناسبات ، ولو أنه سلك طريقة من سبقه من المهتمين بعلم المناسبات بين الآيات أو على الأقل لو نقل أقوالهم لجاءت الرسالة على وجه متكامل .
- في كثير من المواضع بين علاقة الآيات بآيات بعيدة تسبق الآيات السابقة لها مباشرة ، فقد تجده يربط بينها وبين الآيات المتشابهة لها في السورة والتي سبقتها ، مما جعل السورة وكأنه اختل فيها النظم التي جاءت عليه .
- ضعف العناوين التي وضعها ، فلقد كانت عامة لم تحدد تحديداً واضحاً لما يمكن أن تتحدث عنه الآيات المسوقة تحت هذا العنوان ، إلى جانب تكرار العنوان الواحد أكثر من مرة ، كل ذلك أدى إلى خلل وهو عدم إمكانية الربط بين عناوين الآيات وموضوعاتها التي سيقت لأجلها الآيات ، كذلك أدى إلى عدم إمكانية ربط عناوين الآيات الفرعية بالعنوان

الرئيسي لها ، وأدى إلى عدم إمكانية ربط العناوين الرئيسة بالمحور التي تحدثت عنه السورة ، ومدى علاقتها باسم السورة مما أدى إلى تفكك السورة بدلاً من جعلها كياناً واحداً .

- لم يذكر أثناء تقسيمه للمقاطع سبب مجيء هذا المقطع وما تحدث عنه ضمن هذه السورة دون غيرها من السور ، بمعنى لم يتحدث أثناء دراسته للسورة عن السبب الذي جعل السورة تتحدث عن هذا الموضوع دون غيره من المواضيع .
- أورد تفسير الآيات بطريقة موجزة جداً ، وفي عدة مواضع كان يمر على الآية دون ذكر أي تفسير لها ، بل قد يذكرها دون أن يتحدث عنها بأي شيء .

ودراستي اهتمت بكثير من الأمور التي أغفلها صاحب الرسالة السابق ذكرها ، ففي الناحية النظرية أثبتُّ مكية السورة ، وقمت بالرد على الأقوال التي تقول بمدنية بعض الآيات كي أثبت أن السورة نزلت جملة واحدة .

كذلك بينت دراستي فضائل هذه السورة ، وذكر الأحاديث في ذلك مع الحكم على كل رواية تذكر .

أضف إلى ذلك ذكري لأسباب النزول الواردة في الآية ودراستها ، وبيان أوجه إشكالها مع القول بنزول السورة جملة واحدة .

وبينت وجه اختصاص السورة بما اختصت به من موضوعات ، وألفاظ ، وأساليب .

إلى جانب أني بينت علاقة السورة بكل السور السابقة لها والسورة اللاحقة لها حتى يظهر الإعجاز بمجيء هذه السورة الكريمة بهذا الترتيب .

كل ذلك وغيره كثير مما أغفله صاحب الرسالة في القسم النظري .

أما من الناحية التطبيقية فلقد بينت دراستي العناوين الرئيسية التي تحدثت عنها السورة، وجعلت تحت كل عنوان عناوين فرعية ، تحدثت من خلالها عن علاقتها بعضها ببعض ، ومناسبتها ببعضها ، وأوجه التناسق فيما بينها ، إلى جانب تفسير الآيات ضمن هذا التناسق .

إضافة إلى ذكر الحكمة من حديث السورة عن بعض العناوين التي جاءت بها ، وعن حكمة تفرد هذه السورة ببعض العناوين دون غيرها من السور .

وغير ذلك من الأمور التي تظهر مدى تناسق السورة في موضوعاتها والذي يظهرها ككيان واحد ، بعيداً عن التفكك والتباعد ، والتنافر – والله أعلم – .

القسم الثاني : المؤلفات التي تحدثت عن بعض المواضيع أو القضايا المتعلقة بسورة الأنعام .

١. الأساليب الإنشائية في سورتي الأنعام والأعراف لزينب حسن محمد ، جامعة الأزهر ، وهو بحث في أسلوب القرآن البلاغي، ولا يتطرق إلى أي جهة تتعلق بالتناسق الموضوعي .

٢. الإعجاز التشريعي والعلمي في آيات الطعام والشراب في سورتي المائدة والأنعام لكريمة يوسف أحمد أبو شام ، الأردن ، وهو يتناول جانب محدد من السورة ، وهو قضية الطعام والشراب

٣. آيات العقيدة في سورة الأنعام دراسة بلاغية تحليلية لمريم بنت سليمان بن عبد الله العبيد ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وهي دراسة لا تقترب من التناسق الموضوعي بأي جهة ، حيث إنها تعتبر أقرب إلى تخصص البلاغة .

٤. البنية النحوية والمفرداتية ودلالتها البلاغية في سورة الأنعام لأحمد عبيدلي ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، الجزائر وهو كتاب في جانب اللغة والصرف .

٥. تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام لإبراهيم زيد الكيلاني، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع ، عمّان ، وهي دراسة موجزة ومختصرة ، بينت كيف عبرت سورة الأنعام عن الألوهية ، وعنونت للآيات الدالة على الألوهية ، لكن لم تذكر التناسق الموضوعي .

٦. التفسير العقدي لسورة الأنعام لهدى عبد الرحمن عبد الحفيظ علي ، جامعة الخرطوم ، لم أقف عليه .

٧. تفسير آيات الأحكام من سورتي الأنعام والأعراف لفريد مصطفى سلمان ، دار النفائس ، الرياض ، وهي دراسة تناولت الآيات التي يستفاد منها في الأحكام فقط .

٨. تفسير سورة الأنعام لابن حجر العسقلاني من خلال فتح الباري – جمع ودراسة – لفيصل بن علي البعداني ، بحث منشور وهو بحث تناول فقط الآيات التي وردت فيها روايات تفسيرية في صحيح البخاري ، بمعنى أنه لم يتناول جميع آيات السورة ، كما أنه لم يتطرق للدراسة النظرية للسورة الكريمة .

٩. التنكير والتعريف ومواقعهما في سورة الأنعام لبغدادي إبراهيم الصحابي ، جامعة الأزهر ، حيث تحدث عن قضية محددة وهي قضية التعريف والتنكير ، وتناول فقط الآيات التي تحدثت عن هذه القضية .

١٠. التوحيد الخالص لله تعلى كما تصوره سورة الأنعام — دراسة موضوعية — للباحث توفيق العبيد في جامعة الجنان ، وهي رسالة دكتوراه .

١١. دلالة ألفاظ القرآن الكريم في توضيح معانيه "سورة الأنعام" لمجدي إبراهيم السيد إسماعيل دار الفكر العربي وهي دراسة في دلالة الألفاظ .

١٢. دلائل التوحيد وتأثيره في الحياة في القرآن الكريم : سورة الأنعام نموذجًا لدنيا زاد سابغ ، اشراف : صالح نعمان ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، الجزائر ، وهي دراسة لا تقترب من التناسق الموضوعي ، حيث إنها تعتبر أقرب للتفسير الموضوعي عن موضوع معين في هذه السورة وهي دلائل التوحيد .

١٣. سنن الحضارات كما تبينها سورة الأنعام ليوسف كمال محمد، دار القلم ، القاهرة ، وهي دراسة لا تقترب من التناسق الموضوعي بأي جهة ، حيث إنها تعتبر أقرب للتفسير الموضوعي عن موضوع معين في هذه السورة وهي سنن الحضارات .

١٤. سور المائدة والأنعام والأعراف : دراسة صوتية ودلالية لصبري محمد محمود القلشي ، جامعة الأزهر ، وهي دراسة في علم الدلالة ، ولم تفرد السورة الكريمة بالبحث.

١٥. سورة الأنعام والوصايا العشر لمحمد جمعة عامر ، مصر، وهي دراسة اقتصرت على الوصايا العشر فقط .

١٦. العقائد في سورة الانعام لمحمد بن عبد الله المديميغ ، السعودية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / أصول الدين عقيدة ، وهي دراسة لا تقترب من التناسق الموضوعي ، وإنما تعتبر أقرب للتفسير الموضوعي عن موضوع معين في هذه السورة وهي العقائد .

١٧. قصة آية : الآية رقم ٩٣ من سورة الأنعام لمحمد محمد هلال ، مصر ، وهي دراسة تتناول دراسة آية واحدة فقط .

١٨. القضايا النحوية والصرفية في سورة الأنعام من تفسير الألوسي لمحمد أحمد عبد الجواد ، جامعة الأزهر ، وهي دراسة متخصصة في العلوم العربية ، ومن طرف آخر فقد اقتصرت على تفسير واحد .

١٩. المباحث البلاغية في سورة الأنعام لأحمد علي عبد العزيز ، جامعة الأزهر ، وهي دراسة بلاغية بعيدة عن التناسق الموضوعي .

٢٠. محاضرات في تفسير سورة الأنعام لمحمود محمد حمودة ، ومحمد القحطاني ، لم أقف عليه .

٢١. معركة النبوة مع المشركين أو قضية الرسالة كما تعرضها سورة الأنعام ويبينها القرآن الكريم لإبراهيم زيد الكيلاني ، مكتبة الأقصى ، عمّان، وهي دراسة لا تقترب من التناسق الموضوعي ، فهي تعتبر أقرب للتفسير الموضوعي عن موضوع معين في هذه السورة وهي معركة النبوة مع المشركين .

٢٢. المقاصد القرآنية كما تصورها سورة الأنعام لوفاء أبو ضيف مجاهد حسن ، جامعة الأزهر، وهي دراسة اقتصرت على دراسة المقاصد فقط دون التطرق إلى أوجه التناسق الموضوعي للسورة .

٢٣. المقاصد الكبرى فى سورة الأنعام لعابدية محمد سعيد عيد ، السعودية، جامعة أم القرى – مكة المكرمة / كلية الدعوة وأصول الدين / العقيدة إشراف : أ.د..سيد سابق التهامى ، وهي دراسة جيدة تناولت سورة الأنعام بالدراسة التفصيلية ، إلا أنها رتبت الآيات في الدراسة حسب المقاصد ، فجمعت الآيات التي تتحدث عن كل مقصد على حدة ، مما أدى إلى تقسيم السورة تقسيماً بعيداً عن الترتيب الذي وردت به في المصحف الشريف ، أما دراستي فكانت عن التناسق الموضوعي الذي يستلزم ترتيب الآيات وفق ما وردت في السورة .

٢٤. منهج سيد قطب في فهم آيات الدعوه من خلال تفسيره في ظلال القرآن لسيد قطب– سوره الانعام نموذجاً — لخير الدين خوجه ، الجامعة الإسلامية العالمية ، وهي دراسة بعيدة تماماً عن التناسق الموضوعي.

٢٥. موقف القرآن من المشركين كما تصوره سورة الأنعام حسين عبد العال حسين طلب أبو صغير جامعة الأزهر وهي دراسة لا تقترب من التناسق الموضوعي بأي جهة ، حيث إنها تعتبر أقرب للتفسير الموضوعي عن موضوع معين في هذه السورة وهي موقف القرآن من المشركين .

٢٦. الوصايا العشر : دراسة مقارنة لآيات من آواخر سورة الأنعام عبد الفتاح عاشور مصر

٢٧. الوصايا العشر الكرام من سورة الأنعام عمر بن عبد العزيز مصر

٢٨. الوصايا العشر فى سورة الأنعام أ.د. نجبة غلام نبى محمد قطب الدين الرئاسة العامة / كلية الآداب للبنات / الدراسات الاسلامية

٢٩. الوصايا العشر في آخر سورة الأنعام لصغير بن علي الشمري، دار ابن الأثير، الرياض .

٣٠. الوصايا العشر في سورة الأنعام – دراسة تحليلية موضوعية – للسعيد فؤاد عبد ربه إبراهيم، جامعة الأزهر ، وهذا البحث والذي سبقه تناولا جمعياً الوصايا العشر فقط.

٣١. وظيفة الإخبار في سورة الأنعام لسيد محمد ساداتي الشنقيطي ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الدعوة والإعلام ، اشراف : مصطفى حسين كمال ، وهي دراسة متعلقة بتخصص الدعوة والإعلام ، وتشبه إلى حد كبير التفسير الموضوعي .

المقالات التي تحدثت عن سورة الأنعام :

١. أطيب النشر في تفسير الوصايا العشر (أواخر سورة الأنعام) لمرزوق بن هياس آل مرزوق الزهراني، مجلة الجامعة الإسلامية : المدينة المنورة العدد ٦٠ ، 1983م .

٢. تفسير سورة الأنعام (تعرض للحمد في القرآن) لطه الصابونجي ، مجلة الفكر الإسلامي ، لبنان – بيروت ، العدد ٥ ، 1988م .

٣. تفسير سورة الأنعام (سلسلة حلقات) ليوسف بن أحمد بن نصر بن سويلم الدجوي الضرير ، مجلة الفكر الإسلامي ، لبنان العدد ٤ ، 1983م

٤. تفسير سورة الأنعام (سلسلة(محمد محمد المدني مجلة رسالة الإسلام ، القاهرة العدد ٤٨ ، السنة ١٥ .

٥. تفسير سورة الأنعام لعبد الغني عوض الراجحي ، منبر الإسلام ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، وزارة الأوقاف ، القاهرة ، العدد ٧ ،1407 هـ .

٦. دلائل النبوة الواردة في سورة الأنعام لسارة بنت فراج العقلا ، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، العلوم الشرعية والعربية ، الرياض العدد ٣ ، ربيع الآخر ١٤٢٨هـ .

٧. سورة الأنعام وإعرابها للخطيب التبريزي محمد عبد المجيد الطويل،مجلة عالم المخطوطات والنوادر الرياض،محرم-جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ، مارس، أغسطس٢٠٠٤م العدد ١ .

٨. صفات الرسل ومهماتهم الواردة في سورة الأنعام لسارة بنت فراج العقلا ، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض العدد ٥٥ ، رجب ١٤٢٧هـ .

٩. قصة إبراهيم عليه السلام الواردة في الأنعام وما فيها من مباحث النبوة لسارة بنت فراج العقلا ، مجلة البحوث الإسلامية ، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض ، العدد ٦٨ ، محرم – صفر ١٤٢٤هـ .

١٠. نظرات في سورة الأنعام لمحمد الغزالي ،وأحمد السقا ، مجلة الوعي الإسلامي ، الكويت ، العدد ١٠٩ ، 1394هـ .

١١. الوصايا العشر كما جاءت في سورة الأنعام لمحمد بن أحمد الصالح ، مجلة البحوث الإسلامية ، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض ، العدد ٤٤ ، ذو القعدة ١٤١٥ – صفر ١٤١٦هـ.

١٢. وقفات مع سورة الأنعام لملفي بن ناعم بن عمران الصاعدي ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها ، العدد : ٢٨ ، شوال ١٤٢٤هـ / ديسمبر ٢٠٠٣م .

منهج البحث :

المنهج المتبع بإذن الله في هذه الدراسة سيكون المنهج الاستنباطي التحليلي .

المنهجية المتبعة في كتابة البحث :

١. الحديث عن السورة بذكر ما يتعلق باسمها وعدد آياتها ، وتاريخ نزولها ومكييها ومدنيها، ومحورها وما اختصت به من موضوعات ومناسباتها بما قبلها وما بعدها.

٢. الالتزام بترتيب الآيات وفق ما وردت في السورة .

٣. تقسيم السورة إلى مقاطع ووضع عنوان مناسب لكل مقطع ، وتقسيم آيات المقطع الواحد إلى عدة مطالب أتحدث في كل مطلب عن سبب النزول إن وجد والمناسبة بين كل مطلب وسابقه ، والتفسير التحليلي للآيات والغرض الذي سيقت لأجله لآيات ، وأبين مدى ارتباط كل مطلب بالعنوان الرئيسي للمقطع ومدى ارتباط المقطع بأكمله بموضوع السورة ومقاصدها.

٤. كتابة الآيات بالخط العثماني .

٥. التزمت إيراد الصحيح من الأحاديث ما أمكن في تفسير الآيات .

٦. أوردت حكم العلماء على الأحاديث التي لم ترد في الصحيحين .

٧. جمعت بين أقوال العلماء السابقين واللاحقين في تفسير الآيات وبيان المناسبات.

٨. ترجمت للأعلام غير المشهورين ، ولم أترجم للمشهورين .

٩. جمعت بين كتب التفسير وعلوم القرآن والعقيدة والمعاجم والبلاغة وغيرها في بيان التناسق.

١٠. وضعت ماتم نقله بنصه بين علامتي تنصيص "ـ" وأشرت إلى مصدره في الحاشية.

١١. إذا أخذت النص من أكثر من مصدر ولم أتصرف فيه أكتب في الحاشية انظر .

١٢. إذا أخذت المعنى من أكثر من مصدر وتصرفت فيه أكتب في الحاشية : بتصرف ، وذلك بعد ذكر المصدر .

١٣. إذا تمت إضافة من قبل الباحثة فإنه يكتب في الحاشية : مع إضافة من الباحثة .

خطة البحث :

لقد اقتضى البحث أن تقسم خطته إلى مقدمة وبابين وخاتمة :

المقدمة وفيها أهداف البحث وأسباب اختيار الموضوع والدراسات السابقة والمنهج المتبع في البحث وطريقة الدراسة وخطة البحث .

الباب الأول: التناسق الموضوعي: مقدمات تعريفية

ويشتمل على تمهيد وثلاثة فصول:

التمهيد: التعريف بالتناسق الموضوعي في السورة لغة واصطلاحاً.

الفصل الأول: اسم السورة وفضلها وعدد آياتها وتاريخ نزولها، ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: اسم السورة الكريمة وما اشتهر لها من أسماء.

المبحث الثاني: ما ورد في فضل السورة أو بعض آياتها من أحاديث.

المبحث الثالث: عدد آيات السورة واختلاف العلماء في ذلك.

المبحث الرابع: تاريخ نزول السورة الكريمة.

الفصل الثاني: مكي السورة ومدنيها ومناسبتها لما قبلها وما بعدها ووجه اختصاصها بما اختصت به من موضوعات، ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: المكي والمدني في السورة.

المبحث الثاني: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها.

المبحث الثالث: وجه اختصاص السورة بما اختصت به .

الفصل الثالث: أسباب النزول الواردة في السورة ومقاصدها وأهدافها، ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: أسباب النزول الواردة في السورة.

المبحث الثاني: مقاصد السورة وأهدافها.

الباب الثاني: التناسق الموضوعي: دراسة تطبيقية .

الفصل الأول: موضوعات السورة وتناسقها وهي كالتالي :

المبحث الأول : الربوبية والألوهية والموقف منها والشهادة على ذلك ويشتمل على أربعة مطالب تشتمل على الآيات من (١ إلى ٢٤) .

المطلب الأول : دلائل الوحدانية المستوجبة للحمد له وحده (١ – ٣)

المطلب الثاني : موقف المشركين من الدعوة إلى التوحيد وعدم اعتبارهم بمن سبق (٤ – ١١)

المطلب الثالث : دلائل قدرة الله تعالى الدالة على وجوب التوحيد (١٢ – ١٨)
المطلب الرابع : شهادة الله ورسوله ﷺ على التوحيد وبيان الواجب تجاهه (١٩ – ٢٤)
المبحث الثاني : اختلاف مواقف الناس تجاه الألوهية ، وما جاء من عنده تعالى من الرسالة والوحي وما يلزم ذلك ويشتمل على ثمانية مطالب (٢٥ – ٩٤) :
المطلب الأول : مظاهر من أحوال المشركين في الدنيا والآخرة (٢٥ – ٣٢)
المطلب الثاني : تسلية النبي ﷺ والتخفيف عنه (٣٣ – ٣٥)
المطلب الثالث : موقف المشركين تجاه آيات الله الشرعية والكونية وتهديد الله لهم (٣٦ – ٤٧)
المطلب الرابع : الحكمة من ارسال الرسل – عليهم السلام – والتوجيهات الإلهية لهم (٤٨ – ٥٨)
المطلب الخامس : خطاب المشركين بما هو معلوم عندهم بالضرورة من ربوبية الله تعالى (٥٩ – ٦٥)
المطلب السادس : موقف المشركين مما دعاهم إليه النبي ﷺ وما يجب أن يكونوا عليه (٦٦ – ٧٣)
المطلب السابع : موقف إبراهيم – عليه السلام – من عبدة الكواكب وما ناله من الفضل وذريته وإخوانه الأنبياء – عليهم السلام – (٧٤ – ٩٠)
المطلب الثامن : إنكار المشركين ما جاء من الله تعالى والافتراء عليه (٩١ – ٩٤)
المبحث الثالث : الذات الإلهية والدلالة عليها ، وذكر ما يليق بها وما لا يليق ويشتمل على سبعة مطالب (٩٥ – ١٣٥) :
المطلب الأول : الدلائل الكونية على وجود الله تعالى (٩٥ – ٩٩)
المطلب الثاني : نفي البنوة والشركاء عن الله تعالى وبيان عظمته وعظمة دينه (١٠٠ – ١٠٥)
المطلب الثالث : توجيهات إلاهية لنبيه ﷺ في التعامل مع قومه (١٠٦ – ١٠٨)
المطلب الرابع : تعنت المشركين وعنادهم في قبول الحق (١٠٩ – ١١٧)
المطلب الخامس : مخالفة أهل الجاهلية في بعض العادات الذميمة (١١٨ – ١٢١)
المطلب السادس : مظاهر الصدود والإعراض وأسباب ذلك (١٢٢ – ١٣٠)
المطلب السابع : سنة الله تعالى في الإبقاء على الأمم أو إهلاكها (١٣١ – ١٣٥)
المبحث الرابع : نعم الله تعالى على المشركين وموقفهم منها ويشتمل على أربعة مطالب (١٣٦ – ١٥٠) :
المطلب الأول : شريعة الجاهلية في الزروع والثمار والأنعام وقتل الأولاد (١٣٦ - ١٤٠)
المطلب الثاني : بعض فضائل الله على عباده في الحرث والانعام (١٤١ – ١٤٤)
المطلب الثالث : المطعوم المحرّم على المسلمين والمحرّم على اليهود (١٤٥ - ١٤٧)
المطلب الرابع : نسبة المشركين الشرك والتحريم إلى الله تعالى وإقامة الحجة عليهم (١٤٨ - ١٥٠)

المبحث الخامس : الاعتصام بالله تعالى والوسائل المعينة على ذلك والجزاء المترتب عليه ويشتمل على خمسة مطالب ، تشتمل على الآيات (١٥١ – ١٦٥) :

المطلب الأول : الوصايا العشر والواجب تجاهها (١٥١ – ١٥٣)

المطلب الثاني : الحديث عن القرآن وتهديد المكذبين به (١٥٤ – ١٥٨)

المطلب الثالث:ذم الاختلاف في الدين والتفرق،والجزاء المترتب على الاتفاق والافتراق(١٥٩ –١٦٠)

المطلب الرابع : اتباع ملة إبراهيم – عليه السلام – في التوحيد والعبادة والإخلاص (١٦١ – ١٦٤)

المطلب الخامس : الاستخلاف في الأرض (١٦٥)

الفصل الثاني : مناسبات السورة الكريمة، ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: مناسبة اسم السورة لموضوعاتها.

المبحث الثاني: مناسبة فاتحة السورة لموضوعاتها.

المبحث الثالث : مناسبة خاتمة السورة لفاتحتها .

المبحث الرابع : مناسبة خاتمة السورة لموضوعاتها .

المبحث الخامس : مناسبة موضوعات السورة لمقاصد السورة .

الخاتمة: وتشتمل على نتائج الدراسة الكلية.

ثم الفهارس العلمية .

هذا والله تعالى أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الأول:
التناسق الموضوعي
مقدمات تعريفية

التمهيد

التعريف بالتناسق الموضوعي في السورة لغة واصطلاحاً .

مصطلح التناسق الموضوعي مركب وصفي من كلمتين ، الكلمة الأولى هي التناسق ، والكلمة الثانية هي الموضوعي ، ولابد من تعريف كلا الكلمتين حتى يتضح المراد.

أولاً : التعريف بكلمة التناسق لغة واصطلاحاً :

المطلب الأول تعريف التناسق لغة :

النَّسَقُ من كل شيء: ما كان على نظام واحد عام في الأشياء. ونَسَقته نسقاً ونسقته تنسيقاً، ونقول: انتَسَقَتْ هذه الأشياء بعضها إلى بعض أي تنسقت[(١)]، وزاد ابن دريد : وكل شَيْء اتّبع بعضُه بَعْضًا فَهُوَ نَسَقٌ لَهُ[(٢)].

وحرُوفُ العطفِ يسمِّيها النحويونَ حرُوفَ النسَق لِأَن الشَّيْء إِذا عطَفْتَه على شَيْء صارَ نظاماً وَاحِدًا ، وسمعتُ غير واحدٍ من العربِ، يقولُ لطَوارِ الجبَل إذا امتدَّ مُسْتوياً كالجدار نَسَقٌ، وَلِذَلِك قيل لِلْكَلَام الَّذِي سُجِعَتْ فواصِله، لَهُ نسق حَسَنٌ. وَقَالَ ابْن الْأَعرَابِي: أنْسق الرجُل إِذا تكلمَ سَجْعاً [(٣)].

وثغرٌ نَسَقٌ، إذا كانت الأسنان مستويةٌ. وخرزٌ نَسَقٌ: منظَّمٌ. قال أبو زُبَيد[(٤)]:

بجيدِ رِئْمٍ كَريمٍ زانَه نَسَقٌ يكاد يُلْهِبُهُ الياقوتُ إلْهابا[(٥)].

ومن المجاز: كلام متناسق، وقد تناسق كلامه، وجاء على نسقٍ ونظامٍ[(٦)].*

---

(١) – العين (٥ / ٨١) ووافقه تهذيب اللغة (٨ / ٣١٣)

(٢) – جمهرة اللغة (٢ / ٨٥٣) وبنحوه قال الجوهري في الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٤ / ١٥٥٨)

(٣) – تهذيب اللغة (٨ / ٣١٣ – ٣١٤)

(٤) – أبو زبيد هو حرملة بن المنذر بن معد يكرب بن حنظلة يتصل نسبة بيعرب بن قحطان، شاعر جاهلي من قبيلة طيء في اليمن، هاجرت قبيلته إلى الحجاز واستولت على جبلي أجأ وسلمى فعُرفا بجبل طيء وكان جده (النعمان بن حيّة بن سعنة) قد ولي ملك الحيرة من قبل كسرى. وهو من المعمرين ويروى أنه عاش مائة وخمسين عاماً وأدرك الإسلام واسلم واستعمله عمر بن الخطاب على صدقات قومه بني طيء وفي بعض الروايات أنه بقي على النصرانية ولم يعتنق الإسلام بينما تقول روايات أخرى أنه أسلم على يد صديقه الحميم الوليد بن عقبة بن أبي معيط. انظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٢٩٢)

(٥) – الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٤ / ١٥٥٨) وبنحوه قال ابن فارس في مجمل اللغة (ص: ٨٦٥) ، المغرب في ترتيب المعرب (ص: ٤٦٣) مختار الصحاح (ص: ٣٠٩) ولم يذكرا البيت الشعري .

(٦) – أساس البلاغة (٢ / ٢٦٦) .

* – ولقد ذكرت هذه المعاني مجتمعة أو بنحوها في كل من لسان العرب (١٠ / ٣٥٢ - ٣٥٣) ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (٢ / ٦٠٣) ، القاموس المحيط (ص: ٩٢٥) ، تاج العروس (٢٦ / ٤١٨ – ٤٢٠) ، المعجم الوسيط (٢ / ٩١٨)

وفِي حَدِيثِ عُمَرَ – رضي الله عنه – : (نَاسِقُوا بَيْنَ الحجِّ والعُمرة) أَيْ تابِعوا يقال: نسقت بين الشيئين، وناسقت [1]

من خلال سرد أقوال أهل اللغة في معنى التناسق يظهر أن جميعها تدور حول معنى واحد وهو الترابط والتتابع بانتظام بحيث يظهر الشيء وكأنه كيان واحد متماسك .

المطلب الثاني : تعريف التناسق إصطلاحاً:

من خلال بحثي عن تعريف التناسق بوجه عام في الاصطلاح لم أقف على من عرَّفه من العلماء لذلك سأعرفه بناء على التعريف اللغوي فأقول :

بناءُ الكلام بناءً محكم الألفاظ مترابط المعاني ملتحم الأجزاء ، يظهر في صورة واحدة حسنة ، دون خلل أو تنافر أو تفكك .

[1] – غريب الحديث لابن الجوزي (٢ / ٤٠٥) ، النهاية في غريب الحديث والأثر (٥ / ٤٨) .

ثانياً : التعريف بكلمة الموضوعي لغة واصطلاحاً :

المطلب الأول : التعريف بكلمة الموضوعي لغة :

الموضوع لغة :

لكلمة وضع الكثير من المعاني الواردة في معاجم اللغة لكن ننقل منها ما يتعلق بمعنى الموضوع المراد في دراستنا هذه فنقول (وَضَعَ) الْوَاوُ وَالضَّادُ وَالْعَيْنُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الْخَفْضِ لِلشَّيْءِ وَحَطِّهِ. وَوَضَعْتُهُ بِالْأَرْضِ وَضْعًا[(١)]، ووضَعَ الشَّيْءِ فِي الْمَكَان: أَثْبته بِهِ ، وناقة واضِعٌ وواضعَةٌ: ترعى الحمض حول الماء، وَقد وَضَعَتْ تَضَعُ وَضِيعَةً ، ووَضَعَها: ألزمها المرعى[(٢)]، ووضع الخائط القطن على الثوب والباني الحجر توضيعاً : نضد بعضه على بعض ، وهؤلاء أصحاب الوضيعة أي أصحاب حمض مقيمون فيه لا يخرجون منه [(٣)].

والموضع بالكسر والفتح لغة مكان الوضع ، ووضعت الشيء بين يديه وضعا تركته هناك [(٤)]، والوَضِيعَةُ: كِتَابٌ تُكْتَبُ فيهِ الحِكْمَةُ ، والتَّوْضِيعُ: رَثْدُ النَّعامِ بَيْضَها، ونَضْدُهَا لَهُ أَي: وَضْعُ بَعْضِهِ فَوْقَ بَعْضٍ، وهُوَ بَيْضٌ مُوَضَّعٌ: مُنَضَّدٌ ،والمُوَاضَعَةُ: الموافَقَةُ فِي الْأَمر[(٥)] .

ولكي نربط بين المعاني المذكورة آنفاً وبين لفظ الموضوعي المراد في دراستنا هذه نقول : إن الموضوع يلتزم أمراً واحداً يدور حوله الحديث ، والمتحدث يثبت فيه كل ما يتعلق به ، والموضوع يتحدث ويدور حول أمر معين لا يخرج عنه ، والكاتب لموضوع معين يبني فقرات موضوعه على أمور معينة بعضها ينبني على بعض وكأنها منضدة بعضها على بعض وفق ترتيب معين يتفق عليها العلماء المتحدثون عن ذلك الموضوع وكل موضوع له حكمة معينة يتحدث عنها – والله أعلم – .

المطلب الثاني : التعريف بكلمة الموضوعي اصطلاحاً :

الْمَوْضُوع : الْمَادَّة الَّتِي يبْنى عَلَيْهَا الْمُتَكَلّم أَو الْكَاتِب كَلَامه[(٦)].أو هو محل العرض المختص به، وموضوع كل علم: ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية[(٧)]، والموضوع بوجه عام هو المادة التي يبني عليها المتكلم أو الكاتب كلامه ، تقول : موضوع البحث أي مادته[(٨)].

---

(١) – مقاييس اللغة (٦ / ١١٧)

(٢) – المحكم والمحيط الأعظم (٢ / ٢٩٦ – ٢٩٧) ، لسان العرب (٨ / ٣٩٩) تاج العروس (٢٢ / ٣٣٥) ، المعجم الوسيط (٢ / ١٠٣٩)

(٣) – الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٣ / ١٣٠٠)، لسان العرب (٨ / ٣٩٩– ٤٠١) ، تاج العروس (٢٢ / ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٦) ، المعجم الوسيط (٢ / ١٠٣٩)

(٤) – المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (٢ / ٦٦٢) تاج العروس (٢٢ / ٣٣٥) .

(٥) – تاج العروس (٢٢ / ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣) .

–(٦) المعجم الوسيط (٢ / ١٠٣٩)

(٧) – انظر : التعريفات (ص: ٢٣٦) ، التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٣١٩)

(٨) – المعجم الفلسفي لجميل صليبا : (٢ / ٤٤٦)

ثالثاً : تعريف السورة لغة واصطلاحاً :

المطلب الأول : تعريف السورة لغة :

السِّينُ وَالْوَاوُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ[1] ، والسُّورُ: حائطُ المدينة، ونحوه [2] وسورة القرآن تشبيها به لكونها محيطة بالآيات إحاطة السور بالمدينة .[3]

وأَمَّا سُورة – بالهمز وبتركه – فبغير الهمز من سَوْرة الأَسد، وسَورة الشراب، بمعنى القُوة؛ لأَنَّ قوَّة السُّورة أَكثر من قوّة الآية؛ أَو من السُّور بمعنى الجماعة: يقال. لفلان سُور من الإِبل أَى جماعة؛ لأَنَّ السُّورة مشتمِلة على جماعة الآيات[4].

والسُّؤْر، مَهْمُوز، وَالْجمع أسْآر: مَا أبقيتَ فِي الْإِنَاء. يُقَال: أسأَرْتُ سُؤْراً وسُؤْرَةً: إِذا أبقيْتَها وأفضلتها، والسائر الْبَاقِي؛ وَكَأَنَّهُ من سَئِر يَسْأَر فَهُوَ سَائِر، أَي: فَضَلَ.وزعم قوم أَن السّورة من الْقُرْآن من هَذَا إِذا هُمزت، كَأَنَّهَا أُسئرت، أَي بُقّيت من شَيْء[5].

والسؤرةُ من المِال: خِيَاره، وَجمعه سُؤَر. وَالسورَة من الْقُرْآن يجوز أَن تكون من سؤرة المِال تُرك همزه لما كثر فِي الْكَلَام [6].

وتسوّرته: إِذا عَلَوْتَهُ. وَأما السُّورة من الْقُرْآن مُشْتَقّة من سُورَة البِناء ، وَكل منزلَة رفيعة فَهِيَ سُورَة، مأخوذةٌ من سُورَة البِناء ، والسورة من البناء: ما حسن وطال[7].

والسُّورة من سُوَر الْقُرْآن قِطعةٌ من الْقُرْآن سَبَق وُحْدانُها جَمْعَهَا كَمَا أنّ الغُرْفة سَابق للغُرَف. وأنزلَ الله جلّ وعزّ القرآنَ على نبيّه صلى الله عَلَيْهِ وَسلم شَيْئا بعد شَيْء، وجعَلَه مفصَّلاً، وبيَّن كلَّ سُورة مِنْهَا بخاتِمتِها وبادِئتِها، وميّزها من الّتي تَلِيهَا ، فدل على أنه لم يجعلها من سور البناء لأنها لو كانت من سور البناء لقال: فأتوا بعشر سور مثله، ولم يقل: بعشر سور، والقراء مجتمعون على سور، وكذلك اجتمعوا على قراءة سور في قوله: فضرب بينهم بسور، ولم يقرأ أحد: بسور، فدل ذلك على تميز سورة من سور القرآن عن سورة

---

(1) – مقاييس اللغة (٣ / ١١٥)

(2) – العين (٧ / ٢٨٩) ، المحكم والمحيط الأعظم (٨ / ٦٠٧) ، مختار الصحاح (ص: ١٥٧) ، لسان العرب (٤ / ٣٨٥) ، القاموس المحيط (ص: ٤١١) ، تاج العروس (١٢ / ١٠١) .

(3) – التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ١٩٩) ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١ / ٨٤) .

(4) – بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١ / ٨٤) .

(5) – انظر : جمهرة اللغة (٢ / ٧٢٣) ، تهذيب اللغة (١٣ / ٣٤) ، الكليات (ص: ٤٩٣) .

(6) – تهذيب اللغة (١٣ / ٣٥ – ٣٧) ، لسان العرب (٤ / ٣٤٠ ، ٣٨٦) ، تاج العروس (١٢ / ١٠٢) .

(7) – تهذيب اللغة (١٣ / ٣٥) ، مجمل اللغة لابن فارس (ص: ٤٧٨) ، مقاييس اللغة (٣ / ١١٥) ، مختار الصحاح (ص: ١٥٧) ، لسان العرب (٤ / ٣٨٦) ، تاج العروس (١٢ / ١٠٢) .

من سور البناء [١]، كما أن سور البناء: يجمع على (سور) بكسر الواو، وسورة القرآن تجمع على (سور) بفتح الواو[٢] .

وَكَأنه جعلت السُّورة من سُور الْقُرْآن من أَسْأَرْتُ سُؤْراً: أَي أَفضَلْتُ فَضْلاً؛ إلاّ أَنَّهَا لما كَثُرتْ فِي الْكَلَام وَفِي كتاب الله تُرك فِيهَا الْهَمْز كَمَا تُرِك فِي الملَك وأَصلُه مَلأَك، وَفِي النّبيّ وأصلُه الْهَمْز[٣].

وقيل : السُّورة: الرِّفْعة: وَبِهَا سُمِّيتْ السُّورة من الْقُرْآن أَي: رِفْعة وخَيْر، والسُّورة من الْقُرْآن: مَعْنَاهَا: الرِّفعة لإجلال الْقُرْآن [٤]. فكل سورة من القرآن بمنزلة درجة رفيعة ومنزل عال يرتفع القارئ منها إلى درجة أخرى ومنزل آخر إلى أن يستكمل القرآن[٥] .

المطلب الثاني : تعريف السورة اصطلاحاً :

السورة : قرآن يشتمل على آي ذوات فاتحة وخاتمة وأقلها ثلاث آيات [٦]

أو هي طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع [٧]

وقيل : هي الطائفة من القرآن المترجمة أي المسماة باسم خاص بتوقيف من النبى ﷺ التي أقلها ثلاث آيات[٨] .

وقيل : السورة هي الطائفة من القرآن المسورة بسور خاص؛ أوله بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وآخره تأتي بعده سورة أخرى تبدأ بقوله الحق: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ [٩].

---

[١] – لسان العرب (٤ / ٣٨٧) ، تاج العروس (١٢ / ١٠٢) .

[٢] – الكليات (ص: ٤٩٤) .

[٣] – تهذيب اللغة (١٣ / ٣٥ – ٣٧) ، لسان العرب (٤ / ٣٤٠ ، ٣٨٧)

[٤] – تهذيب اللغة (١٣ / ٣٧) ، مقاييس اللغة (٣ / ١١٥) ، لسان العرب (٤ / ٣٨٧) . تاج العروس (١٢ / ١٠٢) .

[٥] – الكليات (ص: ٤٩٤)

[٦] – البرهان في علوم القرآن (١ / ٢٦٤) ، الإتقان في علوم القرآن (١ / ١٨٦) .

[٧] – مناهل العرفان في علوم القرآن (١ / ٣٥٠)

[٨] – انظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري (١ / ٩٧) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (١ / ٦٤) الإتقان في علوم القرآن (١ / ١٨٦) معترك الأقران في إعجاز القرآن (٢ / ٢٧٦) ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (١ / ٦٤) ، فتح القدير للشوكاني (١ / ٦٢) التفسير الوسيط لطنطاوي (١ / ٧٦) الموسوعة القرآنية (٢ / ٥٨) .

[٩] – تفسير الشعراوي (٩ / ٥٥٨٨)

رابعاً : التعريف بالتناسق الموضوعي في السورة كعلم .

إن مصطلح التناسق الموضوعي مصطلح حديث لم يضع له العلماء القدماء مصطلحاً علمياً له ؛ سواء كانوا علماء في التفسير أو علوم القرآن لكن من خلال بحثي عمن كتب في النسق والتناسق في القرآن الكريم وقفت على عدة تعريفات منها ما يلي :

١. هو تناسق أوضاع السورة، وائتلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحجز بعض، حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها [١].

٢. هو المعنى الذي يربط بين موضوعات السورة وبين علل ترتيبها؛ لإبراز التلاؤم والانسجام والنظام والتتابع بين الموضوعات [٢].

٣. هو تماسك بناء السورة القرآنية واتساق معانيها المتشعبة التي تتضمنها ضمن غرض محوري واحد دون تنافر أو تفكك[٣] .

لذا يمكن أن نقول : التناسق الموضوعي هو اتساق وانتظام موضوعات السورة الواحدة بوجه يظهر تتابعها وتسلسلها ، وذلك عن طريق الوقوف على أوجه التلاحم والترابط بينها، وبيان مدى ارتباطها بمقاصد السورة – والله أعلم – .

---

[١] – النبأ العظيم (ص: ١٧٦) .

[٢] – التناسق الموضوعي في السورة القرآنية ، ص : ١١ .

[٣] – وحدة النسق في السورة القرآنية ، مجلة معهد الإمام الشاطبي ، ص : ١٣٨ .

خامساً : فوائد التناسق الموضوعي في السورة القرآنية :

نهج القرآن الكريم منهجا فريداً في عرضه للقضايا التي عرض لها ، خالف به سائر المناهج السابقة واللاحقة، التي اصطلحت في مناهجها أن تبنى على مقدمات ، ومباحث متسلسلة ، أو أبواب وفصول ، إلى غير ذلك من تقسيمات ، في إطار مقاصد محدودة ، ونتائج مرسومة .

فتراه يذكر طرفاً من الشيء ، ثم يتركه ، ثم يعود إلى إتمامه ، بطريقة لا تسأم النفوس هديه ، ولا تستثقل حديثه ، مراعياً في تسلسل نصوصه أن يقارب بين أفرادها ، فتجد الآية متسقة في كلماتها ، متآزرة مع أخواتها من الآي ، وتلتقي السورة بالتي بعدها ، والتي قبلها ، برابط لا يجعل منها جنساً غريباً عنها ، بل تبدو فيه كعقد نظمت حباته ، ورتبت أبدع ترتيب ، فكان بذلك معجزاً بنظمه ، بديعا في اتساقه ، متناسبا في آياته ، وسوره ، وأجزائه .

ومن العسير جداً أن نعدد مزايا التناسق الموضوعي للسورة القرآنية ، لكن يمكن الإشارة إلى بعضها وهي كالتالي :

١. التأمل في التناسق يرشد إلى فحوى الكلام وملابساته ، ومن يغفل عن التناسق فإنه يتعذر عليه العثور على ما ترمي إليه الآيات داخل السورة الواحدة .

٢. معرفة التناسق داخل السورة هو الدليل إلى صحيح التأويل إذا اشتبهت الوجوه ، وكثرت الاحتمالات .

٣. التناسق الموضوعي مفتاح لكثير من كنوز القرآن الكريم وحكمه ، وسر من أسرار إعجازه ، وهو الذي جعل من القرآن الكريم بحراً لا يسبر غوره ، ولا تنفد كنوزه .

٤. التناسق الموضوعي يجلي الأمور في أكمل صورها ، ويكشف عن قدرها وأهميتها ، وإن لم ندرك هذا التناسق فإننا لن ندرك الكثير من الأمور ، ونظل غافلين عن قدرها وأهميتها .

٥. التناسق يشخص موضوعات الآيات المتكررة ، ويحدد مراميها ، وبدونه لايكاد يُفَرَّق بين موطن وآخر .

٦. الوقوف على التناسق داخل السورة يمكن من فهم أسباب النزول ، وإلا فإن القارئ سيتحير في فهمها ، وسيضعها في غير موضعها ، ومن ثم يتحير في تأويل الآيات وتفسيرها ، بل هو المحك الناجح لنقد الروايات التفسيرية ، فيتميز الصحيح من الضعيف منها .

٧. التأمل في التناسق داخل السورة تفتح على القاريء ما تقر به عينه ، ويستنير به قلبه ، ويورثه برد اليقين ، الذ لا يتزلزل ولا يتزعزع ، ويسمو به إلى ذرة الشوق والمحبة واللذة التي لا يصل

إليها أبداً من لا يهتم بتأمل التناسق ؛ لأن هذه المشاعر وتلك الأحاسيس تزداد بزيادة المعرفة بمحاسن الكلام ، وحسن التناسق وجماله[1].

[1] - إمعان النظر في نظام الآي والسور لسبحاني ، ص : (١٠٥) بتصرف .

الفصل الأول:
اسم السورة وفضلها
وعدد آياتها وتاريخ نزولها

المبحث الأول: اسم السورة الكريمة وما اشتهر لها من أسماء.

إن القارئ لكتاب الله تعالى يرى أن لكل سورة من سور القرآن الكريم اسم يميزها عن غيرها، وقد يكون للسورة اسم واحد وهو كثير في القرآن مثل سورة النساء والأعراف والفرقان وغيرهم ، وقد يكون للسورة اسمان مثل سورة فاطر لها اسم آخر وهو الملائكة ، وكذلك سورة النحل لها اسم آخر وهو النعم ، وقد يكون للسورة الواحدة أكثر من اسمين مثل سورة الإسراء تسمى كذلك بني إسرائيل وسبحان ، وسورة المائدة تسمى بالعقود والمنقذة وغير ذلك .

وقد كانت سورة الأنعام من السور التي لها اسم واحد توقيفي من النبي ﷺ ألا وهو سورة الأنعام وهذا الاسم وجمهور العلماء من أهل القرآن ذهبوا إلى ذلك ، يقول الإمام السيوطي : "وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار"[١]، وهو اسمها المشهور تسميتها به في المصاحف وكتب التفسير والسنة[٢].

قال ابن عاشور[٣] : "ليس لهذه السورة إلا هذا الاسم من عهد رسول الله ﷺ "[٤].

ومن الأحاديث التي تدل على هذا الاسم ما يلي :

١. عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (نزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة وشيعها سبعون ألفا من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد)[٥]

---

(١) – الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : (١ / ١٨٦) .

(٢) – انظر : أسماء سور القرآن للشايع (ص : ٦٠)

(٣) – محمد الطاهر بن عاشور ، رئيس المفتين المالكيين بتونس ، وأحد كبار علمائها ، مفسر ، لغوي ، أديب نحوي ، من دعاة الإصلاح الاجتماعي ، ولد سنة ١٢٩٦ هـ ونشأ وتعلم بتونس ، له أبحاث ودراسات ومقالات كثيرة نشرت في كبريات المجلات بتونس ومصر ، من آثاره " التحرير والتنوير لابن عاشور " توفي سنة ١٣٩٣ هـ ، انظر : معجم المفسرين لعادل نويهض : (٢ / ٥٤١)

(٤) – التحرير والتنوير لابن عاشور (٧ / ١٢١) .

(٥) – أخرجه الطبراني في المعجم الصغير : (١ / ١٤٥) برقم : (٢٢٠) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٧ / ٢٠) : رواه الطبراني في الصغير، وفيه يوسف بن عطية الصفار وهو ضعيف . وذكره الدارقطني في الضعفاء و المتروكين : (٣ / ١٣٧) برقم : (٥٩٩) ، وجاء في الضعفاء والمتروكون لابن الجوزي : (٣ / ٢٢١) : "يوسف بن عطية أبو سهل الصفار الباهلي البصري السعدي يروي عن قتادة وثابت ، قال يحيى : ليس بشيء ، وقال السعدي : لا يحمد حديثه ، وقال النسائي : متروك الحديث ، وقال عمرو بن علي كثير الوهم والخطأ وما كلمته كان يكذب ، وقال أبو حاتم الرازي وأبو زرعة والدارقطني : ضعيف الحديث ، وقال ابن حبان: يقلب الأخبار ويلزق المتون الموضوعة بالأسانيد الصحيحة لا يجوز الاحتجاج به" اهـ .

وذكر هذه الرواية كل من : ابن كثير في تفسيره (٣ / ٢٣٨) ، والسيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٣ / ٢٤٣) ، والشوكاني في فتح القدير (٢ / ١١١).

٢. وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (نزلت سورة الأنعام ومعها موكب من الملائكة يسد ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح والتقديس ترتج) ، ورسول الله ﷺ يقول: (سبحان الله العظيم سبحان الله العظيم) [١] .

كذلك وردت عدة آثار عن الصحابة – رضي الله عنهم – تدل على هذا الاسم منها ما يلي :

١. عن جابر ﷺ قال: لما نزلت سورة الأنعام، سبح رسول الله ﷺ ثم قال : (لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق)[٢] .

٢. عن ابن مسعود ﷺ قال: نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفا من الملائكة [٣].

٣. عن ابن عباس ﷺ قال : نزلت سورة الأنعام وحولها سبعون ألف ملك لهم زجل يجأرون بالتسبيح[٤] .

[١] – أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط : (٦ / ٢٩٢) برقم (٦٤٤٧) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٧ / ٢٠) : رواه الطبراني عن شيخه محمد بن عبد الله بن عرس عن أحمد بن محمد بن أبي بكر السالمي، ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات .

وذكر هذه الرواية كل من : ابن كثير في تفسيره (٣ / ٢٣٨) ، والسيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٣ / ٢٤٣) ، والشوكاني فتح القدير (١١١/٢) والبيهقي في السنن الصغير (١ / ٣٤١) وفي شعب الإيمان (٤ / ٧٩) والمستغفري في فضائل القرآن : (٢ / ٥٤٤) .

[٢] – أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٢ / ٣٤٤) برقم : (٣٢٢٦) وقال : "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، فإن إسماعيل هذا هو السدي، ولم يخرجه البخاري " علق عليه الذهبي في التلخيص قائلاً : " لا والله لم يدرك جعفر السدي وأظن هذا موضوعا " قال الدكتور إبراهيم علي السيد في كتابه الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن : (ص : ٢٣٤) " وأما شبهة كونه موضوعاً فبعيدة ، فرواة إسناده أئمة يبعد عنهم الوضع ، ولم يذكره أحد في كتب الموضوعات " اهـ .

وعزاه إلى الحاكم كل من : ابن كثير في تفسيره (٣ / ٢٣٨) ، والسيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور : (٣ / ٢٤٤) الإتقان في علوم القرآن (١ / ١٣٨) ، والشوكاني في فتح القدير (٢ / ١١١) ، والألوسي في روح المعاني (٤ / ٧٢) ، والبيهقي في شعب الإيمان : (٤ / ٧٨) برقم : (٢٢٠٨)

[٣] – ذكره السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٣ / ٢٤٣) ، والشوكاني في فتح القدير (٢ / ١١١) وكلاهما عزاه لابن مردويه .

[٤] – أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص : ٢٤٠) القاسم بن سلام في فضائل القرآن (ص: ٢٤٠) ، ابن الضريس في فضائل القرآن (ص: ٩٤)

ووردت هذه الرواية في كل من : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٢ / ٢٦٥) تفسير ابن كثير (٣ / ٢٣٧) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٣ / ٢٤٣) الإتقان في علوم القرآن كلاهما للسيوطي (١ / ٨٣) جمال القراء وكمال الإقراء (ص: ١٢٦) جاء في حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي (٤ / ١٤٤) : " قال ابن حجر رحمه الله: هذا الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية، وفي رجاله ضعف، وقال غيره: إنه موضوع وسئل عنه النوويّ رحمه الله تعالى فقال أنه لم يثبت " وبعد دراسة إسناده تبين أن فيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف. انظر: الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي : (٥/ ١٩٦) ، المجروحين لابن حبان :(٢/ ١٠٤) ،المغني في الضعفاء للذهبي : (٢/ ٤٤٧).

٤. عن أسماء بنت يزيد[١] – رضي الله عنها – قالت : نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ جملة واحدة وأنا آخذة بزمام ناقة النبي ﷺ إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة[٢]

ووردت عدة روايات في عداد المراسيل التي تذكر هذا الاسم[٣].

ومعنى الأنعام : واحد (النعم) وهي المال الراعية وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل[٤]، وقيل : الأنعام ذوات الخف والظلف وهي الإبل والبقر والغنم وقيل تطلق الأنعام على هذه الثلاثة فإذا انفردت الإبل فهي نعم وإن انفردت البقر والغنم لم تسم نعماً[٥] ، وَقَالَ ابْن الْأَعرَابِي: النَّعَمُ: الْإِبِل خَاصَّة. والأنعام الْإِبِل وَالْبَقر وَالْغنم[٦]، وقيل : العرب إذا أفردت النعم لم يريدوا به إلا الإبل [٧] وقيل النَّعَمُ: الإبلُ إذا كثرت[٨]

سبب التسمية :

من الملاحظ في سور القرآن أن تسمية السورة لها دلالة واضحة على السورة وارتباط وثيق بمضمونها وهو مترجم عن مقصودها .

والمتأمل لسورة الأنعام يجد أن لفظ الأنعام تكرر فيها ست مرات تفصيلاً لأحوالها وأحكامها، وهذا التفصيل لم يرد في غيرها من السور فقد ورد ذكر الأنعام في عدة مواضع من القرآن ولكن دون تفصيل ، أما سورة الأنعام فقد فصلت القول في هذه الأنعام في خمس عشرة آية حيث تبدأ من قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ

---

[١] – أسماء بنت يَزِيد بْن السكن الأنصارية،أحد نساء بني عبد الأشهل، هي من المبايعات ،وهي ابنه عمة معاذ بْن جبل، تكنى أم سلمة، وقيل أم عامر، مدنية ،كانت من ذوات العقل والدين ، قتلت يوم اليرموك تسعة من الروم بعمود فسطاطها. انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٤/ ١٧٨٧) أسد الغابة (٧/ ١٦)

[٢] – أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : (٢٤ / ١٧٨) برقم : (٤٤٩)

وذكر هذه الرواية كل من : ابن كثير في تفسيره : (٣ / ٢٣٧) والسيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور : (٣ / ٢٤٣) وعزاه أيضاً لابن مردويه .

وبعد دراسة إسناده تبين لي – والله أعلم – أنه ضعيف لوجود ليث بن أبي سليم فيه وهو ضعيف انظر : الضعفاء والمتروكين للنسائي : (ص : ٩٠) ، الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي : (٦ / ٨٧) ، المجروحين لابن حبان : (٢ / ٢٣١)

[٣] – من هذه المراسيل ما رواه مجاهد ، انظر : الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي : (٣ / ٢٤٤) ، وما رواه محمد بن المنكدر ، انظر : مفاتيح الغيب الرازي : (١٢ / ٤٧١) ، تفسير ابن كثير: (٣ / ٢٣٨) ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي : (٣ / ٢٤٤) ، شعب الإيمان للبيهقي : (٤ / ٧٨) ، وما رواه شهر بن حوشب انظر : مسند إسحاق بن راهويه : (٥ / ١٧٥) برقم : (٢٢٩٨) ، ونقله السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٣ / ٢٤٥) ، وما رواه مَعْمَرٍ ، انظر : تفسير عبد الرزاق الصنعاني (٢ / ٤٠) ، وما رواه عطاء الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٣ / ٢٤٥) .

[٤] – مختار الصحاح (ص: ٣١٤) ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (٢ / ٦١٣)

[٥] – المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (٢ / ٦١٣)

[٦] – المحكم والمحيط الأعظم (٢ / ١٩٨) ، مشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢ / ١٧) .

[٧] – المغرب في ترتيب المعرب (ص: ٤٧٠) .

[٨] – العين (٢ / ١٦٢)

﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾[١٣٦] إلى قوله تعالى : ﴿قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ...﴾ [١٥٠][1]

ومن المعلوم أن الأنعام عند العرب تمثل الدور الرئيسي في اقتصاد المجتمع القبلي الصحراوي وهي ثروة في ذاتها ، وعماد الحياة الصحراوي في كثير من الأمور منها التنقل والإقامة والاقتيات والوقاية من الحر والبرد ،كذلك تلعب دوراً مهماً في المعاملات المالية والتجارية ، ولقد كان للعرب عادات معينة فيها وهذه العادات ما أنزل الله بها من سلطان وإنما نبعت من جاهليتهم[2].

أسماء السورة الاجتهادية :

١. سورة الحجة

ذكر الفيروز أبادي في البصائر أن هذه السورة تسمى أيضاً سورة الحُجّة؛ وذكر سبب تسميتها بهذا الإسم حيث قال : لأنَّها مقصورة على ذكر حُجّة النبوّة. وأَيضاً تكرّرت فيه الحجّة ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام: ١٤٩] .[3]

ولم أقف على حديث نبوي أو أثر عن الصحابة يدل على هذه التسمية – والله أعلم –.

٢. السورة المرضية

جاء في كتاب الفوائد الجميلة :"وأما السورة التي تسمى عند الملائكة المرضية فهي : سورة الأنعام ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : (سورة الأنعام تدعى في ملكوت الله المرضية)"[4]

---

[1] – بتصرف من أسماء سور القرآن للشايع (ص : ٦٠) ، أسماء سور القرآن وفضائلها لمنيرة الدوسري (ص : ١٨٩ – ١٩٠)

[2] – بتصرف من تفسير سورة الأنعام لمحمد البهي (ص : ٥ – ٦)

[3] – بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١ / ١٨٧) .

[4] – الفوائد الجميلة للشوشاوي (ص : ٣٨٩) قال المحقق في الهامش : رواه عبد الملك بن حبيب في كتاب روضة الفوائد وهو كتاب مفقود كما أكد الأستاذ محمد عبد العزيز الحمادي في تحقيقه للجزء الأول من كتاب فضائل القرآن للغافقي : (ص : ٢٧٨) وكذلك الدكتور عبد الرحمن بن معاضة الشهري في ملتقى أهل التفسير في رده على سؤال : ما أفضل كتاب في فضائل القرآن يعتمد على الأحاديث الصحيحة ؟ و بعد البحث والتقصي والتتبع في مظان الروايات لم أقف على هذه الرواية فيما تحت يدي من المصادر .

وعن علي ﷺ قال : سورة الأنعام تدعى في التوراة المرضية ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من قرأها لم يزل في رضى الله)[1] .

[1] – بعد البحث والتقصي والتتبع في مظان الروايات لم أقف على هذه الرواية فيما تحت يدي من المصادر ، ولقد ذكرت هذه الرواية في كتاب لمحات الأنوار للغافقي : (٢ / ٧٤٢) .

المبحث الثاني: ما ورد في فضل السورة أو بعض آياتها من أحاديث.

وردت عدة فضائل لهذه السورة الكريمة – سورة الأنعام – تدل عليها أحاديث في السنة النبوية المطهرة من هذه الفضائل :

١. أن هذه السورة نزلت جملة واحدة شيعها سبعون ألف ملك فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (نزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة وشيعها سبعون ألفا من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد)[١] وغيرها من الروايات التي تقدم ذكرها في اسم السورة .

قال الأصوليون: هذه السورة اختصت بنوعين من الفضيلة.

أحدهما: أنها نزلت دفعة واحدة ، والثاني: أنها شيعها سبعون ألفا من الملائكة .

والسبب فيه أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد ، وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين، وذلك يدل على أن علم الأصول في غاية الجلالة والرفعة، وأيضاً فإنزال ما يدل على الأحكام قد تكون المصلحة أن ينزله الله تعالى قدر حاجتهم، وبحسب الحوادث والنوازل. وأما ما يدل على علم الأصول فقد أنزله الله تعالى جملة واحدة [٢].

٢. أن هذه السورة من السبع الطوال والتي قال عنها النبي ﷺ فيما روته عنه السيدة عائشة – رضي الله عنها – : (من أخذ السبع الأول فهو حبر)[٣].

---

[١] – تقدم تخريجه في المبحث الذي تحدث عن اسم السورة .

وذكر هذه الرواية كل من : ابن كثير في تفسيره (٣ / ٢٣٨) ، والسيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٣ / ٢٤٣) ، والشوكاني في فتح القدير (٢ / ١١١).

[٢] – مفاتيح الغيب للرازي : (١٢ / ٤٧١)

[٣] – أخرجه الإمام أحمد في مسنده : (٤٠ / ٥٠١) برقم : (٢٤٤٤٣) وعلق عليه شعيب الأرنؤوط بقوله : حديث حسن ، وأخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين : (١ / ٧٥٢) برقم : (٢٠٧٠) وقال : "هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي في التلخيص .

وكذا أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن : (ص : ٢٢٦) .وابن الضريس في فضائل القرآن : (ص : ٥٠) برقم : (٧٢) .

٣. وكذا قال عنها النبي ﷺ فيما رواه واثلة بن الأسقع[١] ﷺ : (أعطيت السبع الطول مكان التوراة، وأعطيت المئين مكان الإنجيل، وأعطيت المثاني مكان الزبور، وفضلت بالمفصل)[٢].

يقول الإمام الزركشي[٣]: " السبع الطول أولها البقرة وآخرها براءة لأنهم كانوا يعدون الأنفال وبراءة سورة واحدة ولذلك لم يفصلوا بينهما لأنهما نزلتا جميعا في مغازي رسول الله ﷺ وسميت طولاً لطولها ، وحكي عن سعيد بن جبير[٤] أنه عد السبع الطول البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس"[٥] اهـ

٤. أن هذه السورة من السبع المثاني فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: أوتي رسول الله ﷺ سبعاً من المثاني الطول، وأوتي موسى – عليه السلام – ستاً، فلما ألقى الألواح، رفعت ثنتان، وبقي أربع[٦] .

٥. أن هذه السورة من نواجب القرآن[٧] كما جاء في الأثر عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: (الأنعام من نواجب القرآن)[٨]

---

[١] – واثلة بْن الأسقع بْن عبد العزى بْن عبد ياليل الليثي ،أسلم والنبي ﷺ يتجهز إلى تبوك، وخدم النَّبِيّ ﷺ ثلاث سنين، وَكَانَ من أهل الصفة ، شهد المغازي بدمشق وحمص، ثم تحول إِلَى بيت المقدس، ومات بها، وَهُوَ ابْن مائة سنة. انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٤/ ١٥٦٣) أسد الغابة (٥/ ٣٩٩) الإصابة في تمييز الصحابة (٦/ ٤٦٢)

[٢] – أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده : (٢٨ / ١٨٨) وعلق عليه شعيب الأرنؤوط بقوله : إسناده حسن، وكذا أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ٢٢٥) ، وابن الضريس في فضائل القرآن (ص: ٧٥) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٤ / ٧٢) برقم : (٢١٩٢) .

[٣] – محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، أبو عبد الله، بدر الدين: عالم بفقه الشافعية والأصول ، تركي الأصل، مصري المولد والوفاة. له تصانيف كثيرة في عدة فنون، أشهرها البرهان في علوم القرآن والبحر المحيط في أصول الفقه و المنثور في القواعد الفقهية ، توفِّي فِي رَجَب سنة أَربع وَتِسْعين وَسَبْعمائة وَدفن بالقرافة الصُّغْرَى ، انظر : طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (٣/ ١٦٨) طبقات المفسرين للداوودي (٢/ ١٦٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٨/ ٥٧٢)

[٤] – سعيد بن جبير بن هشام مولى بنى والبة بن الحارث من بنى أسد كنيته أبو عبد الله ، الإِمَامُ، الحَافِظُ، المُقْرِئُ، المُفَسِّرُ، الشَّهِيْدُ، من عباد المكيين وفقهاء التابعين ، قتله الحجاج بن يوسف سنة خمس وتسعين صبرا وله تسع وأربعون سنة ، انظر : مشاهير علماء الأمصار (ص: ١٣٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٢١).

[٥] – البرهان في علوم القرآن (١ / ٢٤٤) ، وبنحوه قال السيوطي في الإتقان في علوم القرآن (١ / ٢٢٠) .

[٦] – أخرجه أبو داود في سننه ، باب من قال هي من الطول : (٢ / ٧٢) برقم : (١٤٥٩) والنسائي في سننه ، تَأْوِيلُ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} (٢ / ١٣٩) برقم : (٩١٥) قال عنه الألباني أنه صحيح .

[٧] – نواجب القرآن: أي من أفاضل سوره. النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٧) لسان العرب لابن منظور (١/ ٧٤٨)

[٨] – أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ٢٤٠) والمستغفري في فضائل القرآن (٢ / ٥٤٧) . الدارمي في سننه ، باب فضائل الأنعام والسور (٤ / ٢١٤١) برقم : (٣٤٤٤) .

وبعد دراسة إسناده تبين لي – والله أعلم – أنه ضعيف . رجاله ثقات إلا زهير بن معاوية في حديثه عن أبي اسحاق فيه لين جاء في ميزان الاعتدال للذهبي (٢ / ٨٦) : وقال أحمد: زهير ثبت فيما روى عن المشايخ بخ بخ، وفي حديثه عن ابن إسحاق لين، سمع منه بأخرة. وقال أبو

٦.	أن فاتحتها فاتحة التوراة حيث جاء عن كعب[١] : (فاتحة التوراة الأنعام، وخاتمتها هود)[٢]

ولقد وردت أحاديث لم تصح عن النبي ﷺ وذكرتها هنا مع الحكم عليها حتى يحذر القاريء منها وهي كما يلي :

١.	حديث : (أنزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد فمن قرأ سورة الأنعام صلى عليه أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من الأنعام يوما وليلة)[٣]

٢.	حديث : (من قرأ ثلاث آيات من أول سورة الأنعام حين يصبح وكل الله به سبعين ألف ملك يحفظونه، وكتب له مثل أعمالهم إلى يوم القيامة، ونزل ملك من السماء السابعة معه مرزبة من حديد كلما أراد الشيطان أن يلقي في قلبه شيئا من الشر ضربه بها، وجعل بينه وبين الشيطان سبعين ألف حجاب، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: ابن آدم، ابق تحت ظلي، وكل من ثمار جنتي، واشرب من ماء الكوثر، واغتسل من ماء السلسبيل، فأنت عبدي وأنا ربك،لا حساب عليك ولا عذاب)[٤].

زرعة: ثقة، إلا أنه سمع من أبي إسحاق بعد الاختلاط. وقال النسائي: ثقة ثبت. مات في رجب سنة ثلاث وسبعين ومائة. قال الذهبي : لين روايته عن أبي إسحاق من قبل أبي إسحاق لا من قبله.

[١] – كعب بْن مانع وهو كعب الأحبار، يكنى أبا إِسْحَاق. أدرك عهد النَّبِيّ ﷺ ولم يره ،كَانَ إسلامه في خلافة عُمَر بْن الخطاب رَضِي اللَّه تَعَالَى عَنْهُ ، مات بحمص سنة اثنتين وثلاثين، انظر : أسد الغابة (٤/ ٤٦٠) الإصابة في تمييز الصحابة (٥/ ٤٨٤)

[٢] – الدارمي في سننه ، باب فضائل الأنعام والسور (٤ / ٢١٤١) برقم : (٣٤٤٥)

وبعد دراسة إسناده تبين لي – والله أعلم – أن إسناده صحيح ، رجاله ثقات .

[٣] – الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي (٤ / ١٣١) ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري (٢ / ٨٥) ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢ / ١٩٢) . جاء في الكافي الشاف لابن حجر : (ص : ٦٣) رقم : (١٨) : فيه أبو عصمة وهو متهم بالكذب . جاء في التاريخ الأوسط للبخاري : (٢ / ٢٣٠) : " لم يصح حديثه" ، وفي الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : (٨ / ٤٨٤) :كان أبو عصمة يروى أحاديث مناكير. وكذا في الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي : (٧ / ٤٠) .

[٤] – الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي (٤ / ١٣١) ، وبعد دراسة إسناده تبين لي – والله أعلم – أنه ضعيف لأن فيه انقطاع بين الحجاج بن محمد ومحمد بن مسلم بن تدرس حيث إن بين وفاتيهما ثمانون عاماً فيستحيل السماع بينهما ، وفيه من لم يذكروا بجرح ولا تعديل ، وفيه من لم أقف عليه . وكذلك ذكره الواحدي في التفسير الوسيط (٢ / ٢٥١) وهو مرسل وفيه بشير بن زاذان جاء في الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي : (١ / ١٤٤) " قال يحيى ليس بشيء وقال الدارقطني ضعيف وقال ابن عدي ضعيف" .

٣. حديث : (أنزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة، وتبعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل ، ومن قرأ سورة الأنعام صلى الله عليه ، واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل حرف في سورة الأنعام يوما وليلة)[1].

[1] – التفسير الوسيط للواحدي (٢ / ٢٥٠) وهي رواية إسنادها ضعيف لوجود سلام بن سليم المدائني وهو ضعيف متروك ، انظر : المغني في الضعفاء (١ / ٢٧٠) ، وجاء في الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي : (٢ / ٦) "قال ابن عدي منكر الحديث وقال أبو حاتم الرازي ليس بالقوي وقال ابن عدي عامة ما يرويه لا يتابع عليه " اهـ .
وهناك خرافات وخزعبلات عن الصوفية في فضائل هذه السورة ما أنزل الله بها من سلطان .

المبحث الثالث: عدد آيات السورة واختلاف العلماء في ذلك.

عدد آيات السورة الكريمة مئة وخمس وستون آية في الكوفي[1]وست في البصري[2]والشامي[3] وسبع في المدنيين[4] والمكي[5]، اختلافها أربع آيات :

الآية الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[١] عدها المدنيان والمكي ولم يعدها الباقون ، ووجه العد المشاكلة لما بعده ، ووجه الترك اتصال الكلام وعدم الموازنة

الآية الثانية : قوله تعالى : ﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [٦٦] والمراد بها الموضع الأول ، حيث إن الموضع الثاني في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾[١٠٧] مجمع على عده . والموضع الأول عده الكوفي ولم يعده الباقون ، ووجه من عده المشاكلة ، وانعقاد الإجماع على عد نظيره في هذه السورة ، ووجه من تركه عدم المساواة لما بعده من الآيات .

الآية الثالثة : قوله تعالى : ﴿ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [١٦١] الآخر والذي بعده ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ [١٦١] لم يعدها الكوفي وعدها الباقون ، ووجه من عدها انعقاد الإجماع على عد نظيره ، ووجه الترك لتعلق ما بعده به وهو قوله تعالى : ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾

وكلهم اتفقوا على عد قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [٣٩] ، وقوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [٨٧]

---

[1] – هذا العدد رواه حمزة الزيات عن ابن أبي ليلى عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب ﷺ مرفوعاً ، ورواه عن حمزة الكسائي وسليم بن عيسى وغيرهما . البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو : (ص : ٦٩) ، مرشد الخلان إلى معرفة عد آي القرآن لعبد الرزاق على موسى : (ص : ٢٨)

[2] – عدد أهل البصرة رواه المعلى بن عيسى الوراق وهيصم بن الشداخ وشهاب بن شرنفة عن عاصم بن أبي الصباح الجحدري موقوفا عليه البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو : (ص: ٦٩) ، وانظر : مرشد الخلان لعبد الرزاق على موسى : (ص : ٢٧) .

[3] – عدد أهل الشام فرواه أيوب بن تميم القارىء عن يحي بن الحارث الذماري موقوفا عليه وبعضهم يوقفه على عبد الله بن عامر اليحصبي القارىء . البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو : (ص: ٦٩) .

[4] – المراد بهما عدد المدني الأول والمدني الثاني ، والعدد المدني الأول هو المروي عن الإمام نافع القاري وهو الذي رواه عن الإمام أبي جعفر يزيد بن القعقاع وعن الإمام شيبة بن نصاح مولى ابن أم سلمة – رضي الله عنها – زوج النبي ﷺ . البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو : (ص : ٦٧) ، مرشد الخلان لعبد الرزاق على موسى : (ص : ٢٦)

والعدد المدني الثاني هو المروي عن إسماعيل بن جعفر عن سليمان بن جماز عن أبي جعفر وشيبة بن نصاح مرفوعاً عليهما . البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو : (ص : ٦٧) ، مرشد الخلان لعبد الرزاق على موسى : (ص : ٢٧) ، وانظر : عدد آي القرآن لابن بشر (ص : ١٩٩)

[5] – هو المروي عن عبد الله بن كثير القاري عن مجاهد بن جبير عن ابن عباس – رضي الله عنهما – عن أبي بن كعب ﷺ عن رسول الله ﷺ . البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو : (ص : ٦٨) مرشد الخلان لعبد الرزاق على موسى : (ص : ٢٧) .

الآية الرابعة : قوله تعالى :﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [٧٣] لم يعدها الكوفي وعدها الباقون ، ووجه من عده المشاكلة وانعقاد الإجماع على عد نظيره في جميع القرآن ، ووجه من تركه عدم الموازنة لطرفيه.

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع خمسة مواضع : ﴿مِّن طِينٍ ﴾ [٢] ، ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَ ﴾ [٣٦] ، ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [٤٨] ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمًا ﴾[١٢٦] ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾[١٣٥][1]

وكلمها ثلاثة آلاف واثنتان وخمسون كلمة ، وحروفها اثنا عشر ألفا وأربع مئة واثنان وعشرون حرفا[2].

[1] – بتصرف من : البيان في عد آي القرآن (ص: ١٥٢) ، الفرائد الحسان في عد آى القرآن (ص: ٣٥) ، مرشد الخلان إلى معرفة عد آي القرآن (ص : ٧١– ٧٢) ، عدد آي القرآن لابن بشر : (ص : ٢٥٤ – ٢٥٥).

[2] – البيان في عد آي القرآن (ص: ١٥١) ، عدد آي القرآن لابن بشر : (ص : ٢٥٣)

المبحث الرابع: تاريخ نزول السورة الكريمة.

لم يرد أصل يعتمد عليه في تاريخ نزول هذه السورة الكريمة إلا أن بعض العلماء حددوا ترتيبها في النزول بأنها السورة السادسة والخمسون، وإن نزولها كان بعد نزول سورة «الحجر»[1].

ويغلب على الظن أن نزول سورة الأنعام كان في السنة الرابعة من البعثة النبوية الشريفة، وذلك لأن سورة الحجر التي نزلت قبلها فيها آية تأمر النبي ﷺ بأن يجهر بدعوته وهي قوله تعالى : ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الحجر: ٩٤]

ومن المعلوم تاريخياً أن النبي ﷺ مكث يدعو الناس سراً إلى عبادة الله زهاء ثلاث سنين، ثم بدأت مرحلة الجهر بالدعوة في السنة الرابعة من البعثة بعد أن أمره الله بأن يصدع بما يؤمر به، أى: يجهر بما يكلف بتبليغه للناس، مأخوذ من صدع بالحجة إذا جهر بها.

جاء في السيرة النبوية عن مرحلة الجهر بالدعوة الإسلامية: " ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به ..." إلى أن قال :" ثم إن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن يبادى الناس بأمره، وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين- فيما بلغني- من مبعثه ، ثم قال الله تعالى له: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[الحجر: ٩٤]، وقال:﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾[الشعراء: ٢١٤ – ٢١٥]"[2]

فإذا قلنا : إن سورة الأنعام نزلت – غالباً – في السنة الرابعة من البعثة النبوية، تلك الفترة من تاريخ الدعوة الإسلامية التي كانت فترة نضال فكرى عنيف بين الإسلام والشرك، ففيها بدأ النبي ﷺ يجهر بدعوته ويصارح قريشا برسالته، ويدعوهم بأعلى صوته إلى الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبين لهم بجرأة ووضوح بطلان عقائدهم، وسخافة تفكيرهم واعوجاجهم عن الطريق المستقيم.

وأخذ المشركون يدافعون عن معتقداتهم بكل وسيلة بعد أن رأوا الدعوة الإسلامية يزداد نورها يوما بعد يوم، ورأوا أتباع النبي ﷺ يزيدون ولا ينقصون، ويجهرون بتعاليم دينهم بعد أن كانوا يخفونها ويتحملون في سبيل نشرها الكثير من ألوان التعذيب والترهيب.

---

[1] – قال بهذا القول جماعة من المفسرين منهم : الزمخشري في الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢ / ٣) ، ابن جزي في التسهيل لعلوم التنزيل (١ / ٢٥٣) ، تفسير المراغي (٧ / ٦٩) ، وذكره السخاوي في جمال القراء منسوباً إلى عطاء بن أبي مسلم الخرساني : (١ / ٨) .

[2] – السير والمغازي لابن اسحاق (ص: ١٤٥)

وهذه الفترة من فترات الدعوة الإسلامية كانت فترة عنيفة أشد العنف، مملوءة بالمقاومة من الجانبين كأعظم ما تكون المقاومة، فالمشركون مأخوذون بهذا النجاح الذي صارت إليه الدعوة حتى استطاعت أن تستعلن بعد الخفاء، وأن تتحدى في صوت عال، ونداء جهير، بعد ما كان المؤمنون بها يلجئون إلى الشعاب والأماكن البعيدة ليؤدوا صلاتهم، والرسول ﷺ ماض فيما أمره به ربه من الصدع بدعوة الحق، يتلو عليهم ما أنزله الله عليه من كتابه، وفيه إنذار لهم وتفنيد لمعتقداتهم، وتسفيه لآرائهم، وإنكار لآلهتهم، وتهكم بأوثانهم وتقاليدهم البالية.

يومئذ واجهت دعوة الحق أعداءها مسفرة واضحة متحدية، ووقف هؤلاء الأعداء مشدوهين مضطربين يشعرون في أعمال نفوسهم بصدقها وكذبهم، ويترقبون يوما قريبا لانتصارها وانهزامهم، ولا يجدون لهم حيلة إلا المكابرة والمعارضة المستميتة بما درجوا عليه من العقائد الباطلة، بادعائهم كذب الرسول ﷺ وبزعمهم أن إرسال الرسل من البشر أمر لم يقع من قبل، وأن الله لو شاء إبلاغ عباده شيئا لأنزل إليهم ملائكة، وإنكارهم البعث والدار الآخرة، واستماتوا في الدفاع عن عقائدهم وآلهتهم، ونسوا أن محمداً ﷺ عاش فيهم عمرا طويلا لم يقل فيه يوما قولة كاذبة، ولم يخن فيه يوما أمانة أؤتمن عليها، وأنهم لذلك كانوا يلقبونه بالصادق الأمين.

لم يذكروا شيئا من ذلك ولم يفكروا فيه، ولكنهم فكروا فقط في أن الدعوة الجديدة التي استعلنت بعد استخفاء، وتحدت بعد ما ظنوه بها من الاستخذاء، يجب أن تموت في مهدها ويجب أن تكتم أنفاسها قبل أن تنبعث حرارة هذه الأنفاس إلى البلاد والقبائل والشعوب.

لذلك فإننا نرى أن سورة الأنعام أنزلت في جو خاص، كان يعيشه المسلمون المضطهدون في مكة، كان ذلك الجو مكروباً ، شديد الضيق والألم والاضطهاد والمعاناة، وقد مرت حركة الدعوة الإسلامية في ذلك الجو بفترة خاصة شديدة، يمكن أن تسمى " الفترة الحرجة."

زادت قريش في تلك الفترة من حربها للإسلام، وإيذائها وتعذيبها للمسلمين، و صعّدت من مواجهتها للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وشدّدت حصارها ضد الحركة والدعوة.

في تلك " الفترة الحرجة " تمت محاصرة المسلمين في شعب" أبي طالب" لمدة ثلاث سنوات، لقي المسلمون فيها من الأذى والضيق ما لقوا .. وكانت في هذه الفترة الحرجة الهجرة الأولى إلى الحبشة، ثم الهجرة الثانية إلى الحبشة.

واستمرت هذه الفترة الحرجة عدة سنوات .. وكان كثير من الصحابة يتساءلون عن وقت انتهاء تلك الفترة، وانفراج الأزمة، وزوال الشدة، وينظرون بأمل إلى الفرج والخلاص والانتصار.. والناظر في حال السور والآيات يجد أن الدعوة الإسلامية رحبت بهذا النضال، وتحملت أعباءه وأثقاله، وكان ذلك أول النصر، لأن النور لا يظهر إلا بعد الاحتكاك.

فأخذت سور القرآن في هذه المرحلة تتلاحق، وأخذت آياتها تتعاون وتتآزر، وكانت أغراضها متشابهة إلى حد بعيد، وأنزل الله في هذه الفترة عدة سور كريمة، بشّر فيها المسلمين بقرب انفراج الأزمة، وانتهاء الشدة، وفتح باب الأمل بانتصار الإسلام وهزيمة الكفر .. وحققت تلك السور مهمتها في تربية وتعليم وتوجيه المسلمين، وتثبيتهم على الحق، وزيادة تصميمهم على مواجهة الباطل..

من السور التي أنزلت في الفترة الحرجة، سور: يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر والصافّات. وفي مقدمة تلك السور وأولها وأحفلها والتي كان لها أهداف تربوية وتعليمية وجهادية حركية سورة الأنعام، التي أنزلت في " الفترة الحرجة " القاسية. فقد جمعت كل العقائد الصحيحة، وعنيت بالاحتجاج لأصول الدين، وتفنيد شبه الملحدين، وإبطال العقائد الفاسدة، وتركيز مبادئ الأخلاق الفاصلة .

وبذلك يتبين لنا أن ما اشتملت عليه سورة الأنعام من مقاصد وأهداف وأحكام ومعتقدات يوافق كل الموافقة طبيعة المرحلة التي كانت تجتازها الدعوة الإسلامية في ذلك الوقت[1] .

---

[1] – بتصرف من : التفسير الوسيط لطنطاوي (٥ / ٥ – ٧) ، سورة الأنعام والأهداف الأولى للإسلام لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد المدني : (ص : ١٦) ، شخصية سورة الأنعام (د . صلاح عبدالفتاح الخالدي) ضمن مواضيع على مائدة القران ، مجلة الفرقان ، الإصدار : ٣٢ ، ٢٠٠٤ م ، شهر : ٩ .

الفصل الثانـي:
مكي السورة ومدنيها ومناسبتها لما قبلها وما بعدها ووجه اختصاصها بما اختصت به

المبحث الأول: المكي والمدني في السورة.

من المعلوم لدى الكثير من العلماء أن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة وهذا هو الذي تدل عليه الأحاديث والآثار التي تقدم ذكرها في الحديث عن تسمية السورة وفضلها ، لكن وقع خلاف بينهم في فهم تلك الأحاديث والآثار ، وهذا الخلاف يدور حول سؤال مهم وهو هل المراد بتلك الأحاديث والآثار نزول جميع آيات سورة الأنعام بمكة جملة واحدة ، أم أن هناك آيات استثنيت منها وصح به النقل ، وفيما يلي تفنيد هذا الخلاف .

هناك من العلماء من يقول بأن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة بمكة ولا يصح استثناء شيء من آياتها ، حيث إنه لم يصح بالاستثناء حديث أو أثر منقول ، وهذا القول هو قول المحققين من المفسرين[١].

لكن هناك من العلماء من رد الأدلة التي تدل على نزولها جملة واحدة لضعفها من هؤلاء العلماء ابن الصلاح[٢] حيث يقول : "والخبر المذكور في ذلك – أي في نزولها جملة واحدة – قد رويناه من حديث أبي بن كعب عن النبي ﷺ وفي إسناده ضعف ولم نر له إسناداً صحيحاً وقد روى ما يخالفه فروى أنها لم تنزل جملة واحدة بل نزلت آيات منها بالمدينة اختلفوا في عددها فقيل ثلاث آيات هي قوله تعالى : {قل تعالوا} إلى آخر الآيات وقيل ست وقيل غير ذلك وسائرها نزل بمكة "[٣].

وذهب الآلوسي[٤] إلى هذا الرأي حيث قال بعد سرده لبعض الروايات الواردة في فضل السورة وحكم عليها بالضعف: "ولعل الأخبار بنزول هذه السورة جملة أيضا كذلك"[٥]، إلى جانب أنه نقل قول ابن الصلاح في ذلك ثم قال معقباً : " ومن هذا يعلم ما في دعوى الإمام اتفاق الناس على القول بنزولها جملة فتدبر"[٦].

---

(١) – كابن جرير الطبري ، وابن كثير وإليه ذهب ابن الحصار ، ومحمد رشيد رضا .

(٢) – أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى بن أبي نصر النصري الكردي الشهرزوري المعروف بابن الصلاح، الشرخاني الملقب تقي الدين، الفقيه الشافعي؛ كان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال وما يتعلق بعلم الحديث ونقل اللغة، وكانت له مشاركة في فنون عديدة، وكانت فتاويه مسددة من أشهر مؤلفاته : معرفة أنواع علم الحديث المعروف بمقدمة ابن الصلاح والامالي وأدب المفتي والمستفتي توفي سنة ٦٤٣ هـ . انظر : وفيات الأعيان (٣/ ٢٤٣) سير أعلام النبلاء ط الحديث (١٦/ ٣٦٠)

(٣) – فتاوى ابن الصلاح (١ / ٢٤٩) .

(٤) – محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي، شهاب الدين، أبو الثناء: مفسر، محدث، أديب، من المجددين، من أهل بغداد، مولده ووفاته فيها. تقلد الإفتاء ببلده وعزل، فانقطع للعلم الى أن توفي سنة ١٢٧٠ هـ. من كتبه روح المعاني في التفسير انظر : حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (ص: ١٤٥٠) المسك الأذفر للآلوسي ، ص : (١ / ٥) .

(٥) – روح المعاني (٤ / ٧٢)

(٦) – روح المعاني (٤ / ٧٣)

لكن يمكن أن نرد على ما سبق بأدلة وهي ما يلي :

- تضافر الأدلة التي تقول بنزول سورة الأنعام جملة واحدة بمكة ، حيث إنها مروية عن جمع من الصحابة هم أعرف الناس بالحقائق المتعلقة بالتنزيل ، والمدركون لدقائق التأويل[١]،كما أنها مروية عن عدد من التابعين وهذا التضافر لم يترك مجالاً أن يقال أن آية كذا مدنية، حيث إن كثرة الأدلة والروايات تدل على أن لها أصلاً صحيحاً ، لا سيما أنها في قضية لا مجال للرأي فيها ، فهذه الآثار وإن كان فيها ضعف إلا أنها تقوي بعضها البعض في مجموعها وفي ذلك يقول شيخ الإسلام بن تيمية[٢] : " والأئمة كانوا يروون ما في الباب من الأحاديث التي لم يعلم أنها كذب من المرفوع والمسند والموقوف وآثار الصحابة والتابعين لأن ذلك يقوي بعضه بعضا"[٣]، وكما قال الإمام ابن حجر[٤] : " فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أن لها أصلا " [٥] ، وقال في موضع آخر : "كثرة الطرق إذا اختلفت المخارج نزيد المتن قوة"[٦]

ولقد قال الإمام السيوطي[٧] بعد أن ذكر بعضاً من هذه الأدلة : "فهذه شواهد يقوي بعضها بعضا"[٨] ، ويقول محمد رشيد رضا[٩] في ترجيحه بأن السورة نزلت جملة واحدة بمكة : "كثرة الروايات

---

[١] – منهم عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمر ، وأنس بن مالك ، وأبي بن كعب – رضي الله عنهم أجمعين –

[٢] – أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية شيخنا الإمام تقي الدين أبو العباس الحراني ، فريد العصر علما ومعرفة وذكاء وحفظاً وكرماً وزهداً ، وفرط شجاعة وكثرة تآليف ،كانت وفاته في العشرين من شهر ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبع مائة مسجونا بقاعة من قلعة دمشق، انظر : معجم الشيوخ الكبير للذهبي (١/ ٥٦) أعيان العصر وأعوان النصر (١/ ٢٣٣)

[٣] – الصفدية (١ / ٢٨٧) .

[٤] – أحمد بن علي بن محمد بن علي بن أحمد، قاضي القضاة، شيخ الإسلام، حافظ العصر، رحلة الطالبين، مفتي الفرق، أمير المؤمنين في الحديث، شهاب الدين أبو الفضل الشهير بابن حجر الكناني العسقلاني الأصل، المصري المولد والمنشأ والدار والوفاة، توفي سنة ٨٥٢هـ من مصنفاته الإصابة في تمييز الصحابة ، وكتاب لسان الميزان وتحرير الميزان، وكتاب تبصير المنتبه بتحرير المشتبه ، وكتاب طبقات الحفاظ ، انظر : المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (٢/ ١٧) طبقات المفسرين للأدنه وي (ص: ٣٢٩)

[٥] – فتح الباري (٨ / ٤٣٩) . وبه قال ابن عبد البر في التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٢١ / ١٧٥).

[٦] – القول المسدد في الذب عن مسند أحمد (ص: ٣٨) ، وإليه ذهب السيوطي في تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (١ / ١٧٩) .

[٧] – الحافظ جلال الدّين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري السّيوطي الشافعي المسند المحقّق المدقّق، صاحب المؤلفات الفائقة النافعة ، منها الإتقان في علوم القرآن ، الأشباه والنظائر ، الإكليل في استنباط التنزيل ، توفي سنة ٩١١ هـ . الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٤/ ٦٥) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠/ ٧٤)

[٨] – الإتقان في علوم القرآن (١ / ١٣٧) .

[٩] – محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بَهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب: صاحب مجلة (المنار) وأحد رجال الإصلاح الإسلامي. من الكتّاب، العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير. توفي سنة ١٣٥٤ هـ ، أشهر آثاره مجلة (المنار) أصدر منها ٣٤ مجلدا، و تفسير القرآن الكريم . انظر : الأعلام للزركلي (٦/ ١٢٦) المجددون في الإسلام ، ص (٥٣٩) .

في مسألة لا مجال فيه للرأي فتكون اجتهادية، ولا للهوى فتكون موضوعة، ولا لغلط الرواة فتكون معلولة لا بد أن يكون لها أصل صحيح"[1].

- أن الأدلة التي استدل بها القائلون بمدنية بعض الآيات أدلة لا تخلو من مقال لذا لم يعتمدها العلماء المحققون ، بل إن النقاد من المفسرين قد ضربوا صفحاً عن القول بأن في السورة آيات مدنية فإذا ذهبنا إلى تفسير ابن كثير والذي يعتبر من المفسرين القلائل الذين حرصوا على اختيار الروايات والتمييز بين الصحيح والسقيم منها نجد أنه بعد أن ساق في بداية تفسيره للسورة الروايات الأدلة التي تدل على أن السورة نزلت جملة واحدة بمكة لم يذكر أي رواية تدل على أن منها ما نزل بالمدينة ، أضف إلى ذلك وقفاته الجادة مع بعض الآيات المدعى مدنيتها. كما أننا نضع أمام القارئ الكريم تفصيل الرد على من قال بمدنية بعض الآيات .

فإنه من المعلوم أن هناك من يقول بأن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة بمكة كما تدل الأحاديث والآثار ، ولكن لا يمنع هذا أن تكون بعض آياتها نزلت بالمدينة ، مع اختلافهم في تعيين الآيات المدنية ، حيث قال البعض آية واحدة ، وقال آخرون : آيتان ، وقول ثالث بأنها ثلاث آيات وقيل بأنها أربع آيات إلى غير ذلك من الأقوال [2].

واستدل أصحاب هذا الرأي على مدنية بعض الآيات في هذه السورة بما نزل في أسباب نزول هذه الآيات ، إلى جانب بعض ملامح القرآن المدني فيها وهذه الآيات كالتالي :

١. قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [٢٠]

ذهب بعض المفسرين إلى مدنية هذه الآية [3] ، وذكره السيوطي دون نسبة إلى أحد[4] .

ووجه القول بمدنية هذه الآية هو حديثها عن أهل الكتاب ، وأهل الكتاب لم يكن لهم صلة بالمسلمين في العهد المكي وإنما في العهد المدني ، إلى جانب وجود نظيرتها في سورة البقرة وهي قوله تعالى :

---

[1] – تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧ / ٢٣٨)

[2] – ذكر هذا الخلاف في كل من : بحر العلوم للسمرقندي (١ / ٤٣٣) ، الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي (٤ / ١٣١) ، تفسير السمعاني (٢ / ٨٥) ، معالم التنزيل للبغوي (٢ / ١٠٧) ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٢ / ٢٦٥) ، زاد المسير لابن الجوزي لابن الجوزي (٢ / ٧) ، مفاتيح الغيب للرازي (١٢ / ٤٧١) ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦ / ٣٨٢) ، لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن (٢ / ٩٧) ، اللباب لابن عادل لابن عادل (٨ / ٣).

[3] – منهم مقاتل بن سليمان – رحمه الله ، تفسير مقاتل بن سليمان (١ / ٥٤٨) .

[4] – الإتقان في علوم القرآن (١ / ٥٧) .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ﴾ [البقرة: ١٤٦] .

ولقد جاء في تفسير الطبري[١]عن ابن جريج[٢] قوله:﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ ﴾ قال: زعم أهل المدينة عن أهل الكتاب ممن أسلم، أنهم قالوا: والله لنحن أعرف به من أبنائنا، من أجل الصفة والنعت الذي نجده في الكتاب، وأما أبناؤنا فلا ندري ما أحدثَ النساء![٣]

ويرد على هذا القول بأنه لا يمنع أن يكون القرآن المكي قد تحدث عن أهل الكتاب ، يقول الشيخ محمد الغزالي أثناء حديثه عن مدنية بعض آيات سورة الأنعام : " وهناك آيات تعرضت لأهل الكتاب ، فجاء الرواة وعدوها مدنية ، كأن الكلام عن أهل الكتاب في مكة لا محل له !

والواقع أن هذه الروايات ينقصها التمحيص العلمي والتحقيق التاريخي ، وشيوعها بهذه الصورة يشبه شيوع القول بالنسخ مع ضعف سنده من ناحيتي العقل والنقل .."[٤].

ولعل السبب في الحديث عن أهل الكتاب في العهد المكي حتى يبين ما عندهم من العلم ، ويبين أن ما جاء به النبي محمد ﷺ يوافق ما عندهم في كتبهم التي سبقت الدعوة المحمدية ، وذلك مدعاة لأن يدخل الطمأنينة في قلوب المؤمنين ويزيل الشك من قلوب المشككين من المشركين – والله تعالى أعلم – .

ولقد وردت أحاديث صحيحة تبين مدى علاقة أهل مكة بأهل الكتاب في العهد المكي منها ما جاء عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل، فقال: سلوه عن الروح، فسألوه عن الروح، فأنزل الله تعالى ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥ ﴾ [الإسراء: ٨٥] ، قالوا: أوتينا علماً كثيراً أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة

---

[١] – محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري الإمام أبو جعفر، رأس المفسرين على الإطلاق، أحد الائمة، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظاً لكتاب الله، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، صحيحها وسقيمها، ناسخها ومنسوخها، عالماً بأحوال الصحابة والتابعين، بصيراً بأيام الناس وأخبارهم ، من أشهر مؤلفاته تاريخ الطبري جامع البيان في تفسير القرآن ، مات عشية يوم الأحد ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة. انظر : طبقات المفسرين للسيوطي (ص: ٩٥) طبقات المفسرين للداوودي (٢/ ١١٠)

[٢] – عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الروميّ الأموي مولاهم. المكيّ، الإمام المجتهد الحافظ، فقيه الحرم ، أحد الاعلام الثقات، يدلس، وهو في نفسه مجمع على ثقته ، مات في أول ذي الحجة سنة خمسين ومائة. سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٢٥) طبقات المفسرين للداوودي (١/ ٣٥٨)

[٣] – جامع البيان: (١١ / ٢٩٦)

[٤] – نظرات في القرآن : (ص : ٢١٤)

فقد أوتي خيراً كثيراً، فأنزلت ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ [الكهف: ١٠٩] إلى آخر الآية[١].

ولقد علق على هذا الإمام الزمخشري[٢] بقوله :" وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به وبصحة نبوّته"[٣]

وإن المتأمل للآية يجدها مرتبطة بما قبلها وما بعدها .

يقول سيد قطب[٤] في ذلك : "وهذه الآية- كما رجحنا- مكية. وذكر أهل الكتاب فيها على هذا النحو- إذن- يفيد أنها كانت مواجهة للمشركين بأن هذا القرآن الذي ينكرونه، يعرفه أهل الكتاب كما يعرفون أبناءهم وإذا كانت كثرتهم لم تؤمن به فذلك لأنهم خسروا أنفسهم، فهم لا يؤمنون. شأنهم في هذا شأن المشركين، الذين خسروا أنفسهم، فلم يدخلوا في هذا الدين! والسياق قبل هذه الآية وبعدها كله عن المشركين. مما يرجح مكيتها كما قلنا من قبل في التعريف بالسورة.."[٥]

٢. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾ [٢٣]
جاء عن ابن عباس – رضي الله عنهما – القائل بأن هذه الآية في المنافقين[٦].

ولقد رد الحافظ ابن كثير[٧] على هذا القول وبين منشأ القول بمدنية هذه الآية حيث قال : "وفي هذا نظر، فإن هذه الآية مكية، والمنافقون إنما كانوا بالمدينة، والتي نزلت في المنافقين آية المجادلة: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٨﴾[المجادلة: ١٨] ، وهكذا قال في حق هؤلاء: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ

---

(١) – أخرجه الترمذي في سننه ، باب: ومن سورة بني إسرائيل : (٥ / ٣٠٤) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

(٢) – محمود بن عمر بن محمد بن عمر العلامة أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي، النحوي، اللغوي، المتكلم، المعتزلي، المفسر، يلقب جار الله، لأنه جاور بمكة زماناً ، له التصانيف البديعة منها الكشاف في التفسير، والفائق في غريب الحديث وأساس البلاغة وربيع الأبرار وغيرها ، مات ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة.. انظر : طبقات المفسرين للسيوطي (ص: ١٢٠) طبقات المفسرين للداوودي (٢/ ٣١٤) .

(٣) – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢ / ١٢) .

(٤) – سيد قطب بن إبراهيم: مفكر إسلامي مصري، ، انضم إلى الإخوان المسلمين، وترأس قسم نشر الدعوة وتولى تحرير جريدتهم وسجن معهم، فعكف على تأليف الكتب ونشرها وهو في سجنه، إلى ان صدر الأمر بإعدامه، فأعدم عام ١٣٨٧هـ. وكتبه كثيرة مطبوعة منها : في ظلال القرآن لسيد قطب و التصوير الفني في القرآن ومشاهد القيامة في القرآن. انظر : الأعلام للزركلي (٣/ ١٤٧) معجم المفسرين لعادل نويهض (١ / ٢١٩)

(٥) – في ظلال القرآن لسيد قطب (٢ / ١٠٦٠)

(٦) – تفسير ابن كثير (٣ / ٢٤٦) .

(٧) – إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن درع الحافظ عماد الدين أبو الفداء تناقل الناس تصانيفه في حياته ، وتوفي بدمشق سنة ٧٧٤ هـ ، من كتبه البداية والنهاية ، وتفسير القرآن الكريم . طبقات المفسرين للداوودي (١/ ١١١) طبقات المفسرين للأدنه وي (ص: ٢٦٠)

يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٤]، كما قال : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [غافر: ٧٣ - ٧٤] " [(١)].

فلقد بين الحافظ ابن كثير أن منشأ القول بمدنية هذه الآية هو ظن القائلين بهذا القول بأن الحلف في الآية الواردة في سورة الأنعام هو ذات الحلف الوارد في سورة المجادلة ومن المعلوم أن سورة المجادلة مدنية ووردت آياتها في المنافقين ، وأورد قوله تعالى : ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [غافر: ٧٤] حتى يبين أنه قد جاء في القرآن المكي في غير هذا الموضع إنكار الكفار أنهم كانوا مشركين– والله أعلم – .

ووما يؤيد مكية هذه الآية ما جاء في تفسيرها عن مجاهد[(٢)] أنه قال : " قوله: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٣] قول أهل الشرك ، حين رأوا كل أحد يخرج منها غير أهل الشرك ، ورأوا الذنوب تغفر ، ولا يغفر الله الشرك [(٣)].

ولو تأمل القاريء لسياق الآيات يجد أن هذه الآية معطوفة بثم على ما قبلها ، ومن المعلوم في علم النحو أن " ثم " للعطف والتراخي .

٣. ما جاء في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٢] فلقد جاء الأقرع بن حابس

---

(١) – تفسير ابن كثير (٣ / ٢٤٦) .

(٢) – مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكيّ المقرئ، المفسّر، الإمام، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي ثقة إمام في التفسير وفي العلم من الثالثة مات سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث أو أربع ومائة وله ثلاث وثمانون ، انظر : طبقات المفسرين للداوودي (٢/ ٣٠٥) تقريب التهذيب (ص: ٥٢٠)

(٣) – تفسير ابن أبي حاتم : (٤ / ١٢٧٤) ، جامع البيان : (١١ / ٣٠٣) .

التميمي[١]، وعيينة بن حصن الفزاري[٢] ، فوجدا رسول الله ﷺ مع صهيب[٣]، وبلال[٤]، وعمار[٥]، وخباب[٦]، قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقروهم، فأتوه فخلوا به، وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسا، تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك، فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا، فاقعد معهم إن شئت، قال: «نعم» ، قالوا: فاكتب لنا عليك كتابا، قال: فدعا بصحيفة، ودعا عليا ليكتب، ونحن قعود في ناحية، فنزل جبرائيل عليه السلام، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٢] ، ثم ذكر الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾[الأنعام: ٥٣] ، ثم قال:﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾[الأنعام: ٥٤] ، قال: فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته، وكان رسول الله ﷺ، يجلس معنا، فإذا أراد أن يقوم، قام وتركنا، فأنزل الله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ

---

[١] – الأقرع بن حابس بن عقال بن مُحَمَّد بن سفيان بن مجاشع التميمي المجاشعي الدّارميّ،أحد المؤلفة قلوبهم ، وقد حسن إسلامه.شهد مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحنينًا والطائف، انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١/ ١٠٣) الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ٢٥٢)

[٢] – عيينة بْن حصن بْن حذيفة بْن بدر الفزاري ، يكنى أَبَا مَالِك ، شهد الْفَتْح مسلما، وَهُوَ من المؤلفة قلوبهم، وشهد حنينا، والطائف، وبعثه النبيّ ﷺ لبني تميم فسبى بعض بني العنبر، ثم كان ممن ارتدّ في عهد أبي بكر، ومال إلى طلحة، فبايعه، ثم عاد إلى الإسلام ، وعاش إلى خلافة عثمان ، انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣/ ١٢٤٩) الإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ٦٣٩)

[٣] – صهيب بن سنان الرومي ، يعرف بذلك لأنه أخذ لسان الروم إذ سبوه وهو صغير، ممن شهد بدرا مع رسول الله ﷺ ، ومات بالمدينة سنة ثمان وثمانين في شوال .انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/ ٧٢٦) أسد الغابة (٣/ ٣٨) .

[٤] – بلال بن رباح ، مؤذن رسول الله ﷺ يكنى أبا عَبْد الله، وهو مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه،وكان له خازنا، ولرسول الله صلى الله عليه وَسَلَّمَ مؤذنًا، شهد بدرًا وأحدًا وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين عبيدة بن الحارث بن المطلب. انظر : معجم الصحابة للبغوي (١/ ٢٥٩) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١/ ١٧٨)

[٥] – عمار بْن يَاسِر بن مالك بن كناية بْن قَيْس بْن حُصَيْن العنسي، ثُمَّ المذحجي ، يكنى أَبَا اليقظان حليف لبني مخزوم، هاجر إِلَى أرض الحبشة، وصلى القبلتين، وَهُوَ من المهاجرين الأولين، ثُمَّ شهد بدراً والمشاهد كلها، وأبلى ببدرٍ بلاء حسنا، ثُمَّ شهد اليمامة، فأبلى فيها أيضا، مات بصفين فِي ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين، ودفنه علي رضى الله عنه . انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣/ ١١٣٥) أسد الغابة (٤/ ١٢٢)

[٦] – خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، كان فاضلاً من المهاجرين الأولين، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد مع النبي ﷺ ، يكنى أبا عبد الله ، كان رَسُول اللَّهِ ﷺ قد آخى بينه وبين تميم مولى خراش ابن الصمة ،نزل الكوفة، ومات بها سنة سبع وثلاثين، الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/ ٤٣٧) أسد الغابة (٢/ ١٤٧)

وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٨] ولا تجالس الأشراف: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾[الكهف: ٢٨] يعني عيينة، والأقرع ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[الكهف: ٢٨] قال: هلاكاً ، قال: أمر عيينة، والأقرع، ثم ضرب لهم مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا قال خباب: «فكنا نقعد مع النبي ﷺ ، فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها، قمنا وتركناه حتى يقوم)[١].

لقد ذهب من قال بمدنية هذه الآيات إلى مجيء الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن للنبي ﷺ بالمدينة ، وقالوا : إن هذا دليل على أن هذه القصة وقعت في المدينة وعليه فالآيات نزلت في المدينة .

إلا أنه قد وردت رواية في صحيح مسلم تخالف هذه الرواية في سبب نزول الآية حيث جاء عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أنه قال : كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل: ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه .[٢] وعلى هذا فإن ما جاء في صحيح مسلم هو المعتمد في سبب نزول الآية بناء على ما ذكره الإمام السيوطي في طريقة الترجيح بين أسباب النزول إذا وقع التعارض حيث يقول: "وإن ذكر واحد سبباً ، وآخر سبباً غيره ، فإن كان إسناد أحدهما صحيحا دون الآخر فالصحيح المعتمد"[٣]

ولا يمنع أن يكون قد وقعت السخرية من قبل الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ، فرد عليهما النبي ﷺ بهذه الآية – والله أعلم – .

يقول الأستاذ مصطفى مسلم[٤]:" من المعلوم أن سورة الأنعام مكية ، وإسلام عيينة بن حصن كان بعد الهجرة فلعل طلبه طرد فقراء المسلمين وقع ، ولكن لم يكن سبباً لنزول الآية ، وقد وقع مثل هذا الطلب

---

[١] – أخرجه ابن ماجه في سننه ، باب مجالسة الفقراء (٢ / ١٣٨٢) برقم : (٤١٢٧) وفي إسناده أسباط بن نصر وهو صدوق كثير الخطأ . تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني : (ص : ٩٨) ، وفيه أيضاً السدي الكبير ضعفه ابن مهدي ويحيى بن معين وكذبه المعتمد بن سليمان ، انظر : الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي : (١/ ١١٥) .

[٢] – أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ، كتاب فضائل الصحابة – رضي الله عنهم – ، باب فضل سعد بن أبي وقاص ﷺ (٤ / ١٨٧٨) برقم : (٢٤١٣) .

[٣] – الإتقان في علوم القرآن (١ / ١١٧) .

[٤] – مصطفى مسلم محمد، ولد في ١٩٤٠ م، سوري الجنسية، أستاذٌ معاصر في التفسير وعلوم القرآن، وخبيرٌ في مركز تفسير للدراسات القرآنية، له إنتاج علمي ضخم في تخصصه الدقيق (التفسير وعلوم القرآن)؛ فله العديد من الكتب والأبحاث الهامة؛ كما أشرف فضيلته على الكثير من الرسائل . انظر : السيرة الذاتية للأستاذ على موقعه الشخصي – شبكة الألوكة
http://www.alukah.net/web/muslim

من زعماء قريش في المرحلة المكية ، فالأنسب أن تكون الآية نزلت بعد طلب القرشيين إبعاد الضعفاء من المسلمين"[١]

٤. قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [٩١]

وردت عدة أقوال في المراد بهذه الآية والتي تقتضي مدنيتها منها ما حكت عن مناظرات النبي ﷺ مع اليهود عامة أو مع أفراد منهم كمالك بن الصيف أو فنحاص ، ومن المعلوم أن اليهود كانوا في المدينة ، لكن الناظر تلك الروايات التي تحكي عن تلك المناظرات الواردة في تفسير هذه الآية لا تخلو من مقال في أسانيدها[٢] .

لكن لا يعني هذا أنه لم ترد أقوال تقتضي مكيتها وهي أقوال وردت بصيغة الجزم كما جاء في تفسير ابن كثير حيث إنه أورد الأقوال الواردة في مناظرات اليهود بصيغة التمريض أما الأقوال التي تقول بمكيتها فجاءت عنده بصيغة الجزم حيث جاء في تفسيره : قال ابن عباس، ومجاهد : نزلت في قريش. واختاره ابن جرير، وقيل: نزلت في طائفة من اليهود؛ وقيل في أفراد معينين[٣] .

كذلك ذهب من قال بمدنية هذه الآيات ما جاء في مفاتيح الغيب للرازي : أن كفار قريش ينكرون نبوة جميع الأنبياء عليهم السلام، فكيف يمكن إلزام نبوة موسى عليهم؟ وأيضا فما بعد هذه الآية لا يليق بكفار قريش، وإنما يليق باليهود وهو قوله: ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩١] فمن المعلوم بالضرورة أن هذه الأحوال لا تليق إلا باليهود [٤].

ولقد رد الحافظ ابن كثير على ذلك فقال : " والأول هو الأظهر – ويقصد به أنها نزلت في قريش– ؛ لأن الآية مكية، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش –والعرب قاطبة –كانوا يستبعدون إرسال رسول من البشر، كما قال تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[يونس: ٢] .

---

[١] – تعليق مصطفى مسلم على تفسير هذه الآية عند الإمام عبد الرزاق الصنعاني ، انظر : تفسير عبد الرزاق الصنعاني : (٢ / ٢٠٧) هامش : (٢) .

[٢] – انظر هذه الروايات في جامع البيان للطبري (١١ / ٥٢١ – ٥٢٢)

[٣] – تفسير ابن كثير : (٣ / ٣٠٠)

[٤] – مفاتيح الغيب للرازي : (١٣ / ٦١)

وقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾[الإسراء: ٩٤، ٩٥] ، وقال هاهنا: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١] "(١)

أضف إلى ذلك سياق الآيات حيث يقول ابن جرير الطبري – رحمه الله – في ذلك : "وأولى هذه الأقوال بالصواب في تأويل ذلك، قول من قال: عني بقوله "وما قدروا الله حق قدره"، مشركو قريش ، وذلك أن ذلك في سياق الخبر عنهم أولاً فأن يكون ذلك أيضًا خبرًا عنهم، أشبهُ من أن يكون خبرًا عن اليهود ، ولما يجر لهم ذكرٌ يكون هذا به متصلا مع ما في الخبر عمن أخبر الله عنه في هذه الآية من إنكاره أن يكون الله أنزل على بشر شيئًا من الكتب، وليس ذلك مما تدين به اليهود، بل المعروف من دين اليهود الإقرار بصُحُف إبراهيم وموسى، وزبور داود ، وإذا لم يأت بما روي من الخبر بأن قائل ذلك كان رجلا من اليهود خبرٌ صحيح ، متصل السند ، ولا كان على أن ذلك كان كذلك من أهل التأويل إجماعٌ ، وكان الخبر من أوّل السورة ومبتدئها إلى هذا الموضع خبرًا عن المشركين من عبدة الأوثان ، وكان قوله:"وما قدروا الله حق قدره"، موصولا بذلك غير مفصول منه لم يجز لنا أن ندّعي أن ذلك مصروف عما هو به موصول إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل"(٢)

كذلك يمكن أن نضيف قول الرازي ب" أن كفار قريش كانوا مختلطين باليهود والنصارى وكانوا قد سمعوا من الفريقين على سبيل التواتر ظهور المعجزات القاهرة على يد موسى عليه السلام مثل انقلاب العصا ثعبانا، وفلق البحر وإظلال الجبل وغيرها والكفار كانوا يطعنون في نبوة محمد عليه الصلاة والسلام بسبب أنهم كانوا يطلبون منه أمثال هذه المعجزات وكانوا يقولون لو جئتنا بأمثال هذه المعجزات لآمنا بك، فكان مجموع هذه الكلمات جاريا مجرى ما يوجب عليهم الاعتراف بنبوة موسى عليه السلام وإذا كان الأمر كذلك لم يبعد إيراد نبوة موسى عليه السلام إلزاما عليهم في قولهم: ما أنزل الله على بشر من شيء" .

إلى أن قال : "إن كفار قريش واليهود والنصارى، لما كانوا متشاركين في إنكار نبوة محمد عليه الصلاة والسلام لم يبعد أن يكون الكلام الواحد واردا على سبيل أن يكون بعضه خطابا مع كفار مكة وبقيته يكون خطابا مع اليهود والنصارى"(٣)

---

(١) – تفسير ابن كثير (٣ / ٣٠٠) .

(٢) – جامع البيان للطبري (١١ / ٥٢٥)

(٣) – مفاتيح الغيب : (١٣ / ٦١)

ويقول القاسمي[1] – رحمه الله – : "ومعلوم ما كان بين قريش ويهود المدينة من التعارف، وتسليم قريش أنهم أهل كتاب، وأنهم أعلم منهم لأجله، مما يوجب اعترافهم بحقية التوراة، وأنها منزلة من لدنه تعالى"[2] .

كذلك رد الإمام ابن القيم[3] – رحمه الله – على من يقول أن الخطاب في الآية لا يصلح إلا لليهود بقوله : " إن الله سبحانه احتج عليهم بما يقر به أهل الكتابين ، وهم أولوا العلم دون الأمم التي لا كتاب لها ، أي إن جحدتم أصل النبوة ، وأن يكون الله أنزل على بشر شيئاً ، فهذا كتاب موسى يقر به أهل الكتاب – وهم أعلم منكم – فاسألوهم عنه .. إلى أن قال : والمعنى : أنكم إن أنكرتم أن يكون الله أنزل على بشر شيئاً فمن أنزل كتاب موسى ؟ فإن لم تعلموا ذلك فاسألوا أهل الكتاب"[4]

٥. قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ﴾[الأنعام: ٩٣] قال بمدنيتها مقاتل بن سليمان [5][6] ، ولعل مستنده بقوله ذلك ماروي عن عكرمة[7] حيث قال : نزلت في مسيلمة أخي بني عدي بن حنيفة، فيما كان يسجع ويتكهن به ، ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾[الأنعام: ٩٣] نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح، أخي بني عامر بن لؤي[8]، كان كتب للنبي ﷺ ، وكان فيما يملي"عزيز حكيم"، فيكتب"غفور رحيم"، فيغيره، ثم يقرأ عليه"كذا وكذا"، لما حوَّل، فيقول:"نعم، سواءٌ". فرجع عن الإسلام ولحق

---

(١) – جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، إمام الشام في عصره، علما بالدين، وتضلعا من فنون الأدب. مولده ووفاته في دمشق عام ١٣٣٢ هـ. الأعلام للزركلي (٢/ ١٣٥) ، معجم المفسرين لعادل نويهض (١ / ١٢٧)

(٢) – محاسن التأويل (٤ / ٤٢٧)

(٣) – محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزُّرْعي الدمشقيّ، أبو عبد الله، شمس الدين: من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء. مولده ووفاته في دمشق. تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شئ من أقواله، بل ينتصر له في جميع ما يصدر عنه. وهو الّذي هذب كتبه ونشر علمه، مات سنة ٧٥١ هـ ، ألّف تصانيف كثيرة منها إعلام الموقعين و الطرق الحكمية في السياسة الشرعية وشفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، انظر: طبقات المفسرين للداوودي (٢/ ٩٤) الأعلام للزركلي (٦/ ٥٦)

(٤) – بدائع التفسير : (١ / ٣٥٨)

(٥) – مقاتل بن سليمان بن كثير الأزدي الخراساني أبو الحسن البلخي المفسّر ، مات سنة خمسين ومائة. له كتاب نظائر القرآن، وكتاب التفسير الكبير، وكتاب الناسخ والمنسوخ، انظر : سير أعلام النبلاء ط الحديث (٦/ ٦٠٢) طبقات المفسرين للداوودي (٢/ ٣٣٠)

(٦) – تفسير مقاتل بن سليمان (١ / ٥٧٥) .

(٧) – عكرمة القرشي الهاشمي ، أبو عبد الله المدني، مولى عَبْد الله بْن عباس، وهو ثقة ثبت، عالم بالتفسير، لم يثبت تكذيبه، ولا ثبتت عنه بدعة، روى له الجماعة. مات رحمه الله سنة أربع ومائة بالمدينة، انظر : تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٢٠/ ٢٦٤) طبقات المفسرين للداوودي (١/ ٣٨٧)

(٨) –عبد الله بن سعد بن بن أبي سرح العامري أسلم قبل الْفَتْح، وهاجر، وَكَانَ يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، ثُمَّ ارتد مشركا، وصار إِلَى قريش بمكة، وأسلم بعد ذلك أيام الْفَتْح، فحسن إسلامه، فلم يظهر منه شيء ينكر عَلَيْهِ بعد ذَلِكَ، وَهُوَ أحد النجباء العقلاء الكرماء من قريش، توفي بعسقلان سنة ست أو سبع وثلاثين. انظر : معجم الصحابة للبغوي (٤/ ٢٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣/ ٩١٨)

بقريش وقال لهم: لقد كان ينزل عليه"عزيز حكيم" فأحوِّله، ثم أقرأ ما كتبت، فيقول:"نعم سواء"! ثم رجع إلى الإسلام قبل فتح مكة، إذ نزل النبي ﷺ بمرّ [1].

والقول بمدنيتها بناء على أن مسيلمة الكذاب لم يدع النبوة إلا بعد وفوده على النبي ﷺ مع قومه بني حنيفة بالمدينة ، ثم حدثت عدة محاورات بينه وبين النبي ﷺ إلى أن ادعى النبوة ، وكان ذلك في العام العاشر من الهجرة[2] مما يدل دلالة واضحة أن هذه الآيات نزلت بالمدينة.

لكن من خلال الحكم على هذه الرواية تبين – والله أعلم – أنها ضعيفة ، ولعل قصتهما مما تناولها عموم الآية : وطالما أن " هذه ألفاظٌ عامَّة، فكل مَنْ واقَعَ شيئاً مما يدخُلُ تحت هذه الألفاظ، فهو داخلٌ في الظُّلْم الذي قد عَظَّمه اللَّه تعالى" [3] .

ولقد أقر المحققون من المفسرين بمكية هذه الآية ورد القول بتخصيصها بأفراد معينين ، فنرى الشيخ محمد رشيد رضا يقول : "قالوا: نزل هذا في الذين ادعوا النبوة من العرب، وروي عن عكرمة وقتادة تخصيص مسيلمة الكذاب. والحق أنه يدخل في عموم حكمه من ذكر، والسورة مكية نزلت قبل ادعائهم النبوة بزمن طويل، فالمعروف أن مسيلمة ادعى النبوة سنة عشر من الهجرة"[4]، ثم جاء قول ابن عاشور وكأنه مكمل للقول السابق : "وهذا يقتضي أن يكون مسيلمة قد ادعى النبوءة قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة لأن السورة مكية. والصواب أن مسيلمة لم يدع النبوءة إلا بعد أن وفد على النبيء صلى الله عليه وسلم في قومه بني حنيفة بالمدينة سنة تسع طامعا في أن يجعل له رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر بعده فلما رجع خائبا ادعى النبوءة في قومه" [5]، ثم يقول في القول القائل بأنه عبد الله بن أبي سرح : " وهذا أيضا لا ينثلج له الصدر لأن عبد الله بن أبي سرح ارتد بعد الهجرة ولحق بمكة وهذه السورة مكية"[6].

---

[1] – أخرجه الطبري في جامع البيان : (١١ / ٥٣٣) وفي إسناده الحسين بن داود المصيصي سنيد ضعيف مع إمامته ومعرفته انظر : تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني (ص: ٢٥٧)

[2] – انظر : الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢ / ١٦٤)

[3] – الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢ / ٤٩٥)

[4] – تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧ / ٥٢٠) .

[5] – التحرير والتنوير لابن عاشور (٧ / ٣٧٥) .

[6] – التحرير والتنوير لابن عاشور (٧ / ٣٧٥)

٦. قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [١١١]

ذهب إلى مدنية هذه الآية أبو جحيفة[١] حيث يقول :" نزلت سورة الأنعام جميعا معها سبعون ألف ملك كلها مكية إلا ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ فإنها مدنية"[٢].

إلا أن ابن جرير الطبري أورد رواية عن ابن جريج يقول فيها:" قال: نزلت في المستهزئين الذين سألوا النبيّ ﷺ الآية – أي التي تدل على صدق نبوته–"[٣] وهي رواية تؤكد مدنية هذه الآية، كما أن الناظر إلى سياق الآيات يجدها متصلة بما قبلها ، مترابطة بعضها ببعض.

يقول الإمام الآلوسي – رحمه الله – : " قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ تصريح بما أشعر به قوله عز وجل: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ إلخ من الحكمة الداعية إلى ترك الإجابة إلى ما اقترحوا وبيان لكذبهم في إيمانهم على أبلغ وجه وآكده"[٤] .

٧. قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [١١٤] ذهب مقاتل إلى مدنية هذه الآية ، حيث جعلها من الآيات المستثناة من مكية السورة ، كما ذكر السيوطي هذا القول في الإتقان[٥].

ولعل من ذهب إلى القول بمدنية هذه الآية إنما قال ذلك بناء على حديث الآية عن أهل الكتاب وفيما سبق تم الرد على هذا .[٦]

---

[١] – أَبُو جحيفة السوائي: وهب بْن عَبْد اللَّهِ. ويقال: وهب بْن وهب، وَهُوَ وهب الخير السوائي، هُوَ من ولد حرثان بْن سواءة بْن عامر بْن صعصعة ، نزل أَبُو جحيفة الكوفة، وابتنى بها دارًا، وَكَانَ من صغار الصحابة، ذكروا أن رَسُول اللَّهِ ﷺ توفي وأبو جحيفة لم يبلغ الحلم، ولكنه سمع من رسول اللهوروى عنه. وَكَانَ علي ﷺ قد جعله عَلَى بيت المال بالكوفة، وشهد معه مشاهده كلها.

انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٤/ ١٦١٩) أسد الغابة (٦/ ٤٧) .

[٢] – الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٣ / ٢٤٤)

[٣] – جامع البيان (١٢ / ٤٧)

[٤] – روح المعاني (٤ / ٢٤٨)

[٥] – الإتقان في علوم القرآن (١ / ٥٧)

[٦] – انظر ما سبق من الآيات التي تحدثت عن أهل الكتاب والرد عليها .

٨. قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [١٢١]

لم يقل أحد بمدنية هذه الآية إلا أنني أوردتها هنا لوجود رواية تقتضي أن تكون هذه الآية مدنية ، يقول ابن عباس– رضي الله عنهما – : " جاءت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما قتل الله، فأنزل الله: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ إلى آخر الآية" [١].

يقول الإمام الألباني[٢] – رحمه الله – في حكمه على هذه الرواية :" ذكر اليهود فيه منكر والمحفوظ أنهم المشركون"[٣] ، ويقول الحافظ ابن كثير – رحمه الله – : وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة: أحدها: أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا ، الثاني: أن الآية من الأنعام، وهي مكية ، الثالث: أن هذا الحديث رواه الترمذي بلفظ : أتى ناس النبي صلى الله عليه وسلم فذكره وقال: حسن غريب .[٤]

ويقول ابن القيم في تعليقه على رواية أبي داود : "هكذا ذكره أبو داود، وأن الذي سأل هذا السؤال هم اليهود، والمشهور في هذه القصة أن المشركين هم الذين أوردوا هذا السؤال، وهو الصحيح، ويدل عليه كون السورة مكية، وكون اليهود يحرمون الميتة كما يحرمها المسلمون، فكيف يوردون هذا السؤال وهم يوافقون على هذا الحكم؟ ويدل عليه أيضا قوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٢١] فهذا سؤال مجادل في ذلك، واليهود لم تكن تجادل في هذا، وقد رواه الترمذي بلفظ ظاهره أن بعض المسلمين سأل هذا السؤال، ولفظه «أتى ناس إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أنأكل مما نقتل

---

[١] – أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الضحايا ، باب في ذبائح أهل الكتاب (٣ / ١٠١) برقم (٢٨١٩) . قال الحافظ شمس الدين بن القيم رحمه الله هذا الحديث له علل :

احدهما : أن عطاء بن السائب اضطرب فيه فمرة وصله ومرة أرسله

الثانية : أن عطاء بن السائب اختلط في آخر عمره واختلف في الاحتجاج بحديثه وإنما أخرج له البخاري مقرونا بأبي بشر .

الثالثة : أن فيه عمران بن عيينة أخو سفيان بن عيينة قال أبو حاتم الرازي لا يحتج بحديثه فإنه يأتي بالمناكير

الرابعة : أن سورة الأنعام مكية باتفاق ومجيء اليهود إلى النبي صلى الله عليه و سلم ومجادلتهم إياه إنما كان بعد قدومه المدينة وأما بمكة فإنما كان جداله مع المشركين عباد الأصنام . حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (٨ / ١١)

[٢] – الإمام والمحدث أبو عبد الرحمن محمد بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الألباني الأرنؤوطي المعروف باسم محمد ناصر الدين الألباني (١٩١٤ – ١٩٩٩) باحث في شؤون الحديث ويعد من علماء الحديث ذوي الشهرة في العصر الحديث، له الكثير من الكتب والمصنفات في علم الحديث وغيره وأشهرها صحيح الجامع والضعيف الجامع وصفة صلاة النبي ﷺ ، وتخصص في مجال الحديث النبوي وعلومه وتتلمذ على يديه كثير من الطلبة، ومنهم من غدا من باحثي الدراسات الإسلامية بعد ذلك، وله أكثر من ٣٠٠ مؤلف بين تأليف وتخريج وتحقيق وتعليق ، انظر : الفكر التربوي عند الشيخ محمد ناصر الدين الألباني وتطبيقاته في الواقع المعاصر للمفضلي (ص : ٤٠ وما بعدها)

[٣] – هامش سنن أبي داود (٣/ ١٠١) الذي ورد بهامشه حكم الألباني.

[٤] – بتصرف من تفسير ابن كثير (٣ / ٣٢٨ – ٣٢٩) ، وانظر الرواية في سنن الترمذي ، أبواب تفسير القرآن ، باب ومن سورة الأنعام (٥ / ٢٦٤) ، وحكم الألباني بصحته .

ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ ﴾[الأنعام: ١١٨] إلى قوله: ﴿ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾[الأنعام: ١٢١] وهذا لا يناقض كون المشركين هم الذين أوردوا هذا السؤال؛ فسأل عنه المسلمون رسول الله ﷺ ، ولا أحسب قوله «إن اليهود سألوا عن ذلك» إلا وهما من أحد الرواة – والله أعلم–"[١].

٩. قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١ ﴾ [١٤١]

إن القول بمدنية هذه الآية له سببان :

السبب الأول : ذكر بعضهم القول بمدنية هذه الآية نقلاً عن قوم لم يسمهم[٢]، وأورده الرازي بصيغة التمريض[٣]، ولعل من ذهب إلى مدنية هذه الآية هو استدلال بعض العلماء بقوله تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ ﴾ على وجوب الزكاة [٤]، ومن المعلوم أن الزكاة لم تفرض إلا في السنة الثانية من الهجرة بالمدينة [٥].

ولمناقشة هذا السبب يمكن أن نقول : قد يكون المراد هنا الزكاة المفروضة لكن ليست الزكاة ذات الأنصباء والمقادير ، ولا يمنع أن يكون المرا دبها الزكاة المفروضة لأن أصل الزكاة إنما فرض بمكة ، يقول الحافظ ابن اكثير – رحمه الله – في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ ﴾ المؤمنون: [٤]:" وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ ﴾ : الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة. والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات النصب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبا

---

[١] – إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤ / ٢٨٩).

[٢] – معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢ / ٢٩٧) .

[٣] – مفاتيح الغيب (١٣ / ١٦٤) .

[٤] – من أبرز من استدل بهذه الآية على الزكاة المفروضة الإمام الشافعي ، تفسير الإمام الشافعي (٢ / ٨٢٨) ، وهناك من نقل أقوال العلماء في ذلك ، انظر : تفسير عبد الرزاق (٢ / ٦٧) ، جامع البيان للطبري (١٢ / ١٥٨) ، تفسير ابن أبي حاتم (٥ / ١٣٩٨) ، بحر العلوم للسمرقندي (١ / ٤٨٩) . وغيرهم .

[٥] – انظر : البناية شرح الهداية (٣ / ٢٨٨) ، حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح (ص: ٧١٣).

بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ "[1] وكلامه هذا – رحمه الله – يدل دلالة واضحة على مكية هذه الآية .

وهناك كثير من العلماء من قال بفرض الزكاة بمكة ، " والمعتمد أن الزكاة فرضت بمكة إجمالاً، وبينت بالمدينة تفصيلاً "[2] ، حيث"كانت فريضة الزكاة بمكة في أول الاسلام مطلقة، لم يحدد فيها المال الذي تجب فيه، ولا مقدار ما ينفق منه، وإنما ترك ذلك لشعور المسلمين وكرمهم، وفي السنة الثانية من الهجرة – على المشهور – فرض مقدارها من كل نوع من أنواع المال، وبينت بيانا مفصلا"[3].

"وفي المرحلة المكية شرعت الزكاة بمعناها العام، وهو الحث على الصدقات وإعطاء المحروم وإطعام المسكين دون تحديد للأنصبة والمقادير، فوصفت السور المكية المؤمنين بأنهم ﴿لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ﴾[المؤمنون: ٤] و ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ١٩﴾[الذاريات: ١٩] أما تحديد النصاب ومقادير الزكاة فقد شرع في سنة اثنتين من الهجرة " [4].

السبب الثاني : أن من ذهب إلى مدنية هذه الآية بنى قوله على ما ورد في سبب نزول قوله تعالى : ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ حيث جاء عن ابن جريج أنه قال: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس[5]، جَدَّ نخلا فقال: لا يأتين اليوم أحدٌ إلا أطعمته! فأطعم ، حتى أمسى وليست له ثمرة ، فقال الله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [6] .

وهذا الاستدلال على مدنية الآية مردود نظراً لضعف الرواية السابقة – والله أعلم – .

---

(1) – تفسير ابن كثير (٥ / ٤٦٢) .

(2) – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤ / ١٢٦٠)

(3) – فقه السنة (١ / ٣٢٨)

(4) – السيرة النبوية الصحيحة (ص: ٦٢٦) .

(5) – ثابت بن قيس بن شماس بن ظهير بن مالك بن امرئ القيس ابن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج،وأمه امرأة من طي ، يكنى أبا مُحَمَّد بابنه مُحَمَّد ،كان ثابت بن قيس خطيب الأنصار، ويقال له خطيب رسول الله ﷺ كما يقال الحسّان شاعر النبي ﷺ ، شهد أحدًا وما بعدها من المشاهد. وقتل يوم اليمامة شهيدًا رحمه الله في خلافة أبي بكر الصديق رضى الله عنه. انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١/ ٢٠٠) ، أسد الغابة (١/ ٤٥١) ، الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ٥١١) .

وبعد دراسة إسناده تبين لي – والله أعلم – أنه مرسل لأن ابن جريج لم يدرك قيس بن شماس ، كما انه لم يشهد نزول الآية ، أضف إلى ذلك أن ابن جريج كان من المدلسين ، يقول ابن حجر في طبقات المدلسين :" وصفه النسائي وغيره بالتدليس قال الدارقطني شر التدليس تدليس بن جريج فإنه قبيح التدليس لا يدلس الا فيما سمعه من مجروح " تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس (ص: ٤١) .

(6) – جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢ / ١٧٤) وبنحوه روى سفيان الثوري في تفسيره (ص: ١٠٩) ، وأشار الثعلبي إلى هذه القصة في الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٤ / ١٩٨) ، والسمعاني في تفسيره (٢ / ١٥٠) .

وبعد دراسة إسناده تبين لي – والله أعلم – أنه مرسل لأن ابن جريج لم يدرك قيس بن شماس ، كما انه لم يشهد نزول الآية ، أضف إلى ذلك أن ابن جريج كان من المدلسين ، يقول ابن حجر في طبقات المدلسين :" وصفه النسائي وغيره بالتدليس قال الدارقطني شر التدليس تدليس بن جريج فإنه قبيح التدليس لا يدلس الا فيما سمعه من مجروح " تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس (ص: ٤١) .

١٠. قوله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥ ﴾ [١٤٥]

ذهب إلى مدنية هذه الآية الإمام البقاعي[١][٢]، ويقول ابن العربي[٣] : "هذه الآية مدنية ، مكية في قول الأكثر، نزلت على النبي ﷺ يوم نزل عليه قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾[المائدة: ٣] وذلك يوم عرفة "[٤].

لكن إذا نظرنا إلى أقوال العلماء نجد أنهم بينوا تفصيلاً مكيتها حيث يقول ابن حجر: " وذلك أنها وردت في الكفار الذين يحلون الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، ويحرمون كثيرا مما أباحه الشرع ، فكأن الغرض من الآية إبانة حالهم وأنهم يضادون الحق ، فكأنه قيل : لا حرام إلا ما حللتموه ، مبالغة في الرد عليهم ، وحكي عن قوم أن آية الأنعام المذكورة نزلت في حجة الوداع فتكون ناسخة ، ورد بأنها مكية كما صرح به كثير من العلماء ، ويؤيده ما تقدم قبلها من الآيات من الرد على مشركي العرب في تحريمهم ما حرموه من الأنعام ، وتخصيصهم بعض ذلك بآلهتهم إلى غير ذلك مما سبق للرد عليهم ، وذلك كله قبل الهجرة إلى المدينة" [٥] .

---

[١] – إِبْرَاهِيم بن عمر بن حسن الرِّبَاط بِضَم الرَّاء بعْدهَا مُوَحدَة خَفِيفَة ابْن عَليّ بن أبي بكر برهَان الدّين وكني نَفسه بِأبي الْحسن الخرباوي البقاعي ، أخذ القراآت عَن ابْن الْجَزرِي وَغَيره، والْحَدِيث عَن الْحَافِظ ابْن حجر، وَالْفِقْه عَن التقي بن قَاضِي شُهْبَة. وَمهر وبرع فِي الْفُنُون وداب فِي الحَدِيث،كَانَت وَفَاته فِي سنة ٨٨٥ هـ خَارج دمشق من مؤلفاته نظم الدُّرَر فِي تناسب الْآي والسور لطيف الحجم يتَعَلَّق بِعلم التَّفْسِير قَالَ الْعَلامَة الإِمَام السُّيُوطِيّ هُوَ مؤلف لم يسْبقهُ إِلَيْهِ أحد جمع فِيهِ من أسرار الْقُرْآن الْعَظِيم مَا تتحير مِنْهُ ، وصنف الْفَتْح الْقُدسِي فِي تَفْسِير آيَة الْكُرْسِيّ وغيرها . انظر : نظم العقيان في أعيان الأعيان (ص: ٢٤) طبقات المفسرين للأدنه وي (ص: ٣٤٧) .

[٢] – نظم الدرر للبقاعي (٧ / ٣٠١) .

[٣] – محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد الإمام أبو بكر بن العربي المعافري الأندلسي الحافظ.أحد الأعلام. صنف التفسير وأحكام القرآن وشرح الموطأ وشرح الترمذي وغير ذلك وولي القضاء ببلده ، مات في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. انظر : طبقات المفسرين للسيوطي (ص: ١٠٥) طبقات المفسرين للداوودي (٢/ ١٦٧)

[٤] – أحكام القرآن (٢ / ٢٩٠)

[٥] – فتح الباري (٩ / ٦٥٧)

١١. قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [من الآية ١٥١ إلى الآية ١٥٣] ، وهي الآيات التي تشتمل على الوصايا العشر .

ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآيات الثلاث مدنية ، ويقول ابن عبد البر[١] : "وقد أجمع العلماء أن سورة الأنعام مكية إلا قوله : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ الآيات الثلاث"[٢].

وليس فقط هذه الروايات التي استند عليها من قال بمدنية هذه الآيات ، بل استندوا كذلك على الموضوعات التي تتحدث عنها تلك الآيات حيث إنها تتحدث عن التشريعات ومن المعلوم أن التشريعات إنما كانت في العهد المدني – والله أعلم – .

لكن لو نظر القارئ إلى تلك الروايات يجدها لا تخلو من ضعف[٣] ، أما ما استندوا عليه من احتوائها على التشريعات فقد رد على ذلك الإمام الشاطبي [٤] حيث قال : "إذا رأيت في المدنيات أصلاً كلياً فتأمله تجده جزئياً بالنسبة إلى ما هو أعم منه أو تكميلاً لأصل كلي "[٥]ويقول أيضاً : "المدني من السور ينبغي أن يكون منزلا في الفهم على المكي ، وكذلك المكي بعضه مع بعض ، والمدني بعضه مع بعض على حسب ترتيبه في التنزيل وإلا لم يصح ، والدليل على ذلك أن معنى الخطاب المدني في الغالب مبني على المكي ، كما أن المتأخر من كل واحد منهما مبني على متقدمه ، دل على ذلك الاستقراء ، وذلك إنما يكون بيان مجمل أو تخصيص عموم أو تقييد مطلق أو تفصيل ما لم يفصل أو تكميل ما لم يظهر تكميله ، وأول شاهد على هذا أصل الشريعة فإنها جاءت متممة لمكارم الأخلاق ، ومصلحة لما أفسد قبل من ملة إبراهيم – عليه السلام – ويليه تنزيل سورة الأنعام ، فإنها نزلت مبينة لقواعد العقائد وأصول الدين ، وقد خرج العلماء منها قواعد التوحيد التي صنف فيها المتكلمون من أول إثبات واجب الوجود إلى إثبات الإمامة ، هذا ما قالوا وإذا نظرت بالنظر المسوق في هذا الكتاب – الموافقات – تبين به من قرب بيان القواعد الشرعية الكلية التي إذا انخرم منها كلي واحد انخرم نظام الشريعة ، أو نقص منها أصل كلي ، ثم لما هاجر رسول الله

---

[١] – يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي، أبو عمر: من كبار حفاظ الحديث، مؤرخ، أديب، بحاثة. يقال له حافظ المغرب.توفي بشاطبة سنة ٤٦٣ هـ. من كتبه الاستيعاب في تراجم الصحابة، جامع بيان العلم وفضله ، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد " ،انظر : سير أعلام النبلاء ط الحديث (١٣/ ٣٥٧) الأعلام للزركلي (٨/ ٢٤٠)

[٢] – التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١ / ١٤٦) .

[٣] – انظر هوامش تلك الروايات لمعرفة مواطن الضعف فيها .

[٤] – أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الغرناطي الشهير بالشاطبي: العلامة المؤلف المحقق النظار أحد الجهابذة الأخيار وكان له القدم الراسخ في سائر الفنون والمعارف أحد العلماء الأثبات وأكابر الأئمة الثقات الفقيه الأصولي المفسر المحدّث، له استنباطات جليلة وفوائد لطيفة وأبحاث شريفة مع الصلاح والعفة والورع واتباع السنة واجتناب البدع ، من كتبه الموافقات في أصول الفقه ، المجالس ، الاعتصام ، انظر : شجرة النور الزكية لابن مخلوف (١/ ٣٣٢) ، درة الحجال لابن القاضي (١ / ١٨٢) ، نيل الابتهاج للتنبكتي (ص : ٤٨)

[٥] – الموافقات (٣ / ٤٦)

ﷺ إلى المدينة كان من أول ما نزل عليه سورة البقرة وهي التى قررت قواعد التقوى المبنية على قواعد سورة الأنعام "[١]

ويقول – شيخ الإسلام – ابن تيمية مقرراً أن ما ورد في هذه الآيات هي من الأصول العملية التي اتفق عليها الأنبياء والرسل في شرائعهم : فالرسل متفقون في الدين الجامع للأصول الاعتقادية والعملية ، فالاعتقادية كالإيمان بالله وبرسله وباليوم الآخر والعملية كالأعمال العامة المذكورة في الأنعام والأعراف وسورة بني إسرائيل كقوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾إلى آخر الآيات الثلاث ... فهذه الأمور هي من الدين الذي اتفقت عليه الشرائع كعامة ما في السور المكية فإن السور المكية تضمنت الأصول التي اتفقت عليها رسل الله؛ إذ كان الخطاب فيها يتضمن الدعوة لمن لا يقر بأصل الرسالة [٢].

- من الملاحظ أن الروايات الدالة على نزول السورة جملة واحدة بمكة كلها روايات مثبتة ، أما الروايات التي تدل على استثناء بعض الآيات فهي روايات نافية ، ومن المعلوم في الأصول أن المثبت مقدم على النافي عند التعارض ، وفي ذلك يقول الإمام الجصاص[٣] : "ومتى اجتمع خبر ناف وخبر مثبت كان المثبت أولى من النافي"[٤]، وجاء في كتاب الأصول : "الْمُثبت أولى من النَّافِي لِأَن الْمُثبت أقرب إِلَى الصدْق من النَّافِي وَلِهَذَا قبلت الشَّهَادَة على الْإِثْبَات دون النَّفْي"[٥].

بعد كل ما قدمناه يمكن أن نقول – والعلم عند الله وحده – أن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة بمكة ولا يستثنى منها شيء .

---

[١] – الموافقات (٣ / ٤٠٦)

[٢] – بتصرف من مجموع الفتاوى (١٥ / ١٥٩ – ١٦٠)

[٣] – أبو بكر أحمد بن على الرازى ، شيخ الحنفية ببغداد الذى انتهت اليه رئاسة المذهب فى زمانه.إمام أصحاب الرأي فِي وقته، كَانَ مشهورا بالزهد والورع، وله تصانيف كثيرة مشهورة ، منها كتاب أحكام القرآن ، وشرح كل من مختصر الكرخي ومختصر الطحاوي والجامع الصغير، انظر : تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٥/ ٧٢) تاج التراجم لابن قطلوبغا (ص: ٩٦)

[٤] – الفصول في الأصول (٣ / ١٧٢) .

[٥] – انظر : أصول السرخسي (٢ / ٢١) .

المبحث الثاني: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها.

سورة الأنعام سورة مكية، وهي أول سورة مكية في ترتيب المصحف. فالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة كلّها سور مدنيّة أمّا سورة الأنعام، فهي أوّل سورة مكّيّة توضع في السبع الطوال من سور القرآن الكريم .

وقد يُظن أنه ليس ثمة تناسب بين السور المدنية السابقة للسورة الكريمة وبين سورة الأنعام ، إذ أنها مدنية والأخيرة مكية، وقد قرر كثير من أهل العلم، أن ثمة فارقًا واضحًا بين موضوعات سور القرآن المكي، وموضوعات سور القرآن المدني.

ومع هذا لو تأمل القاريء السور المدنية السابقة وتأمل سورة الأنعام لوجد أن هناك علاقة تربطهم ببعضهم البعض .

والحكمة في دراسة هذا المبحث هو بيان السر وراء هذا الترتيب المعجز للسورة الكريمة ، بمعنى سبب مجيء هذه السورة في ترتيبها الذي وضعت به في المصحف الشريف ، ولبيان ذلك لابد من بيان علاقة السورة بما سبقها من السور ، وعلاقة السورة بالسورة اللاحقة لها .

يقول الإمام ابن عاشور :"سورة الأنعام من السبع الطوال التي جعلت في أول القرآن لطولها وهي سور: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، الأنعام، والأعراف، وبراءة، وقدم المدني منها وهي سور: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، ثم ذكر المكي وهو: الأنعام، والأعراف على ترتيب المصحف العثماني اعتباراً بأن سورة الأنعام أنزلت بمكة بعد سورة الأعراف فهي أقرب إلى المدني من السور الطوال"[١].

ثم إن "الناظر إلى ترتيب السور كلها فى المصحف يرى أنه قد روعى فى ترتيبها الطول والتوسط والقصر فى الجملة، ليكون ذلك أعون على التلاوة وأسهل فى الحفظ فالناس يبدءون بقراءته من أوله فيكون الانتقال من السبع الطوال إلى المئين فالمثانى فالمفصل أنفى للملل وأدعى إلى النشاط، ويبدءون بحفظه من آخره لأن ذلك أسهل على الأطفال ولأنه قد روعى التناسب فى معانى السور مع التناسب فى مقدار الطول والقصر"[٢].

المطلب الأول : مناسبة السورة للسور السابقة لها :

---

[١] – التحرير والتنوير لابن عاشور (٨ / ٧) والمراد قرب الترتيب لا قرب الخصائص المدنية .

[٢] – تفسير المراغي (٧/ ٦٩)

أولاً : علاقة سورة الأنعام بسورة الفاتحة :

كانت هذه السورة بأسرها متعلقة بالفاتحة من وجه كونها شارحة لإجمال قوله :﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢] [1]

كما أن كلا السورتين افتتحت بالحمد ففي الفاتحة ابتدات بقوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢] ، ولفظ العالمين شامل لكل ما هو معلوم مما خلق الله تعالى ، فيشمل كل صغيرة وكبيرة ، وظاهرة وباطنة ، وماضية وحالية ومستقبلة .

وفي سورة الأنعام افتتحت بالحمد ، وخصت بعده بعض المخلوقات العظام بالذكر وهما السماوات والأرض حيث يقول الله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾[الأنعام: ١]

يقول الإمام الرازي : " واعلم أن المذكور هاهنا — أول سورة الأنعام – قسم من أقسام قوله : ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢] لأن لفظ العالم يتناول كل ما سوى الله، والسموات والأرض والنور والظلمة قسم من أقسام ما سوى الله، فالمذكور في أول سورة الأنعام كأنه قسم من أقسام ما هو مذكور في أول سورة الفاتحة، وأيضا فالمذكور في أول سورة الأنعام أنه خلق السموات والأرض، والمذكور في أول سورة الفاتحة كونه رباً للعالمين، وقد بينا أنه متى ثبت أن العالم محتاج حال بقائه إلى إبقاء الله كان القول باحتياجه حال حدوثه إلى المحدث أولى، أما لا يلزم من احتياجه إلى المحدث حال حدوثه احتياجه إلى المبقي حال بقائه، فثبت بهذين الوجهين أن المذكور في أول سورة الأنعام يجري مجرى قسم من أقسام ما هو مذكور في أول سورة الفاتحة "[2] ، ويقول في موضع آخر في حديثه عن افتتاح الفاتحة والأنعام وفاطر بالحمد : " فإن قيل: ما الفرق بين الخالق وبين الفاطر والرب؟ وأيضا لم قال هاهنا خلق السماوات والأرض بصيغة فعل الماضي؟ وقال في سورة فاطر : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[فاطر: ١] بصيغة اسم الفاعل؟

فنقول في الجواب عن الأول: الخلق عبارة عن التقدير وهو في حق الحق سبحانه عبارة عن علمه النافذ في جميع الكليات والجزئيات ، الواصل إلى جميع ذوات الكائنات والممكنات ، وأما كونه فاطراً فهو عبارة عن الإيجاد والإبداع، فكونه تعالى خالقا إشارة إلى صفة العلم، وكونه فاطرا إشارة إلى صفة القدرة، وكونه تعالى ربا ومربيا مشتمل على الأمرين، فكان ذلك أكمل .

---

[1] – أسرار ترتيب القرآن (ص: ٨٣)

[2] – مفاتيح الغيب : (١/ ١٦٢)

والجواب عن الثاني: أن الخلق عبارة عن التقدير وهو في حق الله تعالى عبارة عن علمه بالمعلومات، والعلم بالشيء يصح تقدمه على وجود المعلوم. ألا ترى أنه يمكننا أن نعلم الشيء قبل دخوله في الوجود. أما إيجاد الشيء، فإنه لا يحصل إلا حال وجود الأثر بناء على مذهبنا أن القدرة إنما تؤثر في وجود المقدور حال وجود المقدور. فلهذا السبب قال: خلق السماوات والمراد أنه كان عالما بها قبل وجودها، وقال: فاطر السماوات والأرض والمراد أنه تعالى إنما يكون فاطرا لها وموجدا لها عند وجودها"[1]

وإذا نظرنا إلى معنى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ٣] نجد معناه أنه المعبود في السموات والمعبود في الأرض[2] وهو معنى قوله: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢] فالله عَلَم على ربنا تبارك وتعالى، ومعناه: الإله أي المعبود .

وإذا نظرنا إلى محتوى سورة الأنعام نجد في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٣] تاكيداً لقول الله تعالى في سورة الفاتحة : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة: ٤]حيث بين في سورة الأنعام الأمور التي استحق لأجلها ان يكون ملك ذلك اليوم ومالكه وهو أنه عالم الغيب والشهادة وأنه حكيم خبير ، فمن كانت هذه صفاته كان حرياً أن يكون مالك يوم الدين – والله أعلم – .

كما أن قوله تعالى : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة: ٤] يعني يوم الجزاء كما يقال كما تدين تدان أي تُجازي تُجازى وهو الذي بينته آية سورة الانعام : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٠] "[3] إلى جانب عرضها لبعض مواقف ذلك اليوم .

كما أننا نجد أن جل قضايا سورة الأنعام تفصيل لكيفية عبادة الله وحدة والاستعانة عليه وحده واللتان أشير إليهما في قوله تعالى من سورة الفاتحة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة: ٥] – والله أعلم – .

والمتأمل لسورة الأنعام يجد أنه في اكثر من موضع قد تحدثت عن الصراط المستقيم الوارد في سورة الفاتحة في قوله تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة: ٦] ، حيث إن سورة الأنعام حاربت

---

[1] – المرجع السابق : (١٢/ ٤٧٤)

[2] – ذكر هذا المعنى : الكرماني في غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني (١/ ٣٥١) ، وابن عطية في المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٢٦٧) وغيرهما .

[3] – بتصرف من تفسير ابن أبي العز جمعا ودراسة (ص: ٢٧) .

الشرك وواجهت المشركين وأفعالهم المضادة للتوحيد الذي هو مقتضى الصراط المستقيم ، وبينت أن كل ما خالف الفطرة والدين إنما هو خلاف الصراط المستقيم ، وبين ذلك في اكثر من موضع ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٩] ، بين حال المكذبين ووصف حالهم ومآلهم ، ثم بين أن ذلك من الضلال المخالف للصراط المستقيم ، وبين أن الهداية والضلال بيد الله تعالى وحده ، ويشهد لذلك من السورة ذاتها قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾[الأنعام: ١٢٥ – ١٢٦] ، كذلك بعد ذكر الوصايا العشر بين الله تعالى أنها الصراط المستقيم وهو الطريق الذي ارتضاه الله تعالى لعباده ، وبين مكانته بنسبته إليه وحذر من الطرق الزائغة التي تحيد عن الصراط المستقيم حيث يقول : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] – والله أعلم – .

كذلك بعد أن ساق الحديث عن الأنبياء والرسل بين أن كل الأنبياء والرسل كانوا من أصحاب الصراط المستقيم وأنهم دعاة إليه ، ومن المعلوم أن الأنبياء والرسل كانوا جميعاً يدعون إلى التوحيد ويحاربون الشرك والمعاصي بكل الأنواع حيث قال : ﴿ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٧] ، وبين أن الصراط المستقيم هو مقتضى الحنيفية التي كان عليها أبو الأنبياء – إبراهيم عليه السلام – حيث قال : ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦١] ، حيث إن إبراهيم – عليه السلام – بين أن من لم يهده الله فإنه يكون من الضالين في قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٧] وهو مصداقاً للدعاء في سورة الفاتحة : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة: ٦ – ٧] لذلك أمر الله تعالى نبيه أن يقتدي بهم وبهدايتهم حيث قال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ [الأنعام: ٩٠] – والله تعالى أعلم – .

ثانياً : علاقة سورة الأنعام بسورة البقرة :

والمتأمل لسورة الأنعام في جمعها الأصول والعلوم والمصالح الدنيوية يجدها نظير سورة البقرة في جمعها الأصول والعلوم والمصالح الدينية، وما ذكر فيها من العبادات المحضة، فعلى وجه الاختصار والإيماء؛ كنظير ما وقع في البقرة من علوم بدء الخلق ونحوه، فإنه على وجه الإيجاز والإشارة[1]

فإن قال قائل : فلِمَ لا أفتتح القرآن بهذه السورة مقدَّمة على سورة البقرة؛ لأن بدء الخلق سابق على الأحكام والتعبدات؟!

قلت: للإشارة إلى أن مصالح الدين والآخرة مقدَّمة على مصالح المعاش والدنيا، ولأن المقصود من الخلق إنما هو العبادة، فقدم ما هو الأهم في نظر الشرع [2]، ولأن علم بدء الخلق كالفضلة، وعلم الأحكام والتكاليف متعين على كل واحد؛ فلذلك لا ينبغي النظر في علم بدء الخلق وما جرى مجراه من التواريخ إلا بعد النظر في علم الأحكام وإتقانه [3].

والقارئ للقرآن الكريم يجد أن سورة الانعام ترتبط بسورة البقرة في عدة مواضيع تحدثت عنها كلا السورتين بطريقة تكمل بعضها البعض ، وتشرح وتوضح بعضها بعضاً من ذلك ما يلي:

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى وجها من أوجه بغي اليهود في سورة البقرة وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾ [البقرة: ٦١] ثم ذكر نتيجة ذلك البغي في سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٦] .

يقول الإمام ابن عاشور: " إن الجرائم التي عدت عليهم كلها مما أحدثوه بعد موسى عليه السلام، فقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٤٦] يراد منه البغي الذي أحدثوه زمن موسى. في مدة التيه، مما أخبر الله به عنهم مثل قولهم: ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾ [البقرة: ٦١] "[4]

---

[1] – أسرار ترتيب القرآن (ص: ٨٢)

[2] – ولهذا جاء في البقرة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ} "البقرة: ٢١" وليس في القرآن غيره بلفظه، قال الكرماني: العبادة في الآية التوحيد، وهو أول ما يلزم العبد من المعارف، فكان هذا أول خطاب خاطب به العباد في القرآن، ثم ذكر سائر المعارف، وبنى عليها العبادات فيما بعدها من السور والآيات "أسرار التكرار في القرآن" "٢٢".

[3] – أسرار ترتيب القرآن (ص: ٨٢)

[4] – التحرير والتنوير لابن عاشور (٨ / ١٤٣)

ومن المعلوم أن الدعاء والتضرع إلى الله تعالى والتوجه إليه فطرة فطر الله عليها الخلق سواء كانوا موحدين أم مشركين ، وهذه حقيقة فبعد أن بين أن الله قريب مجيب لمن دعاه في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، بين حقيقة المشركين وتوجههم إليه عند الوقوع في الضراء في سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنعام: ٤١]

ثم إن الله سبحانه وتعال بين في سورة البقرة أن الإسلام هو دين أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام وذريته من بعده وكانت هي وصايتهم لذرياتهم من بعدهم وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٢ – ١٣٣]

ثم بين في سورة الأنعام أن النبي ﷺ كان على ما كان عليه أبو الأنبياء وذريته من بعده ألا وهو الإسلام والبراءة من الشرك وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[الأنعام: ١٤]

يقول الإمام ابن عاشور – رحمه الله – : " ومعنى أول من أسلم أنه أول من يتصف بالإسلام الذي بعثه الله به ، فهو الإسلام الخاص الذي جاء به القرآن ، وهو زائد على ما آمن به الرسل من قبل، بما فيه من وضوح البيان والسماحة، فلا ينافي أن بعض الرسل وصفوا بأنهم مسلمون ، كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم ويعقوب : ﴿ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٢] ، ويجوز أن يكون المراد أول من أسلم ممن دعوا إلى الإسلام ، ويجوز أن يكون الأول كناية عن الأقوى والأمكن في الإسلام، لأن الأول في كل عمل هو الأحرص عليه والأعلق به، فالأولية تستلزم الحرص والقوة في العمل "[1]

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩] أورد الإمام الرازي في تفسيره لهذه الآية عدة اقوال منها : " أن المراد من الآية أخذوا ببعض وتركوا بعضاً كما

(١) – التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٥٩)

قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[البقرة: ٨٥] "[١] ، ويقول الشيخ محمد رشيد رضا – رحمه الله – : " وهي – آية سورة الأنعام – تفيد أن تفريق الدين قد يستلزم مفارقته لأنه واحد لا يتجزأ. فمن التفريق الإيمان ببعض الكتاب دون بعض ولو بالتأويل وترك العمل، والكفر بالبعض كالكفر بالجميع مفارقة للدين الذي لا يتجزأ "[٢] وهو الذي يفيده قوله تعالى : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[البقرة: ٨٥] ، وقد أفادت آية الأنعام على التبرّي من الذين يفرقون دين الله إلى جانب الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة والذي ورد في سورة البقرة.

وفي قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨)﴾ [الأنعام: ٦٨] استنبط بعض العلماء من هذه الآية رفع مسؤولية ما يقع من الإنسان من أمور محظورة نسيانا وسهوا وخطأ غير متعمد[٣].

ويمكن أن يقال بأن الله تعالى أورد في سورة الأنعام نموذج من نماذج النسيان التي يندب لنا أن ندعو الله تعالى أن لا يؤاخذنا بها والذي جاء في نهاية سورة البقرة حيث علم الله رسوله والمؤمنين الدعاء بأن لا يؤاخذهم إذا نسوا أو أخطأوا وذلك في قوله تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾ [البقرة: ٢٨٦]

وفي موضوع آخر حيث إنه بعد أن بين مضاعفة الأجر والحسنات جزاء للانفاق في سبيل الله في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة: ٢٦١] بين في سورة الانعام أن مضاعفة الأجر والحسنات في جميع الأعمال الصالحة ، بل إن كل حسنة على عمل صالح تضاعف ، وأنه لا مضاعفة للسيئات وذلك في قوله تعالى : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠)﴾[الأنعام: ١٦٠]

---

[١] – مفاتيح الغيب (١٤/ ١٨٩)

[٢] – تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (١٨٨/٨) .

[٣] – التفسير الحديث (٤/ ١١٢) .

ومن وجه آخر ذكر أن المكذبين بالقرآن في كل زمان ومكان ، ومن كل الأجناس والأصناف مذهبهم واحد في عدم الإيمان بالقرآن ، بالرغم من مدح الله تعالى له ووصفه بأنه هو الحق ففي سورة البقرة بين هذا الأمر في جنس اليهود وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [البقرة: ٩١] ، ثم بين أن هذا الأمر كان متفشياً في المشركين أصحاب الجاهلية قبل أن يعلم به اليهود وذلك في قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٦]

وكأنه يبين بذلك أن التكذيب إنما هو أمر جاهلي ، ومن علم الحق وكذب به فهو أسوأ من الجاهلين ، وفي كل ذلك تحذير من فعل هذا الأمر – والله تعالى أعلم – .

ومن وجه آخر بين في سورة البقرة علمه الشامل المحيط بكل شيء ، صغير وكبير ، ظاهر وباطن ، قريب وبعيد وذلك في قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾[البقرة: ٢٥٥] ثم ذكر في سورة الأنعام بعضاً من ذلك العلم الذي لا يحيط به إلا هو وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٩]

ولقد ورد في كلا السورتين تهديد بنزول العذاب وفق ما يقتضيه السياق ، وما يناسب المخاطبين ، ففي سورة البقرة هدد أهل الكتاب بنزول العذاب : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٠] ، أما في سورة الأنعام فجاء الخطاب للمشركين في العهد المكي وذلك في قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] – والله تعالى أعلم – .

وفي موضع آخر في سورة البقرة ذكر بوجه عام أن الله لا يكلف العباد فوق طاقاتهم وعلم العباد كيفية التأدب في الدعاء عند التوسل إلى الله تعالى في عدم المؤاخذة عند الخطأ والنسيان وغير ذلك مما تحكيه الآية في قوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا

تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]

ثم ذكر في سورة الأنعام بعض الأوجه التي لا يكلف الله فيها النفس إلا وسعها والتي يخشى الناس أن يقعوا في المحظور بسببها وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام: ١٥٢] – والله تعالى اعلم – .

وإذا تأملنا مواضع أخرى من كلا السورتين نجد توافق لما تحكيه كلا السورتين ، ففي سورة البقرة بين حقيقة الكفار من الدعوة وأنه يتساوى عندهم الإنذار من عدمه ، فهم لا ينتفعون من هذا الإنذار ، فكانت العاقبة أن ختم الله تعالى على قلوبهم ، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾[البقرة: ٦ – ٧] ، ثم بين تعالى في سورة الأنعم كيف يكون ذلك الختم على السمع والأبصار وبين سبب عدم انتفاعهم بالإنذار وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٢١ – ٢٥] ولعله أورده هنا أيضاً ليؤكد أن حقيقة أهل الكفر واحدة في كل زمان ومكان ، سواء كانوا في العهد المكي أم المدني – والله أعلم – .

وبين كذلك في كلا السورتين حال اليهود من كتابهم الذي أرسل على نبيهم ، ففي سورة البقرة جاء قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [البقرة: ٧٥ - ٧٦] ، وقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[البقرة: ٧٩] ، وذكر ذلك في سورة الانعام ليحذر العرب من فعلهم وذلك

في قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام: ٩١] وسيأتي الحديث مفصلاً عن هذه الآية في موضعها .

وفي موضع آخر من سورة البقرة ساق قصة نبيه إبراهيم – عليه السلام – وذلك في قوله تعالى :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِىۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٤]

حيث إنه استحق أن يكون إماما للناس بعد أن أتم ما فرض الله تعالى عليه من أوامر وواجبات ، وبين تعالى أن إبراهيم – عليه السلام – تمنى أن يكون من ذريته أئمة كذلك ، إلا أن الله تعالى بين أنه لا عهد للظالمين ، ولا ظلم كظلم الشرك ، وأن أهل التوحيد والإيمان هم من يستحقون الإمامة والاستخلاف على وجه هذه الأرض ، وذلك كله بينه وفصله في أواخر سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٦١ – ١٦٥]

كما أنه – عليه السلام – نال شرف بناء أطهر بقعة على وجه الأرض كما بينه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾[البقرة: ١٢٧] وبالتالي فإن الاستخلاف وعمارة باقي الأرض إنما هي من نصيب المؤمنين الموحدين الذين سلكوا مسلك الحنيفية التي جاء بها خليل الله إبراهيم – عليه السلام – وهو الذي جاءت به الآيات المذكورة سابقاً من سورة الأنعام .

وبين استجابة الله تعالى لنبيه إبراهيم – عليه السلام – بأن جعل من ذريته أئمة وأنبياء وذلك ما تضمنه قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ [الأنعام: ٨٤] إلى قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٠]

ولقد ذكر في سورة البقرة مناظرة نبيه إبراهيم – عليه السلام – مع أهل الشأن والملك في ذلك الزمان وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ

إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾[البقرة: ٢٥٨] واستدل عليه ببعض المظاهر الكونية وهي شروق الشمس من المشرق وغروبها من المغرب .

أما في سورة الأنعام ذكر محاجته لعبدة الكواكب من عامة قومه ، وبين أن ذلك من الشرك الذي لا يرتضيه الله تعالى واستدل عليهم أيضاً بظواهر كونية وذلك في قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾[لأنعام: ٧٥ – ٧٩]

وفي موضع سورة البقرة ذكر دعاء نبيه إبراهيم – عليه السلام – للمؤمنين بأن يرزقهم الله تعالى من الثمرات وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٦]

ثم بين في سورة الأنعام نعمة أخرى يستحقها المؤمنون الموحدون الذين خلعوا ثوب الشرك واستبدلوه بثوب الإيمان والتوحيد وهي نعمة الأمن بذلك فقال تعالى : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٨١ – ٨٣] فمن الأهمية للانسان أن يملك المطعم والمشرب والأمان – والله تعالى أعلم – .

ولقد امتدح في كلا السورتين أهل الكتاب ، حيث ذكر كل آية بما يقتضيه المقام من كل سورة ، ففي سورة البقرة ذكر ذلك حتى يقيم الحجة على من لم يؤمن من أهل الكتاب وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ

يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٠ – ١٢١]، وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٥ – ١٤٦]

أما في سورة الأنعام ذكر ذلك حتى يقيم الحجة على المشركين ، وليبين أن الرسول ﷺ لم يكن بدعاً من الرسل بل جاء مصدقاً بما جاء به الأنبياء من قبله ، والمؤمنون من أهل الكتاب هم اكبر دليل على صدق ما جاء به فقال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١٩ – ٢٠] ، وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٤]

وسيأتي تفصيل الكلام عن هذين الموضعين من خلال الدراسة للسورة .

أضف إلى ذلك إثبات صفات الله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته في كلا السورتين وكأنها تفصل بعضها البعض ، أو تزيد من تقديس الله وتنزيهه ، فأثبت صفة الإتيان لله سبحانه وتعالى يوم القيامة على الوجه الذي يليق به حيث يقول تعالى في سورة البقرة : ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٨]

كما أنه أثبت لنفسه صفة العلم الشامل بكل صغيرة وكبيرة ، حيث يتساوى عنده علمي الغيب والشهادة ، وبين عجز الخلق عن إدراك علمه فقال في سورة البقرة : ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، ثم بين سعة علم الله تعالى بعلم الغيب الذي

يعجز عن علمه الخلق وبين بعضاً من أوجه ذلك العلم فقال في سورة الأنعام : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٩] وبين أنه يتساوى عنده علمي الغيب والشهادة حيث قال : ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [الأنعام: ٧٣] وبين انتفاء أن يكون أحد من البشر يعلم الغيب إلا بما أوحاه الله إليه فقال : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الأنعام: ٥٠] – والله تعالى أعلم – .

ويقول الإمام السيوطي : "وكذلك تتعلق بالبقرة من حيث شرحها لإجمال قوله: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ﴾ [البقرة: ٢٩]"(١)

والمتأمل في كلا السورتين يجد أن هناك علاقة وطيدة بين آيات كلا السورتين أكثر مما سبق – والله تعالى أعلم –

ثالثاً : علاقة سورة الأنعام بسورة آل عمران

إن القارئ للقرآن الكريم يجد أن سورة الانعام ترتبط بسورة آل عمران في عدة مواضيع تحدثت عنها كلا السورتين بطريقة تكمل بعضها البعض ، وتشرح وتوضح بعضها بعضاً من ذلك ما يلي :

سورة آل عمران نظيرة سورة الأنعام في المحاجة ، إلا أن كل سورة اختصت بمحاجة أقوام أظهروا الكفر والعناد في عهدها ، فآل عمران كانت في محاجة أهل الكتاب ، وهم كانوا أصحاب الكفر والعناد في العهد المدني ، بينما كانت سورة الأنعام محاجة المشركين وهم أهل الكفر والعناد في العهد المكي .

"كما أن سورة الأنعام تتعلق بآل عمران من جهة تفصيلها لقوله: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِ ﴾[آل عمران: ١٤] ، وقوله: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ ﴾[آل عمران: ١٨٥] الآية."(٢) .

كذلك بين في سورة آل عمران حقيقة ملة إبراهيم – عليه السلام – أنها هي الإسلام ، ونفى عنه الشرك ونفى أن يكون يهودياً أو نصرانياً فقال : ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[آل عمران: ٦٧] حيث إن عيسى – عليه السلام – من ذرية

(١) – أسرار ترتيب القرآن (ص: ٨٣)

(٢) – أسرار ترتيب القرآن (ص: ٨٣)

إبراهيم – عليه السلام – بمعنى أن النصرانية جاءت بعد إبراهيم –عليه السلام – ومن المحال أن يتبع السابق اللاحق ، ثم أمر أهل الكتاب أن يتبعوا ملة إبراهيم – عليه السلام – في كل شئون حياتهم ومن ذلك الطعام – إذ أنه وبلا شك أن كل الأنبياء إنما جاؤوا بما جاءت به الحنيفية – فقال : ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾[آل عمران: ٩٥] ، ثم بين هذا كذلك في سورة الأنعام حقيقة ملة إبراهيم – عليه السلام – وهي الحنيفية التي هي الإسلام ، وزاد عليها وصفاً آخر يقوي من مكانتها ، حيث بين أنها هي الصراط المستقيم فقال : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦١] – والله تعالى أعلم – .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥١] قال ابن عباس – رضي الله عنهما – :" هذه الآيات هي المحكمات التي ذكرها الله في سورة آل عمران اجتمعت عليها شرائع الخلق ولم تنسخ قط في ملة "[1].

وفي العلاقة بين قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٦] وقوله تعالى السابق له في سورة آل عمران : ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٣]

يقول الإمام ابن عاشور : "وجملة: ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ تذييل للجملة التي قبلها قصدا لتحقيق أن الله حرم عليهم ذلك، وإبطالا لقولهم: إن الله لم يحرم علينا شيئاً ، وإنما حرمنا ذلك على أنفسنا اقتداء بيعقوب فيما حرمه على نفسه ؛ لأن اليهود لما انتبزوا بتحريم الله عليهم ما أحله لغيرهم مع أنهم يزعمون أنهم المقربون عند الله دون جميع الأمم، أنكروا أن يكون الله حرم عليهم ذلك وأنه عقوبة لهم ، فكانوا يزعمون أن تلك المحرمات كان حرمها يعقوب على نفسه نذرا لله فاتبعه أبناؤه اقتداء به .

[1] – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٢ / ٣٦١) .

وليس قولهم بحق ؛ لأن يعقوب إنما حرم على نفسه لحوم الإبل وألبانها، كما ذكره المفسرون وأشار إليه قوله تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُ ﴾ في سورة آل عمران .

وتحريم ذلك على نفسه لنذر أو مصلحة بدنية لا يسري إلى من عداه من ذريته ، وأن هذه الأشياء التي ذكر الله تحريمها على بني إسرائيل مذكور تحريمها في التوراة فكيف ينكرون تحريمها ، فالتأكيد للرد على اليهود .

ونظير قوله هنا: ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ قوله في سورة آل عمران ﴿ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣ ﴾ إلى قوله : ﴿ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُ ﴾[آل عمران: ٩٣ - ٩٥]عقب قوله : ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُ ﴾"[1]

وفي موضع آخر من سورة آل عمران أمر بالاعتصام بحبل الله تعالى ونهى عن التفرق وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[آل عمران: ١٠٣] وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥ ﴾[آل عمران: ١٠٥] ، ثم جاء في سورة الأنعام وبين ما هو حبل المراد به هنا فقال : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ، وبين في هذه الآية سبب التفرق وهو اتباع طرق الباطل البعيدة كل البعد عن طريق الحق المستقيم ، الذي هو حبل الله المتين ، والذي جاء به النبي ﷺ الذي أمرنا الله باتباعه حيث قال : ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١ ﴾ [آل عمران: ٣١] وتبرأ ممن تفرقوا فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩ ﴾ [الأنعام: ١٥٩] — والله تعالى أعلم - .

كما أنه أمر نبيه بأن يخبر من يدعوهم ويعلمهم بتوحيده الخالص لله تعالى ، وتوجهه إليه هو وأتباعه حيث قال في سورة آل عمران : ﴿ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠ ﴾[آل عمران: ٢٠] قوله: أسلمت وجهي لله أي قصدت بعبادتي الله، وأقررت بأنه لا إله غيره وكذلك من اتبعن،

---

[1] - التحرير والتنوير لابن عاشور (٨ / ١٤٤)

وقل للذين أعطوا التوراة والإنجيل ، والأميين مشركي العرب أأسلمتم يعني أخلصتم بالتوحيد. ويقال: اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به الأمر، فكأنه يقول أسلموا، فإن أخلصوا بالتوحيد وأسلموا وصدقوا بمحمد ﷺ وبالكتاب، فقد اهتدوا من الضلالة [1] وعبر بالوجه لأنه أشرف ما في الإنسان ، وأشرف ما يتوجه به إلى المقصود – والله أعلم – .

وفي سورة الأنعام خص بعض العبادات بالذكر في الإخلاص لله تعالى ، إلى جانب إعلان الإسلام حيث قال : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣] وإنما ذكر هذه العبادات على وجه الخصوص لأنها تتعلق بموضوع السورة ومحورها ، يقول الحافظ ابن كثير: " يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى"[2] ، وسياتي توضيح ذلك في موضعه .

وفي سورة آل عمران نسب الهدى إلى الله تعالى حيث قال عز من قائل : ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٧٣] ثم بين في سورة الأنعام أن الهداية بيد الله وحده يسوقها لمن يشاء من عباده ، فبعد أن ساق ممن جعلهم أعلام للهداية قال : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾[الأنعام: ٨٨] فمن نسب له الهدى كان أولى بأن تكون الهداية بيده – والله أعلم – .

والمتأمل في كلا السورتين يجد أن هناك علاقة وطيدة بين آيات كلا السورتين أكثر مما سبق – والله تعالى أعلم –

رابعاً : علاقة سورة الأنعام بسورة النساء .

إن المتامل لسورة الأنعام يجد أنها تتصل بسورة النساء بصلة وثيقة ، ففي سورة النساء بين تعالى الخير والعدل والرحمة بالنساء ، وهو منثور في سورة النساء بشكل واضح وبين ، وسورة الأنعام نجد فيها ماكنت عليه الجاهلية من ظلمات في معاملة النساء ، وفي ذلك تذكير البشرية برحمة الله تعالى التي بثها في تعاليم الإسلام .

وإذا كانت سورة النساء محورها إصلاح المجتمع حيث إنها تنظم الكون الصغير الذي ينتمي إليه الإنسان وهو الأسرة ، بمعنى أنها اهتمت بعلاقة الإنسان بالإنسان ، فإن سورة الأنعام محورها إصلاح العقائد ، بمعنى أنها تنظم الكون الشاسع الكبير ، فلا صلاح للكون إلا بصلاح العقائد ، بمعنى آخر تنظم علاقة الإنسان برب الإنسان وهو الله تعالى – والله تعالى أعلم – .

---

(١) – من بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٢٠٢) .

(٢) – تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٣)

فلقد جاءت سورة الأنعام بأكملها لتحاجج المشركين في آياتها ، بل لقد ابتدأت الوصايا العشر فيها بالنهي عن الشرك ، وماكان هذا النهي المبتدأ به إلا لعظم شناعة هذا الأمر إذ أن الله تعالى لا يغفر للمشركين شركهم ، وبين أنه افتراء وكذب على الله تعالى ، وذلك واضح صريح في سورة النساء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء: ٤٨] ، وفي موضع آخر من السورة نفسها جاء السياق نفسه لكن ختم بخاتمة أخرى تبين بعد هذا الأمر عن الحق تماماً فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ [النساء: ١١٦]

وبالنساء من جهة ما فيها من بدء الخلق، والتقبيح لما حرموه على أزواجهم، وقتل البنات بالوأد[١].

وفي قوله تعالى : ﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٠] جاء في تفسير ظاهر الإثم ما جاء ذكره في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ ﴾ [النساء: ٢٢] ، وقوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ ﴾ [النساء: ٢٣] حيث قال سعيد بن جبير في تفسيرها : "الظاهر ما حرم الله تعالى بقوله : ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ ، وقوله : ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ ﴾ [النساء: ٢٣] الآية والباطن منه الزنا"[٢] .

ولقد كانت العناية باليتيم من الأمور التي اهتم به القرآن منذ العهد المكي فجاء مطلقاً في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ولأهميته استمر التوصية به حتى في العهد المدني حيث يقول تعالى في سورة النساء : ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ ﴾ [النساء: ٣] ، وقال : ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدًا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾ [النساء: ٦] ، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارًاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [

---

(١) – سبق ما يدل على بدء الخلق، وما حرموه على أزواجهم، أما تقبيح قتل البنات بالوأد فجاء عقبه في قوله تعالى: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ} "١٤٠".

(٢) – الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي (٤ / ١٨٥)

النساء: ١٠] وقال : ﴿ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٢٧] فنجده جاء مفصلاً في العهد المدني حيث إن العهد المدني اهتم بالتشريع ، والعهد المكي اهتم بالتأصيل – والله أعلم – .

وجاء في سورة النساء التفصيل في أمر الشهادة بحكم مدنيتها وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾[النساء: ١٣٥] وإنما جاء هذا التفصيل بحكم مدنيتها، إذ أن التشريعات نزلت بالمدينة،وجاء في سورة الأنعام ملخصاً بحكم مكيتها في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾[الأنعام: ١٥٢] ، وكأنها تشير إلى أن هذا الأمر من الأهمية بمكان ؛ إذ أنه اهتم به منذ العهد المكي ، واستمر الحديث عنه وعن تفصيلاته حتى العهد المدني – والله تعالى أعلم – .

وإذا نظرنا إلى كلا السورتين الكريمتين نجدهما قد اهتمتا بحماية حمى الدين ، والتحذير من التقليل من شأنه ، وأورده فيهما بما يتناسب كل سورة مع سياقها ، فلقد قال سبحانه وتعالى في سورة النساء مبيناً عقوبة هذا الأمر : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ [النساء: ١٤٠] ، ولقد ذكر هذا الأمر أيضاً في سورة الأنعام فقال : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٨] وفي موضعه من البحث سيتم الحديث عنه بالتفصيل ، وكلا الآيتين تدلان دلالة واضحة على أن أهل الأهواء لهم تصرف واحد مهما اختلف المكان والزمان ؛ ففي العهد المكي كان هذا التصرف المشين من المشركين أهل الجاهلية ، ولم يكن أهل الكفر في العهد المدني بأفضل منهم تجاه الدعوة ، فلقد كان أهل الكتاب والمنافقين يسيرون بخطى المشركين في العهد المكي ، حتى ولو لم يكونوا أهل جاهلية إلا أن العناد والحسد أعماهم عن الحق ففعلوا فعل أهل الجاهلية – والله تعالى أعلم – .

وفي مواضع أخرى في كلا السورتين أورد أن التوبة المستحقة على الله حق أحقه على نفسه وذلك وفق سياق كل سورة وردت فيها الآيات ، ففي سورة النساء ذكر هذا الأمر بعد سوق أحكاماً متفرقة وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ

يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾[النساء: ١٧] حيث إنه من المعلوم أن الأحكام لم تكن فرضت إلا في العهد المدني ، إلا أنها في العهد المكي ذكر هذا الأمر في معرض الرحمة بالمؤمنين وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾ ﴾[الأنعام: ٥٤] ولعل في ذلك تسلية للمؤمنين في العهد المكي ، وإظهاراً لرحمة الله تعالى ترغيباً للمشركين في هذا الإسلام وسماحته – والله أعلم – ، يقول الإمام الخازن في جمعه بين كلا الآيتين : "وذهب الجمهور إلى أنها محكمة لا نسخ فيها لأنها خبر والخبر لا يدخله النسخ لأنها إنما دلت على أن كل إنسان إنما يختص بحساب نفسه لا بحساب غيره، وقيل: إنما أباح لهم القعود معهم بشرط التذكير والموعظة فلا تكون منسوخة" [(١)].

ولقد جاء في سورة الأنعام حكاية أمر متعلق بالجزاء المترتب على بغي اليهود حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[الأنعام: ١٤٦] ثم فصل ذلك البغي في السور المدنية التي تحدثت كثيراً عن أهل الكتاب وخاصة اليهود من هذه السور سورة النساء الذي جاء فيها قوله تعالى : ﴿ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴿١٦٠﴾ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٦١﴾ ﴾[النساء: ١٦٠ – ١٦١] ، يقول الزمخشري :" وكان بعض ذات الظفر حلالا لهم،فلما ظلموا حرّم ذلك عليهم فعمّ التحريم كل ذى ظفر بدليل قوله:﴿ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ ﴾[النساء: ١٦٠] "[(٢)] .

ولقد حكت كلا السورتين عن موعد إغلاق باب التوبة والإنابة إلى الله ، يقول أبو حيان في تفسير قوله تعالى : ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[الأنعام: ١٥٨] :" والظاهر أنهم توعدوا بالشيء العظيم من أشراط الساعة ؛ ليذهب الفكر في ذلك كل مذهب ، لكن أتى بعد ذلك الإخبار عنه عن هذا البعض بعدم قبول التوبة فيه إذا أتى، وتصريح

(١) – لباب التأويل في معاني التنزيل (٢ / ١٢٣)

(٢) – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٧٥)

الرسول ﷺ بأن طلوع الشمس من مغربها وقت لا تنفع فيه التوبة ، فيظهر أنه هذا البعض ، ويحتمل أن يكون هذا البعض غرغرة الإنسان عند الموت ، فإنها تكون في وقت لا تنفع فيه التوبة. قال تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ [النساء: ١٨] "(١)

وكلا السورتين تحدثت عن بدء الخلق ففي سورة النساء قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١] حيث تبين الآية الكريمة عظمة الخالق التي تستوجب أن يتقى ، وبينت أساس الكون الصغير الذي ينتمي إليه الإنسان وهو الأسرة ، ثم جاء في سورة الأنعام في معرض دلائل استحقاق الله العظيم للعبادة والتوحيد حيث قال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٨] – والله تعالى أعلم – .

وفي موضع آخر يقول الحافظ ابن كثير – حفظه الله – في جمعه بين آيتين من كلا السورتين : " قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[الأنعام: ١٠٠] هذا رد على المشركين، الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا به في عبادته، أن عبدوا الجن، فجعلوهم شركاء له في العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم. فإن قيل: فكيف عبدت الجن، مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم ما عبدوها، إلا عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك، كقوله : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النساء: ١١٧ – ١٢٠]"(٢).

وفي كلا السورتين بين أن من استكبر عن عبادة الله تعالى فإن الله قادر على استبدال المستكبرين بآخرين مؤمنين مطيعين ففي سورة النساء يقول تعالى في معرض توحيده ووصيته بالتقوى لأهل الكتاب

(١) – البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٦٩٩)

(٢) – تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٥)

والمؤمنين : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ ﴾ [النساء: ١٣٣] ، ثم جاء في سورة الأنعام في معرض محاجته للمشركين فقال : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٣٣] فكأنه تعالى بكلا الآيتين يبين أن هذا التهديد لكل مستكبر في كل زمان ومكان – والله أعلم – .

ولقد عرض في كلا السورتين مواقف عديدة ومختلفة من يوم الحساب أظهرها أثر عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – والذي رواه عنه سعيد بن جبير حيث يقول : أتى رجلٌ ابن عباس – رضي الله عنهما – فقال: سمعت الله يقول : ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٣] ، وقال في آية أخرى : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾[النساء: ٤٢] فقال ابن عباس : أما قوله: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٣] فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهلُ الإسلام قالوا : " تعالوا فلنجحد"! فقالوا: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٣] ! فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم، فلا يكتمون الله حديثًا[1] . وهو ما جاء في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النساء: ٤٢]

ولقد جاء في سورة النساء تحدي أهل الباطل للنبي ﷺ بأن ينزل عليه كتاباً وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [النساء: ١٥٣] ، و موقف كل مكذب من هذا الأمر مبين في سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾[الأنعام: ٧] وإن سبق في النزول ؛ حتى يبين أن المكذبين في كل زمان ومكان منهجهم واحد في التكذيب – والله تعالى أعلم – .

وجاء في كلا السورتين شهادة الله تعالى على أن هذه الدعوة حق ، وما جاء في النبي ﷺ حق وهو القرآن فقال في سورة النساء : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾ [النساء: ١٦٥ – ١٦٦] وقال في سورة الأنعام : ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ

[1] – جامع البيان (٨/ ٣٧٣)

﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ١٩﴾ [الأنعام: ١٩]

وذكر في سورة النساء أموراً تعين على الثبات على الصراط المستقيم حيث قال : ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٦٧ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٦٨ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠﴾ [النساء: ٦٦ – ٧٠] وقال في موضع آخر من السورة نفسها : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥﴾ [النساء: ١٧٤ - ١٧٥] ولقد أشرنا فيما سبق أموراً تتعلق بالصراط المستقيم مذكورة في سورة الأنعام .

ولقد ذكر الشيخ محمد رشيد رضا كلاماً عن النور فقال : " والنور قسمان: حسي صوري، وهو ما يدرك بالبصر، ومعنوي عقلي أو روحي وهو ما يدرك بالبصيرة، وقد أطلقت كلمة النور في التنزيل على القرآن، وعلى النبي ﷺ كما تقدم في سورة النساء " (١)

وأراد بالنور الحسي الصوري المذكور في بداية سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[الأنعام: ١] ، وأراد بالنور المعنوي ما جاء في آخر سورة النساء في قوله سبحانه تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾[النساء: ١٧٤]

وفي موضع آخر أمر الله سبحانه وتعالى نبيه في سورة الأنعام أن يخبر المشركين ماهو عليه من الدين حيث قال : ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾ [الأنعام: ١٦١] ولقد أشار إلى أن أحسن دين هو ملة إبراهيم – عليه السلام - حنيفاً وذلك في سورة النساء في قوله تعالى : ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾ [النساء: ١٢٥]

(١) – انظر : تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٤٥) .

ولقد بين سبحانه وتعالى كرمه ورحمته النابع من عدله حيث قال في سورة النساء : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النساء: ٤٠]، وبين وجهاً آخر من رحمته بعد مضاعفة الحسنات وهو عدم مضاعفة السيئات في قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٠]

والمتأمل في كلا السورتين يجد أن هناك علاقة وطيدة بين آيات كلا السورتين أكثر مما سبق – والله تعالى أعلم –

خامساً : علاقة سورة الأنعام بسورة المائدة .

بما أن سورة المائدة هي السورة السابقة لسورة الأنعام مباشرة فإنه جدير بالذكر أن يبين الأمر على وجه التفصيل وهو على النحو التالي :

مناسبة أول السورة لآخر السورة السابقة لها :

كون سورة الأنعام مكية وسورة المائدة التي تسبقها مدنية لا يمنع ذلك من وجود مناسبة وعلاقة بين السورتين ؛ فمن يتأمل يجد أن "مناسبة افتتاح هذه السورة لآخر المائدة أنه تعالى لما ذكر ما قالته النصارى في عيسى وأمه من كونهما إلهين من دون الله، وجرت تلك المحاورة وذكر ثواب ما للصادقين، وأعقب ذلك بأن له ملك السموات والأرض وما فيهن وأنه قادر على كل شيء، ذكر بأن الحمد له المستغرق جميع المحامد ، فلا يمكن أن يثبت معه شريك في الإلهية فيحمد، ثم نبه على العلة المقتضية لجميع المحامد والمقتضية، كون ملك السموات والأرض وما فيهن له بوصف خلق السماوات والأرض ؛ لأن الموجد للشيء المنفرد باختراعه له الاستيلاء والسلطنة عليه ، ولما تقدم قولهم في عيسى وكفرهم بذلك وذكر الصادقين وجزاءهم أعقب خلق السماوات والأرض جعل الظلمات والنور فكان ذلك مناسباً للكافر والصادق " [(١)].

" ومع أن سورة المائدة مدنية وسورة الأنعام مكية إلا أن السياق بين تذييل المائدة وافتتاح الأنعام فيه اتساق واضح. فالحق يقول في آخر سورة المائدة: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ

---

(١) – البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٢٧– ٤٢٨)

﴿ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [المائدة: ١٢٠] ويقول سبحانه في أول سورة الأنعام: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[الأنعام: ١] فسبحانه وتعالى قدير ويملك كل الكون، ولم يأخذ ذلك الملك افتئاتاً أو ادعاء، ولكنه جل شأنه هو الذي خلق السموات والأرض وهو الذي جعل الظلمات والنور"[1] .

ولقد ختمت سورة المائدة بذكر السماوات والأرض ، وافتتحت سورة الأنعام بذكرهما ، والمتأمل لكلا الموضعين يجد في آخر سورة المائدة أن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾ [المائدة: ١٢٠] فيه تقرير لعموم أوصاف ربوبيته، عز وجل، أتبع بلازمه من الحمد الذي صدرت به سورة الأنعام: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١] .

ولقد " كان ختام السورة السابقة إثبات سلطان الله تعالى الكامل، وقدرته الشاملة، وأنه لَا يعجزه شيء في السماء ولا في الأرض، إذ قال سبحانه : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [المائدة: ١٢٠] وفي هذه الآية يبين سبحانه السبب في كمال سلطانه، والظهر الأعظم لكمال قدرته، وهو خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان، فإن هذا من أسباب السلطان الكامل على السماوات والأرض ومن فيهن، وهو مظهر كامل لكمال قدرته سبحانه وتعالى "[2]

ويقول الإمام السيوطي : " قال بعضهم : مناسبة هذه السورة لآخر المائدة ؛ أنها افتتحت بالحمد، وتلك ختمت بفصل القضاء، وهما متلازمتان كما قال: ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الزمر: ٧٥] "[3].

و يقول :" قد ظهر لي بفضل الله أنه لما ذكر في آخر المائدة: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ [المائدة: ١٢٠] على سبيل الإجمال، افتتح هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله ، فبدأ بذكر: أنه خلق السماوات والأرض، وضم إليه أنه جعل الظلمات والنور، وهو بعض ما تضمنه قوله: ﴿ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ في آخر المائدة ... ثم ذكر أنه خلق النوع الإنساني، وقضى له أجلًا مسمى، وجعل له أجلاً آخر للبعث، وأنه منشئ القرون قرنًا بعد قرن،ثم قال:﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ﴾[الأنعام: ١٢] ،

---

[1] - تفسير الشعراوي (٦/ ٣٤٨٨)

[2] - زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٢٩)

[3] - أسرار ترتيب القرآن (ص: ٨٠)

فأثبت له ملك جميع المنظورات، ثم قال:﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾[الأنعام: ١٣] فأثبت له ملك جميع المظروفات في الزمان، ثم ذكر أنه خلق سائر الحيوان، من الدواب والطير، ثم خلق النوم واليقظة، والموت والحياة، ثم أكثر في أثناء السورة من ذكر الخلق والإنشاء لما فيهن من النيرين، والنجوم، وفلق الإصباح، وخلق الحب والنوى، وإنزال الماء، وإخراج النبات والثمار بأنواعها، وإنشاء جنات معروشات وغير معروشات، والأنعام، ومنها حمولة وفرش، وكل ذلك تفصيل لملكه ما فيهن، وهذه مناسبة جليلة "[1].

ثم يقول : " ثم ظهر لي بحمد الله وجه آخر –أتقن مما تقدم– وهو: أنه لما ذكر في سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ ﴾ [المائدة: ٨٧] إلى آخره ، ثم ذكر بعده: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ ﴾ [المائدة: ١٠٣] إلى آخره فأخبر عن الكفار أنهم حرموا أشياء مما رزقهم الله افتراء عليه، وكان القصد بذلك تحذير المؤمنين أن يُحرِّموا شيئًا مما أحل الله، فيشابهوا بذلك الكفار في صنيعهم، وكان ذكر ذلك على سبيل الإيجاز، ساق هذه السورة لبيان ما حرمه الكفار في صنيعهم، فأتى به على الوجه الأبين والنمط الأكمل، ثم جادلهم فيه، وأقام الدلائل على بطلانه، وعارضهم وناقضهم، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه القصة ، فكانت هذه السورة شرحًا لما تضمنته المائدة من ذلك على سبيل الإجمال، وتفصيلًا وبسطًا، وإتمامًا وإطنابًا"[2].

أضف إلى ذلك أن سورة المائدة أشارت في خاتمتها إلى شرك النصارى والذي كان في تأليههم لعيسى – عليه السلام – ، وهنا في سورة الأنعام افتتح المولى عز وجل السورة بقوله : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾[الأنعام: ١] والذي يذكر عظيم خلق الله تعالى وهما السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم بين بعد ذلك أنه مع ما ذكر من عظمة الله تعالى الدالة عليها خلقه للسماوات والأرض إلا أن هنالك من يشرك بالله تعالى، مثل ما كان يصنع كفار قريش ، بل مثل ماكان يصنع النصارى الوارد ذكرهم في آخر سورة المائدة الذين جعلوا عيسى – عليه السلام – نداً لله تعالى – والله أعلم - .

وأما ارتباط الآيات في ثنايا السورتين فيمثل له بما يلي :

ذكر في سورة المائدة امتدح القرآن الكريم وذلك بوصفه أنه يصدق فقط ما تبقى من الوحي الصحيح الوارد في كتب اليهود والنصارى ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ ﴾[المائدة: ٤٨]،ثم جاء في سورة الأنعام وامتدحه في أكثر من

---

[1] – أسرار ترتيب القرآن (ص: ٨١)

[2] – أسرار ترتيب القرآن (ص: ٨٢ – ٨٣)

موضع،فبين أنه لا شيء أكبر من شهادة القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى:﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)﴾[الأنعام: ١٩]، وفي موضع آخر بين أن القرآن إنما هو رسالة للعالم أجمع وذلك في قوله تعالى : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢)﴾[الأنعام: ٩٢]،ثم بين في آية أخرى كثرة خيرات هذا القرآن مما يوجب اتباعه وذلك في قوله تعالى:﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥)﴾[الأنعام: ١٥٥] – والله تعالى أعلم – .

وفي كلا السورتين بين موقف اليهود من التوراة ، فبين في سورة المائدة تحريفهم لها وذلك ما حكاه في قوله تعالى : ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾[المائدة: ٤١] ، وفي سورة الأنعام بين أنهم جعلوا التوراة مجرد أوراق يتلاعبون بها وذلك ما حكاه عنهم قوله تعالى:﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)﴾ [الأنعام: ٩١]

ولقد بين الله أن غير الله تعالى لا يملك ضراً ولا نفعاً وبين أن ذلك من خصائص الألوهية ، وخطابه ذلك في كلا السورتين للمشركين بجميع أصنافهم سواء عبدوا الأوثان مع الله تعالى ، أو عبدوا أحد من خلقه معه تعالى فقال في معرض خطابه للنصارى الذين رفعوا المسيح عيسى – عليه السلام – إلى مرتبة الألوهية : ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦)﴾ [المائدة: ٧٦] بعد قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥)﴾ [المائدة: ٧٢ – ٧٥] ، وقال في معرض حديثه عن مشركي أهل

مكة الذين عبدوا الأوثان : ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[الأنعام: ٧١] وسيأتي تفصيل الحديث عنها في موضعها من البحث ، وإنما ورد هذا الأمر في كل من المدني والمكي حتى يبين أن المشرك بالله مهما اختلف زمانه ومكانه إنما يدعو مالا يملك نفعاً ولا ضراً – والله أعلم – .

وفي موضوع آخر تحدثت عنه كلا السورتين وهو موضوع المحرم من المطعوم ذكر في سورة الأنعام قوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٨ – ١٢١] حيث كان ذلك في العهد المكي ، حيث بين حرمة أكل ما لم يذكر عليه اسم الله تعالى ، ولعله ذكر هذا المحرم هنا دون غيره من المطعومات لأن هذا الأمر متعلق بالعقيدة ، حيث إنه ذكر مطعومات محرمة زيادة على ما سبق في سورة المائدة في قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ [المائدة: ٣] – والله تعالى أعلم – .

وجاء في جامع البيان " قال: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٨] ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾ [الأنعام: ١٢١] ، فنسخ واستثنى من ذلك فقال: ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾[المائدة: ٥] " وهو قول كل من عكرمة والحسن البصري – رحمهما الله –[1] ، وعلق عليه ابن جرير الطبري – رحمه الله– بقوله : "والصواب من القول في ذلك عندنا، أن هذه الآية محكمة فيما أنزلت، لم ينسخ منها شيء، وأن طعام أهل الكتاب حلال، وذبائحهم ذكية ، وذلك مما حرم الله على المؤمنين أكله بقوله: ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام: ١٢١] بمعزل ؛ لأن الله إنما حرم علينا بهذه الآية الميتة، وما أهل به

[1] – جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٨٧)

للطواغيت، وذبائح أهل الكتاب ذكية سموا عليها أو لم يسموا، لأنهم أهل توحيد وأصحاب كتب لله، يدينون بأحكامها، يذبحون الذبائح بأديانهم، كما يذبح المسلم بدينه، سمى الله على ذبيحته أو لم يسمه، إلا أن يكون ترك من ذكر تسمية الله على ذبيحته على الدينونة بالتعطيل، أو بعبادة شيء سوى الله، فيحرم حينئذ أكل ذبيحته، سمى الله عليها أو لم يسم"[1]

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠ ﴾ [الأنعام: ٩٠] يقول مكي بن أبي طالب [2] :" المعنى: أن ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى من تقدم ذكره من النبيين،فأمر النبي ﷺ أن يقتدي بهداهم، ويسلك طريقهم، والاقتداء: الاتباع ، والمراد اتّباعهم على ما كانوا عليه من الإسلام والتوحيد، لا ما كانوا عليه من الشرائع ؛ لأن شرائعهم كانت مختلفة، وغير جائز أن يؤمر النبي باتباع " شرائع " مختلفة، ولا يمكن ذلك ؛ لأن ما حرم " عليهم " في شريعة نبي، أُحِلَّ في شريعة نبي آخر، فكيف يَقْدِر النبي ﷺ على اتباع ذلك؟، والعمل بالشيء وضده – في حال هذا – لا يمكن ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا ﴾[المائدة: ٤٨] فهذا هو الصحيح، ليست الآية في الاقتداء بشرائعهم لاختلافها، إنما الآية في الاقتداء بهم فيما لم يختلفوا فيه، وهو التوحيد ودين الإسلام ، وأما الشرائع فقد اختلفوا فيها بأمر الله " لهم " بذلك وفَرضِه على كل واحد ما شاء"[3].

ويقول – رحمه الله – في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ ﴾[الأنعام: ١٣٦] " وكذلك جعلوا من ثمرهم نصيباً لله، ونصيباً للشياطين ولأوثانهم، فإن سقط من نصيب الله شيء في نصيب الأوثان تركوه، وإن سقط من نصيب الأوثان – شيء في نصيب الله – ردوه في نصيب الأوثان، وإن انفجر من سِقْيٍ ما جعلوه لله في نصيب الشيطان والأوثان تركوه، وإن انفجر من سِقْي ما للأوثان في نصيب الله رَدُّوه وسَدُّوهُ ، فهذا ما جعلوا من الحرث، وأما الأنعام: فهو جعلهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، وقد ذكر ذلك في " المائدة "[4]وهو قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣ ﴾ [المائدة: ١٠٣]

---

[1] – جامع البيان (١٢/ ٨٨)

[2] – العلامة المقرىء، أبو محمد، مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار، القيسي القيرواني، ثم القرطبي،كان فقيها مقرئا أديبا. وله رواية، وغلب عليه علم القرآن، وكان من الراسخين فيه ، توفي في المحرم سنة سبع وثلاثين وأربع مائة. من كتبه إعراب القرآن، وسماه الإيجاز، واللمع، و الموجز في القراءات ، انظر : سير أعلام النبلاء ط الحديث (١٣/ ٢٣٢) طبقات المفسرين للداوودي (٢/ ٣٣٢)

[3] – الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢٠٩٦)

[4] – الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢١٩٤)

وجاء في تفسير قوله تعالى : ﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾[الأنعام: ١٣٨] أنها " هي الحوامي التي ذكرنا في المائدة، كانوا يقولون: حمت ظهورها "(١)

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٣٨] أورد الإمام فخر الدين الرازي قولين في تفسيرها ، قال في الثاني منهما : " والقول الثاني: في تفسير هذه الآية قول من يقول: القرآن واف ببيان جميع الأحكام ، وتقريره أن الأصل براءة الذمة في حق جميع التكليف، وشغل الذمة لا بد فيه من دليل منفصل ، والتنصيص على أقسام ما لم يرد فيه التكليف ممتنع؛ لأن الأقسام التي لم يرد التكليف فيها غير متناهية، والتنصيص على ما لا نهاية له محال ، بل التنصيص إنما يمكن على المتناهي مثلا لله تعالى ألف تكليف على العباد وذكره في القرآن وأمر محمداً – عليه السلام – بتبليغ ذلك الألف إلى العباد. ثم قال بعده : ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٣٨] فكان معناه أنه ليس لله على الخلق بعد ذلك التكليف تكليف آخر، ثم أكد هذه الآية بقوله : ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣] وبقوله: ﴿وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩] فهذا تقرير مذهب هؤلاء، والاستقصاء فيه إنما يليق بأصول الفقه – والله أعلم – "(٢).

وفي أكثر من موضع في القرآن نهى عن قتل النفس إلا بالحق كما في قوله تعالى من سورة الأنعام : ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١] ، وهذا الحق ذكر له أسباباً منها ما جاء في سورة المائدة في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ [المائدة: ٣٣] ولأهمية هذا الأمر ذكره ضمن الوصايا العشر الواردة في آخر سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾[الأنعام: ١٥١]

وفي الأمر بتبليغ القرآن وردت عدة آيات تأمر بهذا الأمر ، جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[الأنعام: ١٩] ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾أي : ومن بلغه القرآن، فحذف

---

(١) – تفسير السمعاني (٢/ ١٤٨)

(٢) – مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٢٨)

(الهاء) لطول الكلام ، وتبليغ القرآن والسنة مأمور بهما، كما أمر النبي ﷺ بتبليغهما، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧] [1].

وهناك علاقة وطيدة بين قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة: ٨] وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٥٢] تقدم ذكرها في العلاقة بين السورة الكريمة وسورة النساء .

وفي كلا السورتين سمى ما ذهب إليه من حرم شيئاً من الأنعام التي أحلها الله تعالى افتراءً فقال في سورة المائدة ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٣] ، ثم قال في سورة الأنعام : ﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٣٨]

وبين في كلاهما أن أمور الدين إنما تستقى من الله تعالى وحده ، وحذر من اتباع المضلين الذين ضلوا وأضلوا ، وجاء ذلك موضحاً في كلا السورتين وفق ما يتناسب مع سياق آياتهما ، وحال المخاطبين، حيث جاء في سورة المائدة قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ [المائدة: ٧٧] وجاء في سورة الأنعام قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٩]

ولقد بين في سورة المائدة أن حزب الله هم الغالبون فقال : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة: ٥٦] وبين هنا – في سورة الأنعام – سبب فوزهم وظفرهم فقال : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٤]

---

[1] – بتصرف من الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٣٩٩)

وبين تعالى في سورة المائدة جزءاً من بغي اليهود الذي أشار إليه في سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] حيث قال في سورة المائدة : ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: ٢٤]

وفي كلا السورتين بين موقف فرقة من أهل الكتاب فقال في سورة المائدة : ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾ [المائدة: ٨٣] ، وقال في سورة الأنعام : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾ [الأنعام: ٢٠]

وفي كلا السورتين بين نوعاً من أنواع العذاب وهو يختلط أمر الأمة خلط اضطراب لا خلط اتفاق، فيكونون فرقاً ولا يكونون فرقة واحدة، فإذا كانوا مختلفين قاتل بعضهم بعضاً[1]، حيث قال في سورة المائدة : ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾ [المائدة: ١٤] ، وقال في سورة الأنعام : ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٥﴾ [الأنعام: ٦٥]

و"في المائدة محاجة أهل الكتاب وفي هذه محاجة المشركين، والمائدة ذكرت المحرمات بالتفصيل لأنها من آخر القرآن نزولا، والأنعام ذكرت ذلك جملة "[2] .

---

[1] – بتصرف من معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٦٠) و مفاتيح الغيب للرازي (١٣/ ٢٠)

[2] – التفسير الواضح (١/ ٥٨٤)

المطلب الثاني : مناسبة السورة لما بعدها :

لو أراد المتأمل أن يربط سورة الأنعام بسورة الأعراف التي تعتبر السورة الرديفة لسورة الأنعام فإنه يجد ارتباط وثيق بين السورتين ، لا سيما أن كلا السورتين من السور المكية وبالتالي فإنها تشترك فيما بينها في خصائص السور المكية التي قررها علماء القرآن الكريم . وفي الجمع بين كلا السورتين وبيان علاقتهما ببعضهما البعض يقول الإمام السيوطي : " مناسبة وضع هذه السورة عقب سورة الأنعام فيما ألهمني الله سبحانه ؛ أن سورة الأنعام لما كانت لبيان الخلق ، وقال فيها : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢]، وقال في بيان القرون: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ [الأنعام: ٦] ، وأشير فيها إلى ذكر المرسلين، وتعداد كثير منهم، وكانت الأمور الثلاثة على وجه الإجمال لا التفصيل، ذُكرت هذه السورة عقبها؛ لأنها مشتملة على شرح الأمور الثلاثة وتفصيلها.

فبسط فيها قصة خلق آدم أبلغ بسط؛ بحيث لم تبسط في سورة كما بسطت فيها[١] ، وذلك تفصيل إجمال قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢] ، ثم فصلت قصص المرسلين وأممهم، وكيفية إهلاكهم تفصيلًا تامًّا شافيًا مستوعبًا، لم يقع نظيره في سورة غيرها [٢]، وذلك بسط حال القرون المهلَكة ورسلهم، فكانت هذه السورة شرحًا لتلك الآيات الثلاث.

وأيضًا فذلك تفصيل قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ؛ ولهذا صدَّر هذه السورة بخلق آدم الذي جعله الله في الأرض خليفة[٣]. وقال في قصة عاد: ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩] وفي قصة ثمود: ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾[الأعراف: ٧٤]

وأيضًا فقد قال في الأنعام: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وهو موجز، وبسطه هنا بقوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] إلى آخره، فبيَّن من كتبها لهم.

وأما وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر الأنعام فهو: أنه قد تقدم هناك: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ، وقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:

---

(١) – وذلك في قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ} إلى {قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُون} "١١-٢٥".

(٢) – وذلك من قوله: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ} إلى {فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون}"٥٩-١٧٦".

(٣) – وذلك في الآية رَقْم "١١" إلى آخر الآية رَقْم "٢٥"

١٥٥] ، ففتتح هذه السورة أيضًا بالأمر باتباع الكتاب في قوله: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾[الأعراف: ٢] إلى قوله : ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ [الأعراف: ٣].

وأيضًا لما تقدم في الأنعام: ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾[الأنعام: ١٥٩] ، ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾[الأنعام: ١٦٤]، قال في مفتتح هذه السورة: ﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٍ ﴾ [الأعراف: ٦ – ٧]، وذلك شرح التنبئة المذكورة.

وأيضًا لما قال في الأنعام:﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا ﴾[الأنعام: ١٦٠] الآية، وذلك لا يظهر إلا في الميزان،افتتح هذة السورة بذكر الوزن، فقال:﴿ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ ﴾[الأعراف: ٨]. ثم ذكر من ثقلت موازينه، وهو مَن زادت حسناته على سيئاته، ثم من خفت موازينه، وهو من زادت سيئاته على حسناته، ثم ذكر بعد ذلك أصحاب الأعراف، وهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم" .[1]

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢١ ﴾[الأنعام: ٢١] بين الإمام الرازي أن من أوجه افتراءهم على الله تعالى ما ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ [الأعراف: ٢٨][2]

وفي كلا السورتين بين أن من يتبع رسل الله تعالى فإنه مبعد عن الخوف والحزن . وبين ردف ذلك جزاء من كذب بآياته حيث قال في سورة الأنعام : ﴿ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٤٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝٤٩ ﴾[الأنعام: ٤٨ – ٤٩] ، وقال في سورة الأعراف :﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٦ ﴾ [الأعراف: ٣٥ – ٣٦]

وكلا السورتين بينت سنن الله تعالى في مصير القرى والأمم ، فلقد قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٤٣ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ

---

[1] – أسرار ترتيب القرآن (ص: ٨٦ – ٨٧)

[2] – مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٠١)

فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٢ – ٤٥] وقال في سورة الأعراف : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٤ – ٩٦] ، أضف إلى ذلك ما ذكر من تفصيل لهلاك الأمم في سورة الأعراف .

وأمر نبيه في سورة الأنعام أن يخبر الناس أنه مرسل بالوحي لينذرهم به ومن بلغه الوحي وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩] ، ثم أخبر في سورة الأعراف أن ينشر للناس جميعاً عموم رسالته التي تشملهم جميعاً فقال : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]

وفي كلا السورتين بين أن لملك الموت أعواناً يقبضون الأرواح حيث قال في سورة الأنعام : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[الأنعام: ٦١] وقال في سورة الأعراف : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٣٧].

وذكر في سورة الأنعام المحرمات من المطعومات فقال : ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٥] وهو مصداق قوله تعالى : ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]

وفي كلا السورتين بين أن الهداية بيد الله تعالى ، وأن من كتب الله عليه الضلالة فإنه لا هادي له حيث يقول تعالى في سورة الأنعام : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ويقول في سورة الأعراف : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِيۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٨]

ولما أورد المراد بكيد الله تعالى ووصفه بالتفصيل في سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٤ – ٤٥]

عبر عنها بكلمات مجملة في سورة الأعراف بقوله : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٢ – ١٨٣]

وفي كلا السورتين أورد أوجهاً مختلفة لتبريرات المكذبين لأفعالهم ففي سورة الأنعام أورد تبرير المشركين لشركهم وذلك ما حكاه الله عنهم في قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] ، وفي سورة الأعراف أورد تبريراً آخر للمكذبين لفعلهم ما لا يليق حيث يقول تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[الأعراف: ٢٨]

وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾[الأنعام: ٢] يقول القاسمي – رحمه الله – في تفسيرها :" أي: وحدّ معين لبعثكم جميعا، مثبت معيّن في علمه، لا يقبل التغيير، ولا يقف على وقت حلوله أحد. كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧] فمعنى عِنْدَهُ أنه مستقل بعلمه "(١).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤١] يقول الحافظ ابن كثير : " ثم اختار ابن جرير قول عطاء، إنه نهي عن الإسراف في كل شيء ، ولا شك أنه صحيح ، لكن الظاهر والله أعلم من سياق الآية ، حيث قال تعالى: ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ [الأنعام: ١٤١] عائداً على الأكل، أي لا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن ، كقوله تعالى:

---

(١) – محاسن التأويل (٤/ ٣١٤)

﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[الأعراف: ٣١] الآية، وفي صحيح البخاري تعليقاً (كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير إسراف ولا مخيلة)[(١)] وهذا من هذا – والله أعلم – "[(٢)].

وفي كلا السورتين حذر من الذنوب الظاهرة والباطنة حيث قال في سورة الأنعام : ﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾[الأنعام: ١٢٠] ، وقال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام: ١٥١] ، وفي سورة الأعراف قال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[الأعراف: ٣٣]

"واختلفوا في الفرق بين الفاحشة والإثم ، فقيل : الفواحش الكبائر ؛ لأنه قد تفاحش قبحها وتزايد ، والإثم عبارة عن الصغائر من الذنوب ، فعلى هذا يكون معنى الآية : قل إنما حرم ربي الكبائر والصغائر. وقيل : الفاحشة اسم لما يجب فيه الحد من الذنوب ، والإثم اسم لما لا يجب فيه الحد، وهذا القول قريب من الأول ، واعترض على هذين القولين بأن الإثم في أصل اللغة الذنب فيدخل فيه الكبائر والصغائر، وقيل: إن الفاحشة اسم للكبيرة ، والإثم اسم لمطلق الذنب سواء كان كبيرا أو صغيرا ، والفائدة فيه أن يقال : لما حرم الله الكبيرة بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ ﴾[الأعراف: ٣٣] أردفه بتحريم مطلق الذنب ؛ لئلا يتوهم متوهم أن التحريم مقصور على الكبائر فقط ، وقيل : إن الفاحشة وإن كانت بحسب اللغة اسما لكل ما تفاحش من قول أو فعل لكنه قد صار في العرف مخصوصاً بالزنا ؛ لأنه إذا أطلق لفظ الفاحشة لم يفهم منه إلا ذاك ؛ لذا نوجب حمل لفظ الفاحشة على الزنا ، وأما الإثم فقد قيل : إنه اسم من أسماء الخمر "[(٣)].

وفي كلا السورتين امتدح الصحف المنزلة على نبيه موسى – عليه السلام – وذلك قبل أن تحرف ، وأنها احتوت على كل شيء يحتاجه زمانه ، حيث قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٤] ، وقال في سورة الأعراف : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ

(١) – يقول ابن الصلاح في مقدمته في حكمه على معلقات الإمام البخاري : ما كان من المعلق بلفظ فيه جزم، وحكم به على من علقه عنه، فقد حكم بصحته عنه، مثاله: قال رسول الله ﷺ كذا وكذا ،فكل ذلك حكم منه على من ذكره عنه بأنه قد قال ذلك ورواه، فلن يستجيز إطلاق ذلك إلا إذا صح عنده ذلك عنه، بتصرف من : معرفة أنواع علوم الحديث لابن الصلاح (ص: ٢٤ – ٢٥)

(٢) – تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٤)

(٣) – لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/ ١٩٥ – ١٩٦)

شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾[الأعراف: ١٤٤ — ١٤٥] .

وبعد أن ذكر في سورة الأنعام التحذير من اتباع من اتخذ الدين لعباً ولهواً وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾[الأنعام: ٧٠] ذكر في سورة الأعراف مصيرهم فقال : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١ ﴾ [الأعراف: ٥٠ — ٥١]

وفي كلا السورتين بين حدود قدرات النبي ﷺ وبين أن هناك ما هو فوق حدود قدرات النبي والتي هي من خصائص الإله المعبود حيث قال في سورة الأنعام : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾[الأنعام: ٥٠] ، وفي سورة الأعراف قال : ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ ﴾[الأعراف: ١٨٨]

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا — رحمه الله — في تفسير قوله تعالى : ﴿ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ١٠٤ ﴾[الأنعام: ١٠٤] "والبصائر جمع بصيرة وهي الإدراك العقلي كالبصر في إدراك الحس فتطلق على المعرفة اليقينية، وعلى الحجة العقلية والعلمية. وفي معناه وصف الوحي من آخر سورة الأعراف بقوله: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣ ﴾[الأعراف: ٢٠٣] " [(١)].

ولقد ذكر في سورة الأنعام موقف المكذبين بآيات الله تعالى في كل زمان ومكان حيث قال : ﴿ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤ ﴾[الأنعام: ٤]، وذكر في سورة الأعراف تصريح أحد تلك الأقوام المكذبة بذلك حيث قال حكاية عنهم : ﴿ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢ ﴾[الأعراف: ١٣٢]

(١) – تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٤٣)

وجاء في سورة الأعراف قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[الأعراف: ١٦ - ١٧] والذي يدل دلالة واضحة أن كل ما خالف الصراط المستقيم والذي تحدث عنه في أكثر من آية في سورة الأنعام إنما هو من كيد الشيطان .

وفي كلا السورتين ذكر مواقف متعددة ليوم الحساب ، وفي كلا السورتين جاء ذكر للأنبياء حيث وردت في سورة الأنعام على وجه الإجمال ، ووردت في سورة الأعراف على سبيل التفصيل لبعض الأنبياء .

ويقول سيد قطب في ارتباط كلا السورتين في موضوعما : "إن موضوع سورة الأنعام هو العقيدة. وموضوع سورة الأعراف هو العقيدة.. ولكن بينما سورة الأنعام تعالج العقيدة في ذاتها ، وتعرض موضوع العقيدة وحقيقتها ، وتواجه الجاهلية العربية في حينها- وكل جاهلية أخرى كذلك- مواجهة صاحب الحق الذي يصدع بالحق ، وتستصحب معها في هذه المواجهة تلك المؤثرات العميقة العنيفة الكثيرة الموفورة ، بينما سورة الأنعام تتخذ هذا المنهج، وتسلك ذلك الطريق.. نجد سورة الأعراف- وهي تعالج موضوع العقيدة كذلك- تأخذ طريقا آخر، وتعرض موضوعها في مجال آخر.. إنها تعرضه في مجال التاريخ البشري.. في مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى، وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها.. وفي هذا المدى المتطاول تعرض موكب الإيمان من لدن آدم- عليه السلام- إلى محمد- عليه الصلاة والسلام- تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ. يواجه بها البشرية جيلا بعد جيل، وقبيلا بعد قبيل.."[1]

ويقول:" سورة الأنعام تتناول حقيقة العقيدة ذاتها ، وتواجه الجاهلية بها ، وتفند هذه الجاهلية، عقيدة وشعوراً، وعبادة وعملاً ، بينما سورة الأعراف تتناول حركة هذه العقيدة في الأرض، وقصتها في مواجهة الجاهلية على مدار التاريخ"[2].

كذلك فإن مناسبة سورة الأنعام بسورة الأعراف أن سورة الأعراف تعتبر كالتفصيل لها، فإن سورة الأنعام قد تكلمت عن أصول العقائد ، وكليات الدين كلاماً إجمالياً ، ثم جاءت سورة الأعراف فكانت كالشرح والتفصيل لذلك الإجمال ، خصوصاً فيما يتعلق بقصص الأنبياء مع أقوامهم وبعثة النبي ﷺ[3].

ويمكن بيان أوجه العلاقة بين كلتا السورتين في نقاط وهي كالتالي : " أولا: أن سورة الأنعام تبدأ كما عرفت بإثبات الحمد لله وحده، وتقيم الحجة على التوحيد مما يلمس الناس ويرون من مظاهر الخلق والإيجاد، وتنكر عليهم مع وضوح هذه الحجة كفرهم وعنادهم، وإعراضهم عن الله، أو تسوية غيره به في

[1] – في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/ ١٢٤٤)

[2] – في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ١٨٤٣)

[3] – التفسير الوسيط (٥/ ٢٣٧)

العبادة والتقديس ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] وأن سورة الأعراف تبدأ بتقرير التبليغ والتنويه بشأنه، والأمر بالتزامه، ثم تشفعه بالإنذار الدنيوي والأخروي، ثم بالترغيب عن طريق التذكير بالنعم" ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الأعراف: ٢ - ٣] ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤﴾ [الأعراف: ٤] ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ١٠﴾ [الأعراف: ١٠] ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗا﴾ [الأعراف: ٢٦] ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] .

ثانياً: أن سورة الأنعام تفصل فيما أحل الله وما حرم، وتتعرض لتصرف القوم بالحل والحرمة على غير ما أنزل الله، وتسبح طويلاً في ذلك ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾ الآيات [١٣٦ - ١٥٠]،في حين أن سورة الأعراف تجمل ذلك وتقف عند حد إنكار القول على الله بغير علم ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣].

ثالثاً: أن سورة الأنعام تذكر الرسالة وتورد شبه القوم فيها وتردها عليهم ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ [الأنعام: ٧] ثم تذكر جملة من أسماء الرسل بمناسبة ذكرها لإبراهيم دون تفصيل لشئونهم مع أقوامهم، بينما تذكر سورة الأعراف مبدأ الرسالة، ثم تفصل شأن جملة من رسل الله مع أقوامهم ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩﴾ الآيات [الأعراف : ٥٩ - ١٧١] .

رابعاً: تذكر الأنعام الآثار الكونية الصادرة عن الله، وتلفت بها الأنظار إلى وجوب توحيده في العبادة والولاية ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤﴾ [الأنعام: ١٤] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٩٥﴾ [الأنعام: ٩٥] ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ

﴿ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ١٦٤ ﴾[الأنعام: ١٦٤]

بينما تنكر سورة الأعراف الشرك عن طريق ما في معبوداتهم من نقص وعجز لا يتفق والمعبودية الصحيحة ﴿ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ ﴾ الآيات [الأعراف : ١٩١ – ١٩٨] .

خامساً: تعني سورة الأنعام بمعالجة نفس الرسول ﷺ فتخفف وقع تكذيب القوم على قلبه دون أن تعرض لتفصيل شئ من أوصافه التي يقضي النظر فيها مع ما جاء به من الوحي أن يصدقوه ويؤمنوا برسالته، وتمر على نوع هذه الأوصاف كأنها معلومة لهم، ولا حاجة تدعو إلى تذكيرهم بها ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠ ﴾[الأنعام: ١٠]﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣ ﴾[الأنعام: ٣٣]، بينما تعني سورة الأعراف بتفصيل ما يعرفون عنه ﷺ من الأوصاف التي تقضي بصدقه وتصديقه ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾[الأعراف: ١٥٧]

سادساً: تعرض السورتان لجانب الإنذار الأخروي، ولكن سورة الأنعام تذكره من جانب ما سيرون من العذاب، وتعلنهم به كأنه واقع بهم ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧ ﴾ [الأنعام: ٢٧] ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠ ﴾[الأنعام: ٣٠] ،أما سورة الأعراف فإنها تذكره من جانب آخر، جانب تحسرهم وجانب التشفي من المؤمنين، وترى هاتين الظاهرتين فيما تصوره السورة من محادثة الفرق الثلاث " أصحاب النار، وأصحاب الجنة، وأصحاب الأعراف ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗا ﴾[الأعراف: ٤٤] ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨ ﴾ [الأعراف: ٤٨] ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ﴾[الأعراف: ٥٠]

سابعاً: تعرض سورة الأنعام للحديث عن الساعة بقدر ما تصور ما يصيبهم فيه من سوء ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[الأنعام: ٣١] ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[الأنعام: ٤٠] .

أما سورة الأعراف فتعرض لها من جهة وقتها التي قضت الحكمة الإلهية بإخفائه عليهم وعلى جميع الخلق، فيتجهون إلى السؤال عنه وعن تحديده فتقطع عليهم الأمل في أن يعرفه أحد من خلقه، فضلا عمن ينكرها عناداً واستخفافاً ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٧]

ثامناً: ترسم سورة الأعراف للنبي ﷺ طريق معاملتهم، وتعني بتوجيه الخطاب إليه في ذلك ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[الأعراف: ١٩٩] ، بينما لا تعرض سورة الأنعام لشئ من ذلك، وإنما تطلب منه أن يقف بنفسه وبتبليغه عند حدود ما أوحى الله إليه من محرمات ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ الآيات [الأنعام: ١٥١]

وأخيراً وهو تاسع الفروق التي حددناها ان سورة الأنعام تبين سنة الله في تعاقب الأجيال، ومجئ اللاحق منها خلفاً للسابق، ويكون هذا التعاقب بما يدون لكل جيل شاهدا عدلا على من أحسن في خلافته وعلى من أساء فيها ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ثم تتركه هكذا سنة عامة دون تفصيل أو تطبيق. أما سورة الأعراف فتذكر المثل الواقعية لتلك الخلافة بين أقوام معينين وأجيال متعاقبة، فتقول لقوم هود: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾[الأعراف: ٦٩] ، وتقول لقوم صالح ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[الأعراف: ٧٤] وهكذا ترينا بالمثل الواقعية أن الحياة من مبدئها إلى منتهاها ميدان واحد عام تتناوبه البشرية كلها بأجيالها المختلفة المتعاقبه ويتركه سلفها لخلفها، والله مهيمن على الجميع، يحفظ لكل جيل ما ترك في الميدان من خير وصلاح أو شر وفساد "[1].

[1] – تفسير القرآن الكريم لمحمود شلتوت ، ص : (٢٨٨ – ٢٩١) .

ولقد لخص الشيخ محمد رشيد رضا سبب مجيء سورة الأنعام بهذا الترتيب بين السور المدنية وسورة الأعراف فقال : " سورة البقرة أجمع سور القرآن لأصول الإسلام وفروعه، ففيها بيان التوحيد والبعث والرسالة العامة والخاصة وأركان الإسلام العملية، وبيان الخلق والتكوين وبيان أحوال أهل الكتاب والمشركين والمنافقين في دعوة القرآن، ومحاجة الجميع وبيان أحكام المعاملات المالية والقتال والزوجية، والسور الطوال التي بعدها متممة لما فيها، فالثلاث الأولى منها مفصلة لكل ما يتعلق بأهل الكتاب، ولكن البقرة أطالت في محاجة اليهود خاصة، وسورة آل عمران أطالت في محاجة النصارى في نصفها الأول، وسورة النساء حاجتهم في أواخرها، واشتملت في أثنائها على بيان شئون المنافقين مما أجمل في سورة البقرة، ثم أتمت سورة المائدة محاجة اليهود والنصارى فيما يشتركان فيه وفيما ينفرد كل منهما به. ولما كان أمر العقائد هو الأهم المقدم في الدين، وكان شأن أهل الكتاب فيه أعظم من شأن المشركين، قدمت السور المشتملة على محاجتهم بالتفصيل، وناسب أن يجيء بعدها ما فيه محاجة المشركين بالتفصيل وتلك سورة الأنعام لم تستوف ذلك سورة مثلها، فهي متممة لشرح ما في سورة البقرة مما يتعلق بالعقائد، وجاءت سورة الأعراف بعدها متممة لما فيها ومبينة لسنن الله تعالى في الأنبياء المرسلين وشئون أممهم معهم وهي حجة على المشركين وأهل الكتاب جميعا، ولكن سورة الأنعام فصلت الكلام في إبراهيم الذي ينتمي إليه العرب وأهل الكتاب في النسب والدين، وسورة الأعراف فصلت الكلام في موسى الذي ينتمي إليه أهل الكتاب ويتبع شريعته جميع أنبيائهم حتى عيسى المسيح – عليهم الصلاة والسلام – "[1].

فائدة : علاقة السورة بالسور المفتتحة بالحمد :

يقول الإمام الرازي:" السور المفتتحة بالحمد خمس سور سورتان منها في النصف الأول وهما الأنعام والكهف وسورتان في الأخير وهما هذه السورة — سورة سبأ – وسورة الملائكة والخامسة وهي فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الأول ومع النصف الأخير والحكمة فيها أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على إحصائها منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء، فإن الله تعالى خلقنا أولا برحمته وخلق لنا ما نقوم به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالإعادة فإنه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا ما يدوم فلنا حالتان الابتداء والإعادة وفي كل حالة له تعالى علينا نعمتان نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء فقال في النصف الأول:﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[الأنعام: ١] إشارة إلى الشكر على نعمة الإيجاد ويدل عليه قوله تعالى فيه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾[الأنعام: ٢] إشارة إلى الإيجاد الأول ، وقال في السورة

[1] – تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٤٠– ٢٤١)

الثانية وهي الكهف ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢)﴾ [الكهف: ١- ٢] إشارة إلى الشكر على نعمة الإبقاء ، فإن الشرائع بها البقاء ، ولولا شرع ينقاد له الخلق لا تبع كل واحد هواه ، ولو وقعت المنازعات في المشتبهات ، وأدى إلى التقاتل والتفاني ، ثم قال في سورة سبأ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[سبأ: ١] إشارة إلى نعمة الإبقاء ، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[سبأ: ١] وقال في الملائكة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[فاطر: ١] إشارة إلى نعمة الإبقاء ، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾[فاطر: ١] والملائكة بأجمعهم لا يكونون رسلاً إلا يوم القيامة يرسلهم الله مسلمين كما قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[الأنبياء: ١٠٣] ، وقال تعالى عنهم : ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ (٧٣)﴾ [الزمر: ٧٣] ، وفاتحة الكتاب لما اشتملت على ذكر النعمتين بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢] إشارة إلى النعمة العاجلة ، وقوله : ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ٤] إشارة إلى النعمة الآجلة ؛ قرئت في الافتتاح وفي الاختتام"[١]

ويمكن أن كون ملخص ما سبق : أن " قطب هذه السورة – سورة الأنعام - يدور على إثبات الصانع، ودلائل التوحيد قال أبو إسحق الإسفراييني[٢] - رحمه الله – : في سورة الأنعام كل قواعد التوحيد، ولما كانت نعمه تعالى مما تفوت الحصر إلا أنها ترجع إجمالاً إلى إيجاد وابقاء في النشأة الأولى، وإيجاد وابقاء في النشأة الآخرة، ولما أشير في الفاتحة إلى الجميع ابتدئت بالتحميد لأنها ديباجة نعمه المذكورة في كتابه المجيد ثم أشير في الأنعام إلى الإيجاد الأوّل ، وفي الكهف إلى الإبقاء الأوّل ، وفي سبأ إلى الإيجاد الثاني، ، وفي فاطر إلى الإبقاء الثاني فلهذا ابتدئت هذه السور الخمس بالتحميد فقال جل ثناؤه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]" [٣]

كل ما قدم ذكره بين سبب أن يكون ترتيب سورة الأنعام وفق هذا الترتيب في المصحف الشريف – والله تعالى أعلم - .

---

[١] - مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٩٠)

[٢] - أبو إسحاق الإسفراييني إبراهيم بن محمد الإمام، العلامة الأوحد، الأستاذ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الإسفراييني، الأصولي، الشافعي، الملقب ركن الدين ، أحد المجتهدين في عصره وصاحب المصنفات الباهرة ، توفي يوم عاشوراء من سنة ثماني عشرة وأربع مائة . انظر : سير أعلام النبلاء (١٧/ ٣٥٣) ، طبقات الشافعيين (ص: ٣٦٨)

[٣] - عنايه القاضي وكفاية الراضي (٣/ ٣٠٧)

يقول الشيخ محمد رشيد رضا : "ومن اللطائف أنه سبحانه وتعالى جعل في كل ربع من كتابه الكريم المجيد سورة مفتتحة بالتحميد"(١). فأول القرآن سورة الفاتحة أي بداية الربع الأول ، وسورة الأنعام للربع الثاني، والكهف للربع الثالث، وسبأ وفاطر للربع الرابع .

(١) – تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٤٣)

المبحث الثالث: وجه اختصاص السورة بما اختصت به .

إن الناظر في سور القرآن جميعها يجد أنها قد تتشارك في بعض الخصائص ، ولا غريب في هذا الأمر إذ أن ذلك أكبر إثبات على أن هذا القرآن جميعه منزل من مصدر واحد ، والذي يدل دلالة صريحة واضحة أن جميعه من عند الله تعالى ، وقد تختلف فيما بينها فتتميز كل منها بخصائص تميزها عن الأخرى دون الحط من قدر واحدة منهما ، حيث إن كل سورة إنما جاءت لغرض معين ، فتميزت بأمور تخدم ذلك الغرض الذي جاءت لأجله . والمتأمل في سور القرآن الكريم يجد أنه لا يخلو في مجموعه من الأساليب[1] العربية المختلفة ، إلا أنه اختار في كل سورة أساليب معينة مناسبة تخدم غرض السورة .

ومن المعلوم أن سورة الأنعام كانت لمحاجة المشركين مما استلزم تنوع الأساليب ، لأن التزام أسلوب واحد في إقامة الحجة على الخصم يفضى إلى السآمة والملل، لذا فقد لون القرآن أساليبه حتى تناسب العقول على اختلاف مداركها، وصدق الله إذ يقول : ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥][2]

لذا ففي هذا المبحث وجب أن نتحدث عن أهم ما اختصت به هذه السورة الكريمة من ثلاث جوانب ؛ حيث يتناول الجانب الأول ما اختصت به السورة من أساليب ، والجانب الثاني يتناول ما اختصت به السورة من ألفاظ ، والجانب الثالث يتناول ما اختصت به السورة من موضوعات ، وتفصيل ذلك ما يلي :

الجانب الأول : الخصائص الأسلوبية التي اختصت بها السورة :

ونعني بذلك هنا الأساليب التي انفردت بها هذه السورة دون غيرها ، أو كثر ذكرها في هذه السورة دون غيرها من السور ، ففي بيان أهم ما اختصت به السورة من أساليب يقول سيد قطب – رحمه الله – في حديثه عن أسلوب سورة الأنعام : " سورة الأنعام تنفرد بارتفاع وضخامة في الإيقاع، وسرعة وقوة في النبض، ولألاء شديد في التصوير والحركة"[3]

ومن ينظر في سورة الأنعام يجد أنها قد عرضت ما عرضت في أسلوبين بارزين لا نكاد نجدهما بتلك الكثرة في غيرها من السور:

---

(١) – الأسلوب هو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير، أو الضرب من النظم والطريقة فيه . الأسلوب لأحمد الشايب (ص: ٤٤)

(٢) – التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٥٠)

(٣) – في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ١٨٤٣)

الأسلوب الأول :

فهو أسلوب التقرير؛ يقال : قرره بالحق حتى أقرَّ به ، حاصلة إخبار عن شيء ماض وهو في الشريعة جهة ملزمة للحكم والدليل على أنه جهة ملزمة ، وهو تحصيل مال لم يصرح به القول ، وهو يحمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه وإلجائه إليه ، في كل أمْرٌ باستطاعته معرفته حِسِّيّاً أو فكْريّاً، موجباً كان أو سالباً [1]، فهي تورد الأدلة المتعلقة بتوحيد الله وتفرده بالملك والتصرف، والقدرة والقهر، في صورة الشأن المسلم الذي لا يقبل الإنكار أو الجدل، وتضع لذلك ضمائر الغائب عن الحس الحاضر في القلب، وتجرى عليه أفعاله وآثار قدرته ونعمته البارزة للعيان، والتي لا يمارى قلب سليم في أنه مصدرها ومفيضها وصاحب الشأن فيها:

قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٢ – ٣]

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٨]

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الأنعام: ٦٠]

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[الأنعام: ٦١]

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٣]

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ

[1] – انظر : الفروق اللغوية للعسكري (ص: ٤٨) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (٨/ ٥٣٣٤) علوم البلاغة البيان، المعاني، البديع (ص: ٦٩) البلاغة العربية (١/ ٢٧٥)

مُّشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٧ - ٩٩]

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤١]

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] هذا هو أحد الأسلوبين.

أما الأسلوب الثاني فهو أسلوب تلقين الحجة ، والتلقين هو التفهيم ، يقال : لَقِنْتُ الشيءَ، أي: فَهمتُه ، والتلقين هو مشافهتك الغير بالتعليم وإلقاء القول إليه ليأخذه عنك ، ولقّن بمعنى أملى عليه ما يتّعظ به ، ونصحه بشدّة وبصورة مباشرة وأرشد فلاناً بما ينبغي أن يقال(1).

وهنا أمر بقذف الحجة في وجه الخصم حتى تأخذ عليه سمعه، وتملك عليه قلبه، وتحيط به من جميع جوانبه فلا يستطيع التفلت منها، ولا يجد بدا من الاستسلام لها.

ففي حجج التوحيد والقدرة يقول: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[الأنعام: ١٢]

وقال تعالى : ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[الأنعام: ١٤]

وقال تعالى : ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ ﴾[الأنعام: ١٥]

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[الأنعام: ٣٧]

وقال تعالى : ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[الأنعام: ٤٠]

(1) – تهذيب اللغة (٩/ ١٢٧) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢١٩٦) الفروق اللغوية للعسكري (ص: ٨٢) تكملة المعاجم العربية (٩/ ٢٦٧)

وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[الأنعام: ٤٦]

وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[الأنعام: ٧١]

وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[الأنعام: ١٦٤]

وفي حجج الوحي وبيان مهمة الرسول ﷺ ، وأن الرسالة لا تنافي البشرية وفي إيمان الرسول بدعوته واعتماده فيها على الله، وعدم اكتراثه بهم، أو انتظار الأجر منهم يقول : ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[الأنعام: ١٩] ،وقال تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[الأنعام: ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام: ٩١]﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[الأنعام: ٥٧] وقال تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٠] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾[الأنعام: ١٦١] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾[الأنعام: ١٦٢]

وفي وعيدهم على التكذيب يقول: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾[الأنعام: ١١] وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً

﴿أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾[الأنعام: ٤٧] وقال تعالى : ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾[الأنعام: ١٣٥] وفي الرد عليهم في التحليل والتحريم من دون الله ، وتفنيد شبهتهم في الشرك وآثاره ، وفي بيان ما حرم ، خاصة في الطعام ، وعامة في نظام الله : ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأنعام: ١٤٣] وقال تعالى : ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾[الأنعام: ١٤٥] وقال تعالى : ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾[الأنعام: ١٤٨] وقال تعالى : ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[الأنعام: ١٤٩] وقال تعالى : ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ﴾[الأنعام: ١٥٠] وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]

هذان الأسلوبان: (هو كذا) و (قل كذا) قد تناوبا معظم ما تضمنته هذه السورة من الحجج وقضايا التبليغ، وهما وإن جاءا في غيرها من سور القرآن إلا أنهما وخاصة الأسلوب الثاني وهو أسلوب (قل كذا) لم يوجد في غيرها بهذه الكثرة التي نراها في هذه السورة، وهما بعد ذلك أسلوبان من أساليب الحجة القوية التي تدل على قوة المعارضين وإسرافهم في المعارضة، وأنهم بحالة تستوجب تلك الشدة التي تستخرج الحق من نفوسهم ، وتدفعهم إليه دفعاً عن طريق الحجة التي تاخذ بالقلوب ، عن طريق التحاكم إلى النظر العقلي ، وإلى القضايا الفطرية التي لا تكلف الإنسان في إدراكها والإيمان بها سوى الرجوع إلى الحس الباطن وشعور الوجدان فيلمس الحق في نفسه ، ويراه في الآفاق ، وتلهمه به الفطرة المصونة في ظلمات المادة والجمود ، والشهوة والتقليد .

ويدل الأسلوبان من جهة أخرى على أنهما صدرا في موقف واحد، وإيحاء واحد ، وفي مقصد واحد ، لخصم واحد ، بلغ من الشدة والعتو مبلغاً استدعى من القوي القاهر ، الحكيم الخبير تزويد المهاجم بعدة قوية تتضافر أسلحتها في حملة شديدة يقذف بها في معسكر الأعداء فتزلزل عمده، وتهد من بنيانه فيخضع للتسليم بالحق الذي يدعى إليه [1].

---

[1] – بتصرف من تفسير القرآن الكريم لمحمود شلتوت : (ص : ٣٠٣ – ٣٠٤) .

أسلوب التقابل بين المعاني :

ولقد برز في هذه السورة من أولها إلى آخرها في كثير من المواضع ذِكْر أمر ما وإردافه بما يقابله ، سواء كان حسياً أو معنوياً ، واستعمل هذا الأسلوب في هذه السورة بهذه الكثرة حتى يبين مدى تأثيره في إقامة الحجة على المعاند ، حيث إن هذا الأسلوب يؤدي إلى تداعي المعاني المعاكسة، وتوسع ملكة التخيل والوهم، وتوقظ الإحساس، وتأجج العاطفة، وايقاظ الشعور من خلال تسليط الضوء على المفارقات ، وذلك يعتبر من المحسّنات المعنوية التي تدلّ على اهتمام البيان القرآني بالعبارة، وحرصه الشديد على توظيف العبارات التناغمية التي تتعادل وحداتها الصوتية، وتتوافق من حيث الأوزان في انسجام تام مع السياق والمقام ، مع أداء المعنى أحسن أداء، وإخراجه في أبهى حلة .

ونذكر هنا أمثلة على سبيل الإجمال حيث إن التفصيل لها سيكون – بإذن الله – في الدراسة التطبيقية ، من هذه الأمثلة ماورد في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦) ﴾[الأنعام: ٦] حيث جاء لفظ الهلاك وهو دليل على الضعف أمام عذاب الله ، وجاء ما يقابله وهو لفظ التمكين ، والتمكين لا يكون إلا عن قوة ، كما بين مصدرين متقابلين للماء المصدر الأول الماء النازل من السماء ، وما يقابله وهو الماء الذي يجري على سطح الأرض ، وجاء لفظ الإهلاك وهو القضاء على شيء موجود ، وذكر ما يقابله وهو الإنشاء وهو خلق شيئ في الوجود ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) ﴾ [الأنعام: ٢٧] حيث ذكر لفظ التكذيب على وجه النفي ، وذكر ما يقابله وهو الإيمان.

وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢) ﴾[الأنعام: ٣٢] حيث ذم الحياة الدنيا كما تُرى في نظر غير المؤمنين ، وذكر ما يقابل ذلك وهو امتداح الدار الآخرة للمؤمنين .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ﴾ [الأنعام: ٣٥] حيث إن الصعود إلى السماء يقابل الحفر للأنفاق في الأرض .

وفي قوله تعالى : ﴿ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩) ﴾[الأنعام: ٣٩] حيث جاء لفظ الإضلال ، وجاء ما يقابله معنى وهو الهداية إلى الصراط المستقيم .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٤] حيث إن الإنعام يقابل العقاب .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[الأنعام: ٤٨ – ٤٩] حيث إن البشارة تقابل الإنذار ، كما أنه ذكر مصير من آمن وأصلح ، وذكر ما يقابله وهو مصير من كذب بآيات الله تعالى .

وفي قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٦] حيث ورد لفظ الضلال وما يقابله وهو لفظ الهداية.

وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٨] ذكر نوعين متقابلين من الكلام ، أحدهما كلام الله تعالى الذي لا يساويه كلام وذلك في قوله : ﴿ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ والآخر كلام سوى الله تعالى وذلك في قوله تعالى : ﴿ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ ولا يغفل عاقل عن البون الشاسع والكبير بين كلا الكلامين ، ونتيجة لذلك فلا يتساوى الخوض في كلام الله تعالى مع الخوض في كلام غيره ، وذلك أقوى دليل على أن أي كلام لا ينسب إلى الله لا يساوي قيمة كلام الله تعالى – والله أعلم – .

وفي قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾[الأنعام: ٧١] أي : نعود ونرجع إلى الشرك بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ إلى الإسلام[1]، ومن المعلوم أن الشرك يقابل الإسلام .

والمواضع غير ذلك كثير في هذه السورة ، يطول ذكرها في مقامنا هذا – والله تعالى أعلم –.

أسلوب عاقبة الفعل وما يترتب عليه :

كذلك استخدم أسلوباً آخر وهو ذكره لأمور معينة وما يترتب عليها ؛ سواء كان ما يذكر بعدها مما يقتضيه ذلك الأمر وما يترتب عليها مما تستوجبها ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ

(١) – بحر العلوم (١/ ٤٥٨)

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[الأنعام: ١٤] فمن كان فاطر السماوات والأرض ، وكان غنياً عن العباد ، وكان العباد بحاجة إليه ، استوجب كل ذلك أن يتخذ ولياً دون غيره.

وفي قوله تعالى:﴿ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[الأنعام: ٤٨ - ٤٩]حيث إن الاختيار بين الإيمان والتكذيب يستوجب إرسال الرسل مبشرين ومنذرين .

وفي قوله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[الأنعام: ٥٠] حيث إن انتفاء امتلاك النبي ﷺ للخزائن الإلهية ، وانتفاء العلم بالغيب ، وانتفاء أن يكون ملك يستوجب أن يكون ما يرد على لسان النبي ﷺ إنما هو من قبيل الوحي .

أو يذكر اموراً وما يترتب عليها من باب العاقبة والنتيجة كما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾[الأنعام: ٥ – ٦] ، حيث بين أن الهلاك والاستبدال جاء نتيجة وعاقبة التكذيب .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[الأنعام: ١٠] حيث بين أن العقوبة قد حلت بالمستهزئين نتيجة استهزائهم .

وفي قوله تعالى : ﴿ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦] حيث بين أن الفوز المبين يكون مترتباً على صرف العذاب ، إذ لو لم يصرف العذاب لما تحقق الفوز .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأنعام: ٢١] بين أن انتفاء الفلاح كان نتيجة لافتراء الكذب على الله تعالى ، والتكذيب بآياته .

وهذا الأسلوب نراه جلياً من أول السورة الى آخرها ، وهو أدعى للردع رالزجر في إقامة الحجة وتقريرها عند محاجة المشركين والذي هو من أهم أغراض سورة الأنعام – والله تعالى أعلم – .

أسلوب النفي والإثبات :

أضف إلى ذلك استخدامه لأسلوبين ممتنعين ؛ بحيث لو ووجد أحدهما امتنع الآخر ألا وهما الإثبات والنفي ، حيث أثبت لله تعالى كل صفات الكمال ، ونفى الكمال عن غيره ، بالتالي نفى كل نقص عن الله تعالى ، وأثبت كل صفات النقاص لكل من ادعى المشركون أنهم آلهة من دون الله تعالى ، وهو واضح بين في كل آيات السورة ، فنراه في حال الإثبات يسوق كثيراً من حجج التوحيد التي تثبت بالدليل العقلي استحقاقه للتفرد بالعبادة دون غيره ، من ذلك خلقه للسماوات والأرض ، وتصرفه المطلق بالكون أجمع ، وأن الأمر كله بيده ، وأنه إذا أراد لشيء أن يكون فإنه يقول له كن فيكون .

وفي حال النفي فإنه ينزه ذاته الكريمة عن كل عوامل وصفات النقص ، والتي تعتري غيره ممن زعم أهل الباطل أنهم معبودون من دون الله ، فنراه ينفي عن نفسه حاجته للطعام ، وينفي عن نفسه الأفول والغياب ، ونفى أن يكون له زوجة وبنين وبنات ، ونفى عن نفسه الظلم وغير ذلك من الصفات التي لا تليق بذاته الكريمة – والله تعالى أعلم – .

أسلوب التدرج :

ولإقامة الحجة أيضاً جاء أسلوب التدرج في عرض قضايا هذه السورة والذي عالج به عدة قضايا منها ما يلي :

في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾[الأنعام: ٢٥] عالج قضية القلب الذي هو محل الاعتقاد ، حيث ذكر التدرج الذي يحدث عند المكذب والكافر حيث يبدأ أولاً بالطبع على القلب ، فإذا طبع على القلب صُمَّت الآذان عن قبول الحق ، فبدأ يالقلب ثم ذكر بعده السمع حتى يبين أهمية سلامة القلب ، ونقاؤه من الشرك وشوائبه ، حتى ينتفع ببقية جوارحه واولها السمع ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية :" لما لم ينتفعوا بالسمع والبصر والنطق، جعلوا صماً بكماً عمياً؛ أو لما أعرضوا عن السمع والبصر والنطق، صاروا كالصُّمِّ العُمي البُكْم، وليس كذلك، بل نفس قلوبهم عميت وصمت وبكمت، كما قال الله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج: ٤٦] ، والقلب هو الملك، والأعضاء جنوده، وإذا صلح صلح سائر الجسد، وإذا فسد فسد سائر الجسد، فيبقى يسمع بالأذن الصوت كما تسمع البهائم، والمعنى: لا يفقهه، وإن فقه بعض الفقه لم يفقه فقهًا تاماً "[1]

[1] – الإيمان لابن تيمية (ص: ٢٥)

وفي قوله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ ﴾ [الأنعام: ٥٠] عالج معضلة عند المشركين الذين كانوا يطالبون النبي ﷺ بأمور هي ليست من خصائص النبي حيث يقول الإمام الرازي – رحمه الله – :" والحاصل أنهم كانوا في المقام الأول يطلبون منه الأموال الكثيرة والخيرات الواسعة، وفي المقام الثاني كانوا يطلبون منه الإخبار عن الغيوب، ليتوسلوا بمعرفة تلك الغيوب إلى الفوز بالمنافع والاجتناب عن المضار والمفاسد"[١] ، فهم تدرجوا فبداية طلبوا الخيرات ، ثم تدرجوا إلى ما هو أقل فإن لم يكن يملك الخيرات فليخبرهم بدلاً عن ذلك بالغيب حتى يعلموا مواطن تلك الخيرات – والله أعلم – .

وفي قوله تعالى : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩ ﴾ [الأنعام: ٥٩] عالج قضية عند المشركين وهي قضية من قضايا توحيد الأسماء والصفات ، وهي صفة العلم الأزلي والشامل لله ، فلقد تدرج من الأكبر والأعم إلى ما هو أخص وأقل ، فبدأ بذكر مفاتح الغيب ، "والمفاتح جمع مفتح وهو المفتاح ، وهى خزائن العذاب والرزق ، أو ما غاب عن العباد من الثواب والعقاب والآجال والأحوال ، جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة ؛ لأن المفاتح يتوصل بها إلى ما في الخزائن المستوثق منها بالأغلاق والأقفال ، ومن علم مفاتحها وكيفية فتحها توصل إليها ، فأراد أنه هو المتوصل إلى المغيبات وحده لا يتوصل إليها غيره كمن عنده مفاتح أقفال المخازن ويعلم فتحها فهو المتوصل إلى ما في المخازن"[٢]، ثم تدرج إلى ما هو أصغر من ذلك مساحة وهي مساحتي البر والبحر ، ثم ذكر ما هو أخص وهو أمر متعلق بالبر وهو سقوط الأوراق على سطحها الفسيح وهو ما يدل على علم الله بما يظهر للناس ، ثم ذكر ما هو أدق ليبين دقة علمه ، وأنه يعلم بأمور خفيت عن الناس ، فبين أن سعة علمه يشمل الحبة التي تزرع في باطن الأرض الذي هو أصل الورقة الساقطة ، وذلك يشمل كل ما غاب عن الأنظار ، يقول الشيخ أبو زهرة : " وتفسير العلماء للرطب يتجه إلى اتجاهين:

أولهما : تفسير الرطب واليابس بما يناسب الورق والحبة، وهو ما يكون ثمرًا. للأشجار رطبا أو جافا من عموم الثمار كالموز والتفاح، والقصب، وغير ذلك، وفيه توجيه للنعمة التي أنعم الله بها على عباده فوق إحاطة علمه، وقدرته في التكوين والإبداع.

---

(١) – مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٣٨)

(٢) – مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (١/ ٥٠٩)

وبعض المفسرين يرى أن الرطب واليابس في كل الوجود، فهو يعلم اللين والجامد في كل شيء، فهو يعلم ما في باطن الأرض من فلزات ومعادن كريمة، ومعادن سائلة، وما يكون في باطن الأرض من أحجار نباتية وغير نباتية وسائلة وجامدة"[1].

وفي قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٥ – ٧٨] ذكر كيفية معالجة إبراهيم – عليه السلام – لقضية كانت سائدة في عصره ، وهي عبادة الكواكب ، فبدأ بالتدرج من الأصغر إلى ما هو أكبر منه كما يُرى في عين قومه ، حيث ذكر الكوكب ، ثم أتبعه بالقمر الذي هو أكبر في مظهره من الكوكب ، ثم انتهى بالشمس التي هي أكبر ما يراه قومه من الأجرام السماوية ، فبين لهم أنه مهما كبر حجم ما يتجهون إليه بالعبادة من دون الله من هذه الأجرام السماوية فإنه آفل لا محالة ، ويبقى وجه الله تعالى – والله أعلم – .

والمتأمل يجد هذا التدرج في غير هذه المواضع ، لكن اقتصرت على ما سبق ذكره حيث يطول الحديث عن هذا الأسلوب في هذا المقام .

الجانب الثاني : ما اختصت به السورة من مفردات وألفاظ :

إن المتأمل في سور القرآن يلاحظ أن الألفاظ القرآنية الرفيعة ومعانيها العالية ، هي الوعاء له وهى أداة التعبير عن معاني القرآن وأهدافه ولا يمكن الاستغناء عن معرفتها، وهي بمثابة الأصداف لنفائس لآلئ المعاني الكلية الشاملة، والتي نزلت من صفة الكلام الأزلي ، وخاطبت جميع العصور وجميع البشرية، ولقد اختيرت اختياراً يظهر فيه وجه الإعجاز من هذا الاختيار، وبذلك نتعرف على أن لأسلوب القرآن الكريم طابعاً خاصاً يسلكه في اختيار ألفاظه وتراكيبه، فترى اللفظ قاراً في موضعه لأنه الأليق في النظم، والأوسع في المعنى، والأقوى في الدلالة، والأحكم في الإبانة، والأبدع في وجوه البلاغة، والأكثر مناسبة لمفردات الآية مما يتقدمه أو يترادف عليه، وإن من أعجب ما يحقق الإعجاز أن معاني هذا الكتاب الكريم لو ألبست ألفاظاً أخرى من نفس العربية، ما جاءت في نمطها وسمتها والإبلاغ عن ذات المعنى ، ولو تولى ذلك أبلغ بلغائها ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؛ فقد ضاقت اللغة عنده على سعتها؛ حتى ليس فيها لمعانيه غير ألفاظه

---

[1] – زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٥٢٤)

بأعيانها وتركيبها، وكل العلماء قد مضوا على أن ألفاظ القرآن بائنة بنفسها، متميزة من جنسها ، فحيثما وجد منها تركيب في نسق من الكلام، دل على نفسه وأومأت محاسنه إليه ، ورأيتَه قد وشحَ ذلك الكلامَ وزينه ، وحرك النفس إلى موضعه منه ، ولم يزد مرور الزمن بألفاظ القرآن إلا حفظاً لإشراقها، وسياجاً لجلالها، لم تهن لفظة ولم تتخل عن نصيبها، في مكانها من الحسن، وكل كلمة في حيِّزها، لا يملأ غيرها في موضعها فراغها ، ولا يدرك ذلك إلا بالقريحة الصافية، والذوق السليم(1).

ومن يتأمل سور القرآن الكريم يجد أن الله سبحانه اختار ألفاظاً عنيفة قوية في مقام التهديد والوعيد وما أشبه ذلك، ورقيقة عذبة في الترغيب والتبشير وما أشبههما ، هادئة ثرية في مقام التشريع والتوجيه وما قاربهما .

وعلى صعيد سورة الأنعام نجد أن الله سبحانه وتعالى اختار سبحانه وتعالى ألفاظاً مناسبة تخدم غرض هذه السورة ، وتوصل هدفها على الوجه الأكمل ، وتعبر عن معانيها بكل دقة ووضوح .

وللحديث عن ما اختصت به سورة الأنعام من ألفاظ لابد من تقسير تلك الألفاظ إلى قسمين رئيسيين ، القسم الأول ما تفردت بذكره سورة الأنعام ، والقسم الثاني ما تكرر فيها أكثر من غيرها ، وفي كليهما سيكون الحديث عن الأسماء ، وصيغ الأفعال ، وسأبين – بإذن الله – سبب التعبير بهذا اللفظ دون غيره في قسم الدراسة التطبيقية للسورة الكريمة .

القسم الأول : ما تفردت بذكره سورة الأنعام وحدها .

ونعني بذلك ما تفردت بذكره بصيغة معينة لم تذكر بتلك الصيغة في غيرها ، إلا أنها وردت تلك الألفاظ بصيغ أخرى في سور أخرى .

أولاً : ما تفردت به من الأسماء .

١. تفردت بلفظ (الإصباح) وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾[الأنعام: ٩٦]

٢. تفردت بذكر اسم الله (القاهر) مرتين ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٨] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[الأنعام: ٦١]

---

(1) – هذا الكلام مقتبس من : درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الاسكافي (١/ ٦٢) ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ص: ١٧٠ – ١٧١– ١٧٤) ، إشارات الإعجاز للنورسي (ص: ١٥) ، من بلاغة القرآن للبيلي (ص: ٦٤) ، المعجزة الكبرى القرآن لأبي زهرة (ص: ٨٥)

٣. تفردت بلفظ (قراطيس) وهو جمع قرطاس ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام: ٩١]

٤. تفردت بتتالي لفظ الجلالة (الله) وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]

٥. تفردت بذكر ألفاظ متتالية مضافة إلى ضمير المتكلم ، وهذه الألفاظ لم ترد بهذه الصيغة إلا فيها وهي (صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي) وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾[الأنعام: ١٦٢]

٦. تفردت بلفظ السُّلَّم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٥]

٧. تفردت بلفظ النفق ، وذلك في الآية السابقة .

٨. تفردت بذكر لفظ (فالق) في موضعين ، وهو اسم الفاعل من الفعل (فلق) وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾[الأنعام: ٩٥ – ٩٦]

ثانياً : ما تفردت به من الأفعال

١. تفردت بذكر الفعل أمر مبني للمجهول (أمرنا) وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

٢. تفردت بذكر فعل الخوض بصيغة المضارع(يَخُوضُونَ)وذلك في قوله تعالى:﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٦٨]

٣. تفردت بالفعل صدف بصيغة الماضي في موضع واحد والمضارع في موضعين ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٧]

٤. تفردت بصيغة الفعل المضارع (نسلم) وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[الأنعام: ٧١]

٥. تفردت بصيغة الفعل الماضي (وصاكم) حيث تكرر أربعة مرات في هذه السورة وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ﴾[الأنعام: ١٤٤] ، وفي آيات الوصايا العشر[1] .

٦. تفردت بذكر الفعل (وقف) مبنياً للمجهول في موضعين وهما قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الأنعام: ٣٠] .

٧. تفردت بلفظ الإبسال بصيغتي فعل ، الأولى بصيغة الفعل المضارع (تُبسل) ، وصيغة الفعل الماضي (أُبسل) وكلاهما مبنيان للمجهول وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[الأنعام: ٧٠]

---

[1] – وهي الآيات من ١٥١ إلى ١٥٣ .

القسم الثاني : ما تكرر في سورة الأنعام أكثر من غيرها .

وسيكون التقسيم في هذا القسم بحسب اللفظ ، وتحت ذلك اللفظ نذكر نوعه من حيث كونه اسماً أو فعلاً .

❖ لفظ الإنذار .

حيث إن من أهم مهمات الرسل هي الإنذار ، وهي المهمة التي ركزت عليها سورة الأنعام ، حتى تقيم الحجة على الأقوام المشركين لذلك ورد فيها لفظ الإنذار بأكثر من صيغة ، وذلك فيما يلي :

- ورد لفظ الإنذار بصيغة الفعل المضارع وذلك في قوله تعالى : ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾[الأنعام: ١٩] ، وفي قوله تعالى : ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢] ، وفي قوله تعالى : ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾[الأنعام: ١٣٠]
- ورد لفظ الانذار بصيغة اسم فاعل ، وهي جمع منذر وذلك في قوله تعالى : ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[الأنعام: ٤٨] .
- ورد لفظ الإنذار بصيغة فعل الأمر وذلك في قوله تعالى:﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾[الأنعام: ٥١]

❖ لفظ بغتة

حيث إن هذا اللفظ ورد في هذه السورة الكريمة أكثر من غيرها ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ

أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[الأنعام: ٣١] ، وفي قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٤] ، وفي قوله تعالى : ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الأنعام: ٤٧]

❖ لفظ التكذيب .

حيث إن سورة الأنعام اهتمت بالرد على المشركين المكذبين ؛ فإن لفظ التكذيب ورد فيها بكثرة وبأكثر من صيغة ، وذلك حتى تخدم تلك الألفاظ السياق الذي سيقت من أجله ، وهي على النحو التالي:

١. ماجاء فيها من لفظ التكذيب بصيغة الفعل الماضي (كذَّب) وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ ﴾[الأنعام: ٥] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[الأنعام: ٢١] ، وقوله تعالى : ﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[الأنعام: ٣١]، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ ﴾[الأنعام: ٣٩] ، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[الأنعام: ٤٩] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[الأنعام: ٥٧] ،وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ ﴾[الأنعام: ٦٦] ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾[الأنعام: ١٤٧] ، وقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ

وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾[الأنعام: ١٥٠] ، وقوله تعالى: ﴿ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٧]

- ماجاء في لفظ التكذيب بصيغة الماضي المبني للمجهول وذلك في قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[الأنعام: ٣٤]

- ماجاء فيها من لفظ التكذيب بصيغة الفعل المضارع ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾ [الأنعام: ٢٧]

- ما جاء فيها من قبيل الإسم وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾[الأنعام: ١١] حيث إنه اسم فاعل لما فوق الثلاثي .

❖ لفظ خسر

حيث إن السورة الكريمة حذرت من الشرك وأفعال الجاهلية ، وبينت أنهم سبب للخسران في أكثر من موضع بصيغة الفعل الماضي وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[الأنعام: ١٢] ، وفي قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[الأنعام: ٢٠] ، وفي قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[الأنعام: ٣١] ، وفي قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ﴾[الأنعام: ١٤٠]

❖ لفظ الرحمة .

حيث إن الله تعالى لما حمى حِمى التوحيد من الشرك كان ذلك أكبر رحمة من الله تعالى ، وبين هذه الرحمة بأكثر من صيغة ، وذلك في الآيات التالي :

- ورد لفظ الرحمة معرفاً بأل أربعة مرات ، لم يرد بهذه الصيغة إلا في سورة الأنعام، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[الأنعام: ١٢]، وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وفي قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[الأنعام: ١٣٣] .
- ورد لفظ الرحمة نكرة وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾[الأنعام: ١٤٧] ، وفي قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾[الأنعام: ١٥٤] ، وفي قوله تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأنعام: ١٥٧]
- ورد لفظ الرحمة بصيغة الفعل الماضي وذلك في قوله تعالى : ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾[الأنعام: ١٦]
- ورد لفظ الرحمة بصيغة الفعل المضارع المبني للمجهول وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾[الأنعام: ١٥٥]

❖ **لفظ الزعم**

حيث إنه لما أورد شبههم أطلق على أكثرها هذا اللفظ بعدة صيغ وهي كما يأتي :

- ورد لفظ الزعم بصيغة الفعل المضارع وذلك في قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[الأنعام: ٢٢] ، وفي قوله تعالى : ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤]
- ورد لفظ الزعم بصيغة الفعل الماضي وذلك في قوله تعالى : ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ [الأنعام: ٩٤] .
- في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾[الأنعام: ١٣٦] ، وفي قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾[الأنعام: ١٣٨] .

❖ لفظ الشرك

فلا عجب أن يكون هذا اللفظ بكل صيغه وتصريفاته قد ورد في سورة الأنعام أكثر من وروده في غيرها من السور ، حيث إن الغرض الأول والأساسي في السورة هو محاجة المشركين ، وهذا اللفظ ورد في هذه السورة على النحو التالي :

- ورد لفظ الشرك بصيغة اسم فاعل ، وهي جمع مشرك وذلك في قوله تعالى : ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾[الأنعام: ١٤] ، وفي قوله تعالى : ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[الأنعام: ٧٩] ، وفي قوله تعالى : ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾[الأنعام: ١٠٦] ، وفي قوله تعالى : ﴿وَلَا

تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢١] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الأنعام: ١٣٧] ، وفي قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾[الأنعام: ١٦١].

- ورد لفظ الشرك بصيغة الفعل المضارع المبدوء بالتاء أو الياء وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٩]، وفي قوله تعالى:﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[الأنعام: ٤١] ، وفي قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[الأنعام: ٦٤] ، ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٨] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[الأنعام: ٨٠] ، وفي قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ ﴾ [الأنعام: ١٥١]

- ورد لفظ الشرك بصيغة الفعل الماضي ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[الأنعام: ٢٢] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنعام: ٨١] ، وفي قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[الأنعام: ٨٨] ، ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ

عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾[الأنعام: ١٠٧] ، وفي قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾[الأنعام: ١٤٨]

- ورد لفظ الشرك بصيغة جمع التكسير ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[الأنعام: ٢٢] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ﴾ [الأنعام: ٩٤] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[الأنعام: ١٠٠] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾[الأنعام: ١٣٦]،وفي قوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الأنعام: ١٣٧] ،وفي قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ﴾[الأنعام: ١٣٩] .

ولقد تفردت سورة الأنعام بكثرة ذكر الشرك والمشرك والمشركين ، فقد ورد ذلك في أكثر من عشرين موضعاً ، ولا غرابة في ذلك إذ ان السورة الكريمة تناولت المشركين من نواحي عديدة – والله أعلم – .

❖ لفظ الصراط .

حيث إن الغرض الأساسي للسورة هو ابطال الشرك وإثبات التوحيد الذي هو مقتضى الصراط المستقيم ؛ لذلك نرى تكرر هذا اللفظ في هذه السورة أكثر من غيرها ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

﴿ [الأنعام: ٣٩] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٧]، وفي قوله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٦] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ، وفي قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦١] .

❖ لفظ الظلمة .

حيث إنه ورد هذا اللفظ مجموعاً في هذه السورة أكثر من غيرها من السور وذلك لأسباب اقتضاها محور السورة ، وسياق آياتها ، وهذه الآيات هي :

- جاء مجموعاً معرفاً بأل في ثلاثة مواضع وهي قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقوله تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٢] .
- جاء مجموعاً نكرة في ثلاث مواضع أيضاً وهي قوله تعالى : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٩] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٣] ، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٧] .

❖ لفظ غير

حيث ورد هذا اللفظ في هذه السورة أكثر من غيرها حيث ورد في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[الأنعام: ١٤] ، وفي قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[الأنعام: ٤٠] ، وفي قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[الأنعام: ٤٦] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٦٨] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾[الأنعام: ٩٣] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[الأنعام: ٩٩] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[الأنعام: ١٠٠] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠٨] ، وفي قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾[الأنعام: ١١٤] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٩] ، وفي قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟

مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾[الأنعام: ١٤٠] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وفي قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٤] ، وفي قوله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾[الأنعام: ١٤٥] ، وفي قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[الأنعام: ١٦٤] وفي كل موضع ورد فيه دل على دلالة معينة ستذكر – بإذن الله – في موضعها .

❖ **لفظ الفرية .**

حيث إنه من المعلوم أن سورة الانعام من أهم مقاصدها الرد على المشركين وتفنيد افتراءاتهم والرد عليها ؛ لذلك تكرر لفظ الافتراء بصيغ متعددة فيها ، من ذلك ما يلي :

- تفردت بالمصدر القياسي للفعل افترى الخماسي، على وزن افتعال بصيغة النكرة،

وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[الأنعام: ١٣٨] ، وفي قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾[الأنعام: ١٤٠]

- تكرر الفعل افترى الخماسي فيها أكثر من غيرها ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[الأنعام: ٢١]، وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾[الأنعام: ٩٣] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[الأنعام: ١٤٤] .
- تكرر لفظ الافتراء بصيغة الفعل المضارع وذلك في قوله تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[الأنعام: ٢٤] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[الأنعام: ١١٢] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الأنعام: ١٣٧] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[الأنعام: ١٣٨]

❖ **لفظ الكذب .**

حيث إن السورة الكريمة بينت كذب المشركين بأكثر من صيغة ، عبرت فيها عن الكذب في كثير من أقوالهم وأفعالهم ، وهي على النحو التالي :

- ما جاء فيها من لفظ الكذب بصيغة الفعل الماضي وذلك في قوله تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[الأنعام: ٢٤]

- ما جاء فيها ما جاء فيها من قبيل الإسم وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[الأنعام: ٢١] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ ﴾[الأنعام: ٩٣] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[الأنعام: ١٤٤] حيث إنه من قبيل الصفة المشبهة على وزن (فَعِل)
- ما جاء فيها من قبيل الإسم وذلك في قوله تعالى : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[الأنعام: ٢٨] حيث إنه اسم فاعل من الثلاثي .

❖ لفظ معشر

حيث إنه ورد في هذه السورة مرتين ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[الأنعام: ١٢٨]، وفي قوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾[الأنعام: ١٣٠] ولم يرد في غيره من سور القرآن سوى ما جاء في سورة الرحمن ، والمعشَر يطلق على كلُّ جماعةٍ أمرُهم وَاحِد، نَحْو معشر الْمُسلمين ومعشر الْمُشْركين.[١]

ولاختيار هذا اللفظ في هذه السورة دلالات مختلفة ، سأتحدث عنه — بإذن الله — في موضعه من السورة في قسم الدراسة التطبيقية للتناسق .

[١] – تهذيب اللغة للأزهري (١/ ٢٦٢)

❖ لفظ النظر

حيث إن سورة الأنعام ورد فيها لفظ النظر بصيغة فعل الأمر أكثر من أي سورة أخرى ، وذلك في قوله تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)﴾ [الأنعام: ١١] ، وفي قوله تعالى : ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)﴾ [الأنعام: ٢٤] وفي قوله تعالى : ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦)﴾ [الأنعام: ٤٦] ، وفي قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥)﴾ [الأنعام: ٦٥] ، وفي قوله تعالى : ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾ [الأنعام: ٩٩] حيث دعت إلى التأمل والتفكر والتدبر والاتعاظ ، وكل ذلك يساهم مساهمة واضحة في إقامة الحجج على المشركين ، ودحض شركهم .

❖ لفظ الوحي

حيث أورد هذا اللفظ بعدة صيغ ، وورد بصيغه في هذه السورة أكثر من غيرها من السور ، وذلك لأن سورة الأنعام كان من مقاصدها إثبات الوحي ، وأنه من الله وحده ، يوحي به إلى من يشاء من عباده ، ولا علاقة للنبي ﷺ منه في شيء سوى اتباعه وتبليغه ، وهذا يساهم مساهمة كبيرة في إقامة الحجة على المشركين ، الذي هو أهم مقصد لهذه السورة الكريمة ، وهو واضح بين من خلال الآيات التالية .

- ورد لفظ الوحي بصيغة الفعل الماضي المبني للمجهول وذلك في قوله تعالى :

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)﴾ [الأنعام: ١٩]، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣]،وفي قوله تعالى : ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦] ، وفي قوله تعالى : ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

- ورد لفظ الوحي بصيغة الفعل المضارع المبني للمجهول وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[الأنعام: ٥٠]

- ورد لفظ الوحي بمعناه اللغوي بصيغة الفعل المضارع وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا ﴾[الأنعام: ١١٢]

❖ **لفظ وذر .**

وهو الذي يأتي بمعنى ترك " يُقَال : يذره يتْركهُ وذره اتركه ، وأماتت الْعَرَب ماضيه ومصدره ، فَإِذا أُرِيد الْمَاضِي قيل (ترك) وَلَا يسْتَعْمل مِنْهُ اسْم فَاعل"(١) ، وقد ورد هذا اللفظ في هذه السورة أكثر من ما ورد في غيرها على النحو التالي :

- ورد بصيغة فعل الأمر في قوله تعالى : ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ ﴾[الأنعام: ٧٠] ، وقوله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام: ٩١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٢] ، وقوله تعالى : ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ

(١) – المعجم الوسيط للنجار وآخرين (٢/ ١٠٢٣)

﴿ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ١٢٠﴾ [الأنعام: ١٢٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧﴾ [الأنعام: ١٣٧] .

- ورد بصيغة الفعل المضارع في قوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠﴾ [الأنعام: ١١٠]

هذا والله تعالى أعلم .

الجانب الثالث : ما اختصت به السورة من موضوعات :

"إن أمهات المسائل التي ذكرت فى السور المكية هى: أصول الإيمان من الاعتقاد بوحدانية الله والتصديق بالوحى والرسالة والبعث والجزاء، وقصص الرسل مع أقوامهم، ثم أصول التشريع العامة والآداب والفضائل الثابتة، وجاء فى أثناء ذلك محاجة المشركين ودعوتهم إلى الإيمان بتلك الأصول ودحض شبهاتهم وإبطال ضلالاتهم والنعي على خرافاتهم"[1]، إلا أن هذه القضايا عرضت في كل سورة مكية وفق ما يتناسب مع غرضها الأساسي الذي من أجله نزلت السورة الكريمة ، مراعياً الزمان والمكان وحال المخاطبين فيهما .

ومن يتأمل آيات سورة الأنعام يجد أن موضوعاتها بوجه عام لا تخرج عن موضوعات سائر السور المكية ، إلا أنها في حديثها عن هذه الموضوعات اتسمت بالشمولية ، وسلكت التنوع في عرض تلك الموضوعات كما تقدم في الأساليب المتبعة في ذلك ، ومن الملاحظ أن السورة الكريمة احتوت في جملتها على مواضيع رئيسية كل موضوع منها احتوى على مواضيع فرعية تخدم ذلك الموضوع الرئيسي وإلى القاريء الكريم أبرز ما تحدثت عنه سورة الأنعام من مواضيع :

١. العقائد :

حيث إن الغرض الأساسي للسورة هو اثبات العقيدة الصحيحة وابطال ما سواها من العقائد، لذا فإننا سنذكر ما تحدثت عنه من العقائد من جانبين :

---

(١) – تفسير المراغي (١٠/ ٤٦)

الجانب الأول : العقيدة الصحيحة .

وتحدثت عنها من عدة محاور يمكن تلخيصها في النقاط التالية :

- تحدثت عن أنواع التوحيد الثلاثة ؛ توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات .
- تحدثت عن أركان الإيمان جميعها ؛ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .
- تحدثت عن العبودية التامة لله ، وأن الحاكمية لله وحده .

الجانب الثاني : العقائد الفاسدة .

حيث عرضت سورة الأنعام عقيدة الشرك الفاسدة ، بعرض مواقف المشركين في شركهم ، بعضها لم يذكر إلا في هذه السورة ، والبعض الخر ذكر في غيرها لكن كان ذكرها في هذه السورة بصورة أوسع ، فذكرت على سبيل المثال الذبح لغير الله تعالى ، واتخاذ الجن شركاء لله، وعبادة الكواكب ، وغير ذلك .

٢. النبوة والرسالة

حيث تحدثت عن النبوة والرسالة من عدة جوانب وهي كما يلي :

- تحدثت عن مهمة الرسل المحصورة في التبليغ ، ونفي عنهم صفات الألوهية .
- تحدثت عن بشرية الرسل ، وصدق ما جاؤوا به .
- أوردت توجيهات عديدة للنبي ﷺ تعينه على قيام واجبه في الدعوة وإقامة الحجة على المخالفين .
- بينت أن الرسل ليس في يدهم خلق المعجزات ، وإنما هي تأييد من الله تعالى لهم يجريها على أيديهم .
- تسلية النبي ﷺ ، وتخفيف وطأة تكذيب قومه له ، والبشارة بالنصر والتمكين له، أسوة بمن سبق ونصرهم الله من إخوانه الرسل .
- بينت جهود أبو الأنبياء إبراهيم – عليه السلام – في دعوة عبدة الكواكب .
- كان ذكر أسماء أكثر الأنبياء في هذه السورة الكريمة ، وبينت توكيلهم بالرسالة ، وصنفت أعداءهم .
- تحدثت عن أقوام زعموا النبوة ، وتلقيهم الوحي .
- بينت كيف يجب أن يكون تعامل النبي ﷺ مع أصحابه من جهة ، ومع أعدائه من جهة أخرى .

٣. تفنيد الجاهلية .

- التقليد الاعمى في اتباع الآباء والأجداد .
- التصرف الجاهلي بالتحليل والتحريم ويبدو ذلك جلياً في موقفهم تجاه الأنعام ؛ حيث إنهم يحرمون على أنفسهم بعض الأنعام ؛ لا يركبونها أو لا يذوقون لحومها ، أو يبيحونها للذكور دون الإناث .
- الافتراء على الله تعالى ؛ لتبرير أفعالهم .
- الخوض في الآيات ، والاستهزاء بها ، والتكذيب بها ، والمجادلة فيها .
- إنكار البعث .
- الكبر في قلوبهم وإعراضهم عن الحلق الناتج عن ذلك .
- نسبة البنوة والزوجة إلى الله – تعالى الله عن ذلك – .
- الاحتكام إلى الكهنة من دون الله تعالى .
- قتل الأولاد .

٤. عرضت السورة لمشاهد عدة من يوم القيامة حيث إنها عرضت حال المشركين في الآخرة من ذلك ما يلي :

- مطالبة المشركين بإحضار شركائهم يوم المحشر ، ونكرانهم للشرك في ذلك الحين.
- الندم على التكذيب والكفر عند الوقوف على النار ، واعترافهم يوم القيامة أنه حق ، والتحسر على التفريط .
- بينت عذاب المشركين على أيدي ملائكة العذاب

٥. تحدثت عن عدد من السنن الإلهية ، وهي قوانين إلهية ، جارية في الكون ، متحققة الوقوع لا محالة ، ومنها ما يلي:

- سنة الله في الأسباب والمسببات ، وهو قانون السببية .
- سنة الله في اتباع الهدى ، أو الاعراض عنه ، وهو قانون الهدى والضلال .
- سنة الله في التدافع بين الحق والباطل ، وهو قانون التدافع .
- سنة الله في الفتنة الابتلاء ، وهو قانون الابتلاء .
- سنة الله في الظلم والظالمين ، وهو قانون مواجهة الظلم .

- سنة الله في الاختلاف والمختلفين ، وهو قانون الاختلاف .
- سنّة الله في المتساوين والمختلفين ، وهو *قانون التماثل والأضداد .*
- سنّة الله في الترف والمترفين ، وهو *قانون الترف .*
- سنّة الله في الطغيان والطغاة ، وهو *قانون الطغيان والطغاة .*
- سنّة الله في بطر النعمة وتغيرها ، وهو *قانون بطر النعم وتغيرها .*
- سنّة الله في الذنوب والسيئات ، وهو *قانون الذنوب والسيئات .*
- سنّة الله في التقوى والإيمان والعمل الصالح ، وهو قانون *التقوى والإيمان والعمل الصالح .*
- *سنّة الله في الاستدراج ، وهو قانون الاستدراج .*
- سنّة الله في المكر والماكرين ، *قانون المكر .*
- سنّة الله في طلب الدّنيا والآخرة ، وهو *قانون طلب الدنيا والآخرة .*
- سنّة الله في الرزق ، وهو قانون الرزق .
- سنّة الله في الفظاظة والغلظة والرفق، وهو قانون الفظاظة والغلظة والرفق .

٦. فصلت القول في المأكول والمشروب ، من الحرث والأنعام ، وبينت مذاهب الجاهلية في ذلك ، ونصيب طائفة اليهود من الأنعام .

٧. تحدثت عن الوصايا العشر .

٨. تحدثت عن آداب إسلامية رفيعة في تعامل القائد مع رعيته ، وفي تعامل الداعي مع من يحاوره ، وفي تعامل المسلمين مع بعضهم البعض ، وفي تعامل المسلمين مع غيرهم .

إضافة إلى غيرها من المواضيع التي ترتبط بعضها ببعض لتعطي صورة واحدة تخدم الغرض الأساسي للسورة الكريمة – والله أعلم –

الفصل الثالث:
أسباب النزول الواردة في السورة ومقاصدها وأهدافها.

المبحث الأول: أسباب النزول الواردة في السورة.

تقدم فيما سبق في نزول السورة ومكيها ومدنيها أن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة شيعها سبعون ألف ملك ، لكن القول بوجود أسباب نزول لبعض آياتها ينافي هذا القول ، إذ أن القول بأسباب النزول يعني أن هناك أحداث حدثت اقتضت أن تنزل آيات على إثرها .

ولقد نقل كثير مِن مَن ألف في التفسير وعلوم القرآن وأسباب النزول روايات لأسباب نزول بعض الآيات مما يعارض القول بنزولها جملة واحدة .

ولقد أجاب على ذلك الشيخ محمد رشيد رضا – رحمه الله – بقوله : "ويمكن أن يدفع الإشكال (أولا) بأنه لم يقل أحد بأن لكل آية من آيات هذه السورة سببا، وإنما قيل ذلك في زهاء عشر من آياتها. (وثانيا) أن ما قيل في أسباب نزول تلك الآيات بعضه لا يصح والبعض الآخر لا يدل على نزول تلك الآيات متفرقة، وإنما قالوا إن آية كذا نزلت في كذا أو في قول المشركين كيت وكيت، وهذا هو الأكثر، فإذا صح كان معناه أن تلك الآيات نزلت بعد تلك الوقائع والأقوال مبينة حكم الله فيها، وهذا لا ينافي نزولها دالة على ذلك في ضمن السورة "[١]

من كلام الشيخ السابق نفهم أنه لا يوجد في السورة أسباب نزول حسب المفهوم العلمي لأسباب النزول ، فلا مجال إذا بالقول بأسباب النزول والتي تستلزم نزول السورة على فترات متفرقة ، ولقد أثبتنا فيما سبق أن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة .

فيمكن أن يقال أن كل أسباب النزول التي وردت في السورة لا تخرج عن احتمالات ثلاث :

الأول : أن تكون الروايات التي وردت في أسباب النزول غير صحيحة السند ، وغير مقبولة ، بمعنى يتخللها الضعف .

الثاني : أن تلك الروايات قد تكون مجرد شواهد على التفسير ، أو احداث ووقائع تصدق عليها معاني تلك الآيات من السورة والتي قيل أنها سبب لنزول تلك الآيات ، من غير أن تكون مقترنة بها ، وقد يكون ما ساقه الصحابة في ذلك من باب التفسير ، وفي ذلك يقول الإمام الزركشي – رحمه الله – : " وقد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال : نزلت هذه الآية في كذا ، فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب في نزولها"[٢].

---

[١] – تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٣٩)

[٢] – البرهان في علوم القرآن (١/ ٣١ – ٣٢)

الثالث : أن تلك الروايات – إن كانت صحيحة – قد تكون من قبيل تكرر نزول الآيات ، مرة في سورة الأنعام حينما نزلت جملة واحدة ، ومرة أخرى عند وقوع الحادثة التي قيل أنها نزلت بشأنها تلك الآيات – والله تعالى أعلم – .

ومن الأمانة العلمية استقراء جميع الروايات التي قيلت أنها سبب لنزول بعض آيات سورة الأنعام ، والذي يرجع إلى كتب التفسير وكتب أسباب النزول يجد أن هناك اختلافاً في عدد الآيات التي ذكروا لها أسباب نزول ، ولقد رجعت إلى أهم كتب أسباب النزول المعتمدة فوجدت أن الواحدي ذكر في كتابه ستة عشر موضعاً ، في حين اكتفى السيوطي في لباب النقول بثلاثة عشر موضعاً ، عشرة منها ذكرها الواحدي، بالإضافة إلى ثلاثة مواضع زادها ، لذا يمكن أن يقال أن مجموع مواضع الآيات التي كان لها أسباب نزول التي ذكرها كل من الواحدي والسيوطي على اختلافهما بلغت تسعة عشر موضعاً .

وبعد الإطلاع على كتب التفسير المعتمدة التي اهتمت بذكر أسباب النزول ؛ تبين أن هناك أربعة مواضع زيادة على ما سبق ، فكان المجموع ثلاثة وعشرين موضعاً – والله أعلم – .

ويمكن أن يستثنى ذكر بعض المواضع التي تقدم دراستها ، والتي قيل بمدنيتها وتم الحديث عنها و بيان حكمها في المبحث الذي يتحدث عن المكي والمدني في السورة ، والتي بلغ عددها أحد عشر موضعاً.

فالحديث هنا سيكون – بإذن الله – عن الآيات المحكوم بمكيتها ، واالتي قيل أنها نزلت إثر سبب استلزم نزولها به ، وهي كالتالي :

١. قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [١] حيث أورد ابن جرير الطبري – رحمه الله – رواية عن ابن أبزى[1] قال: جاءه رجل من الخوارج يقرأ عليه هذه الآية:﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ قال له: أليس الذين كفروا بربّهم يعدلون؟ قال: بلى! قال: وانصرف عنه الرجل، فقال له رجل من القوم: يا ابن أبزى ، إن هذا قد أراد تفسيرَ هذه غير هذا! إنه رجلٌ من الخوارج! فقال: ردّوه عليّ. فلما جاءه قال: هل تدري فيمن نزلت هذه الآية؟ قال: لا! قال: إنها نزلت في أهل الكتاب، اذهبْ، ولا تضعها على غير حدِّها[2].

[1] – عبد الرحمن بن أبزى الخزاعي، مولى نافع بن عبد الحارث الخزاعي، سكن الكوفة، واستعمله علي ﷺ على خراسان، وأدرك النبي ﷺ، وصلى خلفه ، أكثر رواياته عن عمر، وأبي بن كعب، وقَالَ فِيهِ عُمَر بْن الخطاب: عَبْد الرَّحْمَن بْن أبزي ممن رفعه اللَّه بالقرآن. انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/ ٨٢٢) أسد الغابة (٣/ ٤١٩)

[2] – جامع البيان (١١/ ٢٥٣) .

وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن علي ﷺ قال: أتاه رجل من الخوارج فقال له: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ أليس كذلك؟ قال: نعم، فانصرف عنه ثم قال له علي: ارجع ارجع، أي قل: إنما أنزلت في أهل الكتاب وهم الذين عدلوا بربهم، يعني أهل الكتاب[1].

إن المتأمل في كلا الروايتين السابقتين المنقولتين عن صحابيين جليلين – علي وابن أبزى رضي الله عنهما _ تحمل على التفسير لا على السبب وذلك أن كلا الروايتين لم تذكر حادثة وقعت فنزلت الآية بإثرها ، ثم إن الروايتين حكت حادثة وقعت بعد عصر النبوة ، وهو العصر الذي ظهر فيه الخوارج ، فأراد كلا الصحابيين أن يردا على اعتقاد يعتقده الخوارج حيث أراد السائل من الخوارج بسؤاله، الاستدلال بالآية على تكفير أهل القبلة، في أمر تحكيم علي بن أبي طالب ، وذلك هو رأي الخوارج ، فبينا له وجهاً من أوجه تفسير الآية وهو أن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب ، إلا أن الصواب في ذلك أن هذه الآية تشمل جميع المشركين الذين أشركوا بالله تعالى وسووا به غيره من آلهتهم، ومن خصص الذين كفروا بالمانوية كقتادة أو بعبدة الأصنام أو بالمجوس حيث قالوا: الموت من أهرمن[2] والحياة من الله، أو بأهل الكتاب كابن أبي أبزى فلا يظهر له دليل على التخصيص " [3] – والله تعالى أعلم – .

٢. قوله تعالى : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [٧] جاء في أمر الآية الأولى ما روي عن الكلبي إن مشركي مكة قالوا: يا محمد والله لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ، ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله ، وأنك رسوله فنزلت هذه الآية [4].

ومن المعلوم شدة ضعف الروايات الواردة عن الكلبي ، حيث حُكِم عليه :"مَتْرُوك الحَدِيث"[5]، وجاء في الجرح والتعديل: " الناس مجتمعون على ترك حديثه، لا يشتغل به ، هو ذاهب الحديث " [6].

---

[1] – تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٢٦٠) .

[2] – أهرمن: خالق الشر بزعم المجوس القائلون بأنّ (أهرمن) إبليس له نفس القدرة الإلهية في التأثير، والمنازعة دائمة بين جنود الرحمن والشيطان. ففي بعض الأحيان: يجري حكم الله في عالم الخير ويكون هو الغالب، وحينا يتغلّب جيش إبليس. وهو يظهر في عالم الشرّ والقبح. انظر : مفاتيح العلوم (ص: ٥٦) ،كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (١/ ١٠٢٤) .

[3] – البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٣٠) .

[4] – أسباب النزول للواحدي (ص: ٢١٤)

[5] – الضعفاء والمتروكون (ص: ٩٠)

[6] – الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٧/ ٢٧١)

٣. قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [٨]

حيث جاء في الدر المنثور للسيوطي : " دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام وكلمهم فابلغ إليهم ، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث بن كلدة ، وعبدة بن عبد يغوث ، وأبي بن خلف بن وهب ، والعاصي بن وائل بن هشام : لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ، ويرى معك ، فأنزل الله في ذلك من قولهم ﴿ وَقَالُوا۟ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ ﴾ الآية "[١] ، ولقد ذكر هذه الرواية الشيخ محمد رشيد رضا – رحمه الله – في تفسيره ثم تعقبها بقوله : " ولا تصح هذه الرواية في سبب نزول الآية، وقد ذكرها السيوطي في الدر المنثور ولم يذكرها في (لباب النقول في أسباب النزول) واقتراح معاندي المشركين إنزال الملك مع الرسول ذكر في الفرقان وهود والإسراء، وقد روي أن هذه السور الثلاث نزلت قبل الأنعام، والأنعام نزلت جملة واحدة على ما تقدم بيانه في أول تفسيرها فما فيها من الرد عليهم في هذه المسألة إنما هو رد على شبهة سبقت لهم وحكيت عنهم، وكذلك اقتراح إنزال كتاب من السماء وإنزال القرآن جملة واحدة فهو في الفرقان "[٢].

والمتامل في كلا الآيتين السابقتين يجد أن كلاهما تذكر أبرز شبهات المشركين ، وطلباتهم المتعنتة ، فمرة يطالبون بإنزال كتاب ، وأخرى بإنزال ملك ، كل ذلك جاء في سياق آيات سورة الأنعام التي نزلت جملة واحدة ، والتي اهتمت اهتماماً بليغاً في تفنيد ورد تلك الشبه – والله أعلم – .

٤. قوله تعالى:﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾[١٣]

جاء في أسباب النزول للواحدي :" قال الكلبي عن ابن عباس: إن كفار مكة أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد إنا قد علمنا أنه إنما يحملك على ما تدعو إليه الحاجة، فنحن نجعل لك نصيباً في أموالنا حتى تكون أغنانا رجلاً ، وترجع عما أنت عليه ، فنزلت هذه الآية "[٣].

ولقد تقدم القول في رواية الكلبي ، كما أن المتأمل في الآية الكريمة يجدها تتلام مع السياق الذي سيقت فيه ، حيث يقول ابو حيان في ذلك :" لما ذكر تعالى أنه له ملك ما حوى المكان من السموات والأرض، ذكر ما حواه الزمان من الليل والنهار وإن كان كل واحد من الزمان والمكان يستلزم الآخر، لكن النص عليهما أبلغ في الملكية وقدم المكان لأنه أقرب إلى العقول والأفكار من الزمان"[٤]،

---

[١] – الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٣/ ٢٥١)

[٢] – تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٥٩)

[٣] – أسباب النزول (ص: ٢١٤)

[٤] – البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٤٩)

أضف إلى ذلك عدم ذكر الإمام السيوطي لهذه الرواية في اللباب وكذلك الجم الغفير من المفسرين – والله أعلم – .

٥. قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [١٩] جاء عن الكلبي : " إن رؤساء مكة قالوا: يا محمد ما نرى أحدا يصدقك بما تقول من أمر الرسالة، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة، فأرنا من يشهد لك أنك رسول كما تزعم، فأنزل الله تعالى هذه الآية " . [١]

وهذه الرواية لا تقبل لأنها مروية عن الكلبي ، وقد تحدثنا عن أمره فيما سبق ، وقد أغفلها كثير من المفسرين ، ولقد وردت رواية أخرى في لباب النقول عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : جاء النحام بن زيد وقروم بن كعب وبحري بن عمرو فقالوا : يا محمد ما نعلم مع الله إلها غيره ، فقال : لا إله إلا الله بذلك بعثت ، وإلى ذلك أدعو فأنزل الله في قولهم ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ الآية[٢] ، ولقد علق عليها الشيخ محمد رشيد رضا – رحمه الله – بقوله :"كذا في لباب النقول. وهذه الرواية لا تصح، ففي سندها محمد بن محمد مولى زيد بن ثابت قال الحافظ في تهذيب التهذيب: مدني مجهول تفرد عنه ابن إسحاق اهـ " [٣]

٦. قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [٣٣] جاء في أسباب النزول :" قال السدي: التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هنا من يسمع كلامك غيري، فقال أبو جهل: والله إن محمدا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية " [٤]، وجاء عن مقاتل بن سليمان أنه قال:" نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف بن قصي كان يكذب النبي ﷺ في العلانية ، فإذا خلا مع أهل بيته قال: ما محمد من أهل الكذب فلا أحسبه إلّا صادقاً . فأنزل الله عز وجل هذه الآية"[٥]، ووردت رواية ثالثة في سنن الترمذي عن علي ﷺ : أن أبا جهل، قال للنبي ﷺ : إنا لا

[١] – أسباب النزول للواحدي (ص: ٢١٤)

[٢] – لباب النقول للسيوطي (ص: ٨٨)

[٣] – تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٨٢)

[٤] – أسباب النزول (ص: ٢١٦)

[٥] – الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي (٤/ ١٤٥)

نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [1].

إن الملاحظ على كلا الروايتين الأولى والثانية منقطعة ، فهي مرسلة عن كل من السدي ومقاتل بن سليمان ، أما الرواية الثالثة فقد ضعفها الشيخ الألباني – رحمه الله –كما ذكرنا في الحكم على الحديث .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا :" وما ذكر سببا لنزول الآية يصح أن يكون سبباً لنزولها في ضمن السورة، ولا يصح نص في نزولها منفردة وإلا فهو من قبيل التفسير، كخبر الأخنس مع أبي جهل يوم بدر، وذلك بعد الهجرة قطعا، والسورة مكية قطعاً "[2]، ثم إنه لم يرد نص صرح يدل دلالة واضحة في أن هذه الآية الكريمة نزلت منفردة عن باقي آيات السورة – والله أعلم – .

٧. قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [٨٢] حيث أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره رواية عن بكر بن سوادة[3] قال: حمل رجل من العدو على المسلمين فقتل رجلاً، ثم حمل فقتل آخر، ثم حمل فقتل آخر، ثم قال: أينفعني الإسلام بعد هذا؟ قالوا: ما ندري حتى نذكر ذلك لرسول الله ﷺ . قال: فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال: نعم. فضرب فرسه فدخل فيهم، ثم حمل على أصحابه فقتل رجلاً، ثم آخر، ثم آخر، ثم قتل. قال: فيرون أن هذه الآية فنزلت فيه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [4].

وهذه الرواية مرسلة عن بكر بن سوادة كما أن فيها راويين متكلم فيهما[5]، ويصلح هذا أن يكون من الشواهد التي تفسر الآية ، حيث إنه من المحال أن تكون سبباً للنزول ، فلو تأملنا الرواية السابقة لوجدناها تتحدث عن قتال بين المسلمين والكفار ، ولم يكن هناك ثمة قتال بين المسلمين والكفار في مكة ، ولم يقل أحد بمدنية هذه الآية ، كما أن السياق الذي وردت فيه الآية الكريمة يتوافق

---

[1] – أخرجه الإمام الترمذي في سننه ، أبواب تفسير القرآن ، باب : من سورة الأنعام (٥/ ١١١) ، وضعفه الألباني في النسخة التي ذكرت حكم الألباني (ص : ٦٨٦)

[2] – تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣١٢)

[3] – بكر بن سوادة الجذامي ، كان فقيها مفتيا. ثقة . تُوُفي في خلافة هشام بن عبد الملك ، سنة ثَمَان وَعشْرين وَمِائَة ، انظر : الطبقات الكبرى ط العلمية (٧/ ٣٥٦) رجال صحيح مسلم (١/ ٩١) تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٤/ ٢١٤)

[4] – تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٣٣)

[5] – المقصود بهما : يحيى بن أيوب ، وعبيد بن زحر ، ضعفهما ابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال (يحيى بن أيوب في : ٩/ ٥٤) و (عبيد بن زحر في : ٥/ ٥٢٣)

موافقة تامة مع محاجة نبي الله إبراهيم – عليه السلام – وكثير من المفسرين جعلوها مرتبطة بما قبلها وما بعدها في السياق ، وسيأتي تفصيل ذلك – بإذن الله – في موضعه من الدراسة التحليلية – والله أعلم– .

٨. قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٤] حيث ذكر الإمام ابن جرير الطبري – رحمه الله – رواية عن عكرمة قال: قال النضر بن الحارث:"سوف تشفع لي اللات والعزّى"! فنزلت هذه الآية[١] ، وهي رواية ضعيفة جداً ، فيها علّة ، وهي أن ابن جريج لم يسمع من عكرمة كما نص عليه المزي[٢] ، أضف إلى ذلك أنها مرسلة – والله أعلم – .

٩. قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[الأنعام: ١٠٨] حيث ذكر الإمام ابن جرير الطبري – رحمه الله– رواية عن قتادة أنه قال: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فيسب الكفار الله عدوًا بغير علم، فأنزل الله تعالى الآية الكريمة[٣] ، وعلى فرض صحته فربما أن هذه الحادثة وقعت وقت نزول سورة الأنعام – والله أعلم –.

١٠. قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾[الأنعام: ١٠٩] حيث ذكر الإمام ابن جرير الطبري رواية جاء فيها أن رسولُ الله ﷺ كلّم قريشًا، فقالوا: يا محمد، تخبرنا أن موسى كان معه عصًا يضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، وتخبرنا أنّ عيسى كان يحيي الموتى، وتخبرنا أن ثَمُود كانت لهم ناقة، فأتنا بشيء من الآيات حتى نصدقك! فقال النبي ﷺ : (أيَّ شيء تحبُّون أن آتيكم به؟) قالوا: تجعَلُ لنا الصَّفَا ذهبًا. فقال لهم: (فإن فعلت تصدقوني؟) قالوا: نعم والله، لئن فعلت لنتبعنّك أجمعين! فقام رسول الله ﷺ يدعو، فجاءه جبريل – عليه السلام – فقال له: لك ما شئت، إن شئتَ أصبح ذهبًا، ولئن أرسل آيةً فلم يصدقوا عند ذلك لنعذبنَّهم، وإن شئت فأنْدِحْهُم حتى يتوب تائبهم. فقال: (بل يتوب تائبهم) . فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة . [٤]

---

[١] – جامع البيان (١١/ ٥٤٧) .
[٢] – تهذيب الكمال (١٨/ ٣٤٢)
[٣] – جامع البيان (١٢/ ٣٥)
[٤] – جامع البيان (١٢/ ٣٨ – ٣٩)

وهذه الرواية ضعيفة فيها علتان ؛ الأولى : الإرسال ، والثانية : في اسناده نجيح أَبُو معشر قال عنه البخاري : مُنكر الحَدِيث [1] .

١١. قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[الأنعام: ١٢٣] حيث ذكر الإمام ابن جرير الطبري – رحمه الله – رواية عن عكرمة أنه قال : نزلت في المستهزئين[2] .

وهذه الرواية ضعيفة جداً ، فيها علة وهي أن ابن جريج لم يسمع من عكرمة كما نص عليه المزي – رحمه الله –[3] ، أضف إلى ذلك أنها مرسلة – والله أعلم – .

١٢. قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾[الأنعام: ١٤٠] حيث ذكر الإمام ابن جرير الطبري – رحمه الله - عن عكرمة أنه قال: نزلت فيمن يئد البنات من ربيعة ومضر، كان الرجل يشترط على امرأته أن تستحيي جارية وتئد أخرى، فإذا كانت الجارية التي توأد غدا الرجل أو راح من عند امرأته ، وقال لها: أنت علي كظهر أمي إن رجعت إليك ولم تئديها، فتخد لها في الأرض خدا، وترسل إلى نسائها فيجتمعن عندها، ثم يتداولنها، حتى إذا أبصرته راجعاً دستها في حفرتها، ثم سوت عليها التراب[4].

وهذه الرواية ضعيفة جداً ، فيها علة وهي أن ابن جريج لم يسمع من عكرمة [5] ، أضف إلى ذلك أنها مرسلة – والله أعلم – .

من خلال ماسبق من دراسة الروايات والأسانيد ، والتي من خلال هذه الدراسة تبين لنا ضعف ما جاء فيها من أسباب النزول ، والذي يدل دلالة صريحة واضحة أن هذه السورة إنما نزلت جملة واحدة ، لا تتجزأ آياتها ومقاطعها ، ولا تتفرق على أسباب نزول متفرقة ، ثم إن اثبات نزول السورة الكريمة جملة واحدة يساهم مساهمة قوية وكبيرة في ابراز التناسق والترابط الموضوعي في السورة – والله تعالى أعلم - .

---

[1] – الضعفاء الصغير للبخاري (ص: ١١٥)

[2] – جامع البيان (١٢/ ٩٤)

[3] – تهذيب الكمال (١٨/ ٣٤٢)

[4] – جامع البيان (١٢/ ١٥٤)

[5] – تهذيب الكمال (١٨/ ٣٤٢)

المبحث الثاني : مقاصد السورة وأهدافها.

ويقصد بهذا المبحث الوقوف على المعاني والأغراض الأساسية والموضوعات الرئيسة التي تدور عليها سورة الأنعام ، وما اشتملت عليها من مقاصد وأهداف وأحكام ومعتقدات ، والتي إن تأملها من يتدبر فيها يجد أنها تتوافق كل الموافقة مع طبيعة المرحلة التي كانت تجتازها الدعوة الإسلامية في ذلك الوقت.

إن من أهم ماتقصد إليه هذه السورة الكريمة وتهدف إليه هو إقامة الحجة في أكثر من مجال كلها تخدم غرض واحد ألا وهو اثبات عقيدة التوحيد الصحيحة في جميع جوانبها وهي مايلي :

- تقرير وحدانية الله تعالى ، وبيان ما يجب له من صفات الكمال والجلال ، واستحقاقه للمحامد كلها ، وتتابعت الآيات وتضافرت حتى تحقق هذا الهدف بطول السورة .
- هدم عقيدة الشرك، وتقويض أركانه. بالحجة والبرهان. فهي أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور، وعليها بنى المتكلمون أصول الدين ، كما قال العلماء ، ومن يتأمل في هذا الهدف وسابقه يجد أن الهدف الماضي ذكره يساهم في تحقيق هذا الهدف مساهمة كبيرة بطريق مباشر وغير مباشر .
- التنبيه إلى الخطأ الجسيم الذي اقترفه المشركون بشركهم ، وتكذيبهم ، وعنادهم بالرغم من وضوح الأدلة والبراهين على صحة ما جاء به النبي ﷺ ، وبيان فساد رأيهم في كل ما اقترحوه ليصدقوا بما جاء به النبي ﷺ ، وسبب عدم قبولهم للحق ، وعدم استجابتهم له .
- تسلية الرسول ﷺ ، والتخفيف من وطاة تكذيب قومه له بتذكيره بما أصاب الرسل قبله من سخرية أقوامهم بهم وتكذيبهم إياهم، وبينت تهديد مكذبى الرسل حيث إنه بمثل عاقبة المكذبين قبلهم ستكون عاقبتهم .
- بيان مهمة الرسل الحقيقية ، ومكانة الكتب المنزلة من لدنه ، وخطر كل ما يقوم به الأعداء تجاهها في كل زمان ومكان ، والدعوة للإيمان بها بكل الوسائل المحببة .
- بيان كل ما يتعلق بالحجاج بين الرسول ﷺ وبين قومه ، وإبراز الحوار بين الحق الواضح والباطل الفاضح، حتى تدمغ المشركين وتدحض حججهم.

- بيان الرحمة الإلهية بالإنسان ، لا سيما أن دحض الشرك وإقامة الحجج وإرسال الرسل بها وبالكتب من عنده لبيان منهج الحياة الدنيا والآخرة إنما هي أكبر رحمة من عنده ، وبيان من يستحق تلك الرحمة .
- إبراز حقيقة البعث ومصير الناس إلى ربهم ، وإقامة الأَدلة عليه ، وبينت كل ما سيكون بعد ذلك البعث من الجزاء فيه الذي يكون على حسب أَعمالهم، ودرجة انبعاثها عن ضمائرهم ونفوسهم ، وأنه لا تحمل نفس وزر نفس أخرى ، وأَن الجزاءَ على الأَعمال يتناول ظاهرها وباطنها ، وبيان ما وعْدُ به المؤمنون من مزيد الثواب، ووعيد الكافرين بشديد العقاب ، كل ذلك حتى يستعد كل امرئ لذلك ، بعد التبصر في عواقب ما هم عليه، فيعملوا للخلاص من العذاب، ونَيْلِ جميل الثواب .
- بيان معالم الدين الحق، ومناهج السلوك القويم وأَعظمها ، وأفضل الأخلاق على الإطلاق ، والذي بينته في آيات الوصايا العشر وغيرها ، وبينت أهمية تلك الأمور سواء كان ذلك على نطاق الأفراد أو الجماعات ، ومايجب عليهم أن يكونوا مع من كان على دينهم ومع من خالفهم كذلك.
- الحث على السياحة، والسير في الأَرض والبحث في علوم الكائنات، ؛ للنظر والاعتبار ، كل ذلك لمعرفة سنن الله الكونية الدالة على علمه وحكمته، ووافر قدرته ورحمته، ومعرفة ما أَنعم الله على الإنسان من الحيوان والنبات وغير ذلك ، وما يجب على الإنسان تجاه تلك النعم .
- وجوب وَحْدة الدين ، وأهمية ذلك ، وعدم التَّفَرُّقِ فيه .
- دعم الداعية بالعدة اللازمة وكل ما يحتاجه لمواجهة من يدعو ، من الأدلة والبراهين ، وإطلاعه على الأساليب المناسبة ، والشد من أزره ، ودعمه حسياً ومعنوياً .
- إعداد النبي القائد الذي يقود الأمة ، تلك الأمة التي تسمو بنفسها وترتقي لتكون أعلى وأسمى الأمم من جميع النواحي .
- إعداد الخليفة الذي يلي القائد ، وتعليمه كيف يتولى زمام الأمور، في كل زمان ومكان إلى قيام الساعة .
- توضيح قضية الطعام والإطعام وما يتعلق بكثير من أحكامهما .

- موعظة المعرضين عن آيات القرآن والمكذبين بالدين الحق ، وتهديدهم بأن يحِلّ بهم ما حَلّ بالقرون المكذبين مِن قبلهم والكافرين بنعم الله تعالى ، وأنّهم ما يضرون بالإنكار إلاّ أنفسهم بِما سيلقون عند نزع أرواحهم ، ثم عند البعث .
- تسفيه المشركين فيما اقترحوه على النبي ﷺ من طلب إظهار الخوارق تهكماً .
- إثبات صدق القرآن بأن أهل الكتاب يعرفون أنه الحق ، والمنة على الأمة بما أنزل الله من القرآن هدى لهم ؛ كما أنزل الكتاب على موسى ، وبأن جعلها الله خاتمة الأمم الصالحة ، وبيان فضيلة القرآن ودين الإسلام وما منح الله لأهله من مضاعفة الحسنات
- الإنحاء على المشركين تكذيبهم بالبعث ، وتحقيق أنه واقع ، وأنهم يشهدون بعده العذاب، وتتبرأ منهم آلِهتهم التي عبدوها ، وسيندمون على ذلك ، كما أنها لا تغني عنهم شيئاً في الحياة الدنيا .
- بيان أن تفاضل الناس بالتقوى والانتساب إلى دين الله ، وأن التقوى الحق ليست مجرد حرمان النفس من الطيبات ؛ بل هي حرمان النفس من الشهوات التي تحول بين النفس وبين الكمال والتزكية .

إِلى غير ذلك من الأمور العظيمة ، التي احتوتها هذه السورة الجليلة ، التي تعتبر أَعظم دستور للحياة الصحيحة، والسلوكيات السليمة، والعقيدة المستقيمة، على مدى كل زمان ومكان .

الباب الثاني:

التناسق الموضوعي في سورة الأنعام

- دراسة تطبيقية -

الفصل الأول:
موضوعات السورة وتناسقها

المبحث الأول : الربوبية والألوهية والموقف منها والشهادة على ذلك ويشتمل على أربعة مطالب تشمل على الآيات من (١ إلى ٢٤) .

المطلب الأول : دلائل الوحدانية المستوجبة للحمد له وحده (١ – ٣)

قال تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾

أولاً : مناسبة الآيات لما سبق :

لقد قدمت الذكر عن مناسبة فاتحة سورة الأنعام بخاتمة سورة المائدة في المطلب الأول من المبحث الثاني ضمن مباحث الفصل الثاني في الباب الأول . [١]

ثانياً : مناسبة افتتاح السورة بالحمد :

افتتح الله تعالى هذه السورة الكريمة بالحمد في قوله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ليبين حمد الله ذاته الكريمة على كونه الإله المستحق للعبادة ، وأن ما سواه فهو باطل بما أبطله الله بالأدلة والبراهين المثبتة التي سردها في جل الآيات في هذه السورة خاصة وفي باقي سور القرآن عامة ، و " الحمد حقاً لله تعالى ، واجباً على عباده ، مختصاً به عز شأنه ، مقصوراً عليه سبحانه ، حيث إن ترتب الحكم كما قالوا على الوصف يشعر بمنطوقه بعلية الوصف للحكم وبمفهومه بانتفاء الحكم عمن ينتفي عنه الوصف"[٢].

وبين استحقاقه المطلق لهذا الحمد على كل ما سيأتي من النعم المذكوة في السورة الكريمة ، والتي من أعظمها نعمة بيان التوحيد الذي هو سبب لدخول الجنة ، وإبطال الشرك الموجب لدخول النار ، سواء أقر العباد بهذه الحقيقة – وهي حقيقة استحقاقه للحمد على هذه النعم – أو أنكروها ، ولا ينكرها إلا كل مستكبر كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[النمل: ١٤] ونعم الله لا نهاية لها أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً ؛ فلهذا السبب كان المستحق للحمد المطلق والثناء المطلق ليس إلا الله سبحانه فلهذا قال: الحمد لله ، وقد تقرر في العقول أن

---

[١] – الفصل الثاني يتحدث عن مكي السورة ومدنيها ومناسبتها لما قبلها وما بعدها ووجه اختصاصها بما اختصت به ، ويشتمل على مباحث عدة منها مبحث مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها حيث تحدثت في المطلب الأول عن مناسبة السورة للسور السابقة لها .

[٢] – روح المعاني (٤/ ٧٦)

الحمد لا يحسن إلا على الإنعام، فحينئذ وجب على المكلف أن يتفكر في أقسام نعم الله تعالى عليه والتي يستدل بذكرها على مقصودين شريفين:

أحدهما: أن هذه النعم قد حدثت بعد أن كانت معدومة فلا بد لها من محدث ومحصل ، وليس ذلك هو العبد ؛ لأن كل أحد يريد تحصيل جميع أنواع النعم لنفسه، فلو كان حصول النعم للعبد بواسطة قدرة العبد واختياره، لوجب أن يكون كل واحد واصلاً إلى جميع أقسام النعم ؛ إذ لا أحد إلا وهو يريد تحصيل كل النعم لنفسه ، ولما ثبت أنه لا بد لحدوث هذه النعم من محدث وثبت أن ذلك المحدث ليس هو العبد ، فوجب الإقرار بمحدث قاهر قادر، وهو الله سبحانه وتعالى.

والنوع الثاني: من مقاصد هذه الكلمة أن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها ، فإذا أمر الله تعالى العبد بالتحميد، وكان الأمر بالتحميد مما يحمله على تذكر أنواع نعم الله تعالى ؛ صار ذلك التكليف حاملاً للعبد على تذكر أنواع نعم الله عليه ، ولما كانت تلك النعم كثيرة خارجة عن الحد والإحصاء ، صار تذكر تلك النعم موجبة رسوخ حب الله تعالى في قلب العبد ؛ فثبت أن تذكير النعم يفيد هاتين الفائدتين الشريفتين.

إحداهما: الاستدلال بحدوثها عن الإقرار بوجود الله تعالى.

وثانيهما: أن الشعور بكونها نعما يوجب ظهور حب الله في القلب، ولا مقصود من جميع العبادات إلا هذان الأمران. فلهذا السبب وقع الابتداء بهذه الكلمة، فقال: الحمد لله [1] .

والله سبحانه وتعالى لم ينتظر حمداً من أحد ، ولم يأمر أحداً من خلقه أن يحمده ، حيث لم يأمر أحداً بفعل الحمد فلم يقل : احمده ، أو احمدني وغيرها ، فلم ترد هذه الألفاظ وما هو على شاكلتها المتعلقة بالحمد في القرآن الكريم ، لكن وردت ألفاظ تأمر بالتسبيح والتكبير والشكر ، يقول الإمام الرازي: الحمد لله أبلغ من أحمد الله ، حيث إنه تعالى لم يقل أحمد الله ولكن قال: الحمد لله وهذه العبارة الثانية أولى لوجوه:

أحدها: أنه لو قال : "أحمد الله " أفاد ذلك كون ذلك القائل قادراً على حمده ، أما لما قال: " الحمد لله " فقد أفاد ذلك أنه كان محموداً قبل حمد الحامدين وقبل شكر الشاكرين، فهؤلاء سواء حمدوا أو لم يحمدوا وسواء شكروا أو لم يشكروا فهو تعالى محمود من الأزل إلى الأبد بحمده القديم وكلامه القديم .

ثانيها: أن قولنا : "الحمد لله"، معناه أن الحمد والثناء حق لله وملكه، فإنه تعالى هو المستحق للحمد بسبب كثرة أياديه وأنواع آلائه على العباد، فقولنا: الحمد لله معناه أن الحمد لله حق يستحقه لذاته ، ولو قال : "أحمد الله" لم يدل ذلك على كونه مستحقاً للحمد لذاته ، ومعلوم أن اللفظ الدال على كونه مستحقاً للحمد أولى من اللفظ الدال على أن شخصاً واحداً حمده .

---

[1] - بتصرف من مفاتيح الغيب للرازي (١٢/ ٤٧٣ ، ٤٧٥)

ثالثها: أنه لو قال : " أحمد الله" لكان قد حمد لكن لا حمداً يليق به، وأما إذا قال الحمد لله فكأنه قال: من أنا حتى أحمده؟ لكنه محمود بجميع حمد الحامدين .

رابعها: أن الحمد عبارة عن صفة القلب وهي اعتقاد كون ذلك المحمود متفضلاً منعماً مستحقاً للتعظيم والإجلال، فإذا تلفظ الإنسان بقوله : "أحمد الله " مع أنه كان قلبه غافلاً عن معنى التعظيم اللائق بجلال الله كان كاذباً ؛ لأنه أخبر عن نفسه بكونه حامداً مع أنه ليس كذلك، واستحق عليه الذم والعقاب، حيث أخبر عن دعوى شيء مع أنه ما كان موجودا ، أما إذا قال: الحمد لله، فمعناه: أن ماهية الحمد وحقيقته مسلمة لله تعالى. وهذا الكلام حق وصدق سواء كان معنى الحمد والثناء حاضراً في قلبه أو لم يكن، وكان تكلمه بهذا الكلام عبادة شريفة وطاعة رفيعة فظهر الفرق بين هذين اللفظين. بمعنى أنه إذا قال : "الحمد لله" سواء كان غافلاً أو مستحضراً لمعنى التعظيم فإنه يكون صادقاً ؛ لأن معناه أن الحمد حق لله وملكه، وهذا المعنى حاصل سواء كان العبد مشتغلاً بمعنى التعظيم والإجلال أو لم يكن، فثبت أن قوله الحمد لله أولى من قوله أحمد الله .

خامسها : أنه لو قال أحمد الله كان ذلك مشعراً بأنه ذكر حمد نفسه ولم يذكر حمد غيره،أما إذا قال: " الحمد لله " فقد دخل فيه حمده وحمد غيره من أول خلق العالم إلى آخر استقرار المكلفين في درجات الجنان ودركات النيران،كما قال تعالى:﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾[يونس: ١٠] فكان هذا الكلام أفضل وأكمل[١].

وزاد الإمام السمعاني وجهاً سادساً حيث قال : " قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ معناه: احمدوا الله، ذكر الخبر بمعنى الأمر، وفائدته: الأمر بالحمد وتعليم الحمد؛ فإنه لو قال: احمدوا الله؛ دعت الحاجة إلى بيان كيفية الحمد"[٢]، ولأن البرهان يشهد للخبر دون الأمر ، حيث إن المقصود منه ذكر الحجة ؛ فذكره بصيغة الخبر أولى [٣].

ثالثاً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

يقول الله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مادحاً نفسه الكريمة، وحامداً لها على كل ما تقوم به من أفعال كريمة عظيمة جليلة ، والحمد لفظ مفرد محلى بالألف واللام فيفيد أصل الماهية ، وهذه الماهية لله، وذلك يمنع من ثبوت الحمد لغير الله، فاللام الجارة في «لله» لمطلق الاختصاص دون الاختصاص القصري، فهذا

---

[١] – بتصرف من : مفاتيح الغيب (١/ ١٩١) – (١٢/ ٤٧٣)

[٢] – تفسير السمعاني (٢/ ٨٦)

[٣] – انظر : تفسير العز بن عبد السلام (١/ ٤٢٨) ، اللباب لابن عادل (٨/ ٨) .

يقتضي أن جميع أقسام الحمد والثناء والتعظيم ليس إلا لله سبحانه ، ولم يثبت الحمد إلى أي اسم من أسماء الله تعالى ، وذلك لحكمة أن اسم العلم – الله – من الأسماء التي لا تطلق إلا على الذات الإلهية الكريمة .

ولقد ذكر اسم الله تعالى على غيره من أسمائه الحسنى وذلك لما كان اسم الجلالة معروفاً عندهم لا يلتبس بغيره .

و" ال " في الحمد للاستغراق، بمعنى أن المستحق لجميع المحامد ولكافة ألوان الثناء هو الله تعالى، وهو لفظ للتصريح بأن الله تعالى هو الذي يستحق الحمد بأجمعه. ثناء عليه ، وتسبيحاً له، واعترافاً بأحقيته للحمد بما صنع إلى خلقه من الخير ، وعلى كل فعال، وبكل لسان، وعلى نعم الإسلام، وعلى صحة الأبدان ، وعلى ألوهيته المتجلية في الخلق والإنشاء ، بذلك تصل بين الألوهية المحمودة وخصيصتها الأولى وهي الخلق في قوله : ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ، حيث بدأت به في أضخم وأعظم مجالي الوجود فيما يرى العباد ؛وهما السماوات والأرض ؛ وخلقهما من النِعَمٌ التي تستوجب الحمد ؛ لأن الأرض تقل ، والسماء تظل ، وهي من أوائل نعمه على خلقه ، ولأن فيهما العبر والمنافع للعباد ؛ لذلك استحمد بخلقها وأضاف خلقها إلى نفسه عند حمده ، فهو مستحق الحمد منفرداً لانفراده بخلق السموات والأرض .

وفي جمع السموات وتوحيد الأرض عدة أوجه:

أحدهما: أن السموات أشرف من الأرض ، والجمع أبلغ في التفخيم من الوحيد .

والثاني: أن أوامره إلى الأرض تخترق جميع السماوات السبع.

والثالث : الْأَرْضَ هاهنا للجنس فإفرادها في اللفظ بمنزلة جمعها .

وقدم السموات على الأرض لشرفها فقدمها على ذكر الأرض وإن كانت مخلوقة بعد الأرض، فالواو لا ترتب المعاني، والذي ينبني من مجموع آي القرآن أن الله تعالى خلق الأرض ولم يدحها ثم استوى إلى السماء فخلقها ثم دحا الأرض بعد ذلك .

وأتى بلفظ الخلق مباشرة بعد الحمد في هذه السورة ليدل على أن أي موجود على أية صفة وعلى أي حال ؛ هو مجلى قدرة الله، وآية من آيات تلك القدرة الخالقة المبدعة المصوّرة، وإشارة دالة على وجود الخالق، إذ لا يعرف الخالق إلا بما خلق..

وفى أول ما تلقّى النبيّ الكريم من ربّه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾[العلق: ١] فكانت صفة الربوبية والخلق أول ما صافح أذن النبي ﷺ ، ومسّ شغاف قلبه من صفات الحق جلّ وعلا.. فالربوبية والخلق صفتان متلازمتان ؛ إذ لا ربوبية إلا لمربوبين، ولا خلق بغير ربوبية، تمسك الخلق، وتحفظ عليهم وجودهم .

ثم شرع في ذكر أضخم الظواهر الناشئة عن خلق السماوات والأرض وفق تدبير مقصود ؛ وهما ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ فأظلم الليلَ الذي هو محل السكون والظُّلُماتِ التي تستركم، راحة لأبدانكم وقلوبكم، وأنارَ النَّهار الذي فيه معاشكم وقوام أبدانكم وأنعامكم ، فهي اللمسة العريضة التي تشمل الأجرام

الضخمة في الكون المنظور، والمسافات الهائلة بين تلك الأجرام، والظواهر الشاملة الناشئة عن دورتها في الأفلاك .

وأتى بلفظ "جعل" هنا والذي يتعدّى إلى مفعول واحد في حق الظلمات والنور ، وهو بمعنى أحدث وأنشأ، إلا أنه أتى بلفظ " خلق " في حق السماوات والأرض وذلك لأن الخلق فيه معنى التقدير ، وفي الجعل معنى التضمين، كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئاً، أو نقله من مكان إلى مكان ، وإنما حسن لفظ الجعل مناسباً للظلمات والنور ؛ لأن النور والظلمة لما تعاقبا صار كأن كل واحد منهما إنما تولد من الآخر ، وفيه تنبيه على أنهما لا يقومان بأنفسهما ، وفي الجعل ملاحظة معنى الانتساب، يعني كون المجعول مخلوقاً لأجل غيره أو منتسباً إلى غيره، فيعرف المنتسب إليه بمعونة المقام .

والسموات والأرض لما كانتا من الأجسام المحسوسات ذكرهما بالخلقية ، حيث إن الفعل "خلق" أليق بإيجاد الذوات، والظلمات والنور لما كانتا من الملكوتيات غير المحسوسات ذكرهما بالجعلية والفعل "جعل" أليق بإيجاد أعراض الذوات وأحوالها ونظامها.

فالظلمات والنور لما كانا عرضين كان خلقهما تكويناً لتكيف موجودات السماوات والأرض بهما. ويعرف ذلك بذكر الظلمات والنور عقب ذكر السماوات والأرض، وباختيار لفظ الخلق للسماوات والأرض، ولفظ الجعل للظلمات والنور .

ولو تأمل القاريء الكريم يجد أنه قدم الظلمة على النور ؛ لأن جنس الظلمة مقدم فى الوجود ، فإن النور حصل بعد خلق الذوات المضيئة، وكانت الظلمة عامة.

ونلحظ أنه جمع الظلمات ووحد النور ؛ لأن الظلمات أعم من النور ، وجمع الظلمات لاختلافها بحسب اختلاف ما ينشأ عنه من أجناس الأجرام، وأفرد النور لاتحاد الجنس الذي ينشأ عنه وهو النار ، ولأن لفظ "الظلمات" بالجمع أخف، ولفظ "النور" بالإفراد أخف، ولذلك لم يرد لفظ " الظلمات " في القرآن إلا جمعاً ، ولم يرد لفظ " النور" إلا مفرداً ، وهما معاً دالان على الجنس، والتعريف الجنسي يستوي فيه المفرد والجمع .

ثم إن في إيثار الظلمات والنور بالذكر دون غيرهما من الأعراض إيماء وتعريضاً بحالي المخاطبين بالآية من كفر فريق وإيمان فريق، فإن الكفر يشبه الظلمة لأنه انغماس في جهالة وحيرة، والإيمان يشبه النور لأنه استبانة الهدى والحق. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾ [البقرة: ٢٥٧] .[1]

---

(1) – أوردت هذا القول لما فيه من التعريض ، ولقد وردت أقوال أخرى في المراد بالظلمات والنور إلا أن القاضي ابن عطية – رحمه الله – يقول عنها : " هذا غير جيد ؛ لأنه إخراج لفظ بين في اللغة عن ظاهره الحقيقي إلى باطن لغير ضرورة، وهذا هو طريق اللغز الذي برىء القرآن منه".

وقدم المكان " السماوات والأرض " على الزمان " الظلمات والنور " ، إذ المراد بالظلمات والنور: الليل والنهار، لأن المكان أسبق.

ثم أردف ما سبق بخاتمة للآية بلفظ : " ثُمَّ " وهي هنا لإتيان خبر بعد خبر، لا لترتيب زمان بعد زمان ، ولو وقع العطف في هذا ونحوه بالواو لم يلزم التوبيخ كلزومه بثُمَّ ، و" ثم " هنا استبعادية ؛ لتبين استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته، ، إذ يبعد من العاقل الناظر بعد إقامة الدليل، اختيار الباطل. وفي ذلك إثارة العجب من قوم يرون صفحة الوجود الضخمة الهائلة الشاملة تنطق بقدرة الخالق العظيم كما تنطق بتدبيره الحكيم، وهم بعد ذلك كله لا يؤمنون ولا يوحدون ولا يحمدون بل يجعلون لله شركاء يعدلونهم به ويساوونه ، حيث يساوون به غيره فيعبدونهم، حيث إن معنى العدل: التسوية، عدَل الشيء بالشيء إذا سواه به. فكأنه يقول : أنعمت عليك كذا، وتفضلت عليك بكذا ثم لا تشكرني، ثم تكفر بنعمتي، وقيل : ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ثم الذين كفروا بربهم يشركون، والمعنيان متقاربان؛ لأن من ساوى غير الله بالله؛ فقد أشرك.

وقد تكون " الباء" بمعنى "عن" أي: عن ربهم يعدلون وينحرفون، من العدول والإعرض عن الشيء فلا يحمدونه ولا يلتفتون لفتة .

وجاء العطف بثم على قوله : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على معنى أن الله حقيق بالحمد على ما خلق، لأنه ما خلقه إلا نعمة، ثم الذين كفروا به يعدلون فيكافرون نعمته

ولم يقل : ثم الذين كفروا به يعدلون ، بل وضع لفظ " الرب" موضع ضميره تعالى، لزيادة التشنيع والتقبيح حيث بين أن الذي ربَّاهم بهذه النعم بل تولى تربية الخلق إلى غاية ومهمة، ومن المعلوم أن التربية تحتاج إلى مقومات مادية ومقومات معنوية، روحية ومنهجية ، وهذه الجوانب هي التي اهتمت بها هذه السورة الكريمة ؛ لذلك كان هو المستوجب عليكم الحمدَ بأياديه عندكم ونعمة عليكم، لا من يعبدونه من دونه، ويجعلونه له شريكًا من خَلْقه .

وتقديم المفعول في قوله : ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ لمزيد الاهتمام والمسارعة إلى تحقيق مدار الإنكار والاستبعاد، وللمحافظ والرعاية للفواصل، وحذف المفعول لظهوره، أو لتوجيه الإنكار إلى نفس الفعل، بتنزيله

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٢٦٦) ، ومما يؤيد القول بظاهر الآية ما قال به الإمام فخر الدين الرازي – رحمه الله – : " المراد منهما الأمران المحسوسان بحس البصر ، والذي يقوي ذلك أن اللفظ حقيقة فيهما. وأيضا هذان الأمران إذا جعلا مقرونين بذكر السموات والأرض، فإنه لا يفهم منهما إلا هاتان الكيفيتان المحسوستان "، وبعد أن ذكر الأقوال المجازية في المراد بالظلمات والنور قال : "وأقول هذا مشكل لأنه حمل اللفظ على مجازه، واللفظ الواحد بالاعتبار الواحد لا يمكن حمله على حقيقته ومجازه معاً " . مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٧٨ ، ٤٧٩) ، يقول الواقدي – رحمه الله – : " ما في القرآن من الظلمات والنور هو الكفر والإيمان، إلا في هذه الآية، فإنه يريد به الليل والنهار" نقله ابن عادل – رحمه الله – في اللباب لابن عادل (٨/ ١١)

منزلة اللازم، إيذانا بأنه المدار في الاستبعاد، لا خصوصية المفعول. فيكون المعنى : يعدلون به ما لا يقدر على شيء مما يقدر عليه .

وهذا كلام مخرجه مَخرج الخبر يُنْحَى به نحو الأمر ، حيث يقول: أخلصوا الحمد والشكر للذي خَلَقَكم أيها الناس، وخلق السماوات والأرض ، ولا تشركوا معه في ذلك أحدًا أو شيئًا. فهو خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه ، وفي هذا تسفيه لعقولهم وعقيدتهم وذلك أنهم على إقرار أنه خلق السماوات والأرض، ولم يجعلوا له شركاء في خلقهما، وعلى علم منهم أنه تُعَلَّق منافع الأرض بمنافع السماء، مع بعد ما بينهما كيف جعلوا شركاء يشركونهم في العبادة والربوبية؟! وهذا نهاية الحمق وغاية الرقاعة حيث يكون منه سبحانه تلك النعم، ويكون من الكفرة الكفر.فهم يشركون مع ما بيَّن لهم ما يدل على وحدانية الرب وربوبيته، فجعلوا كل ما يعبدونه دون اللَّه عديلاً لله، وأثبتوا المعادلة بينه من الشركاء والأضداد ، وبين اللَّه تعالى أنه مختص باستحقاق الحمد والعبادة باعتبار ذاته وباعتبار شؤونه العظيمة الخاصة به ثم هؤلاء الكفرة يسوون به غيره في العبادة التي هي أقصى غايات الشكر الذي رأسه الحمد، مع كون كل ما سواه مخلوقا له، غير متصف بشيء من مبادئ الحمد ، وليس لله تعالى عديل، ولا نديد، ولا شريك، ولا ولد، ولا صاحبة، تعالى اللَّه عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا، ويعمّ بذلك جميع الكفّار، ولا يخصص منهم بعضًا دون بعض. فجميعهم داخلون في ذلك: يهودهم، ونصاراهم، ومجوسهم، وعبدة الأوثان منهم ومن غيرهم من سائر أصناف الكفر[1].

ولما استدل بخلقه السموات وتعاقب الظلمات والنور على وجود الصانع الحكيم وبعد أن ذكر أنه جعل هذه المخلوقات لمنافعهم ذكرهم بأصول خلقهم إتباعا للعالم الأصغر بالعالم الأكبر، وهي دليل آخر من دلائل إثبات الصانع تعالى والذي يدل على صحة المعاد وصحة الحشر علهم ينتهون قال عز وجل : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾[الأنعام: ٢] فلما عمت فطرتهم عن الخالق ، عموا كذلك عن النظر فى أنفسهم، فلم يروا أنفسهم، وهم على تلك الصورة البالغة العاقلة، ماذا كانوا قبل أن يكونوا؟ ومن أي شيء كان كونهم؟.

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٢٤٧ – ٢٥٤) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣ ، ٥) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ١٩٥٦– ١٩٥٧) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٥١) تفسير السمعاني (٢/ ٨٦) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري (٢/ ٣ – ٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٢/ ٢٦٥) مفاتيح الغيب للرازي (١٢/ ٤٧٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢/ ١٥٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣٨) روح البيان لحقي (١/ ٩٥) البحر المديد لابن عجيبة (٢/ ٩٥) فتح القدير للشوكاني (٢/ ١١٣) مراح لبيد لمحمد نووي (١/ ٣٠٦) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣١١ –٣١٢) روح المعاني للآلوسي (٤/ ٧٥ ، ٨١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٣٠) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١١٧) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٢٦– ١٢٧) تفسير الشعراوي (٦/ ٣٤٩٢) التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٢٧) ، مع تصرف وإضافة من الباحثة .

نراه يوجه خطابه للمشركين الوارد ذكرهم في آخر الآية السابقة على سبيل الالتفات من الغائب الذي هو قوله : ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١] إلى جهة الخطاب ، وإن كان الخلق وقضاء الأجل ليس مختصاً بالكفار إذ اشترك فيه المؤمن والكافر، لكنه قصد به الكافر تنبيها له على أصل خلقه وقضاء الله تعالى عليه وقدرته، وإنما كان من باب الالتفات ؛ لأن قوله : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ لا يمكن أن يندرج في هذا الخطاب من اصطفاه الله بالنبوة والإيمان ، والمقصد من هذا الالتفات لمزيد التشنيع والتوبيخ .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ يعني آدم – عليه السلام – فأخرج ذلك مخرج الخطاب لهم إذ كانوا ولده ، وهو أصل لهم ، وإنما نسب هذا الخلق إلى المخاطبين لا إلى آدم– عليه السلام– وهو المخلوق منه حقيقة. لتوضيح منهاج القياس، والمبالغة في إزاحة الاشتباه والالتباس، مع ما فيه من تحقيق الحق، والتنبيه على حكمة خفية هي أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشائه– عليه السلام– منه. حيث لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه، بل كانت أنموذجا منطوياً على فطرة سائر آحاد البشر انطواء إجمالياً، فكان خلقه– عليه السلام– من الطين خلقاً لكل أحد من فروعه، أضف إلى ذلك أن الإنسان مخلوق من المني ومن دم الطمث، وهما يتولدان من الدم، والدم إنما يتولد من الأغذية، والأغذية إما حيوانية وإما نباتية، فإن كانت حيوانية كان الحال في كيفية تولد ذلك الحيوان كالحال في كيفية تولد الإنسان، فبقي أن تكون نباتية، فثبت أن الإنسان مخلوق من الأغذية النباتية، ولا شك أنها متولدة من الطين، فثبت أن كل إنسان متولد من الطين، وأتي بضمير "هو" في قوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم ﴾ ليحصل تعريف المسند والمسند إليه معا، فتفيد الجملة القصر في ركني الإسناد وفي متعلقها، أي هو خالقكم لا غيره، من طين لا من غيره، وهو الذي قضى أجلا وعنده أجل مسمى فينسحب حكم القصر على المعطوف على المقصور ، والحال الذي اقتضى القصر هو حال إنكارهم البعث ؛ لأنهم لما أنكروه وهو الخلق الثاني نزلوا منزلة من أنكر الخلق الأول إذ لا فرق بين الخلقين بل الإعادة في متعارف الصانعين أيسر كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾[الروم: ٢٧] وقال : ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [ق: ١٥] . والقصر أفاد نفي جميع هذه التكوينات عن غير الله من أصنامهم، فهو كقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الروم: ٤٠] .

﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ ثم للترتيب والمهلة عاطفة فعل قضى على فعل خلق فهو عطف فعل على فعل وليس عطف جملة على جملة ، والمهلة هنا باعتبار التوزيع، أي خلق كل فرد من البشر ثم قضى له أجله، أي

استوفاه له، فـ "قضى" هنا ليس بمعنى "قدر" ؛ لأن تقدير الأجل مقارن للخلق أو سابق له وليس متأخراً عنه ، ولكن قضى هنا بمعنى "أوفى" أجل كل مخلوق كقوله: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ﴾ [سبأ: ١٤] ، أي أمتناه. ولك أن تجعل "ثم" للتراخي الرتبي.

والأجل هو الوقت المضروب لانقضاء الأمد ، وأصله من التأخير ومنه الآجل نقيض العاجل. ثم إن صريح الآية يدل على حصول أجلين لكل إنسان ، الأجل الأول يقصد به هنا مدة الحياة الدنيا ، ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ﴾ وهو أجل البَعْث عنده[1]، ووصفه بمسمى ﴿عِندَهُ﴾ حيث إن مدة حياتهم في الآخرة لا آخرة لها ولا انقضاء ولا يعلم أحد كيفية الحال في هذا الأجل إلا الله سبحانه وتعالى فهو وحده استأثر بعلم وقت القيامة ، وهو مثبت معين لا يقبل التغير ، مذكور اسمه في اللوح المحفوظ ، لا مدخل لغيره فيه بعلم ولا قدرة ، ولأنه المقصود بيانه ، والظاهر من تنكير الأجلين أنه تعالى أبهم أمرهما ، وتنوينُه لتفخيم شأنه وتهويلِ أمره لذلك أُوثر تقديمُه على الخبر الذي هو ﴿عِندَهُ﴾ مع أن الشائعَ المستفيضَ هو التأخير .

ولقد نبَّه الله تعالى خلقَه على موضع حُجَّته عليهم من أنفسهم فقال لهم: أيها الناس، إن الذي يعدِلُ به كفارُكم الآلهةَ والأندادَ، هو الذي خلقكم فابتدأكم وأنشأكم من طين، فجعلكم صورًا أجسامًا أحياءً، بعد إذ كنتم طينًا جمادًا، ثم قضى آجال حياتكم لفنائكم ومماتكم، ليعيدكم ترابًا وطينًا كالذي كنتم قبل أن ينشئكم ويخلقكم ، وأجل مسمى عندَه لإعادتكم أحياءً وأجسامًا كالذي كنتم قبل مماتكم ، وذلك نظير قوله: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[سورة البقرة: ٢٨] ، وهنا وجب تقديم المبتدأ النكرة على خبره الظرف للمعنى وهو : وأى أجل مسمى عنده تعظيماً لشأن الساعة، حيث إنه لماجرى فيه هذا المعنى وجب التقديم.

وجملة وأجل مسمى عنده معترضة بين جملة ثم قضى أجلا. وجملة ثم أنتم تمترون. وفائدة هذا الاعتراض إعلام الخلق بأن الله عا لم آجال الناس ردا على قول المشركين : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾[الجاثية: ٢٤] .

وجيء بالمسند إليه ضميراً بارزاً للتوبيخ ، وتعجب منهم على سوء الفعل بعد مهلة من وضوح الحجج فقال : ثُمَّ أَنْتُمْ تشكون في البعث كما شككتم في صحة التوحيد ، وهنا استبعاد لامترائهم بعد ما ثبت أنه خالقهم وخالق أصولهم ومحييهم إلى آجالهم، فإن من قدر على خلق المواد وجمعها وإيداع الحياة فيها وإبقائها ما يشاء كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانياً ، وحذف متعلق تمترون لظهوره من المقام، أي تمترون في إمكان البعث وإعادة الخلق. والذي دل على أن هذا هو المماري فيه قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ

[1] - وهو اختيار مجموعة من المفسرين على رأسهم ابن جرير ، انظر : جامع البيان (١١/ ٢٥٩)

﴿قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾ إذ لولا قصد التذكير بدليل إمكان البعث لما كان لذكر الخلق من الطين وذكر الأجل الأول والأجل الثاني مرجح للتخصيص بالذكر.[1]

وإذا انتقلنا إلى قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ۝٣﴾[الأنعام: ٣] فإننا نجده يضم اللمستين الأوليتين في إطار واحد وتقرر ألوهية الله في الكون والحياة الإنسانية سواء ، كذلك إذا كان المقصود من الآية المتقدمة إقامة الدليل على وجود الصانع القادر المختار ؛ فإن المقصود من هذه الآية بيان كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات، فإن الآيتين المتقدمتين يدلان على كمال القدرة، وهذه الآية تدل على كمال العلم وحينئذ يكمل العلم بالصفات المعتبرة في حصول الإلهية، وإن كان المقصود من الآية المتقدمة إقامة الدلالة على صحة المعاد، فالمقصود من هذه الآية تكميل ذلك البيان ؛ وذلك لأن منكري المعاد إنما أنكروه لأمرين :

أحدهما: أنهم يعتقدون أن المؤثر في حدوث بدن الإنسان هو امتزاج الطبائع وينكرون أن يكون المؤثر فيه قادراً مختاراً.

والثاني: أنهم يسلمون ذلك إلا أنهم يقولون إنه غير عالم بالجزئيات ؛ فلا يمكنه تمييز المطيع من العاصي، ولا تميز أجزاء بدن زيد عن أجزاء بدن عمرو ، ثم إنه تعالى أثبت بالآيتين المتقدمتين كونه تعالى قادراً ومختاراً لا علة موجبة، وأثبت بهذه الآية كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات، وحينئذ تبطل جميع الشبهات التي عليها مدار القول بإنكار المعاد، وصحة الحشر والنشر .

ولما كان اسم الجلالة معروفاً عندهم لا يلتبس بغيره صار قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ في معنى الموصوف بهذه الصفات هو صاحب هذا الاسم لا غيره. ولما تضمنه اسم الله من المعاني ، وإيضاحه أنه أراد أن يدل على خلقه وإيثار قدرته وإحاطته ، ونحو هذه الصفات نجده جمع هذه كلها في قوله : ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾أي الذي له هذه كلها في السماوات وفي الأرض كأنه قال: أن الله تعالى هو الله المتصف بهذه الصفات المعروفة المعترف له بها في السماوات والأرض، فهو المعبود المدبر الخالق الرازق والمحيي المحيط في السموات وفي الأرض ، ثم ذكر ما يدل على أحقيته بالعبادة من سعة العلم المحيطة بكل شيء فقال :﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾

[1] — انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٢٥٩) الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي (٤/ ١٣٤) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ١٩٥٨) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري (٢/ ٤ — ٥) ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٢/ ٢٦٧) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٤٨٠،٤٧٩) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢/ ١٥٣) البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٣١، ٤٣٣) اللباب لابن عادل (٨/ ١٦) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري (٣/ ٤٨) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٣/ ١٠٧) فتح القدير للشوكاني (٢/ ١١٣) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣١٣) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٢٦) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٢٩— ١٣٠) بيان المعاني (٣/ ٣١٩) حاشية الجمل على الجلالين (٢ / ٤) معارج التفكر ودقائق التدير للميداني (١١ / ١٥٢) مع تصرف وإضافة من الباحثة .

أي ما تخفون ، وما تعلنون وقيل : إن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، وتقديره: وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض ، ولما كان المراد إثبات أن علمه تعالى محيط، نسبةُ كل من الخفي والجلي إليه على السواء، وكان السياق هنا للخفي فإنه في بيان خلق الإنسان وعجيب صنعه فيه بما خلق فيه من إدراك المعاني وهيأه له من قبل أن يقدر على التعبير عنه، ثم أقدره على ذلك؛ قدم الخفي فقال شارحاً لكونه لا يغيب عنه شيء: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ ، ولأن المؤثر في الفعل هو مجموع القدرة مع الداعي، فالداعية التي هي من باب السر هي المؤثرة في أعمال الجوارح المسماة بالجهر، وقد ثبت أن العلم بالعلة علة للعلم بالمعلول، والعلة متقدمة على المعلول، والمتقدم بالذات يجب تقديمه بحسب اللفظ بمعنى أن الأول مقدم على الثاني طبعا فلا جرم قدم عليه وضعاً ، ولما كان لا ملازمة بين علم السر والجهر لأنه قد يكون في الجهر لفظ شديد يمنع اختلاط الأصوات فيه من علمه، صرح به فقال: ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ونسبة كل منها إليه على حد سواء، ولا توصف واحدة منها بقرب في المسافة إليه ولا بد؛ ولما كان السر والجهر شائعين في الأقوال، وكانت الأقوال تتعلق بالسمع، ذكر ما يعمهما وهو شائع في الأفعال المتعلقة بالبصر فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾فأفاد ذلك صفتي السمع والبصر مع إثبات العلم .

ومعنى قوله : ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي : ما تستحقون على فعله من ثواب وعقاب مما عملتموه من بعد ، ولا يخفى عليه ما كان منكم ، ولا ما سيكون ، ولا ما أنتم عليه في الحال من سر ، وجهر ، وهذا عام لجميع الاعتقادات والأقوال والأفعال ، والكسب: الفعل لاجتلاب نفع أو دفع ضر، ولهذا لا يوصف فعل الله سبحانه بأنه كسب ؛ لكونه تعالى منزها عن جلب النفع ودفع الضرر ، والخطاب لجميع السامعين فدخل فيه الكافرون، وهم المقصود الأول من هذا الخطاب، لأنه تعليم وإيقاظ بالنسبة إليهم وتذكير بالنسبة إلى المؤمنين[1].

"إن هذه الموجة العريضة الشاملة في مطلع السورة، إنما تخاطب القلب البشري والعقل البشري بدليل "الخلق" ودليل "الحياة" ممثلين في الآفاق وفي الأنفس.. ولكنها لا تخاطب بهما الإدراك البشري خطاباً جدلياً، لاهوتياً أو فلسفياً! ولكن خطاباً موحياً موقظاً للفطرة، حيث يواجهها بحركة الخلق والإحياء وحركة التدبير والهيمنة في صورة التقرير لا في صورة الجدل وبسلطان اليقين المستمد من تقرير الله ومن شهادة الفطرة الداخلية بصدق هذا التقرير فيما تراه.

ووجود السماوات والأرض، وتدبير هما وفق هذا النظام الواضح ونشأة الحياة- وحياة الإنسان في قمتها- وسيرها في هذا الخط الذي سارت فيه.. كلاهما يواجه الفطرة البشرية بالحق، ويوقع فيها اليقين

---

(1) – انظر : النكت والعيون للماوردي (٢/ ٩٤) ، التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٥٢) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٤٨١ ، ٤٨٣) البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٣٤) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري (٣/ ٤٩) ، نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٠) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٥٠) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٣٣) مع تصرف وإضافة من الباحثة

بوحدانية الله.. والوحدانية هي القضية التي تستهدف السورة كلها- بل القرآن كله- تقريرها. وليست هي قضية وجود الله ، فلقد كانت المشكلة دائماً في تاريخ البشرية هي مشكلة عدم معرفة الإله الحق، بصفاته الحقة ولم تكن هي مشكلة عدم الإيمان بوجود إله! ومشركو العرب الذين كانت هذه السورة تواجههم ما كانوا يجحدون الله البتة بل كانوا يقرون بوجوده سبحانه، وبأنه الخالق الرازق، المالك، المحيي المميت.. إلى كثير من الصفات- كما يقرر القرآن ذلك في مواجهتهم، وفي حكاية أقوالهم- ولكن انحرافهم الذي وصمهم بالشرك هو أنهم ما كانوا يعترفون بمقتضى اعترافهم ذاك: من تحكيم الله- سبحانه- في أمرهم كله ونفي الشركاء له في تدبير شؤون حياتهم واتخاذ شريعته وحدها قانوناً، ورفض مبدأ تحكيم غير الله في أي شأن من شؤون الحياة.

هذا هو الذي وصمهم بالشرك وبالكفر مع إقرارهم بوجود الله سبحانه، ووصفه بتلك الصفات، التي من مقتضاها أن يتفرد سبحانه بالحكم في شأنهم كله، بما أنه الخالق الرازق المالك، كما كانوا يعترفون..

ومواجهتهم في مطلع هذه السورة بصفات الله هذه من الخلق للكون وللإنسان، ومن تدبيره لأمر الكون وأمر الإنسان ومن علمه وإحاطته بسرهم وجهرهم وعملهم وكسبهم.. إنما هو المقدمة التي يرتب عليها ضرورة إفراده سبحانه بالحاكمية والتشريع .

ودليل الخلق ودليل الحياة كما أنهما صالحان لمواجهة المشركين لتقرير الوحدانية، ولتقرير الحاكمية، هما كذلك صالحان لمواجهة اللوثات الجاهلية الحديثة التافهة في إنكار الله.."[١]

رابعاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. إسناد الحمد إلى الله تعالى خبر منه تعالى على المختار، والعبد يحكيه بالتلاوة مؤمنا به فيكون حامدا لمولاه، ويذكره في غير التلاوة إنشاء للحمد وتذكرا له [٢].

٢. وصف تعالى نفسه في مقام هذا الحمد بصفتين من صفاته الفعلية التي هي من موجبات الحمد له، وهما خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور[٣].

٣. توجيه الحمد إلى الله تعالى لأنه هو واهب النعم ،حيث استقبل الإنسان هذا الوجود. ووجد كل مقومات الحياة التي لا يمكن أن تخضع لقوة بشر، ولا لادعاء بشر، مما ستلزم الحمد لله تعالى وحده .

---

(١) - في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٣١)

(٢) - تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٤٤)

(٣) — المرجع السابق (٧/ ٢٤٤)

٤. ثبوت الديمومة التي يستحقها سبحانه، وهي ديمومة الحمد له بسبب كونه منعما، والكلام خبري أريد به الأمر[١].

٥. إن في ذكر خلق الإنسان من طين، دليل على قدرة الله وعظمته ؛ لأنه سبحانه هو الذي حول هذا الطين إلى بشر سوى مفكر، يختار الخير فيهتدى ويختار الشر فيردى، كما أن فيه تذكيرا له بأصله حتى لا يستكبر أو يطغى، وحتى يوقن بأن من خلقه من هذا الأصل قادر على أن يعيده إليه [٢].

٦. الفعل " تكسبون" يشمل جميع الاعتقادات والأعمال من خير وشر فهو تعريض بالوعد والوعيد[٣].

٧. إن فى هذا الاستعراض لعلم الله وقدرته استدعاء للإنسان الشارد عن الله، الغافل عن ذكره، المستخفّ بشرائعه- أن يعود إلى الله، وأن يخشاه، ويتقى محارمه، حيث يرى الله كلّ ما يعمل، ويعلم ما يخفى وما يعلن [٤].

٨. في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾[الأنعام: ٢] إشارة إلى قدرة الله سبحانه وتعالى، وأنه خلق من هذا الطين كائناً، عاقلاً، ناطقاً، متصرفاً، سميعاً، بصيراً.. ثم هو إشارة أخرى إلى ضالة قدر الإنسان، وصغاره.. ومهانته، بالنسبة لجلال قدرة الله وكماله وعظمته.. وأن الله الذي خلق من هذا الطين المهين كائناً كريماً، قادر على أن يعيد هذا الكائن إلى مكانه الذي جاء منه، وهو الطين، أو ما هو دون الطّين قذارة ومهانة![٥]

٩. التعجب من حال من يرى عجائب صنع الله ومظاهر قدرته ثم ينكر البعث والحياة الآخرة.

١٠. حينما قال تعالى : ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾ يندرج معنى تحته يقول : فاحذروا معاصيه وارغبوا في الأعمال التي تقربكم منه، وتدنيكم من رحمته، واحذروا من كل عمل يبعدكم منه ومن رحمته[٦].

١١. الفعل "عدل" يقبل معنى التضاد ، فهو في هذه الآية بمعنى الميل عن جادة الصواب والانحراف مع الهوى ، ويستعمل أيضا بمعنى العدل وهو التسوية بين الشيئين والإنصاف بتقديم

---

(١) – الجدول في إعراب القرآن (٧/ ٧٨)

(٢) – التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٣٢)

(٣) – التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٣٣)

(٤) – التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٢٩)

(٥) – المرجع السابق (٤/ ١٢٧)

(٦) – تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ٢٥٠)

الحقوق الى الناس ، وهو من خصائص لغة الضاد وذو العقل يدرك الفرق بين المعنيين ويخصص الفعل بأحدهما استنادا إلى مقام الحديث ومقتضى الحال[1].

(1) - الجدول في إعراب القرآن (٧/ ٧٩)

المطلب الثاني : موقف المشركين من الدعوة وما تدعو إليه من التوحيد وعدم اعتبارهم بمن سبق (٤ – ١١)

يقول الله سبحانه تعالى : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

أولا : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

ابتدأ الآية بإلتفات وخروج من الخطاب إلى الغيبة والضمير عائد على الذين كفروا. فالله تعالى لما تكلم أولا: في التوحيد، وثانيا: في المعاد، وثالثا: فيما يقرر هذين المطلوبين ذكر بعده ما يتعلق بتقرير النبوة وبدأ فيه بأن بين كون هؤلاء الكفار معرضين عن تأمل الدلائل، حيث إنتقل إلى كفران المشركين في تكذيبهم رسالة محمد ﷺ بعد أن أقيمت عليهم الحجّة ببطلان كفرهم في أمر الشرك بالله في الإلهية ، وقد عطف هذه الآية على ما سبق ؛ لأنّ الأمرين من أحوال كفرهم،ولأنّ الذي حملهم على تكذيب الرسولﷺ هو دعوته إياهم إلى التوحيد ، فمن أجله نشأ النزاع بينهم وبينه فكذبوه وسألوه الآيات على صدقه . فصورت الآيات طبيعة الجاحدين الذين انطمست بصائرهم وإصرارهم على العناد- حيث بدى أنه لا تنفع معهم حجة ولا يجدي معهم دليل في جوانب الأنفسية والآفاقية وما يصدر عن قدرة الله الباهرة مما لا يشك مَن له عَقْلٌ أنه فِعْلُ الله سبحانه ، وساق لهم أخبار من سبقوهم فقال: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴾[الأنعام: ٤] [1]

[1] – انظر : مفاتيح الغيب للرازي (١٢/ ٤٨٣) البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٣٦) تفسير فتح القدير (٢ / ١٠٠) روح المعاني (٧ / ١١٨)التحرير والتنوير لابن عاشور (٧ / ١٣٣) مع تصرف يسير

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

ابتدأ تعالى في هذه الآية بالالتفاتُ في الآية ؛ للإشعار بأن ذِكْرَ قبائحِهم قد اقتضى أن يضرِبَ عنهم الخطابَ صفحاً وتعددُ جناياتهم لغيرهم ذماً لهم وتقبيحاً لحالهم ؛ ليبين تعالى – لهؤلاء الكفار الذين بربهم يساوون أوثانَهم وآلهتهم – الحجّة والعلامة والدلالة التي هي من حُجج ربهم ودلالاته وأعلامه على وحدانيته، وحقيقة نبوتك، يا محمد، وصدق ما أتيتهم به من عندي وغير ذلك من الأدلة التي يجب فيها النظر والاستدلال والاعتبار حيث إن من يتأمل يجد أن ﴿مِّنْ﴾ في ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ للاستغراق بحيث تستغرق كل الآيات الكونية والشريعة ، وفي ﴿مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ للتبعيض ، لأن آيات الله تعالى الدالة عليه كثيرة لا تحصى ، وإضافةُ الآيات إلى اسم الرب المضافِ إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتْبِعِ لتهويل ما اجترُءوا عليه في حقِّها ، ويفيد أن إنزاله الوحي، وبعثه للرسل وتأييدهم، وهدايته للخلق بهم، كله من مقتضى ربوبيته، أي مقتضى كونه هو السيد المالك المربي لخلقه المدبر لأمورهم على الوجه الموافق للحكمة. وأنه لا يقدر عليه غيره فالذين يؤمنون بالرب ولا يؤمنون بكتبه ورسله يجهلون قدر ربوبيته وكنه حكمته ورحمته ، فتلك الآياتُ ناطقةُ بما فُصِّل من بدائعِ صنعِ الله عز وجل المُنْبئةِ عن جَرَيان أحكام ألوهيتِه تعالى على كافة الكائنات وإحاطةِ علمه بجميع أحوال الخق وأعمالهم الموجبةِ للإقبال عليها والإيمانِ بها إلا أنهم أعرضوا عنها ،وانصرفوا تاركين التَّفكُّر فيها – يعني عن الآية – وصدّوا عن قَبُولها والإقرار بما شهدت على حقيقته ودلّت على صحته ، ولا يرفعون به رأساً ، جهلا منهم بالله، واغترارًا بحلمه عنهم؛ ولقلة خوفهم وتدبرهم للعواقب، وذلك لأنهم يتخذون موقف الإعراض عناداً واصراراً. فليس الذي ينقصهم هو الآيات الداعية إلى الإيمان، ولا العلامات الدالة على صدق الدعوة والداعية، ولا البراهين الناطقة بما وراء الدعوة والداعية من ألوهية حقة، هي التي يدعون إلى الإيمان بها والاستسلام لها.. ليس هذا هو الذي ينقصهم، إنما تنقصهم الرغبة في الاستجابة، ويمسك بهم العناد والإصرار، ويقعد بهم الإعراض عن النظر والتدبر ، وجاءت الخاتمة للآية بالفعل المضارع للدلالة على استمرارهم على الإعراضِ حسَبَ استمرارِ إتيانِ الآياتِ، و"عن" متعلقة بـ ﴿مُعْرِضِينَ﴾ قُدِّمت عليه مراعاة للفواصل[1] .

والإعْرَاض عن الآيات أعْقَبَهُ التَّكْذِيبُ لذلك جاء بفاء التعقيب فقال : ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ والإعراض أحد العلامات الدالة على التكذيب حيث كان إعراض المشركين متمثلاً في عدم اتباع الحق الذي نزل على رسـول الله ﷺ الذي هو القرآن الجامع لَمَّا جاءَهُمْ بلسـان من هو أعلى مرتبة ومكانة

(1) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٢٦١) الوجيز للواحدي (ص: ٣٤٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري (٢/ ٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٣/ ١٠٩) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٥٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٣٦) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٣٦) مع تصرف وإضافة يسيرة من الباحثة

عند الله وأكمل ديناً وأقوم طريقاً ، وجاء بعبارة ﴿ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ ليفيد أن الحق قد وصـــل إليهم، وطرق قلوبهم وأسماعهم، ولكنهم عموا وصموا عنه.وعبر بذلك إبانةً لكمال قُبح ما فعلوا به فإن تكذيب الحقِّ مما لا يتصـور صـدوره من أحد ، ومفهومُ التكذيب بالحق كان أشنعَ من مفهوم الإعراضِ المذكورِ أُخرجَ مُخرَجَ اللازم البيِّنِ البُطلان فرُتِّبَ عليه بالفاء إظهاراً لغاية بُطلانه ثم قُيد ذلك بكونه بلا تأمل تأكيداً لشـــناعته وتمهيداً لبيان أن ما كذبوا به إثر ذي أثير له عواقبُ جليلةٌ ستبدو لهم البتة ، والمعنى أنهم حيث أعرضوا عن تلك الآيات عند إتيانها فقد كذبوا بما لا يمكن تكذيبُه أصلاً من غير أن يتدبروا في حاله ومآله ويقِفوا على ما في تضاعيفِه من الشواهد الموجبةِ لتصديقه كقوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [يونس: ٣٩] كما يُنْبِيء عنه قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥ ﴾ فإن ﴿ مَا ﴾ عبارةٌ عن الحق المذكور ؛ عبر عنه بذلك تهويلاً لأمره بإبهامه ، وتعليلاً للحكم بما في حيز الصـلة ، وإنباؤه عبارةٌ عما سـيَحيقُ بهم من العقوبات العاجلة التي نطَقت بها آياتُ الوعيد وإنما عبر بلفظ الأنباء إيذاناً بغاية العِظَم ؛ وذلك أن النَّبأَ لا يُطلق إلا على خبرٍ عظيمِ الوقع ، فليرتقبوا إذن أن يأتيهم الخبر اليقين عما كانوا به يستهزئون! ويتركهم أمام هذا التهديد المجمل، الذي لا يعرفون نوعه ولا موعده.. يتركهم يتوقعون في كل لحظة أن تأتيهم أنباء ما كانوا به يســـتهزئون! حيث إن هذا الفعل الشـــنيع – التكذيب والاستهزاء – ستكون عواقبه وخيمة في الدنيا والآخرة وهي الخسران المبين ، حيث قال الله لهم متوعداً على تكذيبهم إياه وجحودهم نبوته : سـوف يأتي المكذبين بك يا محمد من قومك وغيرهم أخبار استهزائهم بما كانوا به يســتهزئون من آياتي وأدلتي التي آتيتهم واســتمروا في غيهم وعتوا على ربهم ، فالفاء في قوله: ﴿ فَسَوْفَ ﴾ ف فاء السببية على قوله: ﴿ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي يترتب على ذلك إصابتهم بما توعدهم به الله ، وحرف التسويف هنا لتأكيد حصول ذلك في المستقبل، حينها سيعلمون بأي شيء استهزءوا، ويظهر لهم أنه لم يكن بموضــع اســتهزاء، وذلك عند إرســال العذاب عليهم في الدنيا أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وعلو كلمته.

وهذا وعيد لهم أنه يصل إليهم العذاب إما في الدنيا وذلك بانتصار الاسلام وهزيمتهم في الغزوات والحروب ، وإما في الآخرة برؤية جزاء المؤمنين وتحسرهم وهلاك الكافرين وتمنيهم النجاة[1].

---

[1] – انظر " جامع البيان لابن جرير الطبري (٩/ ١٥٦) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٣٥) البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٣٧) الفواتح الإلهية للنخجواني (١/ ٢١٣) تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٣/ ١١٠) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٣٧) تفسير اللباب (٨ / ٢٧) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٧ / ١٣٥ – ١٣٦) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٣٧) التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٣٧) مع تصرف يسير وإضافة من الباحثة .

يقول الإمام فخر الدين الرازي : " اعلم أنه تعالى رتب أحوال هؤلاء الكفار على ثلاث مراتب، فالمرتبة الأولى: كونهم معرضين عن التأمل في الدلائل والتفكر في البينات، والمرتبة الثانية: كونهم مكذبين بها وهذه المرتبة أزيد مما قبلها، لأن المعرض عن الشيء قد لا يكون مكذبا به، بل يكون غافلاً عنه غير متعرض له، فإذا صار مكذبا به فقد زاد على الإعراض، والمرتبة الثالثة: كونهم مستهزئين بها ؛ لأن المكذب بالشيء قد لا يبلغ تكذيبه به إلى حد الاستهزاء، فإذا بلغ إلى هذا الحد فقد بلغ الغاية القصوى في الإنكار، فبين تعالى أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب الثلاثة على هذا الترتيب"[١]

ثم جاء بعد ذلك استئناف مَسوق لتعيين ما هو المرادُ بالإنباء التي سبق بها الوعيد ، فلما أخبر بتكذيبهم على هذا الوجه ، ومنعهم عن ذلك الإعراض والتكذيب والاستهزاء بالتهديد والوعيد بتحتم تعذيبهم ، أتبعه ما يجري مجرى الموعظة والنصيحة ويقررهم بما يعلموا به مسبقاً من قدرة الله تعالى ليخافوا فَقَالَ: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ : عجباً من تمادي هؤلاء المكذبون بآياتي، الجاحدون نبوّتك ، وأُنكر عليهم فعلهم مع ما علموا من إهلاك مَن كان أشد منهم قوة وأكثر جمعاً من سائر القرون الماضية كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب وفرعون وغيرهم ، ومعاينة الآثار في أسفارهم للتجارة إلى الشام في الصيف وإلى اليمن في الشتاء[٢] ، والرؤية سيدة الأدلة ، وإن لم يشاهدوا وقائع الأمم السالفة إلا أن أقاصيص المتقدمين مشهورة بين الخلق ، فيبعد أن يقال إنهم ما سمعوا أخبارهم، ومجرد سماعها يكفي في الاعتبار، فيخبر عنهم بأنا أعطيناهم من الخير والتمكين والمكانة في قلوب الخلق، من نفاذ القول، وخضوع الناس لهم؛ لأنهم كانوا ملوكًا وسلاطين الأرض، ما لَمْ نعطكم يأَهْل مكة ووطَّأت لهم البلادَ والأرض توطئة لم أوطِّئها لكم ،فعمروا الأرض – أولئك الأقوام – أكثر مما عمرها أهل هذا العصر، وجعلت لهم السماء مظلة بالغمام التي تأتي بالمطر المتتابع الذي درَّ عليهم وقت الحاجة إليه[٣] ، فأخرجت لهم الأشجارُ ثمارها، وأعطتهم الأرض رَيْع نَباتها، وجابوا صخورَ جبالها ، وتفجرت من تحتهم عيون المياه بينابيعها بإذني، وأُمدهم من سوابغ النعم بما لم يعتبروه فيه مع ما ضموه إلى تحقق أخبارهم من مشاهدة آثارهم ، وعجيب اصطناعهم في أبنيتهم وديارهم ، فعاشوا في الخصب والريف بين الأنهار والثمار، وأنواع الحضارة ، وجعلهم متمكنين منها منتفعين بها في استجلاب المنافع واستدفاع المضارّ ما لم نُعط أهلَ مكةَ ففعلوا ما فعلوا ، وغمَطُوا نعمتي ، وعصوا رسولي ، وخالفوا أمرَي وأنا بارئهم ، وبغَوْا حتى حقَّ عليهم قَوْلي، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ فأخذتهم بسبب ما اجترحوا من ذنوبهم، وعذبناهم بتكذيبهم رسلهم وعاقبتهم بما اكتسبت أيديهم، وأهلكت بعضهم بالرَّجفة، وبعضهم بالصيحة، وغير ذلك من أنواع

---

[١] – مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٨٣)

[٢] – وحسبك أن العرب كانوا يضربون الأمثال للأمور العظيمة بأنها عادية أو ثمودية أو سبئية ، التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٣٩)

[٣] – فلا تدر عليهم ليلاً نهاراً فتفسد عليهم حياتهم ، فتكون هلاكاً بدلاً من كونها نعمة ، انظر : زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ١١)

العذاب من حوادث خارقة للعادة يدلّ حالها على أنّها مســـلّطة عليهم من الله عقاباً لهم على التكذيب ، فلم تغن عنهم قوتهم وحضـــارتهم وعلومهم من الله شـيئاً ، والإهلاك هنا لا يراد به مجرد الإفناء والإماتة بل المراد الإهلاك الناشـــئ عن الذنوب والأخذ به[1]، ﴿ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ وخلقنا من بعد هلاكهم قوماً آخرين للدلالة على أنه لا يَنْقُصْ من ملكه شـيئاً ، ولا يتعاظمه أن يهلك قرناً ويخرب بلاده منهم ، فإنه قادر على أن ينشـــئ مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده ، وكل ذلك بيان لجملة :﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[2] مستدلاً بذلك على تحقيق ما قبله من التهديد على الاستهزاء،وهذا الالتفات في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ يفيد أن المعنيين ليســـوا كفار قريش فقط بل الكفار في كل زمان ومكان ، وفيه تعريض بقلة تمكين هؤلاء ونقصـــهم عن أحوال من ســبق، ومع تمكين أولئك في الأرض فقد حل بهم الهلاك، فكيف لا يحل بكم على قلتكم وضيق خطتكم؟ فالهلاك إليكم أسرع من الهلاك إليهم ، وليس المرادُ بتَعدادِ هاتيك النعم العظامِ الفائضةِ عليهم بعد ذكر تمكينهم بيانَ عِظَم جنايتهم في كفرانها واستحقاقهم بذلك لأعظم العقوبات بل بيانَ حيازتهم لجميعه أسباب نيل المآرب ومبادىء الأمن والنجاة من المكاره والمعاطب ، وعدمَ إغناءِ ذلك عنهم شيئاً ، وفيه إشارة إلى أنهم قلعوا من أصلهم ولم يبق أحد من نسلهم لجعلهم آخرين ويلونهم من بعدهم، يقول تعالى : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد: ٣٨] .

ومن الملاحظ أن الآية من أولها إلى آخرها كانت تعبر عن الأقوام بالضمير وليس بالتصريح ، وهذا إن دل فإنما يدل على هوان المكذبين المعرضـين أصـحاب القوة والتمكين من البشـر على الله تعالى فلقد أهلكوا وغبروا فما أحست هذه الأرض بالخلاء والخواء إنما عمرها جيل آخر ومضت الأرض في دورتها كأن لم يكن هنا سكان أحياء كانوا عليها قبل ومضت الحياة في حركتها ، وهي حقيقة ينساها البشر حين يمكن الله لهم في الأرض ، ينســـون أن هذا التمكين إنما تم بمشـــيئة الله ، ليبلوهم فيه: أيقومون عليه بعهد الله وشـرطه، من العبودية له وحده، والتلقي منه وحده- بما أنه هو صـاحب الملك وهم مسـتخلفون فيه- أم يجعلون من أنفسـهم طواغيت ، تدعي حقوق الألوهية وخصـائصـها ويتصرفون فيما استخلفوا فيه تصرف المالك لا المستخلف[3].

---

[1] – لأن الإهلاك بمعنى الإماتة مشترك فيه الصالح والطالح ، البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٤٠)

[2] – من الآية (٥) من سورة الأنعام .

[3] – انظر : تفسير مقاتل بن سليمان (١/ ٥٥٠) جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٢٦٣) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري (٢/ ٦) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (٤ / ٤٨٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢/ ١٥٤) البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٣٨) تفسير اللباب (٨ / ٢٨ – ٣٥) نظم الدرر (٢ / ٥٨٩) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٣/ ١١٠،١١١) روح المعاني للألوسي (٤/ ٩١) فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٤/ ١٠٣) في ظلال

ولا ريب في أن المسوغ لإهلاك أهل مكة أعظم من المسوغ لإهلاك من سبق، والمسوغ هنا هو أن النبي ﷺ أفضل ممن قبله من المرسلين، فإذا كان أولئك القوم كذبوا برسل؛ فقد كذبتم أنتم بأعظم رسول، فالهلاك في حقكم أكبر، ولكن الله جل وعلا أبقاهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال:٣٣].

ثم يمضي السياق يصور طبيعة العناد، التي ينبعث منها ذلك الإعراض فيرسم نموذجاً عجيباً من النفوس البشرية.. ولكنه نموذج مع ذلك مكرور، يجده الإنسان في كل عصر وفي كل بيئة وفي كل جيل.. نموذج النفس المكابرة، التي يخرق الحق عينها ولا تراه! والتي تنكر ما لا يُنكر لأنه من الوضوح بحيث يخجل المخالف أن ينكره! على الأقل من باب الحياء!

فلقد ذكر تعالى تكذيبهم بالحق لما جاءهم ثم وعظهم وذكرهم بإهلاك القرون الماضية بذنوبهم ، وتمردهم عن قبول دعوة الأنبياء ، حيث بالغوا في حب الدنيا وطلب لذاتها وشهواتها إلى أن استغرقوا فيها واغتنموا وجدانها، فصار ذلك مانعاً لهم عن قبول دعوة الأنبياء، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في الآية المتقدمة وبين أن لذات الدنيا ذاهبة وعذاب الكفر باق، وليس من العقل تحمل العقاب الدائم لأجل اللذات المنقرضة الخسيسة، بعد أن ذكر كل ذلك ذكر هنا مبالغتهم في التكذيب الذين يحملون معجزات الأنبياء عليهم السلام، على أنها من باب السحر لا من باب المعجزة، هؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى لما أخبر عنهم عز وجل بأنهم كذبوا بكل ما جاءهم من آية تبع ذلك إخبار فيه توغلهم في الجحود والعناد وشدة مكابرتهم ، وانصرافهم عن الحق وإعراضهم مهما قويت أدلته، وساق جانبا من أقوالهم الباطلة ثم رد عليهم بما يدحضها فقال : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

حيث ابتدأت الآية بـ ﴿ وَلَوْ ﴾ وهو حرف امتناع لامتناع، أي أن الله سبحانه يمتنع عن أن يفعل ذلك، لأنه عبث لَا يليق أن يصدر عن ذاته العلية، إذ لَا ثمرة له، فلن يؤمنوا مهما تكن قوة الدليل، وفي هذه الآية إخبار من الله تعالى ذكره لنبيِّه محمدً ﷺ حيث إن الخطاب موجه له لا محالة لأن كل ينزل من القرآن موجه إليه لأنه المبلغ، يخبره عن هؤلاء القوم الذين يعدلون بربهم الأوثانَ والآلهة والأصنام كيف يتفقهون الآيات، أم كيف يستدِلُّون على بُطْلان ما هم عليه مُقيمون من الكفر بالله وجحودِ نبوتك، بحجج الله وآياته وأدلته، وهم لعنادهم الحقَّ وبعدِهم من الرشد، لو أنزلت عليك، يا محمد، الوحيَ مع رسولي، في قِرْطاس في صحيفة، مكتوبًا ، لعلمهم أنه لم يكتب في الأرض ، يعاينونه ؛ وينظرون إليه

القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٣٧) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٧ / ١٣٦) تفسير الشعراوي (٦/ ٣٥٠٩) بتصرف وإضافة من الباحثة

.

ويقرءونه منه، سواء كان ذلك الكتاب مما نزل الملك به ، أو يمسكه الله بين السماء والأرض، معلَّقاً بينهما، ويحوي حقيقة ما تدعوهم إليه، وصحَّةِ ما تأتيهم به من توحيدي وتنزيلي، وإن أتوا ما سألوا من الآيات ، ويمسُّونه بأيديهم ، حيث خص حاسة اللمس بالذكر لأن الملموس أقرب من المرئي إلى التصديق والإيمان ، ولأن التزوير لا يقع فيه فلا يمكنهم أن يقولوا إنما سكرت أبصارنا، ولأنه يتقدمه الإبصار حيث لا مانع، ولأن اليد أقوى في اللمس من غيرها من الأعضاء ، والناس منقسمون إلى بصراء وأضراء، فذكر الطريق الذي يحصل به العلم للفريقين. و لأن السحر الذي رموه به إنما يتخيل في المرئيات ، ولا يتخيل في الملموسات ؛ وتقييده بالأيدي مبالغة في التأكيد لدفع التجوز فإنه قد يتجوز به للفحص. كقوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾[الجن: ٨] ، ولأن اليد أقوى في اللمس من غيرها من الأعضاء ، فإنه مهما كان قريباً من أبصارهم وأيديهم وبالغوا في ميزه وتقليبه جساً بأيديهم ليرتفع كل ارتياب ويزول عنهم كل إشكال كما اقترحوا ، لم يؤمنوا به ولا صدقوه ؛ إذ قد أتاهم من الآيات ما إن تأملوا ولم يتعنتوا لدلتهم على ذلك، لكنهم أعرضوا عنها، ولم يتأملوا فيها لتعنتهم، وشدة مكابرتهم، ولغلبة الفساد عليهم ، فأخبر الله سبحانه أنهم لَا يقابلون ذلك بالتصديق والإقبال والإذعان فالمؤمن يراه من أعظم المعجزات ، بل يدفعون الدليل حتى لو أتاهم الدليل مدركا بالحس، وينتحلون الأعذار لكفرهم ، ولا يجدون مساغاً إلا ادعاء السحر يلجأون فيقولون : ما هذا الذي جئتنا به من عند الله إلا سحر سحرتَ به أعيننا، ليست له حقيقة ولا صحة ، مبين لمن تدبّره وتأمَّله أنه سحر لا حقيقة له ، وما هذا الذي رأينا ولمسنا إلا سحر بين في نفسه، ثابت في نوعه، وإنما خيل إلينا أننا رأينا كتابا ولمسناه، وما ثم كتاب نزل، ولا قرطاس رئي ولا لمس، فنراهم يغالطون أنفسهم ويغالطون قومهم لستر مكابرتهم ولدفع ما ظهر من الغلبة عليهم. وهذا شأن المغلوب المحجوج أن يتعلق بالمعاذير الكاذبة.

وجاء قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ دون أن يقول: لقالوا، كما قال: ﴿فَلَمَسُوهُ﴾ إظهاراً في مقام الإضمار ؛ لقصد تسجيل أن دافعهم إلى هذا التعنت هو الكفر؛ لأن الموصول يؤذن بالتعليل.

وعبر بلفظ : ﴿مُّبِينٌ﴾ ليدل على تكذيبهم لليقين بالعناد، حيث إن المبين: ما دل على بيان بنفسه ، أما البيِّن: ما دل أمر آخر على بيانه ، فكان المبين أقوى من البيِّن ، وتدل الآية دلالة صريحة على كمال قدرته فى إبداء ما يريده بعد ما قضى لهم الضلال، فلو أشهدهم كلّ دليل، وأوضح لهم كل سبيل ما ازدادوا إلا تماديا فى الضلال والنفرة، وانهماكا فى الجهل والغيّ [1]، وهذا الأمر لا يتناسب مع قوم هم أبصر الناس ممن عُرفوا بالبلاغة والفصاحة، وبحسن القول وصياغته ، ويعرفون القول الفصل والرأي الصحيح

---

[1] – وهو مثل قوله تعالى : ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٤ – ١٥] وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الطور: ٤٤]

ويميزون بين فنون القول: خطابةً، وكتابةً، ونثراً، وشعراً، والقول المسجوع، والقول المرسل، من العجيب أنهم يقفون أمام معجزة القرآن مبهوتين لا يعرفون من أمرهم رشداً، فيقولون عنه أنه سحر إن أمرهم هذا عجيب[1].

ولو أجبناهم إلى ما سألوا لم يؤمنوا ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ حيث استأنف هنا لبيان شروعهم في قدحهم بنبوته عليه الصلاة والسلام بما هو أصرح من الأول ، فلقد جاء صريحاً بعد ما أُشير إلى قدحهم فيهما ضِمناً ، وذلك باستمرارهم في اقتراح المعجزات بتعنت شديد وعناد صريح ، فمهما تأتيهم من الآيات والعبر بما أتيتهم به، واحتججت عليهم بما احتججت عليهم مما قطعتَ به عذرَهم لقالوا هَلا نزل عليك ملك من السماء في صورته، يصدّقكَ على ما جئتنا به، ويشهد لك بحقيقة ما تدَّعي من أنَّ الله أرسلك إلينا[2]! ؛ وجاء الفعل ﴿ أُنزِلَ ﴾ بالبناء للمجهول؛ ليكون الطلب لمن أرسل الرسول، والضمير في ﴿ عَلَيْهِ ﴾ عائد إلى النبي ﷺ ، ومعاد الضمير معلوم من المقام، لأنه إذا جاء في الكلام ضمير غائب لم يتقدم له معاد وكان بين ظهرانيهم من هو صاحب خبر أو قصة يتحدث الناس بها تعين أنه المراد من الضمير، وتعللوا بأن الله لو بعث إلى الخلق رسولاً لوجب أن يكون ذلك الرسول واحداً من الملائكة فإنهم إذا كانوا من زمرة الملائكة كانت علومهم أكثر، وقدرتهم أشد، ومهابتهم أعظم، وامتيازهم عن الخلق أكمل، والشبهات والشكوك في نبوتهم ورسالتهم أقل، والحكيم إذا أراد تحصيل مهم فكل شيء كان أشد إفضاء إلى تحصيل ذلك المطلوب كان أولى، فلما كان وقوع الشبهات في نبوة الملائكة أقل، وجب لو بعث الله رسولا إلى الخلق أن يكون ذلك الرسول من الملائكة[3] ، وهذا من أباطيلهم المحقّقة وخُرافاتهم الملفّقة

(1) – جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٢٦٥) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٥) النكت والعيون للماوردي (٢/ ٩٥) لطائف الإشارات للقشيري (١/ ٤٦٢) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٥٤) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٦٩) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٤٨٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٣٩٢) البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٤١) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣١٧) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٥٩) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٣٩) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٤١) تفسير الشعراوي (٦/ ٣٥١٢) التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٤٠)

(2) – كما قال تعالى ذكره مخبرًا عن المشركين في قيلهم لنبي الله ﷺ : و﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ ﴾ [سورة الفرقان: ٧]

(3) – وهه الشبه وردت في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٤ ﴾ [المؤمنون: ٢٤] ، وقوله تعالى : ﴿ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝١٤ ﴾ [فصلت: ١٤]

التي يتعللون بها كلما ضاقتْ عليهم الحيلُ وعيَّت بهم العلل [1]،و ﴿لَوۡلَآ﴾ هنا للتحضيض بمعنى "هلّا" . والتحضيض مستعمل في التعجيز على حسب اعتقادهم فهم يظنون بجهلهم أن هذا أمر معجز، أي: يعجز الله عن أن يبعث ملكاً، ولذلك طلبوا هذه الآية على سبيل التعجيز – تعالى الله تعالى عما يقولون علواً كبيراً – .

وعلى افتراض أننا استجبنا لمطالبهم ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾ أي قضي أمرهم فاللام عوض عن المضاف إليه بقرينة السياق، والمراد لقضي أمر عذابهم الذي يتهددهم به ، وبناء الفعل الأول ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا﴾ في الجواب للفاعل مسنداً إلى نون العظمة مع كونه في السؤال ﴿أُنزِلَ﴾ مبنياً للمفعول ؛ لتهويل الأمر وتربية المهابة، وبناء الثاني للمفعول للجري على سنن الكبرياء ، وهذا جواب لمقترحهم، وبيان لمانعه، وهو البقيا عليهم، كيلا يكونوا كالباحث عن حتفه بظلفه. حيث إنه لو أنزلنا ملكًا على ما سألوا، ثم كفروا ولم يؤمنوا بي وبرسولي، لجاءهم العذابُ عاجلاً غيرَ آجل، ولم يُنْظروا فيؤخَّروا بالعقوبة مراجعةَ التوبة، كما فعلت بمن قبلهم من الأمم التي سألت الآيات، ثم كفرت بعد مجيئها، من تعجيل النقمة، وترك الإنظار ، فلا يمهلون ولا يؤخرون طرفة عين ؛ وإنما استحقوا ذلك العذاب والهلاك ؛ لأن الآيات إذا نزلت على إثر سؤال القوم ثم خالفوا تلك الآيات وكذبوها وهي آية لا شيء أبين منها وأيقن لنزل بهم العذاب والهلاك، حيث يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف عند نزول الملائكة فيجب إهلاكهم ، وإن جاءت الآيات على غير سؤال، فكذبوها يمهلون ، فإن سنة الله جارية بأن عند ظهور الآية الباهرة إن لم يؤمنوا جاءهم عذاب الاستئصال، فههنا ما أنزل الله تعالى الملك إليهم لئلا يستحقوا هذا العذاب ، فالله يعلم أن ذلك أصلح للعباد، وأرفق بهم، مع إمهال الله للكافرين والمكذبين خير لهم وأنفع، فطلبُهم لإنزال الملك شر لهم لو كانوا يعلمون، ومع ذلك فالملك لو أنزل عليهم، وأرسل، لم يطيقوا التلقي عنه، ولا احتملوا ذلك، ولا أطاقته قواهم الفانية. ويكون سبباً في زهق أرواحهم من هول ما يشاهدون ، وذلك أن الآدمي إذا رأى الملك فإما أن يراه على صورته الأصلية أو على صورة البشر؛ فإن كان الأول لم يبق الآدمي حياً، ألا ترى أن رسول الله ﷺ لما رأى جبريل عليه السلام على صورته الأصلية غشي عليه، وإن كان الثاني فحينئذ يكون المرئي شخصاً على صورة البشر، وذلك لا يتفاوت الحال فيه سواء كان هو في نفسه ملكاً أو بشراً. ألا ترى أن جميع الرسل عاينوا الملائكة في صورة البشر كأضياف إبراهيم، وأضياف لوط، وكالذين تسوروا المحراب، وكجبريل حيث تمثل لمريم بشرا سويا ، وإنزال الملك وإن كان يدفع الشبهات المذكورة إلا أنه يقوي الشبهات من وجه آخر، وذلك لأن أي معجزة ظهرت عليه قالوا هذا فعلك فعلته

---

[1] - جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٢٦٦) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٤٨٦) البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٤١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١١٢) روح المعاني للآلوسي (٤/ ٩١)

باختيارك وقدرتك، ولو حصل لنا مثل ما حصل لك من القدرة والقوة والعلم لفعلنا مثل ما فعلته أنت، فعلمنا أن إنزال الملك وإن كان يدفع الشبهة من الوجوه المذكورة لكنه يقوي الشبهة من هذه الوجوه ، ومن تمام نعمة الله علينا أن بعث فينا رسولاً منا ، ولله الحكمة البالغة فيما يحكم ويختار ، والله تعالى ما كان ليظهر آياته عن اقتراح الضالين، إذ ليس الرسول ﷺ بصدد التصدي لرغبات الناس مثل ما يتصدى الصانع أو التاجر، ولو أجيبت رغبات بعض المقترحين لرام كل من عرضت عليه الدعوة أن تظهر له آية حسب مقترحه فيصير الرسول ﷺ مضيعاً مدة الإرشاد وتلتف عليه الناس التفافهم على المشعوذين، وذلك ينافي حرمة النبوءة، ولكن الآيات تأتي عن محض اختيار من الله تعالى دون مسألة[1] .

ومعنى ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما بين الأمرين – قضاء الأمر، وعدم الإنظار– جعل عدم الإنظار أشدّ من قضاء الأمر، لأنّ مفاجأة الشدّة أشدّ من نفس الشدّة [2].

ثم رد عليهم برد آخر فقال : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ حيث عطف ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ على قوله: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ وهو جواب ثان عن مقترحهم، فيه ارتقاء في الجواب، وذلك أن مقترحهم يستلزم الاستغناء عن بعثة رسول من البشر ؛ لأنه إذا كانت دعوة الرسول البشري غير مقبولة عندهم إلا إذا قارنه ملك يكون معه نذيراً كما قالوه وحكي عنهم في غير هذه الآية، فقد صار مجيء رسول بشري إليهم غير مجد للاستغناء عنه بالملك الذي يصاحبه، على أنهم صرحوا بهذا اللازم فيما حكي عنهم في غير هذه الآية، وهو قوله تعالى:﴿ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾[فصلت: ١٤] فجاء هذا الجواب الثاني صالحاً لرد الاقتراحين، ولكنه روعي في تركيب ألفاظه ما يناسب المعنى الثاني لكلامهم فجيء بفعل ﴿جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا﴾ المقتضي تصيير شيء آخر أو تعويضه به ، فالضمير في قوله : ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ عائد إلى الرسول الذي عاد إليه الضمير في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ أي : ولو اكتفينا عن إرسال رسول من نوع البشر، وجعلنا الرسول إليهم ملكاً لتعين أن نصور ذلك الملك بصورة رجل؛ لأنه لا محيد عن تشكله بشكل لتمكن إحاطة

---

[1] – وإنما أجاب الله اقتراح الحواريين إنزال المائدة لأنهم كانوا قوما صالحين، وما أرادوا إلا خيرا. ولكن الله أنبأهم أن إجابتهم لذلك لحكمة أخرى وهي تستتبع نفعا لهم من حيث لا يشعرون، فكان أحرى بأن يشكروا نعمة الله عليهم فيما فيه استبقاء لهم لو كانوا موفقين. التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٤٥)

[2] – جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٢٦٧) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٦) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٣٥) الكشاف للزمخشري (٢/ ٧) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٤٨٦) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن (٢/ ١٠٠) تفسير ابن أبي العز جمعا ودراسة (ص: ٦٩) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣١٨) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٤٣) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٤٢) روح المعاني للآلوسي (٤/ ٩٢)

أبصارهم به وتحيزه فإذا تشكل فإنما يتشكل في صورة رجل ليُطيقوا رؤيته لأنَّهم لا يستطيعون أن يروا المِلَك في صــورته فأعين الخلق تحار عن رؤية الملائكة، ولذلك كانت الملائكة تأتي الأنبياء في صــورة الأنس كما جاء جبريل إلى النبي ﷺ في صــورة دحية الكلبي وكما جاء الملكان إلى داود عليه الســلام في صــورة رجلين وكذلك أتى الملائكة إلى إبراهيم ولوط – عليهما السلام – في صورة بشر، وفي إيثار رجلاً على بشراً إيذانٌ بأن الجعلَ بطريقِ التَّمثيلِ لا بطريقِ قلب الحقيقة وتعيينٌ لما يقع به التمثيل ، أي : لجعلناه فى أعينهم رجلاً .

وهم لا يستطيعون أن يروا الملك في صــورته ، لأن كل جنس يأنس بجنســه وينفر من غير جنســه، فلو جعل الله تعالى الرســول إلى البشــر ملكاً لنفروا من مقاربته، ولما أنســوا به، ولداخلهم من الرعب من كلامه والاتقاء له ما يكفهم عن كلامه، ويمنعهم عن سؤاله، فلا تعم المصلحة ، وإنزالَ الملَك على صورته يقتضي انتفاءَ جعلِه نذيراً وجعلُه نذيراً يستدعي عدمَ إنزاله على صورته لا مَحالة ؛ لأن طاعات الملائكة قوية فيستحقرون طاعة البشر، وربما لا يعذروهم في الإقدام على المعاصي ولذلك قال : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ أي : ولا التبس عليهم أمرُه ، ولخلطنا عليهم ما يخلطون حتى يشكوا فلا يدروا أملك هو أم آدمي ! فلم يوقنوا به أنَّه ملك، ولم يصدّقوا به، وقالوا:"ليس هذا ملكًا"! فلو أن الرب أجاب اقتراحهم وجعل الملك في هيئة رجل لعادوا من حيث بدءوا، فلا يدرون هل هو ملك أو هو رجل، فإذا أتاهم بالبينات وقعوا في نفس اللبس الذي وقعوا فيه مع محمد ﷺ ، فقوله تعالى : ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ من تمام الدليل والحجة عليهم بعدم جدوى إرســال الملك ، بل في الآية تأكيد لاســتحالة جعله ملكاً كأنه قيل : لو فعلناه لفعلنا ما لا يليق بشــأننا من لبس الأمر على القوم وجعلته مشــكلاً عليهم ، وقد عدي هنا بحرف ﴿عَلَىٰ﴾ ؛ لأن المراد لبس فيه غلبة لعقولهم ، أي : للبســنا على عقولهم، فشــكوا في كونه ملكاً فكذبوه، إذ كان دأب عقولهم تطلب خوارق العادات استدلالاً بها على الصدق، وترك إعمال النظر الذي يعرف به صدق الصادق ، وهذا الكلام كله منظور فيه إلى حمل اقتراحهم على ظاهر حاله من إرادتهم الاســـتدلال، فلذلك أجيبوا عن كلامهم إرخاء للعنان، وإلا فإنهم ما أرادوا بكلامهم إلا التعجيز والاستهزاء[1]، وكان يضيق قلب الرسول ﷺ عند سماعه

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٢٦٨) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٧) الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي (٤/ ١٣٦) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ١٩٦٥) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٥٤) الوجيز له أيضاً (ص: ٣٤٦) تفسير السمعاني (٢/ ٩٠) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٤٨٧) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن (٢/ ١٠٠) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٣٩٣) ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٣/ ١١٣) روح البيان لحقي (٣/ ١٢) البحر المديد لابن عجيبة (٢/ ١٠٠) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٣٥) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٤٥) بتصرف وإضافة من الباحثة .

لاستهزائهم وعنادهم واستكبارهم[1] ، ولذلك عقبه بقوله: ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

حيث أكد سبحانه الاستهزاء بـ " قد " وبـ " اللام " ففي تصدير الجملة بلام القسم وحرفِ التحقيق من الاعتناء بها ما لا يخفى .

فنراه في الآية يعزي الله نبيه ﷺ مسليًّا عنه ليصبر عَلَى ما كان فيه من بلاء وابتلاء، فلقد ابتُلِيَ من المشركين بالإنكار والمعاندة، وطلب آيات، ولا يقصدون إلا المهاترة ، ويهُوِّن ما يلقى من المشركين ، ويقويه على مُحَاجَّةِ المشركين ، ويروح عن نفسه، ويبشره بحسن العاقبة ويثبيت قلبه حتى لا يتأثر أو يضعف أمام سفه المشركين وتطاولهم عليه. فيخاطبه أن لا تحزن يا محمد لما أصابك من قومك، فإن من شأن الدعاة إلى الحق المجاهدين في سبيله أن ينالهم الأذى من أعدائهم، ولقد أوذى من سبقك من الرسل الكرام وهم أولي شأنٍ خطيرٍ وذوي عدد كبير كائنين من زمانٍ قبلَ زمانك ، حيث أخبرتهم رسلهم بالعذاب فكذبوهم وسخر الساخرون منهم، فصبروا على ذلك، وجاءهم في النهاية نصرنا الذي وعدناهم به. أما أعداؤهم الذين استهزءوا بهم، فقد أخذناهم أخذ عزيز فنزل العذاب وحل بهم، وأحاطهم وحقّ لهؤلاء الرسل نصرنا .

فهوّن عليك ما تلقى من هؤلاء المستخفين بحقك فىّ وفى طاعتى، وامض لما أمرتك به من الدعاء إلى توحيدى والإقرار بي والإذعان لطاعتى، فإنهم إن تمادوا فى غيّهم وأصرُّوا على المقام على كفرهم، نسلك بهم سبيل أسلافهم من سائر الأمم من غيرهم ونعجّل النقمة لهم وتحل بهم المثلات.

واختير فعل ﴿ فَحَاقَ ﴾ للدلالة على تمكن ذلك منهم وعدم إفلات أحداً منهم.

والاستهزاء بالشيء: الاستهانة به، والاستهزاء بالشخص احتقاره وعدم الاهتمام بأمره.

وحذف فاعل الاستهزاء فبنى الفعل إلى المجهول ؛ لأن المقصود هنا هو ترتب أثر الاستهزاء لا تعيين المستهزئين.

وتنكير وتنوين الرسل للتكثير والتعظيم، والفاء في قوله : ﴿ فَحَاقَ ﴾ للسببية، أى: بسبب هذا الاستهزاء برسل الله الكرام، أحاط العذاب بأولئك المستهزئين فأهلكهم ، ونزل ما نزل من عذاب بأمر الله

(١) – ولقد وردت آيات أخرى تبين مدى عناد المشركين وطلبهم للمعجزات وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٩ – ٩٥]

وبأيدي المؤمنين، وقال سبحانه : ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ﴾ ولم يقل بالساخرين؛ للإشارة إلى أن ما أصابهم من عذاب لم يكن تجنياً عليهم، وإنما كان بسبب سخريتهم برسل الله ، والاستخفاف بهم ؛ لأن التعبير بالموصول يفيد أن الصلة هي علة الحكم.

وفي قوله تعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾ مجاز علاقته السببية ؛ لأن الذي حاق بهم هو العذاب المسبب عن الاستهزاء، ففيه إطلاق السبب وإرادة المسبب، وذلك يفيد أن العذاب ملازم لهذه السخرية لا ينفك عنها، فحيثما وجد التطاول على أولياء الله والدعاة إلى دينه، وجد معه عذاب الله وسخطه على المتطاولين والمستهزئين. وهذا إخبار يَتَضَمَّنُ وعيد مُكَذِّبِيهِ، والمستهزئين به ، أي : فاحذروا -أيها المكذبون- أن تستمروا على تكذيبكم، فيصيبكم ما أصابهم.

فإن معناه يدور على الشمول واللزوم ولا يكاد يُستعمل إلا في الشر ، والحيقُ مايشتمل على الإنسان من مكروهِ فِعْلِه .

و﴿بِٱلَّذِينَ﴾ متعلق بقوله : ﴿فَحَاقَ﴾ وتقديمه على فاعله ، وهو ﴿مَّا﴾ للمسارعة إلى بيان لحوق الشر بهم .

ومنهم يتعلق بـ﴿سَخِرُواْ﴾ ، والضمير المجرور عائد إلى الرسل، لزيادة تقرير كون العقاب لأجلهم ترفيعاً لشأنهم ، وتقديم الجار والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على الفعل لرعاية الفواصل .

وإنما ذكر ما ذكر ليصير سبباً للتخفيف عن القلب وأهون على النفس مما يكون فيه الانفراد ؛ لأن أحد ما يخفف عن القلب المشاركة في سبب المحنة والغم ، وفي التسلية والتأسي من التخفيف ما لا يخفى، فكأنه قيل له إن هذه الأنواع الكثيرة من سوء الأدب التي يعاملونك بها قد كانت موجودة في سائر القرون مع أنبيائهم، فلست أنت فريدا في هذا الطريق[(١)].[(٢)]

---

(١) – انظر : تفسير مقاتل بن سليمان (١/ ٥٥١) جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٢٧١) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ١٩٦٥) لطائف الإشارات للقشيري (١/ ٤٦٢) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٤٨٧) الجواهر الحسان للثعالبي (٢/ ٤٤٧) التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٤٣) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٤٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٤٧) السراج المنير للشربيني (١/ ٤١٢) تفسير المراغي (٧/ ٨٣) البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٤٤) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١١٤) روح المعاني للآلوسي (٤/ ٩٧) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ٢٥١) مع تصرف وإضافة من الباحثة .

(٢) – " ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن الكفار استهزءوا برسل قبل نبينا ﷺ وأنهم حاق بهم العذاب بسبب ذلك، ولم يفصل هنا كيفية استهزائهم، ولا كيفية العذاب الذي أهلكوا به، ولكنه فصل كثيرا من ذلك من مواضع متعددة، في ذكر نوح وقومه، وهود وقومه، وصالح وقومه، ولوط وقومه، وشعيب وقومه، إلى غير ذلك " . أضواء البيان للشنقيطي (١/ ٤٧٣)

يقول سيد قطب – رحمه الله – : " ومن مثل هذه الاقتراحات يتبين التعنت كما تتبين الجهالة.. وإلا فقد كان لهم من خلق رسول الله ﷺ الذي يعرفونه جيداً بالخبرة الطويلة ما يدلهم على صدقة وأمانته وهم كانوا يلقبونه الأمين، ويودعون لديه أماناتهم حتى وهم معه على أشد الخلاف ، وقد هاجر ﷺ وترك ابن عمه علياً ﷺ يرد إلى قريش ودائعهم التي كانت ما تزال عنده وهم معه على الخلاف الذي يدبرون معه قتله! وكذلك كان صدقه عندهم مستيقناً كأمانته فإنه لما دعاهم أول مرة دعوة جماعية جهرية على الصفا- حين أمره ربه بذلك- وسألهم: إن كانوا يصدقونه لو أنبأهم بنبأ، أجابوه كلهم بأنه عندهم مصدق.. فلو كانوا يريدون أن يعلموا صدقه لقد كان لهم في ماضيه برهان، ولقد كانوا يعلمون: إنه لصادق.. وسيأتي في سياق السورة خبر الله الصادق لنبيه: أنهم لا يكذبونه: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[الأنعام: ٣٣] فهي الرغبة في الإنكار والإعراض وهو العناد والاستكبار عن الحق. وليس أنهم يشكون في صدقه ﷺ ! ثم لقد كان لهم في القرآن ذاته برهان أصدق من هذه البراهين المادية التي يطلبون. فإن هذا القرآن شاهد بذاته، بتعبيره ثم بمحتوى هذا التعبير، على أنه من عند الله.. وهم لم يكونوا يجحدون الله.. وهم- على وجه التأكيد- كانوا يحسون ذلك ويعرفونه.. كانوا يعرفون بحسهم اللغوي الأدبي الفني مدى الطاقة البشرية ويعرفون أن هذا القرآن فوق هذا المدى- وهذا الإحساس يعرفه من يمارس فن القول ويتذوقه أكثر مما يعرفه من ليست له هذه الممارسة. وكل من مارس فن القول يدرك إدراكاً واضحاً أن هذا القرآن فوق ما يملك البشر أن يبلغوا ، ولا ينكر هذا إلا معاند يجد الحق في نفسه ثم يخفيه! كما أن المحتوى القرآني من التصور الاعتقادي والمنهج الذي يتخذه لتقرير هذا الاعتقاد في الإدراك البشري، ونوع المؤثرات واللمسات الموحية.. كلها غير معهود في طبيعة التصورات البشرية والمناهج البشرية، والطرائق البشرية في الأداء النفسي والتعبيري أيضاً..

والعرب لم يكن يخفى عليهم الشعور بهذا في قرارة نفوسهم. وأقوالهم ذاتها وأحوالهم تقرر أنهم ما كانوا يشكون في أن هذا القرآن من عند الله..

وهكذا يبدو أن هذه الاقتراحات لم تكن طلبا للبرهان إنما كانت وسيلة من وسائل الإعنات وأسلوباً من أساليب التعنت وخطة للمماحكة والمعاندة"[1]

"والعذاب الذي ينزله الله تعالى بالساخرين قسمان: عذاب بهلاك أو بآفات سماوية، كما أرسل على فرعون وقومه الجراد والقُمَّل والضفادع والدم آيات مفصلات، والآخر بأن يمن على أولئك الذين يُسخر منهم بالقوة والنصر والتأييد، على كل من المستهزئين الساخرين، كما كان الأمر بالنسبة للمشركين الذين كفروا برسالة محمد ﷺ " . زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٤٦)

[1] – في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٤٢ – ١٠٤١)

وبعد أن صبر رسوله بالآية السابقة ، وبعد أن أراهم آيات عقلية وسمعية، فلم ينفعهم ذلك، فأراد أن يريهم آيات حسـية ليمنعهم ذلك عن التكذيب والعناد ، فنراه حذر في هذه الآية القوم المستهزئين المستسخرين المكذبين إن هم أنكروا قصة إهلاك الأقوام السابقة ، وما حل بالمكذبين المستهزئين برسلهم .

وكان المخاطبون أمة أمية، لم تدرس الكتب ولم تجالس العلماء ؛ لذا أمروا بالسـير في الأرض، والنظر فيما حل بالمكذبين من ضُرَبائهم وأشكالهم ؛ ليعتبروا بذلك وتتظافر مع الإخبار الصادق الحس فللرؤية من مزيد الاعتبار ما لا يكون؛ لذا قال تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ هذه الجملة وِزانها وزان البيان لمضمون الجملة التي قبلها ولذلك فصلت، فإنّ الجملة التي قبلها تخبر بأنّ الذين استهزأوا بالرسل قد حاق بهم عواقب استهزائهم ، وهذه تحدوهم إلى مشاهدة ديار أولئك المستهزئين . وليس افتتاح هذه الجملة بخطاب النبي ﷺ منافياً لكونها بياناً؛ لأنّه خوطب بأن يقول ذلك البيان ، فالمقصودُ ما بعد القول ، حيث قال لرسوله : قل لهم لا تغتروا بما وجدتم من الدنيا وطيباتها ووصلتم إليه من لذاتها وشهواتها، بل سيروا في الأرض وسافروا فيها وانظروا واستخبروا لتعرفوا ما حل بهم ، وفكروا في أنفسكم، بالتفكر بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعاندوهم، بعدما كانوا فيه من النعيم العظيم الذي يفوق ما أنتم عليه فهذه ديارهم خربة وجناتهم مغبرة وأراضيهم مكفهرة ، وحل بهم خزيَ الدنيا وعارَها، وسَخَط الله، إضافة إلى البوار وخراب الديار وعفوِّ الآثار، وانظروا هل أفلت من حكمنا أحد، وهل وجد من دون أمرنا ملتحداً مع ما ادخر لهم من العذاب الأليم في الآخرة، وكيف نجى رسله وعباده المؤمنون ، وما وعدهم به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة ، فإذا كانت عاقبتهم هذه العاقبة ، فاعتبروا به، فإن لم تنهكم حُلُومكم، ولم تزجركم حُجج الله عليكم، عمَّا أنتم عليه مقيمون من التكذيب، فاحذروا مثل مصارعهم، واتقوا أن يحلّ بكم مثلُ الذي حلّ بهم ، فأنتم بهم لاحقون وبعد هلاكهم هالكون .

وليتأكد عندكم صحة ما أخبركم الرسول عنه من نزول العذاب على الذين كذبوا الرسل في الأزمنة السالفة، فإنكم عند السير في الأرض والسفر في البلاد لا بد وأن تشاهدوا تلك الآثار، فيكمل الاعتبار، ويقوى الاستبصار.

وفي هذه الآية تكملة للتسلية، بما في ضمنها من العدة اللطيفة، بأنه سيحيق بهم مثل ما حاق بأضرابهم المكذبين [1].

---

[1] - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٢٧٢) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٩) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٢/ ٦١) لطائف الإشارات للقشيري (١/ ٤٦٣) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٥٥) تفسير البغوي (٢/ ١١١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري (٢/ ٨) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٢/ ٢٧١) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٤٨٨) الجامع

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. السفر مندوب إليه إذا كان على سبيل الاعتبار بآثار من خلا من الأمم وأهل الديار[١].

٢. محمد رسـول الله ﷺ ليس بدعاً من الرسـل فيما يلقاه، إنما هذا الشـأن في كل دعوة جديدة[٢] .

٣. إن الله لَا يترك الظالمين يعيثون في الأرض فسـادًا ويؤذون أهل الإيمان؛ لذلك لَا بد أن ينزل بهم عقاب هذه السخرية في الدنيا والآخرة [٣].

٤. تسلية النبي ﷺ بالأسوة في الرسل وتقوية لنفسه على محاجّة المشركين[٤] .

٥. الآيات بمعنى المعجزات والخوارق لا تسـتلزم الإيمان ، بل قد تكون سـبباً للكفر والعناد، ولذا لم يستجب الله لقريش ولم يعط رسوله ما طالبوه به من الآيات[٥].

٦. إنكار رسالة البشر عام في كل الأمم ، وجاء قولهم :" ما هذا إلا بشر مثلكم" في آيات كثيرة في حين أن إرسـال الملائكة لا يتم معه هدف؛ لعدم قدرة الإنسـان على التلقي عن الملائكة والتفاهم معهم، ولو أنزل الله ملكاً رسولاً لقالوا نريده بشراً مثلنا ولحصل الخلط واللبس بذلك[٦].

٧. الاستهزاء بالرسل والدعاة سنة بشرية لا تكاد تتخلف ولذا وجب على الرسل والدعاة الصبر على ذلك[٧].

٨. مشـروعية زيارة القبور للوقوف على مصير الإنسـان ومآل أمره فإن في ذلك ما يخفف شهوة الدنيا والنهم فيها والتكالب عليها الذي هو سبب الظلم والفساد[٨].

٩. إباحة السير للتجارة وغيرها وإيجاب النظر في آثار الهالكين[٩].

لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٣٩٤) البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٤٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٢) الفواتح الإلهية للنخجواني (١/ ٢١٤) فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٤/ ١٠٩) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٢١) بتصرف وإضافة من الباحثة .

[١] – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٣٩٥)

[٢] – زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٤٤)

[٣] – المرجع السابق (٥/ ٢٤٤٤)

[٤] – المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٧٠)

[٥] – أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٤٠)

[٦] – المرجع السابق (٢/ ٤٠)

[٧] – المرجع السابق (٢/ ٤٠)

[٨] – المرجع السابق (٢/ ٤٠)

[٩] - أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٥٥)

١٠. في قوله: ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ فن يسمى رد الاعجاز على الصدور، وهو عبارة عن كل كلام بين صدره وعجزه رابطة لفظية غالباً، أو معنوية نادرا، ما تحصل بها الملاءمة والتلاحم بين قسمي كل كلام[1] .

١١. تعليم النبي ﷺ سنن الله فى الأمم مع رسلهم ، وبشارة له بحسن العاقبة وما سيكون له من الغلبة والسلطان، وما سيحل بأولئك المستهزئين من الخزي والنكال[2].

١٢. إثبات أن طلب المشركين المعاندين لَا نتيجة له، وأنهم ليسوا طلاب حق، بل متعنتون مستهزئون، لَا يريدون الحق أو الدليل عليه [3].

١٣. إن من الحكمة أَن يكون الرسول بشراً ، مؤيّداً من الله بالمعجزات حتى يمكن الاقتداء به[4].

١٤. في قوله : ﴿رَجُلًا ﴾ إشعار بأن الرسول لا يكون امرأة وهو متفق عليه [5].

١٥. أن النبوة فضل من الله تعالى فيختص بها من يشاء من عباده [6].

١٦. إذا اتجه القرآن الكريم إلى الإلزام والإفحام لا يلبث أن يأخذ بيد المعاند إلى الحقيقة يبينها واضحة جلية لا ريب فيها[7] .

١٧. ظن المشركون أن مساواتهم للنبي ﷺ في البشرية تقتضي مساواته في الاستعداد لرؤية الملائكة وتلقي العلم عنهم، وهذه أقوى شبهة للكفار على الوحي؛ فإنهم لغرورهم بأنفسهم ينكرون كل ما لا يصلون إليه بأنفسهم[8].

١٨. اقتضت رحمة الله تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلا منهم، ليدعو بعضهم بعضا، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤] [9] .

---

(١) - إعراب القرآن وبيانه (٣/ ٧٢)

(٢) - تفسير المراغي (٧/ ٨٢)

(٣) - زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٤٤)

(٤) - التفسير الوسيط - مجمع البحوث (٣/ ١٢٠٤)

(٥) - روح المعاني للآلوسي (٤/ ٩٣)

(٦) – المرجع السابق (٤/ ٩٦)

(٧) – المعجزة الكبرى القرآن (ص: ٢٧٦)

(٨) – تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٦١ – ٢٦٢)

(٩) – تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤١)

١٩. إمكان تمثيل الملائكة بصورة البشر وهو صحيح واقع بالنقل المتواتر(١).

٢٠. أن الله تعالى لم يستجب لمقترح الكفار ؛ تكريما للنبيّ الكريم، وتحقيقاً لوعده الذي وعده في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣] (٢)

٢١. الآيات الكريمة تصور مكابرة المشركين المتبجحة، وعنادهم الصفيق، وإدبارهم عن الحق مهما تكن قوة أدلته، ونصاعة حجته(٣).

٢٢. إن الكفر والجحود والإعراض سبب لعدم الإيمان بآية مهما تكن قوتها في الدلالة، لإعراض القلوب وعدم اتجاهها إلى الحق، بل إنها مظلمة معتمة لَا يدخل إليها النور مهما يكن وضاء(٤).

٢٣. إن الكفار لَا تجدي معهم معجزة ولا دليل، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[الأنعام: ١١١] (٥)

٢٤. شدة صلابة الكفار في الكفر(٦).

٢٥. الذي يجعل المعرضون يعرضون عن أيات الله، ليس لأن البرهان على صدقها ضعيف، أو غامض، أو تختلف فيه العقول، إنما الذي يجعلهم يقفون هذا الموقف هو المكابرة الغليظة والعناد الصفيق! وهو الإصرار مبدئياً على الرفض والإنكار وعدم اعتبار البرهان أو النظر إليه أصلاً! (٧)

٢٦. الإهلاك بسبب الذنوب له مظهران:

أحدهما – أن الذنوب ذاتها تهلك أمماً؛ إذ تشيع فيهم الترف والغرور والفساد في الأرض، وبذلك تنحل وتضمحل، وتذهب قوتها.

---

(١) – البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٤٣)

(٢) – التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٣٥)

(٣) – التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٤١)

(٤) – زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٤٢)

(٥) – المرجع السابق (٥/ ٢٤٤٢)

(٦) – فتح القدير للشوكاني (٢/ ١١٦)

(٧) – في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٣٩)

المظهر الثاني – إهلاك الله تعالى الأمم عقاباً على أوزارها، وإن الأمم إذا هلكت بسبب فسادها، جاء جيل يصلح أمرها، ويزيل أسباب الفساد، ويجدد المتخرب، وهو الجيل الذي ينشئه الله على آثار المفسدين، وهو غير الجيل السابق. [1]

٢٧. الالتفات في قوله: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ ، حيث إن السياق يقتضي: ما لم نمكن لهم، وإنما جاء باللفظ المذكور في الآية ؛ لتخصيص المرسل إليهم الرسول محمد ﷺ بالمواجهة، فضلا عن تطرية نشاط السامع. [2]

٢٨. وقع في القرآن: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ في بعض المواضع بغير واو كما في الأنعام وفي بعضها بالواو وفي بعضها بالفاء ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ، وهذه الكلمة تأتي على وجهين:

أحدهما: أن تتصل بما كان الاعتبار فيه بالمشاهدة فيذكر بالألف والواو ولتدل الألف على الاستفهام والواو على عطف جملة على جملة قبلها وكذلك الفاء لكنها أشد اتصالا مما قبلها.
والثاني: أن يتصل بما الاعتبار فيه بالاستدلال فاقتصر على الألف دون الواو والفاء ليجري مجرى الاستئناف [3] .

٢٩. الالتفات في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ لما في مواجهتهم بضعف حالهم من التبكيت ما لا يخفى. وقيل: ليتضح مرجع الضميرين ولا يشتبه من أول الأمر، وهي نكتة في الالتفات لم يعرج عليها أهل المعاني[4] .
٣٠. سبب جهل المشركين أنهم لا يميزون بين الآيات الصحيحة التي يؤيد الله بها رسله وبين الشعوذة وحيل السحرة المثيرة للدهشة والعجب[5].
٣١. الذنوب التي تدعو إلى الهلاك ضربان:

(١) معاندة الرسل والاستكبار والعتوّ والتكذيب.
(٢) كفران النعم بالبطر وغمط الحق وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء والإسراف فى الفسق والفجور والغرور بالغنى والثروة، كما جاء فى قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ

---

[1] – زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٣٩)
[2] – إعراب القرآن وبيانه (٣/ ٦٧)
[3] – البرهان في علوم القرآن (٤/ ١٥٠)
[4] – روح المعاني للآلوسي (٤/ ٩٠)
[5] – التفسير المنير للزحيلي (٦/ ١٧)

﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: ٥٨ – ٥٩] [١] .

٣٢. في الآيات رد على كفار مكة وهدم لغرورهم بقوتهم وثروتهم بإزاء ضعف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وفقرهم كما حكى الله عنهم فى قوله: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٥] [٢] .

٣٣. بيان أن القوم الذين يخلفون من نزل بهم عذاب الله لا بد أن يخلفوا عنهم في صفاتهم ؛ سواء كانوا من أبناء جنسهم أو من غيرهم ، فالعبر والحوادث واختلاف الزمن لها تأثير كبير فى النفوس تخفف من غلواء الناس ، وتقلل من بطشهم وعتوهم، وفى المشاهدة أكبر دليل على صحة ذلك[٣].

٣٤. وجوب الاعتبار والموعظة بحال من مضى من الأمم السالفة والقرون الخالية؛ فإنهم مع ما كانوا فيه من القوة ، وكثرة الأتباع وخصب العيش، أهلكوا بسبب الكفر والإثم ، فكيف حال من هو أضعف منهم خلقاً وأقل عُدداً وعَدداً، وهذا يوجب الانتباه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة[٤].

٣٥. إن الله تعالى لا يتعاظمه أن يهلك هؤلاء المشركين ، ويخلي ديارهم منهم، وينشئ أمة سواهم، فما هم بأعزّ على الله منهم. والرسول الذي كذبوه أكرم على الله من رسلهم. فهم أولى بالعذاب، ومفاجأة العقوبة، لولا لطفه وإحسانه[٥].

٣٦. في هذه الآيات بيان لكمال قدرته سبحانه وقوة سلطانه وأنه يهلك من يشاء ويوجد من يشاء[٦].

٣٧. النظر والاعتبار يُوجب للقلب الرقّة والانكسار. وهي عبادة كبرى عند العُباد والزهاد، أُولي العزم والاجتهاد[٧].

---

(١) – تفسير المراغي (٧/ ٧٦)

(٢) – المرجع السابق (٧/ ٧٦)

(٣) – تفسير المراغي (٧/ ٧٦)

(٤) – فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٤/ ١٠٥)

(٥) – محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣١٧)

(٦) – فتح القدير للشوكاني (٢/ ١١٦)

(٧) – البحر المديد لابن عجيبة (٢/ ٩٩)

٣٨. بيان أن سُنَّة الله في القرون التي قد خلت من قبل الاستئصال والعذاب لكلِّ من كذّب بالحق ودين أنبياء الله عليهم السلام .

٣٩. الرَّد على كلِّ مَن تكبر وتَجبَّر وأصابه الغرور بسبب قوة عَدده وعُدّته وثرواته ؛ واستخدمها ضدّ الإسلام والمسلمين بأن الله كما أهْلَكَ القرون الماضية بسبب الكفر والكبر والعناد ، قادرٌ على إهلاككم أيها الكفرة المتكبرون ، لأن لسان حال الجميع هو كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سبأ: ٣٥] فهذا حال الجميع حتى يأتيهم عذاب الله من حيث لا يحتسبون . والله أعلم .

٤٠. الآيات مقدمة استهلالية بين يدي حكاية بعض أقوال ومواقف الكفار، إن الآيات تلهم أن الكفار كانوا يعترفون بالله وكونه صاحب الأمر في الكون، وأنهم كانوا يعرفون خبر الأمم السابقة التي أهلكها الله لمواقفهم من رسله وآياته، وبهذا وذاك تبدو قوة الحجة والإلزام في الآيات وهذا وذاك مما قررته آيات وفصول قرآنية كثيرة[1] .

٤١. الدلالة على أن التقليد باطل، والتأمل في الدلائل واجب، ولولا ذلك لما ذم الله المعرضين عن الدلائل[2]

٤٢. بيان أن مَن وَحَّدَ الله تعالى في ربوبيته لَزِمَه توحيد الله في ألوهيته، وهذه هي طريقة القرآن الكريم أنه يستدل بالربوبية على الألوهية .

٤٣. بيان أن عدم اتباع الحق والتكبر عليه هو سببُ كلَّ بلاءٍ وخسران ، وهو سببُ الوقوعِ في المعاصي والإشراك والعياذ بالله .

٤٤. في الآيات إشارات بيانية تؤكد أنهم مخاطبون بالرسالة ، ومعاقبون على الإعراض[3].

٤٥. بيان أن الغرض من الخبر حصول العلم بالمخبر عنه، وذلك إنما يتحقق بعد المعاينة .

٤٦. بيان أن مَن سبق له الخُذلان لا تنفعه الأدلة وتواتُر البرهان، ولا تزيده ظهور المعجزات أو الكرامات إلا التحاسد وظهور العداوات، ولا يزيده الدعاء إلى الله والتناد، إلاَّ الإعراض عنه والبعاد[4].

---

[1] – التفسير الحديث (٤/ ٦٥)

[2] – مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٤٨٣)

[3] – زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٣٧)

[4] – البحر المديد لابن عجيبة (٢/ ٩٨)

٤٧. في هذه الآيات عبرة لنا في حال الذين أضاعوا الدين، من أهل التقليد الجامدين، وأهل التفرنج الملحدين، فهي تنادي بقبح التقليد وتصرح بوجوب النظر في الآيات والاستدلال بها، وبأن التكذيب بالحق والحرمان منه معلول للإعراض عنها، وتثبت أن الإسلام دين مبني على أساس الدليل والبرهان، لا كالأديان المبنية على وعث التقليد للأحبار والرهبان أو الرؤساء والكهان، ولولا حفظ الله جل وعلا لهذا القرآن وتوفيقه سلف الأمة للعناية بتدوين سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم وأخذ طائفة من أهل النظر بهديهما في كل زمان، لضاع من الوجود هذا الإسلام كما ضاعت من قبله سائر الأديان[1] .

٤٨. بيان أن الحق حقه أن يتبع، ويشكر الله على تيسيره لهم، وإتيانهم به، فقابلوه بضد ما يجب مقابلته به فاستحقوا العقاب الشديد [2].

٤٩. بيان أن الباطل مهما كانت قوته فإن نِهايته ونِهايةَ أهله هي الخسران في الدارين، وأن العاقبة والنجاة للحق وأهله ، حتى ولو طال انتظار الفرج والنصر ، فإنه آتٍ لا محالة كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠ ﴾[يوسف: ١١٠] - والله أعلم - .

٥٠. يستنبط من الآيات أهمية عبادة التفكر ، والاعتبار بمن سبق حتى يكونوا سبباً في ترك طريق الباطل والتزام سبيل الحق .

٥١. احتاجت عملية الإخراج من الظلمات إلى النور إلى جهود الأنبياء والرسل، واقتضت إنزال الكتب الهادية، وتوقفت على جهاد البشر مع مقتضيات حياتهم وأحوال معاشهم. ولقد خُلق الإنسان في وهن، ولكنه أعطي قدرة التحليق والتجريد والإبداع والتدبر والتأمل – والله أعلم – .

---

[1] – تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٥٤- ٢٥٥)

[2] – تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ٢٥٠)

المطلب الثالث : دلائل قدرة الله المستلزمة للتدبر (١٢ – ١٨)

يقول الله سبحانه تعالى : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

أولاً : **تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :**

اعلم أن المقصود من تقرير هذه الآية تقرير إثبات الصانع، وتقرير المعاد وتقرير النبوة.

وبيانه أن أحوال العالم العلوي والسفلي يدل على أن جميع هذه الأجسام موصوفة بصفات كان يجوز عليها اتصافها بأضدادها ومقابلاتها، ومتى كان كذلك، فاختصاص كل جزء من الأجزاء الجسمانية بصفته المعينة لا بد وأن يكون لأجل أن الصانع الحكيم القادر المختار خصه بتلك الصفة المعينة، فهذا يدل على أن العالم مع كل ما فيه مملوك لله تعالى.

وإذا ثبت هذا، ثبت كونه قادرا على الإعادة والحشر والنشر، لأن التركيب الأول إنما حصل لكونه تعالى قادرا على كل الممكنات، عالما بكل المعلومات، وهذه القدرة والعلم يمتنع زوالهما، فوجب صحة الإعادة ثانيا. وأيضا ثبت أنه تعالى ملك مطاع، والملك المطاع من له الأمر والنهي على عبيده، ولا بد من مبلغ، وذلك يدل على أن بعثة الأنبياء والرسل من الله تعالى إلى الخلق غير ممتنع. فثبت أن هذه الآية وافية بإثبات هذه المطالب الثلاثة. ولما سبق ذكر هذه المسائل الثلاثة، ذكر الله بعدها هذه الآية لتكون مقررة لمجموع تلك المطالب .

ولقد ذكر هلاك الأمم وما حل بهم دل بذلك دلالة واضحة أن كل ما في الكون مسخر من عند الله وأن بيده أن يجعل مافي هذا الكون إما رحمة وإما عذاباً ، مخلوقات كثيرة ما لا نعلمه منها أكثر مما نعلمه ، وما لا نراه منها أكثر من الذي نراه ، كلهم جنود لله خاضعون لعظمة الله جل جلاله ، وعز كماله وتعالت عظمته ، لا يستطيع البشر ردها ، ولا يملكون السيطرة عليها ، ولا يستطيعون أن يوقفوا انتشارها ، ولا يقدرون على دفعها أو ردها ، سواء كانت عذاباً كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[النحل: ٤٥] ، وفي قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنتُمۡ

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾[الإسراء: ٦٨ – ٦٩] وكذلك في قوله تعالى : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك: ١٦ – ١٧]

أو كانت من باب رحمة الله كما جاء في قوله تعالى : ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾[فاطر: ٢]

وبالنظر في الآيات الشرعية من الكتاب والسنة التي ورد الحديث عنها مباشرة في الآيات السابقة لهذه الآيات ، والنظر في الآيات الكونية التي هي المخلوقات ، يتبين أن هذه المعرفة تستلزم قبول ما شرعه الله تعالى والانقياد له حيث إن معرفة الله تعالى هي أساس الدين، ولا يكون الإنسان على حقيقة من دينه إلا بعد العلم بالله تعالى ، والإنسان كلما نظر في تلك الآيات ازداد علماً بخالقه ومعبودة قال الله عز وجل: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الذاريات: ٢٠ – ٢١] والتالي فإن الله تعالى ينهى عن الإلحاد في آياته ؛ سواء كان في الآيات الشرعية، وهي ما جاءت به الرسل من الأحكام، والأخبار، بتحريفها، أو تكذيب أخبارها، أو عصيان أحكامها، أو يكون في الآيات الكونية، وهي ما خلقه الله، ويخلقه في السماوات والأرض بنسبتها إلى غير الله، أو اعتقاد شريك أو معين له فيها – والله أعلم –

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

ابتدأ بإبطال أعظم ضلالهم. وهو ضلال الإشراك. وأدمج معه ضلال إنكارهم البعث المبتدأ به السورة بعد أن انتقل من ذلك إلى الإنذار الناشئ عن تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم، ولذلك لما كان دليل الوحدانية السالف دالا على خلق السماوات والأرض وأحوالها بالصراحة، وعلى عبودية الموجودات التي تشملها بالالتزام، ذكر في هذه الآية تلك العبودية بالصراحة فقال: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ﴾ حيث إن هذه الجملة تكرير في مقام الاستدلال، فإن هذا الاستدلال تضمن استفهاماً تقريرياً، والتقرير من مقتضيات التكرير، لذلك لم تعطف الجملة والاستفهام مستعمل مجازا في التقرير.

والاستفهام يتضمن معنيين:

---

(١) – بتصرف من : مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٤٨٨) حصول المأمول بشرح ثلاثة الأصول (ص: ١٤) شرح ثلاثة الأصول للعثيمين (ص: ١٩) فتح رب البرية بتلخيص الحموية (ص: ٢٢) مع إضافة من الباحثة .

أولهما – التنبيه إلى أن الله تعالى يملك السماوات والأرض ومن فيهن من أقوياء وضعفاء، ومن إنس وجن، ومن ملائكة أطهار لَا يعصون الله تعالى ويفعلون ما يؤمرون، ومن أخيار في الأرض وأشرار، فالجميع في قبضة يده سبحانه وتعالى، ولا أحد فوق سلطانه .

والمعنى الثاني – تبكيتهم، وبيان أنهم ومن هم أقوى منهم في قبضة يده سبحانه.

والتقرير هنا مراد به لازم معناه، وهو تبكيت المشركين وإلجاؤهم إلى الإقرار بما يفضي إلى إبطال معتقدهم الشرك، فهو مستعمل في معناه الكنائي مع معناه الصريح، والمقصود هو المعنى الكنائي.

ولكونه مرادا به الإلجاء إلى الإقرار كان الجواب عنه بما يريده السائل من إقرار المسئول محققا لا محيص عنه، إذ لا سبيل إلى الجحد فيه أو المغالطة، فلذلك لم ينتظر السائل جوابهم وبادرهم الجواب عنه بنفسه بقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ أي خلقاً وملكاً وعبيداً ، وهذا تقرير لهم، أى هو– الله– لا خلاف بيني وبينكم، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئاً منه إلى غيره ليكون أول من بادر بالاعتراف بذلك.

ومن يلاحظ يجد أنه جاء السؤال والجواب من جهة واحدة، وهذا إخبار عن عظم ملكه ، وأمر بالجواب عقيب السؤال مباشرة ؛ ليكون أبلغ في التأثير، وآكد في الحجة؛ لأن من سأل غيره عن شيء ثم عقبه بالجواب كان ذلك أبلغ تأثيراً ، وإنما يحسن أن يكون السائل مجيباً عن سؤاله، إذا علم أن خصمه لا يخالفه في الجواب الذي به يقيم الحجة عليه ، وكان ذلك تبكيتاً لهم، حيث أمر محمداً عليه السلام بقطعهم بهذه الحجة الساطعة والبرهان القطعي الذي لا مدافعة فيه عندهم ولا عند أحد ؛ والوجه في المحاجّة إذا سأل الإنسان خصمه، بأمر لا يدافعه الخصم فيه، أن يسبقه بعد التقرير إليه مبادرة إلى الحجة ؛ لأن الكلام مسوق مساق إبلا غ الحجة مقدرة فيه محاورة وليس هو محاورة حقيقية. وهذا من أسلوب الكلام الصادر من متكلم واحد. فهؤلاء القوم المقدر إلجاؤهم إلى الجواب سواء أنصفوا فأقروا حقية الجواب أم أنكروا وكابروا فقد حصل المقصود من دمغهم بالحجة[1].

واللام في قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ للملك ، دلت على عبودية الناس لله دون غيره، وتستلزم أن العبد صائر إلى مالكه لا محالة، وفي ذلك تقرير لدليل البعث السابق المبني على إثبات العبودية بحق الخلق. ولا سبب للعبودية أحق وأعظم من الخالقية، ويستتبع هذا الاستدلال الإنذار بغضبه على من أشرك معه.

[1] – وهذا أسلوب متبع في القرآن، فتارة لا يذكر جواب منهم كما هنا، وكما في قوله تعالى: قل من رب السماوات والأرض قل الله [الرعد: ١٦] ، وقوله: قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى – إلى قوله– قل الله [الأنعام: ٩١] ، وتارة يذكر ما سيجيبون به بعد ذكر السؤال منسوبا إليهم أنهم يجيبون به ثم ينتقل إلى ما يترتب عليه من توبيخ ونحوه، كقوله تعالى: قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون– إلى قوله– قل فأنى تسحرون [المؤمنون: ٨٤– ٨٩] . التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٥٠)

وهذا استدلال على المشركين بأن غير الله ليس أهلاً للإلهية، لأن غير الله لا يملك ما في السماوات وما في الأرض إذ ملك ذلك لخالق ذلك. وهو تمهيد لقوله بعده :﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ لأن مالك الأشياء لا يهمل محاسبتها.

ثم إنه تعالى لما بين بهذا الطريق كمال إلهيته وقدرته ونفاذ تصرفه في عالم المخلوقات بالكلية، وإذا ثبت أن له ما في السموات والأرض إما باعترافهم أو بقيام الحجة عليهم فالله قادر على أن يعاجلهم بالعقوبة ولكنه أردفه بكمال رحمته وإحسانه إلى الخلق فقال : ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ وهذا اللفظ نفسه مشعر برحمة الله جل وعلا بعباده، فعندما يأتي سؤال قرآني إلهي: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ويأتي الجواب الإلهي:﴿ قُل لِّلَّهِ ﴾ يصيب ذلك القلوب التي تعرف الله بالخوف، فلكي تسكن تلك القلوب وتطمئن فيبين الله جل وعلا أن رحمته واسعة، فقد أخبر الله جل وعلا بلازم فضل ألزم به نفسه؛ لأن الله لا ملزم له، أي أن الله تعالى الذي تقرون معي بأن له ما في السماوات وما في الأرض قد وعد بالرحمة وعداً مؤكداً وهو منجزه لا محالة ، وأصل ﴿ كَتَبَ ﴾ أوجب ولكن لا يجوز الإجراء على ظاهره إذ لا يجب على الله شيء للعبد فالمراد به ما تقدم ، وذكر النفس للاختصاص ورفع الوسائط ، وتعلم الرحمة من إفاضة نعمه عليهم ظاهرة وباطنة ، والرحمة تعم الدارين ؛ ومن ذلك الهداية إلى معرفته، والعلم بتوحيده بنصب الأدلة ،وإنزال الكتب ، وتفضل على العباد بأن أمهَلَهُم عِنْدَ كفرهم ، وَإِقْدَامِهم على كبائِرِ مَا نَهاهُم عَنْه ، وأَنْظَرَهُم وَعَمَّرهم وَفَسَح لَهُم ليَتوبُوا، ولو شاء لسلط عليهم المضار وجعل عيشهم من غير اللذيذ كالتراب وبعض القاذورات التي تعيش فيها الحيوانات.

وهذا من الله تعالى ذكره استعطاف للمعرضين عنه إلى الإقبال إليه بالتوبة. ومن رحمته بأنه يُمْهلكم إلى يوم القيامة، وأمد لكم في العمر والرزق مع كفركم .

ولولا هذه الرحمة لما تنفس الكافر نفساً فى هذه الحياة، ولما أمهل فى محادّته لله، وعدوانه على رسله، ولكن رحمة الله التي وسعت كل شىء، لم يحرم الكافر نصيبه منها، فأفسح الله له فى الحياة، ليرجع إليه، ويصلح من أمره ما أفسده.

ومن رحمته أن خلقهم على الفطرة السليمة، وهداهم إلى معرفته وتوحيده، بنصب الآيات الأنفسية والآفاقية، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب المشحونة بالدعوة إلى موجبات رضوانه، والتحذير عن مقتضيات سخطه.

ومن رحمته أن خلقهم على الفطرة السليمة، وهداهم إلى معرفته وتوحيده، بنصب الآيات الأنفسية والآفاقية، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب المشحونة بالدعوة إلى موجبات رضوانه، والتحذير عن مقتضيات سخطه ، وهو ما أقرته الآيات السابقة .

والإخبار بأن لله ما في السماوات وما في الأرض يثير سؤال سائل عن عدم تعجيل أخذهم على شركهم بمن هم ملكه. فالكافر يقول: لو كان ما تقولون صدقا لعجل لنا العذاب، والمؤمن يستبطىء تأخير عقابهم، فكان قوله: كتب على نفسه الرحمة جوابا لكلا الفريقين بأنه تفضل بالرحمة، فمنها رحمة كاملة: وهذه رحمته بعباده الصالحين، ومنها رحمة موقتة وهي رحمة الإمهال والإملاء للعصاة والضالين.

والعلم به رحمة أيضا؛ لأنه وازع نفسي لا يتم تهذيب النفس بدونه، بل الرحمة أعم من ذلك، فمن رحمته تعالى بالناس ما منحهم من هدايات الحواس والوجدان والعقل وهداية الدين المقاومة لما يجنونه على تلك الهدايات باستعمالها فيما يضرهم ولا ينفعهم، والمساعدة لهم على تكميل فطرتهم وتزكية أنفسهم .

ومن مقتضى هذه الرحمة أيضاً أن يجمعكم إلى يوم القيامة حال كونه لا ريب فيه أو جمعاً ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ اللام لام القسم، والنون نون التأكيد فإنه لا شك فيه ، والجملة استئناف مسوق للوعيد، على إشراكهم وإغفالهم النظر، لأنه لما بين كمال إلهيته بقوله : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ ﴾ ثم أخبر بأنه يرحمهم في الدنيا بالإمهال، ودفع عذاب الاستئصال؛ أعلَمَ وأخبر أنه يجمعهم لذلك اليوم، ويحاسبهم على كل ما فعلوا، لأن الملك الحكيم لا يهمل أمر رعيته، ولا يسوغ في حكمته أن يسوي بين المطيع والعاصي .

فليس من شأنه أن يرتاب فيه من تدبر دلائل رحمة الله وحكمته، فإن هذا الجمع لأجل الحساب والجزاء، وهو رحمة بالمكلفين ينافي الفوضى والإهمال واستباحة الظلم، وهو دليل على العدل والحكمة ، فمن مقتضى كتابته سبحانه الرحمة على نفسه أن يجمع الناس للفصل بينهم، وجزاء كل منهم بما يقتضيه العدل في الكل والفضل في البعض ، إذ لو لم يجمعكم للحساب والجزاء لظل كثير من المحسنين منكم مغبونين محرومين، وكثير من المظلومين مهضومين، وكثير من الظالمين المسيئين غير مؤاخذين ، ولولا خوف العذاب يوم القيامة لحصل الهرج والمرج ولارتفع الضبط وكثر الخبط، فصار التهديد بيوم القيامة من أعظم أسباب الرحمة في الدنيا، ثم قال : ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ومعنى خسروا أنفسهم أضاعوها ، وعدموا فائدة الانتفاع بما ينتفع به الناس من أنفسهم ؛ وهو العقل والتفكير، فإنه حركة النفس في المعقولات لمعرفة حقائق الأمور. وذلك أنهم لما أعرضوا عن التدبر في صدق الرسول- عليه الصلاة والسلام- فقد أضاعوا عن أنفسهم أنفع سبب للفوز في العاجل والآجل، فكان ذلك سبب أن لا يؤمنوا بالله والرسول واليوم الآخر. فعدم الإيمان مسبب عن حرمانهم الانتفاع بأفضل نافع، ويتسبب عن عدم الإيمان خسران آخر، وهو خسران الفوز في الدنيا بالسلامة من العذاب، وفي الآخرة بالنجاة من النار، وذلك يقال له خسران ولا يقال له خسران الأنفس. وقد أشار إلى الخسرانين قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[هود: ٢١ - ٢٢].

وإنما عبر عن الكفار بالرسالة المحمدية، والوحدانية واليوم الآخر بالذين خسروا أنفسهم، وجعل الكفر نتيجة للخسران، فالخسران يبتدئ، والكفر نهايته، أو هما متلازمان، فالخسران سابق ولاحق لأنه يترتب على الكفر خسران متضافر.

والخسران الذي يسبق الكفر هو خسران الفطرة، فلا يكفر بالدليل القاطع إلا من يخسر فطرته وخسران الإدراك السليم؛ لأنه لَا يكفر بوجود الله إلا من ينسى أن كل أثر له مؤثر، وكل موجود له موجد، وخسروا عقولهم إذ سيطرت الأوهام عليهم، فأشركوا مع الله أحجارا تحطم، وأوثانا تصنع، ونجوما تأفل، وخسروا نفوسهم فصارت معوجة، وخسروا قلوبهم فصارت مظلمة، وإذا كانت كل مداركهم قد سدت فهم لَا يؤمنون؛ لأن الإيمان يحتاج إلى قلب مخلص، وعقل مدرك، وإذعان للحق إذا بدت معالمه، وظهرت أماراته، وإنهم بعد الكفر يزيدون خسرانا، إذ كل إنكار للحق خسران في ذاته؛ لأنه نزول عن مرتبة الإنسانية السامية .

وإهلاكهم أنفسهم وغَبْنهم إياه حظَّها وذلك بإبطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك في التقليد وإغفال النظر أدّى بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع عن الإيمان ، فلا يوحّدون الله، ولا يصدِّقون بوعده ووعيده، ولا يقرُّون بنبوة محمد ﷺ لذلك قال : ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ حيث عبر بالمضارع للإشارة إلى أنهم لَا يكون الإيمان شأنا من شئونهم، ذلك لأن من امتلأت نفسه بالأوهام وصارت عشاً لها، وضلت عقولهم لَا يمكن أن تذعن لشيء، بل هي دائما مضطربة حائرة تنتقل من ضلال إلى ضلال، ومن متاهة إلى مثلها، كمن يضل في بيداء كلما أوغل زاد ضلالاً .(١)

ولما كان هؤلاء المشركون لا يؤمنون بالله ، ويخلصوا له التوحيد، ويُفْرِدوا له الطاعة، ويقرّوا بالألوهية، جهلاً ؛ احتج عليهم بما يقرون ؛ لأنهم لم يُنْكِرُوا أنَّ مَا استقر فِي الليل والنَّهَارِ لِلَّهِ، أي هو خالقه وَمُدَبِّره ، فبعد ذكره في الآية السابقة السموات والأرض، إذ لا مكان سواهما. ذكر في هذه الآية ذكر الليل والنهار إذ لا زمان سواهما، فالزمان والمكان ظرفان للمحدثات، فأخبر سبحانه أنه مالك للمكان والمكانيات، ومالك للزمان والزمانيات، وهذا بيان في غاية الجلالة ؛ فنجده ابتدأ بذكر المكان والمكانيات، ثم ذكر عقيبه الزمان والزمانيات، وذلك لأن المكان والمكانيات أقرب إلى العقول والأفكار من الزمان والزمانيات .

---

(١) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٢٧٣ – ٢٨١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٣١ - ٢٣٢) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٥٥) تفسير السمعاني (٢/٩١) الكشاف للزمخشري (٢/ ٨) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٧١) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٤٨٩) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٣٩٥) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٥٥) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٤٩٣) التسهيل لابن جزي (١/ ٢٥٥) تفسير الخازن = لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/ ١٠١) . تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٣) اللباب لابن عادل (٨/ ٤٤) نواهد الأبكار وشوارد الأفكار = حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي (٣/ ٣٣٧) السراج المنير للشربيني (١/ ٤١٢) البحر المديد لابن عجيبة (٢/ ١٠٢) فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٤/ ١١٠) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٢٢) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٧٢) تفسير المراغي (٧/ ٨٦) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٣٨) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٥٠ – ١٥٤) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٤٨) مع تصرف وإضافة من الباحثة .

فقال معظماً نفسه كي يوحد :﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ ﴾ يعنى ما حل واستقر ﴿ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ فنراه تعدى الى المكان بـ ﴿ فِي ﴾ كما فى قوله تعالى : ﴿ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾ [إبراهيم: ٤٥] وعدى هاهنا الى الزمان اتساعاً والمراد كل ما يمر عليه الليل والنهار من الدواب والطير في البر والبحر؛ فمنها ما يستقر بالنهار وينتشر ليلاً، ومنها ما يستقر بالليل وينتشر نهاراً، بل له ملك كل شيء؛ لأنه لا شيء من خلق الله إلا وهو ساكنٌ في الليل والنهار[1]، فالتعبير بـ ﴿ مَا ﴾ في قوله: ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ للدلالة على العموم.

وقيل: حذف ذكر الحركة واكتفى بذكر السكون كقوله:﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ ﴾[النحل: ٨١] لأن السكون أعم، ولأن مآل كل متحرك إلى السكون فكل متحرك قد يسكن، وليس كل ساكن يتحرك ، والأول أولى لعدم احتمال الحذف ، ولَا مانع من أن يراد المعنيان معا، إذ يعلم سبحانه كل ما استقر في السماوات والأرض، ويعلم حركاتهما وسكناتهما.

وهذا إنباء أن الخلق كلهم تحت قهر الليل والنهار وسلطانهما، مقهورين مغلوبين ، فاللام في "له" للملك .

وفى هذا النص الكريم إشارة إلى أنه سبحانه وتعالى يملك الناس وما حولهم لَا يخرجون عن قدرته، وهو المهيمن عليهم، إن شاء خسف بمن يخالفه، وأهلكهم، ولم يجعل من الكافرين ديَّارًا، وأنه عليم بما يكون من الطائعين، فيجزيهم ويهديهم، وما يكون من العصاة، فيعاقبهم ويرديهم .

ولما ذكر أنه المتصرف فيه بقدرته بما يشاء كما هو شأن الربوبية الكاملة ذكر بأنه ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لكل ما سكن بما فيه ما يقول هؤلاء المشركون فيه، من ادّعائهم له شريكًا، ويسمع نداء المحتاجين ، وما يقول غيرهم من خلقه ﴿ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ بما يضمرونه في أنفسهم، وما يظهارونه بجوارحهم، لا يخفى عليه شيء من ذلك، فهو يحصيه عليهم، ليوفّي كل إنسان ثوابَ ما اكتسبَ، وجزاء ما عمل، ويعلم حاجات المضطرين فيوصل كل ممكن إلى كمال يليق به ويستعدّ له ، وجاء بالضمير " هو" لوعيده للمشركين على أقوالهم وأفعالهم.

ثم إن علاقة تقديم الليل على النهار مع تقديم اسم السميع لله على اسم العليم؛ لأن السمع بالليل أدق وأقوى، وتحصيل العلم وتعليمه للناس يتصل بالنهار أكثر من الليل[2] .

---

[1] – اشتقاقه من السكنى كما يقال: فلان سكن ببلد كذا أي حل فيه. والمراد كل ما حل في الوقت والزمان سواء كان متحركا أو ساكنا، وذلك أن الدخول تحت الزمان يستلزم التغير والحدوث فلا بد له من محدث يتقدم عليه وعلى نفس الزمان ، غرائب القرآن للقمي (٣/ ٥٦)

[2] – انظر : تفسير مقاتل بن سليمان (١/ ٥٥٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٢٨١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٣٢) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣٢) النكت والعيون للماوردي (٢/ ٩٧) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٥٦) غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني (١/ ٣٥٤) تفسير ابن عطية المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٢٧٢) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ١٣) مفاتيح

ثم زَادَ في الاحتجاج والبيان باستفهام معناه الإنكار ؛ فالاستفهام الإنكاريّ أقوى قوة في إظهار الولاء الخالص لله، والثبات عليه من الخبر التقريريّ بالولاء، حيث إنه لما قرر معهم أن الله وحده هو الخالق، وأن الله وحده هو المالك له ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وأنه سميع عليم ؛ فإنه لما تقرر بالقول، السابق عبودية ما في السماوات والأرض لله وأن مصير كل ذلك إليه انتقل إلى تقرير وجوب إفراده بالعبادة، لأن ذلك نتيجة لازمة لكونه مالكاً لجميع ما احتوته السماوات والأرض .

والاستنكار بالنسبة لرسول الله ﷺ استنكارًا للوقوع فهو بمعنى النفي عنه ﷺ أي لَا يمكن أن يقع منه ﷺ وبالنسبة لهم استنكار عنيف للاستنصار بغير الله فأمر أن يقول لهم على جهة التوبيخ والتوقيف فقال: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ ﴾ الذي هذه صفاته ﴿أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ ، بكل معاني كلمة "الولي" . أي اتخاذه وحده رباً ومولى معبوداً يدين له العبد بالعبودية ممثلة في الخضوع لحاكميته وحده ويدين له بالعبادة فيقدم له شعائرها وحده ، واتخاذه وحده ناصراً يستنصر به ويعتمد عليه، ويتوجه إليه في الملمات ويستعان به على النوائب والحوادث ، ذى الحول والطول، وذى القدرة التي لا يعجزها شى.. تلك القدرة التي كان من صنعتها هذا الوجود كلّه .

يريد الحق لرسوله أن يستخرج من الناس الإجابة، لا أن يقول هو: لا أتخذ ولياً غير الله، وسبحانه يأمر رسوله أن يسألهم: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ وليكن السؤال مطروحاً منك يا رسول الله تبليغاً عن الله، وتعطى لهم الحرية في الإجابة، وسيكون الجواب كما تريد.

وعندما يسمع الإنسان مثل هذا السؤال لا بد أن يسأل نفسه ويدير عقله كي يجد جواباً. ولن يجد الإنسان جواباً سوى أن يقول: ليس لي وَلِيٌّ غير الله؛ فالولي هو القريب الذي ينصر الإنسان في ضعفه، وإن استصرخه جاء لينقذه.

ولا يستصرخ الإنسان أحداً إلا إذا انتابه حادث جلل، فإذا ما جاء القوي ليغيث صاحبه فهو يطمئن إلى أن من جاءه سيعينه ويخلصه، واتخاذ الولي أمر فطري في الكون، والأمر المنكر أن يجعل الإنسان لنفسه ولياً غير الله تعالى .

إن هذه القضية هي قضية العقيدة في صميمها، فإما إخلاص الولاء لله- بهذه المعاني كلها- فهو الإسلام، وإما إشراك غيره معه في أي منها، فهو الشرك الذي لا يجتمع في قلب واحد هو والإسلام! إن هذا خطأ بين لو فعلته وهو العبودية لغير الله، والولاء لغير الله ، فالله ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ مبتدعهما ومبتدئهما وخالقهما ؛ فعظم نفسه ليعرف توحيده بصنعه، ثم جاء ثناء الله على ذاته العلية، وأعظم ما في

الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٤٩٠) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٥٦) غرائب القرآن للقمي (٣/ ٥٦) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٧٥) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٥٢) التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية (ص: ١٤٢) مع تصرف وإضافة من الباحثة

القرآن ثناء الله على نفسه، ولا يوجد شيء يرقق القلوب أعظم من أن تقرأ ثناء الله على نفسه؛ لأنه لا أحد أعلم بالله منه .فقال : ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ وَهُوَ يرزق وَلا يرزق كما أن بعض الْعَبيد يَرْزُق مولاه.

بمعنى ليس كمن له عبيد في الشاهد يرزق بعضهم بعضًا، الموالي من العبيد، والعبيد من السادات، ينتفع بعضهم من بعض، فاللَّه سبحانه وتعالى خلق الخلق لا لمنفعة نفسه؛ لأنه غني بذاته، والخلق فقراء إليه؛ كقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر: ١٥] فهو لا يأكل لأنه الحي الذي ليس كمثله شيء ، بعكس من اتخذوهم المشركون أولياء من دونه من البشر فهم محتاجون إلى الطعام، لا حياة لهم ولا بقاء إلى الأجل المحدود بدونه، وأن الله تعالى هو الذي خلق لهم الطعام، فهم عاجزون عن البقاء بدونه وعاجزون عن خلقه وإيجاده، فكيف يتخذون أولياء مع الغني الحميد، الرزاق الفعال لما يريد [١]
.

وخص الإطعام من أنواع الرزق وغيره من ضروب الإنعام، لمسّ الحاجة إليه وشهرته والحاجة إليه أمس لجميع الأنام ، والطعام لون من الرزق، والرزق كما نعلم رزق ينتفع به مباشرة؛ ورزق يأتي لنا بما ننتفع به مباشرة. فلو إن إنساناً في صحراء ومعه جبل من الذهب الخالص ولم يجد كوب ماء ولا رغيف خبز، فجبل الذهب لا يساوي شيئاً.

إن جبل الذهب رزق ولكن لا ينتفع به مباشرة. والرزق الذي ننتفع به مباشرة هو الطعام والشراب والكسوة. ونحن نحتاج إلى الطعام والشراب كل يوم، ونحتاج إلى ملابس جديدة مرة كل ستة أشهر في المتوسط. إذن فالرزق المباشر هو المقوّم الأساسي للحياة.

والولي الذي ينصر لا بد أن تتوافر فيه القدرة على الإطعام الذي يمدنا بالقدرة التي هي أساس الحياة وهي طاقة استمرار الإنسان على الأرض.

وإذا ثبت أنه فطر السَّمَاوَات والأرض، وأَنشأ ما فيهما، وأحكم تدبيرهما، وأطعم من فيهما بمحض إرادته من غير تأثير مؤثر ولا شفاعة شافع يجب أن يتوجه إليه وحده بالدعاء، وإياه يستعان في كل ما وراء الأسباب، وامتنع في العقل اتخاذ غيره ولياً ؛ لأن ما سواه محتاج في ذاته وفي جميع صفاته وفي جميع ما تحت يده. والحق سبحانه هو الغني لذاته الجواد لذاته، وترك الغني الجواد، والذهاب إلى الفقير المحتاج ممنوع عنه في صريح العقل.

---

(١) – كما قال في الاحتجاج على النصارى في عبادة المسيح وأمه عليهما السلام: (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) وإذا كان الإنكار توجه إلى البشر فأولى به أن يتوجه إلى الأصنام والأوثان لأنها أضعف من البشر إذ قد اتفق العقلاء على تفضيل الحيوان على الجماد والإنسان على جميع أنواع الحيوان تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٧٧). تفسير المراغي (٧/ ٨٩)

وفرق بين أن يقال أغير الله أتخذ وليا وبين أن يقال: أتخذ غير الله وليا لأن الإنكار إنما حصل على اتخاذ غير الله وليا، لا على اتخاذ الولي، فقدم الأهم فالأهم ، ولهذا السبب دخل الاستفهام على الاسم دون الفعل .

إن اتخاذ الله كولي هو أمر ضروري؛ لأن الإنسان تطرأ عليه أحداث تؤكد له أنه ضعيف وله أغيار، وساعة ضعف الإنسان لا بد أن يأوي إلى من هو أشد منه قوة ولا يتغير. إن الولي – وهو الله – قوته لا يمكن أن تصير ضعفاً، وغناه لا يمكن أن ينقلب فقراً، وعلمه لا يمكن أن يئول إلى جهل. إنه مُغيِّر ولا يتغير. ولذلك فمن نعمة الله على خلقه أنه جعل من نفسه وليّاً لهم .

ومن كان كذلك وجب أن يتخذ رباً وناصراً وولياً ومعبوداً ، وهذا يقتضي تنزيه القلب عن الالتفات إلى غير الله تعالى، وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى ، لذلك قل لهم إني أمرني ربي الموصوف بما ذكر من الصفات بوحيه : ﴿ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ أوّل من خضع له بالعبودية، وتذلّل لأمره ونهيه، وانقاد له من أهل دهرِي وزماني ، ويجوز أن يكون المراد به النبي ﷺ ؛ لأن النبي سابق أمته في الإسلام[1]، فهو أول من أسلم ممن دعوا إلى الإسلام ،وأول من يتصف بالإسلام الذي بعثه الله به، ذلك الإسلام الخاص الذي جاء به القرآن، وهو زائد على ما آمن به الرسل من قبل، بما فيه من وضوح البيان والسماحة، فلا ينافي أن بعض الرسل وصفوا بأنهم مسلمون، كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم ويعقوب– عليهما السلام – : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٢]

ويأتي بمعنى الأقوى والأمكن في الإسلام، لأن الأول في كل عمل هو الأحرص عليه والأعلق به، فالأولية تستلزم الحرص والقوة في العمل ، فكأنه يقول : لم يتحرر عند أحد حقيقة التوحيد كما تحررت عندي، ولم يقف أحد على البراهين والملكوت كما وقفت عليها، ولم يعط أحد كرامة في العلم من عند الله كما أعطيت، فوجب على هذا أن أكون أول من أسلم؛ لأنني أنا المصطفى من العباد والمقرب من الرسل، فوقفت على ما لم يقفوا عليه ، ونظرت فيما لم ينظر فيه أحد بكرامة الله علي ، فبدهياً أن يكون ﷺ كما قال: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾

والنبي ﷺ لم يصدر منه امتناع عن الحق وعدم انقياد إليه، وإنما هذا على طريق التعريض على الإسلام كما يأمر الملك رعيته بأمر ثم يتبعه بقوله : أنا أول من يفعل ذلك ليحملهم على فعل ذلك.

---

[1] – وهذا مثل قوله تعالى في شأن نبيه موسى – عليه السلام – : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ يقول: وقل: وقيل لي: لا تكونن من المشركين بالله، الذين يجعلون الآلهة والأنداد شركاء. وإن كان هؤلاء المشركون قومي وعشيرتي، وفيهم الأقربون ، فأنا أرفضُ كل ما سواه، ممن عمّه الفقرُ ابتداءً ودواما. وهذا خطاب أراد به جميع أمته ، وإن توجه الخطاب إليه ، تنفيراً لغيره من الشرك[1] .

ولقد أبرزت الآية الكريمة إنكار لموالاة غير الله أولاً، ثم إقبال على موالاته سبحانه ثانياً، وفي هذه العملية إثارة للعقل وتحريك للوجدان، ومواجهة لمن يدعوهم الدّاعون أن يتخذوا أولياء من دون الله ، حتى إذا أنكرهم العقل ولفظهم الشعور، أقبل المرء على الله، وقد صفّى حسابه مع هذه الضلالات القائمة على طريقه إلى الله، فيلقى ربّه بكيانه كله، ويلقى إليه بولائه خالصاً[2] .

ولما أَمَرَ الله نبيه ﷺ بأنْ يعلن أنه مُوَحِّدٌ لله وأنه مُتَبَرِّئ من الشرك وأهله ، فمن كان يُؤمن بأن الله هو الذي خلق السموات والأرض وأنه هو الرازق فكيف يشرك بالله !؟ ألا يخاف مِن عذاب مَن يَملك الدنيا والآخرة ، ألا يرغب بما عنده مِن الفوز العظيم ، وهو تدرّج في الغرض المشترك بينها من أنّ الشرك بالله متوعَّد صاحبه بالعذاب ، وموعود تاركه بالرحمة . فقوله : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ الآية رفض للشرك بالدليل العقلي ، وقوله : ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ الآية ، رفض للشرك امتثالاً لأمر الله وجلاله وبين بأن المخالفة في هذا من أبلغ المخالفات ، فصاحبها مستحق لأعظم الانتقام، وكل ذلك فطماً لهم عن الطمع فيه ، وأكده لذلك فقال : قل يا محمد إنّ ربي نهاني عن عبادة شيء سواه و ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ فيما أمرت به بالثبات على الإيمان، ونهيت عنه فرجعت إلى آبائي، وعبدت غيره ، ونراه عدل عن اسم الجلالة "الله" إلى قوله: ﴿ رَبِّي ﴾ إيماء إلى أن عصيانه أمر قبيح ؛ لأنه ربه فكيف يعصيه، والأنبياء معصومون عن العصيان، ولكن الخوف من العصيان يعتريهم؛ لأنهم لفرط إحساسهم بعظمة الله وإيمانهم بحسابه وعقابه وثوابه، ورقابتهم النفسية لله يكونون دائما في خوف ووجل، لَا لتوقع العصيان، ولكن رهبة من الديّان ، لا سيما وأنه وصف العقاب بأنه ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ،

---

[1] – من يتأمل الآية الكريمة يجد أنه فسر الولي بالمعبود في هذا المقام ، حتى يبين أن تناصر المخلوقين وتولي بعضهم لبعض فيما هو من كسبهم العادي فلا يدخل في عموم اتخاذ الله وليا أو اتخاذهم أولياء من دون الله. فقد أثنى الله تعالى على المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض. وبين أيضا أن الكفار بعضهم أولياء بعض تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٧٦)

[2] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٢٨٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٣٢) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣٣) النكت والعيون للماوردي (٢/ ٩٨) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٥٦) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٧٣) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٤٩١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٣٩٧) تفسير الخازن = لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/ ١٠٢) البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٥٣) البحر المديد لابن عجيبة (٢/ ١٠٣) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٧٧) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٥٣) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٤٠) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٥٩) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٥٣) تفسير الشعراوي (٦/ ٣٥٢٤) مع تصرف وإضافة من الباحثة

يعني: عذاب يوم القيامة لأن الخوف توقع المكروه ولا مكروه أكبر من عذاب يوم القيامة حين يقع على المكلف ، ووصــــفه تعالى ب"العظم" لعظم هَوْله، وفظاعة شــــأنه ، ولعظمة ما يكون فيه من تجلي الرب سبحانه ومحاسبته للناس ومجازاته لهم. وحكمة هذا التعبير ما أشرنا إليه من أن هذا الدين دين الله الحق لا محاباة فيه لأحد، مهما يكن قدره عظيما في نفســـه. وأن يوم الجزاء لا بيع فيه ولا خلة ولا شــفاعة بالمعنى المعروف عند المشركين ولا سلطان لغير الله تعالى فيتكل عليه من يعصيه، ظنا أن يخفف عنه أو ينجيه ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الانفطار: ١٩]

وفي هذا تعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب العظيم ،فإن المعصية في الشرك توجب الخلود في النار، وســـخطَ الجبار. فيجب أن يخافوه، ويتقوه، بأن يقلعوا عما هم فيه من الوقوع في أســـبابه، وهو العصيان، وأكبر العصيان الشرك، فنراهم أنذروا بأدق تعبير، وأنصف تصوير، وأبلغ بيان .

ووجه التعريض إسناد ما هو معلوم الانتفاء، بـ "إن" التي تفيد الشك تعريضا. وجيء بالماضي إبرازا له في صورة الحاصل على سبيل الفرض، تعريضا بمن صدر عنهم ذلك. وحيث كان تعريضا لهم، والمراد تخويفهم إذا صدر منهم ذلك لم يكن فيه دلالة على أنه يخاف هو ﷺ على نفسه المعصية، مع أنه معصوم، كما لا يتوهم مثله في قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾[الزمر: ٦٥] وإنما ذكر هذا في حق النبي ﷺ ليبين أنه مع جلالة قدره بصـــدد المؤاخذة على تقدير المخالفة ، ولا يلزم من هذا جواز المعصــية عنه؛ لأن الفرض قد يتعلق بالمستحيل كقولك: إن كانت الخمسة زوجا فهي منقسمة بمتساويين ، وقد علق الخوف على شـــرط هو عصـــيان الله. لكن ما دام لم يعص ربه فهو لا يخاف ، ووجود "إن" يدل على تعليق على شرط ولا يتأتى ذلك من الرسول المعصوم لأنه لا يعصي الله.

والتنكير في قوله : ﴿ عَظِيمٍ ﴾ للتعظيم، فهو ذو عظمة متكررة[1]، ولعظمة ذلك اليوم وعذابه قال تعالى: ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾

﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ ﴾ ويدفع اللَّه عَنْهُ ويحفظه حتى يكون بمعزل عنه ، ويسلم من الوقوع تحت وطأته وقد علم من المدفوع عنه ، وترك ذكر المصروف، لكونه معلوماً أو مذكوراً قبله وهو هول وفزع العذاب والغضب ، حيث إنه في "عنه" عائد على العذاب ، ﴿يَوْمَئِذٍ ﴾ إضافة الوقت إلى الوقت أي ذلك في يوم ذلك

---

[1] — انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٢٨٥) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٣٨) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٥٧) تفسير السمعاني (٢/ ٩٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٣٩٧) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٥٦) غرائب القرآن للقمي (٣/ ٥٧) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٢٥) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٧٨) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ٢٥٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧ / ١٦٠) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٥٦) تفسير الشعراوي (٦/ ٣٥٣٥) مع تصرف وإضافة من الباحثة

الوقت عند حلوله في موقف القيامة المهيب ، يوم إذ يكون عذاب ذلك اليوم به ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ أوجب الله له الرحمة العظمى لا محالة وأنعم بها عليه ، وهي النجاة، وغفر له وعصمه ، وإنما ذكر الرحمة من صرف العذاب لئلا يتوهم أنه صرف العذاب فقط بل تحصل الرحمة من صرف العذاب عنه ، بمعنى أن ذهاب العذاب ودفعه رحمة والضمير المستكن في رحمه عائد على الرب أي أي شخص يصرف الله عنه العذاب فقد رحمه .

﴿وَذَٰلِكَ﴾ الصرف يعني صرف العذاب ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ النجاة من الهلاك ونفي الخسارة ، وحصول الربح والظفر بالمطلوب ، وذلك الجمع بين النجاة من العذاب والتمتع بالنعيم في دار البقاء ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ يعني النجاة العظيمة المبينة الظاهرة الوافرة الواضحة الذي لا يماري فيها إلا جهول.

وإنما ذكره – واللَّه أعلم – فوزا مبينًا؛ لأنه فوز دائم، لا زوال له، وليس كفوز هذه الدنيا يكون في وقت ثم يزول عن قريب، ولا كذلك فوز الآخرة ، والألف واللام لقصره على ذلك.

وأتى بلفظ : ﴿وَذَٰلِكَ﴾ ليكون إشارة إلى الصرف أو الرحمة لأنها مؤوّلة بأن مع الفعل وما فيه من معنى البُعدِ للإيذانِ بعلوِّ درجتِه وبعد مكانه في الفضل .

ولما كان قد قدم من عموم رحمته ما أطمع الفاجر ثم أيأسه من ذلك بما أشير إليه من الخسارة، صرح هنا بما اقتضاه ذلك المتقدم، فقال واصفاً لذلك العذاب مبيناً أن الرحمة في ذلك اليوم على غير المعهود الآن، فإنها خاصة لا عامة دائمة السبوغ على من نالته، لا زائلة وكذا النعمة، هكذا شأن ذلك اليوم ، كل ذلك ليؤكد تهويل العذاب.

وفي هذه الآيات الخمس نجد القرآن قد أمر النبي ﷺ بقوله قُلْ خمس مرات وهو أسلوب إنذاري تلقيني كثر استعماله في هذه السورة– كما سبق أن قلنا في التمهيد لها– لأنه يلقن النبي ﷺ الحجج التي تزلزل كيان المشركين وتأتى على بنيانهم من القواعد. وفضلا عن ذلك فهو لون من التفنن في أسلوب الدعوة إلى أن يحتاج إليه المرشدون والدعاة. لأن التزام أسلوب واحد في إقامة الحجة على الخصم يفضى إلى السآمة والملل، ومن هنا فقد لون القرآن أساليبه حتى تناسب العقول على اختلاف مداركها، وصدق الله إذ يقول :

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام: ٦٥][(1)]

ولما بين سبحانه أن صرف العذاب والفوز بالنعيم بعده من رحمته في الآخرة بين أن الأمر كذلك في الدنيا، وبين أن ذلك من أدلة توحيده، أنه تعالى المنفرد بكشف الضراء، وجلب الخير والسراء فلماذا يتخذ غير

(1) – انظر : تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣٧) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٣٨) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ١٩٧٦) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٥٧) الكشاف للزمخشري (٢/ ١٠) تفسير الخازن = لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/ ١٠٢) البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٥٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٤) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٣٨) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١١٧) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٢٦) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٧٨) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٤٢) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٥٧) التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٥٠) بيان المعاني (٣/ ٣٢٦) مع تصرف وإضافة من الباحثة

الله ولياً، ويعرض نفسه للشرك الذي نهى عنه وللمخالفة عن الإسلام الذي أمر به، ولما يعقب المعصية من هذا العذاب الهائل الرعيب؟ .. ألعل ذلك رجاء جلب نفع أو دفع ضر في هذه الحياة الدنيا؟ رجاء نصرة الناس له في الضراء ورجاء نفع الناس له بالسراء؟ .. إن هذا كله بيد الله وله القدرة المطلقة في عالم الأسباب وله القهر كذلك على العباد وعنده الحكمة والخبرة في المنع والعطاء ، وهي حجة أخرى على استحقاقه للعبادة والولاية ، فإن يصرف عنك ذلك العذاب فقد قرت عينك، لذا لا يجوز في العقل أن يتخذ غيره ولياً، وذلك عاماً في ذلك العذاب وغيره مبيناً أنه لا مخلص لمن أوقع به فقال عز من قائل : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ : يا محمد، إن يصبك الله وينلك ﴿ بِضُرٍّ ﴾ وهو اسم جامع لكل ما يتضرر به الإنسان من بلاء وشدة في الدنيا ، وشظَف في العيش وضيق فيه، أو شدة وظلم يكون من العباد ، كما كان يفعل المشركون حيث إنهم خوّفوا النبي ﷺ ، وعرّضوا له بعزمهم على إصابته بشرّ وأذى ، فخاطبه الله بما يثبّت نفسه وما يُؤَيِّس أعداءه من أن يستزلّوه ، وبين أنه لن يكشف ذلك عنك إلا الله الذي أمرك أن تكون أوّل من أسلم لأمره ونهيه، وأذعن له من أهل زمانك، دون ما يدعوك العادلون به إلى عبادته من الأوثان والأصنام، ودون كل شيء سواها من خلقه ، وعَدَلَ عن لفظ الشر لأنه أراد تغليب الرحمة على ضدها ، فأتى في جانب الشر بأخص منه وهو الضرُّ، وفي جانب بالعام الذي هو الخير تغليباً لهذا الجانب ، فنكتة المقابلة أن الضر من الله تعالى ليس شرا في الحقيقة، بل هو تربية واختبار للعبد يستفيد به من هو أهل للاستفادة أخلاقا وآدابا وعلما وخبرة، وجاء جواب الشرط الأول بالحصر إشارةً إلى استقلاله بكشف الضر دون غيره .

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ ﴾ الخير: اسم جامع لكلّ ما ينتقع به الإنسان من رخاء في العيش، وسعة في الرزق، وكثرة في المال، وفضل وعافية فتقرّ أنه أصابك بذلك ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهو القادر على نفعك وضرِّك، وهو قادر على إدامته أو إزالته. وهو على كل شيء يريده قادر، لا يعجزه شيء يريده، ولا يمتنع منه شيء طلبه من الغنى والفقر والعافية ، و أثبت قدرته على كل شيء ، بما هو شامل للخير والشر، وهو كاللف والنشر فمس الضرّ ناظر إلى قوله إني أخاف ، ومس الخير إلى قوله من يصرف ، وإنما جاء نظم الآية على هذا النحو لأن من نزل به ضر يكون إحساسه بزواله، فعبر عن زواله بكشف الله تعالى، وأما النفع فإنه يكون صاحبه في حال تستوجب الحمد والثناء وطلب البقاء فيناسبه إثبات قدرة الله تعالى.

وليس كالآلهة الذليلة المهينة التي لا تقدر على اجتلاب نفع على أنفسها ولا غيرها، ولا دفع ضر عنها ولا غيرها. يقول تعالى ذكره: فكيف تعبد من كان هكذا، أم كيف لا تخلص العبادة، وتقرُّ لمن كان

بيده الضـر والنفع، والثواب والعقاب، وله القدرة الكاملة، والعزة الظاهرة؟! فقدراته مربوطة ومحوطة بنواميس ونظم لا تصل إلى تحويلها إلا قدرة خالقها.

ونراه تعالى قدم ذكر إمسـاس الضـر على ذكر إمسـاس الخير، لاتصـاله بما قبله وهو الترهيب الدال عليه ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ ﴾ وما قبله ، وتنبيه على أن جميع المضـار لا بد وأن يحصـل عقيبها الخير والسلامة. وقال في إمساس الضر : ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ ، وذكر في إمساس الخير ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فذكر في الخير كونه قادراً على جميع الأشياء ، وذلك يدل على أن إرادة الله تعالى لا يصال الخيرات هي الغالبة ، وهي دالة على أن إرادة الله تعالى جانب الرحمة غالب، كما قال ﷺ : (لما خلق الله الخلق كتب في كتابه –وهو يكتب على نفسـه وهو وضـع عنده على العرش–: إن رحمتي تغلب غضـبى)[1] ، أيضـاً في تقديم الشر على الخير هنا ما يملأ مشـاعر الإنسـان خوفا من الله، وتعلقا به، واتجاها إليه، فإن الإنسـان فى الخير كثيرا ما يذهل عن الله، ويغفل عن ذكره.. ولكنه فى حال الشدّة والضرّ يذكر الله ويهتف به، ويمدّ يده إليه كما يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾[الزمر: ٨] .

وكما يقول تعالى في موضـــع آخر : ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾[الإسـراء: ٨٣] فما أقلّ أولئك الذين يجدون فى نعم الله طريقا يصـلهم إلى الله، ويقرّبهم منه، ويقيمهم على الشكر والحمد، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ: ١٣] أما فى البلاء، وأما فى الشـــدة، فإن الناس جميعا، مؤمنهم وكافرهم، يذكرون الله، ويهتفون به، حتى فرعون، فإنه حين أدركه الغرق، قال آمنت! .

وهكذا الناس تدنيهم الشدائد من الله، وتقربهم منه ، وإنها لنعمة تلك الشدائد، التي توجّه الإنسان إلى الله، لو أنه استقام على طريقه إلى الله، ولم يكن من الخائنين لنفسه، الذين يمكرون بآيات الله

لذا فهذا الخطاب وإن كان للنبي ﷺ في ظاهره لتقويته في تبليغ دعوته، وتأكيد ولايته، واستعانته به سبحانه وتعالى وحده. إلا أنه يصلح لأن يكون عاماً لكل أحد [2].

---

[1] – أخرجه البخاري في صحيحه ،كتاب التوحيد ، باب {وكان عرشه على الماء} [هود: ٧]، {وهو رب العرش العظيم} [التوبة: ١٢٩] عن أبي هريرة – رضي الله عنه – (٩/ ١٢٥) ، برقم (٧٤٢٢) .

[2] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٢٨٧) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣٧) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٣٨) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٥٧) الكشاف للزمخشري (٢/ ١٠) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ١٤) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٤٩٤) تفسير الخازن = لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/ ١٠٢) البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٥٦) الدر المصون للسمين الحلبي (٤/ ٥٦٤) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٣٩) حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي (٤/ ٣٤) البحر المديد لابن عجيبة (٢/ ١٠٤)تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ٢٥٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٥٥) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٧٩) التفسير

ولما نفى أن يكون للأصنام تصرف في أحوال المخلوقات، وذكر تعالى انفراده بتصرفه بما يريده من ضر وخير وقدرته على الأشياء ؛ ذكر قهره وغلبته، وأن العالم مقهورون ممنوعون من بلوغ مرادهم بل يقسرهم ويجبرهم على ما يريده هو تعالى فقال : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ أي هو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره .

فهو يقهر الخلق، عزيز، قادر، وله سلطان عليهم، وأنهم أذلاء تحت سلطانه. فهو المذلِّل المستعبد خلقه، العالي عليهم بتذليله لهم. وخلقه إياهم، وإنما قال: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ لأنه وصف نفسه تعالى ذكره بقهره إياهم وأخبر بالعلوية، والعظمة، وبالتعالي عن أشباه الخلق. ومن صفة كلّ قاهر شيئًا أن يكون مستعليًا عليه ، وفي حق الله استعلاء يليق به ، فلا راد لأقداره ولا صَادَّ عن اختياره ، وفي القهر زيادة معنى على القدرة، وهو منع غيره عن بلوغ المراد، فهم تحت التسخير والتذليل بما علاهم به من الاقتدار والقهر الذي لا يقدر أحد على الخروج منه ولا ينفك عنه فكل من قهر شيئا فهو مستعل عليه بالقهر والغلبة ، فهو جل شأنه يدبر أمر خلقه فيما يريده لا يحول دونه حائل، ينعّم ويعذب، ويفرح ويحزن، ويغني ويفقر، ويصح ويمرض، ويعز ويذل، ويحيي ويميت، لا يستطيع أحد رد شيء مما قدره .

والفوقية هنا على حقيقتها التي تدل على العلو الذاتي(١)، والحق الذي لا محيد عنه أن الآية يعنى بها تعظيم الله من وجوه ثلاثة، فالله جل وعلا علي في ذاته، علي في مكانه، علي في قهره لعباده .

والعباد بمعنى العبيد وهما جمعان للعبد وهم المخلوقون من العقلاء ، ونجد ورود لفظة العباد في القرآن وغيره في مواضع تفخيم أو ترفيع أو كرامة، وورود لفظة العبيد في تحقير أو استضعاف أو قصد ذم .

والذين سموا العباد لا يستقيم أن يقال لهم العبيد لأنهم أفخم من ذلك.

ومن جملة قهره إرسال الحفظة – وهي جمع حافظ – على عبيده ، بضبط أعمالهم من الطاعات والمعاصي والمباحات لأنهم مطلعون على أقوال بني آدم لقوله : ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٨] وعلى أفعالهم بقوله : ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: ١٢]

ولما كان في القهر ما يكون مذموماً، نفاه بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ أي وحده ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في علّوه على عباده، وقهره إياهم بقدرته، وفي سائر تدبيره يضع كل شيء موضعه ، فلا يوصل أثر القهر بإيقاع المكروه إلا لمستحق ، فأفعاله متقنة آمنة من وجوه الخلل والفساد ، وأتم المعنى بقوله: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ أي بما يستحق كل

القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٤٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٦٣) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٥٨) مع تصرف وإضافة من الباحثة

(١) – تفصيل هذه المسألة بأدلتها في شرح العقيدة الواسطية للعثيمين (ص: ٣٨٨)

شيء، فهو خبير بمصالح الأشياء ومضارِّها، وبمواضع الأشياء ومحالها، فلا يعطي إلا لمن يستحق ولا يمنع إلا من يستحق ، عالما بإعطاء كل مخلوق ما يناسبه ، ولا يخفي عليه عواقب الأمور وبواديها، ولا يقع في تدبيره خلل، ولا يدخل حكمه دَخَل. فتمت الأدلة على عظيم سلطانه ، وليس سلطانه بالسلطان المستبدّ الجهول ، تعالى عن ذلك علوّا كبيرا ، وإنما هو سلطان قائم بالعدل، والحكمة، والعلم والقدرة، وما كان كذلك، فهو سلطان الرحمة والإحسان ، وأنه لا فاعل غيره ، فاللام في المواضع الثلاثة للقصر ، فقهر الله تعالى هو القهر الحقيقي الذي لا يجد المقهور منه ملاذا، لأنه قهر بأسباب لا يستطيع أحد خلق ما يدافعها ، وفي الآية تقرير لربوبيته المستلزمة لألوهيته فقهره لكل أحد، وسلطانه على كل أحد مع علو كلمته وعلمه بكل شيء موجب لألوهيته وطاعته وطلب ولايته، وبطلان ولاية غيره وعبادة سواه[1].

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٢٨٨) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣٨) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٠٠) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ١١٥) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٧٥) تفسير الخازن = لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/ ١٠٣) البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٥٧) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٤) غرائب القرآن للقمي (٣/ ٩٤) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٣٩) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١١٧) فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٤/ ١١٥) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٦٤) أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٤٤) بيان المعاني (٣/ ٣٢٧) مع تصرف وإضافة من الباحثة

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. عموم رحمة الله تعالى وأنه رب كل شيء ومليكه ، وتقرير مبدأ الشقاوة والسعادة في الأزل قبل خلق الخلق[١].

٢. تحريم ولاية غير الله، وتحريم الشرك به تعالى[٢].

٣. بيان الفوز الأخروي وهو النجاة من العذاب ودخول الجنة[٣].

٤. من أدركه سابق عنايته صرف عنه لاحق عقوبته[٤].

٥. بيان أن الرسول ﷺ يبلغنا بالنص القرآني كما نزل عليه، مبتدئاً بكلمة " قل " ويبلغه الرسول لنا بأمانة البلاغ عن ربه[٥].

٦. بين الله تعالى أن المضار قليلها وكثيرها لا يندفع إلا بالله، والخيرات لا يحصل قليلها وكثيرها إلا بالله[٦].

٧. في الآية حَضٌّ على محبة الحق، وولايته على الدوام، ورفض كل ما سواه ممن عمَّه الفقر من الأنام، وفيها أيضًا: حثّ على المسابقة إلى الخيرات، والمبادرة إلى الطاعات، اقتداء بسيد أهل الأرض والسموات، فكان ﷺ أول من عبد الله، وأول من توجه إلى مولاه- من أهل زمانه _[٧]

٨. في الآيات إرشاد إلى أن كل آمر ينبغي أن يكون عاملا بما أمر به لأنه مقتداهم[٨].

٩. بيان أن الإنسان إذا علم أن كل ما سكن في الليل والنهار لله تبارك وتعالى وحده أذعن لله وأسلم لله جل وعلا قلبه.

١٠. التعليم الكامل هو الذي يبدأ فيه بالأظهر فالأظهر مترقياً إلى الأخفى فالأخفى، وهذا من سر نظم الآية مع ما قبلها[٩].

---

[١] – أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٤٣)

[٢] – المرجع السابق (٢/ ٤٣)

[٣] – المرجع السابق (٢/ ٤٣)

[٤] – لطائف الإشارات للقشيري (١/ ٤٦٤)

[٥] – تفسير الشعراوي (٦/ ٣٥٢٥)

[٦] – مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٤٩٤)

[٧] – البحر المديد لابن عجيبة (٢/ ١٠٤)

[٨] – محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٢٥)

[٩] – المرجع السابق (٤/ ٣٢٤)

١١. على المؤمن الصادق فى إيمانه ألا يطلب شيئا من أمور الدنيا والآخرة من كشف ضر وصرف عذاب أو إيجاد خير ومنح ثواب إلا من الله تعالى وحده دون غيره من الشفعاء والأولياء الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً[١].

١٢. إذا علِم العبدُ أن الخلق كلهم في قبضة الله، وأمورهم كلها بيد الله، أحاط بهم علمًا وسمعًا وبصرًا، لم يبق له على أحد عتاب، ولا ترتيبُ خطأ ولا صواب، إلاَّ ما أمرت به الشريعةُ على ظاهر اللسان. بل شأنه أن ينظر إلى ما يفعل المالك في ملكه، فيتلقاه بالقبول والرضى[٢].

١٣. في الآيات إيماء إلى أن الله قد نجى أمة الدعوة المحمدية من عذاب الاستئصال الذي عذب به الأمم المكذبة رسلها من قبل،وذلك ببركة النبيء محمد ﷺ إذ جعله رحمة للعالمين في سائر أحواله بحكم قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧][٣]

١٤. بيان أن الله وحده بيده الضرّ والنفع ، وأن أولياء الله القائمين على تبليغ رسالاته في حفظٍ مِن الله ، لأنه يقول : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾[الحج: ٣٨ – ٣٩] وإنْ وَقَعَ شيء من الضرر على أولياء الله فإنه ليس شرٌّ محضٌ بل في حقيقته خير لا يعلمه إلاّ الله ، فهو إما تكفير لسيئاتهم أو رفع لدرجاتهم .

١٥. بيان لبعض دواعى الإيمان بالله فى نفس النبي ﷺ ، وفى نفس كل مؤمن بالله، وهو أن الخوف من عذاب الله يوم القيامة، وطلب النجاة من هول هذا اليوم، هو داع صارخ يدعو الإنسان إلى أن يهرب من هذا البلاء، إلى الإيمان بالله، واستجابة دعوته التي يدعو بها عباد الله.. فمن أبى، وعصى أن يستجيب لله ويؤمن بالله، فهذا يوم الحساب أمامه، والنار مثواه[٤].

١٦. إن الفوز والفلاح فى الدين والدنيا لا يتم إلا بالعلم الصحيح والعزيمة الحافزة إلى العمل بالعلم، فمن خسر إحدى الفضيلتين فقد خسر نفسه، فردا كان أو أمة، فما بال من خسرهما معا[٥].

١٧. بيان أن العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتدبيره، وهو تعالى قد بسط عليهم رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتابا أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء

[١] – تفسير المراغي (٧/ ٩١)
[٢] – البحر المديد لابن عجيبة (٢/ ١٠٣)
[٣] – التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٥٢)
[٤] – التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٤٢)
[٥] – تفسير المراغي (٧/ ٨٧)

أحب إليه من المنع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة، إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذنوبهم، ودعاهم إليها، إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعيوبهم[١]

١٨. إن الشعور بحقيقة رحمة الله على هذا النحو ليسكب في قلب المؤمن الطمأنينة إلى ربه حتى وهو يمر بفترات الابتلاء بالضراء، التي تزيغ فيها القلوب والأبصار فهو يستيقن أن الرحمة وراء كل لمحة، وكل حالة، وكل وضع وأن ربه لا يعرضه للابتلاء لأنه تخلى عنه، أو طرده من رحمته. فإن الله لا يطرد من رحمته أحداً يرجوها. إنما يطرد الناس أنفسهم من هذه الرحمة حين يكفرون بالله ويرفضون رحمته ويبعدون عنها! وهذه الطمأنينة إلى رحمة الله تملأ القلب بالثبات والصبر، وبالرجاء والأمل، وبالهدوء والراحة، فهو في كنف ودود، يستروح ظلاله، ما دام لا يُبعد عنه في الشرود! والشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يستجيش في حس المؤمن الحياء من الله. فإن الطمع في المغفرة والرحمة لا يجرّىء على المعصية كما يتوهم البعض إنما يستجيش الحياء من الله الغفور الرحيم،والقلب الذي تجرئه الرحمة على المعصية هو قلب لم يتذوق حلاوة الإيمان الحقيقة![٢]

١٩. إثبات أن ذلك اليوم لَا شك فيه عند أهل الدراية والمعرفة ومن يشك فيه فهو ليس ذا إدراك سليم، وإذا كان بعض الناس يشك فيه، فليس ذلك إلا من سقم الإدراك، وفساد الفطرة، وينبغي ألا يشك فيه مدرك، فالبديهة تقول إن الله تعالى لم يخلق الكون عبثاً، ولم يخلق الإنسان عبثاً، بل خلقه ليفنى ثم ليبقى من بعد ذلك، ومن خلق في الابتداء قادر على الإعادة في الانتهاء، وبين سبحانه بعد ذلك الحال الواقعة للذين يكفرون بالله وبالرسالة وباليوم الآخر، وأن شرهم متكاثف يردف بعضه بعضاً[٣].

٢٠. الواعظ يجب أن يتعظ أوّلا بما يقوله، فالمريض لا يتصور منه العلاج[٤]

٢١. الدعوة إلى الإيمان بالله، من الله، وإلى نبى الله ﷺ ، وليس فى هذا الأمر إلزام ولا قهر، ولكن النبىّ الكريم فى استجابته لربّه، وفى مبادرته إلى الاستجابة، واحتفائه بها، وشدّ نفسه إليها، وعقد قلبه عليها كل أولئك قد جعل الدّعوة الإلهية أمرا يتلقّاه النبىّ بكيانه كله، ويعطيه كل ما قدر عليه من قوة وعزم. [٥]

[١] – تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ٢٥١)

[٢] – في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٥٢)

[٣] – زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٤٩)

[٤] – غرائب القرآن للقمي (٣/ ٥٦)

[٥] – التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٤١)

٢٢. نسبة المملوك إلى المالك نسبة اللاشيء إلى الشيء ، ولله تعالى الغنى المطلق وغيره جل شأنه محتاج بحت وطلب المحتاج من المحتاج سفه في رأيه وضلة من عقله[١]

[١] - روح المعاني للآلوسي (٤/ ١٣٢)

المطلب الرابع:شهادة الله ورسوله ﷺ والمشركين على التوحيد والواجب تجاهه(١٩ – ٢٤)

يقول الله سبحانه تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

أولا : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

بعد ان ساق الآيات الكريمة التي جاء فيها الاستدلال على إثبات ما يليق بالله من الصفات، انتقل إلى إثبات صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإلى جعل الله حكما بينه وبين مكذبيه، فَهُوَ الْحَكِيمُ فيما يقهره ، فلا يخلو من حكمة ، الْخَبِيرُ بمن يستأهل كل صنف من قهره فيقهره به فالله أكبر شهادة لأنه محيط بحقائق الأشياء ولا يحيط به شيء من الأشياء ، فلما ختم بصفتي الحكمة والخبرة، كان كأنه قيل: فلم لم يعلم أنا نكذبك بخبرته فيرسل معك بحكمته من يشهد لك – على ما يقول من أنه أمرك أن تكون أول من أسلم، ونهاك عن الشرك لنصدقك – من ملك كما تقدم سؤالنا لك فيه أو كتاب في قرطاس أو غيرهما؟ فقال: قد فعل، ولم يرض لي إلا بشهادته المقدسة [1].

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

يقول تعالى : ﴿قُلْ﴾ يامحمد لهم ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ حيث ابتدأت المحاورة بأسلوب إلقاء استفهام مستعمل في التقرير لإعداد السامعين لتلقي ما يرد بعد الاستفهام،فوضع ﴿شَيْءٍ ﴾ مقام ﴿شَهِيدٌ﴾ شهيد ليبالغ في التعميم فقال : أيّ شاهد في هذا الوجود كله هو أكبر شهادة؟ أي شاهد تعلو شهادته كل شهادة؟ أي شاهد تحسم شهادته في القضية فلا يبقى بعد شهادته شهادة؟ حيث إن الشاهد هو الْمُبَيِّن لدَعْوَى المدعِي ، ومراتب الشهادات في التفضيل تتفاوت بمراتب الشاهدين ، فنراه جاء هنا بلفظ ﴿أَكْبَرُ ﴾ أي: أقوى وأعدل في جنس الشهادات .

---

(١) – انظر : غرائب القرآن للقمي (٣/ ٦٢) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٤٠) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٦٦) .

وقطع الكلام هنا إشارة إلى عنادهم أو سكوتهم، أو إلى تنزيلهم منزلة المعاند، أو العالم بالشيء العامل عمل الجاهل، فقال آمراً له ﷺ فإن أجابوك وإلّا فقل لهم يا محمد وأخبرهم بأن أكبر الأشياء شهادة: ﴿ٱللَّهُ﴾ ، الذي لا يجوز أن يقع في شهادته ما يجوز أن يقع في شهادة غيره من خلقه من السهو والخطأ، والغلط والكذب ، وقوة الشهادة بقوة اطمئنان النفس إليها وتصديق مضمونها.

فأمره بأن يتولَّى ﷺ الجواب بنفسه إما للإيذان بتعيُّنه وعدمِ قدرتهم على أن يجيبوا بغيره أو لأنهم ربما يتلعثمون فيه لا لتردُّدهم في أنه أكبرُ من كل شيء بل في كونه شهيداً في هذا الشأن ، فإن لم يقبلوا شهادته اختياراً قبلوها قسراً واضطراراً ؛ لأنه الشاهد الذي يحكم ولا معقب لحكمه، والقاضي الذي يقضي ولا راد لقضائه .

وقل لهم: إن الذي هو أكبر الأشياء هو الواحِد الذي خلق السموات الأرض ، وخلق الظلمات والنور ، وخلقهم أطواراً على ما بَين في كتابه، فأنا أشهده عليكم ، فردّوا عليه شهادته إن استطعتم! وأمر أن يعْلِمهم أن شهادة اللَّه بأنه واحد، وَإقامة البراهين في توحيده أكبر شهادةً ، شهيدٌ بيني وبينكم ، في كل حجة وبرهان أتاكم الرسول به ، وأني قد بلغتكم وصدقت فيما قلته وادعيته من الرسالة ، وفي كل اختلاف بيننا وبينكم في التوحيد، والبعث بعد الموت، وبالمحقِّ منا من المبطل، والرشيد منا في فعله وقوله من السفيه، وقد رضينا به حكمًا بيننا ، وتكريرُ البين لتحقيق المقابلة ، ومعنى البين أن الله شهيد للرسول ﷺ بالصدق لرد إنكارهم رسالته كما هو شأن الشاهد في الخصومات.

ولما قرر أنه أعظم شهيد، وأشار إلى شهادته بالآيات كلها، نبه على أعظمها، لأن إظهاره تعالى للقرآن على لسانه ﷺ على وفق دعواه شهادة من الله له بالصدق، فقال ذاكراً لفائدته في سياق تهديد متكفل بإثبات الرسالة وإثبات الوحدانية، وقدم الأول لأنه المقرر للثاني والمفهم له بغايته فقال : ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من جهتِه تعالَى ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ الذي تلوته عليكم ، المعجز بلفظه ونظمه وأخباره عمَّا كان ويكون ؛ لأنكم أنتم الفصحاء والبلغاء وقد عجزتم عن معارضته فإذا كان معجزاً ، كان إظهار الله إياه على وفق دعواي شهادة من الله على كوني صادقاً في دعواي ، وشاهدُ بصِحة رسالتي .

والحاصل: أنهم طلبوا شاهداً مقبول القول يشهد على نبوته ، فبين تعالى أن أكبر الأشياء شهادة هو الله تعالى ، وعطف وأوحي إلي هذا القرآن من عطف الخاص على العام، وينطوي في ذلك جميع ما أبلغهم الرسول ﷺ وما أقامه من الدلائل ، ثم بين أنه شهد له بالنبوة وهو المراد من قوله : ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾

﴿لِأُنذِرَكُم﴾ لأخوفكم يا أهل مكة بما في القرآن من عقابه ، وأحذركم من عذاب يوم عظيم، إن أنتم لم تصدقوا برسالتي، ولم تؤمنوا بما بين يدي مما أوحى إلي ؛ لأنه فيه أنباء ما حل بأشياعهم بتكذيبهم الرسل، وما يحل بهم من العذاب في الآخرة بتكذيبهم الرسل ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ وَمَنْ بَلَغَه القرآن من الجن والإنس

، العرب والعجم إن لم ينته إلى العمل بما فيه، وتحليل حلاله وتحريم حرامه، والإيمان بجميعه من نزولَ نقمة الله به .

وفي الإنذار دليل على نبوته ؛ لأنه لمْ يأت أحد بمثله، ولا يأتي بمثله ؛ لأن فيه أخبارَ الأمم السالفة، جاءَ بها عليه السلام. وهو أُمِّيٌّ لا يقرأ الكُتُب، وأنبأ بما سيكون، وكان ما أنبأ به حقاً .

فهو نذير لهم يعني القرآن إلى يوم القيامة ؛ لأنه إذا صار نذيرًا به لمن بلغه وإن كان هو في أقصى الدنيا يصير هو نذيرًا في أقصى الزمان، في كل زمان . فلست رسولا إليكم وحدكم، بل إن رسالتي إليكم وإلى كل من تبلغه، وتصل إليه بلساني، أو بلسان من يدعو بها، فهي رسالة عامة للناس جميعاً ، فمن بلغته ولم يؤمن بها، فقد حقّ عليه ما حقّ على الكافرين منكم .

ولأجل أن الله هو الشاهد لم تنقض الشهادة بموت النبي ﷺ بل استمرت على مرّ الأيام والأعوام لبقاء الشاهد وتعاليه عن شوائب النقص وسمات الحدث .

واقتصر على الإنذار؛ لأنه في مقام تخويف لهؤلاء المكذبين بالرسالة المتخذين غير الله إلهاً .

ثم قال على سبيل التوبيخ لهم باستفهام معناه الجحد والإنكار : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ﴾ تشهدون أنّ معه معبودات غيره من الأوثانَ والأصنام. بعد ما ظهر عندكم آيات وحدانيته، وحجج ربوبيته لما عرفتم أنه خالقكم وخالق السماوات والأرض، به تعيشون وبه تحيون، وبه تموتون.

وعبر بتشهدون للإشارة إلى قوة الضلال في نفوسهم إذ إنهم مع ضلال الفكرة الوثنية يعتقدونها أشد الاعتقاد؛ لأن الشهادة لَا تكون إلا بالعلم اليقيني، فهم يؤمنون بـ (تشهدون) بالشرك أي بأن مع الله آلهة أخرى ، وهو ما حكاه الله تعالى عنهم في آيات اخرى من كتابه الكريم حيث قالوا : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ ﴾ [ص: ٥ – ٧]

والآلهة جمع إله، وأجري عليه الوصف بالتأنيث تنبيها على أنها لا تعقل فإن جمع غير العاقل يكون وصفه كوصف الواحدة المؤنثة.

وإنما جعل الاستفهام المستعمل في الإنكار عن الخبر الموكد ب (إن) ولام الابتداء ليفيد أن شهادتهم هذه مما لا يكاد يصدق السامعون أنهم يشهدونها لاستبعاد صدورها من عقلاء، فيحتاج المخبر عنهم بها إلى تأكيد خبره بمؤكدين فيقول: إنهم ليشهدون أن مع الله آلهة أخرى، فهنالك يحتاج مخاطبهم بالإنكار إلى إدخال أداة الاستفهام الإنكاري على الجملة التي من شأنها أن يحكى بها خبرهم، للإشارة إلى تغلغل الضلال في نفوسهم، واستيلاء الجحود على قلوبهم. فيفيد مثل هذا التركيب إنكارين: أحدهما صريح بأداة الإنكار، والآخر كنائي بلازم تأكيد الإخبار لغرابة هذا الزعم بحيث يشك السامع في صدوره منهم.

ثم وقعت المبادرة بالجواب بتبري المتكلم من أن يشهد بذلك ؛ لأن جواب المخاطبين عن هذا السؤال معلوم من حالهم أنهم مقرون به فأعرض عنهم بعد سؤالهم كأنه يقول: دعنا من شهادتكم وخذوا شهادتي فإني لا أشهد بذلك ، فأمره بتوحيده والتبري مما سوى الإسلام فقَالَ اللَّه للنبي ﷺ : ﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾ بما شهدتم أن مع الله آلهة أخرى، بل أجحد ذلك وأنكره ، لكون هذه الشهادة باطلة ، وَلَكِن ﴿قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ إنما هو معبود واحد، لا شريك له فيما يستوجب على خلقه من العبادة؛ فلا يشارك في إلهيته، ولا في صفات كماله .

وكلمة إنما أفادت الحصر، أي هو المخصوص بالوحدانية ، ثم بالغ في إثبات ذلك بالتبري من ضده بقوله: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ وإنني بريء من كلّ شريك تدعونه لله، وتضيفونه إلى شركته، وتعبدونه معه، لا أعبد سوى الله شيئًا، ولا أدعو غيره إلهًا ، وفيه قطع للمجادلة معهم على طريقة المتاركة.

وما أبدع هذا الترتيب حيث إنه أمر أولا بأن يخبرهم بأنه لا يوافقهم في الشهادة ولا يلزم من ذلك إفراد الله بالألوهية فأمر به ثانياً ليجتمع مع انتفاء موافقتهم إثبات الوحدانية لله تعالى، ثم أخبر ثالثاً بالتبرؤ من إشراكهم وهو كالتوكيد لما قبله .

وفي أمر الله تعالى له بالقول مع التنديد لهم والتوبيخ لهم ما يدعو إلى الاقتداء والتأسى به ﷺ وهو العاقل الصادق الأمين المعروف بذلك بينهم جاهلية وإسلاما، وإن ذهبت اللجاجة ببعضهم إلى إنكار المعروف بلسانه لَا بقلبه(1).

ثم انتقل من مخاطبة الله المشركين على لسان الرسول ﷺ إلى إخبارٍ عامّ كسائر أخبار القرآن . حيث أظهر الله دليلاً على صدق الرسول فيما جاء به بعد شهادة الله تعالى التي في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ ، وذلك بعدما أثبت شهادة الله تعالى له بالتصديق بأنه محق – وكانت شهادة الله على صحة نبوته كافية في ثبوتها وتحققها – ، وكان ذلك ربما أوهم أن غير الله تعالى لا يعرف ذلك ، فلما جاء ذكر القرآن هنالك وقع هذا الانتقال للاستشهاد على صدق القرآن المتضمّن صدق مَن جاء به ؛ لأنّه هو

(1) – انظر : تفسير مقاتل بن سليمان (١/ ٥٥٤) جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٢٨٩) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٣٤) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣٩) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٣٩) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ١٤٠) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ١٩٨٠) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٥٩) الوجيز للواحدي (ص: ٣٤٧) الكشاف للزمخشري (٢/ ١١) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٤٩٧) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٣٩٩) البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٦٠) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٤٠) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١١٨) فتح القدير للشوكاني (٢/ ١٢٠) فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٤/ ١١٧) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٢٩) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٥٦) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٤٥) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٦٦) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٦٤) التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٥٣) مع تصرف وإضافة من الباحثة .

الآية المعجزة العامَّة الدائمة ، فإن ادعى كفار قريش أنهم سألوا أهل الكتابين فادعوا أنهم لا يعرفونه ، فإن الله يخبر بأن ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ يعنى علماء اليهود والنصارى ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ التوراة والإنجيل يعرفون أنما هو إله واحد ، لا جماعة الآلهة، وأن محمدًا نبيٌّ مبعوث بحليته ونعته الثابت في الكتابين معرفة خالصة ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾ بحلاهم ونعوتهم لا يخفون عليهم ولا يلتبسون بغيرهم؛ لأن صفته موجودة في كتابهم ، وفي عبارة : ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾ بيان لتحقق تلك المعرفة ، وكمالها وعدم وجود شك فيها، فإن معرفة الآباء للأبناء هي البالغة إلى غاية الإتقان إجمالاً وتفصيلاً ؛ فهي معرفة بلغت حد اليقين وذلك بسبب ما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين، فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد ﷺ ومبعثه وصفته وبلده ومهاجره وصفة أمته.

وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به وبصحة نبوّته ، بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، ولقد كان المشركون يقدرون أهل الكتاب ويثقون بعلمهم وربما اتبع بعض المشركين دين أهل الكتاب وأقلعوا عن الشرك مثل ورقة بن نوفل، فلذلك كانت شهادتهم في معرفة صحة الدين موثوقاً بها عندهم إذا أدوها ولم يكتموها.

وفيه تسجيل على أهل الكتاب بوجوب أداء هذه الشهادة إلى الناس.

وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ هنا لفظه عام ويراد به الخاص، فإن هذا لا يعرفه ولا يقربه إلا من آمن منهم أو من أنصف و﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾الكتاب التوراة والإنجيل ، ووحد رداً إلى الجنس .

﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ من أهل الكتاب حيث كذَّبوا وكتموا، ومن المشركين حيث كفروا وجحدوا ، وجميعهم ضيعوا فطرة الله التي فطرَ النَّاسَ عليها وأعرضوا عن البينات الموجبةِ للإيمان بالكلية فأهلكوها وألقوها في نار جهنم، بإنكارهم محمدًا أنه لله رسول مرسل، وهم بحقيقة ذلك عارفون ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : فهم بخسارتهم بذلك أنفسهم لا يؤمنون. لتضييعهم ما به يُكتسب الإيمان من النظر والتفكير والإنصاف للحق، فقد ظلموا أنفسهم وبخسوها ؛ لضعف إرادتهم لا لفقدان العلم والمعرفة ؛ لأن الله أخبر عنهم أنهم على علم ومعرفة ، فهم مطبوع على قلوبهم والفاء السببية تدل على ان تضييع الفطرة الاصلية والعقل السليم سبب لعدم الايمان .

وإنما تكرر قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ لزيادة إيضاح تصلب المشركين وإصرارهم، فهم المراد بالذين خسروا أنفسهم كما أريدوا بنظيره السابق الواقع بعد قوله: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ﴾ [1] فهذا من التكرير للتسجيل ، وإقامة الحجة وقطع المعذرة، وأنهم مصرون على الكفر حتى ولو شهد بصدقه ﷺ[2].

ولما كان التقدير: خسروا ففاتهم الإيمان، لأنهم ظلموا بكتمان الشهادة، فكان الظلم سبب خسرانهم، فمن أظلم منهم! عطف عليه ما يؤذن بأنهم بدلوا كتابهم، أو نسبوا إليه ما ليس فيه، فقال واضعاً للظاهر موضع ضميرهم لذلك: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴾ومن أشدُّ اعتداءً، وتعمد أخطأ فعلا وأخطأ قولاً ﴿ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ ممن اختلق على الله قيلَ باطل، واخترق من نفسه عليه كذبًا، فزعم أن له شريكًا من خلقه، وإلهًا يعبد من دونه – كما قاله المشركون من عبدة الأوثان – أو ادعى له ولدًا أو صاحبةً، كما قالته النصارى ، وحرفوا كتابهم ونسبوا إلى الله ما لم يقله، بزيادة كتبوها بأيديهم لا أصل لها، إضلالاً منهم لعباده ، وبوصفهم النبيَّ الموعودَ في الكتابين بخلاف أوصافه ﷺ ، ودعوى أنه تعالى حرم كذا وأحل كذا ويقبل شفاعة الأصنام، وقولهم الرسول لا يكون بشراً بل لا بد ان يكون ملكاً مما يُشعر وجوب عدم قبول دعوى الرسالة مع قيام الادلة القاطعة ، فهم بالتحريف يدّعون إلهية أنفسهم،﴿ أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾ أو كذب بحججه وأعلامه وأدلته التي أعطاها رسله على حقيقة نبوتهم، فهم بالتكذيب يريدون تعجيز الله عن تصديقه الرسل وينسبون إيجادها إلى غير الله، مع افتقارها إلى القدرة الكاملة.

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أتى بضميرِ الشأنِ ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ ومدارُ وضعِهِ موضعَه ؛ لادِّعاءُ شهرتِه المغْنية عن ذكره ، وفائدة تصديرِ الجملة به الإيذانُ بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريرِهِ في الذهن؛ فإنَّ الضميرَ لا يُفهمُ منه من أولِ الأمرِ إلا شأنٌ مبهمٌ لهُ خطرٌ ، فيبقى الذهنُ مترقِّباً لما يعقُبه ، فيتمكنُ عندَ ورودِهِ لَهُ فضلُ تمكُّنٍ ، فكأنه قيل إن الشأنَ الخطيرَ هذا هو : إنه لا يفلح القائلون على الله الباطل، والمفترون عليه الكذب، والجاحدون بنبوة أنبيائه ، فلا يظفرون بمطالبهم في الدنيا والآخرة، بل يبقون في الحرمان والخذلان ولا يدركون البقاءَ في الجنان لا سيما إذا ختموا وماتوا على الظلم والكفر ، ولا يسعد من جحد ربوبية ربه، وكذّب رسله.

ولقد بين أنهم جمعوا بين أمرين باطلين؛ فكذبوا على الله مالا حجة عليه ، وكذبوا بما ثبت بالحجة حيث قالوا الملائكة بنات الله ، وسموا القرآن والمعجزات سحراً .

---

[1] – [الأنعام: ١٢]

[2] – جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٢٩٤) ". النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٠٠) الكشاف للزمخشري (٢/ ١١) التفسير الكبير (٤ / ٥٠٠) نظم الدرر (٢ / ٦١٨) البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٦٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٥) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١١٨) روح البيان لحقي (٣/ ١٨) البحر المديد لابن عجيبة (٢/ ١٠٦) فتح القدير للشوكاني (٢/ ١٢٠) تفسير المراغي (٧/ ٩٥) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٧١ – ١٧٠) التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٥٤)

وكلمةُ ﴿أَوۡ﴾ للإيذانِ بأنَّ كلاً منَ الافتراء والتكذيب وحدَه بالغٌ غايةَ الإفراط في الظلم فكيف وهم قد جمعوا بينهما فأثبتوا ما نفاه الله تعالى ونفَوْا ما أثبته !.

﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي : لا ينجُون من مكروهٍ ولا يفوزون بمطلوب ، وإذا كان حالُ الظالمين هذا فما ظنُّك بمن في الغايةِ القاصيةِ من الظلم ؛ لأنه نفى الفلاح عن الظالم فدخل فيه الأظلم والظالم غير الأظلم ، وإذا كان هذا لا يفلح فكيف يفلح الأظلم؟ فالظلم وخصوصاً ظلم الكذب يفسد النفس، ويفسد العقل ويفسد العمل ، وفي هذا تنزيه للنبي ﷺ عن الكذب ، وذلك أن مدّعي الرسالة، لو كان كاذباً كان مفترياً على الله، فلا يكون مفلحاً ، ولا يكون سبباً لصلاح العالم، ولا محلاً لظهور المعجزات[1].

وكما أنه لا يفلح الظالمون اليوم في الدنيا، كذلك لا يفلحون يوم الحشر ، فلما كان معنى هذا أنهم أكذب الناس، دل عليه بكذبهم يوم الحشر بعد انكشاف الغطاء فقال: ﴿وَيَوۡمَ﴾ أي اذكر كذبهم على الله وتكذيبهم في هذه الدار، واذكر أعجب من ذلك، وهو كذبهم في عالم الشهادة عند كشف الغطاء وارتفاع الحجب يوم ﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾ أي نجمعهم بما لنا من العظمة وهم كارهون صاغرون ﴿جَمِيعٗا﴾ أي المشركين وغيرهم ومعبوداتهم ، على اختلاف درجاتهم في ظلم أنفسهم بأنواعه وظلم غيرها بأنواعه ، وأشار إلى عظمة ذلك اليوم وطوله ومشقته وهوله بقوله بأداة التراخي: ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ ولأن القول متأخر عن زمن حشرهم بمهلة ؛ لأن حصة انتظار المجرم ما سيحل به أشد عليه، ولأن في إهمال الاشتغال بهم تحقيرا لهم فيسألهم سؤال توبيخ وتنديم عما أشركوا بالله من الأوثان ﴿نَقُولُ﴾ أى بما لنا من العظمة التي انكشفت لهم أستارها وتبدت لهم بحورها وأغوارها ، إذا حشرنا هؤلاء المفترين على الله الكذب، بادّعائهم له في سلطانه شريكًا، والمكذِّبين بآياته ورسله، والذين كانوا يزعمون أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، فجمعنا جميعهم يوم القيامة ، وقلنا لهم : ﴿أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ وأضيف الشركاء إلى ضمير المخاطبين إضافة اختصاص؛ لأنهم كانوا من جنسهم وجوهرهم، يفنون كما يفنون هم، ولأنهم الذين زعموا لهم الشركة مع الله في الإلهية ، فلم يكونوا شركاء إلا في اعتقاد المشركين، فلذلك قيل شركاؤكم ، وينبيء عنه قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ أنهم لكم آلهة من دون الله، افتراء وكذبًا، وتدعونهم من دونه أربابًا؟ فأتوا بهم إن كنتم صادقين! وعطف بـ "ثم" للتراخي الحاصل بين مقامات يوم القيامة في المواقف، فإن فيه مواقف بين كل موقف وموقف تراخ على حسب طول ذلك اليوم .

---

[1] – جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٢٩٦) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٤٤) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٥٩) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٤٩٦) البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٦٣) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٧٩) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١١٩) التفسير المظهري (٣/ ٢٢٥) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٣٢) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٦٨)

وجيء بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ ليدل على قصد الشمول، فإن شمول الضمير لجميع المشركين لا يتردد فيه السامع حتى يحتاج إلى تأكيده باسم الإحاطة والشمول، فتعين أن ذكر لفظ ﴿جَمِيعًا﴾ قصد منه التنبيه على أن الضمير عائد إلى المشركين وأصنامهم .

والمقصود من حشر أصنامهم معهم أن تظهر مذلة الأصنام ، وعدم جدواها كما يحشر الغالب أسرى ومعهم من كانوا ينتصرون به ؛ لأنهم لو كانوا غائبين لظنوا أنهم لو حضروا لشفعوا، أو أنهم شغلوا عنهم بما هم فيه من الجلالة والنعيم، فإن الأسرى كانوا قد يأملون حضور شفائعهم أو من يفاديهم.

ولما كان سؤالهم لأجل التقريع والتبكيت ، وسؤال إفضاح لا إفصاح ولا السؤال، ولتجربة إظهار ما في قلوبهم قيل له فتنة [1]، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ ﴾ ثم لم يكن قولهم إذ قلنا لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ إجابة منهم لنا عن سؤالنا إياهم ذلك، بعد طول التأمل والندامة إذ فتناهم فاختبرناهم، حيث إن (ثم) للترتيب الرتبي وهو الانتقال من خبر إلى خبر أعظم منه ، فلم يكن افتتانهم في الدنيا بافترائهم على اللّٰه الكذب وإشراك غيره معه، وتكذيبهم آيات اللّٰه، ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ في معذرتهم التي ألزمتهم الحجة وزادتهم لائمة وجوابهم الكذب في الآخرة : ﴿وَٱللَّهِ﴾ فذكروا الاسم الأعظم الذي تندك لعظمته الجبال الشم، وتنطق بأمره الأحجار الصم، الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى التي ظهر لهم كثير منها في ذلك اليوم، وأكدوا ذلك بذكر الوصف المذكر بتربيتهم ودوام الإحسان إليهم فقالوا: ﴿رَبِّنَا﴾ ووصفُه تعالى بربوبيته لهم للمبالغة في التبرّؤ من الإشراك ، فلم يقنعوا بمجرد الكذب حتى أقسموا، ولا بمجرد القسم حتى ذكروا الاسم الجامع والوصف المحسن .

﴿مُشْرِكِينَ ﴾ أي إن تكذيبهم لك أوصلهم إلى حد يكذبون فيه في ذلك اليوم بعد كشف الغطاء طمعاً بما لا ينفعهم كما ترى الحائر المدهوش في الدنيا يفعل مثل ذلك فهو إيئاس من فلاح الجميع، فأقسموا بالله ربهم ، كذبًا منهم في أيمانهم على قِيلهم ذلك ، وهذا الشرك الذي لزموه أعمارهم، وقاتلوا عليه وافتخروا به، وقالوا دين آبائنا إلا جحوده والتبرؤ منه، والحلف على الانتفاء من التدين به وقد ذكر أن هؤلاء المشركين يقولون هذا القول عند معاينتهم سَعةَ رحمة الله يومئذ إذا رأوا مغفرة الله عز وجل وتجاوزه عن أهل التوحيد، فيقول بعضهم لبعض : يا ويلكم جئتم بما لا يغفر الله لكم. هلموا الآن فلنكْذِبْ على أنفسنا، ونحلف على

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٢٩٧) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٤٤) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٦٠) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ١١٧) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٠١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٤٠١) البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٦٤) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٨٠) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١١٩) التفسير المظهري (٣/ ٢٢٦) . تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٨٧) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٧٣) مع تصرف وإضافة من الباحثة

ذلك، فحلفوا فحينئذٍ ختم على أفواههم، فتشهد أيديهم وأرجلهم عليهم، فالممتحن ينطق بما ينفعه ، وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشاً ، وانما سمى المعذرة فتنة ؛ لانهم يتوهمون بها خلاص أنفسهم [1].

﴿ٱنظُرۡ﴾ يا محمد بقلبك وتبين فاعلم، كيف كذَب هؤلاء المشركون في الآخرة باليمين الفاجرةِ المغلَّظة على أنفسهم بإنكار صدور ما صدر عنهم عند لقاء الله بقيلهم:﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ واستعملوا هنالك الأخلاق التي كانوا بها يتخلّقون في الدنيا، من الكذب والفرية.

وقال:﴿كَذَبُواْ﴾ ومعناه: يكذبون ؛ لأنه لما كان الخبر قد مضى في الآية قبلها، صار كالشيء الذي قد كانَ ووُجد، حيث إنه لما كان أمراً يقع بلا شك، أخبر عنه بمثل ما يخبر عما وقع.

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ وفارقهم الأنداد والأصنام، وتبرءوا منها، فسلكوا غير سبيلها؛ لأنها هلكت، فضلت عنهم، فلم تغن عنهم شيئا، وذلك أنهم كانوا يرجون شفاعتها ونصرتها لهم، ليفقدوهم في الساعة التي علقوا بهم الرجاء فيها ؛ لأن ذلك هو المأمول منهم ، فلما لم يظهر شيء من ذلك نزل حضورهم منزلة الغيبة، وبطل ذلك في ذلك اليوم ، وعوقب عابدُوها بفريتهم وصار ذلك تنبيها لهم في دار الدنيا على فساد هذه الطريقة . [2]

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. إن وَصْفَ النبي ﷺ موجودٌ عند أهل الكتاب قبل بعثته ﷺ ، وأنه خاتم النبيين .

٢. وجوب الدعوة إلى الإسلام على كل مسلم في كل زمن ومكان. وهو أشد إيجاباً على القادرين عليه علماً وسلطاناً واستطاعة[3].

٣. التصريح ببراءة النبي ﷺ مما يعبدون من أوثان يشركون بها مع الله تعالى[4] .

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٢٩٧) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٤٤) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٤٠) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ١٤١) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ١٩٨٥) الكشاف للزمخشري (٢/ ١٢) البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٦٥) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٨١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٢٠) التفسير المظهري (٣/ ٢٢٦) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٧٥) مع تصرف وإضافة من الباحثة

[2] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٠١) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ١٩٨٦) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٦٠) الكشاف للزمخشري (٢/ ١٢) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٠١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٢٠) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٧٨) مع تصرف وإضافة من الباحثة

[3] – التفسير الحديث (٤/ ٧٤)

[4] – زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٦٥)

٤.	كانت شـــهادة الله تعالى أكبر شـــهادة؛ لأنها هي التي تتفق مع العقل، ولأنه المنشئ، ولأنه الباقي وكل شيء هالك إلا وجهه [١] .

٥.	بيان أنه ﷺ مبعوث إلى الناس كافة، وإلى الجن [٢] .

٦.	كل الذنوب ما دون الشرك مغفور إن شاء الله، ذلك: إما بتوبة وإقلاع، وإما بفضل من الله ورحمة [٣] .

٧.	قال العلماء: يستحب لمن أسلم ابتداء أن يأتي بالشهادتين، ويبرأ من كل دين سوى دين الإسلام ، ونص الشافعي – رحمه اله تعالى – على استحباب ضم التبري إلى الشهادة،كقوله تبارك وتعالى: {وإنني بريء مما تشركون} عقيب التصريح بالتوحيد [٤] .

٨.	في الآيات دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومن بعدهم، وأنه لا يؤاخذ بها من لم تبلغه [٥] .

٩.	حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ ، وأن ينذر كالذي أنذر [٦] .

١٠.	قول المشركين : ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ دليل على جحود شركهم ، فإن قيل: كيف يجحدونه وقد قال الله : ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ ؟ فالجواب : أن ذلك يختلف باختلاف طوائف الناس واختلاف المواطن، فيكتم قوم ويقر آخرون، ويكتمون في موطن، ويقرون في موطن آخر ؛ لأن يوم القيامة طويل ، وقد قال ابن عباس — رضي الله عنهما – لما سئل عن هذا السؤال: إنهم جحدوا طمعا في النجاة، فختم الله على أفواههم، وتكلمت جوارحهم فلا يكتمون الله حديثاً . [٧]

١١.	من أحب شيئًا فهو عبد له، ويوم القيامة يتبرأ منه، ويرى وبال فتنته والاشتغال به، فينبغي لمن أراد السلامة من الفتنة، أن يُفرد محبته لله، ويتبرأ من كل ما سواه، ويُفرد وجهته لله، ولا يشتغل ظاهرًا ولا باطنًا إلا بما يقربه من الله ويبعده عما سواه . [٨]

---

[١] – زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٦١)

[٢] – محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٣٠)

[٣] – الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ١٩٨٦)

[٤] – اللباب لابن عادل (٨/ ٦٨)

[٥] – أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٥٧)

[٦] – تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٥)

[٧] – التسهيل لابن جزي (١/ ٢٥٧)

[٨] – البحر المديد لابن عجيبة (٢/ ١٠٧)

١٢. الأَوْلى بالمسلمين أن يعرفوا دينهم كما يعرفون أبناءهم [١] .

١٣. أن القرآن الكريم كاف في الإنذار ،فمن لم يتعظ بالقرآن فلا وعظه الله تعالى.[٢]

١٤. يجب على علماء المسلمين أن يبلغوا القرآن كل أحد ؛ لأنه ميراث الأنبياء . [٣]

١٥. أن من لم يكن لسانه عربياً فإنه يبلغ معنى القرآن بلسانه ، ثم يعطى القرآن فيقرأه باللفظ العربي . [٤]

---

[١] – في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٦١)

[٢] – الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦ / ٧٢) .

[٣] – الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦ / ٧٢) .

[٤] – الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦ / ٧٢) .

المبحث الثاني : اختلاف مواقف الخلق تجاه الألوهية ، وما جاء من عنده تعالى من الرسالة والوحي وما يلزم ذلك ويشتمل على ستة مطالب (٢٥ ـ ٩٤) :

تناسق هذا المبحث مع المبحث السابق :

لقد كان الإيمان بالله والتصديق بوجوده ووحدانيته هو الركن الاول والأساسي في العقيدة الإسلامية ، وعلى الرغم من أن الله تعالى بين أنه هو المستحق للعبادة والتوحيد وهو أمر ومعلوم بالفطرة ، ومشاهد بالحواس في الأنفس وعبر الآفاق ، إلا أن البشرية لم يكونوا على قلب واحد بل اختلفت قلوبهم ، وبالتالي اختلفت مشاربهم التي يستقوا منها دينهم وعقيدتهم .

لقد كانت قضية التوحيد أهم القضايا التي ثار فيها النزاع ، وكثر حولها الجدل ، واشتبك معها الحوار ، واحتدم الصراع فيه بين الحق والباطل

ثم إن من يتامل أحداث العصور يجد أن الإنسان إذا حاد عن الجادة ، فإنه لا يستطيع أن ينفرد بإدراك الاعتقاد الصحيح بالخالق سبحانه وتعالى ، وسبب ذلك قصور العقل البشري ، وعجزه عن إدراك الكثير من حقائق الدين" وليست عقول الناس سواء فى معرفة الله تعالى ولا فى معرفة حياة بعد هذه الحياة، فهم وإن اتفقوا فى الخضوع لقوة أسمى من قواهم ، إلا أن الوثنية أفسدت عقولهم ، وانحرفت بها عن مسلك السعادة ، فيقع أحياناً في شراك الوهم والتخريف ، فيعبد مظاهر الطبيعة .

وليس فى سعة العقل الإنساني فى الأفراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف ، ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغى أن يفهم ، ولا أن يقرر لكل نوع من الأعمال جزاءه فى تلك الدار الآخرة ، لهذا كله كان العقل الإنسانى محتاجاً فى قيادة القوى الإدراكية والبدنية إلى ما هو خير له فى الحياتين إلى معين يستعين به فى تحديد أحكام الأعمال ، وتعيين الوجه في الاعتقاد بصفات الألوهية ، ومعرفة ما ينبغى أن يعرف من أحوال الآخرة ، ويكون هذا المعين من بني جنسه ؛ ليفهم منه أو عنه ما يقول ، وحتى يكون ممتازاً على سائر الأفراد بأمر فائق على ما عرف فى العادة ، وما عرف فى سنة الخليقة ، ويكون بذلك مبرهناً على أنه يتكلم عن الله الذى يعلم مصالح العباد على ما هى عليه ، ويعلم صفاته الكمالية وما ينبغى أن يعرف منها والحياة الآخرة وما أعد فيها ، فيكون الفهم عنه والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير معينا للعقل على ضبط ما تشتت عليه أو درك ما ضعف عن إدراكه وذلك المعين هم الرسل[1].

وبما أن العقل البشري كما خلقه الله تعالى غير قادر على الوصول وحده إلى الهداية أو رسم منهج للحياة يحقق للإنسانية السعادة في الدنيا والآخرة ؛ فإنه لم توكل له تلك المهمة ، بل تفضل الله تعالى برحمته وكرمه ، فأنزل الهداية من السماء عن طريق الوحي ، فأعفى بذلك الخلق من التخبط واللجوء إلى الحدس ، وما يتبع ذلك من تجارب فاشلة ، ومتاعب باطلة ، تستغرق من عمر الإنسان سنين طويلة ، لذلك جاء

---

[1] – التوحيد لمحمد عبده (ص: ٤١ – ٤٢)

الأنبياء – عليهم السلام – بالحق من الله تعالى ، وقدمته للبشرية ثمرة يانعة ، كاملة لا يشوبها عيب ولا يعتريها نقص ، وهي سالمة من التناقض والتعارض .

وإخراج الناس من ظلمات الشرك والجهل إلى نور الحق واليقين هي مهمة الرسل التي بينتها الآيات اللاحقة فالله تعالى لم يترك الناس سدى بل بين لهم طريق النجاة عن طريق ارسال الرسل .

و"الله سبحانه فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على ألسنة الرسل، فإذا جحدوا الرسل ردوا عليهم شرائعهم ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أمروا بالتزامها، فكان كجحد الصانع سبحانه، وجحد الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية"[1].

وهي نعمة جليلة يستحق الله تعالى لأجلها الحمد الجليل ، وهي نعمة لا تضاهى ولا تقارن بأي نعمة أخرى ، وهي ما تقرر في الآيات السابقة .

لقد كان الإيمان بالله والتصديق بوجوده ووحدانيته هو الركن الاول والأساسي في العقيدة الإسلامية لذا جات الآيات السابقة مؤكدة لهذا المطلب ، وتم تقسيمها كالتالي :

المطلب الأول : مظاهر من أحوال المشركين في الدنيا والآخرة (٢٥ – ٣٢)

المطلب الثاني : تسلية النبي ﷺ والتخفيف عنه (٣٣ – ٣٥)

المطلب الثالث : موقف المشركين تجاه آيات الله الشرعية والكونية وتهديد الله لهم (٣٦ – ٤٧)

المطلب الرابع : الحكمة من ارسال الرسل والتوجيهات الإلهية لهم (٤٨ – ٥٨)

المطلب الخامس: خطاب المشركين بما هو معلوم عندهم بالضرورة من ربوبية الله تعالى (٥٩ – ٦٥)

المطلب السادس : موقف المشركين مما دعاهم إليه النبي ﷺ وما يجب أن يكونوا عليه (٦٦ – ٧٣)

المطلب السابع : موقف إبراهيم - عليه السلام - من عبدة الكواكب وما ناله من الفضل وذريته وإخوانه الأنبياء – عليهم السلام - (٧٤ – ٩٠)

المطلب الثامن : انكار المشركين ما جاء من الله تعالى والافتراء عليه (٩١ – ٩٤)

[1] - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٥)

المطلب الأول : مظاهر من أحوال المشركين في الدنيا والآخرة (٢٥ – ٣٢)

يقول الله سبحانه تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

أولاً : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

لما بين أحوال الكفار في الآخرة من الموقف السابق الذي سيقوا فيه إلى يوم القيامة، وإلى الحساب والمساءلة، وقطع الحجة عليهم ، وذكر ما يكون منهم من تلجلج واضطراب، فتارة ينكرون شركهم بالله وأخرى يعترفون به وذكر ما يواجهون به من اللوم والتقريع على الشركاء الذين اتخذوهم أولياء وشفعاء ؛ ردّوا إلى موقفهم الأول، حين كانوا فى مواجهة النبي ﷺ وفي عنادهم له، وتصدّيهم لدعوته ، حيث أتبعه بما يوجب اليأس عن إيمان بعضهم لوجود الموانع الصادّة عنه، فمهما توالت الآيات والنذر لا تجدى معهم شيئاً، إذ الحجب كثيفة، والأغطية سميكة، فاختراقها عسير، والوصول إليها فى حكم المستحيل فقال : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ [1] .

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْهُم ﴾ومن هؤلاء العادلين بربِّهم الأوثانَ والأصنامَ من قومك، يا محمد ﴿ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ قوم يحملهم بعضَ الأوقات، بعضُ الدواعي إلى الاستماع لما تقول أيها الرسول إذا تلوت القرآن منذراً يوم القيامة ، ويستمع ما تدعوه إليه من توحيد ربك، وأمره ونهيه ولا تجزي عنهم شيئاً ؛ لأنه لا يتدبر فيه حتى يطّلع على إعجازه، ويؤثر فيه الإرشاد ، فقد أنكروا عليه واستهزؤا به عناداً ومكابرة لذا كيف يفهمونه وقد جعل الله ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ على آلة الفهم والإدراك من أنفسهم وهي قلب الإنسان ولبه

[1] – انظر : مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٠٤) تفسير المراغي (٧/ ٩٧) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٤٩)

؛ أغطية وأغشية كثيفة وحجباً فلا يفقه ما تقول ولا يُوعِيه قلبَه، ولا يتدبره ليتفقهه فيفهم حجج الله عليه في تنزيله الذي أنزله عليك، إنما يسمع صوتك وقراءتك وكلامك، ولا يعقل عنك ما تقول؛ لأن الله قد جعل على قلبه﴿ أَكِنَّةً ﴾ جمع كِنان وهو الغِطاءُ ، وهو ما يستر الشيء ، وهذا الغطاء مانع من أن يفهموه ويعوه ببواطن قلوبهم، بواطنه التي بها إعجازه وإرشاده، بإقامة الدلائل ورفع الشبه ، يقول تعالى واصفاً تلك الأكنة في موضع آخر من كتابه : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[المطففين: ١٣ – ١٤]

فنراه قد ضرب على قلوبهم حجاز يقطع ما بينها وبين موارد العالم الخارجي، فلا تحسّ شيئاً، ولا تنفعل لشيء.

﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ وجعل في آذانهم ثِقلاً وصمماً عن فهم ما تتلو عليهم، والإصغاء لما تدعوهم إليه من الحق ، وكان ذلك مانعاً من وصول السماع النافع ، فالآذان هي طريق الوصول إلى بواطن القلوب، ولما ذكر ما يتعلق بالسمع، ذكر ما يظهر للعين، معبراً بما يعم السمع وغيره من أسباب العلم فقال: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ﴾أي بالبصر أو البصيرة ﴿ كُلَّ ءَايَةٍ ﴾ كل حجة وعلامة تدلُّ أهل الحجا والفهم على توحيد الله ووحدانيته، وربوبيته، وقدرته على البعث، وصدق قولك وحقيقة نبوتك ﴿ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾ لا يصدّقون بها، ولا يقرّون بأنها دالّة على ما هي عليه دالة ، ويحملوها على السحر؛ لفرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم وسبقِ الشقاء لهم، ولا يزال التكذيب والشك يعظُم فيهم ، فلا فهم عندهم ولا إنصاف ، وذلك ما حكاه تعالى في موضع آخر من كتابه حيث قال : ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ﴾[القمر: ٢]

والظاهر أن الغطاء والصمم هنا ليسا حقيقة بل ذلك من باب استعارة المحسوس للمعقول حتى يستقر في النفس، فاستعار الأكنة لصرف قلوبهم عن تدبر آيات الله، والثقل في الأذن لتركهم الإصغاء إلى سماعه وليس المعنى أنهم لم يَفْهَموه ولم يَسمَعوه، ولكنهم لَما عَدَلُوا عَنْه وصَرَفُوا فِكْرهم عَما هم علَيه، في سوءِ العاقبة كانوا بمنزلة من لم يعلم ولم يسمع ، وهذا عبارة عما جعل الله في نفوس هؤلاء القوم من الغلط والبعد عن قبول الخير .

ووجه إسناد الفعل إلى ذاته وهو قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ للدلالة على أنه أمر ثابت فيهم لا يزول عنهم، كأنهم مجبولون عليه ، أو هي حكاية لما كانوا ينطقون به من قولهم : ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت: ٥]

والمشركون كانت معروضة عليهم أمارات الهدى ودلائل الحق وموحيات الإيمان، في هذا القرآن، الذي يلفتهم إلى آيات الله في الأنفس والآفاق وهي وحدها كانت كفيلة- لو اتجهت إليها قلوبهم- أن توقع على أوتار هذه القلوب، وأن تهز فيها المدارك الغافية فتوقظها وتحييها، لتتلقى وتستجيب.. إلا أنهم هم لم يجاهدوا ليهتدوا بل عطلوا فطرتهم وحوافزها فجعل الله بينهم وبين موحيات الهدى حجاباً وصاروا حين يجيئون إلى الرسول ﷺ لا يجيئون مفتوحي الأعين والآذان والقلوب ليتدبروا ما يقوله لهم تدبر الباحث عن الحق ، ولم يكتفوا بمجرد عدم الإيمان بل بلغ نتيجة ذلك العمل أنه ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ ﴾ يخاصمونك ويناظرونك في الحق بالباطل ،بالفعل وبالقوة، ثم جاء بيان لما تكشفت عنه حالهم، وانتهى إليه أمرهم، من هذا الموقف الذي جاءوا فيه إلى النبي، مستمعين مجادلين، لا طلاب علم واستفادة ، فقال مظهراً للوصف الذي أداهم إلى ذلك: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ الذين جحدوا آيات الله وأنكروا حقيقتها، وغطوا لما هو ظاهر لعقولهم يقولون لنبيِّ الله ﷺ إذا سمعوا حجج الله التي احتجَّ بها عليهم، وبيانَه الذي بيَّنه لهم ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ أي: ما هذا إلا أحاديث وترهات وأباطيل الأوّلين، يقولون ذلك تعنتًا منهم؛ لأنهم كانوا يعرفون أنه حق، وأنه ليس بكلام البشر؛ لأنهم عجزوا عن إتيان مثله .

وكان الجدير بهم- لو عقلوا- أن تتأثر وجداناتهم بهذه الإثارات التي تتغيّر بها معالم الوجود فى أعينهم، حين ينقلون من الدنيا إلى الآخرة، ثم يردّون من الآخرة إلى الدنيا ، ولكنهم ظلوا على حال واحدة، حتى لكأنهم أحجار لا تحسّ ولا تعقل ، وهم لا يتحركون إلا إلى الشرّ، ولا يعملون إلا لما هو شرّ[1] .

ولما بين أنهم طعنوا في كون القرآن معجزا بأن قالوا: إنه من جنس أساطير الأولين وأقاصيص الأقدمين؛ بين- سبحانه- أنهم لا يكتفون بمحاربة الدعوة الإسلامية، بل هم لفجورهم يحرضون غيرهم على محاربتها معهم فقال تعالى : ﴿ وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

فقد كان أولئك الكفار يعاملون رسول الله ﷺ بنوعين من القبيح ، وذلك أنهم ينهون عن استماع التنزيل وتدبره وعن اتباعه والإيمان به ، وذلك لرؤيتهم حلاوة نظمه فوق نثرهم وشعرهم، مع متانة معاينة، فهم يعرفون أن التدبر فيه يفيد التطلع على إعجازه. فيخافون تأثيره في قلوب الخلائق. لذلك ينهون عنه. أي: عن قراءته واستماعه، لئلا يدعوهم إلى التدبر فيه، فيفسد عليهم أغراضهم الفاسدة.

---

[1] — انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٠٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٣٦) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٤٦) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٦١) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ١١٨) الكشاف للزمخشري (٢/ ١٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٧٩) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٥٨) البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٦٩) الدر المصون للسمين الحلبي (٤/ ٥٧٩) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٧) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٨٤) الفواتح الإلهية للنخجواني (١/ ٢١٦) البحر المديد لابن عجيبة (٢/ ١٠٨) فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٤/ ١٢٢) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٣٦) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٠) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ٢٥٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٦٦) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٥٠) مع تصرف وإضافة من الباحثة

ولقد بدأوا بأنفسهم فكانوا يتباعدون عنه بأنفسهم إظهاراً لغاية نفورهم عنه ، وتأكيداً لنهيهم عنه فإن اجتنابَ الناهي عن المنهيِّ عنه من متمّمات النهْي ، ولعل ذلك هو السرُّ في تأخير النأْي عن النهْي ، وينأون عنك فيبعدون منك ومن اتباعك فيضلون ويضلون ، وهذا أفضل تفسير للآية ؛ ولا سيما إذا لوحظ أن الآية جاءت في سياق تعنيف زعماء الكفار على مواقف عنادهم ومكابرتهم ثم في سياق جدلهم في القرآن. وليس في السياق مجال للاستطراد إلى وصف موقف عمّ النبي ﷺ والآية بعد معطوفة على ما قبلها وليست فصلاً مستقلاً ؛ إذ أن جميع الآيات المتقدمة على هذه الآية تقتضي ذم طريقتهم، فكذلك قوله : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ وهم ينهون عنه ينبغي أن يكون محمولاً على أمر مذموم، فلو حملناه على أن أبا طالب كان ينهى عن إيذائه، لما حصل هذا النظم ، كذلك نراه تعالى يقول بعد ذلك : ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ وإن يهلكون إلا أنفسهم يعني به ما تقدم ذكره ، ولا يليق ذلك بأن يكون المراد من قوله : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ وهم ينهون عنه النهي عن أذيته، لأن ذلك حسن لا يوجب الهلاك.

ولما أشعر تصرفهم ذلك كونهم يبغون الغوائل تجاه الرسول ﷺ وللمؤمنين، خوفاً من قوة تأثير التنزيل في القلوب، ويقصدون به تخلي الناس عن الرسول فيهلكونه ، أتبعه بأنه لا يحصل لهم هذا المطلوب؛ لأن الله متم نوره، ومظهر دينه، وأن الدائرة عليهم فهم في الحقيقة يهلكون أنفسهم لذلك قال : ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ وما يهلكونَ بصدّهم عن سبيل الله، وإعراضهم عن تنزيله، وكفرهم بربهم إلا أنفسهم لا غيرها، فلايتعداهم الضرر إلى غيرهم وإن كانوا يظنون أنهم يضرون رسول الله ، وذلك أنهم يكسِبُونها بفعلهم ذلك، سخط الله وأليم عقابه وما لا قِبَل لها به ، وتعريض أنفسهم لأشد العذاب وأفظعِه عاجلاً وآجلاً وهو عذابُ الضلال والإضلال ، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ وما يدرون ما هُمْ مكسبوها من الهلاك والعطب بفعلهم[1]، لانطماس بصيرتهم، وقسوة قلوبهم ، فهم لا يشعرون أنهم يقصُرون الإهلاكَ على أنفسهم من غير أن يُضِروا بذلك شيئاً من القرآن والرسول ﷺ والمؤمنين ، إذ لو شعروا لكفوا .

ونفي الشعور مذمة بالغة إذ البهائم تشعر وتحس، فإذا قلت : لا يشعر ، فقد نفيت عنه العلم النفي العام الذي يقتضي أنه لا يعلم ولا المحسوسات.

(1) – "وذلك أن الآيات قبلَها جرت بذكر جماعة المشركين العادِلين به، والخبرِ عن تكذيبهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، والإعراض عما جاءهم به من تنزيل الله ووحيه، فالواجب أن يكون قوله:"وهم ينهون عنه"، خبرًا عنهم، إذ لم يأتنا ما يدُلُّ على انصراف الخبر عنهم إلى غيرهم. بل ما قبل هذه الآية وما بعدها، يدلّ على صحة ما قلنا، من أن ذلك خبر عن جماعة مشركي قوم رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، دون أن يكون خبرًا عن خاصٍّ منهم". جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣١٥)

وعملهم هذا يدل على أنهم كانوا معترفين في قرارة أنفسهم بأن القرآن حق، لأنهم لو كانوا يعتقدون أنه أساطير الأولين- كما زعموا- لتركوا الناس يسمعونها ليتأكدوا من أنها خرافات وأوهام، ولكنهم كانوا مؤمنين ببلاغة القرآن وصدقه .

ولما جعل عدم إيمانهم في هذه بشيء من الآيات موصلاً لهم إلى غاية من الجهل عظيمة مُوئِسَة من ادعائهم في هذه الدار ، وهي مجادلتهم له ﷺ ، وختم الآية بما رأيت من عظيم التهديد ، استشرفت النفس إلى معرفة حالهم عند ردهم إلى الله تعالى والكشف لهم عما هُددوا به ، فنراه لما ذكر صفة من ينهى عن متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وينأى عن طاعته بأنهم يهلكون أنفسهم ؛ أردفه بتمثيل حالهم يوم القيامة ، وشرح كيفية ذلك الهلاك بهذه الآية ، فالخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأنّ في الخبر الواقع بعده تسلية له عمّا تضمّنه قوله : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ فإنّه ابتداء ؛ عقّبه بقوله : ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ ، ويشترك مع الرسول في هذا الخطاب كلّ من يسمع هذا الخبر .[1]

ثم جاء بالمشهد المقابل لمشهدهم في الدنيا ، مشهد الاستخذاء والندامة والخزي والحسرة ؛ في مقابل مشهد الإعراض والجدال والنهي والنأي والادعاء العريض! حيث قال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ ﴾ يا محمد هؤلاء العادلين بربهم الأصنامَ والأوثانَ، الجاحدين نبوّتك، الذين وصفت لك صفتهم ﴿ إِذْ وُقِفُواْ ﴾ إذ حُبِسوا وهم على حال من الذل والخضوع في الآخرة بما كان منهم في الدنيا من الاستكبار والاستنكاف ﴿ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ عبر بـ (على) بدل (في) للإشارة إلى أن مجرد الاطلاع عليها، والعلم بها بالعيان يلقي في النفس بهولها وشدتها، فما بالك بالوقوع فيها ، فأخبر أنهم عَايَنُوها وكانوا عليها وَهِيَ تَحتَهم ، فكيف إذا أُدخِلوها فَعَرَفوا مقدارَ عَذَابَها، لرأيت أمراً هائلاً وحالاً مفظعة ، وما لا يحيط به الوصف ولا يقدر على التعبير عنه اللسان، ولا يبلغ تصويره البيان، ولو أوتى المتكلم بأبلغ بلاغة ، ولرأيت هؤلاء المشركون بربهم، إذ حُبسوا في النار يقولون: ﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾ إلى الدنيا حتى نتوب ونراجعَ طاعة الله ﴿ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾ ولا نكذّب بدين ربنا ولا بحجج ربنا ولا نجحدها ، ومنها الآيات الناطقة بأحوال النار وأهوالها الآمرة باتقائها إذ هي التي تخطر حينئذ ببالهم ويتحسرون على ما فرطوا في حقها .

وحرف النداء في قولهم: ﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾ مستعمل في التحسر؛ لأن النداء يقتضي بعد المنادى، فاستعمل في التحسر لأن المتمنى صار بعيداً عنهم، أي غير مفيد لهم ، فسجلت الآية اعترافهم أنهم على

---

[1] — انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣١١) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٨١) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٠٧) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٤٩٨) البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٧٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٢٢) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٣٦) التفسير الحديث (٤/ ٨٠) التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٥٩) أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٤٩) مع تصرف وإضافة من الباحثة

التعنت كذبوا في الأوّل لا على الجهل ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ونكون من المصدّقين بالله وحججه ورسله، متَّبعي أمره ونهيه ، لا سيما قَد عَايَنا وَشَاهَدنَا مَا لَا نكَذْب مَعَه أبداً ، فتمنوا الرد والتوفيق للتصديق، وضمِنوا أنهم لا يُكَذِّبونَ ؛ لأنهم عرفوا أن ما أصابهم إنما أصابهم بتكذيبهم الآيات وتركهم الإيمان ، ومن صدر منه تقصير ثم عاين الشدائد والأحوال بسبب ذلك التقصير؛ يتمنى الرد إلى الحالة الأولى، ليسعى في إزالة جميع وجوه التقصيرات.

ومعلوم أن الكفار قصروا في دار الدنيا فهم يتمنون العود إلى الدنيا لتدارك تلك التقصيرات، وذلك التدارك لا يحصل بالعود إلى الدنيا فقط، ولا بترك التكذيب، ولا بعمل الإيمان بل إنما يحصل التدارك بمجموع هذه الأمور الثلاثة ، فوجب إدخال هذه الثلاثة تحت التمني ، على معنى أنهم تمنوا الرد وترك التكذيب والكون مع المؤمنين ، وذلك حتى لا يروا هذا الموقف الهائل[1].

ثم نراه رد كلامهم ، وإضراب عن توهم صحة عزيمتهم على الإنابة التي كان تمني الرجعة لأجلها ، وبين أنه ليس على ما قالوا من أنهم لو ردوا لآمنوا الأسَى والندمُ على ترك الإيمان بالله والتصديق بك، لكن تمنوا ذلك ضجراً لا عزماً على أنهم لو ردوا لآمنوا ، والإشفاق مما هو نازلٌ بهم من عقاب الله وأليم عذابه ، فيقول تعالى عن حقيقة حالهم :﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ وهو أنه يظهر يومئذ لكل من أولئك الذين ورد الكلام فيهم ولأشباههم من الكفار ما كان يخفيه في الدنيا مما هو قبيح في نظره أو نظر من يخفيه عنهم، فالذين كفروا عناداً واستكباراً كالرؤساء الذين ظهر لهم الحق كانوا يخفون ذلك الحق، وأصحاب الأعمال القبيحة من الفواحش والمنكرات يخفونها عمن لا يقترفها معهم ، والذين يعتذرون عن ترك الواجبات بالأعذار الكاذبة يخفون حقيقة حالهم عمن يعتذرون إليهم، والمقلدون يخفون في أنفسهم ما يلوح فيها أحياناً من برق الدليل المظهر لما كمن في أعماق الفطرة من الحق، سواء أومض ذلك البرق من آيات الله في الآفاق، وألسنة حملة الحجة والبرهان، أو من آيات الله في أنفسهم، قبل أن تحيط بهم خطيئتهم ويختم على قلوبهم، وهؤلاء المقلدون العميان هم الذين بينت الآيات حالهم في الدنيا، وإنما جعلنا ما تلا ذلك من بيان حالهم في الآخرة عاماً لكل من مات على الكفر ، لتساويهم فيه وعدم استفادة أحد منهم من استعداده للإيمان، لعدم استعمالهم لذلك الاستعداد.

فيخبر المولى عن حالهم فيقول : ﴿وَلَوْ رُدُّواْ﴾ إلى الدنيا فأمْهلوا ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾لرجعوا إلى مثل العمل الذي كانوا يعملونه في الدنيا قبل ذلك، من جحود آيات الله، والكفر به، والعمل بما يسخط

---

[1] — انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣١٦) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٣٩) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٥٣) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٠٨) نظم الدرر (٢ / ٦٢٢) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٧ / ١٨٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٤٠٩) فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٤/ ١٢٤) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٣٨) تفسير المراغي (٧/ ١٠١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ٢٥٤) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٦٧) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٨٤) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٧٥) مع تصرف وإضافة من الباحثة

عليهم ربِّهم كأنَّه يَذْهب إلى أنهم لَم يُشَاهِدوا ما يضطرهم إلى الارتِدَاع ، وفيه ارتقاء في إبطال قولهم حتى يكون بمنزلة التسليم الجدلي في المناظرة، أي لو أجيبت أمنيتهم وردوا إلى الدنيا بزخارفها وعصبياتها، وأهوائهم وشهواتهم، وحب الغلب لعادوا للأمر الذي كان النبي ﷺ ينهاهم عنه، وهو التكذيب وإنكار البعث ، ولكل ما نهوا عنه من الإعراض عن الآيات، والمكابرات في المعجزات، والاستهانة بالإيمان والمؤمنين، ووقعوا في كل المخابث التي كانت منهم، وذلك لأن السبب في الجحود هو سيطرة الهوى والشهوة والعصبية الجاهلية .

ولقد أكد الله سبحانه كذبهم في أمنياتهم ونتائج تمنياتهم فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قيلهم: لو رددنا لم نكذب بآيات ربّنا وكنا من المؤمنين ؛ لأنهم قالوه حين قالوه خشية العذاب، لا إيمانًا بالله .

ولقد قالوا: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فيخبر عنهم أنهم ينكرون أنّ الله يُحيي خلقه بعد أن يُميتهم، ويقولون: لا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور بعد الفناء ، فما هي إلا آجالنا تنقضي في الدنيا، فيموت الآباء، ويجيء الأبناء ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت ، فهم بجحودهم ذلك وشدة تمردهم وعنادهم ، ولم يكتفوا بمجرد الإخبار بذلك حتى أبرزوها محصورة في نفي وإثبات وإنكارهم ثوابَ الله وعقابَه في الدار الآخرة، لا يبالون ما أتوا وما ركبوا من إثم ومعصية، لأنهم لا يرجون ثوابًا على إيمان بالله وتصديق برسوله وعملٍ صالح بعد موت، ولا يخافون عقابًا على كفرهم بالله ورسوله وسيّئٍ من عمل يعملونه ، فيبيّن الله تعالى حالهم يومئذٍ ، وكفى بهذا القول دليلاً على كذبهم .

وواضح أن الآيتين استهدفتا فيما استهدفتاه إنذار الكفار وإثارة الخوف في قلوبهم وتصوير ما استقر في نفوسهم من تعمد العناد والكفر وفقدهم الرغبة الصادقة في الإيمان والصلاح وفيهما تطمين وتسلية للنبي ﷺ والمؤمنين أيضاً ، بالإضافة إلى ما فيهما من مشهد أخروي يجب الإيمان به [1].

ولـــمّا ذكر إنكارهم البعث أعقبه بوصف حالهم حين يحشرون إلى الله ، وهو حال البعث الذي أنكروه ، وهذا من أساليب الخطاب العربي بسبيل توكيد بعثهم وحكاية لما سوف يكون بينهم وبين الله تعالى ، فيقول تعالى ذكره: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد هؤلاء القائلين: ما هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين لرأيت أمراً عظيماً خطيراً ، وهَوْلاً جسيماً مدهشاً لا يحدّه وصف، ﴿إِذْ وُقِفُواْ﴾ حبسوا يوم القيامة، وصفوا وعرضوا ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ على حكم الله وقضائه فيهم ليحاسبوا بما عملوا ، واقتضى إضافة الرب إليهم ليبين أنه الذي طال إحســـانه إليهم وحلمه عنهم، فأظهر لهم ما أظهر في ذلك المقام من تبكيتهم

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٢١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٤٠) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٤٢) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٠٥) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٦٣) الكشاف للزمخشري (٢/ ١٦) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٨٢) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٥٩) التفسير الحديث (٤/ ٨١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٥) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٨٦) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٧٧) التفسير البسيط للواحدي (٨/ ٧٨) فتح القدير للشوكاني (٢/ ١٢٥) فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٤/ ١٢٦) مع تصرف وإضافة من الباحثة

وتوبيخهم وتقريعهم، وأطلعهم بما يقتضيه أداة الاستعلاء – على ما له سبحانه من صفات العظمة من الكبرياء والانتقام من التربية إذ لم يشكروا إحسانه في تربيتهم حيث إنه ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ أليس هذا البعثُ والنشر بعد الممات الذي كنتم تنكرونَه في الدنيا، حقًّا؟ أي الأمر الثابت الكامل في الحقية الذي لا خيال فيه ولا سحر ، وليس بباطل كما كنتم تظنون.

حينئذ وصلوا إلى مرحلة الصدق، حيث إنه لما تبين لهم أن الكذب لا يُجدي لجئوا إلى الصدق، ففي حسرة قاتلة، وفي أنفاس لاهثة مبهورة، وفي كلمات حزينة متقطعة دامية، تتحرك شفاههم بها في إعياء وتثاقل- يجيء منهم هذا الصوت الخفيض في أنين ذليل ؛ حيث جاء جوابهم بعد ما كوشفوا وعوينوا معتذرين متفجعين مصدقين مقسمين فقالوا: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أقروا وأكدوا الإقرار باليمين إنه لحقّ ، إظهاراً لكمال يقينهم بأحقيته، لانجلاء الأمر غاية الجلاء، وكان ذلك إيذاناً بصدور ذلك عنهم بالرغبة والنشاط وهم يطمعون في نفع ذلك الإقرار وينكرون الإشراك فيقولون والله ربنا نقر ولا نشك فيه فلذلك نقسم عليه، وكان ذلك الإقرار في وقت لا ينفعهم الإقرار ، ولما أقروا قهراً بعد كشف الغطاء وفوات الإيمان بالغيب بما كانوا به يكذبون، تسبب عنه إهانتهم، فلذا قال الله مستأنفاً ، منكراً ومقرعاً عليهم فيما مضى، مسبباً عن اعترافهم حيث لا ينفع، وتركهم في الدنيا حيث كان ينفع .

وهم موقوفون على ربهم في الموقف الذي نفوا على سبيل التوكيد أن يكون! وفي اختصار يناسب جلال الموقف، ورهبة المشهد، وهول المصير، يجيء الأمر العلوي بالقضاء الأخير ولا يكون لهم فيه رحمة : ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ فباشروا العذاب الذي كنتم به في الدنيا تكذبون ، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ بتكذيبكم به وجحودكموه الذي كان منكم في الدنيا ، وبسبب دوامكم على ستر ما دلتكم عليه عقولكم من صدق رسولكم، لا ظلماً منا ، وخص لفظ الذوق لأنهم في حال يجدون ألم العذاب وجدان الذائق في شدة الإحساس [١].

ثم تعجب من حالهم حين يقعون يوم القيامة في العذاب على ما استداموه من الكفر الذي جرأهم على استدامته اعتقادهم في نفي البعث فذاقوا العذاب لذلك، فتلك حالة يستحقون بها أن يقال فيهم: قد خسروا وخابوا.

---

(١) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٢٣) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٤٢) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٤٩٩) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٨٩) الفواتح الإلهية للنخجواني (١/ ٢١٦) البحر المديد لابن عجيبة (٢/ ١١١) فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٤/ ١٢٦) مراح لبيد لمحمد نووي (١/ ٣١٤) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٤٠) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ٢٥٤) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٧١) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٥٦) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٨٨) التفسير الحديث (٤/ ٨١) أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٥١) التفسير المنير للزحيلي (٧/ ١٧٧) مع تصرف وإضافة من الباحثة

حيث لما أنتج هذا ما تقدم الإخبار به عن خسرانهم لأنفسهم في القيامة توقع السامع ذكره، فجاء تقرير عن هذا الموقف، الذي انكشف فيه للكافرين ما كانوا فيه من غفلة وضلال، وفي هذا التقرير، يرى كل ضال غافل المصير الذي ينتهي به ضلاله وغفلته إليه، فقال تحقيقاً لذلك :﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ﴾ قد هلك ووُكس وغبن الذين كذبوا بلقاء الله جحدوا بالله، وأنكروا البعثَ بعد الممات، والثواب والعقابَ، والجنةَ والنارَ، خسروا كل شيء يمكن إحرازه من الثواب العظيم واستمر تكذيبهم ، والخسران لا يكون الا في صفقة بيع قد جرت ، ولا أعظم من هذه الصفقة التي خسروها ؛ حيث تبين لهم خسران صفقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر والدنيا بالآخرة فكأنهم قالوا : ﴿ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ في صفقتنا.

وذلك لأنه تعالى بعث جوهر النفس الناطقة القدسية الجسماني وأعطاه هذه الآلات الجسمانية والأدوات الجسدانية وأعطاه العقل والتفكر ؛ لأجل أن يتوصل باستعمال هذه الآلات والأدوات إلى تحصيل المعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة التي يعظم منافعها بعد الموت ، فإذا استعمل الإنسان هذه الآلات والأدوات والقوة العقلية والقوة الفكرية في تحصيل هذه اللذات الدائرة والسعادات المنقطعة ثم انتهى الإنسان إلى آخر عمره فقد خسر خسراناً مبيناً ؛ لأن رأس المال قد فني ، والربح الذي ظن أنه هو المطلوب فني أيضاً وانقطع ، فلم يبق في يده لا من رأس المال أثر ، ولا من الربح شيء ، فكان هذا هو الخسران المبين .

وهذا الخسران إنما يحصل لمن كان منكراً للبعث والقيامة وكان يعتقد أن منتهى السعادات ونهاية الكمالات هو هذه السعادات العاجلة الفانية ، وأنهم عند الوصول إلى موقف القيامة يتحسرون على تفريطهم في تحصيل الزاد ليوم المعاد ، أما من كان مؤمناً بالبعث والقيامة فإنه لا يغتر بهذه السعادات الجسمانية، ولا يكتفي بهذه الخيرات العاجلة ، بل يسعى في إعداد الزاد ليوم المعاد فلم يحصل له الخسران .

وعبر عن قيام القيامة واليوم الآخر بلقاء الله تعالى تشريفاً لذلك اليوم، ولأنه له الولاية الحق في ذلك، فلا ولاية ولو ظاهرية لغيره ، ولا ملك لغيره ولو كان ظاهرياً ، وفيه ترغيب في الإيمان باللقاء، وترهيب من تكذيبه، وإنهم إذ يكذبون يستمرون في ضلالهم حتى تجيئهم الساعة بغتة لذلك قال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾حتى إذا جاءتهم السَّاعة التي يَبْعث الله فيها الموتى من قبورهم ، فعبر عن يوم القيامة هنا بلفظ الساعة لسرعة وقوعها .

ويعني بقوله:﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأةً بسرعة من غير أن يشعر به الإنسان، ومن غير علم أي لا يعلمها أحد فينتظرها ،ومن غير اعتداد لها ولا جعل بال منها ، ولا يحسبون حساباً ولا يعدون عدة لمجيئها ، إذ كانوا على تكذيب قاطع بهذا اليوم .

وكلمة ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لقوله : ﴿كَذَّبُواْ﴾ لا لقوله : ﴿قَدۡ خَسِرَ﴾ ؛ لأن خسرانهم لا غاية له ، ومعنى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هاهنا أن منتهى تكذيبهم الحسرة يوم القيامة، والمعنى أنهم كذبوا إلى أن ظهرت الساعة بغتة.

فإذا جاءتهم الساعة بغتة، فرأوا ما لحقهم من الخسران في صفقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر والدنيا بالآخرة، عندئذ صاحوا بأعلى أصواتهم معلنين عن تندمهم وذلك بعد أن سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا : ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا﴾ التي لا يقدرون على كتمانها ، ويا ندامتنا وليتنا ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ على ما قصرنا وضيّعنا وتركنا عمل الآخرة من المحاسن والطاعات في الدنيا ، وتقصيرنا في مراعاة حقها ، والاستعداد لها بالإيمان بها واكتسابِ الأعمالِ الصَّالحةِ ، والقدرة على ترك التقصير والتضييع ، والضياع هنا ضياع صفقتهم ببيعهم منازلهم من الجنة بمنازل من اشتروا منازله من أهل الجنة من النار، فإذا عاينوا ما باعوا وما اشتروا، تبيَّنوا خسارة صفقة بَيْعهم التي سلفت منهم في الدنيا، وفي هذا تندُّم وتلهُّف على عظيم الغَبْن الذي غبنوه أنفسهم، وجليلِ الخسران الذي لا خسرانَ أجلَّ منه ، وهذا حين يرى أهل النار منازلهم من الجنة لو عملوا بعمل أهل الجنة، فيندمون على التفريط في الدنيا ،وأضافوا الحسرة إلى أنفسهم ليكون تحسرهم لأجل أنفسهم .

ثم أتبعوا حسرتهم بذكر سبب هذه الحسرة حيث قالوا : ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ أي أضعنا. يقال: فرط في الأمر إذا تهاون بشيء ولم يحفظه، أو في اكتسابه حتى فاته وأفلت منه.

وجاء بدُعَاءِ الحَسْرَةِ، مع أنها لاَ تعقل ولا تجيب لأن العربَ إذا اجْتَهدتْ في الإخْبارِ عنْ عَظِيم تقع فيه جعلته نداءً، ونداء الحسرة دليل على تعظيم الأمر وتشنيعه ، ولما كان هذا أمراً مفظعاً، زاد في تفظيعه بالإخبار في جملة حالية بشدة تعبهم في ذلك الموقف ووهن ظهورهم بذنوبهم، حتى كأن عليهم أحمالاً ثقالاً فهم يحملونها لأنهم يعانون شدة آلامها حيث قال: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡ﴾ وفائدتُه الأيذان بأن عذابَهم ليس مقصُوراً على ما ذكِر من الحسرة على ما فات وزال ، بل يقاسون مع ذلك تحمُّلَ الأوزار الثِقال ، والإيماءُ إلى أن تلك الحسرةَ من الشدة بحيث لا تزول ولا تنسى بما يكابدونه من فنون العقوبات ، والسرُّ في ذلك أن العذابَ الروحانيَّ أشدُّ من الجُسمانيِّ .

حيث إنه بين حال أخرى تبعت حسرتهم فهم مع ألم الحسرة فإنهم يحملون **ثِقل** أوزارهم على ظهورهم وهي آثامهم وذنوبهم. وقال تعالى ذكره: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡ﴾ لأن الحمل قد يكون على الرأس والمنكِب وغير ذلك، فبيَّن موضع حملهم ما يحملون منْ ذلك ، وإنما أخبر أنهم يحملون أوزارهم على ظهورهم بما لزموا أوزارهم وآثامهم، لم يفارقوها قط ، والحمل على الظهر مؤذن بنهاية ثقل المحمول على الحامل.

وقد بين الله تعالى سوء تلك الحال التي تلابسهم عند اللهج بذلك المقال بقوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ حيث أفاد لفظ "ألا " تعظيم ما يذكر بعده ، فبئس الإثم الذي يأثمونه برهم ويحملونه ، حيث ساءهم وأحزنهم حملهم لتلك الأوزار، فما عظمة وشناعة هذه الأحمال ، وما أشأم ذلك الحمل، وما أسوأه لسوء عاقبته ، إذ كان هو الجريمة التي تدين حامله، والشهادة التي تشهد عليه، وتجرّه إلى النار وما وراءه من عذاب .

ومن المعلوم أن كمال السعادة في الإقبال على الله تعالى ، والاشتغال بعبوديته والاجتهاد في حبه ، وأيضا في الانقطاع عن الدنيا ، وترك محبتها ، وفي قطع العلاقة بين القلب وبينها، فمن كان منكرا للبعث والقيامة، فإنه لا يسعى في إعداد الزاد لموقف القيامة، ولا يسعى في قطع العلاقة بين القلب وبين الدنيا، فإذا مات بقي كالغريب في عالم الروحانيات، وكالمنقطع عن أحبابه وأقاربه الذين كانوا في عالم الجسمانيات فيحصل له الحسرات العظيمة بسبب فقدان الزاد وعدم الاهتداء إلى المخالطة بأهل ذلك العالم ، ويحصل له الآلام العظيمة بسبب الانقطاع عن لذات هذا العالم والامتناع عن الاستسعاد بخيرات هذا العالم.

فالأول: هو المراد من قولهم : ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ .

والثاني: هو المراد من قوله : ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡ﴾ .

فقولهم : ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ إشارة إلى أنهم لم يحصلوا لأنفسهم ما به يستحقون الثواب، وقوله : ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡ﴾ إشارة إلى أنهم حصلوا لأنفسهم ما به استحقوا العذاب العظيم، ولا شك أن ذلك نهاية الخسران [(١)].

ولما جرى ذكر الساعة وما يلحق المشركين فيها من الحسرة على ما فرطوا ناسب أن يذكر الناس بأن الحياة الدنيا زائلة وأن عليهم أن يستعدوا للحياة الآخرة ، وأن وراءَ الحياة الدنيا حياةً أخرى يلقَوْن فيها من الخطوب ما يلقون ، حيث بَيَّن بعدَه حالَ كلا الحياتين في أنفسهما ، وفي هذا تكذيب من الله تعالى ذكره هؤلاء الكفارَ المنكرين البعثَ بعد الممات في قولهم: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ

---

(١) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٢٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٤١) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٦٨) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٤٣) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ١٤٣) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢٠٠١) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٦٤) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٨٣) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥١٢) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٠٠) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٩٠) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٢٥) روح البيان لحقي (٣/ ٢١) فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٤/ ١٢٧) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٤٣) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٠١) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٥٧) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٨٨) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٨٠) تفسير الشعراوي (٦/ ٣٥٨٦) التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٦٣) أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٥١) مع تصرف وإضافة من الباحثة

بِمَبۡعُوثِينَ ٣٧﴾ [المؤمنون: ٣٧] ، وذلك لأن المنكرين للبعث والقيامة تعظم رغبتهم في الدنيا وتحصيل لذاتها، فذكر الله تعالى هذه الآية تنبيها على خساستها وركاكتها. بمَا الحَياةُ الدُّنْيا التي هم يحصرون الحيوة عليها ويحرمون أنفسهم عن الحيوة الحقيقية لأجلها .

وذلك لما تأكد أمر البعث غاية التأكد، ولم يبق فيه لذي لب وقفة، حيث صرح بما اقتضاه الحال من أمر هذه الدار، فقال منبهاً على خساستها معجباً منهم في قوة رغبتهم في إيثار لذاذتها، معلماً بأنه قد كشف الحال عن أن ما ركنوا إليه خيال، وما كذبوا به حقيقة ثابتة ليس لها زوال، عكس ما كانوا يقولون ، فنراه تعالى يقول مكذباً ما قالوه : ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾ أيها الناس ﴿إِلَّا لَعِبٞ﴾ وهو الذي لا حقيقة له ولا مقصد ﴿وَلَهۡوٞ﴾ يقصد به قضاء الشهوة خاصة، لا يقصد به العاقبة

ولما كان السياق للخسارة، وكانت أكثر ما تكون من اللعب – وهو فعل ما يزيد سرور النفس على وجه غير مشروع، ويسرع انقضاؤه – قدمه فقال: ﴿إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ .

فما باغي لذاتِ الحياة التي أُدْنيت لكم ، وقرّبت منكم في داركم هذه، ونعيمَها وسرورَها، فيها، والمتلذذُ بها، والمنافسُ عليها، إلا في لعب ولهو، لأنها عما قليل تزول عن المستمتع بها والمتلذذِ فيها بملاذّها، واشتغالاً بما لا يعنى ولا يعقب منفعة، وتأتيه الأيام بفجائعها وصروفها، فَتُمِرُّ عليه وتكدُر، كاللاعب اللاهي الذي يسرع اضمحلال لهوه ولعبه عنه، ثم يعقبه منه ندمًا، ويُورثه منه تَرَحًا ، فلا تغتروا أيها الناس بها، فإن المغتر بها عمّا قليل يندم ،فأهل الدنيا يجمعون ما لا يأكلون، ويبنون ما لا يسكنون ويأملون ما لا يدركون.

وإنما سمى الحياة الدنيا باللعب واللهو لأن مدة اللهو واللعب قليلة سريعة الانقضاء والزوال، ومدة هذه الحياة كذلك. واللعب واللهو لا بد وأن ينساقا في أكثر الأمر إلى شيء من المكاره ولذات الدنيا كذلك ، كذلك إن اللعب واللهو، إنما يحصل عند الاغترار بظواهر الأمور، وأما عند التأمل التام والكشف عن حقائق الأمور، لا يبقى اللعب واللهو أصلاً، وكذلك اللهو واللعب، فإنهما لا يصلحان إلا للصبيان والجهال المغفلين، أما العقلاء والحصفاء، فقلما يحصل لهم خوض في اللعب واللهو، فكذلك الالتذاذ بطيبات الدنيا والانتفاع بخيراتها لا يحصل إلا للمغفلين الجاهلين بحقائق الأمور، وأما الحكماء المحققون، فإنهم يعلمون أن كل هذه الخيرات غرور، وليس لها في نفس الأمر حقيقة معتبرة. أضف إلى ذلك أن اللعب واللهو ليس لهما عاقبة محمودة، فثبت بمجموع هذه الوجوه أن اللذات والأحوال الدنيوية لعب ولهو وليس لهما حقيقة معتبرة. ولما بين تعالى ذلك قال بعده : ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ﴾ والعمل بطاعته، والاستعدادُ للدار الآخرة بالصالح من الأعمال التي تَبقى منافعها العظيمة لأهلها، ويدوم سرورُ أهلها فيها، خيرٌ من الدار التي تفنى وشيكاً ، فلا يبقى لعمالها فيها سرور ، ولا يدوم لهم فيها نعيم ، وإنما قال : ﴿خَيۡرٞ﴾ ؛ لأن سعادات الدنيا وخيراتها موصوفة بعيوب عظيمة، ونقصانات كاملة، وسعادات الآخرة مبرأة عنها، فوجب القطع بأن الآخرة أكمل وأفضل وأبقى وأتقى وأحرى وأولى ، ولقد قرر

تعالى هذه الحقيقة في أكثر من موضع من كتابه العزيز فقال : ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾[الضحى:٤] وقال: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، وقال : ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧]

ثم بين لمن هي خير فقال : ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾للذين يخشون الله فيتقونه بطاعته ، واجتناب معاصيه الشرك والفواحش كلها ، والمسارعة إلى رضاه في الحياة الدنيا ، فأما الكافر والفاسق فلا! وفي هذا تأييس للمشركين. لأن الدنيا بالنسبة إليه خير من الآخرة .

وتدل الآية على أن أعمال الآخرة وأفعال المتقين الأخيار لا لهو فيها ولا لعب ، الذين عمروا دنياهم بصلاح الأعمال وخير الأقوال .

فالحياة الدنيا على ما عند أُولَئِكَ الكفرة لعب ولهو؛ لأن عندهم أن لا بعث، ولا ثواب، ولا عقاب، فإذا كانت عندهم هكذا فتصير لعبًا ولهوًا؛ لأنه يحصل إنشاء لا عاقبة له، فيكون كبناء البناء الذي ذكرنا إذا كانت عاقبته غير مقصودة، فهو لا انتفاع به.

ولكن يلاحظ أن هذه الحياة نفسها لا يمكن ذمها لأنها بإرادة الله وحكمته، وخلقه وإيجاده، ولأنه لا يمكن التوصل إلى السعادة الأخروية إلا فيها، وإنما المقصود أن لذات الحياة الدنيا وطيباتها لا دوام لها، ولا يبقى منها عند انقراض الحياة إلا الحسرة والندامة، كاللهو واللعب يلتذ به، ثم بعد انتهائه لا يبقى منه إلا الندامة.

ثم قال موبخاً لهم عن طريق الاستفهام : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا يعقل هؤلاء المكذّبون بالبعث حقيقةَ ما نخبرهم به، من أن الحياة الدنيا لعب ولهوٌ، وهم يرون من يُخْتَرم منهم، ومن يهلك فيموت، ومن تنوبه فيها النوائب وتصيبُه المصائب وتفجعه الفجائع ، أفلا تميزون ايها العقلاء المميزون بين الحياتين ، ولا تعلمون أي اللذتين خير لكم وألذ عندكم وأدوم دونكم، فلا تفترون في طلب ما يوصل إلى ذلك ، وفي ذلك تحذير لمن عقل مدَّكر ومزدجر عن الركون إليها، واستعباد النفس لها ، ودليلٌ واضح على أن لها مدبِّرًا ومصرفًا يلزم الخلقَ إخلاصُ العبادة له، بغير إشراك شيءٍ سواه معه[1].

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٢٩) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٦٩) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٤٣) الكشاف للزمخشري (٢/ ١٧) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥١٥) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٩٢) الفواتح الإلهية للنخجواني (١/ ٢١٧) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٢٥) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٩٢) التفسير المنير للزحيلي (٧/ ١٨٠) التفسير البسيط للواحدي (٨/ ٩٥) مع تصرف وإضافة من الباحثة

١. الكناية- في جعل الأكنة- على القلوب والوقر في الآذان دليل على نبوّ قلوبهم ومسامعهم عن قبول الحق والاعتقاد بصحته، و الكناية هنا فيها مزية إعطاء المعاني صورة المحسسات، وهذه المزية من أبرز خواص الفنون، فإن المصوّر إذا رسم لك صورة للأمل أو اليأس بهرك ، وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه واضحاً ملموساً، وعلى هذا تتضح لك روعة الصورة لهؤلاء الذين ضربت على قلوبهم الأسداد، وتبلدت منهم الأذهان، فما تتمخض عن ذوق ولا تسفر عن فنّ، ولا تهيج إلى معرفة .(١)

٢. تقرير مبدأ البعث والجزاء بذكر صور ومشاهد له.(٢)

٣. قبح الذنوب وأنها أسوأ حمل يحمله صاحبها يوم القيامة. (٣)

٤. حكم الله تعالى بالخسران على من كذب بلقائه فلم يؤمن ولم يعمل صالحا. (٤)

٥. الساعة لا تأتي إلا بغتة، ولا ينافي ذلك ظهور علاماتها، لأن الزمن ما بين العلامة والعلامة لا يعرف مقداره. (٥)

٦. نصيحة القرآن للعقلاء بأن لا يغتروا بالحياة الدنيا. ويهملوا شأن الآخرة وهي خير للمتقين. (٦)

٧. يوم القيامة هو محل ظهور حقائق الأشياء على ما هي عليه، فإن كانت حقًّا ظهرت حقيقتها وصحتها، وإن كانت باطلة، ظهر بطلانها عيانًا، لكن لا تنفع المعرفة حينئذٍ (٧)

٨. الضالون لَا يشعرون أنهم يسيرون في طريق الهاوية، ولو شعروا بها لتجنبوا، وكذلك أهل الضلال دائما. (٨)

٩. المؤمنون بالرغم من عدم علمهم بموعد الساعة إلا أنهم يكونون في حالة استعداد لها بالإيمان والعمل الصالح. (٩)

(١) - إعراب القرآن وبيانه (٣/ ٨٨)
(٢) - أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٥٢)
(٣) – المرجع السابق (٢/ ٥٢)
(٤) – المرجع السابق (٢/ ٥٢)
(٥) – المرجع السابق (٢/ ٥٢)
(٦) – المرجع السابق (٢/ ٥٢)
(٧) - البحر المديد لابن عجيبة (٢/ ١١٠)
(٨) - زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٧٥)
(٩) - التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٦٣)

١٠.	الآية الكريمة تصور ما طبع عليه هؤلاء الجاحدون من فجور وعناد وافتراء، لأنهم حتى لو أجيبوا إلى طلبهم- على سبيل الفرض والتقدير- لما تخلوا عن كفرهم ومحاربتهم للأنبياء وللمصلحين. (١)

١١.	أن لقاء الله جل وعلا حق لا مرية فيه، والله سائل كل نفس عما صنعت .

١٢.	بيان سنة الله تعالى في أن العبد إذا كره أحداً وأبغضه وتعالى في ذلك يصبح لا يسمع ما يقول له، ولا يفهم معنى ما يسمع منه. (٢)

١٣.	إن حال المشركين وما نشئوا فيه وبيئتهم ، وحبهم للرياسة والجاه ، وحسدهم للنبي ﷺ كل ذلك كان بمثابة غطاء وحجاب يمنع القلب والسمع من أن يتقبل كلام الله وكلام رسوله بقلب فاهم وسمع واع. (٣)

١٤.	بيّن الله تعالى أن السمع- فى الحقيقة- سمع القبول، وذلك عن عين اليقين يصدر، فأما سمع الظاهر فلا عبرة به. (٤)

١٥.	في الأيات دلالة صريحة على أن الله تعالى يقلب القلوب، فيشرح بعضها للهدى، ويجعل بعضها في أكنة فلا يفقه صاحبها كلام الله تعالى ولا يؤمن به .(٥)

١٦.	في هذه الآيات عبرة وعظة بليغة تستوقف النظر والتأمل، إذ ما أصعب حجب الحقائق عن الإنسان وتركه يتيه في ظلمات الأهواء ويتردد في موج الضلالات(٦).

١٧.	أن مَن نَهى الناسَ عن الإيمان بالله ورسله ، وأظهر العداوة للدعوة والدعاة فإن مصيره الهلاك والخسران في الدارين .

١٨.	أعلم الله أن النبي ﷺ بشر لا يقدر على الإتيان بالآيات، وفي تعجيزه عن الإتيان بما سألوا أمر له بالصبر إلى أن يدخل وقت العقاب. (٧)

١٩.	قوله :﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ ﴾ يدل على أنهم كانوا يفقهون ويميزون الحق من الباطل .(٨)

---

(١) - التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٦٢)
(٢) - أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٥٠)
(٣) - التفسير الواضح (١/ ٦٠٠)
(٤) - لطائف الإشارات للقشيري (١/ ٤٦٦)
(٥) - التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٦١)
(٦) - التفسير المنير للزحيلي (٧/ ١٧٠)
(٧) - التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٦٦)
(٨) - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٠٥)

٢٠. في قوله تعالى : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ دليل على قدم علمه بجميع الأشياء، لا إله إلا هو، لم يزل يعلم ما يكون كيف يكون، قبل كونه بلا أمد. [١]

٢١. الدلالة على صدق نبوة محمد ﷺ لأنهم كانوا يتكلمون فيما بينهم بالسر، فيُظهِر الله أسرارهم للنبي ﷺ . [٢]

٢٢. ينبغي للإنسان أن يتعلم طرق الجدل ، من أجل نصرة الحق [٣].

٢٣. من جادل بالباطل لإدحاض الحق فهو كافر[٤].

٢٤. أن أعداء الإسلام ينهون عن الإسلام ، ونهيهم عنه يستلزم أن يستلزم أن يسلكوا كل طريق يبعد الناس عنه ؛ لأن نهيهم عنه نهي حقيقي عن قلب ، وهذا يستلزم أن يسلكوا كل طريق يبعد الناس عن شريعة الله تعالى ، والأساليب في هذا مختلفة ، قد تكون بإيراد الشكوك ، أو بالأفكار الفاسدة ، أو بالأخلاق الفاسدة ، أو بالتحريش بين الناس أو ما أشبه ذلك . [٥]

٢٥. أن من أشد ما يكون من العدوان والظلم الجمع بين الضلال والإضلال [٦].

٢٦. أن كل من حاول إبطال الحق وإبعاد الناس عنه فإنما جنى على نفسه . [٧]

٢٧. الإشارة إلى دناءة الحياة الدنيا ، وأنها ليست بتلك الحياة التي ينبغي للإنسان أن يحافظ عليها ، وينسى الآخرة [٨].

---

[١] - الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ١٩٩٩)

[٢] - بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٤١)

[٣] – الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦ / ٩٠)

[٤] – المرجع السابق (٦ / ٩٠)

[٥] – المرجع السابق (٦ / ٩٢)

[٦] – المرجع السابق (٦ / ٩٢)

[٧] – المرجع السابق (٦ / ٩٢)

[٨] – الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦ / ٩٩)

المطلب الثاني : تسلية النبي ﷺ والتخفيف عنه (٣٣ – ٣٧)

يقول الله سبحانه تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

أولا : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

لما كرر في هذه السورة أمره بمقاولتهم، وأطال في الحث على مجادلتهم، وختم بما يقتضي سلبهم العقل مع تكرير الإخبار بأن المقضي بخسارته منهم لا يؤمنون لآية من الآيات، وكان من المعلوم أنهم حال إسماعهم ما أمر به لا يسكتون لما عندهم من عظيم النخوة وشماخة الكبر وقوة الجرأة، وأنه لا جواب لهم إلا التبعة والبذاءة كما هو دأب المعاند المغلوب، وأن ذلك يحزنه ﷺ لما جبل عليه من الحياء والشهامة والصيانة والنزاهة، كان الحال أنه محتاجاً إلى التسلية ، وليس هناك أعظم ولا أروع ولا أقدس من هذه مواساة الله تعالى له من علياء سمائه نبيّه على ما ألّم به من حزن شديد ، وألم عميق من الذي كان يعتريه مما حُكي عن الكفرة من الإصرار على التكذيب ، والمبالغة فيه ، وأمره بالصبر، ووعده بالنصر، وتأييسه من إيمان المتغالين في الكفر، ووعده بإيمان فرق منهم ، وبيان أنه عليه الصلاة والسلام بمكانة من الله عز وجل وأن ما يفعلونه في حقه فهو راجعٌ إليه تعالى في الحقيقة وأنه ينتقم منهم لا محالة أشدَّ انتقام ، وقد تهيأ المقام لهذا الغرض ولا شك أن الحزن عند وقوع ما يسوء من طبع البشر الذي لا يقدر على الانفكاك عنه، فالنهي عنه إنما هو نهي عما ينشأ عنه من الاسترسال المؤدي إلى الجزع المؤدي إلى عدم الصبر ونسيان ما يعزي، فهو من النهي عن السبب للمبالغة في النهي عن المسبب، وما أنسب ذكر ما يحزن بعد تقرير أن الدنيا لأهلها لعب ولهو وأن الآخرة خير للمتقين، ومن المعلوم أنهما ضدان، فلا تنال إحداهما إلاّ بضد ما للأخرى، فلا تنال الآخرة إلا بضد ما لأهل الدنيا من اللعب واللهو، وذلك هو الحزن الناشئ عن التقوى الحامل عليها الخوف [1] .

---

[1] — انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٤١٦) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٩٤) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٢٦) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٩٦) التفسير الوسيط للزحيلي (١/ ٥٤٣)

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

ابتدأ الآية بـ"قَدْ" الملازم للفعل ، وهو حرف يجيء مع التوقع إما عند المتكلم وإما عند السامع أو مقدراً عنده فإذا كان الفعل خالصاً للاستقبال كان التوقع من المتكلم ، فنراه تعالى يقول : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾ حيث أخبر نبيه ﷺ أنه عن علم منه بتكذيبهم إياك بعثك إليهم رسولاً،و أمرك بتبليغ الرسالة إليهم، وكان عالماً بما يلحقك من الحزن[1] بتكذيبهم إياك، ولكن بعثك إليهم رسولاً مع علم منه بهذا كله لتبلغهم، ولفظ ﴿ نَعْلَمُ ﴾ يتضمن استمرار علم الله تعالى وقدمه، فهو يعم الماضي والحال والاستقبال، وليعلم رسوله ألا عذر له في ترك تبليغ الرسالة، وإن كذّبوه في تبليغها ، والذي يحمله على الحزن هو افتراؤهم وكذبهم على اللّه ، كذلك كان يحزن لتكذيب أقربائه وعشيرته إياه فإذا أكذبته عشيرته، انتهى الخبر إلى الأبعدين فيكذبونه، فيحزن لذلك ، وكان يحزن إشفاقًا عليهم بما ينزل عليهم من العذاب جراء قولهم وتكذيبهم إياه وآذاهم له ، ولفظ ﴿ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾ يعم جميع أقوالهم التي تتضمن الرد على النبي ﷺ والدفع في صدر نبوته، كقول بعضهم إنه كذاب، مفتر، ساحر، وقول بعضهم إنه مجنون مسحور، وقول بعضهم به رئي من الجن ونحو هذا .

ثم بين أن هذا التكذيب منشؤه العناد والجحود لإخفاء الدليل فقال: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ بمعنى أن الذين كانوا يعرفون حقيقة نبوّتك ، وصدق قولك فيما تقول، فهم لا يُكْذِبونك فيما أتيتهم به من وحي الله، ولا يدفعون أن يكون ذلك صحيحاً، بل يعلمون صحته، ولكنهم لشدة عنادهم ، ووقوفهم مع الحظوظ ، وعجزهم عن جواب يبرد غللهم ويشفي عللهم ينكرون آيات الله مع علمهم بحقيتها، ويجحدون حقيقة ما تتلوه عليهم ، فلا يؤمنون به ، ويكذِّبون ما جئت به من تنزيل الله ومن عند الله، وهم يعلمون أن ذلك من عند الله علمًا صحيحًا ولا يَقْدِرُونَ أن يقولوا لك فيما أنْباتَ به مِما فِي كُتُبِهُمْ كذبت، فهم لا يكذبونك بقلوبهم، أي يَعْلَمُون أنك صادق.

والجحد لا يكون الا ممن علم الشيء ثم أنكره بعد علمه به كقوله تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾[النمل: ١٤] ، وفي قول الله تعالى في هذه السورة: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾[الأنعام: ٢٠] وفي هذا أوضح الدليل على أنه قد كان فيهم المعاند في جحود نبوّته ﷺ ، مع علمٍ منهم به وبصحة نبوّته ، وصدق لَهْجته مصيب لما ذكرنا من أنه قد كان فيهم مَنْ هذه صفته؛ لأنه ﷺ كان يُسمَّى فيهم الأمين قبل الرسالة، ولكن عادة الظالمين التكذيب بآيات اللّه فالمشركين بالله جحدوا بألسنتهم حجج الله وآي كتابه ورسولِه يجحدون، فينكرون صحَّة ذلك كله.

---

[1] – الحزن: ألم يحلّ بالنفس عند فقد محبوب، أو امتناع مرغوب، أو حدوث مكروه ولا سبيل لعلاجه إلا التسلي والتأسى . تفسير المراغي (٧/ ١٠٨)

فيا محمد خفف من حزنك لنفسك وإن هم كذبوك وأنت صادق، فإن ما يشغلك أهمّ وهو استعظامك بجحود آيات الله تعالى والاستهانة بكتابه ، وما انتهكوه من حرمة من أرسلك .

فحزنه عليه الصلاة والسلام ليس لخاصة نفسه بل بطريق التسلِّي بما يفيده من بلوغه عليه الصلاة والسلام في جلالة القَدْرِ ورِفعة المحل والزُلفى من الله عز وجل إلى حيث لا غايةَ وراءَه ، ولم ينفي الإهانة عن العبد بل عظَّم شأنه ﷺ ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]

وإنما نأمرك بما أمرناك به من الصبر لتحصل لك المنازل العالية والأحوال الغالية ، فلا تظن أن قولهم صادر عن اشتباه في أمرك، وشك فيك.

ثم قال ذاماً لهم : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي ولكنهم بآياته تعالى يكذّبون فوضَعَ المظهرَ موضعَ المضمر لزيادة التوبيخ لهم والإزراء عليهم، وتسجيلاً عليهم للدلالة على أنهم ظلموا في جحودهم ورسوخهم في الظلم .

والالتفاتُ إلى الإسم الجليل لتربية المهابة ، واستعظام ما أقدَموا عليه من جحود آياته تعالى ، وإيرادُ الجحود في مورد التكذيب للايذان أنه أقبح وجوه الإنكار ، وفيه تغليظ عليهم وتقبيح لفعلهم، وذلك أنهم أنكروا نبوته ، وراموا تكذيبه بالدعوى التي لا تعضدها حجة ، فآياته تعالى من الوضوح بحيث يشاهد صدقها كلُّ أحد ، إذ معجزاته وآياته نيرة يلزم كل مفطور أن يعلمها ويقربها ، وأن من ينكرها فإنما ينكرها بطريق الجحود الذي هو عبارةٌ عن الإنكار مع العلم بخلافه .

ولقد كانوا يرون صفات النبي ﷺ ويعرفونها أو أكثرها ، ثم يرون من آياته زائداً على ما عندهم فيتعلقون في مغالطة أنفسهم بكل شبهة بأضعف سبب، وتتخالج ظنونهم فيقولون مرة هو ذلك ومرة عساه ليسه، ثم ينضاف إلى هذا حسدهم وفقدهم الرئاسة، فيتزايد ويتمكن إعراضهم وكفرهم وهم على هذا، وإن عرفوا أشياء وعاندوا فيها فقد قطعوا في ذلك بأنفسهم عن الوصول إلى غاية المعرفة وبقوا في ظلمة الجهل ، وإنما فعلوا فعلهم هذا حسدًا وخوفًا على زوال الشرف من يدهم.[1]

ثم جاء عزاء بعد عزاء وافتنانٌ آخر في تطييب خاطر الرسول ﷺ وتسليته عليه الصلاة والسلام ، ورحمات من ربّ رحيم تتنزّل عليه، فبعد أن أزال الحزن عن قلب رسوله بأن بين أن تكذيبه يجري مجرى تكذيب الله تعالى ؛ ذكر في هذه الآية طريقاً آخر في إزالة الحزن عن قلبه ، وذلك بأن بين أن سائر الأمم عاملوا أنبياءهم بمثل هذه المعاملة، فعَزّى الله نبيه وصَبرهُ على تكذيبهم إياه وأذاهم بتبليغ الرسالة وعما ناله

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٣٠) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٤٢) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٧٠) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٤٤) الكشاف للزمخشري (٢/ ١٨) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٨٥) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٠٠) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٩٥) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٢٦) البحر المديد لابن عجيبة (٢/ ١١٣) فتح القدير للشوكاني (٢/ ١٢٧) مراح لبيد لمحمد نووي (١/ ٣١٥) تفسير المراغي (٧/ ١١٠) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ٢٥٥) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٩٩) مع تصرف وإضافة من الباحثة

من المساءة بتكذيب قومه إيّاه على ما جاءهم به من الحق من عند الله ، بأن أخبره أن الرسلَ قبلَه قد كَذبتهم أممهم وأقوامهم ، فإن عمومَ البلية ربما يهوّنُ أمرَها بعضَ تهوين ، وبين له أن موقفهم هذا ليس بدعا إزاءه بخاصة .

يقول تعالى ذكره: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾إن يكذبك، يا محمد، هؤلاء المشركون من قومك، فيجحدوا نبوّتك، وينكروا آيات الله أنّها من عنده، فلا يحزنك ذلك، واصبر على تكذيبهم إياك وما تلقى منهم من المكروه في ذات الله، حتى يأتي نصر الله، فلست أنت بأول مكذب من الرسل، بل كذب إخوانك رسلٌ من قبلك ؛ رسل أولوا شأن خطير ، وذوا عدد كثير ،كانوا من زمان قبل زمانك أرسلتهم إلى أممهم لتبليغ الرسالة ، ﴿ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا ﴾ ونالهم المكروه ، ولم يثنهم ذلك من المضيّ لأمر الله الذي أمرهم به من دعاء قومهم إليه، ولم يتركوا تبليغ الرسالة مع تكذيبهم إياهم ، ﴿ حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ حتى حكم الله بينهم وبينهم بأن أظهر حججه وبراهينه، وأثبت أنهم رسل اللّه، ونصرهم كذلك بما جعل آخر أمرهم استأصال قومهم وأهلاكهم بتكذيبهم الرسل،وإن كان قد أصابهم شدائد في بدء الأمر ،كما لهم النصر في الآخرة؛ وهذا إيذانٌ بأن نَصره تعالى إياهم أمرٌ مقرَّر لا مرد له وأنه متوجه إليهم لا بد من إتيانه البتةَ والالتفاتُ إلى نونِ العظمةِ لإبراز الاعتناء بشأن النصر، يقول تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة: ٢١] ، ويقول : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ ﴾[غافر: ٥١]

فاصبر يا أشرف الخلق كما صبروا تظفر كما ظفروا، وسيأتيك ما وعدت به وعداً مبينً لذلك النصر، فما وعد الله عز وجل به فلا يقدر أحد أن يدفعه، فلا ناقض لحكمه، ولا خلف لوعده .

فعلى ذلك لا عذر لك في ترك تبليغ الرسالة وإن كذبوك في التبليغ وآذوك، وهو ما ذكرنا أنه يخبره أنه بعثك رسولاً على علم منه بكل الذي كان منهم من التكذيب والأذى ، يقول تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ، ويقول : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾[الإنسان: ٢٤]

ثم أكد وقوى تعالى هذا الوعد زيادة لتطمين نبيه ﷺ بقوله : ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ ولا مغيِّر لكلمات الله و"كلماته" تعالى ذكره: ما أنزل الله إلى نبيه محمد ﷺ ، من شرائعه، وصفاته، وأحكامه، وسننه في كونه، منها ما وعد الله به أنبياءه وأولياءه من النصر والظفر على من خَالفهم وضادّهم، ومن تولّى عنهم وأدبر ، فلا يخلف الله وعده ولا يغلب أولياءَه أحَدٌ .

وإضافة الكلمات إليه– سبحانه– للإشعار باستحالة تبديلها أو تغييرها ، فلا يقدر أحد أن يفعل خلاف ما دلت عليه ويحول بين الله عز اسمه وبين تحقيق ذلك .

ولقد أكد سبحانه العظة والتسلية في أنباء المرسلين، فقال تعالت كلماته: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ ﴾ يا محمد ﴿ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ من خبر من كان قبلك من الرسل .

خبرهم العظيم في صبرهم واحتمالهم وطاعتهم وامتثالهم ورفقهم بمن أرسلوا إليهم ، ونصرنا لهم على من بغى عليهم، وما صنعتُ بهم حين جحدوا آياتي وتمادَوا في غيهم وضلالهم ، وكل ذلك مما يسكن به قلبك ؛ فانتظر أنت أيضًا من النصرة والظفر مثل الذي كان منِّي فيمن كان قبلك من الرسل إذ كذبهم قومهم، واقتد بهم في صبرهم على ما لَقُوا من قومهم ، فأنت أولى بالتزام هذه الطريقة لأنك مبعوث إلى جميع العالمين، فاصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا، وليس إهمال المكذبين لإهمالهم، بل لجريان سنته تعالى بتحقق صبر الرسل وشكرهم ، والنبأ الخبر عن أمر عظيم الشأن [1].

وإذ استمع النبي ﷺ إلى كلمات ربه، وما تحمل إليه من مواساة كريمة، وعزاء جميل، فقد وجب على النبي ﷺ أن يطمئن قلبه، وتسكن نفسه ويذهب حزنه وحسرته، على ما يلقى من قومه ، فإذا كان قد بقي فى نفس النبي ﷺ شىء من تلك العوارض التي عرضت له من قومه، وإن كانت لا تزال به توازع الحزن والحسرة عليهم، فإن الله تعالى يخبره أنه ﷺ بشر لا يقدر على الإتيان بآية إلا بما شاءَ الله من الآيات فقال: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ .

فبعد مواساتنا وتصبيرنا لك إن كان عظم وعليك، يا محمد، إعراض هؤلاء المشركين عنك، وانصرافهم عن تصديقك فيما جئتهم به من الحق الذي بعثتُك به، وشقَّ ذلك عليك، ولم تصبر لمكروه ما ينالك منهم ، وعدم الإيمان بما جئت به من البينات ، وعدمُ عدِّهم لها من قبيل الآيات ، ولما كانوا يطلبون منه الآيات، حتى إذا جاء بها لا يؤمنون؛ وأحببتَ أن تجيبهم إلى ما سألوه اقتراحاً ، فابذل وسعك في ذلك، فليس في مقدورك، أن تهدي من لم يرد الله هدايته ، فلقد كان اللَّه عالما بأنه وإن جاءتهم آيات لم يؤمنوا، وإنَّما يسألون سؤال تعنت ومكابرة لا سؤال طلب آيات لتدلهم على الهدى ، فقال عند ذلك : ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وقدرت أن تتَّخذ سَرَبا في الأرض فتذهب فيه لتأتيهم بآية من تحت الأرض ﴿ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَوْ ﴾ أو سبباً ومصعداً تصعد فيه، كالدَّرَج وما أشبهها، ﴿ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾ منها ؛ تلك الآية التي سألوكها لتكون علامة وبرهان على صحة قولك، غير الذي أتيتك فافعل.

---

[1] — انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٣٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٤٣) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٧١) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥١٩) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٤١٧) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٢) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٩٨) السراج المنير للشربيني (١/ ٤١٨) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٢٧) روح البيان لحقي (٣/ ٢٥) مراح لبيد لمحمد نووي (١/ ٣١٥) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٤٨) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٧٧) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٦٠) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ٢٠٣) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٨٦) التفسير الحديث (٤/ ٨٣) التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٦٧) روح المعاني للآلوسي (٤/ ١٣٠) مع تصرف وإضافة من الباحثة

والمراد من ذلك بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم.

فكان يود إيمانهم حتى ولو كان يتحقق بآيات أخرى، إن هداهم لا يتوقف على أن تأتيهم بآية. فليس الذي ينقص هو الآية التي تدلهم على الحق فيما تقول ، فالله سبحانه وتعالى يبين له أنه لا جدوى في آية جديدة؛ لأنهم سيعرضون عنها لَا محالة .

فأعلمَ اللَّهُ نبيه ﷺ أنَّه لا يستطيع أن يأْتِي بآية إلا بإذن اللَّه ، وأعلم الله جلَّ وعزَّ أنَّه قادر على أن يُنزلَ آية آية، وأنَّه لو أُنزلت الملائكة وكلمهم الموتى ما كانوا ليُؤمنوا إلا أن يشاء اللَّه.

لذلك يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي : إن الذين يكذبونك من هؤلاء الكفار يا محمد فيحزنك تكذيبهم إياك، لو أشاء أن أجمعهم على استقامة من الدِّين، وصوابٍ من محجة الإسلام، وطبعهم وخلقهم على الإيمان حتى تكون كلمة جميعكم واحدة، وملتكم وملتهم واحدة، لجمعتهم على ذلك، بحيث اختاروا الهدى وآثروه على غيره، ولم يكن بعيدًا عليَّ، لأنِّي القادرُ على ذلك بلطفي، ولكني لم أفعل ذلك لسابق علمي في خلقي، ونافذ قضائي فيهم، من قبل أن أخلقهم وأصوِّر أجسامهم ، وأعلم منهم أنهم يختارون الكفر على الهدى لذا لم يشأ أن يجمعهم على الهدى ؛ وذلك لعدم صَرفِ اختيارِهم إلى جانب الهُدى مع تمكنِّهم التامِّ منه في مشاهدتهم للآياتِ الداعية إليه لا أنه تعالى لم يوفقهم له مع توجُّهِهِم إلى تحصيله ، فلم يفعلْه لخروجه عن الحِكْمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ يا محمد بالحرص الشديدِ على إسلامهم أو الميلِ إلى نزول مقترحاتِهم ﴿مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ من الذين اشتد حزنهم وتحسروا حتى أخرجهم ذلك إلى الجزع الشديد، وإلى ما لا يحل في مواطن الصبر ، فتصير بالأسف والتحسر مقارباً لأحوال الجاهلين بالحرص على ما لا يكون ، وممن لا يعلم أن الله لو شاء لجمع على الهدى جميع خلقه بلطفه، وأنَّ من يكفر به من خلقه إنما يكفر به لسابق علم الله فيه، ونافذ قضائه بأنه كائنٌ من الكافرين به اختيارًا لا إضطرارًا، فإنك إذا علمت صحة ذلك، لم يكبر عليك إعراضُ من أعرض من المشركين عما تدعُوه إليه من الحق، وتكذيبُ من كذَّبك منهم.

وهذا النهي لا يقتضي إقدامه على مثل هذه الحالة ، إنما المقصود أنه لا ينبغي أن يشتد تحسرك على تكذيبهم، ولا يجوز أن تجزع من إعراضهم عنك فإنك لو فعلت ذلك قرب حالك من حال الجاهل، والمقصود من تغليظ الخطاب التبعيد والزجر له عن مثل هذه الحالة [١].

---

[١] — انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٣٦) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٤٣) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٧٣) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٠٩) تفسير السمعاني (٢/ ١٠٠) الكشاف للزمخشري (٢/ ١٩) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٢١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٤١٨) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٦٠) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٢٩) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ٢٥٥) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٧٨) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٦٢) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٨٧)

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. كل ما سُلِّيت به الرسل تسلى به الأولياء ؛ لأنهم ورثتهم الخاصة، وكل ما أُمرت به الرسل تؤمر به الأولياء، من الصبر وعدم الحرص، فليس من شأن الدعاة إلى الله الحرص على الناس، ولا الحزن على من أدبر عنهم أو أنكر، بل هم يزرعون حكمة التذكير في أرض القلوب، وينظرون ما ينبت الله فيها، اقتداءً بما أمر به الرسول- عليه الصلاة السلام، وما تخلق به .[١]

٢. مضت سنة الله بأن إجابة المعاندين إلى ما اقترحوا لم تكن سبباً للهداية فى أمة من الأمم، بل كانت سبباً فى عقاب المعاجزين للرسل بعذاب الاستئصال.[٢]

٣. أنْزَل الله الآيات التي يُفكر الناس مَعها، فيُؤجَرُ ذو البَصَر، ويثاب على الإيمان بالآيات، ولو كانَتْ نَارٌ تنزل على من يكفر أو يُرْمَى بَحجَرِ من السَّماءِ لانَ قلب كل واحد. [٣]

٤. الآيات ترسم للدعاة إلى الله من بعد رسول الله ﷺ طريقهم واضحاً، ودورهم محدداً، كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته، ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريق

٥. كان النبي ﷺ ينذر من اتبع الذكر ومن لم يتبع، لكن انتفع بالإنذار من اتبع الذكر، ولم ينتفع من لم يتبع .[٤]

٦. حرص رسول الله ﷺ ألا يفلت أحد من قومه عن منهجه وعن دينه، ولكن الحق سبحانه وتعالى جعل أمر الدين اختيارياً حتى يعلم من يجيء له طواعية ويقدر ألا يجيء، ومن لا يجيء وهو قادر أن يجيء. [٥]

٧. لا يرجى النصر إلا من الله تعالى ، فلا يطلب إلا منه . [٦]

٨. لقد دلت التجارب على أن التأسى يهوّن المصاب ويفيد شيئا من السلوى، ومن هذا تعلم حكمة تكرار التسلية بأمثال هذه الآية مع الأمر بالصبر المرة بعد المرة، لأن الحزن والأسف اللذين كانا يعرضان له ﷺ من شأنهما أن يتكررا بتكرر سببهما وبتذكره.[٧]

---

[١] - البحر المديد لابن عجيبة (٢/ ١١٤)

[٢] - تفسير المراغي (٧/ ١١٦)

[٣] - معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٤٥)

[٤] - تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٧٥)

[٥] - تفسير الشعراوي (٦/ ٣٥٩٥)

[٦] - انظر : الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦ / ١١٨)

[٧] - تفسير المراغي (٧/ ١١١)

٩. فيها إيماء إلى حسن عاقبة الصبر، فمن كان أصبر كان حقيقا بالنصر إذا تساوت بين الخصمين وسائل الغلب والقهر.[١]

١٠. إن الله تعالى لينصر المؤمن الصادق الذي يتحرّى الحق والعدل فى حربه لا الظالم الباغي من خلقه، والذي يقصد إعلاء كلمة الله ونصر دينه .[٢]

١١. لو لم يوجد للشر مضار تُفْزِّع الناسَ لما عرفوا للحق حلاوة ؛ فوجود الشر، ووجود الكفر، وآثار الكفر في الناس جبروتاً وقهراً واستذلالاً ينادي في الناس أنه لا بد من الإيمان، وأنه لا بد من وجود الخير. فلو لم يكن للشر مكان في الكون فما الذي يلفت الناس إلى الخير؟ ولذلك تجد أن هبات الإيمان عند المؤمنين لا تأخذ فتوتها إلا حين تجد قوماً من خصوم الإيمان يهيجون المؤمنين ويؤذونهم ويستفزونهم أما إذا صارت الدنيا إلى رتابة فربما فتر أمر الإسلام في نفوس المسلمين. ولذلك نجد المؤمنين بالله في غيرة دائمة؛ لأن هناك من يكفر بالله.[٣]

١٢. ثبوت بشرية الرسول ﷺ ولذا هو يحزن لفوت محبوب كما يحزن البشر لذلك. [٤]

١٣. إرشاد الرب تعالى رسوله إلى خير المقامات وأكمل الحالات بإبعاده عن ساحة الجاهلين. [٥]

١٤. لا ينبغي لصاحب الدعوة إلى هذا الدين، أن يستجيب لاقتراحات المقترحين ممن يوجه إليهم الدعوة، في تحوير منهج دعوته عن طبيعته الربانية ولا أن يحاول تزيين هذا الدين لهم وفق رغباتهم وأهوائهم وشهواتهم[٦].

---

[١] – المرجع السابق (٧/ ١١٢)

[٢] – المرجع السابق (٧/ ١١٣)

[٣] – تفسير الشعراوي (٦/ ٣٥٩٥)

[٤] – أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٥٤)

[٥] – المرجع السابق (٢/ ٥٤)

[٦] في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٨٢)

المطلب الثالث : موقف المشركين تجاه آيات الله سبحانه وتعالى – الشرعية والكونية – وتهديد الله لهم (٣٦ – ٤٧)

يقول الله سبحانه تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾
وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَابَّةٍ
فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ
تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم
بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ
إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ
نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا
الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

أولاً : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

بعد أن أبان سبحانه فى الآية السابقة أن الأمر كله بيد الله ، وأنه لو شاء لجمع الناس على الهدى، ولكنه لم يشأ أن يجعل البشر مفطورين على ذلك، ولا أن يلجئهم إلجاء بالآيات التي تقسرهم على ذلك، بل اقتضت حكمته أن يكون البشر متفاوتين فى الاستعداد مختارين فى تصرفاتهم وأعمالهم، ومنهم من يختار الهدى على الضلال، ومنهم من يستحب العمى على الهدى.

ذكر هنا أن الأولين هم الذين ينظرون فى الآيات ويفقهون ما يسمعون من الحجج والبينات، وأن الآخرين لا يفقهون ولا يسمعون، فهم والأموات سواء.

وعجب منهم في قولهم هذا الذي يقتضي أنهم لم يروا له آية قط بعد ما جاءهم من الآيات الخاصة به ما ملأ الأقطار، فبين أن بيده رد الأسماع إلى الصم ، وإنارة الأبصار من العمى ؛ وذكرهم بآية غير آية القرآن تشتمل على آيات مستكثرة كافية لصلاحهم، ورتبها سبحانه قبل سؤالهم تفضلاً منه عليهم، كل

ذلك يدل دلالة على باهر قدرته على البعث وغيره من الآيات التي طلبوها وغيرها وعلى تفرده بجميع الأمر، إذا تأملوها حق تأملها كفتهم في جميع ما يراد منهم .

وكأنه يقول : أفلا يكون لكم في ذلك آيات تغنيكم عن إرسال الرسل فضلاً عن أن تتوقفوا بعد إرسالهم ولا ترضوا منهم من خوارق العادات إلا بما تقترحونه.

وذلك لأن الكفار طلبوا من النبي ﷺ الإتيان بالمعجزات القاهرة الظاهرة، فنبه على مخلوقات الله تعالى، وأمر بأن يتفكروا في مخلوقاته، حيث إن المكذبين بآيات الله لم يهتدوا بها، بل ظلوا في ظلمات جهلهم حتى كأنهم لم يروها ولم يسمعوا بها ، وبين تعالى أن عنايته وصلت إلى جميع الحيوانات كما وصلت إلى الإنسان، ومن بلغت رحمته وفضله إلى حيث لا يبخل به على البهائم كان بأن لا يبخل به على الإنسان أولى، فدل منع الله من إظهار تلك المعجزات القاهرة على أنه لا مصلحة لأولئك السائلين في إظهارها، وأن إظهارها على وفق سؤالهم واقتراحهم يوجب عود الضرر العظيم إليهم ، وفي أبراز كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره، دلالة قوية على أنه قادر على أن ينزل آية إذا رأى من الحكمة والمصلحة إنزالها، ولا ينزلها للتشهي والهوى كما يراه المقترحون من أولئك الضالين المكذبين[1] .

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

لقد أعلم الله تعالى نبيه بحقيقة علمية تساعده على الثبات والصبر فقال : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ فلا يكبُرنّ عليك إعراض هؤلاء المعرضين عنك، وعن الاستجابة لدعائك إذا دعوتهم إلى توحيد ربّهم والإقرار بنبوّتك، حيث إنه لما أفهم هذا القضاء الحتم بأنه قد صار حالهم حال من حتم بالموت، فلا يمكن إسماعه إلا الله، ولا يمكن أن يستجيب عادة، فإنه ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ أي : الذي يستجيب لدعائك إلى ما تدعوه إليه من ذلك ويطيعك، ويصدقك دعوتك، ويلبي رسالتك، وينقاد لأمرك ونهيك ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ بقلوبهم ما ينفعهم، وهم أولو الألباب والأسماع؛ الذين فتح الله أسماعهم لإرادة الإصغاء ، والتفهم للحق والهدى والمواعظ، وسهّل لهم اتباع الرُّشد، فيعقلون الآيات ويذعنون لما عرفوا بها من الحق، لسلامة فطرتهم وصفاء نفوسهم وطهارة قلوبهم، فينتفعون بما يسمعون .

والمراد بالسماع هنا: سماع القلب والاستجابة، وإلا فمجرد سماع الأذن، يشترك فيه البر والفاجر. فكل المكلفين قد قامت عليهم حجة الله تعالى، باستماع آياته، فلم يبق لهم عذر، في عدم القبول.

(١) - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٢٥) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٦١) التسهيل لابن جزي (١/ ٢٦٠) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٠٤) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٢٥) تفسير المراغي (٧/ ١١٥ - ١١٧)

والاستجابة[1] أنهم يطيعون أمر الآمر ونهي الناهي، بعد التفكر والإمعان وتقدير الأمر، فهي إجابة محكمة دقيقة، وهذا ما تدل عليه (السين)، فهي إجابة بعد استقراء الدليل على وجوبها.

وبين أن السبب في أن المشركين لا يقبلون الإيمان ولا يتركون الكفر وهم من ختم الله على سمعهم، فلا يفقهون من دعائك إياه إلى الله وإلى اتباع الحق إلا ما تفقه الأنعام من أصوات رُعاتها، فهم كما وصفهم به الله تعالى ذكره: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]

﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ والكفارُ يبعثهم الله مع الموتى، حيث إنما يستجيب لك أحياء القلوب، وأما أموات القلوب، الذين لا يشعرون بسعادتهم، ولا يحسون بما ينجيهم، فإنهم لا يستجيبون لك، ولا ينقادون، فجعلهم تعالى ذكره في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتًا، ولا يعقلون دعاء، ولا يفقهون قولاً؛ إذ كانوا لا يتدبرون حُجج الله، ولا يعتبرون آياته، ولا يتذكرون فينزجرون عما هم عليه من تكذيب رُسل الله ، وإن كانوا أحياء بالحياة الحيوانية، أموات بالنسبة إلى الإنسانية، لموت قلوبهم بسموم الاعتقادات الفاسدة، والأخلاق الرديئة.

وعبر بلفظ : ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ لأن السمع طريق العلم بالنبوة والآيات المعجزة ، وفي تسمية أهل الشرك (موتى) من التهكم بهم، والإزراء عليهم، ما لا يخفى.

وأما قوله:﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ فإنه يريد : ثم إلى الله يرجع المؤمنون الذين استجابوا لله والرسول، والكفارُ الذين يحول الله بينهم وبين أن يفقهوا عنك شيئًا، فيثيب هذا المؤمن على ما سلف من صالح عمله في الدنيا بما وعد أهل الإيمان به من الثواب، ويعاقب هذا الكافرَ بما أوعدَ أهل الكفر به من العقاب، لا يظلم أحدًا منهم مثقال ذرة ، وهذا تهديد لهم.

هذه هي قصة الاستجابة وعدم الاستجابة! تكشف حقيقة الموقف كله، وتحدد واجب الرسول وعمله، وتترك الأمر كله لصاحب الأمر يقضي فيه بما يريد[2].

---

(١) – هناك فارق بين «الاستجابة» و «الإجابة» ؛ ف «الاستجابة» هي: أن يجيبك من طلبت منه إلى ما طلبت ويحققه لك، و «الإجابة» هي: أن يجيبك من سألت ولو بالرفض لما تقول، تفسير الشعراوي (٦/ ٣٦٠٣)

(٢) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٤١) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٧٥) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٤٥) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٨٨) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٢١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٣) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٠١) وخلافهم ، محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٤٩) تفسير المراغي (٧/ ١١٦) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ٢٥٥) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٧٩) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٨٨) تفسير الشعراوي (٦/ ٣٦٠٣) أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٥٥) مع تصرف وإضافة من الباحثة

ولم يذكر ما ذكر من تشبيههم بالموتى في الآية السابقة إلا لأن هَؤُلَاءِ قوم همتهم العناد والمكابرة والتعنت إذ لم يقتنعوا بما قد كان أنزل عليه آيات عقليات وسمعيات وحسيات[(١)] .

ومن عنادهم أنهم قالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ﴾ أي على النبي ﷺ ﴿ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ فهم لم يعتدوا بما أتى به، وكأنه لم يأت بشيء عندهم لعنادهم وجحدهم، فقالوا هلاّ نزل عليه آية من ربه وعلامة لنبوته، فهم يعلمون أن ذلك التنزيل آت من قبل ربه ، وعبروا بالمجهول وبربه وهما يفيدان أن الطلب ليس منه، ولكنه من ربه، فإذا كان رسولاً من عنده، فليجب ذلك الطلب الذي نتمناه، ونكون من بعده مؤمنين ، ومضمون كلامهم يقتضي أن الرسول ﷺ لا يثبت صدقه إلا إذا أيده الله بآية على وفق مقترحهم.

مع أن القرآن معجزة قاهرة وبينة باهرة، بدليل أنه ﷺ تحداهم به فعجزوا عن معارضته، وذلك يدل على كونه معجزاً ، فيعلم أنهم طعنوا في كون القرآن معجزاً على سبيل اللجاج والعناد، وقالوا: إنه من جنس الكتب، والكتاب لا يكون من جنس المعجزات، كما في التوراة والزبور والإنجيل، ولأجل هذه الشبهة طلبوا معجزة من المعجزات القاهرة مثل معجزات سائر الأنبياء من فلق البحر وإظلال الجبل وإحياء الموتى ، ولقد أورد الله تعالى في موضع آخر من كتابه جملة من الآيات التي سألوها فقال : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٠ – ٩٣]

ولم يتركهم الله تعالى وما قالوه بل قال تعالى لنبيه محمد ﷺ أن يقول لهم على سبيل التوبيخ والتقريع : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لقائلي هذه المقالة لك: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً ﴾ حجة على ما يريدون ويسألون ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ولكن أكثر الذين يقولون ذلك فيسألونك آية، لا يعلمون ما عليهم من البلاء في الآية إن أنزلها ، ولا يدرون ما وجه ترك إنزال ذلك عليك، ولو علموا السبب الذي من أجله لم أنزلها عليك، لم يقولوا ذلك، ولم يسألوكه، فأكثرهم لا يعلمون أنه إذا أنزل آية على أثر السؤال لأنزل عليهم العذاب ، واستأصلهم إذا عاندوا ، ولأهلكهم على ما ذكرنا من سنته في الأولين، لكنه وعد

(١) - فأما الآيات العقليات: فهي ما ذكر: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾[الإسراء: ٨٨]

وأما الآيات السمعيات: فهي ما أنباهم عن أشياء كانت غائبة عنهم، من غير أن كان له اختلاف إلى من يعلمها وينبئه عنها.

والآيات الحسيات: هي ما سَقى أقوامًا كثيرة بلبن قليل من قصعة، وما قطع مسيرة شهرين بليلة واحدة، ونطق العناق الذي شوي له، وحنين المنبر، وغير ذلك من الأشياء مما يكثر ذكرها. لكنهم عاندوا، وكانت همتهم العناد. تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٧٧)

إبقاء هذه الأمة إلى يوم القيامة، كذلك فهو لا ينزل الآية إلا عند الحاجة إليها ، ولو كانوا عالمين عاقلين لطلبوا ذلك على سبيل طلب الفائدة.

وهذه الآية لا تدل على أن الله لم ينزل عليهم آية تقودهم إلى التصديق فلم يلزمهم الإيمان ، فهذا خطأ ؛ لأن ما أظهره الله من الآيات الدالة على صدق رسوله وصحة نبوته ، أظهر من أن يُخْفَى ، وأكثر من أن ينكر ، وأن القرآن مع عجز من تحداهم الله من الآيات بمثله ، وما تضمنه من أخبار الغيوب وصدق خبره عما كان ويكون أبلغ الآيات وأظهر المعجزات ، وإنما اقترحوا آية سألوها تعنتاً ، فلم يجابوا مع قدرة الله تعالى على إنزالها ، لأنه لو أجابهم إليها لاقترحوا غيرها إلى ما لا نهاية له ، حتى ينقطع الرسول بإظهار الآيات عن تبليغ الرسالة، وذلك يفضي إلى أن لا يستقر الدليل ولا تتم الحجة، فوجب في أول الأمر سد هذا الباب والاكتفاء بما سبق من المعجزة القاهرة والدلالة الباهرة.

وإنما يلزمه إظهار الآيات في موضعين:

أحدهما: عند بعثه رسولاً ليكون مع استدعائه لهم دليل على صدقه.

والثاني: أن يسألها من يعلم الله منه أنه إن أظهرها له آمن به ، وليس يلزمه إظهارها في غير هذين الموضعين ، حيث إنه لما ظهرت المعجزة القاهرة والدلالة الباهرة الكافية لم يبق لهم عذر ولا علة .

ومن تأمل في حال الرسل والرسالات يجد أن الآيات التي تكون مع النبيين لإثبات رسالتهم تكون على مقتضى حكمته، وتكون مناسبة لشريعتهم فتكون خالدة بخلودها.

لذلك كان القرآن حجة في ذاته وهو أقوى حجة تناسب شريعة محمد ﷺ ، لأن الآيات المادية وقائع حسية تنتهي بانتهاء زمنها فالمعرفة الحسية موقوتة التأثير، ولا يعرفها إلا الذين يرونها، حيث من يراها يقول إنها معجزة، ومن لم يرها قد يصدق وقد يكذب، أما القرآن فهو باق خالد معجز في كل الأعصار والدهور فناسب شريعة خالدة باقية إلى يوم القيامة[(١)].

ثم يأخذ السياق القرآني طريقه إلى قلوبهم من مدخل آخر لطيف، ويوقظ فيها قوى الملاحظة والتدبر لما في الوجود حولهم من دلائل الهدى وموحيات الإيمان، لو تدبروه وعقلوه ، فيقول : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ حيث إنه لما بين أنكم لا تعلمون وجه الحكمة في أن لا ينزل آية مجهزة ، فهو يحيل على الآيات المنصوبة لمن فكر واعتبر ؛ لذلك قل يا محمد لهؤلاء المعرضين عنك، المكذبين بآيات الله: أيها القوم، لا تحسبُنَّ الله غافلاً عما تعملون، أو أنه غير مجازيكم على ما تكسبون!

---

(١) - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٤٣) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٧٧) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٤٦) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١١٠) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٢٢) التسهيل لابن جزي (١/ ٢٦٠) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٤٩) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ٢١٠) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٩٠) تفسير الشعراوي (٦/ ٣٦٠٥) التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٧٠) مع تصرف وإضافة من الباحثة

وكيف يغفل عن أعمالكم، أو يترك مجازاتكم عليها، وهو غير غافل عن عمل شيء دبَّ على الأرض صغيرٍ أو كبيرٍ، وإنما خص ما في الأرض بالذكر دون ما في السماء وإن كان ما في السماء مخلوقاً له؛ لأن الاحتجاج بالمشاهد أظهر وأولى مما لا يشاهد. فما من دابة ولا طائر طار بجناحيه في الهواء، وذكر بجناحيه للمبالغة[1] ، بل جعل ذلك كله أجناسًا مجنَّسة وأصنافًا مصنفة،تعرف كما تعرفون، وتتصرف فيما سُخِّرت له كما تتصرفون، ومحفوظ عليها أحوالها وأرزاقها وآجالها عندنا وأمورَها مقنَّنة ، ومصالحَها مرعيةٌ جاريةٌ على سَنن السَّداد ومنتظمةٌ في سلك التقديرات الإلهية والتدبيراتِ الربانية ، فلا نهمل شيئاً من حوائجها بل تثبت ونكتب الكل في لوحنا المحفوظ وكتابنا المبيّن على التفصيل ، بحيث ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ وأفرطنا وأهملنا ما ينبغي أن يكون فيه ، وأغفلنا ﴿فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ من حوائجهم وأحوالهم كلها في قبضة الحق، وتحت قدرته ومشيئته، فدل ذلك على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره، فيدل دلالة واضحة على قدرته على أن ينزل آية، ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما حفظوا ورزقوا زماناً حسب تعيناتهم وهوياتهم فهم في نهاية الأمر ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ فهو تعالى مميتها ثم منشرها ومجازيها يوم القيامة ، فيقضي في أمرها ما يشاء جزاءً على أعمالها .

فالرب الذي لم يضيِّع حفظَ أعمال البهائم والدوابّ في الأرض، والطير في الهواء، حتى حفظ عليها حركاتها وأفعالها، وأثبت ذلك منها في أم الكتاب، وحشرها ثم جازاها على ما سلف منها في دار البلاء، أحرى أن لا يُضيع أعمالكم، ولا يُفَرِّط في حفظ أفعالكم التي تجترحونها، أيها الناس، حتى يحشركم فيجازيكم على جميعها، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًّا فشرًّا، إذ كان قد خصكم من نعمه، وبسط عليكم من فضله، ما لم يعمَّ به غيركم في الدنيا، وكنتم بشكره أحقَّ، وبمعرفة واجبه عليكم أولى، لما أعطاكم من العقل الذي به بين الأشياء تميِّزون، والفهم الذي لم يعطه البهائم والطيرَ، الذي به بين مصالحكم ومضارِّكم تفرِّقون.

وخص ما في الأرض بالذكر دون ما في السماء احتجاجاً بالأظهر ؛ لأن ما في السماء وإن كان مخلوقاً مثلنا فغير ظاهر[2].

---

(1) – حيث إن الله تعالى ذكره أنزل هذا الكتاب بلسان قوم، وبلغاتهم وما يتعارفونه بينهم ويستعملونه في منطقهم خاطبهم. فإذكان من كلامهم إذا أرادوا المبالغة في الكلام أن يقولوا:"كلمت فلانًا بفمي"، و"مشيت إليه برجلي"، و"ضربته بيدي"، خاطبهم تعالى بنظير ما يتعارفونه في كلامهم، ويستعملونه في خطابهم، ومن ذلك قوله تعالى ذكره: (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنْثَى) [سورة ص: ٢٣] جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٤٩)

(2) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٤٤) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٧٩) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢٠١٥) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١١٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٨٩) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٢٤) الفواتح الإلهية للنخجواني (١/ ٢١٨) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٣١) البحر المديد لابن عجيبة (٢/ ١١٥) فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٤/ ١٣٤) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٣٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٨٠) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ٢١٥) مع تصرف وإضافة من الباحثة

ولما ذكر من بين عوالم الأحياء كلها، خلائقه وآثار قدرته ما يشهد لربوبيته وينادى على عظمته ، وذكر في قوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام: ٣٨] في كونها دالة على كونها تحت تدبير مدبر قديم وتحت تقدير مقدر حكيم، وفي أن عناية الله محيطة بهم، ورحمته واصلة إليهم، قال بعده : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ والمكذبون لهذه الدلائل ، والمنكرون لهذه العجائب انكاراً وتكذيباً متكرراً على عدد الآيات بالفعل أو بالقوة بالإعراض عنها ، فمثلهم في جهلهم، وعدم فهمهم، وسوء حالهم، كمثل ﴿ صُمٌّ ﴾ لا يسمعون مثل هذه الآيات سماعًا تتأثر به نفوسهم ، ﴿ وَبُكْمٌ ﴾ لا ينطقون بالحق، فلما لم ينتفعوا ولم تتأثر نفوسهم بما سمعوا ، ولا قالوا ما ينتفعون به أصبحوا خابطون مرتطمون حائرون ﴿ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ خائضون في ظلمات حالكة ؛ وهي ظلمة الكفر الشرك والوثنية، وظلمة تقاليد الجاهلية، وظلمة كبرياء العصبية، وظلمة الجهل والأمية، ظلمات بعضها فوق بعض، لا ينفذ منها إليهم من نور الهداية شيء، فهم لا يبصرون صراطها، ولا يرون منهاجها، وذلك ما جنوه على أنفسهم بسوء اختيار الأفراد ، وفساد تربية المجموع ، فهم لا يبصرون آيات الله فيعتبرون بها، ويعلمون أن الذي خلقهم وأنشأهم فدبَّرهم وأحكم تدبيرهم، وقدَّره كل شيء أحسن تقدير، وأعطاه القوة، وصحح له آلة جسمه لم يخلقه عبثًا، ولم يتركه سدًى، ولم يعطه ما أعطاه من الآلات إلا لاستعمالها في طاعته وما يرضيه، دون معصيته وما يسخطه، فالكافر لحيرته في ظلمات الكفر، وتردّده في غمراتها، غافلٌ عمَّا الله قد أثبت له في أمّ الكتاب، وما هو به فاعلٌ يوم يحشر إليه مع سائر الأمم ، غافلون عن تأمل هذه الدلائل ، وذلك أنهم بلغوا في الكفر إلى حيث كأن قلوبهم قد صارت ميتة عن قبول الإيمان بدليل قوله : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[الأنعام: ٣٦]

ثم أخبر تعالى ذكره أنه ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ ﴾ أي من تعلقت مشيئة الله بإضلاله يضلله كما أضل هؤلاء الذين استحبوا العمى على الهدى، فلم يستعملوا أسماعهم ولا أفواههم ولا عقولهم في آيات الله تعالى الدالة على حقية ما جاء به رسول الله ﷺ ، ثم إن الضلال لابد أن يكون مبنياً على حال العبد ، يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥] ، ويقول : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾[المائدة: ٤٩] .

﴿ وَمَن يَشَأْ ﴾ هدايته واستقامته ﴿ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ على طريق مستقيم، والصراط هو الطريق البين الواضح لا يتحير ولا يخطىء القصد من سار فيه ، والمستقيم الذي لا اعوجاج فيه، وإنما عبر عنه بذلك ؛ لأن السير في الطريق المستقيم أيسر على السائر وأقرب وصولاً إلى المقصود ، وهو طريق الحق الذي لا يضل سالكه، ولا ينجو تاركه، وهو الذي يوفقه الله لاستعمال سمعه وبصره وعقله في آيات الله المنزلة وآياته المكونة، استعمالاً يعرف به الحق ويعترف به، ويعرف به الخير ويعمل به بحسب سننه سبحانه وتعالى في الارتباط بين الأعمال البدنية ، والعقائد والوجدانات النفسية، فهو الهادي إلى الصراط

المستقيم منهم من أحبَّ هدايته، فموفّقه بفضله وطَوْله للإيمان به، وترك الكفر به وبرسله وما جاءت به أنبياؤه، وأنه لا يهتدي من خلقه أحد إلا من سبق له في أمّ الكتاب السعادة، ولا يضل منهم أحد إلا من سبق له فيها الشقاء، وأنّ بيده الخير كلُّه، وإليه الفضل كله، له الخلق والأمر[1].

ولما بين موقفهم من الآيات الكونية والشرعية الإعراض والعناد ، كانت نتيجة ذلك أن أثرت أثراً بالغاً على مواقفهم تجاه ما يحدث لهم من الأحداث ، حيث ظهر أن قلوبهم استيقنت أنه الحق لكن جحودهم كان عن استكبار ؛ فهم إذا نزلت بهم بلية أو محنة فإن حالهم أنهم يفزعون إلى الله تعالى ويلجئون إليه ولا يتمردون عن طاعته ، وها هنا يسألهم سؤال ليضعهم أمام الأمر الواقع أيستمرون على الإشراك بالله في تلك الحالة ؟! وهل يستمرون من الآن على الشرك إلى أن يأتيهم العذاب أو تأتيهم القيامة حين يلجأون إلى الإيمان بوحدانيته، ولات حين إيمان ! [2] .

فنراه افتتح هذا التهديد بالأمر بالقول اهتماماً به وإلا فإن معظم ما في القرآن مأمور الرسول ﷺ بأن يقوله لهم[3]بصيغة المنبه والحاث على الرؤية والتأمل ، فيخاطب الله النفس البشرية ببأس الله وبموقف الفطرة إزاءه حين يواجهها في صورة من صوره الهائلة، التي تهز القلوب، فيتساقط عنها ركام الشرك وتتعرى فطرتها من هذا الركام الذي يحجب عنها ما هو مستقر في أعماقها من معرفتها بربها، ومن توحيدها له ، حيث أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يُبكِّتَهم ويسفههم ويُلقِمَهم الحجرَ بما لا سبيلَ لهم إلى النكير فقال : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ ﴾ إن جاءكم وحل بكم وحصل لكم أيها القوم ﴿ عَذَابُ ٱللَّهِ ﴾ الذي وعدكم في الدنيا أنه يأتيك؛ كالذي جاء من قبلكم من الأمم الذين هلك بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالصاعقة ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ أو جاءتكم الساعة التي تنشرون فيها من قبوركم، وتبعثون لموقف القيامة، ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ هناك ﴿ تَدْعُونَ ﴾ لكشف ورفع ما نزل بكم من البلاء، أو إلى غيره من آلهتكم من الأصنام والحجارةَ التي عبدتموها من دون اللَّه، تفزعون لينجيكم مما نزل بكم من عظيم البلاء؟ وهذا على طريقة التبكيت والتوبيخ ، وإضافة العذاب إلى اسم الجلالة لتهويله لصدوره من أقدر القادرين.

---

[1] — انظر : تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٨٠) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢٠١٧) الكشاف للزمخشري (٢/ ٢١) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٣٠) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٦١) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٠٢) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٠٨) البحر المديد لابن عجيبة (٢/ ١١٦) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٥٨) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٣٦) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٧٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ٢٢٠) مع تصرف وإضافة من الباحثة

[2] — انظر : مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٣٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ٢٢١) وإضافة من الباحثة .

[3] – وقد تتابع الأمر بالقول في الآيات بعد هذه إلى قوله: لكل نبإ مستقر [الأنعام: ٦٧] اثنتي عشرة مرة التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ٢٢١)

ووجه إعادة فعل ﴿أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ مع كون حرف العطف مغنياً عن إعادة العامل بأن يقال: إن أتاكم عذاب الله أو الساعة، هو ما يوجه به الإظهار في مقام الإضمار من إرادة الاهتمام بالمظهر ، بحيث يعاد لفظه الصريح ؛ لأنه أقوى استقراراً في ذهن السامع وهو يعبر عن التهويل ، وإدخال الروع في ضمير السامع.

فهؤلاء الضالّين المشركين، إذا كربتهم الكروب، وأحاط بهم البلاء، وعاينوا الموت، تنبهت فيهم قوى الإدراك التي كانوا قد عطلوها، ووضحت لهم الحقيقة التي ضلّوا الطريق إليها .

حيث كان من المعلوم بالضرورة أنهم إنما يرجعون إلى الله تعالى في دفع البلاء والمحنة لا إلى الأصنام والأوثان، فاحتج اللَّه عليهم بما لا يَدْفَعُونَه، لأنهم كانوا إذا مَسَّهُمُ الضر دعوا اللَّه.

وجاء الاستفهام في قوله تعالى : ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ﴾ للتوبيخ والتقريع والتعجب من حالهم، في أن غير الله تعالى لا يغني شيئاً حتى يستحق الإلهية، ثم ذيل الآية بقوله : ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ إن كنتم محقّين في دعواكم وزعمكم أنّ آلهتكم التي تدعونها من دون الله تنفع أو تضر ، وهذه حجة لا يسعهم معها غيرُ التسليم، فإن عادتهم كانت مستمرة أنهم إذا اشتد الأمر وضاق الخناق لا يدعون غير الله تعالى ، ولا يوجهون الهمم إلا إليه، فإن سلكوا سبيل الصدق الذي له ينتحلون وبه يتفاخرون فقالوا: لا ندعو غيره، فقد لزمتهم الحجة في أنه لا يعدل به شيء ولا شريك له، فأنتم مقرون بأنكم لا تدعون غير الله ، ولقد ذكرهم في هذه الآية ، وألجأهم إلى النظر ؛ ليعلموا أنه إذا أراد الله عذابهم لا تستطيع آلهتهم دفعه عنهم، فهم إن توخوا الصدق في الخبر عن هذا المستقبل أعادوا التأمل ، فلا يسعهم إلا الاعتراف بأن الله إذا شاء شيئاً لا يدفعه غيره إلا بمشيئته؛ لأنهم يعترفون بأن الأصنام إنما تقربهم إلى الله زلفى، فإذا صدقوا وقالوا: أندعو الله، فقد قامت حجة أخرى عليهم ؛ لأن من لا يغني في بعض الشدائد لا ينبغي الاعتماد عليه في البعض الآخر[1].

وأنهم لو صدقوا أنفسهم، وتدبروا الموقف وتصوّروه على حقيقته، لكان جوابهم: لن ندعو غير الله تعالى ، ولن نشرك به أحداً.. ولكنهم لم يفعلوا ولن يفعلوا.. ولهذا ضرب الله على الجواب المنتظر منهم، وتولّى سبحانه الجواب عنهم، وألزمهم به إلزام من يؤمنون بالله، ويقدرونه حق قدره، فقال تعالى: ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ﴾ حيث أجاب تعالى عن هذا التساؤل الموجّه للتبكيت والإلزام بقوله: ﴿

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٥٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٤٦) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٨٢) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٣٢) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١١٠) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٣٢) فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٤/ ١٣٩) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٨٦) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٧٥) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ٢٢١) التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٧٢) مع تصرف وإضافة من الباحثة

﴿ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ ﴾ مخبراً إياهم عما تقتضيه فطرتهم ، حيث أردفه ببل التي هي للاستدراك والإيجاب بعد النفي وذلك لتدارك الغلط الذي وقعوا فيه ، ولترك ماهم عليه من الشرك وأخذ ما يمكن أن ينجيهم وهو الله تعالى ، ووجه تولي الجواب عنهم من السائل نفسه أن هذا الجواب لما كان لا يسع المسئول إلا إقراره صح أن يتولى السائل الجواب عنه .

فبين أنهم في هذا الحال يتركون أحجارهم؛ لأنهم في هذه الحال تستيقظ مداركهم، وذلك أن الله تعالى أودع في فطرة الإنسان شعوره بالضعف ، وتوحيد الله ، والإذعان التّام للخالق المبدع، مالك الأرض وباسط السماء ، وأما الشّرك فهو شيء موروث في البدائيين، وعبث وظلم، وانحراف عن الفطرة السّوية، وانشغال بما لا يفيد ، فلا يلتفتون إلى أوثانهم ، إذ يرونها لَا تنفع ولا تضر، فلا يدعون غير الله تعالى ، وإنما يدعون الله عنهم ليكشف عنهم العذاب.

فإن أتاكم عذابُ الله أو أتتكم الساعة، هل أنتم بمستجيرين بشيء غير الله في حال شدة الهول النازل بكم من آلهة ووثن وصنم، بل تدعون هناك ربّكم الذي خلقكم، وبه تستغيثون، وإليه تفزعون، دون كل شيء غيره في دفع ذلك عنهم، وتخصونه بالدعاء دون الآلهة ﴿ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ ﴾ فيفرِّج عنكم عند استغاثتكم به وتضرعكم إليه، عظيم البلاء النازل بكم إن شاء أن يفرج ذلك عنكم، ويتفضل عليكم ؛ بل ربما يكون البلاء حاطمًا لها، ومنكسًا، فيتركونها كما أن شدة الهول تجعلهم ينسون ما علق بأوهامهم عنها ولا يكون أمامهم إلا الحقائق الثابتة.

ثم إن قبول دعائهم غير مطرد ، بل هو تابع لمشيئته المبنية على حكم خفية ، وقد استأثر الله تعالى بعلمها فقد يقبله كما في بعض دعواتهم المتعلقة بكشف العذاب الدنيوي ، وقد لا يقبله كما في بعض آخر منها ، وفي جميع ما يتعلق بكشف العذاب الدنيوي عند نزوله والعذاب الأخروي الذي من جملته الساعة ، فهو القادر على كل شيء، ومالك كل شيء، دون ما تدعونه إلهًا من الأوثان والأصنام ، وهذا إطماع في رحمة الله تعالى ، يقول ﷺ : (ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا أتاه الله إياها أو صرف عنه من السوء مثله ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم) ، فقال رجل من القوم: إذاً نكثر، قال: (الله أكثر) [(١)].

وإنما قرن بالاستثناء وبالمشيئة؛ لأن كشف العذاب فضل الله تعالى، وفضل الله تعالى يُؤۡتِيهِ مَن يشاء ، وإنما قيد كشف الضر عنهم بالمشيئة لأنه إطماع لا وعد ، وأنتم في ذلك الوقت ﴿ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴾ تنسون حين يأتيكم عذاب الله أو تأتيكم الساعة بأهوالها، ما تشركونه مع الله في عبادتكم إياه، وتتركون ما تجعلونه له ندًّا من وثن وَصنم، وغير ذلك مما تعبدونه من دونه وتدعونه إلهًا ، فعبر عن الترك بأعظم وجوهه

---

(١) – أخرجه الإمام الترمذي في سننه ، أبواب الدعوات ، باب في انتظار الفرج وغير ذلك عن عبادة بن الصامت (٥/ ٤٥٨) برقم : (٣٥٧٣) قال الترمذي في حكمه عليه : وهذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

وهو النسيان الذي جمع مع الترك ذهول وإغفال ، فتنسونه من شدة الأمر وهوله ؛ لأن أذهانكم مغمورة بذكر ربكم حيث ركز في العقول على أنه القادر على كشف الضر دون غيره .

فأنتم إذا مسكم الشدائد والبلايا لا تضرعون إلى الذين تشركون في عبادته وألوهيته، فكيف أشركتم أُولَئِكَ في ربوبيته في غير الشدائد والبلايا ، أفلا يكون لكم هذا زاجراً عن الشرك في وقت الرخاء خوفاً من إعادة الضراء! [1] .

فلما أقام لهم بهذه الآية على توحيده الدليل حتى استنارت السبل في تذكيرهم أن التضرع قد يكشف به البلاء ، أخبرهم أن تركه يوجب الشقاء ، ترغيباً في إدامته وترهيباً من مجانبته ، فقد أنذرهم بتوقّع العذاب

ثم أعلم اللَّه جلَّ ثناؤه نبيَه ﷺ أنَّه قد أرْسَل الرسلَ قبله إلى قوم كانوا أرسخ من قومه في الشرك وأشد منهم إصراراً على الظلم،بلغوا من القسوة إلى أن أخِذوا وعوقبوا بالشدة في أنْفسِهم وأمْوَالِهم ليخضعوا ويَذِلوا لأمْرِ اللَّه، لأنَّ القُلوبَ تخْشع ، والنفوسَ تضْرَع عند ما يكون من أمر الله في البأساءِ والضراءِ.

فإن قومه يدعون الله تعالى وحده عند شدة الضيق وينسون ما اتخذوه من دونه من الأولياء والأنداد، وأما تلك الأمم فلم تلن الشدائد قلوبهم، ولم تصلح ما أفسد الشيطان من فطرتهم.

فأعقبه بالاستشهاد على وقوع العذاب بأمم من قبل ، ليَعلَم هؤلاء أنّ تلك سنة الله في الذين ظلموا بالشرك . يقول تعالى ذكره متوعدًا لهؤلاء العادلين به الأصنامَ ، ومحذِّرَهم أن يسلك بهم إن هم تمادَوا في ضلالهم سبيلَ من سلك سبيلهم من الأمم قبلهم ، في تعجيل الله عقوبته لهم في الدنيا ، ومخبرًا نبيَّه عن سنته في الذين خلوا قبلهم من الأمم على منهاجهم في تكذيب الرسل وصدر الجملة بالقسم لإظهار مزيد الاهتمام بمضمونها فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ ﴾ يا محمد ﴿ إِلَىٰٓ أُمَمٍ ﴾ إلى جماعات وقرون من قبلك فأمرناهم ونهيناهم، فكذبوا رسلنا، وخالفوا أمرنا ونهينا، ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم ﴾ فامتحناهم بالابتلاء ﴿ بِٱلْبَأْسَآءِ ﴾ وهي شدة الفقر والضيق في المعيشة ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ وهي الأسقام والعلل العارضة في الأجسام.

وفي هذا بيان لعلاج الله تعالى للأسقام النفسية للأمم التي تتعصى على الهداية، وعلى الاستقامة على الحق إذا دعوا إليه، فليس الناس جميعاً طلاب حق يتبعونه إذا هدوا إليه، ولا يستمعون إلى الحجة إذا سيقت إليهم، بل يعاندون ويكابرون، فهؤلاء يحتاجون إلى علاج دنيوي، وذلك بالشدائد تنزل بهم ؛ لأن الجحود والمبالغة في الإنكار سببهما الاغترار بالدنيا وما فيها من متع، ولا علاج لغرور الجدة إلا بالحرمان منها ؛ ليذوقوا طعم المر بعد أن ذاقوا رطب العيش، ولا علاج لغرور الصحة إلا بالمرض حيناً، ولا لعلاج

---

[1] — انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٥٣) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٨٢)بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٤٧) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢٠٢٠) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٩٠) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٦١) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٠٣) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١١٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٣٢) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٤٢) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٧٨) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ٢٢٤) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٩٥) التفسير المنير للزحيلي (٧/ ١٩٩) التفسير الوسيط للزحيلي (١/ ٥٤٩) مع تصرف وإضافة من الباحثة

للقوة إلا بالضعف. وعسى أن يكون هذا بصوره المختلفة باختلاف الداء مؤدياً إلى شفاء النفس، والاتجاه بها إلى الهداية، وقد عالج الله تعالى حالهم بأمرين: أخذهم بالبأساء، وهي البؤس الشديد، والثاني الضراء .

ثم إن الآلام علاج النفوس المغرورة بزخارف الدنيا، ومتاعها إن كانت صالحة للعلاج، وقد يستعصي الداء ويصعب العلاج، وإن الله تعالى عالج الأمم بالآلام عساهم يخضعون، ويبتعد الغرور عن نفوسهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ لعلهم يخضعون ويتطامنون وتذهب كبرياؤهم إذ يحسون بضعفهم ، فيتضرعوا إليّ، ويخلصوا وينقادوا لعبادتي ، ويُفْردوا رغبتهم إليَّ دون غيري، بالتذلل منهم لي بالطاعة، والاستكانة والخشوع منهم إليّ بالإنابة والتوبة وترك التمرد والعصيان ، فالنفوس تتخشع عند نزول الشدائد، وإنه حيث كان الإحساس بالضعف قربت النفس من الإيمان ؛ فالإيمان إذعان وخضوع، وفي الآية تسلية للنبي ﷺ [(1)].

ولقد بين الله تعالى أن الكفار عند نزول الشدائد يرجعون إليه تعالى، وأخبرَ عن الأمم التي كذّبت رسلها أنه أخذهم بالبأساء والضراء ليتضرعوا له ؛ لأن التضرع ينشأ عن لين القلب فكان نفيه المفاد بحرف التوبيخ ناشئاً عن ضد اللين وهو القساوة، فمنهم من لا يدعو الله تعالى عند إتيان العذاب أيضاً لتماديهم في الغي والضلال ، ولا يتأثرون بالزواجر التنزيلة فلما لم يقع منهم ما أوجبت الحال رجاءه، تسبب عنه الإنكار عليهم، حيث بين في هذه الآية أنهم لا يرجعون إلى الله عند كل ما كان من جنس الشدائد، بل قد يبقون مصرين على الكفر غير راجعين إلى الله تعالى، فقال:﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾ فاستكانوا لربهم، وخضعوا لطاعته، فيصرف ربهم عنهم بأسه، وهو عذابه ، ﴿وَلَٰكِن ﴾ أصروا على ذلك، حيث جاء بلولا ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم وقسوة قلوبهم، وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان ، ودل على ذلك ماجاء بعده وهو قوله : ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ما رقت ولا خشعت ، بل صلبت وغلظت فلم تضرع ولم تخشع قلوبهم واستمرت على ما هي عليه من القساوة ولم تلن للإيمان، فلقد بلغوا من القسوة أنهم أخذوا بالشدائد، فلم يخضعوا ولم يتضرعوا ولكن أقاموا على كفرهم وعلى تكذيبهم رسلهم، وأصرُّوا على ذلك، واستكبروا عن أمر ربهم، استهانةً بعقاب الله، واستخفافًا بعذابه، وقساوةَ وصلابة قلوبهم ،فلم ترد إليهم الشدة وعيهم، ولم تفتح بصيرتهم، ولم تلين قلوبهم ، وبين أنه ما كان لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم وقسوتهم وإعجابهم بأعمالهم التي زينها وحسنها لهم فيقول تعالى :﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ حيث أغواهم بها وحملهم عليها والتي يكرهها الله ويسخطها منهم ، وصاروا معجبين بتلك

(1) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٥٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٤٨) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ١٤٧) الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٣٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٤٢٤) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٠٣) نظم الدرر (٢ / ٦٣٦) فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٤/ ١٤٠) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٤٥) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٧ / ٢٢٦) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٩٧) مع تصرف وإضافة من الباحثة

الأفعال من الكفر والمعاصي بما يوسوس إليهم من تحسين الثبات على ما كان عليهم آباؤهم وأجدادهم، وتقبيح الطاعة والانقياد إلى رجل منهم لا مزية له عليهم ، فلزموها، وتعلقوا بها..

وعبر بـ ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ولم يقل حسن لهم الشيطان كما يجري على الألسنة فلان يحسن القبيح؛ لأن القبيح لَا ينقلب حسنًا، والسيئ لَا ينقلب، ولكن السيئ أو القبيح بتمويهات وتزيينات يظن معها أنه حسن ، وما هو إلا تمويه باطل، وإنهم إن لم يهذبوا بالشدائد اختبروا بالنعم،[1] فقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾

فبين الله تعالى أنه أخذهم أولا بالبأساء والضراء لكي يتضرعوا ، لكن كان لهم موقف مختلف تجاه ما ابتلوا به ، حيث يقول تعالى في حكايته عنهم : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ فلقد كانوا بتلك القسوة ، وتزيين السوء ناسين لما ذكروا به ، فبعد ما ذكروا بالبأساء والضراء ، وبسبب قسوة قلوبهم تركوا ما ذكروا به ، والنسيان هنا ليس هو مجرد الترك، إنما هو نسيان آثار الضراء والبأساء، فإن الضراء والبأساء لكي تنتجا آثارهما الحقيقية من الضراعة يجب أن تتركا آثاراً في القلوب تكون مذكرة بانتظام دائم لهما ، ولكن القسوة والغرور، والعجب والاستكبار محت تلك الآثار المذكرة فكان النسيان، وعاد الاغترار والاستكبار.

والمعنى فلما تركوا العمل بما أمرناهم به على ألسن رسلنا، وتركوا الإجابة إلى ما دعوا ، وجعلوه وراء ظهورهم، ولم يتوبوا من ذنوبهم ، ولم يعتبروا بالشدة التي حلت بالأمم الخالية ولم يرجعوا إلينا ، وإلى ما أرسل إليهم من الرسل بالدين الحق ، وتركوا الاتعاظ به ولم يزجرهم كل ذلك ، وانصرفوا عن الفطنة بذلك ولم يهتدوا إلى تدارك أمرهم ، كل ذلك لما كان منهم ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي سلط عليهم كل ما كان مغلقاً عليهم مما يحتاجونه من الخير، فيرسم صورة بليغة لإقبال الدنيا عليهم من جميع أقطارها بجميع ألوان نعمها، وبكل قوتها وإغرائها، متدفقة كالسيول بلا حواجز ولا قيود! والنعم مقبلة عليهم بلا عناء ولا كد ولا حتى محاولة! بحيث إننا بدلنا مكان البأساء الرخاء والسعة في العيش، ومكان الضراء الصحة والسلامة في الأبدان والأجسام، استدراجًا منَّا لهم ، وليزاوج عليهم بين نوبتي الضراء والسراء، حتى يرجعوا إليه ، فهو اختبار لهم بالنعمة بعد أن ابتلاهم بالبأساء والضراء.

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٥٦) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٤٧) الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٩٢) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٢٨)مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٣٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٤٢٥) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٠٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٦) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١١٤) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٣٣) فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٤/ ١٤١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٨٩) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٨٠) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ٢٢٨) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٩٩) مع تصرف وإضافة من الباحثة

والفتح هنا استعارة لإزالة ما يؤلم ويغم ، ومنه تسمية النصر فتحاً ؛ لأنه إزالة غم القهر ، ويراد بالأبواب هنا أبواب الخير ؛ لأنها التي لا تجتمع مع البأساء والضراء ، وهي التي كانت مغلقة وقت أن أخذوا بالبأساء والضراء ، ثم حكى ماكان منهم بعد هذا الفتح فقال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ ﴾ حتى إذا فرح هؤلاء المكذّبون رسلهم بفتحنا عليهم أبوابَ السَّعة في المعيشة، والصحة في الأجسام، وأعجبهم ما هم فيه ، وظَنُّوا أنَّ كل مَا نَزلَ بهم لم يكن انْتِقَاماً مِنَ اللَّه جلَّ وعزَّ ، وأنه دال على رضى الله عنهم ، وأن ذلك لا يبيد ، وفرحوا فرح بطر وأشر مثل فرح قارون بما أصاب من الدنيا، وانهمكوا من غير انتداب لشكر ولا تصدّ لتوبة واعتذار ، بل ظنوا أن ذلك باستحقاقهم، فعند ذلك ظهر أن قلوبهم قست وماتت وأنه لا يرجى لها انتباه بطريق من الطرق، فلا جرم أن فاجأهم الله بالعذاب من حيث لا يشعرون ، لذلك جاء بعده بقوله : ﴿ أَخَذْنَٰهُم ﴾ أتيناهم واستأصلناهم بالعذاب وسطونا بهم ، وكان ذلك ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة، وهم آمنون ، لا يتقدم عندهم منها علم ، وهم غارُّون لا يشعرون أن ذلك كائن، ولا هو بهم حالٌّ ، ليكون أشدَّ لتحسُّرهم ، وأنكى شي ما يفجأ من البغت ، فلم نمكنهم من التضرع عند خفوق الأمر، ولا أمهلناهم أصلاً بل نزل عليهم من أثقال العذاب، وأباح بهم من أحمال الشدائد وصروف البلايا ما أذهلهم وشغلهم عن كل شيء حتى بهتوا ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ فإنهم هالكون، مفضوح أمرهم ، فغدوا آيسين من كل خير، منقطعة حججهم، نادمون بشديد الحسرة على ما سلف منهم من تكذيبهم رسلَهم ، وتمكن منهم اليأس والحزن والندم والخذلان عند ورود الهلكة ، وأصابتهم الحيرة بما يرد على النفس ، فلا يجيدون جواباً لشدة ما نزل بهم من سوء الحال ، وفي الجملة الاسمية دلالة على استقرارهم على تلك الحالة الفظيعة(١)، يقول ﷺ : (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج) (٢)

---

(١) – قد يرد تساؤل وهو كيف قيل: ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وقد علمت أن بابَ الرحمة وباب التوبة لم يفتحا لهم، لم تفتح لهم أبواب أخر غيرهما كثيرة؟

قيل: إن معنى ذلك على غير الوجه الذي ظننتَ من معناه، وإنما معنى ذلك: فتحنا عليهم، استدراجًا منا لهم، أبوابَ كل ما كنا سددنا عليهم بابه، عند أخذنا إياهم بالبأساء والضراء ليتضرعوا، إذ لم يتضرعوا وتركوا أمر الله تعالى ذكره، لأنّ آخر هذا الكلام مردودٌ على أوله. وذلك كما قال تعالى ذكره في موضع آخر من كتابه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف: ٩٤-٩٥] ، ففتح الله على القوم الذين ذكر في هذه الآية [أنهم نسوا ما] ذكرهم، (١) بقوله:"فلما نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء"، هو تبديله لهم مكانَ السيئة التي كانوا فيها في حال امتحانه إياهم، من ضيق العيش إلى الرخاء والسعة، ومن الضر في الأجسام إلى الصحة والعافية، وهو"فتح أبواب كل شيء"كان أغلق بابه عليهم، مما جرى ذكره قبل قوله:"فتحنا عليهم أبواب كل شيء"، فردّ قوله:"فتحنا عليهم أبواب كل شيء"، عليه. جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٥٨)

(٢) – أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ،كتاب المناسك ، باب تعديد نعم الله – عز وجل – وما يجب من شكره ، عن عقبة بن عامر – رضي الله عنه – : (٦/ ٢٩٩) برقم : (٤٢٢٠) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (ص: ١٤٧٧) : رواه أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب بسند حسن. وقال الألباني في طريق حرملة: وهذا إسناد قوي ... (السلسله الصحيحة رقم ٤١٣، ١/٧٧٣-٧٧٤)

وبما أن هؤلاء سلكوا في مخالفة نبيهم مسلك من كان قبلهم في مخالفة أنبيائهم، فإنهم بعرض أن ينزل بهم من البلاء ما نزل بمن كان قبلهم[1].

وبعد أن أرسل الله جلّ وعزّ إليهم الرسُلَ، وأنْظَرَهمْ بَعْدَ كُفْرِهِم، وَأخَذَهُمْ بِالْبَأسَاءِ والضراء فبالغ جلّ وعزّ في إنْذَارِهِمْ وإمْهَالِهِمْ، جاء الاستئصال لذا قال : ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ قطع دَابِرُهُم واسْتَأصل شأْفَتَهمْ أولئك القوم الذين عَتَوا على ربهم، وكذّبوا رسله، وخالفوا أمره، عن آخرهم، حيث اجتثّ كل شيء لهم، ومحيت آثارهم، ولم تبق منهم باقية ، وإذا قطع دابرهم فقد قُطعوا، لأن الآخِر لا يوصَل إليه إلا بعد أوّلٍ ، فشملهم العذاب جميعاً، ولم يترك منهم أحد إلا أهلك بغتةً إذ جاءهم عذاب الله، فقطع افتخارهم وتكبرهم الذي كانوا يفتخرون به ويتكبرون.

والظلم هنا الشرك حيث إن الشرك أعظم الظلم ؛ لأنه اعتداء على حق الله تعالى على عباده في أن يعترفوا له بالربوبية وحده، وأن الشرك يستتبع مظالم عدة ؛ لأن أصحاب الشرك لا يؤمنون بشرع يزع الناس عن الظلم.

وبعد هذا الاستئصال حسن الحمد عقب هذه الآية لجمال الأفعال المتقدمة في أن أرسل الرسل وتلطف في الأخذ بالبأساء والضراء ليتضرع إليه فيرحم وينعم، ومن ذلك إنعامه على رسله وأهل طاعته، بإظهار حججهم على من خالفهم من أهل الكفر، وتحقيق عِدَاتِهِم ما وَعدوهم على كفرهم بالله وتكذيبهم رسله من نقم الله وعاجل عذابه. وقطع في آخر الأمر دابر الظلمة فقال : ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ حَمِدَ نفْسَهُ بالثناء الكامل الحسن والشكر التام لأنه محمودٌ في إمْهَالِهِ مَنْ كفَرَ بِهِ وانتظارِهِ تَوْبَتَه.

والحمد إنما يذكر على أثر ذكر الكرامة والنعمة، لكن هاهنا وإن كان نقمة وإهلاكاً فيكون للأولياء كرامة ونعمة؛ لأن هلاك العدو يعد من أعظم الكرامة والنعمة من اللّه، فإذا كان في ذلك شر للأعداء والانتقام فيكون خيراً للأولياء وكرامة، وما من شيء يكون شراً لأحد إلا ويجوز أن يكون في ذلك خير لآخر، فيكون الحمد في الحاصل في الخير والنعمة.

ولم يكن الهلاك على الظلم خارجاً عن الحكمة، فيحمد عز وجل في كل فعل .

---

(1) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٥٧) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٤٨) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٨٥) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٤٧) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ١٤٧) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١١٤) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٧١) الوجيز للواحدي (ص: ٣٥٤) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ١٢٤) الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٩٢) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٢٩) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٣٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٤٢٤) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٠٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٦) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١١٥) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٣٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٩٠) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ٢٣٠) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٥٠٠)_تفسير الشعراوي (٦/ ٣٦١٦)_التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٧٥) مع تصرف وإضافة من الباحثة

وفيه تعليم لهم ولمن آمن بهم أن يحمدوا الله على كفايته شر الذين ظلموا، وليحمد محمد ﷺ وأصحابه ربهم إذا أهلك المشركين المكذبين ؛ حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم وأعمالهم ، وهي نعمة جليلة مستجلبة للحمد ، لا سيما مع ما فيه من إعلاء كلمة الحق التي نطقت بها رسلهم عليهم السلام .

ووصف نفسه سبحانه بـ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إيذان بأن القضاء على الذين ظلموا بعد أن اختبروا بالبأساء والضراء، ثم بالسراء والنعماء هو من تقدير الربوبية، وتدبيره سبحانه رب العالمين.

فاذكر هذا لقومك يا رسولنا لعلهم يثوبون إلى رشدهم ويعودون إلى الحق الذي تدعوهم إليه وهم معرضون(1).

وبعد أن ساق ما حل بالأقوام وفق السنن الإلهية الجارية في هذا الكون في معاملة المؤمنين والكافرين ، بما يتناسب معهم وكان نتيجة أفعالهم ، ساق بعد ذلك ما يعين على التدبر والاعتبار ، من أدوات العلم وهي السمع والبصر والعقل ، فإن لم ينتفعوا بأدوات العلم التي وهبها لهم ، لتكون لهم دلالة واضحة إلى عظيم قدرة الله الكونية ، وليتدبروا ويستجيبوا لآياته الشرعية ، ولم يستعملوها في الاعتبار بما حل بالأقوام السابقة؛ هددهم بأن يسلبهم هذه النعم، وأن يحل بهم مثل ما حل بالأقوام السابق ذكر عذابهم بعد أن اتخذوا موقفاً لم يكن لهم أن يتخذوه ، " فهي ضرب من ضروب الدعوة إلى التوحيد والرسالة بوجه آخر من وجوه الاحتجاج " (2)

فأمر لرسول الله ﷺ بتكرير التبكيت والتوبيخ لقصد تأكيد الحجة عليهم وتثنية الإلزام بعد تكملة الإلزام الأول ببيان أنه أمر مستمر لم يزل جارياً في الأمم فقال :﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ قل يا محمد أرأيتم أيها المشركون بالله غيرَه، إن أصمَّكم الله فذهب بأسماعكم، حتى لا تسمعوا شيئاً أصلاً ، وأعماكم فذهب بأبصاركم، حتى لا تبصروا شيئاً أصلاً ، وختم على قلوبكم فطبع عليها، بأن يغطى عليها ما يذهب عنده فهمكم وعقلكم حتى لا تفقهوا قولاً ولا تبصروا حجة، ولا تفهموا مفهوماً، ولا تعرفوا مما تعرفون من أمور الدنيا وسلب العقول والتمييز ، بحيث يصبح غير قابل لنفاذ الهداية إليه، ولا لتعقل الأمور وإدراك النّفع والضّرر، والحقّ والباطل ، فسلبكم كل ذلك كما أعطاكموها بداية فأيّ إله غير الله الذي له عبادة كل عابد

(1) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٦٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٤٩) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٨٦) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢٠٢٥) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٧٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٩٢) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٦٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٣٤) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٤٨) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٨١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ٢٣١) أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٥٩)

(2) - تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٤٩) مع تصرف وإضافة من الباحثة

﴿يَأۡتِيكُم بِهِ﴾ يستفهم موبخاً : من يرد عليكم ما ذهب الله به منكم من الأسماع والأبصار والأفهام، فتعبدوه أو تشركوه في عبادة ربكم الذي يقدر على ذهابه بذلك منكم، وعلى ردّه عليكم إذا شاء؟

فإذا كانت الأصنام والأوثان التي تعبدون من دون اللَّه وتشركون في ألوهيته وربوبيته لا يملكون ردّ تلك المنافع التي أخذ اللَّه عنكم، فكيف تعبدونها وتشركونها في ألوهيته؟!

وعبر سبحانه بـ (يأتي) للإشارة إلى أنه يكون كالجديد، والنص يشير إلى أنهم وحواسهم في يد الله سبحانه وتعالى، ويشير إلى أمر آخر، وهو أنه تعالى قادر على إعادة السمع والبصر والإدراك، وهي أجزاء جسمكم المدركة المصرفة، أفلا يكون قادراً على إعادتكم في البعث كما بدأكم أول مرة .

وفى التعبير بالفعل "أخذ " إشارة إلى أن هذه النعم هى منحة لهم من عند الله، وفضل من أفضاله على عباده، ولله سبحانه وتعالى أن يأخذ منهم ما أعطى، ويستردّ ما منح، ولا اعتراض لهم عليه .

وإنما خصت هذه الأعضاء الثلاثة بالذكر؛ لأنها أشرف أعضاء الإنسان، فإذا تعطلت اختل نظام الإنسان، وفسد أمره، وبطلت مصالحه في الدين والدنيا.

ولقد علم أن السمع والبصر طريقان للقلب منهما يرد ما يرده من المدركات فأخذهما سد لبابه وهو السر في تقديم أخذهما على ختمها .

يقول الإمام الرازي : " اعلم أن المقصود من هذا الكلام ذكر ما يدل على وجود الصانع الحكيم المختار، وتقريره أن أشرف أعضاء الإنسان هو السمع والبصر والقلب فالأذن محل القوة السامعة والعين محل القوة الباصرة، والقلب محل الحياة والعقل والعلم. فلو زالت هذه الصفات عن هذه الأعضاء اختل أمر الإنسان وبطلت مصالحه في الدنيا وفي الدين. ومن المعلوم بالضرورة أن القادر على تحصيل هذه القوى فيها وصونها عن الآفات والمخافات ليس إلا الله. وإذا كان الأمر كذلك، كان المنعم بهذه النعم العالية والخيرات الرفيعة هو الله سبحانه وتعالى فوجب أن يقال المستحق للتعظيم والثناء والعبودية ليس إلا الله تعالى وذلك يدل على أن عبادة الأصنام طريقة باطلة فاسدة "[1] .

وهذا من الله تعالى ذكره، تعليم نبيَّه الحجة على المشركين به، يقول له: قل لهم: إن الذين تعبدونهم من دون الله لا يملكون لكم ضرًّا ولا نفعًا، وإنما يستحق العبادةَ عليكم من كان بيده الضر والنفع، والقبض والبسط، القادرُ على كل ما أراد، لا العاجز الذي لا يقدر على شيء.﴿ٱنظُرۡ﴾ نظرة تعجب من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة ، ﴿كَيۡفَ نُصَرِّفُ﴾ بما لنا من العظمة، ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ نوحيها لهم ولغيرهم وننوعها في كل وجه نبينها ونوضحها ونفسرها ، ونوجه المعاني فى الجهات التي تظهرها أتم الإظهار ، بحيث كل واحد يقوّي ما قبله في الإيصال إلى المطلوب، وهي العلامات التي ساقها في أُمور شتى ؛ من وجوه البيان بالغ من الإحسان ما يأخذ بالعقول ويدهش الألباب، ويكون كافياً في الإيصال إلى

---

[1] – مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٣٥)

المطلوب؛ منها ما يدل على توحيده، وصحة نبوة نَبِيهِ ﷺ ومنها ما نبين لهم في خطئهم في عبادة هَؤُلَاءِ، وإشراكهم في ألوهيته ، ومنها ما يخوفهم بأخذ الأسماع والأبصار والقلوب، وبما صُنع بالأُمم الخالية ، فنكرر لهم الْآياتِ لعلهم يتنبهوا تارة عقلاً وتارة تذكيراً وعظة وتارة عبراً وأمثالاً ، ومن المعلوم أن إيرادها على الوجوه المختلفة المتكاثرة يساهم في إظهار أن كل واحد منها يقوي ما قبله في الإيصال إلى المطلوب .

ثم هم مع متابعتنا عليهم الحجج، وتنبيهنا إياهم بالعبر، ونضرب لهم الأمثال والعبر، ليعتبروا ويذكروا ويقتنعوا، فينيبوا ويرجعوا إلا أنهم ﴿يَصۡدِفُونَ﴾ إلا أنهم مع هذه المبالغة في التفهيم والتقرير والإيضاح والكشف، يُعْرضون إعراضاً شديداً عن الادّكار والاعتبار عما وضح لهم وظهر عندهم فلا يتأملون ، ويصدون الناس عن اتباعه ، عناداً وحسداً وكبراً ، ولما كان الإعراض عن مثل هذا في غاية البعد عبر بأداة التراخي فقال: ﴿ثُمَّ هُمۡ﴾ [1].

ثم وجه عقولهم إلى لون آخر من ألوان الإقناع فأورد تبكيت آخر لهم بإلجائهم إلى الاعتراف باختصاص للعذاب بهم ، فلما كان ما تقدم مختصاً بأخذ السمع والبصر والقلب ، جاءت هذه الآية عامة في جميع أنواع العذاب، ومن المعلوم أنه لا دافع لنوع من أنواع العذاب إلا الله سبحانه، ولا محصل لخير من الخيرات إلا الله سبحانه، فوجب أن يكون هو المعبود بجميع أنواع العبادات لا غيره.

فقال : ﴿قُلۡ﴾ يا محمد، أخبروني أنتم أنفسكم كيف يكون شأنكم – أو أخبروني عن مصيركم ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ المستأصل لكم وعقابه ، وقد استوجبتموه بصدوفكم عن الحق وإعراضكم عنه ، واستوجبتموه على ما تشركون به من الأوثان والأنداد، وتكذيبكم إيايَ بعد الذي قد عاينتم من البرهان على حقيقة قولي ، وإعراضكم عن الآيات بعد تصريفها ﴿بَغۡتَةً﴾ فجأة على غرة لا تشعرون –كما تقدم– من غير سبق علامة تدلهم على مجيء ذلك العذاب ، أو ﴿أَوۡ جَهۡرَةً﴾ أو أتاكم عذاب الله وأنتم تعاينونه وتنظرون إليه .

وتقديم البغتة لكونها أهول وأفظع ، والأول سماه الله تعالى بالبغتة؛ لأنه فاجأهم بها ، وسمى الثاني جهرة؛ لأن نفس العذاب وقع بهم ، وقد عرفوه حتى لو أمكنهم الاحتراز عنه لتحرزوا منه.

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٦٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٤٩) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٨٦) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ١٢٤) الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٤) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٣٠) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٠٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٧) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١١٨) الفواتح الإلهية للنخجواني (١/ ٢١٩) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٣٤) روح البيان لحقي (٣/ ٣٢) فتح القدير للشوكاني (٢/ ١٣٤) مراح لبيد لمحمد نووي (١/ ٣١٩) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٦٢) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٤٩) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٨٣) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٥٠٤) التفسير المنير للزحيلي (٧/ ٢٠٤) مع تصرف وإضافة من الباحثة

ثم سجل عليهم بالظلم للإيذان بأنه مناط إهلاكهم الذي هو وضعهم الكفر موضع الإيمان فقال: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ هل يهلك الله منا ومنكم هلاك تعذيب وسخط إلا من كان يعبد غير من يستحق علينا العبادة، وترك عبادة من يستحق علينا العبادة؟ والظالمون هم الخارجون عن مقتضى أوامر الله ونواهيه الجارية على السنة رسله المؤيدين من عنده ، وهم الذين تجمعوا على الظلم، وتحزبوا وتضافروا عليه، وتعاونوا على إثمه .

ومع أنهم يعلمون أن العذاب لا يأتي ولا يأخذ إلا الظالم، ثم مع علمهم أنهم ظلمة؛ لعبادتهم غير اللّه، ومع علمهم أنهم لا يملكون نفعًا ولا ضرًا يسألون العذاب .[١]

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. بيان أنه كلما صار الإنسان أسمع لكلام الله ورسوله ﷺ صارت استجابته أقوى، وذلك مأخوذ من القاعدة المعروفة أن ما علق على وصف فإنه يزداد قوة بحسب هذا الوصف الذي علق عليه الحكم [٢].

٢. أن الناس لهم كسب ولهم إرادة، وقدرة، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ وأن الله سبحانه وتعالى لم يكلّف الناس إلّا ما هو ملائم لطبيعتهم، مناسب لقدرتهم، أما ما فوق ذلك فلم يكلّفوا به، ولم يحاسبوا عليه، كبعث الموتى، الذي هو مما لله وحده ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾. [٣]

٣. ليس الاهتداء بفعل للعبد، بل هو لله، يوفق من يشاء ويخذل من يشاء [٤].

٤. الترغيب في الاستجابة لله ورسوله ﷺ، والترهيب من عدم ذلك. [٥]

---

[١] - جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٦٨) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٨٧) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٣٦) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٠٥) الفواتح الإلهية للنخجواني (١/ ٢١٩) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٣٤) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٦٣) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٤٩) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٥٠٥) التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٧٦) أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٦١)

[٢] - الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦/ ١٢٧)

[٣] - التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٦٥)

[٤] - الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢٠١١)

[٥] - تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ٢٥٥)

٥. أن الكفار مثل الموتى، والله يوفق منهم من يشاء إلى الإيمان فيكون ذلك بعثهم من موتهم.[١]

٦. في الآيات دليل على أن الكتاب الأول، قد حوى جميع الكائنات، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر، فإنها أربع مراتب: علم الله الشامل لجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الموجودات، ومشيئته وقدرته النافذة العامة لكل شيء، وخلقه لجميع المخلوقات، حتى أفعال العباد[٢].

٧. فما من شيء من عين وأثر، ورسم وطلل ، إلا وهو على وحدانيته شاهد، وعلى كون أنه مخلوق؛ دليل ظاهر[٣].

٨. جاء لفظ : ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ وقد علم أنه لا يطير إلا بهما -: أن هذا كلام جرى على عادة العرب في لغاتها في التأكيد فخوطبوا بما يعلمون أنه مستعمل عند العرب، تقول العرب: " مشيتُ إليه برجلي " و "كلمته بفمي " فأكد الطيران بقوله : ﴿بِجَنَاحَيۡهِ﴾ على ذلك. وقيل: لما كانت العرب تستعمل لفظ " الطيران " في غير الطائر، فتقول لمن ترسله في حاجة: " طِر في حاجتي "، تريد " أسرع ". ويقولون: "كاد الفرس يطير " إذا أسرع في جريه، فيعبرّون بالطيران عما ليس له جناحان، ففرق بذكر الجناحين بين المعنيين[٤].

٩. بيان قدرة الله تعالى ، وأن الإنسان لَا يصح أن يعلو ويستكبر فأمثاله من الأحياء عدد كثير، وليس عددًا قليلاً[٥].

١٠. الدلالة على عظم قدرته، ولطف علمه، وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس، المتكاثرة الأصناف، وهو حافظ لما لها وما عليها، مهيمن على أحوالها، لا يشغله شأن عن شأن، وأنّ المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان[٦].

١١. تحمل الآيات في ذاتها فاعليتها وإيقاعها وتأثيرها، لو أنها استقبلت وتلقاها الإدراك! وما يعرض عنها معرض إلا وقد فسدت فطرته، فلم يعد صالحاً لحياة الهدى، ولم يعد أهلاً لذلك المستوى الراقي من الحياة[٧].

---

[١] - الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢٠١٢)

[٢] - تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ٢٥٥)

[٣] - لطائف الإشارات للقشيري (١/ ٤٧٠)

[٤] - الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢٠١٤)

[٥] - زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٤٩١)

[٦] - الكشاف للزمخشري (٢/ ٢١)

[٧] - في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٨١)

١٢.   على الإنسان أن يلجأ إلى ربه تبارك وتعالى بطلب الهداية والاستعاذة من الغواية؛ لأن الأمر بيد الله تعالى وحده .[١]

١٣.   أن الله تعالى لو شاء لجمع الناس على الهدى، ولكنه لم يشأ أن يجعل البشر مفطورين على ذلك، ولا أن يلجئهم إلجاء بالآيات التي تقسرهم على ذلك، بل اقتضت حكمته أن يكون البشر متفاوتين فى الاستعداد مختارين فى تصرفاتهم وأعمالهم، ومنهم من يختار الهدى على الضلال، ومنهم من يستحب العمى على الهدى[٢].

١٤.   البحث فى طباع الأحياء ؛ ليزداد علماً بسنن الله وأسراره فى خلقه ، ونزداد بآياته فيها إيماناً وحكمة وكمالاً وعلماً ، ونعتبر بحال المكذبين بها الذين لم يستفيدوا مما فضلهم الله به على الحيوان ، فكانوا أضل من جميع أنواعه التي لا تجنى على نفسها ما يجنيه الكافر على نفسه[٣].

١٥.   بيد الله التوفيق لاستعمال الإنسان سمعه وبصره وعقله، استعمالا يعرف به الحق ويعرف به الخير، ويعمل به بحسب سننه تعالى فى الارتباط بين الأعمال البدنية والعقائد النفسية[٤].

١٦.   أن الإيمان يتوقف على سلامة العقل ، والرغبة في الحق ، والنية الحسنة ، ولا ينبغي أن يكون متوقفاً على معجزات خارقة وعابرة[٥].

١٧.   الإيمان بالله ورسوله ولقائه حياة ، والكفر بذلك موت ، فالمؤمن حي والكافر ميت[٦].

١٨.   تعدد الأمم في الأرض ، وتعدد أجناسها، والكل خاضع لتدبير الله تعالى ، مربوب له[٧].

١٩.   تقرير ركن القضاء والقدر وإثباته في أم الكتاب[٨].

٢٠.   من غريب أحوال الإنسان المشرك أنه في حال الشدة الحقيقية يدعو الله وحده ولا يدعو معه الآلهة الباطلة التي كان في حال الرخاء والعافية يدعوها[٩].

٢١.   بيان سنة الله تعالى في إهلاك الأمم[١٠].

---

[١] – الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦ / ١٣٦) .

[٢] – تفسير المراغي (٧/ ١١٥)

[٣] – المرجع السابق (٧/ ١١٨)

[٤] – المرجع السابق (٧/ ١٢٠)

[٥] – التفسير الحديث (٤/ ٨٦)

[٦] – أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٥٧)

[٧] – المرجع السابق (٢/ ٥٧)

[٨] – المرجع السابق (٢/ ٥٧)

[٩] - أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٥٩)

[١٠] – المرجع السابق (٢/ ٦٠)

٢٢. إذا رأيت الأمة قد فسقت عن أمر ربها ورسوله فعوقبت فلم تتعظ بالعقوبة ، واستمرت على فسقها ، وبسط الله تعالى لها في الرزق ، وأغدق عليها الخيرات ؛ فاعلم أنها قد استدرجت للهلاك وأنها هالكة لا محالة[١].

٢٣. الإرشاد إلى حمد الله تعالى عند نهاية كل عمل، وعاقبة كل أمر[٢].

٢٤. تعريض بالحث على خلع الشرك إذ ليس لشركائهم نفع بأيديهم[٣].

٢٥. سـنّة الله تعالى هي أنْ يبتلي العباد بالشـدائد ليختبرهم لعلهم يرجعون إلى الله بالتوبة النصوح .

٢٦. الإنسان مهما كان بعيداً عن الله ؛ فإنه في حال الشدّة لا يلجأ إلاّ إلى لله وحده .

٢٧. سنة الله هي اختبار العباد ليميز الخبيث من الطيّب .

٢٨. الإشارة إلى أن الله أيد رسله ونصرهم في حياتهم لأن أخذ الأمم بالعقاب فيه حكمتان:

إحداهما: زجرهم عن التكذيب .

والثانية: إكرام الرسل بالتأييد بمرأى من المكذبين. وفيه تكرمة للنبي ﷺ بإيذانه بأن الله ناصره على مكذبيه[٤].

٢٩. إن أشد ما يكون من العذاب، أن يؤخذوا على غرة، وغفلة وطمأنينة، ليكون أشد لعقوبتهم، وأعظم لمصيبتهم[٥].

٣٠. الشدة ابتلاء من الله للعبد فمن كان حياً أيقظته، وفتحت مغاليق قلبه، وردته إلى ربه وكانت رحمة له من الرحمة التي كتبها الله على نفسه.. ومن كان ميتاً حسبت عليه، ولم تفده شيئاً، وإنما أسقطت عذره وحجته، وكانت عليه شقوة، وكانت موطئة للعذاب![٦]

٣١. تضمنت هذه الآيات الحجة على وجوب ترك الظلم، لما يعقب من قطع الدابر، إلى العذاب الدائم، مع استحقاق القاطع الحمد من كل حامد[٧].

---

(١) – المرجع السابق (٢/ ٦٠)

(٢) – المرجع السابق (٢/ ٦٠)

(٣) - التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ٢٢١)

(٤) – المرجع السابق (٧/ ٢٢٧)

(٥) - تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ٢٥٦)

(٦) - في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٨٩)

(٧) - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٤٢٧)

٣٢.   إن الله تعالى إذا لم يهد الإنسان لم يهتد، سواء شاهد الآيات الهائلة، أو لم يشاهدها[١].

٣٣.   إذ مضت سنتنا بجعل الشدائد مربية للناس بما ترجع المغرورين عن غرورهم، وتكف الفجار عن فجورهم، فما أجدرها بإرجاع أهل الأوهام، عن دعاء أمثالهم من البشر وما دونهم من الأصنام[٢]،

٣٤.   كان هلاك الأمم صلاحاً ؛ لأن الظلم تغيير للحقوق وإبطال للعمل بالشريعة، فإذا تغير الحق والصلاح جاء الدمار والفوضى وافتتن الناس في حياتهم فإذا هلك الظالمون عاد العدل، وهو ميزان قوام العالم[٣].

٣٥.   إنذار هؤلاء الكفار بأنهم أمام امتحان رباني فلا يغتروا بما هم فيه من مال وسلامة ووفرة، ولا يستمعوا إلى وساوس الشيطان فيقعوا فيما وقع فيه من قبلهم[٤].

٣٦.   خصوصية الآيات الزمنية التي فيها تنبيهاً عاماً شاملاً لكل زمن ومكان إلى وجوب ذكر الله ، وتجنب غضبه واتباع آياته وأوامره في كل حال، وعدم الاغترار ببسمات الدهر ونسيان الله فيها[٥].

٣٧.   بيان أنه لا يصرف السوء إلا الله تعالى ، فحري على كل إنسان إذا أصابه السوء أن يلجأ إلى الله تعالى . [٦]

٣٨.   أن الله تعالى يبتلي بالساء والضراء لحكمة ، لا لمجرد إلحاق الضرر بالخلق ، فأفعال الله تعالى كلها تصدر عن حكمة .[٧]

٣٩.   وجوب التضرع إلى الله تعالى ، ويكون ذلك باللجوء والإنابة إليه ، والقيام بما يجب له من كل ما يحب ، من عقيدة أو قول أو عمل[٨] .

٤٠.   أن الله تعالى قد يسلط على العبد من هو عدو له ، ولا يعد هذا ظلماً من الله تعالى ، لأن الله قد بين لنا هذا العدو ، وحذرنا من اتباع خطواته ، فلا عذر لنا [٩].

---

(١) - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٣٣)

(٢) - تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٤٥)

(٣) - التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ٢٣٢)

(٤) - التفسير الحديث (٤/ ٩١)

(٥) — المرجع السابق (٤/ ٩١)

(٦) - الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦ / ١٤٠) .

(٧) - المرجع السابق (٦ / ١٤٠)

(٨) - المرجع السابق (٦ / ١٤٥)

(٩) - المرجع السابق (٦ / ١٤٦)

٤١. أن الرجل إذا سلط عليه الشيطان صار السيء في نظره حسناً ، وصار الحسن سيئاً [١].

٤٢. على الإنسان أن يحذر عقوبة الله تعالى ، إذا منَّ الله عليه بتيسير أمور الدنيا ؛ من مأكل ومشرب ونكاح ومركب ومسكن ، فلا يغتر بها لأنه قد يكون استدراجاً .[٢]

٤٣. بيان أن الذي بيده الرخاء والشدة هو الله تعالى وحده دون سواه [٣].

٤٤. يجب الحذر من الفرح الذي هو فرح البطر بنعم الله تعالى . [٤]

٤٥. بيان أن الأخذ الذي توعد الله تعالى بهأخذ مدمر . [٥]

٤٦. أن الظلم سبب للعقوبة والهلاك ؛ لأن الحكم إذا علق على وصف صار ذلك الوصف علة له ، يزداد الحكم قوة بقوته ، وينقص بنقصه . [٦]

٤٧. إن الهلاك وإن عم الأبرار والأشرار في الظاهر، إلا أن الهلاك في الحقيقة مختص بالظالمين الشريرين؛ لأن الأخيار يستوجبون بسبب نزول تلك المضار بهم أنواعاً عظيمة من الثواب والدرجات الرفيعة عند الله تعالى، فذاك وإن كان بلاء في الظاهر،إلا أنه يوجب سعادات عظيمة؟ أما الظالمون فإذا نزل البلاء بهم فقد خسروا الدنيا والآخرة معا، فلذلك وصفهم الله تعالى بكونهم هالكين وذلك تنبيه على أن المؤمن التقي النقي هو السعيد، سواء كان في البلاء أو في الآلاء والنعماء وأن الفاسق الكافر هو الشقي، كيف دارت قضيته واختلفت أحواله، والله أعلم.[٧]

٤٨. إنما خلق الأسماع والأبصار، لسماع الوعظ والتذكار، ولنظرة التفكر والاعتبار، فمن صرفهما في ذلك فقد شكر نعمتها، ومن صرفهما في غير ذلك فقد كفر نعمتهما، ومن كفر نعمتهما يوشك أن تؤخذ منه تلك النعمة، وكذلك نور العقل، ما جعله الله في العبد إلا ليعرفه به، ويعرف دلائل توحيده، ويتبصّر به في أمره فإذا صرفه في تدبير هواه وشهواته فقد كفر نعمته، فيوشك أيضًا أن يؤخذ منه[٨].

---

[١] - المرجع السابق (٦ / ١٤٧)

[٢] – المرجع السابق (٦ / ١٤٧)

[٣] – المرجع السابق (٦ / ١٤٧)

[٤] – المرجع السابق (٦ / ١٤٧)

[٥] – المرجع السابق (٦ / ١٤٨)

[٦] – المرجع السابق (٦ / ١٤٨)

[٧] - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٣٧)

[٨] - البحر المديد لابن عجيبة (٢/ ١١٩)

٤٩. رحمة الله تعالى بعباده ؛ حيث إنه صرف الآيات العداد ، فإذا لم يؤمن العبد بهذه الآية آمن بالآية الأخرى وحصل المقصود ، ولو شاء لترك التصريف ، وجعل الناس يتخبطون خبط عشواء [1].

٥٠. التشنيع على من صرفت لهم الآيات فأعرضوا عنها [2].

---

[1] – الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦ / ١٥٠)

[2] – المرجع السابق (٦ / ١٥٠)

المطلب الرابع : الحكمة من ارسال الرسل والتوجيهات الإلهية لهم (٤٨ – ٥٨)

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
(٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا
أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا
تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ
وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ
لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ
تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥)
قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ
الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا
لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) ﴾

أولاً : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

لما تقدم ذكر مناضلة من كذب الرسل، وأعرض عما أرسلهم به ربهم من الآيات التي ما منها إلا ما آمن على مثله البشر، وطلبه منهم ما لا يقدر عليه إلا مرسلهم من الإتيان بغير ما أتوا به من الآيات؛ فلقد حكى الله تعالى عن الكفار فيما تقدم أنهم قالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾[الأنعام: ٣٧] وبين أن صدوفهم وإعراضهم بسبب ما كانوا يتعلّلون له بأنَّهم يَرُومون آيات على وفق مقترحهم ، وأنَّهم لا يقنعون بآيات الوحدانية ، وساق ما حل بالأمم السابقة المكذبة لرسلهم ، وهدد وتوعد من جاء بعدهم ونحا منحاهم بأن يحل عليهم أنواع العذاب ، ثم هنا بين لهم حقيقة الرسالة إشارة إلى ظلمهم في طلبهم من الرسل ما لا يطلب إلا من الإله، لأن مهمة الرسل ليس ما طلبوه ، بل إن إرسال الرسل ووظيفتهم منصب على الرسالة أصلاً وتحقيقِ ما في عُهدة الرسلِ عليهم السلام ، وإظهارُ أن ما يقترحه الكفرةُ عليه ، عليه السلام ، ليس مما يتعلقُ بالرسالة ؛ لأن مهمة الرسالة جاءت للتبليغ والتبشير والنذارة لا للتّلهّي بهم باقتراح

الآيات ، بعد وضـــوح أمرهم بالبراهين القاطعة ، بل ولا قدرة لهم على إظهار الآيات وإنزال المعجزات ، حيث إن ذاك مفوض إلى مشيئة الله تعالى وكلمته وحكمته [1]

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

يقول تعالى : ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ فنراه عبر ب "نرسل" دون أرسلنا ؛ للدلالة على تجدد الإرسال مقارناً لهذين الحالين، فلم نرسلهم لأن يقترح عليهم الآيات ويتلهى بهم ؛ بل ما نرسل رسلنا إلا ببشارة أهل الطاعة لنا بإنعامنا ورحمتنا ، وبالجنة والفوز المبين يوم القيامة، جزاءً منَّا لهم على طاعتنا ، والسبب في البشارة هو تهيئة السامع لها ليبادر إلى ما يجعل البشارة واقعاً بأن يمتثل إلى المنهج القادم من الإله الخالق.

وبإنذار من كذب وكفر ومن عصَانا وخالف أمرنا، بعذابنا وعقوبتنا إياه على معصيتنا يوم القيامة، فالإنذار هو الإخبار بما يسوء قبل أن يقع ليحترز السامع أن يقع في المحاذير التي حرمها الله.

فيخبروهم بالخبر السار والخبر الضار دنيوياً كان أو أخروياً من غير أن يكون لهم دخل ما في وقوع المخبر به أصلاً فيهلك إن هلك عن بينة ، وهنا تنتهي وظيفة الرسل ، وتبدأ استجابة البشر، ويمضي قدر الله ومشيئته من خلال هذه الاستجابة، وينتهي الأمر بالجزاء الإلهي وفق هذه الاستجابة ، فبين أن الناس انقسموا –بحسب إجابتهم لدعوتهم وعدمها– إلى قسمين: قوم استحقوا البشارة فقال عنهم : ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ فمن صدَّق من أرسلنا إليه من رسلنا إنذارهم إياه، وقَبِل منهم ما جاؤوه به من عند الله، وعمل صالحاً في الدنيا ، وأتى بالإيمان الذي هو عمل القلب ، والإصلاح الذي هو عمل الجسد ، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ ما يجب عليه إصلاحه مما تلف من عمله طمعاً فيما بشروا به ، وخوفاً مما حذروه من النار .

ودعم الإذعان الحق بالعمل الصالح، فالإيمان من غير عمل أجوف أجرد لَا ينتج بذاته، فإن النتيجة ستكون بأنه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الدنيا بالنسبة إلى ما يستقبلونه من الأحوال ، وفي الآخرة حين يخاف أهل النار ، عند قدومهم على ربهم، فلا خوف من عقابه وعذابه الذي أعدَّه الله لأعدائه وأهل معاصيه ، ولما ليس لذلك فوت ولا زوال، فليس نعيمها كثواب الدنيا وأنه على شرف الفوت والزوال، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الدنيا بالنسبة إلى ما فاتهم ، وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها، وفي الآخرة بفوات

[1] – انظر : الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٤) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٣٧) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٢٠) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٢ / ٣٨٤)تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٧ / ٢٣٨)

الثواب ، وذلك حين يحزن أهل النار على ما خلَّفوا وراءَهم في الدنيا ، فهم يسرُّون ؛ لأن سرور الآخرة لا يشوبه حزن، ليس كسرور الدنيا يكون مشوباً بالحزن والخوف ، فالله وليهم فيما خلفوه، وحافظهم فيما تركوه.

فالمطلوب – إذن – من الذين يستمعون إلى الرسل أن يقبلوا على اختيار الإيمان، وأن يستمعوا إلى جوهر المنهج وأن يطبقوه.

فعلى المؤمن بربه أن يستحضر الأدلة والآيات التي تجعل إيمانه بربه إيماناً قوياً معقوداً؛ وهذا عمل القلب، ويعرف المؤمن أن عمل القلب لا يكفي كتعبير عن الإيمان؛ لأن الكائن الحي ليس قلباً فقط، ولكنه قلب وجوارح وأجهزة متعددة، وكل الكائن الحي المؤمن يجب أن ينقاد إلى منهج ربه، فلا بد من التعبير عن الإيمان بأن يصلح الإنسان كل عمل فيؤديه بجوارحه أداء صحيحا سليما[1].

وأما القوم الآخرون فهم الذين ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ إشارة إلى أن ما ينطق به الرسل عليهم السلام عند التبشير والإنذار ، ويبلغونه إلى الأمم من آياته تعالى ، وأن من آمن به فقد آمن بآياته تعالى ، ومن كذب به فقد كذب بها وبمن أرسلنا إليه من رسلنا، وخالفوا أمرنا ونهينا، ودافعوا حجتنا، فإنهم ﴿يَمَسُّهُمُ﴾يباشرهم ويلصق بهم، لا يزول عنهم ولا يفارقهم ﴿ٱلْعَذَابُ﴾الذي أنذروه ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾بما كانوا يكذّبون من حججنا ، ويتجاوزا الحدود في بغيهم وظلمهم ،وكفرهم وعصيانهم، وخروجهم عن التصديق والطاعة ، وارتكبوا محارمه ومناهيه وانتهاك حرماته ، وجاء بالباء السببية ليدل بها على أنه لا يعذب أحداً بغير ذنب .

وكنى بالتبشير والإنذار عن التبليغ ؛ لأن التبليغ يستلزم الأمرين وهما الترغيب والترهيب[2] .

ثم إن الآيات الأربع التي قبل هذه الآيات قد بينت أركان الدين وأصول العقائد، وهي توحيد الله عز وجل، والرسالة ووظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام، والجزاء على الأعمال، وقد جاءت الآيتان الأوليان من هذه الآيات الأربع بعدهن مفصلتين لما فيهن من بيان وظيفة الرسل العامة بتطبيقها على خاتم الرسل – صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله – وإزالة أوهام الناس فيها، وبيان أمر الجزاء في الآخرة، وكون الأمر فيه لله تعالى وحده على الوجه الذي يزيد عقيدة التوحيد تقريرا وتأكيداً وبياناً وتفصيلاً .

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٦٩) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٨٧) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ١٢٥) الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٤) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٩٣) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٣٧) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٨) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٣٥) روح البيان لحقي (٣/ ٣٢) التفسير المظهري (٣/ ٢٣٨) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ٢٥٧) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٩٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ٢٣٨) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٥٠٧) تفسير الشعراوي (٦/ ٣٦٢٧) مع تصرف وإضافة من الباحثة

[2] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٧٠) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٨٨) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٤٩) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٩٣) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٦٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٨) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٣٦) مراح لبيد لمحمد نووي (١/ ٣١٩) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ٢٣٨) مع تصرف وإضافة من الباحثة

ولقد كثر اقتراحهم عليه وتعنتهم بإنزال الآيات التي تضطرهم إلى الإيمان ؛ لذا بين وظيفة الرسل، وقسم المرسل إليهم، وأمره بنفي ما يتسبب عنه قولهم من أن البشر لا يكون رسولاً، واقتراحهم عليه الآيات من ظن قدرته على ما يريد، أو أن كل ما يقدر عليه يبديه لهم، أو إلزامه بذلك، منها لهم على وجه ظلمهم بغلظهم أو عنادهم ، وأمره أن يبين لهؤلاء المكذبين له بغير علم أن يميزوا بين شئون الألوهية وحقيقة النبوة، حيث كانوا يقترحون عليه من الآيات الكونية ما يعلمون أنه ليس فى مقدور البشر ، فهم إما أن يقولوه تعجيزاً، وإما أن يظنوا أن الإنسان لا يكون رسولاً إلا إذا خرج من حقيقة البشرية ، وصار قادراً على ما لا يقدر عليه البشر وعالما بكل ما يعجز عن علمه البشر[1].

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن ينفي عن نفسه أموراً ثلاثة ؛ تواضعاً لله تعالى ، واعترافاً له بالعبودية ، وأن يفصل في بيان مهمة الرسل ، فينفي ما نسبوه إليه وطلبوه منه من أمور هي من خصائص الألوهية لا من خصائص البشر الذي تنتمي إليه هذا النبي ﷺ فقال : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾قل إنما بعثت مبشرا ومنذرا، وليس لي أن أتحكم على الله تعالى ، فنرى أن الله تعالى أمره أن ينفي عن نفسه أموراً ثلاثة ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ لستُ أقول لكم إنّي الرب الذي له خزائنُ السماوات والأرض، وبها جميع مراداته ومقدوراته ،فلا أدعى ما يستبعد في العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله التِي بِهَا يَرْزُق وُيعْطِي، وأنها مفوّضة إليّ أتصرف فيها كيفما أشاء، وأعطيكم منها ما تريدون ، ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ولا أعلم غيوب الأشياء الخفية حتى تسألوني عن وقت الساعة ، أو وقت نزول العذاب أو نحوهما من الأمور التي لا يعلمها إلا الرب الذي لا يخفى عليه شيء، فتكذبوني فيما أقول من ذلك، لأنه لا ينبغي أن يكون ربًّا إلا من له ملك كل شيء، وبيده كل شيء، ومن لا يخفى عليه خافية، وذلك هو الله الذي لا إله غيره ، وهما مما استأثر الله به لا يحوم حوله احد من خلقه ، ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ لأنه لا ينبغي لملك أن يكون ظاهرًا بصورته لأبصار البشر في الدنيا، والْملَك يشاهِد من أمورِ الله عزَّ وجلَّ ما لا يشَاهِدهُ الْبشر، فتجحدوا ما أقول لكم من ذلك وتستبعدوا دعواي وتستنكروها ، وإنما أقول عن نفسي ما كان لكثير من البشر وهو النبوة ، وأنه يوحى إلي لذلك وأنها وظيفة الرسول ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ ما أتبع فيما أقول لكم وأخبركم به من أمور غيبية ومستقبلة ، وما أدعوكم إليه إلا وحي الله الذي يوحى إلي من الله، شرفني بذلك، وأنعم علي به ، وتنزيله الذي ينزله عليّ،فأمضي لوحيه وأئتمر لأمره، فلست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه ، ولم يوح إلي فيه أن أقول شيئاً مما تقدم نفيه ، وقد

---

(1) — انظر : نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٢١) فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٤/ ١٤٥) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٥١) تفسير المراغي (٧/ ١٣٠)

وقع الإرسال لكثير من البشر، وذلك غير منكر في العقل ولا مستبعد ولا مستحيل كونه ، وقد قام على ثبوته لي وعلى صحة قولي في ذلك أوضح الدلائل ، وثابت الحجج وقاطع البراهين، فإن كان فيه الإذن لي بإبراز خارق أبرزته، وإن كان فيه الإعلام بمغيب أبديته، وإلا اقتصرت على الإبلاغ فما وجه إنكاركم ذلك؟

وذلك تنبيه من الله تعالى نبيَّه ﷺ على موضع حُجته على منكري نبوّته من مشركي قومه.

وفي قوله:﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ ﴾أعاد فيه ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ ﴾ ولم يعدها في نفي علم الغيب، ونكتة ذلك أن نفي علم الغيب ونفي التصرف في خزائن الله يؤلفان التبرؤ من دعوى واحدة، هي دعوى الصفات الخاصة بالله تعالى، وأما نفي ادعاء الملكية فهو شيء آخر، فأعيد العامل لإفادة ذلك، كأنه قال: إنني لا أدعي صفات الإله حتى تطلبوا مني ما لا يقدر عليه أو ما لا يعلمه إلا الله، ولا أدعي أني ملك – وهو دون ما قبله – حتى تطلبوا مني ما جعله الله تعالى في قدرة الملائكة ولم يجعله من مقدور البشر، بل ادعيت أني عبد الله ورسوله، وإنما وظيفة العبد الطاعة، ووظيفة الرسول التبليغ، وعبر عن هذا بقوله: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ .

ثم وبخهم على ضلالهم فأمر رسوله أن يبين لهم أن الضال والمهتدى ليسا سواء ، فجاء بالاستفهام إنكاري ؛ والمراد إنكار استواء من لا يعلم ما ذكر من الحقائق ومن يعلمها ، وفيه من الإشعار بكمال ظهورها ومن التنفير عن الضلال والترغيب في الاهتداء ما لا يخفى ، حيث بين أن الهداية والضلال بيد الله الكبير المتعال يهدى من يشاء ويضل من يشاء فقال : ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴾قل لهم يا محمد: هل يستوي الأعمى عن الحق، والبصير به "والأعمى" هو الكافر المعرض المهمل للنظر، الذي قد عَمى عن حجج الله فلا يتبيَّنها فيتبعها "والبصير"، المؤمن الناظر المفكر الذي قد أبصرَ آيات الله وحججه، فاقتدى بها واستضاء بضيائها ، فإذا لم يستو الأعمى والبصير، فكيف يستوي من يتعامى عن الحق ومن لم يتعام؟! فلا يستوي من اتبع الحق وهدي إليه، ومن ضل عنه ولم ينقد له ، وتكرير الأمر لتثنية التبكيت وتأكيد الإلزام .

ثم أمره بعد الإنكار للتسوية بينهما بأن ينكر عليهم فساد نظرهم وعمى فكرهم فيقول لهؤلاء الذين كذبوا بآيات الله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ فلا تكونوا ضالين أشباه العميان لذا تفكروا لتهتدوا ؛ فتميزوا بين ادعاء الحق والباطل وأنهما لا يستويان ، وتتفكرون فيما أحتجّ عليكم به أيها القوم، من هذه الحجج، فتعلموا صحة ما أقول وأدعوكم إليه، وأني ما ادعيت ما لا يليق بالبشر ، وتعلموا أن أتباع ما يوحى إليَّ مما لا بدّ لي منه ؛ لأبين لكم فساد ما أنتم عليه مقيمون من إشراك الأوثان والأنداد بالله ربّكم، وتكذيبكم إياي مع ظهور حجج صدقي لأعينكم، فتدعوا ما أنتم عليه من الكفر مقيمون، إلى ما أدعوكم إليه من الإيمان الذي به تفوزون؟ ففكروا أنتم وانظروا ، وجاء الأمر بالفكرة في عبارة العرض والتحضيض .

والتفكر هو شغل العقل ابتداء بأمر ظاهر، يريد أن يستنبط منه شيئاً.[1]

وبعد ما حكى لرسول الله ﷺ ما يقتضي اليأس من إيمان غيرهم ، وأن من الكفرة قوماً لا يتعظون بتصريف الآيات الباهرة ، ولا يتأثرون بمشاهدة المعجزات القاهرة قد قست مشاعرهم بالكلية ، والتحقوا بالأموات ، وقرر ذلك بأن كرر عليهم من فنون التبكيت والإلزام ما يلقمهم الحجر أي إلقام ؛ فأبوا إلا الإباء والنكير، وما نجع فيهم عظة ولا تذكير، وما أفادهم الإنذار إلا الإصرار على الإنكار أمر عليه الصلاة والسلام بتوجيه الإنذار إلى حيث تجد آذانا تسمع، وقلوبا تعى، وإلى من يتوقع منهم التأثر والإعراض عن المعرضين وأن يدعهم ورأيهم لأنفسهم فقال : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾

حيث أكد على مهمة البشارة والنذارة ، فالنبي ﷺ مأمور بإنذار جميع الخلائق، فخاطبه قائلاً : ﴿ وَأَنذِرْ ﴾يا محمد بالقرآن الذي أنزلناه إليك هؤلاء الآخرين الذين هم مظنة الإيمان وأهل للانتفاع، وهم ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾علماً منهم بأن ذلك كائن، فهم مصدقون بوعد الله ووعيده، عاملون بما يرضي الله، دائبون في السعي، فيما ينقذهم في معادهم من عذاب الله فخوفهم كان من أجل علمهم بوقوع ذلك ووجوده من غير شك منهم في ذلك.

وقد يتناول كل من يصدق عليه التكليف ؛ لأنه لا عاقل إلا وهو يخاف الحشر، سواء قطع بحصوله أو كان شاكاً فيه ؛ لأنه بالاتفاق غير معلوم البطلان بالضرورة ، فكان هذا الخوف قائماً في حق الكل ، ولأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى الكل، وكان مأموراً بالتبليغ إلى الكل .

وخص الَّذِين يَخافُونَ الْحَشرَ بالذكر ؛ لأن الحجةُ عليهم أوجبُ ؛ لأنهم أفهمُ بِالْميعاد، وخوفهم إنما كان من علمهم، ولم يرد أنه لا ينذر سواهم، بل الإنذار العام ثابت مستقر.

فهؤلاء المؤمنون هم الذين يرجى أن يتّقوا الله اهتداء بهداك ، وخوفاً من إنذارك ، ويتحرّوا ما يؤدى إلى مرضاته، لا يصدهم عن ذلك اتكال على الأولياء ولا اعتماد على الشفعاء، علماً منهم أن الشفاعة لله جميعاً ، وهم في أنفسهم معتقدون أنه ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ أي ليس لهم من عذاب الله إن عذبهم ﴿ وَلِيٌّ ﴾ يتولى أمورهم فينقذهم قهراً مما يخافون وينصرهم ﴿ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ ينقذهم بحسن سفارته وعظيم رتبته وترتيبه فيشفع لهم عند الله تعالى ذكره فيخلصهم من عقابه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾أنذرهم كي يتقوا الله في

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٧١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٥٠) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٩٠) الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٥) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٩٤) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٣٧) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٤٣٠) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٦٣) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٠٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٩) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٢٤) الفواتح الإلهية للنخجواني (١/ ٢١٩) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٣٧) مراح لبيد لمحمد نووي (١/ ٣١٩) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٥٥) تفسير الشعراوي (٦/ ٣٦٤٤) مع تصرف وإضافة من الباحثة

أنفسهم، فيطيعوا ربهم، ويعملوا لمعادهم، ويحذروا سَخطه باجتناب معاصيه ، والاعتقادات الفاسدة، والأعمال الطالحة، والأخلاق الرديئة.

فهم يستيقنون أن نجاتهم إنما تكون بإيمانهم وأعمالهم وتزكيتهم لأنفسهم لا بانتفاعهم بصلاح غيرهم أو شفاعة الشافعين لهم، كما هو حال المشركين الذين جهلوا أن مدار السعادة في الدنيا والآخرة مرتبط بتزكية النفس وطهارتها بالإيمان الصحيح ، والأخلاق الكريمة ، والأعمال الصالحة لا على أمر خارج عن النفس لا تأثير له فيها.

وهذا أمرٌ من الله تعالى ذكره نبيَّه محمدًا ﷺ بتعليم أصحابه ما أنزل الله إليه من وحيه، وتذكيرهم، والإقبال عليهم بالإنذار ، بعد الإعذار إليهم، وبعد إقامة الحجة عليهم، حتى يكون الله هو الحاكم في أمرهم بما يشاء من الحكم فيهم[(١)].

ولما أمره بدعاء من أعرض عنه ومجاهرته، وذكر غير عامة المسلمين وأمر بإنذارهم ليتقوا ، أردفه بأمره بحفظ من تبعه وملاطفته، فذكر المتقين منهم وأمره بتقريبهم وإكرامهم، وأن لا يطيع فيهم من أراد بهم خلاف ذلك، فقال : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ .

فنراه تعالى نهى نبيه محمدًا ﷺ أن يطرُد قومًا كانوا يدعون ربّهم بالغداة والعشي ، حيث بين من حالهم من الملازمة ما يقتضي الإخلاص فقال : ﴿ بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ وذلك كناية عن الليل كله وعن النهار جملة؛ وهذا عبارة عن استمرار الفعل وأن الزمن معمور به، والدعاء لله يكون بذكره وتمجيده والثناء عليه قولاً وكلاماً ، وقد يكون بالعمل له بالجوارح وهي الأعمال التي افترضها عليهم ، وغيرُها من النوافل التي ترضي عن العامل له عابدَه بما هو عامل له ، فلقد كانوا جامعين هذه المعاني كلها، فيعمُّون بالصفة التي وصفهم بها ربهم، ولا يخصُّون منها بشيء دون شيء. فوصفهم الله بذلك بأنهم يدعونه بالغداة والعشي[(٢)] فهم في العمل له دائبون ، وأثنى عليهم بأنهم يواصلون عبادة ربهم ويواظبون عليها ، وقد يكون خص الغداة والعشي بالذكر؛ لأن الشغل غالب فيهما على الناس، ومن كان في وقت الشغل مقبلا على العبادة كان في وقت الفراغ من الشغل أعمل. واجعلهم جلساءك وأخصاءك ، ووسمهم بالإخلاص في عبادتهم بقوله ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ .

---

(١) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٧٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٥١) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ١٢٥) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٩٤) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٣٩) التسهيل لابن جزي (١/ ٢٦٢) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٢٦) الفواتح الإلهية للنخجواني (١/ ٢٢٠) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٣٧) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٦٧) تفسير المراغي (٧/ ١٣٣) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٩٠) مع تصرف وإضافة من الباحثة

(٢) – لأن الله قد سمى"العبادة"،"دعاء"، فقال تعالى ذكره: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[سورة غافر: ٦٠]

ولو طعن أحد في دينهم وإخلاصهم، فإنه ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ بعد شهادته لهم بالإخلاص وبإرادة وجه الله في أعمالهم ، فإن كان الأمر على ما يقولون عند الله، فما يلزمك إلا اعتبار الظاهر والاتسام بسيمة المتقين، وإن كان لهم باطن غير مرضى فحسابهم عليهم لازم لهم لا يتعدّاهم إليك، كما أن حسابك عليك لا يتعدّاك إليهم،

حيث إنه ما عليك من حسابهم في كل ما اكتسبوه من الحسنات واقترفوه من السيئات ، حتى تتصدى له وتبنى على ذلك ما تراه من الأحكام ، وإنما وظيفتك حسبما هو شأن منصب النبوة اعتبار ظواهر الأعمال، وإجراء الأحكام على موجبها ، وأما بواطن الأمور فحسابها على العليم بذات الصدور ، ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ وما عليهم من حسابك على كل ما تقوم به ، فدعهم يدنوا منك ولا تطردهم ولا تُقْصِهم، فإن الطرد جزاء ، والجزاء إنما يكون على سيء الأعمال ، ولا يثبت ذلك إلا بالحساب، والمؤمنون ليسوا بعبيد للرسل، ولا أعمالهم الدينية لهم، بل هى لله يريدون بها وجهه لا أوجه الرسل، وحسابهم عليه تعالى لا عليهم، والرسل هداة مرشدون، لا أرباب مسيطرون ، وإذا لم يكن للرسل حق السيطرة على الناس ومحاسبتهم على أعمالهم الدينية، فأجدر بالناس ألا يكون لهم هذا الحق على أنبيائهم.

وفى هذا بيان كاشف لحساب الناس عند الله، وأنهم عنده بأعمالهم، لا بأحسابهم وأموالهم .

ثم بين ما يترتب على طردهم فقال : ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فتكون ممن وضع الحكمة في غير أهلها؛ ممن وضع الإقصاء في غير موضعه، فأقصى وطرد من لم يكن له طرده وإقصاؤه، وقرّب من لم يكن له تقديمه بقربه وإدناؤه، فلو كان منه ما ذكر من طرد أُولَئِكَ وإدناء أُولَئِكَ، لم يكن أهلا للحكمة، ويجوز أن يوصف واضع الحكمة في غير موضعها بالظلم .

وإذا كان الأمر كذلك فأقبل عليهم وجالسهم ، ولا تطردهم مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم في الدين والفضل، فأولئك الضعفاء الفقراء كانوا يستحقون التعظيم من الرسول ﷺ فإذا طردهم عن ذلك المجلس كان ذلك ظلماً ، وحاشاه من وقوع ذلك منه، وإنما هذا بيان للأحكام، ولئلا يقع مثل ذلك من غيره من أهل السلام .

ولا يكفى قوله : ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ حتى ضم إليه قوله : ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ ؛ لأنه قد جعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة، وقصد بهما مؤدى واحد وهو المعنىّ في قوله : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعاً [1].

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٨٧) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٩٢) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٥٠) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٧٦) الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٧) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٩٥) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي

ثم تحدث عن ما ترتب على كل ما سبق من الأومر تجاه من استجاب للرسالة فقال سبحانه وتعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا﴾ حيث فتن الله تعالى ذكره بعضَ خلقه ببعضٍ، وذلك عن طرق مخالفتُه بينهم فيما قسم لهم من الأرزاق والأخلاق، لذا قال : ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا﴾ اختبرنا الناس بالعزّ والذل والهدى والضلال، وجعل بعضاً غنياً وبعضاً فقيراً، وبعضاً قوياً، وبعضاً ضعيفاً، وابتلينا الشريف بالوضيع، والعربي بالمولى، فأحوج بعضهم إلى بعض، اختباراً منه لهم بذلك ، فلقد كان يرى الرجل الشريف من المشركين قوماً لا شرف لهم قد عظمهم هذا الدين ، وجعل لهم عند نبيه قدراً ومنزلة ، فأحد الفريقين يرى الآخر متقدماً عليه في المناصب الدينية ، فأولئك الكفار الرؤساء الأغنياء كانوا يحسدون فقراء الصحابة على كونهم سابقين في الإسلام ، مسارعين إلى قبوله حيث منّ الله عليهم بالتوفيق للحق والسعادة فقالوا: لو دخلنا في الإسلام لوجب علينا أن ننقاد لهؤلاء الفقراء المساكين وأن نعترف لهم بالتبعية، فكان ذلك يشق عليهم.[1]

فكان نتيجة ذلك ما قاله تعالى : ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ كي يقول من أضلّه الله وأعماه عن سبيل الحق على جهة الاستخفاف والهزء ، للذين هداهم الله ووفقهم:﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ بالهدى والرشد، وهم فقراء ضعفاء أذلاء ﴿مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ ونحن أغنياء أقوياء؟ استهزاءً بهم، ومعاداةً للإسلام وأهله ، إنكاراً لأن يكون أمثالهم على الحق ، وممنوناً عليهم من بينهم بالخير، فخذلناهم فافتتنوا، حتى كان افتتانهم سببا لهذا القول؛ لأنه لا يقول مثل قولهم هذا إلا مخذول مفتون .

والفريق الآخر يرى الفريق الأول متقدماً عليه في المناصب الدنيوية ، في الراحات والمسرات والطيبات والخصب والسعة، فكانوا يقولون كيف حصلت هذه الأحوال لهؤلاء مع أنا بقينا في هذه الشدة والضيق والقلة، فكل يقول : أهذا هو الذي فضله الله علينا، وأما المحققون فهم الذين يعلمون أن كل ما فعله الله تعالى فهو حق وصدق وحكمة وصواب ولا اعتراض عليه ؛ لذلك يقول الله تعالى راداً عليهم رد توبيخ وتقريع ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ حيث جاء الاستفهام للتقرير ، والمعنى : أن مرجع الاستحقاق لنعم الله سبحانه هو الشكر فقال : ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً، فهو إنما منّ عليهم بنعمة الإيمان؛ لأنه علم أنهم يعرفون قدر هذه النعمة، فيشكرونها حق شكرها. وأما أولئك، فلا يعرفون قدرها، فلا يشكرونها .

(١٢/ ٥٤١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٤٣٢) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٢٦) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٣٩) تفسير المراغي (٧/ ١٣٥) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٩٢) مع تصرف وإضافة من الباحثة

[1] – ونظيره قوله تعالى: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾[القمر: ٢٥] وقوله : ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ [الأحقاف: ١١]

وفي هذا إجابة لهؤلاء المشركين الذين أنكروا أن يكون الله هدى أهل المسكنة والضعف للحق، وخذلهم عنه وهم أغنياء وتقريرٌ لهم ، فأنا أعلم بمن كان من خلقي شاكراً نعمتي، موحداً لي ممن هو لها كافر، ولقد اقتضت السنة الإلهية أن من يقع منه الإيمان والشكر فسيوفقه ومن لا يقع منه فسيخذله.

فأعلم أنما يهدي الله إلى دينه من يعلم أنه يشكر نعمته ، حيث عرف هَؤُلَاءِ نعمة اللَّه تعالى، ووجهوا شكر نعمه إليه ، وأنتم وجهتم شكر نعمه إلى غيره بعد ما عرفتم أنه هو المنعم عليكم والمسدي إليكم. فمنِّي على من مَنَنْتُ عليه منهم بالهداية، جزاء شكره إياي على نعمتي، وتخذيلي من خذلت منهم عن سبيل الرشاد، عقوبة كفرانه إياي نعمتي، لا لغنى الغني منهم ولا لفقر الفقير؛ لأن الثواب والعقاب لا يستحقه أحدٌ إلا جزاءً على عمله الذي اكتسبه، لا على غناه وفقره؛ لأن الغنى والفقر والعجز والقوة ليس من أفعال خلقي[1].

ولما ذكر من جمع بين فضيلتي العلم والعمل، ونهاه ﷺ عن طرده ، استمالة لكبراء المتكبرين من قومه، علمه كيف يلاطفهم وبين أنه ينبغي أن يقرب ولا يطرد، ويعز ولا يذل، ويبشر من الله بالسلامة في الدنيا والرحمة في الآخرة ، فأمر بأن يسلم عليهم إكراماً لهم وأن يؤنسهم ، وأَمَره بمقابلتهم بالإكرام والإعظام، والتبجيل والاحترام، فقال : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ﴾ يا محمد ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ ﴾ القومُ الذين يصدِّقون بتنزيلنا وأدلتنا وحججنا ، وبراهيننا فيقرّون بذلك قولاً وعملاً مسترشديك عن ذنوبهم التي سلفت منهم بيني وبينهم، هل لهم منها توبة، فلا تؤيسهم منها، فالنهي عن الطرد ليس للإبعاد خاصة في المجلس، ولكن في كل شيء في بشاشة الوجه واللطف في الكلام وفي كل شيء؛ لذلك قل لهم: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي أحييكم بكون السلامة الكاملة من جميع معاطب الدارين ، وآفاتهما ، مع الأمن والمسالمة محيطة بكم دائماً ، من جميع جهاتكم ، إكراماً لكم ، بحيث لا يكون لشيء من ضد ذلك سبيل عليكم بطريق من الطرق ، فإني مسالم لكم بكل حال ظاهراً وباطناً، فلا يصل إليكم مني أذى بوجه ، وذلك يشمل أَمَنَةُ الله لكم من ذنوبكم، أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها ، "ومن السنة في ديننا أن يبدأ بالسلام قبل كل كلام"[2] ، وفيه دليل على فضلهم ومكانتهم عند الله تعالى ، وجاءت بالتنكير للدلالة على التعظيم ولأنها جاءت في سياق التحية والدعاء لهم .

وكذلك بشرهم بما ينشط عزائمهم وهممهم، من رحمة الله، وسَعة جوده وإحسانه، وحثهم على كل سبب وطريق، يوصل لذلك ورَهَّبْهم من الإقامة على الذنوب، وأْمُرْهم بالتوبة من المعاصي، لينالوا مغفرة

---

(١) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٨٩) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٩٥) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٥١) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٧٦) الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٨) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٩٦) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٤٣) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٦٤) التسهيل لابن جزي (١/ ٢٦٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦١) الفواتح الإلهية للنخجواني (١/ ٢٢٠) فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٤/ ١٤٩) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٧٠) مع تصرف وإضافة من الباحثة

(٢) – المجموع شرح المهذب (٤ / ٥٩٨)

ربهم وجوده، فبين أصلاً من أصول الدين في هذه الرحمة للمؤمنين ؛ حيث إنه لما كان السلام راجع إلى دفع المضار؛ أتبعه تعالى بذكر الرحمة بعده لجمعها كل نفع وخير فقال : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ قضى ربكم الرحمة بخلقه وأوجَبَ ذَلِكَ إيجاباً مُؤَكَداً، وإنما كتب ذلك في اللوح المحفوظ، وخوطب الخلقُ بما يعقلون، فهم يعقلون أن توكيد الشيء المؤَخر إنما يحفظ بالكِتَابِ، فرحمة الله جامعة لمقاصد الخيرات ، من التذكير بحلاوة منته ، وعموم نعمته ، وما وهبه من العطيات الجليلات ، من الإيمان وأنواع الطاعات ، وجميع الكرامات وشهود القربة ، وحفظ الحرمة والولاية والعصمة ، وفتح باب الرجاء وصدق الالتجاء ، فلم يأخذهم في أول ما وقعوا في المعصية ولكن أمهلهم إلى وقت وجعل لهم المخرج من ذلك بالتوبة لذلك أتبعه بقوله : ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ أنه من اقترف منكم ذنباً تسوء عاقبته، لا عن قصد وإصرار ، فجهل باقترافه إياه ، حين آثر المعصية على الطاعة ؛ لأنّ من عمل ما يؤدى إلى الضرر في العاقبة وهو عالم بذلك أو ظانّ فهو من أهل السفه والجهل، لا من أهل الحكمة والتدبير ، ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شيء حتى يعلم حاله وكيفيته.

ثُمَّ بعد ما علم وخامة عاقبته تاب ورجع عن ذلك السوء بعد أن عمله شاعراً بقبحه، نادماً عليه، خائفاً من عاقبته، وكل ذلك إشارة إلى الندم على الماضي ، وأصلح عمله بأن اتبع ذلك العمل السيّء بعمل يضاده، ويذهب أثره من قلبه، حتى يعود إلى النفس زكاؤها وطهارتها، وتصير أهلا للقرب من ربها ، وأقلع وعزم على ألا يعود ، وإشارة إلى كونه آتيا بالأعمال الصالحة في الزمان المستقبل .

وربكم بسبب هذه التوبة يغفر لكم لأنه دائماً ﴿غَفُورٌ﴾ لذنب كل مذنب إذا تاب وأناب، وراجع العمل بطاعة الله، وترك العود إلى مثله، مع الندم على ما فرط منه ،فكيف من كان قصده الخير فهو أولى بالرحمة لذا أتبعه بصفة أنه ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتائب أن يعاقبه على ذنبه بعد توبته منه، فأورد تبشير لهم بسعة رحمته تعالى وبنيل المطالب إثر تبشيرهم بالسلامة عن المكاره وقبوله التوبة منهم .

فلو أتى المسلم ما يجهل أنَّه سوءٌ لكان كمن لم يتعمد سوءاً، ولَم يُوقع سوءاً.

وهذا لا يتناول التوبة من الكفر؛ لأن هذا الكلام خطاب مع الذين وصفهم بقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فثبت أن المراد منه توبة المسلم عن المعصية، والمراد من قوله : ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ ليس هو الخطأ والغلط؛ لأن ذلك لا حاجة به إلى التوبة، بل المراد منه أن تقدم على المعصية بسبب الشهوة، فكان المراد منه بيان أن المسلم إذا أقدم على الذنب مع العلم بكونه ذنباً ثم تاب منه توبة حقيقة فإن الله تعالى يقبل توبته.

وهذه الآية أول آية في السورة الكريمة يلقن فيه الله تعالى نبيه ما يقوله لمن اتبعه من المؤمنين، لذلك ابتدأهم بالسلام ،[1] "فمن فوائد إفشاء السلام حصول الألفة فتتآلف الكلمة ، وتعم المصلحة ، وتقع المعاونة على إقامة شرائع الدين ، وإخزاء الكافرين ، وهي كلمة إذا سمعت أخلصت القلب الواعي لها غير الحقود إلى الإقبال على قائلها"[2]

ثم أبدى الله سبحانه وتعالى تفضّلا منه طريقه في البيان وهو تفصيل آيات القرآن لمعرفة مناهج الطاعة والبعد عن مسلك أهل الاجرام فقال:﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾ وكما فصلنا لك في هذه السورة من ابتدائها وفاتحتها يا محمد إلى هذا الموضع، حجتَنا على المشركين من عبدة الأوثان، وأدلتَنا، وميَّزناها لك ، وبيَّنا دلائلنا على صحة التوحيد ، والنبوة والقضاء والقدر ، وبينا صفة المطيعين والأوابين والمجرمين المصرين منهم.

بمثل هذا المنهج، وبمثل هذه الطريقة، وبمثل هذا البيان والتفصيل نفصِّل لك أعلامنا وأدلتنا ونشرحها ونظهرها ، في كل ما تحتاجون إليه من أمر الدين، ونبين لكم أدلتنا وحججنا في كل حق ينكره أهل الباطل من سائر أهل الملل غيرهم، فنبينها لك، حتى تبين حقه من باطله، وصحيحهُ من سقيمه ، ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ طريق المشركين المنحرفين عن منهج الرشد ، ومسلك السداد وعن طريق أهل الحق فتجتنب ؛ لأنه بهذا البيان ينفضح على أضوائها أولئك الذين يسلكون طريقاً غير طريقها، إذ يرى كل عاقل أنهم يمشون فى ظلام، ويعيشون في ضلال ، وأيضاً ليتضح سبيل المصلحين ، فيتبع ويهتدي بها أهل النظر والفكر لما فيها من العلم والحكمة، والموعظة والعبرة، والتي لا تدع في هذا الحق ريبة ، ولا تدع في هذا الأمر غموضاً ، ولا تبقى معها حاجة لطلب الخوارق فالحق واضح، والأمر بين، بمثل ذلك المنهج الذي عرض السياق القرآني منه ذلك الأمر .

فنراه تعالى بين لماذا لا يؤمنون؛ لأنهم إذا رأوا الضعفاء يسلمون قبلهم امتنعوا ،كل ذلك ليظهر لكم طريق المشركين واضحة فتجتنبوها ، وينكشف أمرهم فيتبين لكم مقصودهم في طرد الفقراء عنه، وذلك إنما كان عن حسد، لا إيثار مجالسته واتِّباعه، فإذا بانت طرائقهم المختلفة في إجرامهم وشركهم سهل على كل من أراد محاجتهم إثبات الحجة عليهم ، فتعامل كلا منهم بما يحق له فصلنا هذا التفصيل ، وخص هذا

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٩٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٥٤) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٩٥) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٥١) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ١٥٢) الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٩) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٧) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٤٣٥) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٦٤) التسهيل لابن جزي (١/ ٢٦٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦٢) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٣٠) الفواتح الإلهية للنخجواني (١/ ٢٢٠) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٤٠) تفسير المراغي (٧/ ١٣٨) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ٢٥٨) مع تصرف وإضافة من الباحثة
طيب الكلام بفوائد السلام للسمهودي (ص : ٩١ ، ١٢٤ – ١٤٨)

[2] – فيض القدير (٢/ ٢٣)

بالذكر وإن كان يلزم منه بيان الأول، لأن دفع المفاسد أهم ، وإذا استبان سبيل المجرمين فقد استبان سبيل المؤمنين[1].

ولما ذكر ما يدل على أنه يفصل الآيات ليظهر الحق وليستبين سبيل المجرمين ونهاه عن سلوك سبيلهم ، أمره الله تعالى أن يجاهرهم بالتبري مما هم فيه ، فأمره بالرجوع إلى مخاطبة المِصِرّين على الشرك إثرَ ما أُمر بمعاملة مَنْ عَداهم من أهل الإنذار بما يليق بحالهم ، وأمره كذلك بقطع أطماعهم الفارغةِ عن ركونه عليه الصلاة والسلام إليهم ، ويبين لهم كون ما هم عليه من الدين هوىً محضاً وضلالاً بحتاً ، بعد أن أبطل إلهية الأصنام بطريق الاستدلال من قوله : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ [2] الآية . وقوله : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ [3] الآية وقوله : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ ﴾ [4] الآية

فجاء في هذه الآية بطريقة أخرى لإبطال عبادة الأصنام ؛ وهي أنّ الله نهى رسوله عليه الصلاة والسلام وصرف وزجر عن عبادتها وعن اتّباع أهواء عبدتها ، فقال : ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ صرفت وزجرت بما ركب فيّ من أدلة العقل، وبما أوتيت من أدلة السمع عن عبادة ما تعبدون من دون الله من ما تدعونها من آلهة تسمونها بذلك، وتخضعون لها من دون الله لطلب إيصال الخير أو دفع الضر، وأمره أن يبين لهم أن هذه العبادة مبنية على الرأى والهوى وهى ضلال وغيّ ؛ فقال : ﴿ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ﴾ أي : لا أجري في طريقتكم التي سلكتموها في دينكم ، والتي اخترعتموها أنتم من تلقاء انفسكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل ، فبين أن الذين يعبدونها إنما يعبدونها بناء على محض الهوى والتقليد، لا على سبيل الحجة والدليل والبيِّنَةِ والبُرهان ؛ لأنها جمادات وأحجار ، وهي أخس مرتبة من الإنسان بكثير ، وكون الأشرف مشتغلاً بعبادة الأخس أمر يدفعه صريح العقل . فقل لهم : فإنّ الله نهاني بما أكرمني من الوحي والرسالة أن أعبد الذين تدعون من دونه، وعبر عن الأصنام بـ ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ على زعم الكفار حين أنزلوها منزلة من يعقل، وقال : ﴿ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ﴾ أى لا أجري في طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى ، وهو الإرادة المحبة في المرديات من الأمور دون اتباع الدليل، فلن أتبعكم على ما تدعونني إليه من ذلك، ولا أوافقكم عليه،

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٩٤) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٥٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٩٧) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٣٥) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٨) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٤٣٦) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٦٤) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٣١) الفواتح الإلهية للنخجواني (١/ ٢٢١) فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٤/ ١٥١) تفسير المراغي (٧/ ١٣٩) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١١٠٥) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٩٧) التفسير المنير للزحيلي (٧/ ٢٢٠) مع تصرف وإضافة من الباحثة

[2] من الآية (١٤) من سورة الأنعام .

[3] من الآية (٤٠) من سورة الأنعام .

[4] من الآية (٤٦) من سورة الأنعام .

وهو بيان للسبب الذي منه وقعوا في الضلال، وتنبيه لكل من أراد إصابة الحق ومجانبة الباطل ، وإن فعلت ذلك، ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ فقد تركت محجَّة الحق، وسلكت على غير الهدى، فصرت ضالاً مثلكم على غير استقامة ، وَبعد ما ضللت ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أصلا في شيء من الهداية كمثلكم .

وفي هذا إشارة إلى الموجب للنهي وعلة الامتناع عن متابعتهم واستجهال لهم، وبيان لمبدأ ضلالهم ووصف بالاقتحام فيما كانوا فيه على غير بصيرة وأن ما هم عليه هوى وليس بهدى، وتنبيه لمن تحرى الحق على أن يتبع الحجة ولا يقلد.

وفيه تعريض بهم، وأنهم ضالون حائدون عن طريق الهدى، ليسوا على شيء منها[1].

وبعد ما بين ما لا يجوز اتباعه. ونفى أن يكون الهوى متبعاً نبه على ما يجب اتباعه بقوله : ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أيها المكذبون في اعتقادي ويقيني وما حصل في نفسي من العلم على بينة من ربي ، ودلالة تفصل بين الحق والباطل ، وأن ما أعبده إنما أعبده على حجة وبيان قد تبينته، وبرهان قد وضح لي ، ويقين وبصيرة يبصر بها قلبي ، لا يمكن التشكيك فيها ،وهذه البينة هي الدلالة التي تفصل بين الحق والباطل والتي تلقيتها ﴿مِّن رَّبِّى﴾ من توحيدي، وما أنا عليه من إخلاص عُبُودته من غير إشراك شيء به ، ولا متبع لهوى فأنا اتبع الحجة والسمع وما يستحسنه العقل؛ وهذه معرفة لا يدخل عليها شك أو ريب، ولا يلحقها وهن أو ضعف .

وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من التشريف ، ورفع المنزلة ما لا يخفى ، ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ ومع كل ذلك رددتم رسالته ، وكذبتم أنتم بربكم وما جاء في القرآن ، وما أحذركم به من العذاب وبتوحيده وأشركتم له غيره ، واستوجبتم العقوبة العظيمة بشرككم ، واستهزأتم بي باستعجال العذاب إلا أنه ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ من نقم الله وعذابه ليس بيدي ولا أنا على ذلك بقادر، ولم أقل لكم إن الله فوض أمره إليّ حتى تطالبونى به فبين خطأهم في شأن ما جعلوه منشأ لتكذيبهم بها وهو عدم مجيء ما وعد فيها من العذاب الذي كانوا يستعجلونه بقولهم : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟! بطريق الاستهزاء أو بطريق الإلزام على زعمهم ، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾أي ما الحكم في ذلك تعجيلاً وتأخيراً ، أو ما الحكم في جميع الأشياء فيدخل فيه ما ذكر دخولاً أولياً ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾وحده من غير أن يكون لغيره

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٩٦) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٥٥) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٩٧) الكشاف للزمخشري (٢/ ٣٠) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٩٨) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٨) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٦٤) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٠٨) الفواتح الإلهية للنخجواني (١/ ٢٢١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (٢ / ٣٩١) البحر المديد لابن عجيبة (٢/ ١٢٥) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٧٧) تفسير المراغي (٧/ ١٤٠)تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٧ / ٢٦١) التفسير المنير للزحيلي (٧/ ٢٢٢) مع تصرف وإضافة من الباحثة

دخل ما فيه بوجه من الوجوه ، فهو منتقم منكم لا محالة عقبه بما دل على استعظام تكذيبهم بالله وشدة غضبه عليهم لذلك وأنهم أحقاء بأن يعذَّبوا بالعذاب المستأصل ، فما الأمر الا له وبيده وتحت قبضة قدرته ومشيته ، وليس علي إلا البلاغ لما أرسلت به، ثم بين سبحانه أن كل ما قصه على رسوله فهو حق لا شبهة فيه حيث قال : ﴿ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ﴾ و يقضي الحق فيهم وفيك، ويفصل به بينك وبينهم، فيتبين المحقُّ منكم والمبطل ، ووضح السبيل، ليقطع به معاذيرهم ، وتنقطع له حجتهم، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة وذلك أنه ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ الحاكمين في عموم الوقائع والخطوب وجميع المصائب والملمات ، فهو خير من بيّن وميّز بين المحق والمبطل وأعدلهم؛ لأنه لا يقع في حكمه وقضائه حَيْف إلى أحد لوسيلة له إليه ، ولا لقرابة ولا مناسبة، ولا في قضائه جور ؛ لأنه لا يأخذ الرشوة في الأحكام فيجور، فهو أعدل الحكام وخيرُ الفاصلين الحاكمين القاضين فى كل أمر[1] .

ثم أكد ذلك لمن زاد قلبه في الجلافة مبيناً ما في غيره من وخيم العاقبة فقال: ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى ﴾ أي على سبيل الفرض لو أنّ بيدي وفي قدرتي وإمكاني ما تستعجلون به من العذاب ﴿ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ فأفصل ذلك أسرع الفصل، بتعجيلي لكم ما تسألوني من ذلك وتستعجلونه، ولم أمهلكم ساعة، ولأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي ؛ ولتخلصت منكم سريعاً لتوفية المقام حقه ، واقتصاصاً من تكذيبكم، ولصدكم عن تبليغ دعوة ربى، وصدكم الناس عني ، ولكن ذلك بيد الله، ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي هو أعلم بوقت إرساله على الظالمين، الذين يضعون عبادتهم التي لا تنبغي أن تكون إلا لله في غير موضعها، فيعبدون من دونه الآلهة والأصنام، فأنتم ظلمتم إذ كذبتموني بعد علمكم بصدقي وأمانتي، والله أعلم بكم إن شاء عاجلكم بالعقوبة، وإن شاء أخرها فهو أعلم بوقت الانتقام منهم، وحالِ القضاء بيني وبينهم ، وهو أعلم بمن ينبغي أن يؤخذ وبمن ينبغي أن يمهل منكم، وهو ينزل عليكم العذاب في وقت يعلم أنه أردع ، فهو أعلم بما يُصلح خلقه، منّي ومن جميع خلقه ، فبفضله ورحمته يؤخر ذلك عنكم.

وقد اقتضت حكمته أن يمهلهم، وذلك لأنه أعلم بما يؤول إليهم أمرهم، وفقد يهتدي منهم قوم، ولا يهتدي آخرون فلذلك يؤخّرهم. ولعل فى امتداد الزمن بهم ما يفسح المجال أمام الكثير منهم، ليهتدى، ويؤمن بالله، ويفوز برضوانه..

---

[1] — انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٣٩٧) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٩٧) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٥٣) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٧٨) الكشاف للزمخشري (٢/ ٣٠) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٩٨) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٣٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٤٣٨) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٦٥) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٣٣) الفواتح الإلهية للنخجواني (١/ ٢٢١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٤٢) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٣٧٨) تفسير المراغي (٧/ ١٤٢) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٩٨) مع تصرف وإضافة من الباحثة

فكل يوم يمر بهم دون أن يأتيهم هذا العذاب الذي تطلبونه، هو رحمة من الله بهم، ودعوة مجدّدة منه سبحانه إليهم، أن يرجعوا إليه، ويؤمنوا به، ويكونوا فى عباده المخلصين ، وهذه فرصتهم ، إن أفلتت منهم فلن تعود أبداً.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تهديد ووعيد لهؤلاء الذين أمهلهم الله، ولم يعجل لهم العذاب؛ ليصححوا عقيدتهم، ويرجعوا إلى ربهم ، ولكن الظالمين ظلوا على عتوّهم، وكفرهم، وعنادهم والله عليم بهم، وسيأخذهم بذنوبهم ، وفيه مراعاة حسن الأدب ما لا يخفى[1]

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. بيان الحكمة مِن إرسال الأنبياء والمرسلين ، وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شـــريك له ، فمِن الناس مَن يكون الترغيب نافعاً له ، ومنهم مَن لا يرتدع عمّا هو عليه إلاّ إذا خُوِّفَ ورُهِّبَ ؛ فالترغيب والترهيب هما مِن طرق توصيل هذه الدعوة .

٢. الإنسان وحده هو الذي يسجّل لنفسه ما يستحق من نعمة أو نقمة، فإذا آمن بالله ربّا وأصلح عمله، حظي بالأمان والسعادة والسرور، وإذا كذّب بآيات الله المنزلة على رسله، مسّه العذاب بكفره وفسقه[2].

٣. فى قوله تعالى:﴿يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾إشارة إلى أن عذاب الله شديد لا يطاق، وأن مسّة من هذا العذاب، تحيل حياة من تصيبه إلى شقاء دائم، وبلاء متصل ، نعوذ بالله من عذاب الله[3].

٤. حكمة الله تعالى تقتضي إرسال الرسل ؛ لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ما يجب لله من الأسماء والصفات والأحكام ، ولا يمكن أن يستقل بمعرفة العبادات . [4]

---

(١) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٠٠) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٩٨) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٧٩) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٣٧) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٠) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٦٥) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٠٩) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٣٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٤٢) تفسير المراغي (٧/ ١٤٢) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٩٩) مع تصرف وإضافة من الباحثة

(٢) - التفسير المنير للزحيلي (٧/ ٢٠٦)

(٣) - التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٨٧)

(٤) – الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦ / ١٥٥)

٥. تشجيع الإنسان على الإيمان والعمل الصالح ، والحث على ذلك بذكر عاقبة كل مؤمن صالح [١].

٦. أن العنصر المميز بين أهل الخير وغيرهم هو الخوف والخشية من الله فأولئك يكون فيهم رأفة، ومع الرأفة يتفتح القلب للهداية، ويدخله النور، ومع الغلظة يكون الظلام، وكأن الغلظة حجارة قوية تجعل ما وراءها في ظلام دامس[٢].

٧. أن الغرور باعتقاد شفيع يشفع أو ولي يناصر من دون الله تعالى يسدُّ مسالك النور والهداية، فلا بد أن يكون كل الإحساس لله سبحانه وتعالى.[٣]

٨. التفكر مطلوب، والحض عليه منهج قرآني ، ولكنه التفكر المضبوط بضابط الوحي، الذي يمضي معه مبصراً في النور لا مطلق التفكر الذي يخبط في الظلام أعمى، بلا دليل ولا هدى ولا كتاب منير، والعقل البشري حين يتحرك في إطار الوحي لا يتحرك في مجال ضيق، إنما يتحرك في مجال واسع جداً[٤]،

٩. الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم غير مصحوبين بوليّ أو شفيع، فهذا الخوف من شأنه أن يبعث الإيمان والتقوى فى أصحابه.. فهم- والحال كذلك- على رجاء من التقوى، وعلى مداناة منها، إن هم استقاموا على هذا الطريق، واحتملوا ما يلقاهم عليه من مشقة وأذى[٥].

١٠. بيان جهل المشركين بحقيقة الإلهية وحقيقة الرسالة؛ إذ كانوا يقترحون على الرسول من الأعمال ما لا يقدر عليه إلا من له التصرف فيما وراء الأسباب، ومن الإخبار بما يكون في مستقبل الزمان ما لا يعلمه إلا من كان علم الغيب صفة له كسائر الصفات[٦].

١١. كما وضع الحق النص على الجرائم وعقوبتها فهو سبحانه وتعالى قد فتح باب التوبة لخلقه، حتى لا يكون الذي عصى الله مرة واحدة فاقداً للأمل، حتى لا يشقى المجتمع بهؤلاء العصاة. وشرع الحق التوبة للخلق ليريحهم من شرور من ارتكبوا المعاصي، وليرحم أيضاً أصحاب المعاصي ما داموا قد تابوا عنها، وقد يرحم الله بعض خلقه من المعاصي فيحفظهم منها[٧].

---

[١] – المرجع السابق (٦ / ١٥٠)

[٢] - زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٥١١)

[٣] – المرجع السابق (٥/ ٢٥١١)

[٤] - في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠٩٩)

[٥] - التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٩١)

[٦] - تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٥٥)

[٧] - تفسير الشعراوي (٦/ ٣٦٥٧)

١٢. الجهالة أنواع منها: عدم تقدير عاقبة الذنب، ونسيان عظمة الرب[١].

١٣. وجوب الرفق والتلطف بالمستفتين وعدم الشدة والغلظة عليهم[٢].

١٤. إتباع أهواء أهل الأهواء والباطل يضل ويهلك[٣].

١٥. على المسلم الداعي إلى ربه أن يكون على علم كاف بالله تعالى وبتوحيده ووعده ووعيده وأحكام شرعه[٤].

١٦. وجوب الصبر والتحمل مما يلقاه الداعي من أهل الزيغ والضلال من الاقتراحات الفاسدة[٥].

١٧. قد اشتغل بالمفاضلة بين الملك والبشر قوم من أهل العلم، ولا يترتب على ذلك فائدة دينية ولا دنيوية، بل الكلام في مثل هذا من الاشتغال بما لا يعني، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه [٦].

١٨. ظاهر الآيات يدل على أنه ﷺ ما كان يجتهد في شيء من الأحكام بل جميع أوامر الله ونواهيه إنما كانت بوحي ولكن المرجح أنه يجتهد [٧]

١٩. أن الناس عند الله- حتى الأنبياء- بأعمالهم، وليس بمالهم من رياسات دينية[٨].

٢٠. الإشارة إلى تبدل ميزان القوى ومراكز الناس فإن حالات التّفوّق والنّعم لن تدوم للكفار، وأحوال الضعف التي مرّ بها المؤمنون وصبروا عليها لا بدّ أن تتبدّل، وسيصبح الأقوياء أذلّة، والضّعفاء أعزّة بالإسلام، ويعلو الحقّ، وتتأيّد دولة الله في الأرض، ويصبح أتباعها هم الأئمة الوارثين[٩].

٢١. الحقّ والباطل لا يجتمعان لأن الحقّ قائم على الدّليل والعقل، والباطل منبعث من الأهواء والشهوات[١٠].

---

(١) - أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٦٦)

(٢) – المرجع السابق (٢/ ٦٨)

(٣) – المرجع السابق (٢/ ٦٨)

(٤) – المرجع السابق (٢/ ٦٨)

(٥) – المرجع السابق (٢/ ٦٨)

(٦) - فتح القدير للشوكاني (٢/ ١٣٥)

(٧) - السراج المنير للشربيني (١/ ٤٢١)

(٨) - التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ١٩٣)

(٩) - التفسير المنير للزحيلي (٧/ ٢١٦)

(١٠) - التفسير المنير للزحيلي (٧/ ٢٢٥)

٢٢.	التّوبة: الرجوع، وصحتها مشروطة باستدامة الإصلاح بعدها في الشيء الذي تيب منه، والإصلاح يكون بشروط أربعة: النّدم الحقيقي على الذنب، والعزم على عدم العودة إليه في المستقبل، وردّ المظالم إلى أهلها، وإتباعها بالعمل الصالح. وهذا ما أشارت إليه الآيات.[١]

٢٣.	لا يبقى أمام الإنسان بما أوتي من عقل وخبرة وترجيح للمصلحة على المفسدة، إلا أن يختار طريق الخير ويتجنّب سبيل الشّر ؛ لأن فعل الخير أمان وسلام، وعافية واطمئنان، وفعل الشّر ضلال وخسران[٢].

٢٤.	العمل بغير الوحى يجرى مجرى عمل الأعمى ، والعمل بمقتضى الوحى يجرى مجرى عمل البصير[٣]

٢٥.	صفات الكمال مختلفة متفاوتة، ولا تجتمع في إنسان واحد البتة، بل هي موزعة على الخلق وصفات الكمال محبوبة لذاتها، فكل أحد يحسد صاحبه على ما آتاه الله من صفات الكمال.

٢٦.	من عرف حكمة الله تعالى في القضاء والقدر رضي بنصيب نفسه وسكت عن التعرض للخلق، وعاش عيشاً طيباً في الدنيا والآخرة .[٤]

٢٧.	الإشارة إلى أن مدار استحقاق الإنعام معرفة شأن النعمة والاعتراف بحق المنعم[٥]

٢٨.	أن الله سبحانه يعلم أن إنشاء اليقين الاعتقادي بالحق والخير يقتضي رؤية الجانب المضاد من الباطل والشر ، والتأكد من أن هذا باطل محض وشر خالص ، وأن ذلك حق محض وخير خالص.. كما أن قوة الاندفاع بالحق لا تنشأ فقط من شعور صاحب الحق أنه على الحق ولكن كذلك من شعوره بأن الذي يحاده ويحاربه إنما هو على الباطل ، فسفور الكفر والشر والإجرام ضروري لوضوح الإيمان والخير والصلاح ، واستبانة سبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات ؛ ذلك أن أي غبش أو شبهة في موقف المجرمين وفي سبيلهم ترتد غبشاً وشبهة في موقف المؤمنين وفي سبيلهم ، فهما صفحتان متقابلتان، وطريقان مفترقتان ، ولا بد من وضوح كل منهما [٦].

---

[١] - التفسير الوسيط للزحيلي (١/ ٥٥٧)

[٢] – المرجع السابق (١/ ٥٥٧)

[٣] - روح البيان لحقي (٣/ ٣٤)

[٤] - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢/ ٥٤٤)

[٥] - إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٤٠)

[٦] - انظر : في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١١٠٥)

٢٩. النية والعمل بهما تمام العبادة، فالنية أحد جزأي العبادة، لكنها خير الجزأين، ومعنى النية إرادة وجه الله سبحانه بالعمل، ومعنى إخلاصها تصفية الباعث عن الشوائب.[١]

٣٠. أن الشرك هو سبيل أهل الإجرام ، فمَن اتبع هذا السبيل فإن نِهايته الضلال والهلاك المبين .

٣١. من أراد الهُدى والفوز والنجاة في الدارين فعليه بالتوحيد ونبذ الشرك ، لأن الشرك هو رأس كلّ البلايا والرزايا في الدنيا والآخرة ، أعاذنا الله منه .

٣٢. إنَّ الشفاعة إنَّما تكون بإذنه ولا شفيعٌ ولا ناصرٌ لأحدٍ في القيامة إلاَّ بإذن الله تعالى [٢].

٣٣. يجب على النبي ﷺ أن يعلن للأمة ما أمره الله به . [٣]

٣٤. أن ما صدر بـ "قل" بالنسبة للرسول ﷺ كان دليلاً على أهميته ، وأن الله تعالى أوصى نبيه أن يبلغه خاصة مما يدل على العناية به [٤].

٣٥. الثناء على من يحضر مجالس النبي ﷺ [٥]

٣٦. كمال عدل الله تعالى ؛ لأنه خاطب نبيه بهذه الآيات ذات الخطاب القوي من أجل قوم من أصحابه ، وهو – أي النبي ﷺ – عند الله أعظم جاهاً ، وأعلى منزلة ، لكن الله حكم عدل ، يحكم بالحق سبحانه وتعالى [٦] .

٣٧. إقرار الكافرين بأن الإيمان والإسلام منة من الله تعالى [٧].

٣٨. أن أعداء المؤمنين يأتون بكل أسلوب للتنفير عن المؤمنين . [٨]

٣٩. يجرد الرسول ﷺ نفسه من أن تكون له قدرة، أو تدخل في شأن القضاء الذي ينزله الله بعباده. فهذا من شأن الألوهية وحدها وخصائصها، وهو بشر يوحى إليه، ليبلغ وينذر لا لينزل قضاء ويفصل[٩].

---

[١] - الجواهر الحسان للثعالبي (٢/ ٤٦٨)

[٢] - الوجيز للواحدي (ص: ٣٥٥)

[٣] – الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦ / ١٦٤)

[٤] – المرجع السابق (٦ / ١٦٤)

[٥] – المرجع السابق (٦ / ١٧٤)

[٦] – المرجع السابق (٦ / ١٧٦)

[٧] – المرجع السابق (٦ / ١٧٧)

[٨] – المرجع السابق (٦ / ١٧٧)

[٩] - في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١١١١)

المطلب الخامس : خطاب المشركين بما هو معلوم عندهم بالضرورة من ربوبية الله سبحانه تعالى (٥٩– ٦٥)

يقول الله سبحانه تعالى : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

أولاً : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

لما كانت هذه الآيات مثبتة لجزئيات من علمه تعالى وقدرته ، عطفها على جملة : ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على طريقة التخلّص . والمناســـبة في هذا التخلّص هي الإخبار في خاتمة الآية السابقة بأنّ الله أعلم بحالة الظالمين ، فإنّها غائبة عن عيان الناس ، فالله أعلم بما يناسب حالهم من تعجيل الوعيد أو تأخيره ، وهذا انتقال لبيان اختصاصه تعالى بعلم الغيب وسعة علمه ثم سعة قدرته وأنّ الخلق في قبضة قدرته . **لذا** أتبعها الاختصاص بما هو أعم من ذلك ، وهو علم مفاتح الغيب الذي لا يصل إليه إلا من حازها ، إذ لا يطلع على الخزائن إلا من فتحها ، ولا يفتحها إلاّ مِن حاز مفاتيحها وعَلِمَ كيف يفتح بها ، فإثبات ذلك في هذا الأســـلوب من باب الترقية في مراقي الاعتقاد مِن دَرَجَةٍ كامِلَةٍ إلى أكْمَل منها ، فقال عاطفاً على معنى ما سبق الآيات التالية .

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

يقول تعالى : ﴿وَعِندَهُۥ﴾ فعنده وحده خاصة جميع ذلك : ﴿مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ التي لا يُدْرَكُ الغَيْبَ إلاَّ مَن عَلِمَها ، فإنّ عند الله تعالى علم ما غاب علمه عن خلقه ، فلم يطلعوا عليه ولم يدركوه، ولن

يعلموه ولن يدركوه ، وهو ما غاب عن العباد من الثواب والعقاب والآجال والأحوال ، وجعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة ؛ لأن المفاتح يتوصل بها إلى ما في الخزائن المستوثق منها بالأغلاق والأقفال ومن علم مفاتحها وكيفية فتحها توصل إليها ، فأراد أنه هو المتوصل إلى المغيبات وحده لا يتوصل إليها غيره ، فيعلم أوقات الأمور وما في تعجيلها وتأخيرها من الحكم ، فيظهرها على ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته ، وفيه دليل على أنه سبحانه وتعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها.

وقوله : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ وعنده مفاتح الغيب يفيد الحصر، أي عنده لا عند غيره ، ولفظ الآية يدل على هذا التوحيد، والبرهان العقلي يساعد عليه.

ثم ذكر أموراً أخرى داخلة في شمولية علمه فقال : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ تنبيهاً على أعظم المخلوقات المجاورة للبشر ، فعنده علم ما لم يغب أيضًا عنكم ؛ لأن ما في البر والبحر مما هو ظاهر للعين، يعلمه العباد ، فكأن معنى الكلام: وعند الله علم ما غابَ عنكم، أيها الناس، مما لا تعلمونه ولن تعلموه مما استأثرَ بعلمه نفسَه، ويعلم أيضًا مع ذلك جميع ما يعلمه جميعُكم، لا يخفى عليه شيء؛ لأنه لا شيءَ إلا ما يخفى عن الناس أو ما لا يخفى عليهم ، فأخبر الله تعالى ذكره أن عنده علم كل شيء كان ويكون، وما هو كائن مما لم يكن بعد، وذلك هو الغيب .

وقدم ذكر البر؛ لأن الإنسان قد شاهد أحوال البر، وكثرة ما فيه من المدن والقرى والمفاوز والجبال والتلال، وكثرة ما فيها من الحيوان والنبات والمعادن، وأما البحر فإحاطة العقل بأحواله أقل إلا أن الحس يدل على أن عجائب البحار في الجملة أكثر ، وطولها وعرضها أعظم وما فيها من الحيوانات وأجناس المخلوقات أعجب ، فإذا استحضر الخيال صورة البحر والبر على هذه الوجوه ، ثم عرف أن مجموعها قسم حقير من الأقسام الداخلة تحت قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ فيصير هذا المثال المحسوس مقوياً ومكملاً للعظمة الحاصلة تحت قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ .

ثم إنه تعالى كما كشف عن عظمة قوله :﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ بذكر البر والبحر كشف عن عظمة البر والبحر بقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ وذلك لأن العقل يستحضر جميع ما في وجه الأرض من المدن والقرى والمفاوز والجبال والتلال، ثم يستحضر كم فيها من النجم والشجر ، ثم يستحضر أنه لا يتغير حال ورقة ولا تسقط ورقةٌ في الصحاري والبراري، ولا في الأمصار والقرى، إلا والحق سبحانه يعلمها ساقطة وثابتة، ثم يتجاوز من هذا المثال إلى مثال آخر أشد هيئة منه وهو قوله: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ ولا شيء أيضًا مما هو موجود، أو ممّا سيوجد ولم يوجد بعد، إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ، مكتوبٌ ذلك فيه، ومرسوم عددُه ومبلغه، والوقت

الذي يوجد فيه، والحالُ التي يفنى فيها. ويعني بقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ أنه يبين عن صحة ما هو فيه، بوجود ما رُسم فيه على ما رُسم[1] ، موضح لأحواله وأعيانه وكل أموره وأحيانه، فثبت أنه فاعل لجميع العالم بجواهره وأعراضه على سبيل الإحكام والإتقان؛ لأنه وحده عالم بجميع المعلومات، ومن اختص بعلم جميع المعلومات كان مختصاً بصنع جميع المصنوعات قادراً على جميع المقدورات.

"وذلك لأن الحبة في غاية الصغر وظلمات الأرض موضع يبقى أكبر الأجسام وأعظمها مخفياً فيها، فإذا سمع أن تلك الحبة الصغيرة الملقاة في ظلمات الأرض على اتساعها وعظمتها لا تخرج عن علم الله تعالى البتة، صارت هذه الأمثلة منبهة على عظمة عظيمة وجلالة عالية من المعنى المشار إليه بقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو بحيث تتحير العقول فيها ، وتتقاصر الأفكار والألباب عن الوصول إلى مباديها، ثم إنه تعالى لما قوى أمر ذلك المعقول المحض المجرد بذكر هذه الجزئيات المحسوسة ، فبعد ذكرها عاد إلى ذكر تلك القضية العقلية المحضة المجردة بعبارة أخرى فقال: ﴿وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ وهو عين المذكور في قوله: وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو"[2] ، يقول ﷺ : (مفاتح الغيب خمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾)[3]

---

(1) – وإن قيل : ما وجهُ إثباته في اللوح المحفوظ والكتاب المبين، ما لا يخفى عليه، وهو بجميعه عالم لا يُخاف نسيانَه ؟

قيل له : فائدة هذا الكتاب أمور: أحدها: أنه تعالى إنما كتب هذه الأحوال في اللوح المحفوظ لتقف الملائكة على نفاذ علم الله تعالى في المعلومات وأنه لا يغيب عنه مما في السموات والأرض شيء. فيكون في ذلك عبرة تامة كاملة للملائكة الموكلين باللوح المحفوظ لأنهم يقابلون به ما يحدث في صحيفة هذا العالم فيجدونه موافقا له.

وثانيها: يجوز أن يقال إنه تعالى ذكر ما ذكر من الورقة والحبة تنبيها للمكلفين على أمر الحساب وإعلاما بأنه لا يفوته من كل ما يصنعون في الدنيا شيء؛ لأنه إذا كان لا يهمل الأحوال التي ليس فيها ثواب ولا عقاب ولا تكليف فبأن لا يهمل الأحوال المشتملة على الثواب والعقاب أولى.

وثالثها: أنه تعالى علم أحوال جميع الموجودات فيمتنع تغييرها عن مقتضى ذلك العلم، وإلا لزم الجهل. فإذا كتب أحوال جميع الموجودات في ذلك الكتاب على التفصيل التام امتنع أيضا تغييرها وإلا لزم الكذب فتصير كتبة جملة الأحوال في ذلك الكتاب موجبا تاما وسبباً كاملاً في أنه يمتنع تقدم ما تأخر وتأخر كما تقدم كما قال صلوات الله عليه: «جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة» جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٠٣) ، مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٢)

(2) – مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١١)

(3) – أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب تفسير القرآن ، باب {وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو} [الأنعام: ٥٩] عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – : (٦/ ٥٦) برقم (٤٦٢٧)

والمعنى في كَتْبِها في قوله تعالى ﴿فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ أنه لتعظيم الأمر، فمعناه: اعلموا أن هذا الذي ليس فيه ثواب ولا عقاب مكتوب، فكيف ما فيه ثواب وعقاب؟[1]

ولما كان من مفاتح الغيب الموت والبعث الذي ينكرونه، وكان من أدلته العظمة النوم والإيقاظ منه مع ما فيه من الإحسان المتكرر، وكان فيه مع ذلك تقرير لكمال القدرة بعد تقريره لكمال العلم، أتبع ذلك قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ حيث إنه لما بيّن كمال علمه بالآية الأولى ، بيّن كمال قدرته بهذه الآية ، فانتقل من بيان سعة علمه ، إلى بيان عظيم قدرته ؛ لأنّ ذلك كلَّه من دلائل الإلهية تعليماً لأوليائه ، ونعياً على المشركين أعدائه ، وقد جرت عادة القرآن بذكر دلائل الوحدانية في أنفس الناس عقب ذكر دلائلها في الآفاق ، فجمع ذلك هنا على وجهٍ بديعٍ مؤذنٍ بتعليم صفاته في ضمن دليل وحدانيته ، وفي هذا تقرير للبعث بعد الموت . فلما كان من مفاتح الغيب الموت والبعث الذي ينكرونه، وكان من أدلته العظيمة النوم والإيقاظ منه مع ما فيه من الإحسان المتكرر ، وكان فيه مع ذلك تقرير لكمال القدرة بعد تقريره لكمال العلم ، أتبع ذلك قوله : ﴿وَهُوَ﴾أي وحده ﴿ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم﴾ أي يقبض أرواحكم كاملة ، وينيمكم فيتوفى نفوسكم التي بها تميزون وتدركون فلا يبقى عندكم شعور أصلاً ، فيمنعكم التصرف بالنوم كما يمنعكم بالموت .

وصح إطلاق لفظ الوفاة والموت على النوم ؛ لأن في حال النوم تغور الأرواح الحساسة من الظاهر في الباطن فتصيرت الحواس الظاهرة معطلة عن أعمالها، وعند النوم يصير ظاهر الجسد معطلاً عن بعض الأعمال، وعند الموت يصير جملة البدن معطل عن كل الأعمال، فحصل بين النوم وبين الموت مشابهة من هذا الاعتبار ، فهو قادر على نقل الذوات من الموت إلى الحياة ، ومن النوم إلى اليقظة .

ومن كان متفرد بفعل كل ما سبق ، وتصرفه المطلق بكل ما سبق ، فإنه يستقل بحفظها في جميع الأحوال ، وتدبيرها على أحسن الوجوه حالة النوم واليقظة ، فالذي يقبض أرواحكم بالليل ويبعثكم في النهار، لتبلغوا أجلاً مسمى، وأنتم ترون ذلك وتعلمون صحّته، غير منكرٍ له القدرة على قبض أرواحكم وإفنائكم، ثم ردِّها إلى أجسادكم، وإنشائكم بعد مماتكم، فإن ذلك نظير ما تعاينون وتشاهدون، وغير منكر لمن قدر على ما تعاينون من ذلك، القدرةُ على ما لم تعاينوه من البعث والنشور وغيره ، وإن الذي لم تروه ولم تعاينوه من ذلك، شبيه ما رأيتم وعاينتم ، وفي ذلك دلالة أن النائم غير مخاطب في حال نومه؛ حيث ذكر الوعيد فيما يجرحون بالنهار ولم يذكر بالليل.

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٠٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٥٧) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢٠٤٤) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٩٩) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١١) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٦٥) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٠٩) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٣٧) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٧ / ٢٧٠) مع تصرف وإضافة من الباحثة

وليس فيه أنه لا يعلم ما جرحنا بالليل ولا أنه لا يتوفانا بالنهار ، فدل أن تخصيص الشئ بالذكر لا يدل على نفي ما عداه .

وإنما عبر بلفظ : ﴿مَا جَرَحْتُم﴾ لأنه إنما تكتسب الأعمال بهذه الجوارح .

﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ يثيركم ويوقظكم من منامكم ﴿فِيهِ﴾ يعني في النهار ينبهكم من نومكم فيه في النهار ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ليقضي الله الأجل الذي سماه لحياتكم، فيبلغ مدته ونهايته، ثم يأتي الموت الذي مرجعكم منه إلى الله ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ثم إلى الله معادكم ومصيركم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾ يخبركم إخباراً عظيماً جليلاً مستقصى ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ثم يعلمكم إعلام توقيف ومحاسبة ، ويخبركم بما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا، ثم يجازيكم بذلك، إن خيرًا فخيرًا وإن شرًّا فشرًّا.

وهذا الكلام وإن كان خبرًا من الله تعالى عن قدرته وعلمه، فإنّ فيه احتجاجًا على المشركين به، الذين كانوا ينكرون قدرته على إحيائهم بعد مماتهم وبعثهم بعد فنائهم.(1)

ولما أخبر بتمام العلم والقدرة، أخبر بغالب سلطنته وعظيم جبروته وأن أفعاله هذه على سبيل القهر لا يستطاع مخالفتها، فلو بالغ أحد في الاجتهاد في أن ينام في غير وقته ما قدر، أو أن يقوم وقت النوم لعجز، أو أن يحيي وقت الموت لم يستطع إلى غير ذلك فقال : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ والله الغالب خلقه، العالي عليهم بقدرته، لا المقهور من أوثانهم وأصنامهم، فلقد أخبر أنه قاهر لخلقه وهم مقهورون، ومن البعيد أن يشبه القاهر المقهور بشيء، أو يشبه المقهور القاهر بوجه، أو يكون المقهور شريك القاهر في معنى؛ لأنه لو كان شيء من ذلك لم يكن قاهراً من جميع الوجوه، ولا كان الخلق مقهورًا في الوجوه كلها، فإذا كان اللَّه قاهرًا بذاته الخلق كله كانت آثار قهره فيهم ظاهرة، وأعلام سلطانه فيهم بادية؛ دل على تعاليه عن الأشباه والأضداد ، ومن وجه قهره لهم وعلوه عليهم احصاءه أعمالهم لذا قال : ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ وهي ملائكته الذين يتعاقبونكم ليلاً ونهارًا، يحفظون أعمالكم ويحصونها، ولا يفرطون في حفظ ذلك وإحصائه ، ولا يُضيعون ولا يغفلون ولا يتوانون،و لا يعجزون فإذا وفيت ذلك قبضت إلى ربك(2).

(1) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٠٦) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٥٨) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٠٤) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢٠٤٧) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٢٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٠٠) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٢) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥١٠) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٣٧) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٧ / ٢٧٥) مع تصرف وإضافة من الباحثة

(2) – فإن قال قائل: أو ليس الذي يقبض الأرواح ملك الموت، فكيف قيل:"توفته رسلنا"،"والرسل" جملة وهو واحد؟ أو ليس قد قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [سورة السجدة: ١١] ؟

وجاءت المخاطبة بالكاف في قوله : ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ تقريباً للموعظة من نفوس السامعين .

ثم إن إرسال الحفظة عليهم لا لحاجة له في ذلك ؛ لما أخبر أنه قاهر فوق عباده ولو كان ذلك لحاجة له، لم يكن قاهرًا؛ لأن كل من وقعت له حاجة صار مقهورًا تحت قهر آخر، فاللَّه سبحانه يتعالى عن أن تمسه حاجة، أو يصيبه شيء مما يصيب الخلق، بل إنما أرسلهم عليهم لحاجة الخلق ؛ إما امتحانًا منه للحفظة على محافظة أعمال العباد والكتابة عليهم، من غير أن تقع له في ذلك حاجة، يمتحنهم على ذلك، ولله أن يمتحن عباده بما شاء من أنواع المحن، وإن أكرمهم ووصفهم بالطاعة في الأحوال كلها بقوله: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦] وغير ذلك من الآيات.

والثاني: يرسلهم عليهم بمحافظة أعمالهم والكتابة عليهم ؛ لأنه إن علم كل مسلم أن اللَّه عالم الغيب لا يخفى عليه شيء وأن عليه رقيباً في عمله وفعله ، وأن أعماله تكتب عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد ، عالم بما كان منهم وبما يكون أنه كيف يكون؟ ومتى يكون؟ كان أحذر في ذلك العمل ، وأنظر فيه، وأحفظ له ممن لم يكن عليه ذلك، وذلك في الزجر عن المعاصي أبلغ وأكثر ، وأن العبد إذا وثق بلطف سيده واعتمد على عفوه وستره لم يحتشم منه احتشامه من خدمه المطلعين عليه ، وكتابة العمل يكون إلى الممات حيث يقول تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ فإذا جاء أحدَهم الموت ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ توفته الرسل التي تقبض الأرواح، وقابض الأرواح هو ملك الموت، إلا أن الله جعل له أعواناً من عنده يتولون ذلك ، فيقبضون الأنفس بأمر ملك الموت، وهو مضاف إليه لمكان أمره ،فلذلك قال: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ ولم يقل: " رسولنا ".

﴿ وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ فيه إخبار عن شدة طاعة الملائكة ربهم، وأن الرأفة لا تأخذهم فيما فيه تأخير أمر اللَّه وتفريطه؛ لأن من دخل على من في النزع، أخذته من الرأفة ما لو ملك حياته لبذل له، فأخبر عَزَّ وَجَلَّ أنهم لا يفرطون ولا يتوانون فيما أمروا ولا يؤخرونه؛ لتعظيمهم أمر اللَّه وشدة طاعتهم له، والإفراط مجاوزة الحدّ أى لا ينقصون مما أمروا به أو لا يزيدون فيه وعلى ذلك وصفهم: ﴿ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦] وقال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ

قيل: جائز أن يكون الله تعالى ذكره أعان ملك الموت بأعوان من عنده، فيتولون ذلك بأمر ملك الموت، فيكون "التوفي" مضافًا = وإن كان ذلك من فعل أعوان ملك الموت = إلى ملك الموت (١) إذ كان فعلهم ما فعلوا من ذلك بأمره، كما يضاف قتلُ من قتل أعوانُ السلطان وجلدُ من جلدوه بأمر السلطان، إلى السلطان، وإن لم يكن السلطان باشر ذلك بنفسه، ولا وليه بيده. جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٠٩)

بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٧] وقال: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩].[1]

﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ ﴾ ثم ردت الملائكة الذين توفَّوهم لا يستطيعون دفاعه أصلاً فقبضوا نفوسهم وأرواحهم، ﴿إِلَى ٱللَّهِ ﴾ سيدهم ومالكهم الحق، و ﴿مَوۡلَىٰهُمُ ﴾لفظ عام لأنواع الولاية التي تكون بين الله وبين عبيده من الخلق والرّزق والنصرة ، و البعث والمحاسبة والملك وغير ذلك، ولما استحضر المخاطب عزته وقهره، وتصور جبروته وكبره، فتأهل قلبه وسمعه لما يلقى إليه ويتلى عليه، قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ ﴾ ألا له الحكم والقضاء في كل شيء دون من سواه من جميع خلقه ﴿وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴾ وهو أسرع من حسب عددكم وأعمالكم وآجالكم وغير ذلك من أموركم، أيها الناس وأحصاها، وعرف مقاديرها ومبالغها؛لأنه لا يحسب بعقد يد، ولكنه يعلم ذلك ولا يخفى عليه منه خافية .

ووصف نفسه أنه ﴿أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴾ لأنه لا يحاسب عن حفظ ولا تفكر، ولا يشغله شيء، وأما غيره فإنما يحاسب عن حفظ وتفكر وعن شغل، فهو تعالى يفصل بين الخلائق كلهم في أسرع من اللمح كما أنه يقسم أرزاقهم في الدنيا في مثل ذلك، لا يقدر أحد أن ينفك عن عقابه بمطاولة في الحساب، ولا مغالطة في ثواب ولا عقاب؛ لأنه سبحانه لا يحتاج إلى فكر وروية ولا عقد ولا كتابة، فلا يشغله حساب عن حساب ولا شيء عن شيء[2].

ولما تعرف بأفعاله وشؤونه حتى اتضحت وحدانيته وثبتت فردانيته، زاد في توبيخ العادلين بالله الأوثان، وتوقيفهم على سوء الفعل في عبادتهم الأصنام وتركهم الذي ينجي من المهلكات ويلجأ إليه في الشدائد ذكرهم أحوالهم في إقرار توحيده وقت الشدائد والرجوع عن ذلك عند الإنجاء منها، فكانوا كمن طلب من شخص شيئاً وأكد له الميثاق على الشكر، فلما أحسن إليه بإعطائه سؤله نقض عهده وبالغ في الكفر، وذلك عندهم في غاية من القبائح لا توصف فقال : ﴿ قُلۡ ﴾يا محمد لهؤلاء ﴿مَن يُنَجِّيكُم ﴾ من الذي ينجيكم ﴿مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ﴾ إذا ضللتم فيه فتحيَّرتم، وإذا أخطأتم الطريق وخفتم الهلاك حين أظلم عليكم الهدى والمحجة واشتد عليكم ، ومن ظلمات البحر إذا ركبتموه، فأخطأتم فيه المحجة، فأظلم عليكم

---

(1) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٠٨) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٥٨) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٠٥ – ١٠٨) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢٠٤٧) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٢٤) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٨١) الكشاف للزمخشري (٢/ ٣٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٠١) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٦٦) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٣٩) مع تصرف وإضافة من الباحثة

(2) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤١٣) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٠٩) تفسير السمعاني (٢/ ١١٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٠١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٧) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٤٠)

فيه السبيل؛ لأن أسفار البحار والمفاوز إنما تقطع بأعلام السماء، وظلمات البحر تكون بأن تجتمع ظلمة الليل، وظلمة البحر وظلمة السحاب، ويضاف الرياح الصعبة والأمواج الهائلة إليها، فإذا أظلمت السماء بقوا متحيرين لا يعرفون إلى أي ناحية يسلكون، ومن أي طريق يأخذون، ويشتبه عليهم كيفية الخروج، ويظلم عليهم طريق النجاة فلم يعرفوا كيفية الخلاص وعظم الخوف، وأما ظلمات البر فهي ظلمة الليل وظلمة السحاب والخوف الشديد من هجوم الأعداء، والخوف الشديد من عدم الاهتداء إلى طريق الصواب، فعند ذلك يدعون اللّه ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾على وجه الإخلاص له والتوحيد ، والإعراض عن كل شرك وشريك ؛ لزوال الحظوظ عند إحاطة الرعب ، واستيلائه على مجامع القلب، فلا يبقى إلا الفطرة السليمة .

فيقول : فلا تهتدون له غير الله الذي إليه مفزعكم حينئذ بالدعاء ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا ﴾ منكم إليه واستكانة جهرًا فتدعونه مظهرين الضراعة، والتضرع صفة بادية على الإنسان ، وهي شدة الفقر إلى الشيء والحاجة، ﴿وَخُفْيَةً ﴾ وإخفاء للدعاء أحياناً في أنفسكم حيث تضمرون في فقركم وحاجاتكم إليه ، وفي كلا الحالتين إعلانًا وإظهارًا تقولون: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا ﴾لئن أنجيتنا وخلصتنا ياربنا ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ ﴾ من هذه الظلمات التي نحن فيها ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ لنكونن ممن يوحدك بالشكر، ويخلص لك العبادة، دون من كنا نشركه معك في عبادتك ؛ لأنهم كانوا يوحدون اللّه في ذلك الوقت، لكنهم إذا نجوا من ذلك أشركوا غيره في ألوهيته ؛ والشكر: هو معرفة النعمة مع القيام بحقها ، ولا بد من هذين حتى يتحقق الشكر.

والمقصود أن عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الإنسان إلا إلى الله تعالى، وهذا الرجوع يحصل ظاهراً وباطناً ؛ لأن الإنسان في هذه الحالة يعظم إخلاصه في حضرة الله تعالى، وينقطع رجاؤه عن كل ما سوى الله تعالى، وهو المراد من قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ فبين تعالى أنه إذا شهدت الفطرة السليمة والخلقة الأصلية في هذه الحالة بأنه لا ملجأ إلا إلى الله، ولا تعويل إلا على فضل الله، وجب أن يبقى هذا الإخلاص عند كل الأحوال والأوقات، لكنه ليس كذلك، فإن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة؛ يحيل تلك السلامة إلى الأسباب الجسمانية، ويقدم على الشرك [1].

لذا قال بعدها : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا ﴾ أعلمهم بأنه الله القادرُ على فَرَجكم عند حلول الكرب بكم، ينجيكم من عظيم النازل بكم في البر والبحر من همّ الضلال وخوف الهلاك، ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ﴾ كل سوى ذلك وهمّ ، لا آلهتكم التي تشركون بها في عبادته، ولا أوثانكم التي تعبدونها من دونه، التي لا تقدر لكم على نفع ولا ضرّ .

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤١٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٥٩) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٠٩) تفسير السمعاني (٢/ ١١٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٠١) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٩) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٨) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥١١) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٤١) مع تصرف وإضافة من الباحثة

وعطف في قوله : ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ بـ" ثُمَّ" للمهلة التي تبين قبح فعلهم، أي ثم بعد معرفتكم بهذا كله ، وتحققكم به ، وبعد تفضيله عليكم بكشف النازل بكم من الكرب، ودفع الحالِّ بكم من جسيم الهم، وبعد علمكم أن الأصنام التي تعبدونها لم تملك الشفاعة لكم، ولا الزلفى إلى اللَّه؛ تعدلون به آلهتكم وأصنامكم، فتشركونها في عبادتكم إياه، وذلك منكم جهل وسفه بواجب حقه عليكم، وكفر لأياديه عندكم، وتعرضٌ منكم لإنزال عقوبته عاجلاً بكم، فأنتم على علم منهم أنها لا تشفع لهم، ولا تملك دفع شيء عنهم ، وفيه تقريع وتوبيخ ؛ لأن الحجة إذا قامت بعد المعرفة وجب الإخلاص، وهم قد جعلوا بدلاً منه وهو الإشراك، فحسن أن يقرعوا ويوبخوا على هذه الجهة وإن كانوا مشركين قبل النجاة[1].

ولما كانوا بإشراكهم كأنهم يظنون أن الشدة زالت عنهم زوالاً لا يعود، وكان اللائق بهم دوام التذلل إما وفاء وإما خوفاً، أخبرهم ترهيباً لهم من سطوته وتحذيراً من بالغ قدرته أن شدتهم تلك التي أذلتهم لم تزل في الحقيقة، فإن قدرة الملك عليها حالة الرخاء كقدرته عليها في وقتها سواء، فإنه خالق الحالتين وأسبابهما وما فيهما، ولكنهم عمي الأبصار أجلاف الطبائع فقال ذاكراً نوعاً آخر من دلائل التوحيد وهو ممزوج بنوع من التخويف : ﴿ قُلْ هُوَ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم سواه من الآلهة ، إذا أنت استفهمتهم ، وسألتهم على جهة التوبيخ لهم والتقرير عمن به يستعينون عند نزول الكرب بهم في البر والبحر أنه ﴿هُوَ ﴾ أي وحده ﴿ٱلْقَادِرُ﴾ على تعذيبكم ، فبين كونه تعالى قادراً على إيصال العذاب إليهم من هذه الطرق المختلفة، فهو القادر ﴿عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ ﴾ على أن يرسل ﴿ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ من الرجمَ أو الطوفان ، وما أشبه ذلك مما ينزل عليهم من فوق رؤوسهم؛ لأنهم قد أقروا أنه هو رفع السماء، فمن قدر على رفع شيء يقدر على إرساله.

﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ ومن تحت أرجلهم، الخسفَ وما أشبهه ، لشرككم به، وادّعائكم معه إلهاً آخر غيره، وكفرانكم نعمه، مع إسباغه عليكم آلاءه ومِنَنه ؛ لأنهم عرفوا أنه بسط الأرض، ومن ملك بسط شيء يملك طيه ويخسف بهم.

فالوهم قد يخيل للإنسان أنه قد يقدر على دفع العذاب من يمين أو شمال! أما العذاب الذي يصب عليه من فوق، أو يأخذه من تحت، فهو عذاب غامر قاهر مزلزل، لا مقاومة له ولا ثبات معه! والتعبير الموحي يتضمن هذا المؤثر القوي في حس الإنسان ووهمه، وهو يقرر حقيقة قدرة الله على أخذ العباد بالعذاب من حيث شاء وكيف شاء.

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤١٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٥٩) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١١١) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٠٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٨) الجواهر الحسان للثعالبي (٢/ ٤٧٧) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٤٣) مع تصرف وإضافة من الباحثة

ويضيف إلى ألوان العذاب الداخلة في قدرة الله والتي قد يأخذ العباد بها متى شاء لوناً آخر بطيئاً طويلاً لا ينهي أمرهم كله في لحظة ولكنه يصاحبهم ويساكنهم ويعايشهم بالليل والنهار ، وهي صورة من العذاب المقيم الطويل المديد الذي يذوقونه بأيديهم، ويجرعونه لأنفسهم "وذلك بعد أن ذكر العذاب الكوني القادم من مصدر خارجي ؛ ذكر نوعاً آخر من العذاب وهو العذاب الاجتماعي الداخلي ، من داخل مجتمعهم – منهم وفيهم – فقال : ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ﴾

أي يلبس عليكم ويخلطكم ﴿شِيَعٗا﴾ فرقاً يتشيع بعضها لبعض، واللبس عبارة عن الخلطة والمقاساة، وإنما عنى بذلك: أو يخلطكم أهواء مختلفة وأحزابًا مفترقة.

فإذا كنتم مختلفين قاتل بعضكم بعضاً ، وبذلك ﴿وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ﴾ بقتل بعضكم بيد بعض.

ولما كان هذا بياناً عظيماً، أشار إلى عظمه بقوله:﴿ٱنظُرۡ﴾ فانظر يا محمد بعين قلبك ، وعظمه تعظيماً آخر بالاستفهام فقال : ﴿كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي أي نكررها موجهة في جميع الوجوه البديعة النافعة البليغة،وترديدنا حججنا على هؤلاء المكذبين بربّهم الجاحدين نعمه، وتصريفنا فيهم الآيات التي حكت البلاء والعذاب في القرآن ونبينها ونوضحها ونقرها ﴿لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾ ليفقهوا ذلك ويعقلوه ويعتبروه، وليفهموا ويتدبروا عن الله آياته وحججه وبراهينه ، وليعلم كل أحد صدقها وحقيقتها أنها من اللَّه جاءت ؛ ليكون حالهم حال من يرجى فهمه وانتفاعه به، فيذّكروا ويزدجروا ويتعظوا ، فينزجروا عما هم عليه مقيمون مما يسخطه الله منهم، من عبادة الأوثان والأصنام، والتكذيب بكتاب الله تعالى ذكره ورسوله ﷺ.[1]

"ولقد عرفت البشرية في فترات كثيرة من تاريخها ذلك اللون من العذاب، كلما انحرفت عن منهج الله وتركت لأهواء البشر ونزواتهم وشهواتهم وجهالتهم وضعفهم وقصورهم.. تصريف الحياة وفق تلك الأهواء والنزوات والشهوات والجهالة والضعف والقصور. وكلما تخبط الناس وهم يضعون أنظمة للحياة وأوضاعاً وشرائع وقوانين وقيماً وموازين من عند أنفسهم يتعبد بها الناس بعضهم بعضاً ويريد بعضهم أن يخضع لأنظمته وأوضاعه وشرائعه وقوانينه البعض الآخر، والبعض الآخر يأبى ويعارض، وأولئك يبطشون بمن يأبى ويعارض. وتتصارع رغباتهم وشهواتهم وأطماعهم وتصوراتهم. فيذوق بعضهم بأس بعض، ويحقد بعضهم على بعض،

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤١٦) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٥٩) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٥٦) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١١٦– ١١٧) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٢٧) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٠٣) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٤٠) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٢٠) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٩) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٧) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٤٤) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١١٢٤) مع تصرف وإضافة من الباحثة

وينكر بعضهم بعضاً، لأنهم لا يفيئون جميعاً إلى ميزان واحد يضعه لهم المعبود الذي يعنو له كل العبيد، حيث لا يجد أحدهم في نفسه استكباراً عن الخضوع له، ولا يحس في نفسه صغاراً حين يخضع له.

إن الفتنة الكبرى في الأرض هي أن يقوم من بين العباد من يدعي حق الألوهية عليهم، ثم يزاول هذا الحق فعلاً! إنها الفتنة التي تجعل الناس شيعاً ملتبسة؛ لأنهم من ناحية المظهر يبدون أمة واحدة أو مجتمعاً واحداً، ولكن من ناحية الحقيقة يكون بعضهم عبيداً لبعض ويكون بعضهم في يده السلطة التي يبطش بها- لأنها غير مقيدة بشريعة من الله- ويكون بعضهم في نفسه الحقد والتربص.. ويذوق الذين يتربصون والذين يبطشون بعضهم بأس بعض!"[(١)]

ثم إنّ الله تعالى ذكره توعَّد بهذه الآية أهلَ الشرك به من عبدة الأوثان، وإياهم خاطبَ بها؛ لأنها بين إخبار عنهم وخطاب لهم، وذلك أنها تتلو قوله : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ويتلوها قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ وغير جائز أن يكون المؤمنون كانوا به مكذبين، فإذا كان غير جائز أن يكون ذلك كذلك، وكانت هذه الآية بين هاتين الآيتين، كان بيّناً أن ذلك وعيدٌ لمن تقدّم وصف الله إياه بالشرك، وتأخر الخبر عنه بالتكذيب ، لا لمن لم يجر له ذكر. غير أن ذلك وإن كان كذلك، فإنه قد عم وعيدُه بذلك كلَّ من سلك سبيلهم من أهل الخلاف على الله وعلى رسوله، والتكذيب بآيات الله من هذه وغيرها[(٢)].

و"ظاهر الآية يدل على أنه تعالى ما صرف هذه الآيات إلا لمن فقه وفهم، فأما من أعرض وتمرد فهو تعالى ما صرف هذه الآيات لهم - والله أعلم - " [(٣)]

---

(١) - في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١١٢٥)

(٢) - وأما الأخبار التي رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:"سألت ربي ثلاثًا، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة"، فجائز أن هذه الآية نزلت في ذلك الوقت وعيدًا لمن ذكرتُ من المشركين، ومن كان على منهاجهم من المخالفين ربهم، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه أن يعيذ أمته مما ابتلى به الأمم الذين استوجبوا من الله تعالى ذكره بمعصيتهم إياه هذه العقوبات، فأعاذهم بدعائه إياه ورغبته إياه، من المعاصي التي يستحقون بها من هذه الخلال الأربع من العقوبات أغلظها، ولم يُعذهم من ذلك ما يستحقون به اثنتين منها.

وأما الذين تأوّلوا أنه عني بجميع ما في هذه الآية هذه الأمة، فإني أراهم تأوّلوا أن في هذه الأمة من سيأتي من معاصي الله وركوب ما يُسخط الله، نحو الذي ركب مَن قبلهم من الأمم السالفة، من خلافه والكفر به، فيحلّ بهم مثل الذي حلّ بمن قبلهم من المثلات والنقمات، وكذلك قال أبو العالية ومن قال بقوله:"جاء منهن اثنتان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة. وبقيت اثنتان، الخسف والمسخ"، وذلك أنه رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:"سيكون في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف وأن قومًا من أمته سيبيتون على لهو ولعب، ثم يصبحون قردة وخنازير. وذلك إذا كان، فلا شك أنه نظير الذي في الأمم الذين عتوا على ربهم في التكذيب وجحدوا آياته. جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤١٦)

(٣) - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٢١)

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. أن من ادعى عِلْمَ الغيب فقد افترى على الله الكذب وظلم نفسه وضل ضلالاً مبيناً .

٢. أن الغَيْبَ عند الله وحده ؛ ومن الغيب الرزقُ ؛ فمن أراد الرزقَ فعليه طلبه ممن يملكه ، وهو سبحانه وتعالى وحده لا شريك له ، نسأل الله من فضله العظيم .

٣. من الملائكة من يحفظ أعمال العباد ، وهم الكرام الكاتبون ؛ ليكون ذلك أزجر للعباد عن ارتكاب الفساد إذا تفكروا أن صحائفهم تقرأ على رؤس الأشهاد[١] .

٤. أن ظاهر هذه الآيات يدل على أن اطلاع هؤلاء الحفظة على الأقوال والأفعال فقط ، أما على صفات القلوب وهي العلم والجهل فليس في هذه الآيات ما يدل على اطلاعهم عليها.[٢]

٥. إن إمهاله تعالى للكفار ليس لغفلة عن كفرهم فإنه أحصى كل شي عدداً وعلمه وأثبته، ولكن ليقضي أجلا مسمى من رزق وحياة، ثم يرجعون إليه فيجازيهم ، وقد دل على الحشر والنشر بالبعث؛ لأن النشأة الثانية منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم في أن من قدر على أحدهما فهو قادر على الآخر[٣].

٦. أن الإنسان لابدّ له من الاستعداد لِلِقَاء ربِّه بالإيمان والعمل الصالح ؛ لأنه لا يعلم متى يأتي أجلُه فقد ثبت عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قَالَ : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بِمَنْكِبي ، فَقَالَ : (كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ) . وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ ، يقول : إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ ، وَإِذَا أَصْبَحتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المسَاءَ ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ[٤] .

٧. اتساق التدبير في كل شيء وآثاره فيه يدل على أنه كان بتدبير واحد؛ لأن آثار التدبير في كل شيء واتساقه على سنن واحد ظاهرة بادية لكل مبصر .[٥]

٨. أن عند حصول هذه الشدائد يأتي الإنسان بأمور:

---

[١] – مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥١٠)

[٢] – مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٤)

[٣] – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٦)

[٤] رواه الإمام البخاري ، كتاب الرقائق ، باب : قول النبي ﷺ { كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل } ، (٤ / ٢٢٣) برقم : (٦٤١٦)

[٥] – تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٠٠)

أحدها: الدعاء ، وثانيها:التضرع ، وثالثها: الإخلاص بالقلب، وهو المراد من قوله: ﴿ وَخُفۡيَةً ﴾ ورابعها: التزام الشكر، وهو المراد من قوله: ﴿ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[1]

٩. عادة أكثر الخلق أنهم إذا شاهدوا الأمر الهائل أخلصوا، وإذا انتقلوا إلى الأمن والرفاهية أشركوا به[2].

١٠. إن الله تعالى يحيط بكل شيء علماً ، وسواه جاهل بذاته ، لا يعلم منها شيئاً إلا بإعلامه عز وعلا، فعلينا أن نفوض إليه إنجازه وعده لرسله بالنصر، ووعيده لأعدائه بالعذاب والقهر، وأن نجزم بأنه لا يخلف وعده رسله وإنما يؤخر تنفيذه إلى الأجل الذي اقتضته حكمته[3].

١١. في الآيات إيماء إلى أن ردهم إلى الله تعالى حتم ؛ لأنه خالقهم الذي يتولى أمورهم ويحكم بينهم بالحق ، وأما تولى بعض العباد أمور بعض بملك الرقبة أو ملك التصرف والسياسة، فمنه ما هو باطل من كل وجه، ومنه ما هو باطل من حيث إنه موقوت لا ثبات له ولا بقاء، وحق من حيث إن مولاهم الحق أقره فى سننه الاجتماعية أو شرائعه المنزلة لمصلحة العباد العارضة مدة حياتهم الدنيا، وقد زال كل ذلك بزوال عالم الدنيا وبقي المولى الحق وحده[4].

١٢. إنه إذا شهدت الفطرة السليمة بأنه لا ملجأ فى هذه الحالة إلا إلى الله ، ولا تعويل إلا على فضله، فالواجب أن يبقى هذا الإخلاص فى جميع الأحوال والأوقات، لكن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة يحيل ذلك إلى الأعمال الجسمانية أو إلى نحو ذلك من الأسباب ويعود إلى الشرك فى العبادة ولا يوفّى بالعهد[5].

١٣. التنبيه إلى أن من أشرك فى عبادته تعالى غيره فكأنه لم يعبده رأساً، فالتوحيد ملاك الأمر وأساس العبادة[6].

١٤. أن عاقبة كفران النعم، أن تزول وتحل محلها النقم، وأنه يمهل ولا يهمل، بل يأخذهم أخذ عزيز مقتدر[7].

١٥. إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول، وعالم الغيب وعالم الشهود، وهو يتبع ظلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح، ووراء حدود هذا الكون

---

[1] – مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٢٠)

[2] – المرجع السابق (١٣/ ٢٠)

[3] – تفسير المراغي (٧/ ١٤٤)

[4] – المرجع السابق (٧/ ١٥٠)

[5] – المرجع السابق (٧/ ١٥٢)

[6] – المرجع السابق (٧/ ١٥٢)

[7] – المرجع السابق (٧/ ١٥٣)

المشهود.. وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فج وواد. وهو يرتاد- أو يحاول أن يرتاد- أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل البعيدة الآماد والآفاق والأغوار.. مفاتحها كلها عند الله لا يعلمها إلا هو[١].

١٦. عند الغيب يقف العلم وقفة التسليم، الذي لا يخرج عنه إلا من يؤثرون المراء على «العلم» والتبجح على الإخلاص [٢].

١٧. إن هنالك سنناً ثابتة لهذا الكون يملك الإنسان أن يعرف منها القدر اللازم له، حسب طاقته وحسب حاجته، للقيام بالخلافة في هذه الأرض. وقد أودعه الله القدرة على معرفة هذا القدر من السنن الكونية وعلى تسخير قوى الكون وفق هذه السنن للنهوض بالخلافة، وتعمير الأرض، وترقية الحياة، والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاتها [٣].

١٨. الإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها «الفرد» فيتجاوز مرتبة «الحيوان» الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة «الإنسان» الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدود الذي تدركه الحواس- أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس- وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله، ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود وفي إحساسه بالكون، وما وراء الكون من قدرة وتدبير. كما أنها بعيدة الآثر في حياته على الأرض. فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود وأن وراء الكون.. ظاهره وخافيه.. حقيقة أكبر من الكون، هي التي صدر عنها، واستمد من وجودها وجوده.. حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار، ولا تحيط بها العقول.[٤]

١٩. الحقيقة التي ينطق بها واقع الناس- مهما ترك لهم من الحرية ليتصرفوا، ومن العلم ليعرفوا، ومن القدرة ليقوموا بالخلافة- هي أن كل نفس من أنفاسهم بقدر وكل حركة في كيانهم خاضعة لسلطان الله بما أودعه في كيانهم من شريعة لا يملكون أن يخالفوها ، وإن كانت هذه الشريعة تجري في كل مرة بقدر خاص حتى في النفس والحركة[٥] .

---

(١) – في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١١١٢)

(٢) – المرجع السابق (٢/ ١١١٦)

(٣) – المرجع السابق (٢/ ١١١٩)

(٤) – المرجع السابق (٢/ ١١٢٠)

(٥) – المرجع السابق (٢/ ١١٢٢)

٢٠. هناك حفيظ على النفس الإنسانية رقيب يحصي كل حركة وكل نأمة ويحفظ ما يصدر عنها لا يند عنه شيء، وهذا التصور كفيل بأن ينتفض له الكيان البشري وتستيقظ فيه كل خالجة وكل جارحة .[1]

٢١. كل نفس معدودة الأنفاس، متروكة لأجل لا تعلمه- فهو مرسوم محدد في علم الله، لا يتقدم ولا يتأخر ، وكل نفس موكل بأنفاسها ، وأجلها حفيظ قريب مباشر حاضر، ولا يغفو ولا يغفل ولا يهمل- فهو حفيظ من الحفظة- وهو رسول من الملائكة- فإذا جاءت اللحظة المرسومة الموعودة- والنفس غافلة مشغولة- أدى الحفيظ مهمته، وقام الرسول برسالته.. وهذا التصور كفيل كذلك بأن يرتعش له الكيان البشري وهو يحس بالقدر الغيبي يحيط به ويعرف أنه في كل لحظة قد يُقبض، وفي كل نفس قد يحين الأجل المحتوم[2].

٢٢. إن الحساب والجزاء والحكم في الآخرة، إنما يقوم على عمل الناس في الدنيا ولا يحاسب الناس على ما اجترحوا في الدنيا إلا أن تكون هناك شريعة من الله تعين لهم ما يحل وما يحرم، مما يحاسبون يوم القيامة على أساسه وتوحد الحاكمية في الدنيا والآخرة على هذا الأساس[3].

٢٣. من رحمة الله أن منع عنا الاختيار في بعض الأمور التي تمس حياتنا. ومن رحمة الله أن كلاً منا مقهور فيها، فمن يستطيع أن يقول لمعدته: اهضمي الطعام؟ ومن يستطيع أن يأمر الكلى بالعمل؟!! [4].

٢٤. أن الإنسان بطبيعته عندما يجد حياته مكتفية بما يملكه قد يقع فيما قاله الحق تبارك وتعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦ - ٧] والإنسان قد يتجاوز حدوده ويتكبر على من حوله، بل وعلى ربه إن رأى نفسه صاحب ثراء، ولا يعصم الإنسان من مثل هذا الموقف إلا الإيمان بالله؛ لأن الإنسان بدون منهج الله يسبح في بحر الغرور والتكبر، ولكن من يحيا في ضوء منهج الله فهو يعرف كيف يراعي الله في كل إمكانات أو ثراء يمنحه له الله، وينشر معونته ليستظل بها المحتاج غير الواحد. ولذلك نجد أن كلمة «الإنسان» إذا أُطلقت تقترن بالخسارة ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴾ [العصر: ١ - ٢][5].

---

(١) - المرجع السابق (٢/ ١١٢٢)

(٢) - المرجع السابق (٢/ ١١٢٣)

(٣) - المرجع السابق (٢/ ١١٢٣)

(٤) - تفسير الشعراوي (٦/ ٣٦٧٩)

(٥) - المرجع السابق (٦/ ٣٦٩٦)

٢٥. كل أمر مقهور فيه الإنسان، هو فيه منقاد لله ولا اختيار له. أما الأمر الذي لك فيه اختيار فهو مناط التكليف[١].

٢٦. الإنسان المعزول عن منهج الله هو الذي يحيا في خسران، لكن من يعيش في رحاب المنهج هو الذي لا يخسر أبداً [٢].

٢٧. القاعدة أنه لا يوجد صراع بين حقين؛ لأنه لا يوجد في الأمر الواحد إلا حق واحد. ولا يطول أبداً الصراع بين الحق والباطل؛ لأن الباطل زهوق وزائل. ولكن الصراع إنما يطول بين باطلين؛ لأن أحدهما ليس أولى من الآخر بأن ينصره الله. [٣]

٢٨. ينوع سبحانه الحجج والبراهين ويأتي لهم بالأحداث والنوازل حتى يتبين للجميع أنه لا راحة أبداً في الانفلات عن منهج الله حتى يفقهوا. والفقه هو شدة الفهم. والمقصود أن نأخذ ونتفهم العظة من كل الآيات التي يجريها الحق أمامنا عسانا نرجع إلى مراد الله.[٤]

٢٩. كتاب المقادير حوى كل شيء حتى سقوط الورقة من الشجرة وعلم الله بذلك[٥].

٣٠. صحة إطلاق الوفاة على النوم، وبهذا فسر قوله تعالى لعيسى : ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [سورة آل عمران : ٥٥][٦].

٣١. لا برهان أعظم على بطلان الشرك من أن المشركين يخلصون الدعاء لله تعالى في حال الشدة .[٧]

٣٢. إمهاله تعالى للكفار ليس لغفلة عن كفرهم، فإنه أحصى كل شيء عددا، وعلمه وأثبته، ولكن ليقضي أجلاً مسمى من رزق وحياة، ثم يرجعون إليه فيجازيهم[٨].

٣٣. دلت الآية على الحشر والنشر بالبعث؛ لأن النشأة الثانية منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم ، وأن من قدر على أحدهما فهو قادر على الآخر[٩].

---

[١] – المرجع السابق (٦/ ٣٦٧٩)

[٢] – المرجع السابق (٦/ ٣٦٩٧)

[٣] – المرجع السابق (٦/ ٣٦٩٩)

[٤] – المرجع السابق (٦/ ٣٧٠٠)

[٥] – أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٧١)

[٦] – المرجع السابق (٢/ ٧١)

[٧] – المرجع السابق (٢/ ٧٣)

[٨] – التفسير المنير للزحيلي (٧/ ٢٣٤)

[٩] – المرجع السابق (٧/ ٢٣٤)

٣٤. في تحديد الأجل المسمى للحياة والرجوع إلى الله تعالى للحساب والجزاء تأييد لما تقدم من حكمة تأخير ما كان يستعجله مشركو مكة من العذاب، وأن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، فمن نجا من الأول لم يسلم من الآخر[1].

٣٥. الحكم المطلق لله وحده يوم القيامة، أي القضاء والفصل، والله أسرع الحاسبين، أي لا يحتاج إلى فكرة وروية[2].

---

[1] - المرجع السابق (٧/ ٢٣٤)

[2] - المرجع السابق (٧/ ٢٣٥)

المطلب السادس : موقف المشركين مما دعاهم إليه النبي ﷺ وما يجب أن يكونوا عليه (٦٦ – ٧٣)

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٦٧ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٦٩ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠ قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٧٢ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٧٣﴾

أولا : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

بين الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أنه سبحانه وتعالى هو الذي يلجأ إليه عند الشدة، وأنهم يلجئون إليه ويدعونه تضرعا وخفية في ظلمات البر والبحر، وأنه هو وحده المنجي، ولا منجي سواه، وأنه سبحانه منزل الشدائد، وهم بعد زوال الغمة بدل أن يوفوا بعهودهم ويشكروا نعمة الله باختصاصه بالعبادة، كما اختص بالإنجاء والابتلاء – يشركون غيره ممن لا يضر ولا ينفع، وفى هذه يقرر موقفهم من الحق، وخوضهم في أمره بالباطل مما يدل على أن سبب ضلالهم أنهم لا ينظرون في قضية العبادة نظرة جادة تتكافأ مع مقدار الجلال في الحقائق الدينية والمعاني الإلهية، ولذلك لا تنافذ بصائرهم، ولا تهتدي قلوبهم، بل هم في غي دائم حتى يسترشدوا فيرشدوا ويطلبوا الحق فيهتدوا.

فجاءت الآيات لتقرير المفاصلة التي انتهت بها الموجة السابقة مع هذا التصريف في بيان الآيات، بذكر النعمة التي يلجأون إلى طلبها دون سواه، وبيان القدرة الكاملة الشاملة، وبيان أنه الذي ينزل الابتلاء، والعذاب الدنيوي ليقيسوا عليه من بعد العذاب الأخروي.

حيث إن كثيراً من الناس ضلّوا عنها، وكفروا بها، وأنكروا الواقع المحسوس الذي يجابه حواسّهم من نورها السنيّ، وأريجها العطر ، مع كل ما تقدم من تيسير أمور الدين ، وتسهيل السبل للوصول إليه مع وضوح الحجج والبراهين .

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ يعطيه، ويعطي المؤمنين من ورائه، الثقة التي تملأ القلب بالطمأنينة. الثقة بالحق– ولو كذب به قومه وأصروا على التكذيب– فما هم بالحكم في هذا الأمر، إنما كلمة الفصل فيه لله سبحانه. وهو يقرر أنه الحق. وأن لا قيمة ولا وزن لتكذيب القوم! (1)

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾وكذب يا محمد قومك بما تقول وتخبر في هذا القرآن المشتمل على الوعد والوعيد، والأسباب المبينة للخلق جميع ما ينفعهم ليلزموه وما يضرهم ليحذره ﴿قَوۡمُكَ﴾ الذين من حقهم أن يقوموا بجميع أمرك ويسروا بسيادتك، فإن القبيلة إذا ساد أحدها عزت به، فإن عزه عزها وشرفه شرفها، ولا سيما إذا كان من بيت الشرف ومعدن السيادة، وإذا سفل أحدها اهتمت به غاية الاهتمام وسترت عيوبه مهما أمكنها ، فإن عاره لاحق بها، فهو من عظيم التوبيخ لهم ودقيق التقريع، وزاد ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ﴾الوعيدُ الذي أوعدناهم على مقامهم على شركهم؛ من بعث العذاب من فوقهم، أو من تحت أرجلهم، أو لبسهم شيعًا، وإذاقة بعضهم بأس بعض ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ الثابت الذي لا يضره التكذيب به ولا يمكن زواله ، ولقد كذب به قومك وهم أحق أن يصدقوك بما جئت به وأنبأتهم؛ لأنك نشأت بين أظهرهم، فلم تأت كذباً قط، ولا رأوك تختلف إلى أحد يعلمك، فهم أحق أن يصدقوك بما جئت به ، وأنبأتهم بأمر لا شك فيه أنه واقع إن هم لم يتوبوا وينيبوا مما هم عليه مقيمون من معصية الله والشرك به، إلى طاعة الله والإيمان به .

ولما كان الإنسان ربما حصل له اللوم بسبب قومه كان ﷺ في هذا المقام بمعرض أن يخاف عاقبة ذلك ويقول: فماذا أصنع بهم؟ فقال تعالى معلماً أنه ليس عليه بأس من تكذيبهم: ﴿قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ أي حفيظ ورقيب ؛ لأقهركم على الرد عما أنتم فيه، حتى أجازيكم على تكذيبكم وإعراضكم عن قبول الدلائل، إنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم ، وأدعوكم إلى الله وإلى شريعته، ولم أؤمر بحربكم ولا أخذكم بالإيمان كما يؤخذ الموكل بالشيء يلزم ببلوغ آخره ، إنما أُطالبكم بالظواهر من الإقرار والعمل، لا

(1) – انظر : تفسير المراغي (٧/ ١٥٦) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١١٢٦ – ١١٢٧) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ٢٠٧) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٥٤٠ – ٢٥٤١)

بالأسرار ، وعليكم السمع والطاعة، فمن اتبعني، سعد في الدنيا والآخرة، ومن خالفني، فقد شقي في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾.[1]

حيث إنهم لما كانوا بصدد أن يقولوا تهكماً: كن كذلك، فلا علينا منك! قال مهدداً : ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾لكل خبر أخبرتكم به من هذه الأخبار العظيمة مستقر، يعني قرار يستقرّ عنده، ونهاية ينتهي إليه، فيتبين حقه وصدقه، من كذبه وباطله ، من غير خلف ولا تأخير ، إما في الدنيا وإما في الآخرة، ولكل عمل جزاء فمن عمل عملاً من الخير جوزي به الجنة، ومن عمل عمل سوء جوزي به النار، ثم قال مهدداً بما يشعر صدق وقوع ما يهددهم به ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فيه تهديد محض ووعيد ؛ فيا أيها المشركون المكذبون ما كان في الدنيا فستعرفونه، وما كان في الآخرة ، كل ذلك سوف يبدو لكم والذي يخبر بصحة ما أخبركم به من وعيد الله إياكم، وحقيقته عند حلول عذابه بكم ، ومحط خبره العظيم بوعد صادق لا خلف فيه وإن تأخر وقوعه[2].

ولما قال تعالى :﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بين به أن الذين يكذبون بهذا الدين، وأنه لا يجب على الرسول ﷺ أن يلازمهم ، وأن يكون حفيظاً عليهم ، ثم بين في هذه الآية أن أولئك المكذبين إن ضموا إلى كفرهم وتكذيبهم الاستهزاء بالدين والطعن في الرسول فإنه يجب الاحتراز عن مقارنتهم وترك مجالستهم، فيقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ يا محمد المشركين ﴿ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ التي أنزلناها إليك، ووحينا الذي أوحيناه إليك، و"خوضهم فيها"، كان استهزاءَهم بها وردها ، وسبَّهم من أنزلها وتكلم بها، وتكذيبهم بها ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فصد عنهم بوجهك، وقم عنهم، ولا تجلس معهم ، ولما كان الخوض في الآيات دالاً على قلة العقل قال: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ حتى يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بآيات الله من حديثهم بينهم ، فحكم على حديثهم فيما سوى ذلك أيضاً بالخوض؛ لأن فيه الغث والسمين، وغير مقيد بنظام الشرع.

ولما كان الله تعالى – وله الحمد – قد رفع حكم النسيان عن هذه الأمة، قال مؤكداً: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وإن أنساك الشيطان نهينا إياك عن الجلوس معهم والإعراض عنهم في حال خوضهم

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٣٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٦٠) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١١٧) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٤١) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٢١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٧) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٤٥)

[2] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٣٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٦٠) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ١٥٦) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٨٥) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ١٣٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٠٣) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٤٥) مع تصرف وإضافة من الباحثة .

في آياتنا، ثم ذكرت ذلك، فقهم عنهم بعد أن ذكرنا لك قبحها ونبهناك عليه ، ولا ﴿ تَقۡعُدۡ ﴾ بعد ذكرك ذلك ﴿مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين خاضوا في غير الذي لهم الخوضُ فيه بما خاضوا به فيه ، ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله : ﴿مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للدلالة على أنهم ظلموا بوضع التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والاستعظام[1].

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾وما عليك أيها النبي وعلى المؤمنين ﴿مِنۡ حِسَابِهِم﴾من كفرهم ومخالفتهم أمر الله ، إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك، فقد برئوا من عهدتهم، وتخلصوا من إثمهم ، حيث إنه من اتقى الله وخافه، وأطاعه فيما أمره به، واجتنب ما نهاه عنه، فليس عليه بترك الإعراض عن هؤلاء الخائضين في آيات الله في حال خوضهم في آيات الله، ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ من تبعة فيما بينه وبين الله، إذا لم يكن تركه الإعراضَ عنهم رضًا بما هم فيه، وكان لله بحقوقه متقياً، ولا عليه من إثمهم بذلك حرج، ﴿وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ولكن ليعرضوا عنهم حينئذ ذكرى لأمر الله ، وعليهم أن يذكروهم، ويمنعوهم عن الخوض وغيره من القبائح ويظهروا كراهتها ، فلم ينهى المؤمنين عن مجالستهم؛ إلا ليمتنعوا عن صنيعهم حياء منهم؛ لأنهم لو امتنعوا عن مجالستهم فيمنعهم ذلك عن الاستهزاء بها والكفر بها، لما كانوا يرغبون في مجالسة المؤمنين، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾لترجى منهم التقوى فيتقوا الوعيد والتهديد جزاء الاستهزاء والتكذيب إذا أنتم وعظتوهم ، فيتذكرون عند قيامهم عنهم، فيتقون الخوض والاستهزاء، ولا يخافون أن يعرفوا في الناس بترك مجالستهم المؤمنين، فيحملهم ذلك على الكف عن الاستهزاء بالآيات وبرسول الله ﷺ ، وينبغي للمؤمن أن يمتثل حكم هذه الآية مع الملحدين وأهل الجدال والخوض فيه[2].

ولما أبرز هذا الأمر في صيغة النهي، أعاده بصيغة الأمر اهتماماً به وتأكيداً له، وأظهر لهم وصفاً آخر هو غاية الوصف الأول مع ما ضم إليه من الإرشاد إلى الإنقاذ من المعاطب فقال: ﴿ وَذَرِ ﴾ الذين كلفوا أنفسهم في اتباع الهوى بمخالفة العقل المستقيم ، والطبع الفطري السليم بأن أخذوا ﴿دِينَهُمۡ﴾دين الله وطاعتهم إياه لعبًا ولهوًا على نمط الأسخف من دنياهم ، ولا تعلق قلبك بهم فإنهم أهل تعنت إن كنت مأموراً بوعظهم ، ولا تبال بأفعالهم وأقوالهم ،وأعرض عنهم ولا تقم لهم في نظرك وزناً ، فهم جعلوا حظوظهم من طاعتهم إياه اللعب بآياته والتلاعب بها ، واللهوَ والاستهزاء بها إذا سمعوها وتليت عليهم، فأعرض عنهم،

(1) — انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٣٦) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٢٠) الكشاف للزمخشري (٢/ ٣٥) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٠٥) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٢٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ١٢) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٦٧)

(2) — انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٣٩) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٦١) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ١٥٧) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٦٧) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٨)

ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تشغل قلبك بهم ، فإني لهم بالمرصاد، وإني لهم من وراء الانتقام منهم والعقوبة لهم على ما يفعلون، وعلى اغترارهم بزينة الحياة الدنيا، ونسيانهم المعادَ إلى الله تعالى ذكره والمصيرَ إليه بعد الممات، فهم لم يتخذوا دين الله لهم ديناً بل اتخذوا اللعب واللهو دينهم؛ حتى لا يفارقوا اللعب واللهو؛ لأن الدِّين إنما يتخذ للأبد، فعلى ذلك اتخذ أُولَئِكَ اللعب واللهو للأبد كالدِّين ، من ذلك عبادة ما لا ينفع ولا يضر، ولا يبصر ولا يسمع ولا يعلم، واتخذوا ما هوته أنفسهم، ودعتهم الشياطين إليه، ومن اتخذ كل ذلك فهو عابث لاعب. فصار دينهم لعبًا وعبثًا؛ فكانوا لا يؤمنون بالبعث، ومن لم يقصد بدينه الذي دان به عاقبة فهو عابث مبطل .

ولما كان ربما قيل: إنهم إذا انقضى اللعب عادوا إلى الاشتغال بالدين، أتبعه الباعث عليه إشارة إلى أنه كلما ملوا اللعب بعثوا النفوس إليه باللهو .

وإنما اتخذوا دينهم لعبا ولهوا لأجل أنهم ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فلأجل استيلاء حب الدنيا على قلوبهم أعرضوا عن حقيقة الدين ، واقتصروا على تزيين الظواهر؛ ليتوسلوا بها إلى حطام الدنيا؛ لذا أتبعه بقوله : ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ اغتروا بالحياة الدنيا؛ فشغلهم ما اختاروا منها والميل إليها عن النظر في الآيات والبراهين والحجج، والغرور هو الإطماع بما لا يتحصل فاغتروا بنعم الله ورزقه وإمهاله وطمعهم ذلك فيما لا يتحصل من رحمته.

ثم بين واجب النبوة تجاه هذا الذي غرته الحياة الدنيا فقال: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ فإنه يعني به: وذكّر، يا محمد، بالله وما جاء من عنده وهو القرآن هؤلاء المولّين عنك وعنه ، والذين الذي يجب عليهم أن يتدينوا به ويعتقدوا صحته ، وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة. ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ مخافة أن تسلم إلى الهلكة والعذاب ، وترتهن بسوء كسبها وتستسلم لعلمها أنها لا تقدر على التخلص مما هي فيه ، فذكرهم به ليؤمنوا ويتبعوا ما جاءهم من عند الله من الحق، إذا وقع في العذاب، ف ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ لم يكن لها مانع يمنعها ويخلصها من العذاب وَلا شَفِيعٌ يشفع لها ، كما يكون بعضهم شفيعاً لبعض في الدنيا، وأعواناً لهم وأنصاراً في دفع المضار والمظالم عنهم، وجر المنافع إليهم، وأما في الآخرة: فإن كل نفس تسلم بما كسبت، لا شفيع لها ولا ولي .

ولما استنفد المنقذات الخارجية المخلّصة له من العذاب أتبعه بالفداء الذي هو من أسباب الخلاص فقال ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ كل فداء ، فلو جاءت بعدل نفسها رجلاً مكانها ، أو يفتدي بما في الأرض جميعاً ، وفدوا أنفسهم من عذاب الله يوم القيامة كل فداء لم يؤخذ منهم ، وإن عملت كل عمل البر والخير من الفداء والتوبة ؛ لأجل التوصل إلى الفكاك لم يقبل منها ذلك؛ فالدار الآخرة ليست بدار العمل، ولا يقبل فيها الرشا كما تقبل في الدنيا، وأخبر ألا يكون شفعاء يشفعون لهم، ولا أولياء ينصرونهم،

ليس كالدنيا؛ لأن من أصابه في هذه الدنيا شيء، أو حل به عذاب أو غرامة – فإنما يدفع بإحدى هذه الخلال الثلاثة، إما بشفعاء يشفعونه، أو بأولياء ينصرونه، أو بالرشا، فأخبر أن الآخرة ليست بدار تقبل فيها الرشا، فتدفع ما حل بهم، أو أولياء ينصرونهم في دفع ذلك عنهم، أو شفعاء يشفعونهم ، ثم بين حالهم وما كان من مآلهم فقال : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾ أسلموا أنفسهم لعذاب الله، فرهنوا به جزاءً بما كسبوا في الدنيا ، وأهلكوا أنفسهم بسبب الآثام والأوزار وأعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة.

وفي هذا بيان أن وجوه الخلاص على تلك النفس منسدة، فلا ولي يتولى دفع ذلك المحذور، ولا شفيع يشفع فيها، ولا فدية تقبل ليحصل الخلاص بسبب قبولها حتى لو جعلت الدنيا بأسرها فدية من عذاب الله لم تنفع ، فإذا كانت وجوه الخلاص هي هذه الثلاثة في الدنيا، وثبت أنها لا تفيد في الآخرة البتة، وظهر أنه ليس هناك إلا الإبسال الذي هو الارتهان والانغلاق والاستسلام، فليس لها البتة دافع من عذاب الله تعالى، وإذا تصور المرء كيفية العقاب على هذا الوجه يكاد يرعد إذا أقدم على معاصي الله تعالى.

ثم إنه تعالى بين ما به صاروا مرتهنين وعليه محبوسين، بين الجزاء الأخروي نتيجة خسرانهم أنفسهم فقال : ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ وذلك هو النهاية في صفة الإيلام ، فكان عذابهم بأن لهم شرابٌ من حميم. و"الحميم" هو الماء الحارّ، المغلي يتجرجر في بطونهم ونار تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم.

وإنما جعل تعالى ذكره لهؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآية شرابًا من حميم ؛ لأن الحارّ من الماء لا يروي من عطش ، فأخبر أنهم إذا عطشوا في جهنم لم يغاثوا بماء يرويهم، ولكن بما يزيدون به عطشاً على ما بهم من العطش ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾ ولهم أيضًا مع الشراب الحميم من الله العذابُ الأليم والهوان المقيم ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ يجددون من تغطية الآيات بما كان من كفرهم في الدنيا بالله، وإنكارهم توحيده، وعبادتهم معه آلهة دونه.

ولعله ذكر نوع العذاب هذا دون غيره في هذا الموضع لما كان من حالهم أنهم كانوا يأكلون ويشربون كما الأنعام بل وأضل .[1]

ولما تقرر أن غير الله لا يمنع من الله بنوع، لا آلهتهم التي زعموا أنها شفعاؤهم ولا غيرها، ثبت أنهم على غاية البينة من أن كل ما سواه لا ينفع شيئاً ولا يضر، وجاء تنبيه من الله تعالى ذكره نبيه ﷺ على حجته على مشركي قومه من عبدة الأوثان ، فكان في غاية التبكيت لهم بعد ما أقام من الأدلة على أنه ليس لأحد

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٤١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٦١) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٢٠) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٥٨) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢٠٦٣) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ١٣٣) الكشاف للزمخشري (٢/ ٣٦) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٠٥) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٢٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ١٥) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٦٧) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٩) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٤٧) مع تصرف وإضافة من الباحثة .

مع الله أمر، قال منكراً عليهم موبخاً لهم : ﴿ قُلْ ﴾يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثانَ والأنداد، والآمرين لك باتباع دينهم وعبادة الأصنام معهم: ﴿أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حجرًا أو خشبًا لا يقدر على نفعنا إن دعوناه أو ضرنا إن تركناه ، فنخصه بالعبادة دون الله، وندع عبادة الذي بيده الضر والنفع والحياة والموت، إن كنتم تعقلون فتميزون بين الخير والشر؟ فلا شك أنكم تعلمون أن عبادة ما يرتجى نفعه ويرهب ضره، أحق وأولى من عبادة من لا يرجى نفعه ولا يخشى ضره!.

ولما ذكر عدم المنفعة في دعائهم، أشار إلى وجود الخسارة في رجائهم فقال: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا ﴾ ونرد إلى أدبارنا، فنرجع القهقري خلفنا، لم نظفر بحاجتنا، ونرد من الإسلام إلى الكفر ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ الذي لا خير إلا وهو عنده ، ولا ضر إلا وهو قادر عليه، ورزقنا الإسلام ووفقنا له ، وأنقذنا من الشرك والكفر والضلال .

ولما صور حالهم، مثَّلَه فيكون مثلكم في ذلك مثل الرجل الذي ﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ استدعت هواه وأمالته واستتبعته ، وطلبت نزوله عن درجته ، وزينت له الشياطين هواه، فأنزلته عن أفق مقصده إلى حضيض معطبه، شبه حاله بحال من سقط من عال في مهواة مظلمة ، فهو في حال هويه في غاية الاضطراب ، وتحقق التلف والعمى عن الخلاص ، يهوي ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ ﴾ في الأرض حيران قد بلغ غاية الاضطراب والضعف والدهشة. ﴿لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ ﴾ إلى المحجة لطريق الهدى الذي هم عليه، يقولون له: ﴿ٱئۡتِنَا ﴾

وهذا مثل ضربه الله تعالى ذكره لمن كفَر بالله بعد إيمانه، فاتبع الشياطين، من أهل الشرك بالله وأصحابه الذين كانوا أصحابه في حال إسلامه، المقيمون على الدين الحق، يدعونه إلى الهدى الذي هم عليه مقيمون، والصواب الذي هم به متمسكون، وهو له مفارق وعنه زائل، يقولون له:﴿ٱئۡتِنَا﴾ فكن معنا على استقامة وهدى! وهو يأبى ذلك، ويتبع دواعي الشيطان، ويعبد الآلهة والأوثان.

فما من أحد: من مشرك ومؤمن، إلا وله أصحاب يدعونه: أما المؤمن: فله أصحاب من الملائكة يدعونه إلى الهدى، والكافر: له شياطين يدعونه إلى الشرك؛ فرد على من دعا إلى عبادة الأصنام، وزجر عن إجابته، وقال : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان، الذين قال لهم أصحابهم في الغواية : إنا على هدى ، وليس الأمر كما زعمتم بل ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ ﴾ إن طريق الله الذي بينه لنا وأوضحه، وسبيلنا الذي أمرنا بلزومه، ودينه الذي شرعه لنا فبينه، هو الهدى الكامل النافع الشريف ، والاستقامة التي لا شك فيها، لا عبادة الأوثان والأصنام التي لا تضر ولا تنفع، فلا نترك الحق ونتبع الباطل

﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾وأمرَنا ربنا وربّ كل شيء تعالى وجهه لنسلم له ، و لنخضع له بالذلة والطاعة والعبودية، فنخلص ذلك له دون ما سواه من الأنداد والآلهة[1].[2]

والله سبحانه لما بين أولاً أن الهدى النافع هو هدى الله، أردف ذلك الكلام الكلي بذكر أشرف أقسامه على الترتيب وهو الإسلام الذي هو رئيس الطاعات الروحانية، والصلاة التي هي رئيسة الطاعات الجسمانية، والتقوى التي هي رئيسة لباب التروك والاحتراز عن كل ما لا ينبغي، فأمرنا بملازمة محل المناجاة لأن اللسان إن تعوّد نجوى السلطان متى ينطق بمكالمة الأخسّ؟! وذلك بأداء الصلاة المفروضة عليكم، والإذعان له بالطاعة، وإخلاص العبادة له فقال : ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ واتقوا رب العالمين الذي أمرنا أن نسلم له، فخافوه واحذروا سَخطه ، وخرجت بلفظ الأمر لما في ذلك من جزالة اللفظ ، ثم بين موطن ظهور منافع هذه الأعمال فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وهو الذي إليه تحشرون يعني أن منافع هذه الأعمال إنما تظهر في يوم الحشر والبعث والقيامة ، فإن أهم ما يدعوكم إلى تقواه أنكم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فتجمعون يوم القيامة، فيجازي كلَّ عامل منكم بعمله، وتوفي كل نفس ما كسبت.

والكافر ما دام يبقي على كفره ، كان كالغائب الأجنبي فلا جرم يخاطب بخطاب الغائبين ، فيقال له: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾وإذا أسلم وآمن ودخل في الإيمان صار كالقريب الحاضر، فلا جرم يخاطب بخطاب الحاضرين، ويقال له: ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ فالمقصود من ذكر هذين النوعين من الخطاب التنبيه على الفرق بين حالتي الكفر والإيمان، وتقريره أن الكافر بعيد غائب والمؤمن قريب حاضر.[3]

---

(1) – يقول الإمام فخر الدين الرازي : "واعلم أن هذا المثل في غاية الحسن، وذلك لأن الذي يهوي من المكان العالي إلى الوهدة العميقة يهوي إليها مع الاستدارة على نفسه، لأن الحجر حال نزوله من الأعلى إلى الأسفل ينزل على الاستدارة، وذلك يوجب كمال التردد، والتحير، وأيضا فعند نزوله لا يعرف أنه يسقط على موضع يزداد بلاؤه بسبب سقوطه عليه أو يقل، فإذا اعتبرت مجموع هذه الأحوال علمت أنك لا تجد مثالا للمتحير المتردد الخائف أحسن ولا أكمل من هذا المثال" مفاتيح الغيب (١٣/ ٢٦)

وقال : " واعلم أن قوله: إن هدى الله هو الهدى دخل فيه جميع أقسام المأمورات والاحتراز عن كل المنهيات، وتقرير الكلام أن كل ما تعلق أمر الله به، فإما أن يكون من باب الأفعال، وإما أن يكون من باب المتروك " مفاتيح الغيب (١٣/ ٢٦)

(2) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٥٠) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٢٥) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٨٧) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٠٦) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٢٥) فوفقنا له أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٦٨) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥١٤) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٥٠)

(3) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٥٧) لطائف الإشارات للقشيري (١/ ٤٨٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٠٨) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٢٦)

ولما بين في الآيات المتقدمة فساد طريقة عبدة الأصنام، ذكر هاهنا ما يدل على أنه لا معبود إلا الله وحده، بين صفة من صفات ذلك الرب فقال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ لا من لا ينفع ولا يضر، ولا يسمع ولا يبصر.

إن الله تعالى ذكره أخبرَ أنه المنفرد بخلق السماوات والأرض دون كل ما سواه، معرِّفًا من أشرك به من خلقه جهلَه في عبادة الأوثان والأصنام، وخطأ ما هم عليه مقيمون من عبادة ما لا يضر ولا ينفع، ولا يقدر على اجتلاب نفع إلى نفسه، ولا دفع ضر عنها ، ومحتجًّا عليهم في إنكارهم البعثَ بعد الممات والثوابَ والعقاب، بقدرته على ابتداع ذلك ابتداءً، وأن الذي ابتدع ذلك غير متعذر عليه إفناؤه ثم إعادته بعد إفنائه، فقال:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ ابتدع وأخرج من العدم إلى الوجود ، ﴿بِٱلْحَقِّ ﴾ لإظهار الحق؛ لأنه جعل صنعه دليلاً على وحدانيته ، فلم يخلقهما باطلاً ، بل ليمتحن فيهما ، ولها معان مفيدة ، وحقائق بينة منها ما يحسه البشر من الاستدلال بها على الصانع ، ونزول الأرزاق ، وللدلالة على أن لهما خالقاً ومدبراً، والدلالة على أن مدبرهما ومنشئهما واحد، فإذا كان كذلك كان خلقهما بالحق بالحكمة والعلم.

وفي ذلك حجة على خلقه، ليعرفوا بها صانعها، وليستدلُّوا بها على عظيم قدرته وسلطانه، فيخلصوا له العبادة إلى أن يأتي اليوم الموعود وذلك ما دل عليه قوله : ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ﴾ ويوم يقول حين تبدل الأرض غير الأرض والسماوات كذلك: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴾ كما شاء تعالى ذكره، فتكون الأرض غير الأرض ، ويوم يقول للخلق موتوا فيموتون ، وانتشروا فينتشرون ، كأنه يأمر الحياة فتكون فيهم، والموت فيحل ويفنى جميع الخلق ، وذكر هذا لسرعة نفاذ البعث .

﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ﴾ قوله الحق الصدق الكائن الواقع لا محالة، ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ فإنه خُصّ بالخبر عن ملكه يومئذ، وإن كان الملك له خالصاً في كل وقت في الدنيا والآخرة ؛ لأنه عنى تعالى ذكره أنه لا منازع له فيه يومئذ ولا مدّعي له، وأنه المنفرد به دون كل من كان ينازعه فيه في الدنيا من الجبابرة، فأذعن جميعهم يومئذ له به، وعلموا أنهم كانوا من دعواهم في الدنيا في باطل ، والصور أخبر عنه ﷺ حيث قال : (الصور قرن ينفخ فيه)[١] .

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ عالم ما تعاينون أيها الناس، فتشاهدونه، وما يغيب عن حواسكم وأبصاركم فلا تحسونه ولا تبصرونه ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ﴾ المراد من كونه حكيماً أن يكون مصيباً في أفعاله وفي تدبيره وتصريفه لخلقه من حال الوجود إلى العدم، ثم من حال العدم والفناء إلى الوجود، ثم في مجازاتهم

---

[١] – أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين في تفسير سورة الزمر : (٢/ ٤٧٣) برقم : (٣٦٣١) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

بما يجازيهم به من ثواب أو عقاب ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ كونه خبيراً عالماً بحقائق الأمور من غير اشتباه ومن غير التباس ، فهو عالم بكل ما يعملونه ويكسبونه من حسن وسيئ، حافظ ذلك عليهم ليحازيهم على كل ذلك ، فاحذروا أيها العادلون بربكم عقابه، فإنه عليم بكل ما تأتون وتذرون، وهو لكم من وراء الجزاء على ما تعملون.[١]

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. أن الرجل إذا علم من الآخر منكراً ، وعلم أنه لا يقبل منه فعليه أن يعرض عنه إعراض منكر ولا يقبل عليه.[٢]

٢. الرد من كتاب الله عز وجل على من زعم أن الأئمة الذين هم حجج وأتباعهم لهم أن يخالطوا الفاسقين ويصوبوا آراءهم تقية – يتقون بعضهم بعضاً ويظهرون الصلح والاتفاق، وباطنهم بخلاف ذلك – [٣].

٣. أن مجالسة أهل الكبائر لا تحل[٤].

٤. من خاض في آيات الله تركت مجالسته وهجر، مؤمنا كان أو كافرا[٥].

٥. منع العلماء الدخول إلى أرض العدو ودخول كنائسهم والبيع، ومجالس الكفار وأهل البدع، وألا تعتقد مودتهم ولا يسمع كلامهم ولا مناظرتهم.[٦]

٦. أن الأصل في الإنسان هو الجهل، ثم إذا ترقى وتكامل حصل له العلم ، فإذا رجع من العلم إلى الجهل مرة أخرى فكأنه رجع إلى أول مرة .[٧]

٧. التقرير لحكم الحق المبرأ عن العبث والباطل، وتقرير القدرة التامة الكاملة التي لا دافع لها ولا معارض.[٨]

---

[١] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٥٨) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٦٤) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٢٦) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٨٨) تفسير السمعاني (٢/ ١١٧) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٠٨) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٢٧) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٨١)

[٢] - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ١٢)

[٣] – المرجع السابق (٧/ ١٢)

[٤] - المرجع السابق (٧/ ١٣)

[٥] - المرجع السابق (٧/ ١٣)

[٦] - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ١٣)

[٧] - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٢٥)

[٨] - المرجع السابق (١٣/ ٢٧)

٨. قوله : ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يدل على كمال العلم فلا جرم حيث لزم من مجموعهما أن يكون قوله حقاً، وأن يكون حكمه صدقاً، وأن تكون قضاياه مبرأة عن الجور والعبث والباطل[١].

٩. قوله : ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ لا شبهة أن المراد منه يوم الحشر، ولا شبهة عند أهل الإسلام أن الله سبحانه خلق قرناً ينفخ فيه ملك من الملائكة ، وذلك القرن يسمى بالصور على ما ذكر الله تعالى هذا المعنى في مواضع من الكتاب الكريم [٢]

١٠. إنما فضَّل المشركون الدنيا لأجل أنهم غرتهم الحياة الدنيا ، واطمأنوا بها ؛ فلأجل استيلاء حب الدنيا على قلوبهم أعرضوا عن حقيقة الدين ، واقتصروا على تزيين الظواهر يتوسلون بها إلى حطام الدنيا، وإذا تأملت في حال أكثر الخلق وجدتهم موصوفين بهذه الصفة وداخلين تحت هذه الحالة – والله أعلم – والمحقق في الدين هو الذي ينصر الدين لأجل أنه قام الدليل على أنه صواب . [٣]

١١. التحذير من أهل الأهواء والبدع من المسلمين الذين يؤولون الآيات بالباطل لتأييد ما استحدثوا من المذاهب والآراء وتفنيد أقوال خصومهم بالجدل والمراء[٤].

١٢. أن الإقبال على الخائضين والقعود معهم يغريهم فى التمادي فيما هم فيه، ويدل على الرضا به والمشاركة فيه، والمشاركة فى ذلك كفر ظاهر، لا يرتكبه إلا كافر مجاهر، أو منافق مراء[٥].

١٣. لا يخشى على المؤمن من فتنة الكافر مقدار ما يخشى من فتنة المبتدع [٦].

١٤. من الناس من يحرفون آيات الله عن مواضعها بأهوائهم ليكفروا بها مسلما أو يضللوا بها مهتديا، بغيا عليه وحسدا له[٧].

١٥. أن المشركين لما عملوا ما لا يزكّى نفوسهم، ولا يطهّر قلوبهم ولا يهذب أخلاقهم ولا يقع على وجه يرضى الله سبحانه، ولا يعدّ للقائه فى دار الكرامة، أضاعوا الوقت فيما لا يفيد وهذا هو اللعب، أو شغلوا عن شئونهم وهمومهم الأخرى وهذا هو اللهو[٨].

---

(١) – المرجع السابق (١٣/ ٢٨)

(٢) – المرجع السابق (١٣/ ٢٨)

(٣) – مراح لبيد لمحمد نووي (١/ ٣٢٦)

(٤) – تفسير المراغي (٧/ ١٥٨)

(٥) – تفسير المراغي (٧/ ١٥٩).

(٦) – المرجع السابق (٧/ ١٥٩)

(٧) – المرجع السابق (٧/ ١٥٩)

(٨) – المرجع السابق (٧/ ١٦١)

١٦. في الآيات إبطال لأصل من أصول الوثنية وهو رجاء النجاة فى الآخرة كما هو الحال فى الدنيا بتقديم الفدية لله تعالى أو بشفاعة الشافعين ووساطة الوسطاء عنده تعالى[١].

١٧. تقرير لأصل دينى وهو أن لا نجاة فى الآخرة ولا رضوان من الله ولا قرب منه إلا بالعمل بما شرعه على ألسنة رسله من إيمان به وعمل صالح يزكى النفس ويطهرها، أما من دسّى نفسه وأبسله كسبه للسيئات والخطايا واتخذ دين الله هزوا ولعبا وغرته الحياة الدنيا فلا تنفعه شفاعة ولا تقبل منه فدية[٢].

١٨. إن رسوخهم فى الكفر أفسد فطرتهم حتى لم يبق فيهم استعداد للحق والخير[٣].

١٩. في الآيات عبرة لمن يفقه القرآن ولا يغتر بلقب الإسلام، ويعلم أن المسلم من اتخذ القرآن إمامه وسنة الرسول طريقه، لا من اغتر بالأمانى والأوهام، ولا من ركن إلى شفاعة الشافعين، والأولياء والناصرين[٤].

٢٠. إن من أنقذه الله القدير الرحيم من الضلالة بما أراه من آياته فى الأنفس والآفاق لا يقدر أحد أن يضله [٥].

٢١. إن الذي لا يجعل لدينه وقاره واحترامه باتخاذه قاعدة حياته اعتقاداً وعبادة، وخلقاً وسلوكاً، وشريعة وقانوناً، إنما يتخذ دينه لعباً ولهواً [٦].

٢٢. إن النفس التي ترتسم لها صورة الحيرة الطاغية، والعذاب المرير من هذه الحيرة التي لا تستقر على قرار، تكون أقرب ما تكون إلى استقبال القرار الحاسم بالراحة والتسليم [٧].

٢٣. كلما فاء الإنسان إلى هدى الله اهتدى ؛ لأن هدى الله هو الهدى ، وكلما بعد كلية عنه، أو انحرف بعض الانحراف واستبدل به شيئاً من عنده ضل ؛ لأن ما ليس من هدى الله فهو ضلال؛ إذ ليس هنالك نوع ثالث[٨] .

٢٤. إن الإنسان يحتاج هذا إلى هدى الله في كل ما يختص بكينونته وحياته من عقيدة وخلق، وموازين وقيم، وأنظمة وأوضاع، وشرائع وقوانين تحكم هذه الكينونة وتنظم لها واقع الحياة[٩].

---

[١] – المرجع السابق (٧/ ١٦٢)

[٢] – المرجع السابق (٧/ ١٦٢)

[٣] – المرجع السابق (٧/ ١٦٣)

[٤] – المرجع السابق (٧/ ١٦٣)

[٥] – المرجع السابق (٧/ ١٦٤)

[٦] – في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١١٢٨)

[٧] – المرجع السابق (٢/ ١١٣٢)

[٨] – المرجع السابق (٢/ ١١٣٢)

[٩] – المرجع السابق (٢/ ١١٣٢)

٢٥. في إعلان الرسول ﷺ والمسلمين معه، أنهم أمروا بالاستسلام فاستسلموا، إيحاء مؤثر لمن يفتح الله قلبه للتلقي والاستجابة على مدى الزمان ، وبعد إعلان الاستسلام لرب العالمين تجيء التكاليف التعبدية والشعورية منها إقامة الصلاة .. فالأصل هو الاستسلام لربوبية رب العالمين، وسلطانه وتربيته وتقويمه. ثم تجيء العبادات الشعائرية وتجيء الرياضيات النفسية.. لتقوم على قاعدة الاستسلام.. فإنها لا تقوم إلا إذا رسخت هذه القاعدة ليقوم عليها البناء[1] .

٢٦. لا أضر بالمجتمع من أن يتبع كل إنسان هواه؛ لأن هوى كل نفس يخدم شهواتها، والشهوات متضارية، فإذا حكّم كل إنسان هواه فلن تجد في الأرض قضية متفقاً عليها ، ولذلك تكفل الحق سبحانه وتعالى للإنسان بمسألة تنظيم المنهج ؛ وهو الأمر الذي تختلف فيه الأهواء ، وأما الأمر الذي تلتقي فيه الأهواء وهو استنباط ما في الأرض من كنوز واستكشاف ما في الكون من أسرار فقد تركه الحق للإنسان ليستنبطه بالعقل الذي خلقه الله من الكون الذي خلقه الله، وليسعد الإنسان بتلك الأسرار التي يستكشفها في الكون[2].

٢٧. أصحاب العقول التي تغتر بالحياة الدنيا هي عقول تائهة؛ فالعقل الناضج يفهم الدنيا على أنها أقل شأناً من أن تكون غاية، ولكنها وسيلة أو مجال وطريق ومزرعة إلى الآخرة ، وعلى العقل الناضج أن يعاملها دون نسيان مهمتها، وآفة الناس أنهم جعلوا الوسائل غايات، وغاية وجود الناس على الأرض أن يعمروها بالعمل الصالح وعبادة الحق، فمن انحرف عن ذلك فله عقابه يوم الغاية الكبرى، وهو يوم الحساب[3].

٢٨. من ينظر إلى الإنسان يجد أن التكليف الإلهي يناسب التكوين البشري، فهو يتفوق على الكل بقدرة الاختيار التي منحه الله إياها[4].

٢٩. مشروعية الإعراض في حال الضعف عن المستهزئين بالإسلام الذين غرتهم الحياة الدنيا من أهل القوة والسلطان وحسب المؤمن أن يعرض عنهم فلا يفرح بهم ولا يضحك لهم[5].

٣٠. لا يطرأ النسيان أصلا على الأنبياء فيما يجب عليهم تبليغه من أحكام الشرع، لعصمتهم عن ذلك، وإنما يمكن طروء النسيان عليهم في الأمور العادية كالسهو أثناء الصلاة ونحو

---

(١) – المرجع السابق (٢/ ١١٣٣)

(٢) – تفسير الشعراوي (٦/ ٣٧٠٤)

(٣) – المرجع السابق (٦/ ٣٧١٢)

(٤) – المرجع السابق (٦/ ٣٧٢٤)

(٥) – أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٧٦)

ذلك، وليس النسيان من قبيل وجود السلطة والتصرف من الشيطان على الإنسان، فتسلطه محصور في المشركين والكافرين، لا في المؤمنين[1] .

[1] - التفسير المنير للزحيلي (٧/ ٢٥١)

المطلب السابع : موقف إبراهيم – عليه السلام – من عبدة الكواكب وما ناله من الفضل وذريته وإخوانه الأنبياء – عليهم السلام – (٧٤ – ٩٠)

يقول الله سبحانه تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ
وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ
﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ
بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ
بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ
لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى
فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ
عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم
بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن
نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ
وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا
وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا
عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ
هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

أولاً : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

لقد عُقّبت الحِجَجُ والمجادلة في شأن إثبات التوحيد وإبطال الشرك بشاهد من أحوال الأنبياء بذكر مجادلة أول رسول أعلَن التوحيد ، وناظر في إبطال الشرك بالحُجَّة الدامغة والمناظرة الساطعة ، وهي أعدل حُجَّة في تاريخ الدين إذ كانت مجادلة رسول لأبيه ولقومه ، وكانت أكبر حجّة على المشركين من العرب بأنّ

أباهم لم يكن مشركاً ولا مُقِرّاً للشرك في قومه ، وأعظم حجّة للرسول ﷺ إذ جاءهم بالإقلاع عن الشرك ، وكان في هذه المحاجة التصريح بما لوح إليه أول هذه السورة من إبطال هذا المذهب، وانعطف هذا على ذاك أيّ انعطاف! وصار كأنه قيل: ثم الذين كفروا بربهم يعدلون الأصنام والنجوم والنور والظلمة، فنبههم يا رسول الله على ذلك بأنه لا متصرف غيرنا، اذكر لهم أني أنا الذي خلقتهم وخلقت جميع ما يشاهدون من الجواهر والأعراض، فإن تنبهوا فهو حظهم، وإلا فاذكر لهم محاجة خليلنا إبراهيم – عليه السلام – [١].

وإنما ذكرت محاورة نبي الله إبراهيم – عليه السلام – في هذا الموضع من هذه السورة دون غيره ؛ وذلك لما كان مضمون هذه الآيات الثلاث المفتتح بها السورة الهادمة لمذهب الثَّنَوية [٢] ، وهم أهل فارس قوم إبراهيم – عليه السلام – .

وإبراهيم عليه السلام رجل يعترف بفضله جميعُ الطوائف والملل ، فالمشركون كانوا معترفين بفضله ، مقرين بأنهم من أولاده ، مُتَشَرِّفين بذلك ، وسائر الملل تعظمه ، فاليهود والنصارى والمسلمون كلهم معظمون له ، معترفون بجلالة قدره وبِفَضْلِهِ ، فلهذا السبب ذكر الله حالَه في مَعرض الاحتجاج ، والسبب في حصوله هذه المرتبة العظيمة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام أنّه سلَّمَ قلبه للعرفان ، ولسانُهُ للبرهان ، وبَدنَهُ للنيران ، وولدَهُ للقربان ، ومَالهُ للضِّيفانِ [٣]، فلا جرم ذكر الله حكاية حاله في معرض الاحتجاج على المشركين .

---

[١] - نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٥٦)

[٢] – هؤلاء هم أصحاب الاثنين الأزليين ، يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان بخلاف المجوس فإنهم قالوا بحدوث الظلام وذكروا سبب حدوثه ، وهؤلاء قالوا بتساويها في القدم واختلافهما في الجوهر والطبع والفعل والمكان والأجناس والأبدان والأرواح .(انظر : الملل والنحل للشهرستاني ، ١ / ٢٣٤)

[٣] - يقول الإمام فخر الدين الرازي : " واعلم أن هذا المنصب العظيم وهو اعتراف أكثر أهل العلم بفضله وعلو مرتبته لم يتفق لأحد كما اتفق للخليل عليه السلام، والسبب فيه أنه حصل بين الرب وبين العبد معاهدة. كما قال: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[البقرة: ٤٠] فإبراهيم وفى بعهد العبودية، والله تعالى شهد بذلك على سبيل الإجمال تارة وعلى سبيل التفصيل أخرى. أما الإجمال ففي آيتين إحداهما قوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[البقرة: ١٢٤] وهذا شهادة من الله تعالى بأنه تمم عهد العبودية. والثانية قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[البقرة: ١٣١] وأما التفصيل: فهو أنه عليه السلام ناظر في إثبات التوحيد وإبطال القول بالشركاء والأنداد في مقامات كثيرة.

فالمقام الأول: في هذا الباب مناظراته مع أبيه حيث قال له: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾[مريم: ٤٢] .

والمقام الثاني: مناظرته مع قومه وهو قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾[الأنعام: ٧٦] .

والمقام الثالث: مناظرته مع ملك زمانه، فقال: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾[البقرة: ٢٥٨] .

والمقام الرابع: مناظرته مع الكفارة بالفعل، وهو قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾[الأنبياء: ٥٨] ثم إن القوم قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾[الأنبياء: ٦٨] ثم إنه عليه السلام بعد هذه الواقعة بذل ولده فقال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢] فعند هذا ثبت أن إبراهيم عليه السلام كان من الفتيان، لأنه سلم قلبه للعرفان ولسانه للبرهان وبدنه للنيران وولده للقربان وماله للضيفان،

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

اذكر يا محمد لحجاجك الذي تحاجّ به قومك، وخصومتك إياهم في آلهتهم، وما تراجعهم فيها، مما نلقيه إليك ونعلمكه من البرهان والدلالة على باطل ما عليه قومك مقيمون، وصحة ما أنت عليه مقيم من الدين، وحقيقة ما أنت عليهم به محتج حِجَاج إبراهيم قومَه، ومراجعته إياهم في باطل ما كانوا عليه مقيمين من عبادة الأوثان، وانقطاعه إلى الله والرضا به ولياً وناصراً دون الأصنام، فاتخذه إماماً واقتد به، واجعل سيرته في قومك لنفسك مثالاً ؛ إذ قال ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر الذي كان من رؤساء قومه حيث قال عليه السلام لأبيه منكراً عليه منبهاً له على ظهور فساد ما هو مرتكبه مفارقاً لدينه، وعائباً عبادته الأصنام دون بارئه وخالقه .

وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن قول إبراهيم لأبيه:﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ تعبدها وتتخذها رباً دون الله ؛ الذي خلقك فسوَّاك ورزقك؟

فنبهه بهذا الإنكار على أن معرفة بطلان ما هو متدين به لا يحتاج إلى كثير تأمل، بل هو أمر بديهي أو قريب منه، فإنهم يباشرون أمرها بجميع جوانبهم ، ويعلمون أنها مصنوعة وليست بصانعة، وكثرتها تدل على بطلان إلهيتها بما أشار إليه .

ولما خص بالنصيحة أقرب الخلق إليه، عم بقية أقاربه فقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ يقول:﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ﴾ يا آزر، ﴿وَقَوۡمَكَ﴾ الذين يعبدون معك الأصنام ، ويتخذونها آلهة ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ في زوال عن محجّة الحق، وعدول عن سبيل الصواب وخطأ وجهل ﴿مُّبِينٖ﴾ يتبين لمن أبصَره أنه جوْرٌ عن قصد السبيل، وزوالٌ عن محجة الطريق القويم ، لا شك فيه ولا شبهة، ويعني بذلك أنه قد ضلّ هو وهم عن توحيد الله وعبادته، الذي استوجب عليهم إخلاص العبادة له بآلائه عندهم، دون غيره من الآلهة والأوثان.[1]

ثم يقول تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وكما أريناه البصيرة في دينه، والحقّ في خلاف ما كانوا عليه من الضلال، نريه ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني أعظم ملكه وسلطانه وعجيبه وبديعه ، والقدرة التي تقوى بها دلالته على توحيد الله جل وعز ، وغير ذلك من الربوبية والإلهية ونوفقه لمعرفتها ، ونرشده بما شرحنا صدره وسدّدنا نظره ، وهديناه لطريق الاستدلال ، وهي رؤية في ظاهر الملكوت وقع له معها من الاعتبار ورؤية القلب ما لم يقع لأحد من أهل زمنه الذين بعث إليهم .

ثم إنه عليه السلام سأل ربه فقال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾[الشعراء: ٨٤] فوجب في كرم الله تعالى أنه يجيب دعاءه ويحقق مطلوبه في هذا السؤال، فلا جرم أجاب دعاءه، وقبل نداءه وجعله مقبولاً لجميع الفرق والطوائف إلى قيام القيامة". مفاتيح الغيب (١٣/ ٢٩)

(١) – جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٦٥) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٢٩) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٦٠) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٥٦) التفسير الكبير (٥ / ٢٩) نظم الدرر (٢ / ٦٥٧) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٧ / ٣١٠)

وأما قوله: ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ فإنه يعني أنه أراه ملكوت السماوات والأرض، ليثبت على اليقين ، ويكون عالماً بالشيء علماً لا يمكن أن يطرأ له فيه شك، وليكون ممن يقرّ بتوحيد الله، ويعلم حقيقة ما هداه له وبصّره إياه ، فيكون ممن يوقن علم كل شيء حساً لا خبراً ، من معرفة وحدانيته، وما عليه قومه من الضلالة، من عبادتهم الأصنام، واتخاذهم إياها آلهة دون الله تعالى.

والإيقان بالشيء هو العلم بالشيء حقيقة بعد الاستدلال والنظر فيه والتدبر؛ ولذلك لا يوصف اللّه باليقين، ولا يجوز لله تعالى أن يقال: موقن؛ لما ذكرنا أنه هو العلم الذي يعقب الاستدلال، وذلك منفي عنه. [1]

ولما كانت الأمور السماوية مشاهدة لجميع الخلق: دانيهم وقاصيهم، وهي أشرف من الأرضية، فإذا بطلت صلاحيتها للإلهية بطلت الأرضية من باب الأولى؛ نصب لهم الحجاج في أمرها .

وقوم إبراهيم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، وكان ﷺ قد عرف من تقليدهم لأسلافهم وبعد طباعهم عن قبول الدلائل أنه لو صرح بالدعوة إلى الله تعالى لم يقبلوه ولم يلتفتوا إليه، فمال إلى طريق به يستدرجهم إلى استماع الحجة ، وأراد أن يبطل قولهم بربوبية الكواكب وأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدّ إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً ؛ لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثاً أحدثها، وصانعاً صنعها، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها ، فلما بلغ إبراهيم المبلغ الذي يجب معه النظر، وتجب به على العبد الحجة، نظر في الأشياء التي كان يعبدها قومه فلما جن الليل إذا أظلم حتى يستتر بظلمته ، رأى الكوكب الذي كانوا يعبدونه، قال لهم : هذا ربي أي في زعمكم .

وإبراهيم ﷺ تكلم بهذه الكلمة ليظهر من نفسه موافقة القوم ، وهو قول من ينصف خصمه، مع علمه أنه مبطل ؛ حتى إذا أورد عليهم الدليل المبطل لقولهم كان قبولهم لذلك الدليل أتم ، وانتفاعهم باستماعه أكمل ، وذلك أدعى إلى الحق وأقرب إلى رجوع الخصم ، ولقد انتظرهم حتى غاب الجرم المضيء لذا قال : ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾ فلما غاب وذهب، ووارته ظلمة الليل وغيّبته وغطته.

﴿ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾ بمعنى : رب لا يدوم ، فلا أحب من كانت حالته أن يطلع ويسير على هيئة يتبين معها أنه محدث منتقل من مكان إلى مكان مدبّر /كما يفعل سائر الأشياء التي أجمعتم معي على أنها ليست بآلهة، أي لا أتخذ ما هذه حاله إلهاً .

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٧٠) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٦٥) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٣١) الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٠) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣١١) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٣٤) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٦٩)

وتغيرها بالأفول دليل على أنها مُدَبَّرة محدثة ، كما أنكم لا تتخذون كل ما جرى مجرى هذا من سائر الأشياء آلهة، ليس أنه جعل الحجة عليهم أن ما غاب ليس بإله ؛ لأن السماء والأرض ظاهرتان غير غائبتين ، وليس يدعى فيهما هذه الدعوى ، وإنما أراد التبيين لهم بالقريب ؛ لأن غيبوبته أقرب ما الناظرون به فيما يظهر لهم ، ومن المعلوم أن الرب لا يقهر وأن سلطانه لا يزول .

وهنا استعجز إبراهيم نفسه واستعان بربه في إدراك الحق، فإنه لا يهتدي إليه إلا بتوفيقه إرشاداً لقومه [(١)].

فلما طلع القمر فرآه إبراهيم طالعاً، وأضوأ وأنور﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾ فلما غاب ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾ ويوفقني لإصابة الحق في توحيده ﴿ لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ من القوم الذين أخطؤوا الحق في ذلك، فلم يصيبوا الهدى، وعبدوا غير الله ، والأنبياء تسأل الله أن يثبتها على الهدى وتعلم أنه لولا هداية الله ما اهتدت[(٢)] .

ولقد كانت خاتمة هذه الآية أشد من الأولى وأقرب إلى التصريح بنفي الربوبية عن الكواكب ، وإثبات أن الرب غيرها، مع الملاطفة وإبعاد الخصم عما يوجب عناده[(٣)].

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ فلما رأى إبراهيم الشمس طالعةً، وأضوأت وأنورت قال: هذا الطالعُ ربّي ﴿ هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾ من الكوكب والقمر ، فحذف ذلك لدلالة الكلام عليه ، ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتْ ﴾ فلما غابت الشمس لم يبق شيء يمثل لهم به، ولما كانت القلوب قد فرغت بما ألقي من هذا الكلام المعجب للحجة، وتهيأت لقبول الحق، ختم الآية بخاتمة أظهرت حجته ، وقوي بذلك على منابذتهم والتبريء من إشراكهم، حيث ثبت بالدليل أن هذه الكواكب لا تصلح للربوبية والإلهية، لذلك تبرأ من الشرك. فقال لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ من عبادة الآلهة والأصنام ودعائه إلهًا مع الله تعالى ذكره.

فيحكى قوله كما هو غير متعصب لمذهبه؛ لأنّ ذلك أدعى إلى الحق ، وأنجى من الشغب، ثم يكرّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة .

---

(١) — انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٧٧) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٦٦) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٣٤) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٣٧) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ١٣٩) الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٠) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٤٨) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٤١) التسهيل لابن جزي (١/ ٢٦٧) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٥٨) مع تصرف وإضافة من الباحثة .

(٢) – يشهد على ذلك ما جاء على لسان إبراهيم – عليه السلام – حيث قال : ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾[إبراهيم: ٣٥]

(٣) — انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٨٦) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٦٨) تفسير السمعاني (٢/ ١٢٠) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٦١)

وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن خليله إبراهيم عليه السلام؛ أنه لما تبيّن له الحق وعرَفه، شهد شهادةَ الحقّ، وأظهر خلاف قومِه أهلِ الباطل وأهلِ الشرك بالله، ولم يأخذه في الله لومة لائم، ولم يستوحش من قِيل الحقّ والثبات عليه، مع خلاف جميع قومه لقوله، وإنكارهم إياه عليه، وقال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ مع الله الذي خلقني وخلقكم في عبادته من آلهتكم وأصنامكم.

واحتج عليهم بالأفول دون البزوغ مع أن كلاهما انتقال من حال إلى حال ؛ لأن الاحتجاج بالأفول أظهر، لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب .

ولقد تدرج بذكر الكوكب ثم ذكر القمر ثم ذكر الشمس ؛ لأن الأخذ من الأدون فالأدون، مترقياً إلى الأعلى فالأعلى، له نوع تأثير في التقرير والبيان والتأكيد لا يحصل من غيره، فكان ذكره على هذا الوجه أولى.[1]

فلما أبطل بذلك جميع مذهبهم أظهر التوجه إلى الإله الحق، وأنه قد انكشف له الصواب بهذا النظر، والمراد هم، ولكن سوقه على هذا الوجه أدعى لقبولهم إياه، فقال مستنتجاً عما دل عليه الدليل العقلي في الملكوت : ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ﴾ أقبلت بـ ﴿وَجۡهِيَ﴾ في عبادتي وقصدي وتوحيدي وإيماني إلى الذي خلق السماوات والأرض، الذي دلت هذه المحدثات عليه ، وعلى أنه مبتدؤها ومبتدعها ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، وأفردت قصدى لله، وطهّرت عقدى عن غير الله، وحفظت عهدي في الله لله، وخلصت وجدي بالله، فإني لله بالله، فهو الدائم الذي يبقى ولا يفنى، ويُحْيي ويميت لا إلى الذي يفنى ولا يبقى، ويزول ولا يدوم، ولا يضر ولا ينفع ، فعبر بذلك عن الانقياد التام؛ لأن من انقاد لشيء أقبل عليه بوجهه، ودل على كماله وتفرده بالكمال مبدعاتُه.

ثم لما تبرأ منها توجه إلى موجدها ومبدعها الذي دلت هذه الممكنات عليه ، فأخبر أن توجيهه وجهه لعبادته ، وقصده بإخلاص العبادة له، والاستقامة في ذلك لربه على ما يحبُّ من التوحيد وثابت على الدين، مائل إليه بالكلية، سهلاً هيناً ليناً لطيفاً ، ميالاً مع الدليل غير جاف جامد على التقليد الغليظ البليد، ولا على الوجه الذي يوجَّه له وَجْهه من ليس بحنيف، ولكنه به مشرك، إذ كان توجيه الوجه على غير التحنُّف غير نافع موجِّهه، بل ضارّه ومهلكه ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ولست منكم، أي: لست ممن يدين دينكم، ويتّبع ملّتكم أيُّها المشركون.

ولقد كان إبراهيم – عليه السلام – مؤمنًا في ذلك الوقت، عارفًا بربه حق المعرفة، ولكنه كلم قومه كلام مستدرج بإظهار المتابعة لهم على هواهم؛ فيكونون به أوثق وإليه أميل، وذلك أبلغ في الحجاج والطف

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٨٦) تفسير السمعاني (٢/ ١٢٠) الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٠) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣١٤) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٤٦) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٦١)

في المكيدة، فيبين لهم ما أراد من غير جهة النقض والعناد، فبدأ بتعظيم ما عظموه؛ إذ هم قوم كانوا يعظمون النجوم، وبالعلم بأمرها [1].

ولمّا أعلن إبراهيم عليه السلام معتَقَده لقومه وأورد عليهم الحجة المذكورة ، لم يرجعوا إليه بل أخذوا في محاجّته وأوردوا عليه حججاً على صحة أقوالهم ، فيقول تعالى : ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ ﴾ وجادل إبراهيم قومه في توحيد الله ودينه وطاعته ، ونفي الشركاء عنه ، واتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وناظروه بشبه من القول، وكان جدالهم إياه قولُهم: أن آلهتهم التي يعبدونها خير من إلهه ، ولما كان من المعلوم أن محاجتهم – بعد هذه الأدلة الواضحة في غاية من السقوط وجاءت من الحضيض، نزه المقام عن ذكرها، إشارة إلى أنها بحيث لا يستحق الذكر، وبين جوابه لما فيه من الفوائد الجمة بقوله: ﴿قَالَ﴾ بقول منكراً عليهم موبخاً لهم: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ أتجادلونني في توحيدي الله وإخلاصي العمل له دون ما سواه من آلهة ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ وقد وفقني وأرشدني ربي لمعرفة وحدانيته، وبصّرني طريق الحقّ ، وبين لي ما به اهتديت، حتى أيقنتُ أن لا شيء يستحق أن يعبد سواه ، وثبت ذلك بالدليل الموجب للهداية واليقين صحة قولي، فكيف يلتفت إلى حجتكم العليلة، وكلماتكم الباطلة ، ثم بين أكبر دليل على غاية تبرؤه من الشرك ، والشركاء فقال : ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ ولا أرهب من آلهتكم التي تدعونها من دونه شيئاً ينالني به في نفسي من سوء وضر ومكروه ، فهي مأمونة الخوف لا يتعلق بها ضرر بوجه فهي لا تنفع ولا تضر ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗا﴾ ولكن خوفي من الله الذي خلقني وخلق السماوات والأرض، فإنه إن شاء أن ينالني في نفسي أو مالي بما شاء من فناء أو بقاءٍ، أو زيادة أو نقصان أو غير ذلك؛ نالني به لأنه القادر على ذلك ، وهو الذي ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ فلا يصيب عبداً شيء من ضر أو نفع إلا بعلمه ، فعلم ذلك كله عنده عصيت أو أطعت، بل علم ربي كلَّ شيء، فلا يخفى عليه شيء؛ لأنه خالق كل شيء، وليس كالآلهة التي لا تضرّ ولا تنفع ولا تفهم شيئًا، وإنما هي خشبة منحوتةٌ، وصورة ممثلة ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ توقيف وتنبيه وإظهار لموضع التقصير منهم ، حيث قال : أفلا تعتبرون، أيها الجهلة، فتميزوا بين الصحيح والفاسد والقادر والعاجز ، وتعقلوا خطأ ما أنتم عليه مقيمون، من عبادتكم صورةً

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٨٧) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٣٧) لطائف الإشارات للقشيري (١/ ٤٨٥) تفسير السمعاني (٢/ ١٢٠) الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٠) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣١٤) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٦٩) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٢) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٦١)

مصوّرة وخشبة منحوتة، لا تقدر على ضر ولا على نفع، ولا تفقه شيئًا ولا تعقله ، وترككم عبادةَ من خلقكم وخلق كلّ شيء، وبيده الخير، وله القدرة على كل شيء، والعالم لكل شيء[1].

وتعجب منهم في ظنهم خوفه من معبوداتهم بقوله منكراً عليكم :﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ ﴾ وهذا جواب إبراهيم لقومه حين خوفوه من آلهتهم أن تمسَّه؛ لذكره إياها بسوء في نفسه بمكروه، فقال لهم: وكيف أخاف وأرهب ما أشركتموه في عبادتكم ربَّكم فعبدتموه من دونه، وهو لا يبصر ولا يسمع لا يضر ولا ينفع؟ ولو كانت تنفع أو تضر، لدفعت عن أنفسها تحطيمي إياها وضربي لها بالفأس! وأنتم لا تخافون الله المستجمع لصفات العظمة والقدرة على العذاب والنقمة ، فهو الذي خلقكم ورزقكم، وهو القادر على نفعكم وضركم في إشراككم في عبادتكم إياه ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ﴾ ما لم يعطكم على إشراككم إياه في عبادته حُجّة، ولم يضع لكم عليه برهاناً، ولم يجعل لكم به عذراً ثم قررهم على النتيجة الحتمية التي لا يتردد في الاجابة بها أحد بعد قيام الحجة والبرهان فقال : ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ﴾ أحق بأن يأمن من العذاب في الدنيا والآخرة، ، الموحد أم المشرك ، فهل أنا أحق بالأمن من عاقبة عبادتي ربّي مخلصاً له العبادة، حنيفاً له ديني، بريئاً من عبادة الأوثان والأصنام، أم أنتم الذين تعبدون من دون الله أصناماً لم يجعل الله لكم بعبادتكم إياها برهاناً ولا حجة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ صدق ما أقول، وحقيقة ما أحتجُّ به عليكم، فقولوا وأخبروني: أيُّ الفريقين أحق بالأمن؟

فأنتم تنكرون عليّ الأمن في موضع الأمن، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف. ولم يقل: فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم، احترازاً من تزكيته نفسه، فعدل عنه إلى قوله : ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ ﴾ يعنى فريقى المشركين والموحدين ؟! ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ما يحق أن يخاف منه.

ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ وهذا من تمام كلام إبراهيم في المحاجة، والمعنى: أن الذين حصل لهم الأمن المطلق هم الذين يكونون مستجمعين لهذين الوصفين:

أولهما: الإيمان وهو كمال القوة النظرية.

وثانيهما: ولم يخلطوا إيمانهم بظلم وهو كمال القوة العملية.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ هؤلاء الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ﴾ يوم القيامة من عذاب الله ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ وهم المصيبون سبيل الرشاد، والسالكون طريق النجاة ، وأنتم ضالون وهالكون

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٨٨) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٦٨) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٤٥) الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣١٤) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٤٧) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥١٧) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٣) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٦٣) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٧ / ٣٢٥)

لإشرافكم على المهالك[1] ، عن عبد الله – رضي الله عنه – قال: لما نزلت هذه الآية : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ : (إنه ليس بذلك، ألا تسمعون إلى قول لقمان ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣])[2].

ثم بين تعالى حقيقة ما قاله إبرهيم عليه السلام لقومه آنفاً أن تلك ﴿حُجَّتُنَآ﴾ التي يحق لها بما فيها من الدلالة أن تضاف إلينا؛ لأنها من أشرف النعم وأجل العطايا ، ﴿ءَاتَيْنَـٰهَآ﴾ أرشدناه إليها وعلمناه إياها ، وهو إشارة إلى جميع احتجاجاته حتى خاصمهم وغلبهم بالحجة ، فوفقناه للحجة يخاصم بها قومه، وهي ما جرى بينه وبين قومه من الاستدلال على حدوث الكوكب والقمر والشمس، وعيبهم إذ سووا بين الصغير والكبير، وعبدوا من لا ينطق، وإلزامه إياهم الحجة ،وقضاؤهم له على أنفسهم، فكان في ذلك قطع عذرهم وانقطاع حجتهم، واستعلاء حجة إبراهيم عليهم ، فهي الحجة التي آتاها الله إبراهيم على قومه، والتي بها خصمهم وغلبهم بالحجة القائمة التي نصبها مستعلياً عليهم غالباً لهم قائمة ، ثم زاد في الإعلام بفضله بقوله : ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ في الآخرة وقبل ذلك في الدنيا بالنبوة، وبالعلم والحكمة والفهم والإمامة والملك ، والذكر والشرف لما يذكرون في الملأ من الخلق، ولقد رفعنا بالحجة درجته عليهم، وشرّفناه بها عليهم في الدنيا والآخرة ، فأما في الدنيا، فآتيناه فيها أجره وأما في الآخرة، فهو من الصالحين وذلك بما فعل من ذلك وغيره.

ولما كانت محاجته لهم على قانون الحكمة بالعالم العلوي الذي نسبوا الخلق والتدبير بالنور والظلمة إليه، وكان في ختام محاجته لهم أن الجاري على قانون الحكمة أن الملك الحق لا يهين جنده فلا خوف عليهم، وكان قبل ذلك في الاستدلال على البعث الذي هو محط الحكمة؛ كان الأنسب أن يقدم في ختم الآية وصف الحكمة فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ خاصاً لنبيه ﷺ بالمخاطبة بما فيه تسلية له باسم الإحسان تنبيهاً على أن حَجبَه الدليل عمن يشاء لحِكَم أرادها سبحانه، فهو ﴿حَكِيمٌ﴾ في سياسته خلقَه، وتلقينه أنبياءه الحجج على أممهم المكذّبة لهم، الجاحدة توحيد ربهم، وفي غير ذلك من تدبيره ، فلا يفعل بحزبه إلاّ ما ظنه به خليله ﷺ مما يقر أعينهم، إما في الدنيا وإما في الآخرة وإما فيهما ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يهديه ومن يضله، وإن

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٤٩٠) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٦٩) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ١٤٠) الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٢) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٤٩) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٧٠) الجواهر الحسان للثعالبي (٢/ ٤٨٨) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٦٥)

[2] – أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ،كتاب الإيمان ، باب ظلم دون ظلم عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – : (١/ ١٥) برقم (٣٢)

قامت عليه الحجج والبراهين فهو عليم بما يؤول إليه أمر رسله والمرسل إليهم، من ثبات الأمم على تكذيبهم إياهم، وهلاكهم على ذلك، أوإنابتهم وتوبتهم منه بتوحيد الله تعالى ذكره وتصديق رسله، والرجوع إلى طاعته.

والمعنى أنه إنما يرفع درجات من يشاء بمقتضى الحكمة والعلم، لا بموجب الشهوة والمجازفة ، فإن أفعال الله منزهة عن العبث والفساد والباطل.

فأتَسِ يا محمد، في نفسك وقومك المكذبين ، والمشركين، بأبيك خليلي إبراهيم عليه السلام ، واصبر على ما ينوبك منهم صبرَه، فإني بالذي يؤول إليه أمرك وأمرهم عالم، وبالتدبير فيك وفيهم حكيم[1].

ولما حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه أظهر حجة الله تعالى في التوحيد ونصرها وذب عنها ؛ عدد وجوه نعمه وإحسانه عليه جزاء له على الاحتجاج في الدين وبذل النفس فيه .

فأولها: قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ والمراد : إنا نحن آتيناه تلك الحجة ،وهديناه إليها ، وأوقفنا عقله على حقيقتها، وذكر نفسه باللفظ الدال على العظمة وهو كناية الجمع على وفق ما يقوله عظماء الملوك. فعلنا، وقلنا، وذكرنا.

ولما ذكر نفسه تعالى هاهنا باللفظ الدال على العظمة وجب أن تكون تلك العظمة عظمة كاملة رفيعة شريفة، وذلك يدل على أن إيتاء الله تعالى إبراهيم عليه السلام تلك الحجة من أشرف النعم، ومن أجل مراتب العطايا والمواهب.

وثانيها: أنه تعالى خصه بالرفعة والاتصال إلى الدرجات العالية الرفيعة ،وأشار إلى رفعته بأنه بصّره بالحجة حتى كان على بصيرة من أمره ، وأنه علا على المخالفين برفع الدرجات ، حيث أتبع ذلك ما دل عليها وعلى حكمته بعلمه بالعواقب ، فقال معلماً بأنه جعله عزيزاً في الدنيا ورفع درجته في عليين وهي قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ فالله رفع ذكره أبداً ؛ لأجل قيامه بالذب عن توحيده ونصره ، ومحاولاته في إبطال الشرك ، وإقامةُ الحجج على فساده ، فعدد وجوه نعمه وإحسانه بعد نعمة إيتاء الحجة ورفع الدرجة في العلم والدعوة والصبر.

وثالثها: أنه جعله عزيزاً في الدنيا وذلك ؛ لأنه تعالى جعل أشرف الناس وصفوتهم وهم الأنبياء والرسل من نسله ومن ذريته ، وأبقى هذه الكرامة في نسله إلى يوم القيامة ؛ لأن من أعظم أنواع السرور علم المرء بأنه يكون من عقبه الأنبياء والملوك، والمقصود من هذه الآيات تعديد أنواع نعم الله على نبيه إبراهيم

---

[1] — انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٥٠٤) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٥٢) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٦٤) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ١٦٦) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٥٠) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٥١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٣٠) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٧٠) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٦) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٦٨) مع تصرف وإضافة من الباحثة .

عليه السلام جزاء على قيامه بالذب عن دلائل التوحيد ، فقال : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ أولاداً خصصناهم بالنبوّة، وذرية شرفناهم منا بالكرامة، وفضلناهم على العالمين، وأعْظِم بهذه المنقبة والكرامة الجسيمة ، التي لا يُدرك لها نظير ، فمضمون الآية تكرمة وتفضيل حيث ما كان منه جعل كل الصالحين متبعين له مقتدين به منهم: ابنه إسحاق، وابن ابنه يعقوب ، وابتدأ سبحانه بهما ؛ لأن السياق للامتنان على الخليل عليه السلام، وهو أشد سروراً بابنه الذي متع به ولم يؤمر بفراقه ، وابن ابنه الذي أكثر الأنبياء الداعين إلى الله من نسله ومن خواصه، وهو الموجب الأعظم للبداءة أن أبناءه طهروا الأرض المقدسة التي هي مهاجر إبراهيم عليه السلام ومختاره للسكنى بنفسه ونسله، بل مختار الله له ولهم بعده بعد طهورها من الشرك وعبادة الأوثان، فهم دعوا إلى الله ونوروا الأرض بعبادته.

ولم يذكر إسماعيل عليه السلام مع إسحاق، بل أخر ذكره عنه بدرجات ؛ لأن المقصود بالذكر هاهنا أنبياء بني إسرائيل، وهم بأسرهم أولاد إسحاق ويعقوب ، وأما إسماعيل فإنه ما خرج من صلبه أحد من الأنبياء إلا محمد ﷺ ، ولا يجوز ذكر محمد ﷺ في هذا المقام ؛ لأنه تعالى أمر محمداً – عليه الصلاة والسلام – أن يحتج على العرب في نفي الشرك بالله بأن إبراهيم — عليه السلام – لما ترك الشرك وأصر على التوحيد رزقه الله النعم العظيمة في الدين والدنيا، ومن النعم العظيمة في الدنيا أن آتاه الله أولادا كانوا أنبياء وملوكاً ، فإذا كان المحتج بهذه الحجة هو محمد – عليه الصلاة والسلام – امتنع أن يذكر نفسه في هذا المعرض، فلهذا السبب لم يذكر إسماعيل مع إسحاق — عليهما السلا م– والله أعلم .

ولما كانت النعمة لا تتم إلاّ بالهداية، قال تعالى مستأنفاً مقدماً للمفعول ليشمل الكلام إياهما :

﴿كُلًّا﴾ أي منهما ومن أبيهما ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ جميعهم لسبيل الرشاد، فوفقناهم للحق والصواب من الأديان ، وأتبع ذلك المهتدين قديماً وحديثاً تأكيداً ؛ لأن هذا المذهب لم يزل خُلَّص العباد دعاة إليه في قديم الزمان وجديده، فإن كنتم تلزمون دينكم لأنه عندكم حق، فقد تبين لكم بطلانه، وأن الحق إنما هو التوحيد، وإن كنتم تلزمونه لِقِدَمِه فهذا الدين – الذي – دعاكم إليه رسولي مع وضوح الدلالة على حقيته – هو القديم الذي دعاكم إليه نوح ، لذلك قال تعالى : ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ وهدينا لمثل الذي هدينا إبراهيم وإسحاق ويعقوب من الحق والصواب، فوفقنا له نوحاً ، من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وهدينا من ﴿ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ وكانا ملِكين، لذا تلاهما بمن شابههما في الملك أو الحكم على الملوك فقال: ﴿وَأَيُّوبَ﴾ وقدمه لمناسبة ما بينه وبين سليمان في أن كلاًّ منهما ابتلي بأخذ كل ما في يده ثم ردّ الله إليه .

﴿ وَيُوسُفَ ﴾ وكل من هؤلاء الأربعة ابتلي فصبر، واغتنى فشكر، وأيوب إن لم يكن ملكاً فقد كانت ثروته غير مقصرة عن ثروة الملوك، والاثنان الأولان كانا سبب إصلاح بني إسرائيل بعد الفساد واستنقاذهم من ذل الفلسطين، والاثنان الباقيان كل منهما ابتلى بفراق أهله ثم ردوا على أيوب بعد أن ماتوا، ويوسف قبل الموت، ﴿ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ كانا حاكمين ولم يكونا ملكين، وقد ذكرهم القرآن على طريق الترقي فى هدى الدين فأفضلهم موسى وهرون ثم أيوب ويوسف ثم داود وسليمان، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ يقول تعالى ذكره: جزينا نوحاً بصبره على ما امتحن به فينا، بأن هديناه فوفقناه لإصابة الحق الذي خذلنا عنه من عصانا ، وهدينا من ذريته من بعده من ذكر تعالى ذكره من أنبيائه لمثل الذي هديناه له ، والمقصود بالذكر في هذه الآيات هو إبراهيم – عليه السلام – وإنما ذكر الله تعالى نوحاً، لأن كون إبراهيم عليه السلام من أولاده أحد موجبات رفعة إبراهيم – عليهم السلام جميعاً – .

فكما جزينا إبراهيم على توحيده وثباته على دينه، بأن رفعنا درجته، ووهبنا له أولاداً أنبياء أتقياء، وكما جزينا هؤلاء بحسن طاعتهم إيانا وصبرهم على المحن فينا، كذلك نجزي بالإحسان كل محسن ،وهذا وعد من الله عز وجل لمن أحسن في عمله وترغيب في الإحسان .

ثم قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ دليل على أنه إبراهيم – عليه السلام – ؛ لأن افتتاح الكلام إنما هو بذكر ما أثاب به إبراهيم – عليه السلام – .[1]

وهدينا أيضًا لمثل الذي هدينا له نوحًا من الهدى والرشاد من ذريته: زكريا ويحيى بن زكريا، وعيسى ابن مريم ابنة عمران وإلياس.

حيث إنه لما كان المذكوران قبله ممن سلطهما على الملوك، أتبعهما من سلط الملوك عليهما بالقتل فقال: ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ ﴾ ثم أتبعهما من عاندهما الملوك ولم يسلطوا عليهما ، وأدام الله سبحانه حياتهما إلى أن يريد سبحانه فقال: ﴿ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ ، ولما كان هؤلاء الأربعة من الصابرين، قال مادحاً لهم على وجه يعم من قبلهم: ﴿ كُلٌّ ﴾ أي من المذكورين ﴿ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ من ذكرناه من هؤلاء الذين سمينا حيث كانت لهم ميزة الزهد والإعراض عن لذات الدنيا والرغبة عن زينتها وسلطانها [2].

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٥٠٧) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٣ / ١١٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣١٦) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٥٠) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٥١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٣١) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٧٠) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٧ / ٣٣٧) تفسير المراغي (٧/ ١٨١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص / ٢٦٣)

[2] – انظر : تفسير الطبري جامع البيان ت شاكر (١١/ ٥٠٨) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٧٥) تفسير المراغي (٧/ ١٨٢)

ثم أتبعهم من لم يكن بينهما وبين الملوك أمر، وهدى بهما من كان بين ظهرانيه فقال:﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾ يقول تعالى : وهدينا أيضًا من ذرية نوح﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ وهو: إسماعيل بن إبراهيم ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ ولما كان إسماعيل واليسع ممن هدى الله بهما قومهما من غير عذاب، أتبعهما مَن هدى الله قومه بالعذاب وأنجاهم بعد إتيان مقدماته فقال: ﴿وَيُونُسَ﴾ أي هديناه، ولما انقضت ذرية إبراهيم عليه السلام ختم بابن أخيه الذي ضل قومه فهلكوا بغتة، فبين قصتي هذين الآخرين طباق من جهة الهلاك والنجاة، ووفاق من حيث إن كلاً منهما أرسل إلى غير قومه فقال: ﴿وَلُوطًاۚ﴾ ابن أخي إبراهيم – عليه السلام –، ثم وصفهم بما يعم من قبلهم فقال: ﴿وَكُلًّا﴾أي ممن ذكرنا ﴿فَضَّلْنَا﴾ أي بما لنا من العظمة بتمام العلم وشمول القدرة ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني عالمي زمانهم فكل هؤلاء الأنبياء ممن هداه الله بهداه وجاهد في الله حق جهاده .

وحرف الواو لا يوجب ولا يفيد الترتيب البتة، لا بحسب الشرف ولا بحسب الزمان ، وذلك لأنه تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء بنوع من الإكرام والفضل.

فمن المراتب المعتبرة عند جمهور الخلق: الملك والسلطان والقدرة، والله تعالى قد أعطى داود وسليمان — عليهما السلام – من هذا الباب نصيباً عظيماً.

والمرتبة الثانية: البلاء الشديد والمحنة العظيمة، وقد خص الله أيوب — عليه السلام – بهذه المرتبة والخاصية.

والمرتبة الثالثة: من كان مستجمعاً لهاتين الحالتين، وهو يوسف – عليه السلام – ، فإنه نال البلاء الشديد الكثير في أول الأمر، ثم وصل إلى الملك في آخر الأمر.

والمرتبة الرابعة: من فضائل الأنبياء – عليهم السلام – وخواصهم قوة المعجزات وكثرة البراهين والمهابة العظيمة والصولة الشديدة ، وتخصيص الله تعالى إياهم بالتقريب العظيم والتكريم التام، وذلك كان في حق موسى وهارون.

والمرتبة الخامسة: الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا، وترك مخالطة الخلق، وذلك كما في حق زكريا ويحي وعيسى وإلياس، ولهذا السبب وصفهم الله بأنهم من الصالحين.

والمرتبة السادسة: الأنبياء الذين لم يبق لهم فيما بين الخلق أتباع وأشياع، وهم إسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط ، فإذا اعتبر هذا الوجه ظهر أن الترتيب حاصل في ذكر هؤلاء الأنبياء– عليهم السلام – بحسب هذا الوجه [(١)].

[(١)] – انظر : تفسير الطبري جامع البيان ت شاكر (١١/ ٥١٠) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ١٦٧) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٥٢) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٧٥)

ولما نص سبحانه على هؤلاء، وختم بتفضيل كل على العالمين، أتبعه على سبيل الإجمال أن غيرهم كان مهدياً، فقال ترغيباً في سلوك هذا السبيل بكثرة سالكيه وحثاً على منافستهم في حسن الاستقامة عليه والسلوك فيه ، فيقول تعالى : ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ وهدينا أيضًا أصولهم من آباء هؤلاء الذين سماهم تعالى ذكره ، ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ ومن ذرياتهم من فروعهم من الرجال والنساء ﴿وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ آخرين سواهم، لم يسمهم،، فوفقناهم للحق والدين الخالص الذي لا شرك فيه ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ واخترناهم لديننا ، وفضلناهم وضممناهم إلى خاصتنا واصطفيناهم لبلاغ رسالتنا إلى من أرسلناهم إليه، كالذي اخترنا ممن سمَّينا ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وسدّدناهم فأرشدناهم إلى طريق غير معوجّ، وذلك دين الله الذي لا عِوَج فيه، وهو الإسلام الذي ارتضاه الله ربُّنا لأنبيائه، وأمر به عباده[(١)].

ولما كان ربما أوهم تنكيرُه نقصاً فيه، قال مستأنفاً بياناً لكماله وتعظيماً لفضله وإفضاله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ذلك الهدى العظيم الرتبة ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى ما دانوا به ، المستجمع لصفات الكمال ، أي هذا الهدى الذي هديت به من سميت من الأنبياء والرسل، فوفقتهم به لإصابة الدين الحقّ الذي نالوا بإصابتهم إياه رضا ربهم، وشرفَ الدنيا، وكرامة الآخرة، هو﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ هو توفيق الله ولطفه، الذي يوفق به من يشاء، ويلطف به لمن أحب من خلقه، حتى ينيب إلى طاعة الله، وإخلاص العمل له، وإقراره بالتوحيد، ورفضِ الأوثان والأصنام ، وفي هذا دليل على أنه متفضل عليهم بالهداية.

ولما بين فضل الهدى ونص على رؤوس أهله، تهدد من تركه كائناً من كان، فقال مظهراً لعز الإلهية بالغنى المطلق منزهاً نفسه عما لوحظ فيه غيره ولو بأدنى لحظ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ولو أشرك هؤلاء الأنبياء الذين سميناهم، بربهم تعالى ذكره، فعبدوا معه غيره مع فضلهم وتقدمهم ، وما رفع لهم من الدرجات العلى ، وأقام بهم معوج المسالك، وأنار بهم ظلام الأرض بطولها والعرض ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم﴾ فسد وسقط وبطل ، فذهبَ عنهم أجرُ أعمالهم التي كانوا يعملون قبل الإشراك ؛ لأن الله لا يقبل مع الشرك به عملاً ، وفيه تشديد لأمر الشرك، وتغليظ لشأنه، وتعظيم لملابسته.

وهذا بناء على الحكم فيهم لو أشركوا إلا أنهم لا يشركون؛ لأن اللَّه قد عصمهم واختارهم لرسالته واختصهم لنبوته، فلا يحتمل أن يشركوا، لكن ذكر هذا؛ ليعلموا أن حكمه واحد فيمن أشرك في اللَّه غيره وضيعاً كان أو شريفاً.[(٢)]

---

(١) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٥١٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣١٨) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٨٠)

(٢) - جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٥١٣) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٥٦) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٧١) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥١٩) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٩) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٨٠)

ثم زاد في تشريفهم فقال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ هؤلاء الذين سميناهم من أنبيائه ورسله، نوحاً وذريته الذين هداهم لدين الإسلام، واختارهم لرسالته إلى خلقه، العالية رتبتهم ؛ الذين قدمنا ذكرهم وأخبرنا أنهم لو أشركوا سقطت أعمالهم هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ﴾ بعظمتنا ﴿ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ يعني بذلك: صحفَ إبراهيم وموسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى صلوات الله عليهم أجمعين﴿ وَٱلۡحُكۡمَ ﴾ العلم والفقه والفهم بالكتاب، ومعرفة ما فيه من الأحكام .

وفيه إشارة إلى أنه تعالى أعطاهم العلم الكثير ، وفهماً تاماً لما في الكتاب ، وعلماً محيطاً بحقائقه وأسراره ؛ لأن الأنبياء الثمانية عشر المذكورين ما أنزل الله تعالى على كل واحد منهم كتابا إليها على التعيين والتخصيص.

وقوله: ﴿ وَٱلۡحُكۡمَ ﴾ إشارة إلى أنه تعالى جعلهم حكاماً على الناس ، نافذي الحكم فيهم بحسب الظاهر ، وقوله: ﴿ وَٱلنُّبُوَّةَۚ ﴾ إشارة إلى المرتبة الثالثة، وهي الدرجة العالية الرفيعة الشريفة التي يتفرع على حصولها حصول المرتبتين المقدمتين المذكورتين، وأنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم، ولطفاً منا بالخليقة، ثم سبب عن تعظيمها بذلك تعظيمَها بأنها لا تبور، فقال تسلية عن المصيبة بطعن الطاعنين فيها وإعراض الجاهلين عنها وترجية عندما يوجب اليأس من نفرة اكثر المدعوين:﴿ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ فإن يكفر يا محمد بآيات كتابي الذي أنزلته إليك ، فيجحد هؤلاء المشركون العادلون بربهم، وقد حبوناهم بها على أتم وجه وأكمله وأعلاه وأجمله، وأنت تدعوهم إلى أن يكونوا سعداء بما اشتملت عليه من الهدى وهم عنه معرضون، ولعل الإشارة على هذا الوجه لتحقيرهم ، ﴿ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا ﴾ ذوي قوة على القيام بالأمور بالإيمان بها والحفظ لحقوقها ﴿ لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ يعني به الأنبياء الثمانية عشر الذين سماهم الله تعالى في الآيات قبل هذه الآية، وذلك أن الخبر في الآيات قبلها عنهم مضى، وفي التي بعدها عنهم ذكر[1]، فما بينها بأن يكون خبرًا عنهم، أولى وأحق من أن يكون خبرًا عن غيرهم.

ومعنى توكيلهم بها أنهم وفقوا للإيمان بها ،والقيام بحقوقها كما يوكل الرجل بالشئ ليقوم به ويتعهد ويحافظ عليه. [2]

ثم ذكر صفة من وكلهم بها فقال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ القوم الذين وكلنا بآياتنا وليسوا بها بكافرين، هم الذين هداهم الله لدينه الحق، وحفظ ما وكلوا بحفظه من آيات كتابه، والقيام بحدوده، واتباع حلاله وحرامه،

---

[1] – وهي قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠ ﴾ الأنعام: ٩٠

[2] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٥١٤) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٥٦) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٥٥) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٢٠) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٩) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٨١)

والعمل بما فيه من أمر الله، والانتهاء عما فيه من نهيه، فوفقهم جل ثناؤه لذلك ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ الاقتداء طلب موافقة الغير في فعله ، والمعنى : فاقتد بالعمل الذي عملوا، والمنهاج الذي سلكوا، وبالهدى الذي هديناهم، والتوفيق الذي وفقناهم واصبر كما صبروا، فإن قومهم قد كذبوهم فصبروا على ما كذبوا وأوذوا، فاقتد بهم يا محمد واعمل بعملهم وخذ به واسلكه، فإنه عمل لله فيه رضًا، ومنهاجٌ من سلكه اهتدى .

وذلك يدل على أن الأنبياء والرسل كانوا على دين واحد، وأن الدِّين لا يحتمل النسخ والتغيير[1].[2]

ولما أمره بالاقتداء بهدى الأنبياء – عليهم السلام – المتقدمين، وكان من جملة هداهم ترك طلب الأجر في إيصال الدين وإبلاغ الشريعة فإنه ﷺ لا جرم اقتدى بهم في ذلك، فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد لهؤلاء الذين أمرتك أن تذكّرهم بآياتي، أن تبسَل نفس بما كسبت، من مشركي قومك : ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ عوضاً أعتاضه منكم عليه، وأجراً آخذه منكم، أستكثر بها وأختص بدنياها ، على تذكيري إياكم، والهدى الذي أدعوكم إليه، والقرآن الذي جئتكم به، كما لم يسأل من قبلي من النبيين ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ فما ذلك مني إلا تذكير لكم، ولكل من كان مثلكم ممن هو مقيم على باطل، أحذركم بَأسَ الله أن يَحُلّ بكم، وسَخَطه أن ينزل بكم على شرككم به وكفركم وإنذارٌ لجميعكم بين يدي عذاب شديد، لتذكروا وتنزجروا ، بل هو ذكرى ودعاء لجميع العالمين، يتذكرون به فيرشدوا من العمى إلى الهدى، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الكفر إلى الإيمان.

ثم إن الهداية هدايتان هداية إصابة الحق، وهداية العلم بالحق، وهي هداية البيان، فهذه الهداية مما يشترك فيها المسلم والكافر جميعًا.

وأما هداية إصابة الحق: فهي خاصة للرسل والأنبياء والمسلمين جميعًا.

والهداية – هاهنا – هي إصابة الحق لا العلم بالحق؛ لأنهم اشتركوا جميعًا في العلم بالحق: الكافر والمسلم[3].

---

[1] – حيث إنه قال في آية أخرى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾[الشورى: ١٣] أخبر أنه شرع لنا الدِّين الذي وصى به نوحًا، وذلك يدل على أن الدِّين واحد لا يحتمل النسخ، وأما الشرائع: فهي مختلفة؛ لأنها تحتمل النسخ، وتحتمل الأمر بالاقتداء بهم ما ذكر. تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٥٩)

[2] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٥١٨) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٧٠) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٥٩) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٣٥)

[3] – جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٥٢٠) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٥٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٢٠) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٥٨) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٧٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٩)

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. نبه الله تعالى محمداً ﷺ على الاقتداء بإبراهيم في محاجته قومه إذ كانوا أهل أصنام وكان قوم محمد ﷺ أهل أصنام.[١]

٢. في التعبير بالاقتداء إيماء إلى تبكيت كفار العرب حيث اقتدوا بمن لا يصلح للقدوة من آبائهم، وتركوا من يجب الاقتداء به[٢].

٣. بيّن تعالى أن مَن عبد غيره تعالى فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ، ولا ينفعه نسبه إن ساء عمله .

٤. لابد لِمن أراد تحقيق التوحيد حتى يتحقق له النجاة والفوز يوم القيامة أن يتبرأ من الشرك وأهله ولو كان أقرب الناس إليه ، كما فعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، لأن الله يقول في كتابه الكريم :﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٣] والله أعلم.

٥. بيان أن المشركين بذلوا كلَّ شيء للتغلب على إبراهيم عليه السلام ، فأَوْرَدُوا عليه أولاً شبهاً أدْحَضَها ورَدَّها عليهم ثم هدّدوه ، ثم فعلوا ما قالوا وأَلْقَوْه في النار ؛ فعلوا كلَّ ذلك ليرجع إبراهيم عن دينه ، وتركهم على عبادتهم الباطلة ، لكن إبراهيم – عليه السلام – ثابتٌ على دينه ، متوجهٌ إلى ربِّ السموات والأرض الذي بيده مفاتح كلِّ شيء .

٦. أن الداعية لابد له من الصبر على الأذى الذي يناله في الله من أجل هذه الدعوة ، ولابد له من اليقين برب السماوات والأرَضين حتى ينال الإمامة في الدين ، ولابد له أن يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له .

٧. أن من بركات التوحيد في الدنيا حِفْظ الله للعبد ، ورزقه الذرية الصالحة ، ورفع العبد في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فرفعه على أعدائه بالتغلب عليهم ، وأما في الآخرة فرفعه في درجات الجنة.

---

[١] – المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣١٠)

[٢] – نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٨٣)

[٣] – الآية (٢٢) من سورة المجادلة .

٨. دلت هذه الآية على أنه تعالى سينصر نبيه ويقوي دينه، ويجعله مستعلياً على كل من عاداه، قاهراً لكل من نازعه .[١]

٩. وجوب اتباع شرائع الأنبياء – عليهم – فيما عدم فيه النص .[٢]

١٠. احتج العلماء بهذه الآيات على أن رسولنا ﷺ أفضل من جميع الأنبياء – عليهم السلام – ، وتقريره: هو أنا بينا أن خصال الكمال، وصفات الشرف كانت مفرقة فيهم بأجمعهم، فداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر على النعمة، وأيوب كان من أصحاب الصبر على البلاء ويوسف كان مستجمعاً لهاتين الحالتين ، وموسى – عليه السلام – كان صاحب الشريعة القوية القاهرة والمعجزات الظاهرة، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، كانوا أصحاب الزهد، وإسماعيل كان صاحب الصدق، ويونس صاحب التضرع، فثبت إنه تعالى إنما ذكر كل واحد من هؤلاء الأنبياء ؛ لأن الغالب عليه كان خصلة معينة من خصال المدح والشرف، ثم إنه تعالى لما ذكر الكل أمر محمداً ﷺ بأن يقتدي بهم بأسرهم، فكان التقدير كأنه تعالى أمر محمداً ﷺ أن يجمع من خصال العبودية والطاعة كل الصفات التي كانت مفرقة فيهم بأجمعهم ، ولما أمره الله تعالى بذلك، امتنع أن يقال: إنه قصر في تحصيلها، فثبت أنه حصلها، ومتى كان الأمر كذلك، ثبت أنه اجتمع فيه من خصال الخير ما كان متفرقاً فيهم بأسرهم، ومتى كان الأمر كذلك، وجب أن يقال: إنه أفضل منهم بكليتهم. .[٣]

١١. الدلالة على أنه ﷺ مبعوث إلى كل أهل الدنيا لا إلى قوم دون قوم[٤].

١٢. تدل هذه الآية على أن الدين يجب أن يكون مبنياً على الدليل لا على التقليد، وإلا لم يكن لهذا لاستدلال نبي الله إبراهيم – عليه السلام – فائدة ألبتة.[٥]

١٣. لا يجوز أن يكون لله رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله موحد وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء وكيف يتوهم هذا على من عصمه الله وطهره وآتاه رشده من قبل وأخبره عنه؟[٦]

---

[١] - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٥٥)

[٢] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٣٥)

[٣] - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٥٧)

[٤] - المرجع السابق (١٣/ ٥٨)

[٥] - المرجع السابق (١٣/ ٤٥)

[٦] - معالم التنزيل للبغوي (٢/ ١٣٩)

١٤. أن إبراهيم – عليه السلام – صرف معرفة الرب من جهة خلقه، ودان بدينه من جهة النظر في الآيات والبحث عنها، دون أن يقلد أباه أو قومه؛ ليعرف سبيل طلب الحق ووجه اتباعه؛ ليكون ذلك تذكرة لجميع ذريته. –[١]

١٥. أن المحاجة في الدِّين على قدر ما تحتمله العقول لازمة وضرورة ؛ إذ بها أفحم إبراهيم عليه السلام قومه وأظهر دين ربه .

١٦. أن اللَّه لم يهمل القوم في شيء من الأزمنة دون أن يجعل لهم أدلة للحق يظفرون بها لو تأملوا، ولا ألزم خلقه في زمان من الأزمان بشيء لو بحث عنه لا يوقف عليه ولا يتهيأ له؛ ولذلك أظهر الحجج وآثار البينات؛ ليعلم أنه جعل أوامره كلها تالية الأدلة والبراهين؛ ليقطع بها عذر من تأبى نفسه القيام بها.[٢]

١٧. لا أحد يقوم بالحجاج ولا ينطق بحسن البيان إلا بعطية الله وامتنانه عليه بما ينطق به لسانه ولوفقه للقيام به[٣].

١٨. أن بفضل الله ينال الدرجات في أمر دينه، ويرتقي إلى منازل الفضل والشرف بمشيئته ، وأنه متى شاء الرفع كان [٤].

١٩. وفي هذه الآية دليل أن شرائع المتقدمين واجبة علينا ما لم يظهر نسخها إذا ثبت ذلك في الكتاب، أو على لسان الرسول ﷺ ؛ لأن الله تعالى أمرنا بأن نقتدي بهداهم، واسم الهدى يقع على التوحيد والشرائع[٥].

المطلب الثامن : إنكار المشركين ما جاء من الله تعالى والافتراء عليه (٩١ – ٩٤)

يقول الله سبحانه تعالى :﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ

---

[١] – تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٤١)

[٢] تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٤٣)

[٣] – المرجع السابق (٤/ ١٤٣)

[٤] – المرجع السابق (٤/ ١٤٣)

[٥] – بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٦٦)

ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

أولا : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

لما حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه ذكر دليل التوحيد، وإبطال الشرك، وقرر تعالى ذلك الدليل بالوجوه الواضحة وبين مكانة الله تعالى في قلوب الأنبياء وكيف عرفوا قدره وجلاله ، لأن من أقرّ أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره ، بين أن ذلك القول يقوله أمثالهم في كل زمان ومنهم الذين يقولونه الآن ممن يزعمون أن الأديان من صنع البشر وأنها تطورت وترقت بتطور البشر وترقيهم. لا يفرقون في هذا بين ديانات هي من تصورات البشر أنفسهم، كالوثنيات كلها قديماً وحديثاً، ترتقي وتنحط بارتقاء أصحابها وانحطاطهم، ولكنها تظل خارج دين الله كله. وبين ديانات جاء بها الرسل من عند الله، وهي ثابتة على أصولها الأولى جاء بها كل رسول فتقبلتها فئة وعتت عنها فئة ثم وقع الانحراف عنها والتحريف فيها، فعاد الناس إلى جاهليتهم في انتظار رسول جديد، بذات الدين الواحد الموصول. وهذا القول الذي كان يقوله مشركو مكة في جاهليتهم [1] حيث أردفه هنا بذكر من أنكروا قدرة الله تعالى عليهم، فقال : ﴿**وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ**﴾

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

يقول تعالى : ﴿**وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ**﴾ أي : وما عرفوه حق معرفته في الرحمة والإنعام على العباد ، وفيما وجب له واستحال عليه وجاز ، فمن لم يؤمن من المشركين لم يقدر الله حق قدره ، وما أجلّ الله حق إجلاله، ولا عظمه حق تعظيمه ، ولا عرفه حق معرفته التي تعرف بالاستدلال، وإلا لا أحد يقدر أن يعرف اللّه حق معرفته، ولا يعظمه حق عظمته حقيقة ، فهم ما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عباده واللطف بهم حين أنكروا بعثة الرسل والوحي إليهم، وذلك من أعظم رحمته وأجلّ نعمته ، وما عرفوه حق معرفته في سخطه على الكافرين وشدّة بطشه بهم، ولم يخافوه حين جسروا على تلك المقالة العظيمة من إنكار

[1] - انظر : في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١١٤٥) مع إضافة من الباحثة .

النبوّة﴿إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾ حين قالوا: لم ينزل الله على آدميٍّ كتابًا ولا وحياً، وكل من أنكر إمكان البعثة والرسالة، فقد وصف الله بالعجز ونقصان القدرة، وأنه لا يقيم الحجة على عباده، ولا يأمرهم بما لهم فيه الصلاح، وكل من قال ذلك فهو لم قدر الله حق قدره.

وعني بقوله : ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ مشركو قريش؛ وذلك أنه جاء في سياق الخبر عنهم ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لمشركي قومك السفهاء الذين تجرؤوا على هذه المقالة ، غير ناظرين في عاقبتها وما يلزم منها توبيخاً لهم وتوقيفاً على موضع جهلهم ﴿مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الجامع للأحكام والمواعظ ، وخيري الدنيا والآخرة ﴿ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا﴾ جلاءً وضياء من ظلمة الضلالة ﴿وَهُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ بياناً للناس، يبين لهم به الحق من الباطل فيما أشكل عليهم من أمر دينهم حتى غيروه ونقصوه ، وجعلوه قراطيس مقطعة ، وورقات مفرقة، حتى لا تكون مجموعة؛ ليتمكنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء، فخاطبهم بما كان منهم بعد جعلهم الكتب قراطيس ، وما يدل على صحة ذلك ما جاء بعده حيث قال : ﴿تُبۡدُونَهَا﴾ تظهرونها في الصحف ﴿وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗا﴾ تكتمون ما فيه صفة محمد ﷺ ونعته وآية الرجم، وتحريم الخمر.

وإلزام قريش بإنزال التوراة ؛ لأنه كان من المشهورات الذائعة عندهم ، ولذلك كانوا يقولون : ﴿لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ﴾ [الأنعام: ١٥٧]

﴿وَعُلِّمۡتُم﴾ وعلمكم الله جل ثناؤه بالكتاب الذي أنزله إليكم على لسان محمد ﷺ ﴿مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ﴾ ما لم تعلموا أنتم يا معشر العرب من الهدايات والإرشاد إلى الحق ما لم تكونوا عالمين به ، ومن أخبار من قبلكم، ومن أنباء من بعدكم، وما هو كائن في معادكم يوم القيامة ﴿وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ﴾ ولم يعلمه آباؤكم، فما انتفعتم به لإعراضكم وضلالكم.

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ فإنهم لا يقدرون أن يناكروك ، فأمره أن يجيب استفهام هؤلاء المشركين عما أمره باستفهامهم عنه بقوله: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗا﴾

فإذا أقمت الحجة عليهم ، وبلغت في الأعذار والإنذار وهذا المبلغ العظيم ،فحينئذ لم يبق عليك من أمرهم شيء البتة ، فأعرض عن من كفر ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ ثم إن لم يصدقوك ذَر هؤلاء المشركين العادلين بربهم الأوثان والأصنام، بعد احتجاجك عليهم في قيلهم:﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾

بقولك: ﴿مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ﴾ وإجابتك ذلك بأن الذي أنزله هو الله الذي أنزل عليك كتابه .

فاتركهم ﴿فِي خَوۡضِهِمۡ﴾ الذهاب فيما لا تسبر حقائقه من باطلهم وكفرهم وتكذيبهم بالله وآياته ﴿يَلۡعَبُونَ﴾ يستهزئون ويسخرون ، ويلهون ويفترون ، وكل من خاض فيما لا ينفح به فهو لاعب، فاللعب هو ما لا يجر لهم نفعاً ولا يدفع عنهم ضراً مع تضييع الزمان.

وهذا من الله وعيد لهؤلاء المشركين وتهدُّد لهم ، حيث يقول الله جل ثناؤه: ثم دعهم لاعبين يا محمد ، فإني من وراء ما هم فيه من استهزائهم بآياتي بالمرصاد، وأذيقهم بأسي، وأحلّ بهم إن تمادوا في غَيِّهم سَخَطي ، ولا عليك بعد إلزام الحجة.[1]

ولما أبطل بالدليل قول من قال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾ وأثبت سبحانه أنه الذي أنزل التوراة والإنجيل تكميلاً لإثبات الرسالة بدليل علم اليهود دون من لا كتاب لهم، عطف على ذلك قوله تأكيداً لإثباتها وتقريراً حيث ذكر بعده أن القرآن كتاب الله، أنزله الله تعالى على محمد ﷺ فيقول تعالى ذكره: ﴿وَهَٰذَا﴾القرآن يا محمد ﴿كِتَٰبٌ﴾وهو اسم من أسماء القرآن ، ومعناه مكتوب، فوضع"الكتاب" مكان"المكتوب".

ثم أتى بنون العظمة، لأنها أدل على تعظيمه فقال: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾أوحيناه إليك ؛ ليعلم أنه من عند الله تعالى وليس من عند محمد ﷺ من نفسه ؛ لأنه لا يبعد أن يخص الله محمداً ﷺ بعلوم كثيرة يتمكن بسببها من تركيب ألفاظ القرآن على هذه الصفة من الفصاحة ، فبين تعالى أنه ليس الأمر على هذه الصفة ، وأنه تعالى هو الذي تولى إنزاله بالوحي على لسان جبريل – عليه السلام – وصفة هذا الكتاب المنزل أنه ﴿مُبَارَكٞ﴾وهو"مفاعل" من"البركة" لما به ينال كل بركة، وهي كل بر وخير ، وكل ما يثمر وينمو في الحادث، فمن اتبعه نال به كل بر وخير وكل ثمرة ونماء ، فهو كتاب دائم بركته ومنفعته، يبشر بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية.[2]﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ صدّق هذا الكتاب ما قبله من كتب الله التي أنزلها على

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٥٢١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٧١) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٦٥) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٦٧) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ١٦٨) الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٤) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٢١) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٥٤)مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٥٨) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٣٧) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٧٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٠) الجواهر الحسان للثعالبي (٢/ ٤٩٣) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٨٣) مع تصرف وإضافة من الباحثة .

[2] – يقول الإمام فخر الدين الرازي : " العلوم إما نظرية، وإما عملية أما العلوم النظرية، فأشرفها وأكملها معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه، ولا ترى هذه العلوم أكمل ولا أشرف مما تجده في هذا الكتاب وأما العلوم العملية، فالمطلوب، إما أعمال الجوارح وإما أعمال

أنبيائه قبلك، لم يخالفها دلالة ومعنى ؛ لأنه كان يدعو الخلق إلى ما كان يدعو سائر الكتب التي أنزلها على الرسل، من توحيد اللّه والنهي عن إشراك غيره في الألوهية والربوبية، ويدعو إلى كل عدل وإحسان، وينهى عن كل فاحشة ومنكر؛ وكذلك سائر الكتب دعت الخلق إلى ما دعا هذا، لم يخالف بعضهم بعضاً ، بل كانت موافقة بعضها لبعض؛ وإلى جانب الحكمة من إنزاله بأن يكون مباركاً ومصدقاً كذلك فإنه أنزل إليك لتنذر ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي : أنزلنا إليك يا محمد هذا الكتاب مصدِّقًا ما قبله من الكتب، ولتنذِر به عذابَ الله وبأسَه مَنْ في أم القرى، وهي مكة ؛ سميت بإم القرى ؛ لأنها متقدمة، ومنها منشأ الدين والشرع ، ومنها دحيت الأرض ، ولأنها أعظم القرى شأناً ومنزلة ، ولأنها قبلة أهل الدنيا، فهي كالأصل وسائر البلاد والقرى تابعة لها، وهي مقصد الخلق في الحج، وفيها تقضى المناسك، وإليها يقصدون ويأمون، وإليها يتوجهون في الصلوات، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾أهل الأرض كلهم من العادلين بربّهم غيره من الآلهة والأنداد، والجاحدين برسله، وغيرهم من أصناف الكفار.

ثم بين مكانة الإيمان به فقال : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ومن كان يؤمن بقيام الساعة والمعادِ في الآخرة إلى الله، ويصدِّق بالثواب والعقاب، فإنه يؤمن بهذا الكتاب الذي أنزلناه إليك، يا محمد، ويصدق به، ويقرّ بأن الله أنزله، ويحافظ على الصلوات المكتوبات التي أمرَه الله بإقامتها، لأنه منذرُ من بلغه وعيد الله على الكفر به وعلى معاصيه، فالقرآن جاء في تأييد حجج البعث وتأكيده، فلا يجوز أن يؤمنوا بما يؤيده القرآن ولا يؤمنوا بالقرآن.

فالذي يؤمن بالآخرة هو الذي يؤمن بالوعد والوعيد والثواب والعقاب، ومن كان كذلك فإنه يعظم رغبته في تحصيل الثواب، ورهبته عن حلول العقاب، ويبالغ في النظر والتأمل في دلائل التوحيد والنبوة، ويخافون الآخرة .

وبالتالي من لم يؤمن بالقرآن ، فليس إيمانه بالآخرة حقيقة، ولا يعتد به، ألا ترى إلى قوله : ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فدل على أنه أراد المؤمنين الذين يحافظون على الصّلوات، وإنما خصّ الصلاة بالذكر؛ لأنها عماد الدين ، وقاعدة العبادات وأم الطاعات، ومن حافظ عليها كانت لطفاً في المحافظة على أخواتها .

والتنبيه على أن الصلاة أشرف العبادات بعد الإيمان بالله وأعظمها خطراً، ألا ترى أنه لم يقع اسم الإيمان على شيء من العبادات الظاهرة إلا على الصلاة كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي صلاتكم، ولم يقع اسم الكفر على شيء من المعاصي إلا على ترك الصلاة، قال ﷺ: (

القلوب، وهو المسمى بطهارة الأخلاق وتزكية النفس ولا تجد هذين العلمين مثل ما تجده في هذا الكتاب، ثم قد جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عنه والمتمسك به يحصل له عز الدنيا وسعادة الآخرة "ثم قال : " وقد نقلت أنواعا من العلوم النقلية والعقلية، فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم. مفاتيح الغيب (١٣/ ٦٤ – ٦٥)

إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ[1] فلما اختصت الصلاة بهذا النوع من التشريف لا جرم خصها الله بالذكر في هذا المقام.

وإنما يجحد به وبما فيه ويكذِّب، أهل التكذيب بالمعاد، والجحود لقيام الساعة، لأنه لا يرجو من الله إن عمل بما فيه ثوابًا، ولا يخاف إن لم يجتنب ما يأمره باجتنابه عقابًا.[2]

ولما شرح كون القرآن كتاباً نازلاً من عند الله تعالى ، وبين ما فيه من صفات الجلالة والشرف والرفعة، ذكر عقيبه ما يدل على وعيد من ادعى النبوة والرسالة على سبيل الكذب والافتراء فقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ ومن أخطأ قولاً ، وأجهل فعلاً ﴿ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ ممن اختلق على الله كذباً، فادعى عليه أنه بعثه نبيّاً وأرسله نذيراً، وهو في دعواه مبطل، وفي قيله كاذب.

فلا أحد أفحش ظلماً ممن افترى على اللَّه؛ لأنه يتقلب في نعم اللَّه في ليله ونهاره وأحيانه، فهو أفحش ظلمًا وأوحش كذباً.

وهذا تسفيهٌ من الله لمشركي العرب جميعهم ، وبيان استكبارهم ، وتجهيلٌ منه لهم إذ كان قائلو ذلك منهم، فلم يغيّروه ؛ فعيّرهم الله بذلك، وتوعّدهم بالعقوبة على تركهم نكيرَ ذلك، ومع تركهم نكيرَه هم بنبيه محمد ﷺ مكذبون، ولنبوّته جاحدون، ولآيات كتاب الله وتنزيله دافعون، فقال لهم جل ثناؤه:﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ ممن ادّعى النبوّة كاذباً ، وقال:﴿ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ولم يوح إليه شيء، ومع ذلك يقول:﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾فينقض قولَه بقوله، ويكذب بالذي تحققه، وينفي ما يثبته، وذلك إذا تدبره العاقلُ الأريب علم أن فاعله من عقله عديم.

ونراه خص بقوله: ﴿ أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾بعد أن عم بقوله: ﴿ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ لأنه ليس كل مفترٍ على الله يدعي أنه أوحي إليه .

"والفرق بين هذا القول وبين ما قبله، أن في الأول كان يدعي أنه أوحي إليه ،وما كان يكذِّب بنزول الوحي على محمد ﷺ ، وأما في هذا القول، فقد أثبت الوحي لنفسه ونفاه عن محمد عليه الصلاة والسلام، وكان هذا جمعاً بين نوعين عظيمين من الكذب، وهو إثبات ما ليس بموجود ، ونفي ما هو موجود "[3].

---

(1) – أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (١/ ٨٨) باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة عن عبد الله بن جابر ، برقم : (٨٢)

(2) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٥٣٠) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٧١) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٦٧) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٤٢) تفسير السمعاني (٢/ ١٢٥) الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٥) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٢٢) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٥٤) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٦٤) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٢١) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٨٧) مع تصرف وإضافة من الباحثة

(3) - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٦٧)

" أما قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ فاعلم أن أول الآية وهو قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يفيد التخويف العظيم على سبيل الإجمال ، وقوله بعد ذلك: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ كالتفصيل لذلك المجمل، والمراد بالظالمين الذين ذكرهم "[1]

فيقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ولو ترى يا محمد، حين يغمر الموت بسكراته هؤلاء الظالمين العادلين بربهم الآلهة والأنداد، والقائلين: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ والمفترين على الله كذبًا، الزاعمين أنّ الله أوحى إليه ولم يوحَ إليه شيء، والقائلين: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فتعاينهم وقد غشيتهم سكرات الموت، ونزل بهم أمر الله، وحان فناء آجالهم، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ عليهم بالعذاب. يضربون وجوههم وأدبارهم .

وهذا خبر من الله جل ثناؤه عما تقولُ رسل الله التي تقبض أرواحَ هؤلاء الكفار لها، يخبر عنها أنها تقول لأجسامها ولأصحابها: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ بالعذاب والنكال، والأغلال والسلاسل، والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم،إلى سخط الله ولعنته، فإنكم اليوم تعاقبون على كفركم بالله، وقيلكم عليه الباطل، وزعمكم أن الله أوحى إليكم ولم يوحَ إليكم شيئاً، وإنكاركم أن يكون الله أنزل على بشر شيئاً ، واستكباركم عن الخضوع لأمر الله وأمر رسوله، والانقياد لطاعته ، فتتفرق روحه في جسده، وتعصى وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، وهذا عبارة عن العنف في السياق، والإلحاح وإدخال الرعب عليهم ، والتشديد في الإرهاق، وتوبيخ وتوقيف على سالف فعلهم القبيح ، من غير تنفيس وإمهال، وأنهم يفعلون بهم فعل الغريم المسلط يبسط يده إلى من عليه الحق، ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله، وكل ذلك يوصف أنه ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ العذاب الشديد ، وهو عذاب جهنم الذي يُهينُهم فيذلّهم، لا رأفة فيه ولا رحمة حتى يعرفوا صَغَار أنفسهم وذِلّتَها، وكان ذلك تقريع لهم وتوبيخ بظلم أنفسهم ، فجمع بين الإيلام وبين الإهانة، لذلك قال لهم : ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ تجددون القول دائماً بأن معه شريكاً وآلهة ' وكادعاء الولد والشريك له ، ودعوى النبوة والوحي كذباً ، وزاد من ذكر شنيع صنيعهم فقال : ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ تتعظمون وتأنفون عن الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن، لا تصدقونه ولا تؤمنون ولاتقرّون به، بل افتريتم أنه لم ينزل شيئاً ولم يوح إلي شيء، وإنما يوحي إليّ وغير ذلك من الافتراء الذي ذكروا، وفي هذا نفْيٌ منه عن نبيه محمد ﷺ اختلاقَ الكذب عليه ودعوى الباطل.[2]

---

(١) – المرجع السابق (١٣/ ٦٧)

(٢) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٥٣٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٧٢) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٧٣) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٦٩) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٣٠٠) الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٦) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٢٣)

ثم حكى الله تعالى ما يقال لهم بعد قبض أرواحهم يوم القيامة لهؤلاء العادلين به الآلهة والأنداد، فيخبر عبادَه أنه يقول لهم عند ورودهم عليه: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ ﴾ وفي هذا غاية التقريع والتوبيخ

ويعني بقوله: ﴿ فُرَادَىٰ ﴾ وُحداناً لا مال معهم، ولا إناث، ولا رقيق، ولا شيء مما كان الله خوّلهم في الدنيا فشغلتم به عن الآخرة ، وكل واحد منفرد من شريكه في الغي وشقيقه ، فلا معين ولا ناصر ولا أعوان لكم ، ولا شفعاء يشفعون لكم فيعين بعضكم بعضاً؛ ﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ كما بدأناكم أعدناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه، فهذا يوم البعث أتيتم عُرَاة غُلْفًا غُرْلا حُفاة، كما ولدتهم أمهاتهم، وكما خلقهم جل ثناؤه في بطون أمهاتهم، لا شيء عليهم ولا معهم مما كانوا يتباهَوْن به في الدنيا ، حيث قال : ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ خلفتم أيها القوم ما مكناكم ، وأعطيناكم وملّكناكم ورزقناكم في الدنيا مما كنتم تتباهون به فيها، تركتم كل ذلك خلفكم في الدنيا فلم تحملوه معكم، وظهر أن ما دأبتم في تحصيله في الدنيا فني، وبقي الندم على سوء الاختيار.

وهذا تعيير من الله جل ثناؤه لهؤلاء المشركين بمباهاتهم التي كانوا يتباهون بها في الدنيا بأموالهم، وزاد في توبيخهم ، حيث وبخهم على شركهم فقال : ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ﴾ ما نرى معكم شفعاءكم الذين كنتم في الدنيا تزعمون أنهم يشفعون لكم عند ربكم يوم القيامة، حيث حدث ما لم يكن في حسبانكم فيما أملتموه في الأنداد: ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ تقطع وصلكم ، وتشتت جمعكم الذي كان بينهم في الدنيا والشراكة ، ذهب ذلك اليوم، فلا تواصل بينهم ولا توادّ ولا تناصر، وقد كانوا في الدنيا يتواصلون ويتناصرون، فاضمحلّ ذلك كله في الآخرة، فلا أحدَ منهم ينصر صاحبه، ولا يواصله، ويصير بعضهم أعداء بعض، ويتبرأ بعضهم من بعض ﴿ وَضَلَّ عَنكُم ﴾ اشتغل عنكم ، وحاد عن طريقكم ومنهاجكم ﴿ مَّا كُنتُمْ ﴾ من آلهتكم ﴿ تَزْعُمُونَ ﴾ تزعمون أنه شريك ربكم، وأنه لكم شفيع عند ربكم، فلا يشفع لكم اليوم .

وهذه هي الشفاعة المنفية : وهي التي نفاها الله تعالى في كتابه ، فقد كان المشركون يعتمدون على أصنامهم ، ويعتقدون أنها ستشفع لهم عند الله ، فآيسهم الله تعالى من الاعتماد على هذه الشفاعة ، فقال :

زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٥٦) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٦٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٤٢) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٧٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٢) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٩١) مع تصرف وإضافة من الباحثة

﴿ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [(١)] . [(٢)]

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. أفادت الآية كغيرها مما ذكر عموم بعثة النّبي صلّى الله عليه وسلّم للجن والإنس، جميع أجناس البشر والطوائف والأقوام، دون تفرقة ولا تمييز بين جنس وآخر، أو عنصر وآخر، أو زمن أو مكان دون غيره[(٣)].

٢. أن تشريع الأرض إذا لم يكن في ضوء منهج الله فهو حضيض. والله يريد تشريعاً عالياً، ولا بد من أن نتلقى من الله تعالى أحكامنا ؛ حتى لا نتيه ولا نضل في باطل تشريعات لا تدور في إطار منهج الله[(٤)].

٣. أن رسول الله ﷺ تميّز بأن معجزته عين منهجه، لأن كل دين من الأديان السابقة كان لزمن محدود، في مكان محدود. وجاء ﷺ بالدين الجامع المانع، لذلك جاءت المعجزة هي المنهج [(٥)].

٤. انعدام الشفعاء يوم القيامة إلا ما قضت السنة الصحيحة من شفاعة النبي ﷺ والعلماء والشهداء بشروط هي: أن يأذن الله للشافع أن يشفع وأن يرضى عن المشفوع له[(٦)].

٥. الإيمان بالآخرة أصل من أصول الدين، ومن آمن بها آمن بالقرآن. والصلاة عماد الدين، ومن أقامها أقام الدين كله، ومن هدمها هدم الدين كله[(٧)].

٦. الإيمان بالآخرة سبب لكل خير، والكفر به سبب لكل باطل وشر[(٨)].

[(١)] – وهذا بخلاف أهل الإيمان فإنهم صرفوا عمرهم إلى تحصيل المعارف الحقة والأعمال الصالحة، وتلك المعارف والأعمال الصالحة بقيت معهم في قبورهم وحضرت معهم في مشهد القيامة، فهم في الحقيقة ما حضروا فرادى، بل حضروا مع الزاد ليوم المعاد . مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٦٩)

[(٢)] - جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٥٤٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٧٣) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٧٦) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٦٩) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٥٧) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٦٩) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٧٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٢) الجواهر الحسان للثعالبي (٢/ ٤٩٧)

[(٣)] – التفسير المنير للزحيلي (٧/ ٢٩٣)

[(٤)] – تفسير الشعراوي (٦/ ٣٧٨٤)

[(٥)] – تفسير الشعراوي (٦/ ٣٧٨٤)

[(٦)] – أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٩٣)

[(٧)] – التفسير المنير للزحيلي (٧/ ٢٩٤)

[(٨)] – أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٩١)

٧. بيان تلاعب اليهود بكتاب الله في إبداء بعض أخباره وأحكامه وإخفاء بعض آخر وهو تصرف ناتج من الهوى واتباع الشهوات وإيثار الدنيا على الآخرة[١].

٨. بيان علة نزول الكتاب وهي الإيمان به وإنذار المكذبين والمشركين[٢].

٩. بيان فضل الله على العرب بإنزال هذا الكتاب العظيم عليهم بلغتهم لهدايتهم[٣]، وفيه تحميل العرب مسؤولية تبليغ الدعوة لغيرهم ، حيث يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[الزخرف: ٤٤]

١٠. تعظيم الله واجب، ومن مقتضى تعظيمه الاعتراف بإنزاله الكتب السماوية على أنبيائه، رحمة بعبادة، وإصلاحا لشأنهم. [٤]

١١. تعليم الرسول ﷺ كيفية الحجاج والرد على المجادلين والكاذبين[٥].

١٢. تقرير عذاب القبر، وسكرات الموت وشدتها [٦].

١٣. تقرير عقيدة البعث الآخر والجزاء على الكسب في الدنيا[٧].

١٤. جميع رسل الله- صلوات الله عليهم وسلامه- جاءوا بالتوحيد المطلق الخالص الذي لا ظل فيه للشرك في صورة من صوره.. وأنهم جميعاً أخبروا الناس بحقيقة الرسول، وبشريته وأنه لا يملك لهم ولا لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا يعلم غيباً ، ولا يبسط أو يقبض رزقاً.. وأنهم جميعاً أنذروا قومهم بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء.. وأن سائر حقائق العقيدة الإسلامية الأساسية جاء بها كل رسول . [٨]

١٥. حكت الآيات مايليق بكرم الله وفضله، ورحمته وعدله، وحكمته وعلمه ؛ حيث إنه ما كان ليخلق البشر، ثم يتركهم سدى ، ثم يحاسبهم يوم القيامة ولم يبعث فيهم رسولاً ، إنما يكل الله الناس إلى وحيه ورسله وهداه وكتبه، ليرد فطرتهم إلى استقامتها وصفائها، وليرد عقولهم إلى صحتها وسلامتها، وليجلو عنهم غاشية التضليل من داخل أنفسهم ومن خارجها .[٩]

---

[١] - المرجع السابق (٢/ ٩١)

[٢] - المرجع السابق (٢/ ٩١)

[٣] - المرجع السابق (٢/ ٩١)

[٤] - التفسير المنير للزحيلي (٧/ ٢٩٣)

[٥] - أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٩١)

[٦] - المرجع السابق (٢/ ٩٣)

[٧] - المرجع السابق (٢/ ٩٣)

[٨] - في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١١٤٧)

[٩] - انظر : في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١١٤٦)

١٦. في الآيات دلالة أن نافي الرسالة عمن له الرسالة في الافتراء على اللّه والكذب؛ كمدعي الرسالة لنفسه وليست له الرسالة، سواء، كلاهما مفتر على اللّه كذباً ، وكذلك من ادعى أنه ينزل مثل ما أنزل اللّه، أو من ادعى أنه لم ينزل اللّه شيئاً، فهو في الافتراء على اللّه كالذي ادَّعى أنه ينزل مثل ما أنزل اللّه ، النافي والمدعي في ذلك سواء شرعاً ؛ فعلى ذلك يكون نافي الشيء ومثبته في إقامة الحجة والدليل سواء، واللّه أعلم[١].

١٧. قبح الاستكبار وعظم جرمه. [٢]

١٨. قبح الكذب على الله تعالى في أي شكل، وأن صاحبه لا أظلم منه قط[٣].

١٩. القرآن الكريم كتاب مبارك كثير الخير والعطاء، مصدق لما تقدمه من الكتب السماوية في صورتها الأصلية الصحيحة، ومهيمن عليها، وناسخ لما خالفه منها، ومبشر المحسنين بالجنة والمغفرة، ومنذر الكافرين والفاسقين بالنار والعذاب فيها[٤].

٢٠. كل من كذب الله تعالى أو أشرك به أو وصفه بوصف لا يليق بجلاله فإنه لم يقدر الله حق قدره[٥].

٢١. من أعرض عن الفقه والسنن وما كان عليه السلف من السنن ، فإنه موافق في قوله وفعله من جاء ذكرهم في الآيات بحيث يقول: وقع في خاطري كذا، أو أخبرني قلبي بكذا، فيحكمون بما يقع في قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم، ويزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار وخلوها من الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكليات ، ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، ويقولون: هذه الأحكام الشرعية العامة، إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص، فلا يحتاجون لتلك النصوص. وقد جاء فيما ينقلون: استفت قلبك وإن أفتاك المفتون ، ويستدلون على هذا بالخضر، وأنه استغنى بما تجلى له من تلك العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم، وهذا القول زندقة وكفر، يقتل قائله ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب، فإنه يلزم منه هدم الأحكام ، وإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ .[٦]

---

[١] - تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٧٣)

[٢] - أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٩٣)

[٣] المرجع السابق (٢/ ٩٣)

[٤] - التفسير المنير للزحيلي (٧/ ٢٩٣)

[٥] - أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٩١)

[٦] - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٣٩)

٢٢.   من آمن بالآخرة حقيقة آمن بالقرآن، فأما من آمن بالآخرة ولم يؤمن بالقرآن فإنه لم يؤمن بالآخرة إيماناً حقيقياً، فلم يعتد بإيمانه مع كفره بالقرآن[١] .

٢٣.   من عرف حكمة الله البالغة، ورحمته الواسعة، وعلمه المحيط بكل شىء، ونظر فى آياته فى الأنفس والآفاق، وعلم أنه أحسن كل شىء خلقه، وخلق الإنسان مستعدا للصعود إلى أعلى عليين، والهبوط إلى أسفل سافلين، وجعل كماله أثراً لعلومه وأعماله الكسبية التي عليها مدار حياته الدنيوية والأخروية- علم أن الإنسان مهما ارتقت معارفه لا يمكن أن يصل إلى الكمال الذي يؤهله لنيل السعادة الأبدية إلا إذا اهتدى بهدى النبيين والمرسلين، فإن إرسالهم وإنزال الوحى عليهم وإرشادهم للناس سبب لكل ارتقاء إنسانى فى حياتيه الجسمانية والروحية فبذلك تذهب الضغائن والأحقاد من القلوب، ويزول الخلاف والشقاء بين الناس، ويعيشون فى وفاق ووئام [٢].

٢٤.   هدم لقاعدتين من قواعد الوثنية وهما الفداء والشفاعة [٣].

٢٥.   الواجب على العالم إظهار جميع ما علمه من أحكام الله، ويحرم عليه إظهار بعضها، وإخفاء بعضها الآخر. [٤]

٢٦.   ودلت الآية على أن قبض روح الكافر في منتهى الشدة والعنف، وأما قبض روح المؤمن فيكون في يسر وسهولة. [٥]

٢٧.   يدخل في حكم هذه الآية كل من افترى على الله كذباً في ذلك الزمان وبعده ؛ لأن خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم [٦].

---

[١] – التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٢٩٩)

[٢] – تفسير المراغي (٧/ ١٨٨)

[٣] – المرجع السابق (٧/ ١٩٥)

[٤] – التفسير المنير للزحيلي (٧/ ٢٩٣)

[٥] المرجع السابق (٧/ ٣٠٠)

[٦] – مراح لبيد لمحمد نووي (١/ ٣٣٣)

المبحث الثالث : الذات الإلهية والدلالة عليها ، وذكر ما يليق بها وما لا يليق ويشتمل على خمسة مطالب (٩٥ ـ ١٣٥) :

تناسق هذا المبحث مع المبحث السابق :

يوجه الله تعالى عباده إلى ما يربي فيهم العقيدة الصحيحة ومحاربة الشرك ، وهي عقيدة التوحيد ، وذلك بأكثر من أسلوب ومن هذه الأساليب دعوة الناس إلى التفكر في آيات الله الكونية ؛ حيث إن التأمل وإعمال النظر والفكر في هذا الكون الفسيح ، ومشاهدة آيات الله العظيمة في الأنفس والآفاق يوجب للإنسان معرفة بالله تعالى وربوبيته ووحدانيته ، وبطلان ما يعبد من دونه من الشركاء والأنداد ؛ فإن عظمة المخلوق دليل على عظمة الخالق وقدرته ، وكلما تعرف الإنسان على شيء من مخلوقات الله تعالى ومظاهر عظمته في هذا الكون ازداد خوفاً منه ، وحباً له وإيماناً بأنه هو المستحق للعبادة وحده دونما سواه .[١] وأورد ما يحاججهم في الوقت نفسه بما يقرع الحجة بالحجة ؛ ليصلوا إلى عين الحقيقة وهي الاعتقاد بوحدانية الله تعالى .

إن الإيمان بالله والشعور بعظمته يأتيان ابتداء من النظر في الكون ، ودراسة قوانينه وكشف أسراره ، كما أن "عظمة الإيمان تعتمد ابتداء على فقه آيات الكون ، حيث يقف المرء على أسرار الإبداع الأعلى ، ويشعره بما يستحقه الخالق سبحانه من مجد وحمد "[٢].

وقد وجه الله تعالى العقل البشري إلى النظر في الكون ، واستعمال القياس الصحيح ، والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب ؛ ليصل بذلك إلى أن للكون صانعاً عليماً حكيماً قادراً ، وأن ذلك الصانع واحد لا شريك له ولا يحتاج إلى معين ، والدليل وحدة النظام في الكون[٣] .

لذلك ليتدبر الإنسان آيات الله تعالى في كتابه المقروء – القرآن الكريم – وليتدبر آياته المشاهدة والمحسوسة في كتابه المفتوح ، في كتابه الفسيح ، ثم ليربط بين هذه الآيات وتلك ؛ ليقوى لديه الإيمان بالله الواحد الأحد ، وترسخ لديه العقيدة بوجود الله ووحدانيته ، وعظيم قدرته وسلطانه ، وبالتالي يخضع له ويستجيب لأمره ، ويبق أوامره وينتهي عن نواهيه ، ويحذر من عصيانه .

فإن حجب الإنسان بعد ذلك ركوبه لرأسه، لجهالة، أو كبر، أو هوى في نفسه، حاول بالباطل ليدحض به الحق، غلب على أمره، ودارت عليه الدوائر، فخلق الإنسان ضعيف جداً، إذا ما قورن بالسماوات السبع والكرسي والعرش قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ

---

[١] – منهج القرآن الكريم في محاربة الشرك للحميضي (ص : ٢٦٤)

[٢] – ركائز الإيمان بين العقل والقلب لمحمد الغزالي (ص : ١٧)

[٣] – الإسلام دين العلم والمدنية لمحمد عبده (ص : ١٧٤) بتصرف .

ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٦ - ٥٧][1]

وإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم والقدرة عليه أبلغ، ويجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى ما خلق هذا الخلق العظيم لهوا ولعباً، ولا خلقه عبثاً ، وإنما خلقه لغاية عظيمة، وذلك ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى

و"لو أن الله تبارك وتعالى لم يعبد إلا عن رؤية ما عبده أحد، ولكن المؤمنين تفكروا في مجيء هذا الليل إذا جاء فملأ كل شيء، وغطى كل شيء، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء فمحا سلطان الليل، وفي السحاب المسخر بين السماء والأرض، وفي النجوم، وفي الشتاء والصيف، فوالله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم تبارك وتعالى، حتى أيقنت قلوبهم بربهم عز وجل، وحتى كأنما عبدوا الله تبارك وتعالى عن رؤية"[2].

فيجب أن ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله، في ملك الله وسلطانه في السموات وفي الأرض، وفيما خلق جل ثناؤه من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك، ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمنْ لا نظير له ولا شبيه، ومِنْ فِعْلِ من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، ويصدقوا رسوله وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذرُوا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه ، وإلا فبأيّ تخويفٍ وتحذير ترهيب بعد تحذير محمد ﷺ الذي وترهيبِه الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه، يصدِّقون، إن لم يصدقوا بهذا الكتاب الذي جاءهم به محمد ﷺ من عند الله تعالى؟[3] وهو الذي اصطفاه الله تعالى واختاره ليكون رسولاً للعالمين وهيأه وأعده ليحمل الرسالة كما ينبغي ، ويؤديها على الوجه الذي يرضاه الله تعالى ، وهذا ما أقرته الآيات في المطالب التالية :

المطلب الأول : الدلائل الكونية على وجود الله تعالى (٩٥ – ٩٩)

المطلب الثاني : نفي البنوة والشركاء عن الله تعالى وبيان عظمته وعظمة دينه (١٠٠ – ١٠٥)

المطلب الثالث : توجيهات إلاهية لنبيه في التعامل مع قومه (١٠٦ – ١٠٨)

المطلب الرابع : تعنت المشركين وعنادهم في قبول الحق (١٠٩ – ١١٧)

المطلب الخامس : مخالفة أهل الجاهلية في بعض العادات الذميمة (١١٨ – ١٢١)

المطلب السادس : مظاهر الصدود والإعراض وأسباب ذلك (١٢٢ – ١٣٠)

المطلب السابع : سنة الله تعالى في الإبقاء على الأمم أو إهلاكها (١٣١ – ١٣٥)

---

[1] - فتاوى ورسائل سماحة الشيخ عبد الرزاق عفيفي – قسم العقيدة (ص: ١٥٢)

[2] - العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (١/ ٣٢٦)

[3] - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٣/ ٢٩٠)

المطلب الأول : الدلائل الكونية على وجود الله تعالى (٩٥ – ٩٩)

يقول تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

أولاً : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

لما تكلم في التوحيد وثبتت الوحدانية ثم أردفه بتقرير أمر النبوة والرسالة وتقاريع من تقاريعها، ثم تكلم في بعض تفاريع هذا الأصل، وذكر حال المشركين في الآخرة ، وذكر حقيقة يوم القيامة وانفراد الإنسان عن كل ماكان معه في حال الحياة الدنيا ، وانتهى الكلام هنا إلى ما تجلى به مقام العظمة، وانكشف له قناع الحكمة وتمثل نفوذ الكلمة، فتهيأ السامع لتأمله، وتفرغ فهمه لتدبره؛ قال دالاً عليه مشيراً إليه، معلماً أن ما مضى أنتجه وأظهره لا بد وأبرزه، مذكراً بآياته وبمحاجة إبراهيم – عليه السلام – ، مصرفاً ما مضى أول السورة من دلائل الوحدانية على أوجه أخرى، إعلاماً بأن دلائل الجلال تفوق عدد الرمال، وتنبيهاً على أن القصد بالذات معرفة الله تعالى بذاته وصفاته ، فعاد هاهنا إلى ذكر الدلائل الدالة على وجود الصانع، وكمال علمه وحكمته وقدرته ، التي عجز عن صنع أدنى شي منه آلهتهم ومن اتخذوهم شركاء من دون الله ، فذكر عيب آلهتهم، فلا يحقّ لها أن تُعبدَ ولا أن تُشركَ مع الله تعالى في العبادة إذ لا حقّ لها في الإلهيّة ، فيكون ذلك إبطالاً لشرك المشركين من العرب ، وهو مع ذلك إبطالٌ لمعتقَد المعطّلين من الدّهريين [1] منهم بطريق الأوْلى ، وهذا تنبيهٌ من الله جل ثناؤه هؤلاء العادلين به الآلهة والأوثان على موضع حجّته عليهم، وتعريفٌ منه لهم خطأ ما هم عليه مقيمون من إشراك الأصنام في عبادتهم إياه، وكل ذلك تنبيه على أن المقصود الأصلي من جميع المباحث العقلية والنقلية، وكل المطالب الحكمية إنما هو معرفة الله بذاته وصفاته وأفعاله ، وأن كل شيء في الكون يدل دلالة واضحة بينة على أن لهذا العالم مدبراً حكيماً ، ما أهمل مصالح الخلق

---

(١) هم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر للعالم وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه وكذلك أبداً ، وهؤلاء الزنادقة . (انظر : جلاء العينين ، لنعمان بن محمد أبو البركات الآلوسي ، ١ / ١٢٩)

وما تركهم سدى، والتي تثبت إثباتاً جازماً على استحقاقه للعبادة ، واحتج الله عليهم بما يشاهدونه من خلقه لأنهم أنكروا البعث فأعلمهم أنه الذي خلق هذه الأشياء فهو يقدر على بعثهم[1]

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ إن الذي له العبادة، أيها الناس، دون كل ما تعبدون من الآلهة والأوثان، هو ﴿ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ ﴾ الله الذي شق الحبَّ من كل ما ينبت من النبات، فأخرج منه الزرع ، ويشمل ذلك كل ما لم يكن له نواة مثل البر والشعير والذرة والحبوب كلها ، ﴿وَٱلنَّوَىٰ ﴾ من كل ما يغرس مما له نَواة، فأخرج منه الشجر، ويشمل ذلك كل ما يكون له حب مثل الخوخ والمشمش والتمر والإجاص ونحوها.

كذلك ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ يخرج السنبل الحيّ من الحبّ الميت، ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ ومخرج الحبِّ الميت من السنبل الحيّ، والشجرِ الحيّ من النوى الميت، والنوى الميِّت من الشجر الحيّ. فيخبر أنه يشق النواة مع شدتها وصلابتها، ويخرج منها نبتاً أخضراً ليناً .

والشجر ما دام قائمًا على أصوله لم يجفّ، والنبات على ساقه لم ييبَس، فإن العرب تسميه"حَيّاً"، فإذا يبس وجفّ أو قطع من أصله، سمّوه"ميتاً". فيشق من الورق الضعيف اللين الشجر والنخل مع شدته وصلابته، ما لو اجتمع الخلائق كلهم على شق ذلك الشجر بذلك الورق مع لينه ، ولو اجتمع كل الخلائق على إنفاذه وإخراج مثله من غير أذى يصيب ذلك النبت ما قدروا عليه .

فيخبر عن لطفه وقدرته، فمن قدر على هذا لقادر على إعادة الخلق ، وبعثهم بعد إماتتهم وإفنائهم، وإن لم يبق لهم أثر؛ كما قدر على هذا، فيعرفهم قدرته أنها غير مقدرة بقدرة الخلق وبقوتهم، بل خارجة عن قوتهم؛ لأن قوته وقدرته ذاتية أزلية بلا سبب، وقوتهم وقدرتهم بأسباب.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ﴾ فإنه يقول: فاعل ذلك كلّه اللهُ – جل جلاله – لا الأصنام التي تعبدونها وأشركتم في عبادتكم لله وألوهيته ، فلا حجة لكم في صرف الألوهية عنه إلى غيره، ولا صرف العبادة إلى الأصنام ،

وفي ذلك امتنان على المقصودين من الخطاب وهم المشركون بقرينة قوله : ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ فأيّ وجوه الصدّ عن الحقّ من دلالات وحدانيته وألوهيته وربوبيته ، أيها الجاهلون تصدّون عن الصواب وتصرفون

---

[1] – انظر : مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٧١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٤٤) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٢٣) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٩٤) مع إضافة من الباحثة .

مع ما ترون من قدرة الله جل وعز، أفلا تتدبرون فتعلمون أنّه لا ينبغي أن يُجعل لمن أنعم عليكم بفلق الحب والنوى، فأخرج لكم من يابس الحب والنوى زروعًا وحُروثًا وثمارًا تتغذون ببعضه وتفكّهون ببعضه، شريكٌ في عبادته ما لا يضر ولا ينفع، ولا يسمع ولا يبصر؟ بل ويتبرأ منكم يوم القيامة ، ويترككم فرادى يوم القيامة كما ذكر في الآية السابقة ، وفيه عِلمٌ ويقينٌ للمؤمنين من المصدّقين واستزادة لمعرفتهم بربّهم وشكرهم[1].

ولما وصف سبحانه وتعالى نفسه المقدسة من فلق الجواهر بما اقتضى حتماً اتصافه بصفات الكمال، وقدمه لكونه من أظهر أدلة القدرة على البعث الذي هذا أسلوبه، مع الإلف له بقربه ومعالجته، أتبعه ما هو مثله في الدلالة على الإحياء لكنه في المعاني وهو سماوي، شارحاً لما أشار إليه الخليل عليه السلام في محاجة قومه من إبطال إلهية كل من النور والظلمة والكواكب التي هي منشأ ذلك، فأورد نوعاً آخر من دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته، فالنوع المتقدم كان مأخوذاً من دلالة أحوال النبات والحيوان، والنوع المذكور في هذه الآية مأخوذ من الأحوال الفلكية، وذلك لأن فلق ظلمة الليل بنور الصبح أعظم في كمال القدرة من فلق الحب والنوى بالنبات والشجر، ولأن من المعلوم بالضرورة أن الأحوال الفلكية أعظم في القلوب وأكثر وقعاً من الأحوال الأرضية، فقال ترقية من العالم السفلي إلى العالم العلوي: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾شاقٌّ عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده ،ومبديه وموضحه، فالذي قدر على إنشاء النهار من الليل والليل من النهار بعد ما تلف وذهب أثره لقادر على إنشاء الخلق، وبعثهم بعد الموت وذهاب آثارهم.

وأخبر جل ثناؤه أنه جعل ﴿ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ وراحة للخلق ؛ لأنه يسكن فيه كل متحرك بالنهار، ويهدأ فيه، فيستقر في مسكنه ومأواه؛ ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ وجعل الشمس والقمرَ يجريان بحساب لا يجاوزاه حتى ينتهيا إلى أقصى منازلهما، وجعل لهما عددٍ لبلوغ أمرهما ونهاية آجالهما، ويدوران لمصالح الخلق التي جُعِلا لها ، فهما يجريان بحساب مقنن مقدر، لا يتغير ولا يضطرب، بل كل منهما له منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولاً وقصراً ؛ لأن الله تعالى ذَكر قبلَه أياديه عند خلقه، وعظم سلطانه، بفلقه الإصباح لهم، وإخراج النبات والغِراس من الحب والنوى، وعقّب ذلك بذكره خلق النجوم لهدايتهم في البر والبحر، فكان وصفه إجراءه الشمس والقمرَ لمنافعهم، أشبه بهذا الموضع من ذكر إضاءتهما، لأنه قد وصف ذلك قبلُ بقوله:"فالق الإصباح"، فلا معنى لتكريره مرة أخرى في آية واحدة لغير معنى.

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٥٥٠) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٧٣) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٨٠) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٦٩) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ١٧٢)التفسير الكبير (٥ / ٧١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٤٤) تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل (٢ / ١٣٧) تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب العزيز (٢ / ٤١٨) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٧ / ٣٨٧)

فنظم سبحانه مصالح العالم في الفصول الأربعة؛ ليكون من ذلك ما يحتاج إليه من نضج الثمار ، وحصول الغلات، وأشار إلى أن الحساب بهما أمر عظيم ، كبير النفع ،كثير الدخول، مع ما له من الدنيا في أبواب الدين فهو جل نفعهما الذي وقع التكليف به، فكأنه لما كان الأمر كذلك، كان حقيقتهما التي يعبر عنهما بها، وأما غير ذلك من منافعهما فلا مدخل للعباد فيه.

وهذا الفعل الذي وصفه أنه فعله، وكان هذا أمراً باهراً ووصفاً قاهراً، وهو فلقه الإصباح، وجعله الليل سكنًا والشمس والقمر حسباناً، ﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي عزّ سلطانه، فلا يقدر أحد أراده بسوء وعقاب أو انتقام، من الامتناع منه ، فهو الذي قهرهما وسخرهما كيف شاء ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ لما في تقدير الشمس والقمر والليل والنهار من العلوم والحكمة العظيمة وإتقان الصنعة ، بل بجميع مصالح خلقه وتدبيرهم ،وجعل ذلك بعلمه على منهاج لا يتغير وميزان قويم لا يزيغ، وليس بتقديرُ الأصنام والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تفقه شيئًا ولا تعقله، ولا تضر ولا تنفع، وإن أريدت بسوء لم تقدر على الامتناع منه ممن أرادها[1].

ولما ذكر ذلك أتبعه منفعة أخرى تعمهما مع غيرهما مبيناً ما أذن فيه من علم النجوم ومنافعها فقال:والله ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ الذي جعل لكم، أيها الناس﴿ٱلنُّجُومَ﴾ النجوم أدلةً ﴿لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ إذا ضللتم الطريق، أو تحيرتم فلم تهتدوا فيها ليلاً ، تستدلّون بها على المحجَّة، فتهتدون بها إلى الطريق ، فتسلكونه وتنجون بها من من ضلال الطريق في البرّ والبحر ، وعنى بالظلمات، ظلمة الليل، وظلمة الخطأ والضلال، وظلمة الأرض أو الماء.

ثم يقول ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ يعقلون ويعون كلام الله ومعناه، ويعرفون الحق ويجتنبون الباطل ، فميَّزنا الأدلة، وفرّقنا الحجج فيكم وبيّناها أيها الناس؛ لتكون أبلغ في الاعتبار، وليتدبّرها أولو العلم بالله منكم، ويفهمها أولو الحجا منكم، فينيبوا من جهلهم الذي هم مقيمون عليه، وينزجروا عن خطأ فعلهم الذي هم عليه ثابتون، ولا يتمادوا عناداً لله مع علمهم بأن ما هم عليه مقيمون خطأ في غَيِّهم.

وخصص القوم الذين يعلمون بالذكر ؛ لتحصلهم الفائدة المفصلة المنصوبة، وغيرهم تمر عليهم الآيات وهم معرضون عنها .

وفي كل ما سبق وغير ذلك من الآيات التي ذكر تذكير نعمه وإحسانه إليهم ؛ ليتأدى بذلك شكرهم وجعل السعي له، ودليل وحدانية الرب وتدبيره وحكمته؛ لأنه جعل في السماء أدلة يهتدون بها، ويستدلون على معرفة الطرق مع بعد ما بينهما من المسافة، وتسوية أسباب الأرض بأسباب السماء، وتعلق منافع

---

(1) - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٥٥٤) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٨٢) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ١٧٢) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٣٠٢) الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٧٥) التسهيل لابن جزي (١/ ٢٧٠) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٤) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ١٩٩)

بعضها ببعض؛ ليعلموا أنه كان بواحد مدبر عليم حكيم؛ إذ لو كان بعدد أو بمن لا تدبير له ولا حكمة، لم يحتمل ذلك، ولم يتسق ما ذكرنا؛ كل ذلك دل أنه كان بالواحد العليم الحكيم، مع علمهم أن الأصنام التي يعبدونها وأشركوها في عبادته لا يقدرون على ذلك، لكنهم يعبدونها ويشركونها في ألوهيته سفهًا منهم وعناداً[(١)].

ثم ذكر من يندرج ضمن هذا الكون المعبود لله، وهو الإنسان ، فهو جزء منه، و لكنه مع ذلك يتمتع بخصوصية كبيرة تجعله مستقلاً بداخله، فهو الخليفة فيه، و الكون هو المجال خلافته المسخر له، كما أن الإنسان يتميز عن سائر المخلوقات بالعقل، مما يجعل الكون مجال خصباً للتفكر و التأمل في دقائقه، مرة للاعتبار، و مرة للتعلم من دقته نظامه و جماله، و مرة أخرى للزيادة في الإيمان و مشاركته في التسبيح لله الواحد القهار ، فينتج مما تقدم أن الإنسان جزء من الكون و هما مخلوقان يشتركان في عبادة الله ، والكون مسخر للإنسان و هو مأمور بتعميره و العمل فيه ، والكون مجال للتفكر و التأمل و التعلم للإنسان، يستلهم من نظامه و جماله ؛ لذا يقول تعالى: وإلهكم، أيها العادلون بالله غيره ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم﴾ الذي ابتدأ خلقكم من غير شيء، فأوجدكم بعد أن لم تكونوا شيئاً ، واختار لفظ "أنشأ" بدلاً من لفظ"خلق"؛ لأن فيه دلالة أنه يبدئ ويعيد من غير شيء ، ثم بين ممن انحدر جنس الإنسان فقال تعالى : ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ من آدم عليه السلام ، فأخبر أنه خلق البشر كله من نفس واحدة، والخلائق كلهم لو اجتمعوا ما احتملت الأرض، ولم تكن الخلائق بأجمعهم في تلك النفس الواحدة، دل أنه قادر على الابتداء والإعادة لا من شيء، إذ لم يكن لتلك النفس التي خلق الخلائق منها تقدمة شيء.

والله جل ثناؤه عمّ بقوله:﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ لكلّ خلقه الذي أنشأ من نفس واحدة، ولم يخصص من ذلك معنى دون معنى، ولا شك أنّ من بني آدم مستقرّاً في الرحم، ومستودعاً في الصلب، ومنهم من هو مستقر على ظهر الأرض أو بطنها، ومستودع في أصلاب الرجال، ومنهم مستقر في القبر، مستودع على ظهر الأرض. فكلّ"مستقر" أو"مستودع" بمعنى من هذه المعاني، فداخل في عموم قوله:﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ومراد به، إلا أن يأتي خبرٌ يجب التسليم له بأنه معنيٌّ به معنى دون معنى، وخاص دون عام[(٢)].

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ قد بيّنا الحجج، وميزنا الأدلة والأعلام وأحكمناها ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ مواقعَ الحجج ومواضع العبر، ويفهمون الآيات والذكر، فإنهم إذا اعتبروا بما نبّهتهم عليه من

---

(١) - جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٥٦١) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٨٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٤٦) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٥) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٠١)

(٢) – ولعل الصواب – والله تعالى أعلم – أن المراد بالمستقر في الآخرة فهو الذي يقتضيه النظر أن ابن آدم هو مستودع في ظهر أبيه وليس بمستقر فيه استقرارا مطلقا لأنه ينتقل لا محالة ثم ينتقل إلى الرحم ثم ينتقل إلى القبر ثم ينتقل إلى المحشر ثم ينتقل إلى الجنة أو النار فيستقر في أحدهما استقرارا مطلقا، المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٢٧)

إنشائي من نفس واحدة ما عاينوا من البشر، وخلقي ما خلقت منها من عجائب الألوان والصور، علموا أنّ ذلك من فعل من ليس له مثل ولا شريك فيشركوه في عبادتهم إياه، فالفقيه هو الذي له عقل وذهن يعرف الأشياء بأغيارها ونظائرها ودلائلها.

وإنما ختم آخره هذه الآية بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾؛ لأن إنشاء الإنس من واحدة، وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيراً، فكان ذكر الفقه هاهنا ؛ لأجل أن الفقه يفيد مزيد فطنة ،وقوة وذكاء وفهم ، خلاف ما ذكر مع ذكر النجوم حيث ختما بقوله : يعلمون لأن أمرها ظاهر(1).

ثم يتابع ذكر الدلائل الدالة على كمال قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته ورحمته ووجوه إحسانه إلى خلقه، وهي إلى جانب كونها دلائل فهي أيضاً نعم بالغة، وإحسانات كاملة، وذكر طرفاً من قوام الانسان وقوته ، والكلام إذا كان دليلاً من بعض الوجوه، وكان إنعاماً وإحساناً من سائر الوجوه؛كان تأثيره في القلب عظيماً، وعند هذا يظهر أن المشتغل بدعوة الخلق إلى طريق الحق لا ينبغي أن يعدل عن هذه الطريقة ، فيقول تعالى ذكره:﴿ وَهُوَ ﴾ والله الذي له العبادة خالصة لا شريك فيها لشيء سواه، هو الإله ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أخرجنا بالماء الذي أنزلناه من السماء من غذاء الأنعام والبهائم والطير والوحش وأرزاق بني آدم وأقواتهم، ما يتغذون به ويأكلونه فينبتُون عليه وينمون، وقوله:﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فأخرجنا به ما ينبت به كل شيء وينمو عليه ويصلحُ، دليل على أن كل ما يخرج في الأرض أصله من الماء ؛ به ينبت مما يكون غذاء البشر ، وغذاء الحيوان كلهم والطيور ، ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ ﴾ من الماء الذي أنزلناه من السماء ﴿خَضِرًا ﴾ رطبًا من الزرع ، حيث إنه يخرج أول ما يخرج خضراً ، ويكون ابتداء كل نبت أخضر ، ثم يتحول إلى لون آخر ، ومنهم من قال : ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ﴾ به يعني بالماء وهو ما يبقيه أخضراً ؛ إذ لولا الماء لييبس ، وتغير عن حال ابتدائه.

﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ نخرج من الخضر حبًّا يعني: ما في السنبل، سنبل الحنطة والشعير والأرز، وما أشبه ذلك من السنابل التي حبُّها يركب بعضه بعضاً ، فيخبر عن لطفه وصنعه بما يخرج ما لو اجتمع الخلائق كلهم لم يقدروا على تركيب مثله؛ ليعلموا أن لغير في ذلك تدبيراً وصنعاً.

وفيه دلالة أنه قد ينشئ الأشياء من لا شيء ولا سبب، وإن كان قد أنشأ بعضها بأسباب؛ نحو أن أخرج من الحبة والنواة نباتا أخضر، ولم يكن في الحب نبات ، ثم أخرج من ذلك النبات الأخضر حبوباً، ولم تكن الحبوب في النبات؛ ليعلموا أنه قادر على إنشاء الأشياء لا من شيء ولا سبب.

(1) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٥٦٢) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٨٥) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٧٠) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٨٢) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٧٤)

ومن ينظر إلى الآيات السابقة يجد أنه تعالى حصر النبت في قسمين: حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ فالذي ينبت من الحب هو الزرع، والذي ينبت من النوى هو الشجر ، واعتبر هذه القسمة أيضاً في هذه الآية فابتدأ بذكر الزرع، وهو المراد بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ وهو الزرع .

ولما ذكر ما ينبت من الحب أتبعه بذكر ما ينبت من النوى، وهو القسم الثاني فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾يخرج من النخل ﴿طَلْعِهَا﴾ بالماء، وفيه من عظيم لطفه وتدبيره أن جعل النخيل والأشجار تتشرب بعروقها الماء، ثم ينتشر ذلك في أصلها إلى أغصانها، ثم يخرج منه ويظهر خضراً؛ ليعلم عظيم تدبيره ولطفه ، ثم وصف ما يخرج منها بقوله :﴿قِنْوَانٌ﴾ العروق يكون فيها التمر والثمار ، ﴿دَانِيَةٌ﴾بعضها إلى بعض ، مجتمعة غير متفرقة، على ما يكون من الأعناب والثمر والحبوب، وتكون قريبة ملتزقة بالأرض، يناله القائم والقاعد جميعاً. وذكر القريبة وترك ذكر البعيدة؛ لأن الغرض في الآية ذكر القدرة والامتنان بالنعمة، والامتنان فيما يقرب متناوله أكثر ، والنعمة فيها أظهر وأدلّ بذكر القريبة على ذكر البعيدة .

ويتتابع ذكر النعم حيث جعلنا ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾بساتينَ ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ في الطعم وفيه مايشبه طعم بعضه طعم بعض.

وقرن الزيتون بالرمان ؛ لأنهما شجرتان تعرف العرب أن ورقهما يشتمل على الغصن من أوله إلى آخره.

ولقد ذكر تعالى هاهنا أربعة أنواع من الأشجار– النخل والعنب والزيتون والرمان – وإنما قدم الزرع على الشجر ؛ لأن الزرع غذاء، وثمار الأشجار فواكه، والغذاء مقدم على الفاكهة، وإنما قدم النخل على سائر الفواكه ؛ لأن التمر يجري مجرى الغذاء بالنسبة إلى العرب ، ثم أتبعه بذكر الأقسام الأربعة التي هي أشرف أنواع النبات، واكتفى بذكرها تنبيها على البواقي .

ثم أمر بالتأمل فيما سبق بعميق النظر والتأمل فقال : ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلاً ضعيفاً ، لا يكاد ينتفع به أول ما يَعْقِد ، وانظروا إلى حال ينعه ونضجه كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع وملاذ، انظروا إليه بنظر من ينظر ببصره وقلبه نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مقدّره ومدبره ، وناقله من حال إلى حال.

وإن في إنزال الله من السماء الماءَ الذي أخرج به نباتَ كل شيء، والخَضِرَ الذي أخرج منه الحبَّ المتراكب، وسائر ما عدَّد في هذه الآية من صنوف خلقه ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء ، وحكمته ورحمته في ذلكم أيها الناس، إذا أنتم نظرتم إلى ثمره عند عقد ثمره، وعند ينعه ونضجه وانتهائه، فرأيتم اختلاف أحواله وتصرفه في زيادته ونموّه، علمتم أن له مدبِّراً ليس كمثله شيء، ولا تصلح

العبادة إلا له دون الآلهة والأنداد، فاحتج الله عليهم بتصريف ما خلق ونقله من حال إلى حال، بما يعلمون أنه لا يقدر عليه المخلوقون،وغير ذلك من النعم التي أنعمها عليهم؛ لئلا يرجعوا شكر هذه النعم إلى غيره، ولا يتخذوا إلهاً سواه، وأنه كذلك يبعثهم ؛ لأنهم كانوا ينكرون البعث ، وكان في كل ماسبق حجج وبرهان وبيان ﴿لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ لقوم يصدقون بوحدانية الله ،وقدرته على ما يشاء ، ويرغبون في الحق ، فحكم بأنهم – بحذقهم ونشاطهم وقوتهم على ما يحاولونه – يجددون الإيمان كلما تأملوا في مصنوعات الله سبحانه وتعالى الدالة عليه المشيرة بكل لسان إليه.

وخُصّ بذلك القوم الذين يؤمنون؛ لأنهم هم المنتفعون بحجج الله والمعتبرون بها، دون من قد طَبَعَ الله على قلبه، فلا يعرف حقًّا من باطل، ولا يتبين هدًى من ضلالة. (1)

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. أن كلّ شيء في هذا الكون يدُلّ على عظيم قدرة الله تعالى ، وأنه وحده تعالى هو المستحق للتوحيد والعبادة .

٢. يجوز أن يتعلم الإنسان من النجوم بقدر ما يعرف منازل القمر، وسير الكواكب لمعرف القبلة وأوقات الصلاة (2)

٣. أن الله تعالى صرف الآيات وبينها لقوم يتأملون فيستدلون بالمحسوس على المعقول وينتقلون من الشاهد إلى الغائب .(3)

٤. الدلالة على كمال الحكمة، وعلى أن وحدة النظام فى الأشياء المختلفة لا يمكن أن تصدر من إرادات متعددة .(4)

---

(1) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٥٧٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٧٦) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٨٦) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٧١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري (٢/ ٥٢) زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٦٠) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٨٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٤٨) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٧) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٧/ ٢١٤) مع تصرف وإضافة من الباحثة

(2) – تفسير السمعاني (٢/ ١٢٩)

(3) – مراح لبيد لمحمد نووي (١/ ٣٣٥)

(4) – تفسير المراغي (٧/ ٢٠٣)

٥.	إن هذا الدين أكثر جدية من أن ينفق طاقة البشر في قضايا لاهوتية ونظريات فلسفية. إنما يهدف إلى تقويم تصور البشر- بإعطائهم العقيدة الصحيحة- لينتهي إلى تقويم حياة البشر الباطنة والظاهرة. [١]

٦.	تبقى مزية المنهج القرآني في مخاطبة الفطرة بالحقائق الكونية، لا في صورة «نظرية» ولكن في صورة «واقعية» .. صورة تتجلى من ورائها يد المبدع، وتقديره، ورحمته، وتدبيره. صورة مؤثرة في العقل والقلب، موحية للبصيرة والوعي، دافعة إلى التدبر والتذكر، وإلى استخدام العلم والمعرفة للوصول إلى الحقيقة الكبرى المتناسقة[٢].

٧.	عرض الآيات مرة مفصلة ومرة مجملة؛ لأن الأفهام مختلفة، وظروف الاستقبال للمعاني مختلفة، فتفصيل الآيات أريد به أن يصادف كل تفصيل حالة من حالات النفس البشرية؛ لذلك لم يترك الحق لأحد مجالاً في ألا يفقه، ولم يترك لأحد مجالاً في ألا يتعلم [٣].

٨.	كل هذه المسائل كان يجب أن تكون صارفة للناس إلى أن الله وحده هو الخالق المستحق للعبادة، ولا تتجه أبداً بالعبادة أو بالإيمان بغيره[٤].

٩.	الله خالق كل شيء فهو رب كل شيء ولذا وجب أن يؤله وحده دون ما سواه[٥].

١٠.	تقرير قدرة الله على كل شيء وعلمه بكل شيء وحكمته في كل شيء[٦].

١١.	يتم إدراك ظواهر الأمور وبواطنها بالعقل[٧].

١٢.	يتم إدراك أسرار الأشياء بالفقه[٨].

١٣.	الإيمان بمثابة الحياة، والكفر بمثابة الموت في إدراك الأمور[٩]

المطلب الثاني : نفي البنوة والشركاء عن الله تعالى وبيان عظمته وعظمة دينه (١٠٠ – ١٠٥)

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ
عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ

(١) – في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١١٥٧)
(٢) – المرجع السابق (٢/ ١١٥٩)
(٣) – تفسير الشعراوي (٦/ ٣٨١٩)
(٤) – المرجع السابق (٦/ ٣٨٢٨)
(٥) – أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٩٧)
(٦) – المرجع السابق (٢/ ٩٧)
(٧) – المرجع السابق (٢/ ٩٧)
(٨) – المرجع السابق (٢/ ٩٧)
(٩) – المرجع السابق (٢/ ٩٧)

﴿١٠٢﴾ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ
فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ
دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

أولاً : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

لما ذكر كمال قدرته ورحمته على عظيم قدرته ، وباهر حكمته ، ووافر نعمته ، وذكر البراهين الخمسة من دلائل العالم الأسفل والعالم الأعلى ، وذكر حدوث الأجناس المختلفة ، والأنواع المفننة من أصل واحد ، ونقلها من حال إلى حال ، وبين أن ذلك لا يكون إلا بإحداث قادر يعلم تفاصيلها، ويرجح ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها ، ولا يعوقه عن فعله ند يعارضه أو ضد يعانده، والتي دلت على ثبوت الإلهية واستحقاقه لها وحده ، عقبها بتوبيخ مَن أشرك والردّ عليه ، حيث إن من الناس من أثبت لله شركاء ، فذكر شِرك آخر من شرك العرب وهو جعلهم الجِنّ شركاءَ لله في عبادتهم ، كما جعلوا الأصنام شركاء له في ذلك فأطاعوهم فيما زينوا لهم من عبادة الأصنام والأوثان[1] .

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ ﴾وجعلوا لله الجنَّ شركاءَ في عبادتهم إياه، حيث أطاعوا الجن فيما سولت لهم من شركهم.

وقدّم اسم الله على الشركاء ؛ لاستعظام أن يتخذ لله شريك مَن كان ملكاً أو جنياً أو إنسياً أو غير ذلك.

﴿وَخَلَقَهُمۡۖ ﴾ يعلمون أنه هو خلقهم، ثم يشركون غيره في ألوهيته وعبادته، لا يوجهون شكر نعمه إليه. وهو المنفرد بخلقهم بغير شريك ولا معين ولا ظهير ، ولم يقف افتراءهم على ذلك بل تعدى إلى افتراء آخر،﴿ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ ﴾ وتخرّصوا وائتفكوا على الله كذباً، واختلقوا وافتعلوا له بنين وبنات ﴿ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ ﴾ منهم بحقيقة ما يقولون ، ولا دليل يدل عليه ، ولكن جهلاً بالله تعالى وبعظمته، وأنه لا ينبغي لمن كان إلهاً أن يكون له بنون وبنات ولا صاحبة، ولا أن يشركه في خلقه شريك.

---

[1] – انظر : مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٨٨) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٧٥) تفسير محاسن التأويل (٤ / ٤٤٨)تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٧ / ٤٠٤) أيسر التفاسير (٢ / ٩٨)

وقوله : ﴿ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ ﴾ نص على قبح تقحمهم المجهلة ، وافترائهم الباطل على عمى .

ثم نزه نفسه فقال : ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ ﴾ أي أسبحه سبحاناً يليق بجلاله أن يضاف إليه؛ ولما كان معنى التسبيح الإبعاد عن النقص، وكان المقام يقتضي كونه في العلو، صرح به فقال: ﴿ وَتَعَٰلَىٰ ﴾تباعد أمر علوه إلى حد لا حد له ولا انتهاء ، وأنه علا فارتفع ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ عن الذي يصفه به هؤلاء الجهلة من خلقه في وصفهم الفاسد المستحيل عليه تبارك وتعالى ، وفي ادّعائهم له شركاء من الجن، واختراقهم له بنين وبنات، وذلك لا ينبغي أن يكون من صفته؛ لأن ذلك من صفة خلقه الذين يكون منهم الجماع الذي يحدث عنه الأولاد، والذين تضطرّهم لضعفهم الشهواتُ إلى اتخاذ الصاحبة لقضاء اللذات، وليس الله تعالى ذكره بالعاجز فيضطره شيء إلى شيء، ولا بالضعيف المحتاج فتدعوه حاجته إلى النساء إلى اتخاذ صاحبة لقضاء لذة.

وفي هذه الآية تصبير لرسول اللّه ﷺ على أذاهم ، مع كثرة ما كان لهم من اللّه من النعم والمنن يشركون في عبادته غيره؛ فأنت إذا لم يكن منك إليهم شيء من ذلك فأولى أن تصبر على أذاهم[1].

ولما تقررت الحجج وبانت الوحدانية ، شرع في الإخبار بعظيم قدرة الله تعالى ، والتي تفيد مع ذلك تقوية التّنزيه في قوله : ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ فتتنزّل منزلة التَعليل لمضمون ذلك التّنزيه بمضمونها أيضاً ، حيث عُلّل الإبطال بأنّه خالقُ أعظم المخلوقات دلالة على القدرة ، فإذا كنتم تدّعون بنوّة الجنّ والملائكة لأجل عظمتها في المخلوقات ، وأنتم لا ترون الجنّ ولا الملائكة ، فلماذا لم تدّعوا البنوّة للسماوات والأرض المشاهدة لكم وأنتم ترونها وترون عظمها ، فهذا الإبطال بمنزلة النّقض في علم الجدل والمناظرة لما بين فساد قول طوائف أهل الدنيا من المشركين ، فيقول تعالى : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ مبتدعها ومحدثها وموجدها بعد أن لم تكن، ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞ ﴾ والولد إنما يكون من الذكر والأنثى، ولا ينبغي أن يكون لله سبحانه صاحبة، فيكون له ولد، وذلك أنه هو الذي خلق ﴿ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾ ولا خالق سواه. فإذا كان لا شيء إلا اللهُ خلقه، فأنّى يكون لله ولد، ولم تكن له صاحبة فيكون له منها ولد؟ فاحتج جل وعز في نفي الولد بأنه خالق كل شيء، فليس كمثله شيء.

وكيف يكون الولد لمن لا مثل له، فإذا نسب إليه الولد فقد جعل له مثل، فكلُّ ما تدَّعون أيها العادلون بالله الأوثان من دونه، خلقُه وعبيده ؛ سواء أكان الذي تدعونه ربًّا ملِكاً أو جنيًّا أو إنسيًّا ،

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ٧) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٧٧) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٩١) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٧٢) الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٢٩) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٧) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢١٧) مع تصرف وإضافة من الباحثة

وتزعمون أن له ولد، ومن قدر على إبداع السماوات والأرض، لا عن أصل سبق ولا عن مثال تقدم؛ فأنى يقع له الحاجة إلى الولد؟! والولد في الشاهد إنما يتخذ؛ لإحدى خصال ثلاث: إما للانتصار على الأعداء والانتقام منهم، وإمّا لوحشة تأخذهم، وإما لحاجة تمسهم؛ فاللَّه - سبحانه وتعالى - يتعالى عن ذلك كله فأنى يتخذ ولدًا؟! ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ والله الذي خلق كل شيء، لا يخفى عليه ما خلق ولا شيء منه، ولا يعزب عنه مثقالُ ذرة في الأرض ولا في السماء، عالم بعددكم وأعمالكم، وأعمال من دعوتموه ربًّا أو لله ولدًا، وهو محصيها عليكم وعليهم، حتى يجازي كلا بعمله.

والآية تتضمن تقريراً وحكماً وإخلاصاً وأمراً بالعبادة ، وإعلاماً بأنه حفيظ رقيب على كل فعل وقول ، وفي هذا الإعلام تخويف وتحذير.[1]

ولما أقام الحجة على وجود الإله القادر المختار الحكيم الرحيم ، وبين فساد قول من ذهب إلى الإشراك بالله، وفصل مذاهبهم على أحسن الوجوه ، وبين فساد كل واحد منها بالدلائل اللائقة به، ثم حكى مذهب من أثبت لله البنين والبنات، وبين بالدلائل القاطعة فساد القول بها ، وعند هذا ثبت أن إله العالم ، فرد واحد صمد ، منزه عن الشريك والنظير والضد والند، ومنزه عن الأولاد والبنين والبنات، صرح بعدها بالنتيجة فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيا أيها الجاهلون، إنه لا شيء له الألوهية والعبادة، إلا الذي هو ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ فإنه لا ينبغي أن تكون عبادتكم وعبادةُ جميع من في السموات والأرض إلا له ، خالصة بغير شريك تشركونه فيها، فإنه ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾وبارئه وصانعه، وحق على المصنوع أن يفرد صانعه بالعبادة ، فلا تعبدوا غيره أحداً ؛ فإنه هو المصلح لمهمات جميع العباد، وهو الذي يسمع دعاءهم ويرى ذلهم وخضوعهم، ويعلم حاجتهم .

ولقد ابتدأ الآية بقوله : ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾ذلكم الله ربكم أي الشيء الموصوف بالصفات التي تقدم ذكرها هو الله تعالى، ثم قال بعده: ﴿رَبُّكُمْ﴾ الذي يربيكم ، ويحسن إليكم بأصناف التربية ، ووجوه الإحسان، وهي أقسام بلغت في الكثرة إلى حيث يعجز العقل عن ضبطها .

ثم قال:﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني أنكم لما عرفتم وجود الإله المحسن المتفضل المتكرم ، فاعلموا أنه لا إله سواه ولا معبود سواه.

ثم قال: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾يعني إنما صح قولنا: لا إله سواه ؛ لأنه لا خالق للخلق سواه، ولا مدبر للعالم إلا هو؛ فهذا الترتيب ترتيب مناسب مفيد.

---

[1] - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/ ١١) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٩٥) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٢٩) التفسير الكبير (٥ / ٩٢) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٧ / ٤١٠)

ولقد قال تعالى قبل هذه الآية بقليل : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[الأنعام: ١٠١] وقال هاهنا : ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ لأن عبارة : وخلق كل شيء إشارة إلى الماضي.

أما قوله: خالق كل شيء فهو اسم الفاعل، وهو يتناول الأوقات كلها .

ولقد ذكر تعالى هناك قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ ليجعله مقدمة في بيان نفي الأولاد، وهاهنا ذكر قوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ليجعله مقدمة في بيان أنه لا معبود إلا هو، والحاصل أن هذه المقدمة مقدمة توجب أحكاما كثيرة ونتائج مختلفة، فهو تعالى يذكرها مرة بعد مرة؛ ليفرع عليها في كل موضع ما يليق بها من النتيجة.

﴿فَٱعۡبُدُوهُ﴾فذلُّوا له بالطاعة والعبادة والخدمة، واخضعوا له بذلك، وإليه وجهوا شكر نعمه، ولا توجهوا إلى غيره ، فإن من استجمع هذه الصفات استحق العبادة ، وهو أيضاً ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾أي هو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الأرزاق والآجال ، رقيب على الأعمال ، فهو على كل ما خلق من شيء رقيبٌ وحفيظ، يتولى أموركم ، بل وأرزاق جميع خلقه وأقواتهم ، وحفظهم وسياستهم وتدبيرهم وتصريفهم بقدرته ، وهو الوكيل لكل أحد على حصول مهماته، فكلوها إليه وتوسلوا بعبادته إلى إنجاح مآربكم وهو رقيب على أعمالكم فيجازيكم عليها.

ومن تأمل في هذا النظم والترتيب في تقرير الدعوة إلى التوحيد والتنزيه، وإظهار فساد الشرك، علم أنه لا طريق أوضح منه ولا أصلح منه.(1)

ثم عظم نفسه حيث أعلم عز وجل أنه﴿يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ والأبصار لا تحيط به فالإدراك غير الرؤية؛ لأن الإدراك: هو الوقوف على كنه الشيء وحقيقته، والرؤية: هي المعاينة، وقد تكون الرؤية بلا إدراك، وقد قال الله عن فرعون: ﴿إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾[يونس: ٩٠] فوصف بأن الغرق أدرك فرعون، ولم يخبر أنه رآه؛ لأن الغرق ليس مما يُرى، فليس الإدراك هو الرّؤية، وقال الله – تعالى – في قصة موسى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء: ٦١ – ٦٢] فنفى الإدراك مع إثبات الرؤية، وإذا كان الإدراك غير الرؤية، فالله – تعالى – يجوز أن يرى، ولكن لا يدرك كنهه؛ وأنه يعلم ويعرف ولا يحاط به، كما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ۝١١٠﴾ [طه: ١١٠] فنفى الإحاطة مع ثبوت العلم .

(1) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ١٢) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ١٩٦) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٣٠٦) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٩٤) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٧٦) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٢٧)

ومن المعلوم أنه يرى في الآخرة ؛ حيث إن المؤمنين يرونه ، لكن لا يراه الكافرون ، بدليل قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾[القيامة: ٢٢ - ٢٣] فكما أثبتت الرؤية بتلك الآية في الآخرة؛ دل أن المراد بهذه الآية الإدراك في الدنيا ، ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ ولا يفوته.

﴿ وَهُوَ ﴾ والله تعالى المتيسر له من إدراك الأبصار، والمتأتِّي له من الإحاطة بها ، برؤيةُ ما يعسر على الأبصار من إدراكها إياه ، وإحاطتها به ، ويتعذر عليها هو ﴿ اللَّطِيفُ ﴾ المتلطف في خلقه واختراعه وإتقانه، وبخلقه وعباده ، واللطف من الله تعالى التوفيق والعصمة ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ المختبر لباطن أمورهم وظاهرها ، العليم بخلقه وأبصارهم، والسبب الذي له تعذر عليها إدراكه، فلطف بقدرته فهيأ أبصار خلقه هيئة لا تدركه، وخبرَ بعلمه كيفية تدبيرها وشؤونها وما هو أصلح بخلقه [١].

ولما قرر هذه البيانات الظاهرة، والدلائل القاهرة في هذه المطالب العالية الشريفة الإلهية؛ عاد إلى تقرير أمر الدعوى والتبليغ والرسالة فأمرُ الله جل ثناؤه نبيَّه محمدًا ﷺ أن يقول لهؤلاء الذين نبَّههم بهذه الآيات من قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ إلى قوله: ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ على حججه عليهم، وعلى سائر خلقه معهم، العادلين به الأوثان والأنداد، والمكذبين بالله ورسوله محمد ﷺ وما جاءهم من عند الله قل لهم يا محمد:﴿ قَدْ جَاءَكُمْ ﴾ أيها العادلون بالله، والمكذبون رسوله ﴿ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾البصائر جمع البصيرة، وكما أن البصر اسم للإدراك التام الكامل الحاصل بالعين التي في الرأس، فالبصيرة اسم للإدراك التام الحاصل في القلب ، فالبصيرة إن استنارت بالوحي الإلهي المنير لها كانت مستحقة لتنال شرف رؤية الله تعالى[٢]، وهي ما يتفق عن تحصيل العقل للأشياء المنظور فيها بالاعتبار ، فقد جاءكم القرآن الذي فيه آيات ودلالات وبراهين بينة يبصر بها ويستدل، ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي المحسن إليكم بكل إحسان، فلا إحسان أصلاً لغيره عندكم، فاصعدوا عن النظر بالأبصار إلى الاعتبار بالبصائر، ولا تهبطوا في حضيض التقليد إلى أن تصلوا إلى حد لا تفهمون معه إلا ما يحس بالأبصار ، بل ترقوا في أوج المعرفة إلى سماوات الاجتهاد .

ووصف الدلالة بالمجيء لتفخيم شأنها، إذ كانت بمنزلة الغائب المتوقع حضوره للنفس، ففي القرآن الحجة البينة الظاهرة ما تبصرون به الهدى من الضلال، والإيمان من الكفر ، والتنبيه على ما يجوز على الله وما لا يجوز ، وشواهد تدلكم على ألوهيته ، فلو تفكروا وتدبروا ونظروا فيه ، لعرفوا أنها بصائر من اللَّه؛ لأن

---

(١) - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٧٨) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٧٢) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ١٧٦) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢١٣٣) تفسير السمعاني (٢/ ١٣٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٣٠) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٥٧)

(٢) - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٠٤) مع إضافة للباحثة .

البشر أنشئوا بحيث ينظرون في العجيب من الأشياء؛ فكانوا على أمرين: منهم من نظر وتفكر ، وعرف أنها بصائر، لكنه عاند وكابر ولم يعمل بها، ومنهم من ترك النظر فيها؛ فعمي عنها، ما لو تفكروا ونظروا لتبين لهم .

وهذا الجزء من الآية يتعلق بالرسول، فهو الدعوة إلى الدين الحق، وتبليغ الدلالة والبينات فيها، وهو أنه ﷺ ما قصر في تبليغها وإيضاحها وإزالة الشبهات عنها، ثم ذكر ما كان يجب على المكلفين تجاه البينات فقال : ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾حيث ذكر ما لا يتعلق بالرسول ﷺ ، فإقدامهم على الإيمان وترك الكفر، لا يتعلق بالرسول ﷺ ، بل يتعلق باختيارهم، ونفعه وضره عائد إليهم، والمعنى من أبصر الحق وآمن وتبين حجج الله وعرَفها وأقرَّ بها، وآمن بما دلّته عليه من توحيد الله وتصديق رسوله وما جاء به، فإنما أصاب حظ نفسه، ولنفسه عمل، وإياها بَغى الخير ونفعها ، ﴿ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾ومن عمي عنه فلم يستدلّ بها، ولم يصدق بما دلَّته عليه من الإيمان بالله ورسوله وتنزيله، ولكنه عمي عن دلالتها التي تدل عليها، فنفسَه ضر، وإليها أساء لا إلى غيرها ، لأن الله جل ثناؤه غني عن خلقه.

ولما كان المعنى أنه ليس لي ولا لغيري من إبصاره شيء ينقصه شيئاً، ولا علي ولا غيري شيء من عماه، كان التقدير: فإنما أنا بشير ونذير، فعطف عليه قوله : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ ﴾ أشار إلى أن حق الآدمي التواضع وإسلام الجبروت والقهر لله تعالى ، وعبر عن ذلك بأداة الاستعلاء فقال: ﴿ عَلَيْكُم ﴾ وأغرق في النفي بقوله: ﴿ بِحَفِيظٍ ﴾ لا أقودكم قسراً إلى ما ينجيكم، وأمنعكم قهراً مما يرديكم ، فما أنا عليكم برقيب أحصي عليكم أعمالكم وأفعالكم وأجازيكم عليها ، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم، والله الحفيظ عليكم، الذي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم[1].

ولما كان التقدير التفاتاً إلى مقام العظمة إعلاماً بأن القضاء كله بيده ؛ لئلا يظن نقص في نفوذ الكلمة عطف عليه قوله:﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾ فكما صرفنا وبينا الآيات والعبر والحجج في هذه السورة لكم أيها المشركون بربهم الآلهة والأنداد فعرفتكموها، في توحيدي وتصديق رسولي وكتابي ، ووقَّفتكم عليها ، فكذلك نصرف لكم الآيات في غيرها، فانظروا ما صرفنا لكم في هذه السورة من الآيات، وأوضحنا بها من شريف الدلالات، فلقد أتينا فيها بعجائب التصاريف وكشفنا عن غرائب التعاريف، حيث إن قوله : ﴿ نُصَرِّفُ ﴾ إجراء المعنى الدائر في المعاني المتعاقبة ؛ من الصرف وهو نقل الشيء من حال إلى حال فنبيِّنها في كل وجه، ومن حال إلى حال في المعاني المتنوعة ، سالكين من وجوه البراهين ما يفوت القوى ؛ لتحير ألباب المارقين

(1) - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٧٩) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٠١) الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٣١) ، مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٠٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٥٧) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٢٢)

وتنطلس أفكار المانعين، علماً منهم بأنهم عجزة عن الإتيان بما يدانيها فتلزمهم الحجة ، فندعوكم بها مرّة، ونخوفكم بها أُخرى ، ونرددها ونوضحها ، فأبيِّن لكم آياتي وحججي في كل ما جهلتموه فلم تعرفوه من أمري ونهيي، كيلا تقولوا لرسولنا الذي أرسلناه إليكم: ﴿دَرَسْتَ﴾ إنما تعلمت ما تأتينا به تتلوه علينا من أهل الكتاب، ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ولنوضح الحقَّ بتصريفنا الآيات لقوم يعلمون الحق إذا تبيَّن لهم فيتبعوه ويقبلوه ، ويتبيين لهم الباطل فيجتنبوه، وليسوا كمن إذا بُيِّن لهم عَمُوا عنه فلم يعقلوه، وازدادوا من الفهم به بعداً ، فالحاصل أنه أتى به على هذا المنهاج الغريب والأسلوب العجيب ؛ ليعمى ناس عن بينة ويبصر آخرون، ولأن المراد من الإبلاغ في البيان أن يزداد الجهلة به جهلاً، ويهتدي من كان للعلم أهلاً [1].

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. لا يجوز صَرْف أيَّ عبادة لغير الله ، سواءً أكانت ذبحاً أو نذراً أو غير ذلك من أنواع العبادات ، لا لجِنٍّ ولا لغيرهم وأن مَن فعل ذلك فقد وقع في الشِّرك الأكبر المخرج مِن الملّة، وقابل إحسان الله عليه بالكفر والجُحود ، والله أعلم

٢. بيان سَفَهَ وسُخْفَ تفكير المشركين ، فإنّهم ما قالوا إن الملائكة والجن أبناء الله إلاّ لأنهم عظّموا خلقهم ، ومعلوم أن خَلْقَ السماوات والأرض أكبر من خلق الملائكة والجن ، فعلى طريقتهم وحساباتهم الباطلة فإن السماوات والأرض أولى بالبُنُوَّة من الملائكة والجن ، وكل هذا باطل فإن الله هو خالق الخلق كلهم بِما فيهم الملائكة والجن والسموات والأرض ، فكيف يُساوى المخلوق بالخالق !!؟؟

٣. أن الداعية إلى الله ينبغي عليه أن يكون على دراية ومعرفة بالنقاش العقلي والأدلة العقلية ، فإن مِن الناس مَن لا يُؤمن بالله ولا بالأدلة النقلية ، فمِثل هذا لا ينفع معه إلاَّ المُحاجّة العقلية . والله أعلم .

٤. الدليل على أن الله لا ولد له؛ لأنه إذا كان خلق كل شيء؛ لم يصلح شيء أن يكون ولد له؛ إذ المخلوق لا يصلح ولداً للخالق؛ فإن ولد كل أحد يكون من جنسه[2].

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢٥) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٣١) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٦٣) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٧٦) تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٢) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٢٣) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٢٤)

[2] – تفسير السمعاني (٢/ ١٣١)

٥. يجب على الإنسان أن يعلم أنه لا حافظ إلا الله، ولا مصلح للمهمات إلا الله، حتى ينقطع طمعه عن كل ما سواه، ولا يرجع في مهم من المهمات إلا إليه[١].

٦. أنه تعالى إنما دلنا وبين لنا منافع، وأغراض المنافع تعود إلينا لا لمنافع تعود إلى الله تعالى ، وأن المرء بعدوله عن النظر والتدبر يضر بنفسه، ولم يؤت إلا من قبله لا من قبل ربه[٢].

٧. امتياز بعض المخلوقين عن بعض فى صفاته وخصائصه لا يخرجه عن كونه مخلوقا، ولا يصل به لأن يكون إلهاً ورباً[٣].

٨. لا يعلم كل شىء إلا الخالق لكل شيء، ولو كان له ولد لكان هو أعلم به، ولهدى العقول إليه بآيات الوحى ودلائل العلم، لكنه كذب الذين افتروا عليه ذلك كذباً بلا علم مؤيد بوحي ولا دليل عقلى[٤].

٩. إن من مبدعات الله تعالى السموات والأرضين، وهى مبرأة من الولادة لاستمرارها وطول مدتها[٥].

١٠. إن العادة قد جرت بأن الولد يتوالد من ذكر وأنثى متجانسين، والله تعالى منزه عن المجانسة لشيء[٦].

١١. إن الولد كفء للوالد، والله لا كفء له، لأن كل ما عداه فهو مخلوق له لا يكافئه، ولأن علمه ذاتى ولا كذلك غيره[٧].

١٢. لا حافظ إلا الله، ولا قاضى للحاجات إلا هو، فعلينا أن نقطع أطماعنا عن كل ما سواه، ولا نلجأ في جميع الأمور إلا إليه[٨].

١٣. أثبت الله تعالى في الآيات عقائد الحق اليقينية التي عليها مدار سعادتكم فى دنياكم وآخرتكم، تفضل بها عليكم ربكم الذي خلقكم وسواكم، وربّى أجسادكم، وأكمل مشاعركم وقواكم، كما ربى أرواحكم، وهذّب نفوسكم، ومحّص بها عقولكم، حتى تصل إلى منتهى ما تسمو إليه النفوس البشرية من الكمال[٩].

---

(١) - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ٩٦)

(٢) - المرجع السابق (١٣/ ١٠٥)

(٣) - تفسير المراغي (٧/ ٢٠٥)

(٤) - المرجع السابق (٧/ ٢٠٦)

(٥) - المرجع السابق (٧/ ٢٠٦)

(٦) - تفسير المراغي (٧/ ٢٠٦)

(٧) - المرجع السابق (٧/ ٢٠٦)

(٨) - المرجع السابق (٧/ ٢٠٦)

(٩) - المرجع السابق (٧/ ٢٠٩)

١٤. إذا تقررت هذه الحقائق - الخلق والملك والرزق - تقرر معها- ضرورةً وحتماً- أن تكون الربوبية له سبحانه. فتكون له وحده خصائص الربوبية- وهي القوامة والتوجيه والسلطان الذي يُخضع له ويطاع، والنظام الذي يتجمع عليه العباد وتكون له وحده العبادة بكل مدلولاتها. ومنها الطاعة والخضوع والاستسلام[١].

١٥. العبادة هي أن يطيع العابد المعبود فيما يأمره به، وما داموا يطيعون الشياطين في وسوستهم فكأنهم عبدوهم . [٢]

١٦. مادام سبحانه الذي خلق فهو الذي يضع قانون الصيانة للإنسان والكون، وإن خالفت المنهج يفسد الكون والإنسان، وإذا فسد الكون أو الإنسان فأنت تلجأ إلى منهج الخالق لتعيد لكل منهما صلاحيته؛ لذلك هو الأولى بالعبادة. [٣]

١٧. أول مظهر من مظاهر اللطف هو تدبير أمورهم الدقيقة تدبيراً يحقق مصالحهم في وجودهم[٤].

١٨. آيات القرآن بصائر من يأخذ بها يبصر طريق الرشاد وينجو ويسعد[٥].

١٩. تقوية قلب النبي ﷺ وإزالة الحزن الذي حدث عنده بسبب اتهامات الكفار ، لئلا يصير قولهم سبباً لفتوره في تبليغ الدعوة[٦].

المطلب الثالث : توجيهات إلاهية لنبيه في التعامل مع قومه (١٠٦ – ١٠٨)

يقول الله سبحانه تعالى : ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ١٠٧ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٠٨﴾

أولا : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

لما انكشف بهذا في أثناء الأدلة وتضاعيف البراهين أن القرآن كنز لا يلقى مثله كنز، وعز لا يدانيه عز، وأنه في الذروة التي تضاءلت دونها سوابح الأفكار، وكلّت عن التماعها نوافذ الأبصار، وختم بأن المراد

---

[١] – في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١١٦٣)
[٢] – تفسير الشعراوي (٦/ ٣٨٣١)
[٣] – المرجع السابق (٦/ ٣٨٣٩)
[٤] – المرجع السابق (٦/ ٣٨٤٤)
[٥] – أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ١٠٢)
[٦] – التفسير المنير للزحيلي (٧/ ٣٢٢)

بالبيان العلماء، ناسب له أن ينبه على ذلك ؛ لئلا يفتر عنه طعنهم بقولهم ، حيث حكى عن الكفار أنهم ينسبونه في إظهار هذا القرآن إلى الافتراء أو إلى أنه يدارس أقواماً ، ويستفيد هذه العلوم منهم ، ثم ينظمها قرآناً ، ويدعي أنه نزل عليه من الله تعالى، فقال مخصصاً له ﷺ بالخطاب إعلاماً بأنه العالم على الحقيقة: ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾لئلا يصير ذلك القول سبباً لفتوره في تبليغ الدعوة والرسالة، والمقصود تقوية قلبه وإزالة الحزن الذي حصل بسبب سماع تلك الشبهة[1].

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

يقول تعالى : ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾أي اتبع يا محمد ما أمرك به ربك في وحيه الذي أوحاه إليك، فاعمل وتدين به، وانزجر عما زجرك عنه فيه، ولا تشغل قلبك وخاطرك بهم، وأعرض عن مجادلتهم ، ودع ما يدعوك إليه مشركو قومك من عبادة الأوثان والأصنام، وأكد مدح ذلك الأمر بقوله:﴿مِن رَّبِّكَ ﴾ المحسن إليك بهذا البيان؛ فإن ما أوحي إليك من ربك هو الحق الذي لا مرية فيه؛ ثم علل ذلك بقوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فلا يستحق غيره أن يتبع له أمر، ولا يلتفت إليه في نفع ولا ضر، ولا معبود يستحق عليك إخلاص العبادة له إلا الله الذي هو فالق الحب والنوى، وفالق الإصباح، وجاعلُ الليل سكناً، والشمسَ والقمر حسباناً ، حيث إنه تعالى لما كان واحداً في الإلهية فإنه يجب طاعته، ولا يجوز الإعراض عن تكاليفه بسبب جهل الجاهلين وزيغ الزائغين لذلك قال : ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ودع عنك جدالهم وخصومتهم ومسابّتهم ، ولا تلتفت إلى سفاهات هؤلاء الكفار، ولا يثقلن عليك كفرهم، واحتمل أذاهم، حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم ، فإني لو أردت إزالة الكفر عنهم لقدرت، ولكني تركتهم مع كفرهم، واعلم أن لله حكمة في إضلالهم، فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم جميعا فلا ينبغي أن تشغل قلبك بكلماتهم ، فمزيد حرصك على إيمانهم لا يزيد من أريد شقوته إلا تمادياً في إشراكه ، وارتباكاً في قيود أشراكه[2].

فذلك أمرنا بالاعراض عنهم إنما أمرنا به ؛ لأنه ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ ﴾ حيث قال مسلياً له ﷺ عن استهزائهم به وردهم لقوله، لو أراد ربُّك هدايتهم واستنقاذهم من ضلالتهم، للطف لهم بتوفيقه إياهم فلم يشركوا به شيئاً، ولآمنوا بك ، فاتبعوك ، وصدَّقوا ما جئتهم به من الحق من عند ربك ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ وإنما بعثتك إليهم رسولاً مبلِّغاً، ولم نبعثك حافظاً عليهم ما هم عاملوه، تحصي ذلك عليهم، فإن

(1) - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٠٧) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٢٥)

(2) - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٣٢) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٠٧) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٦٠) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٧٧) التسهيل لابن جزي (١/ ٢٧٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٤) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٢٥)

ذلك إلينا دونك ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ ولست عليهم بقيّم تقوم بأرزاقهم وأقواتهم ولا بحفظهم، ولست قيم بأمورهم في مصالحهم لدينهم أو دنياهم ، فلم يُجْعل إليك حفظه من أمرهم، ولم يؤخذ عليك حفظ أعمالهم، أو لا تسأل أنت عن صنيعهم؛ إنما عليك التبليغ، ففوض إليه البلاغ بالأمر والنهي في العمل والعلم، وفي البيان بذكر الدلائل والتنبيه عليها ؛ فإن انقادوا للقبول فنفعه عائد إليهم، وإلا فضرره عائد عليهم ، وعلى التقديرين فلا يخرج ﷺ من الرسالة والنبوة والتبليغ ، فبين أنه لا قدرة لأحد على إزالة الكفر عنهم ، وختم الكلام بما يكمل معه تبصير الرسول ﷺ ، وبيان له قدر ما جعل إليه[1] .

ولما ذكر في الآيات السابقة موقف المشركين من النبوة والقرآن ، ذكر هنا ما يمكن أن يكون عليه من كان في قلبه غيرة على الدين ، فإنه لا يبعد أن بعض المسلمين إذا سمعوا ذلك الكلام من الكفار غضبوا وشتموا آلهتهم على سبيل المعارضة[2]،

فيقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ وللمؤمنين به: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ﴾ يدعو المشركون من دون الله من الآلهة والأنداد، ولا تذكروا ما فيها من القبائح، فيسبَّ المشركون اللهَ جهلاً منهم بربهم، واعتداءً وتجاوزاً للحد بغير علم بالله سبحانه وتعالى وبما يجب أن يذكر به، فهذا الشتم وإن كان طاعة ؛ إلا أنه إذا وقع على وجه يستلزم وجود منكر عظيم، وجب الاحتراز منه؛ لأن هذا الشتم كان يستلزم إقدامهم على شتم الله وشتم رسوله، وعلى فتح باب السفاهة، وعلى تنفير هم عن قبول الدين، وازدياداً في الكفر ، وإدخال الغيظ والغضب في قلوبهم، فلكونه مستلزما لهذه المنكرات، وقع النهي عنه.

وكما زيّنا لهؤلاء العادلين بربهم الأوثانَ والأصنام، عبادةَ الأوثان وطاعةَ الشيطان بخذلاننا إيّاهم عن طاعة الرحمن، وحب أصنامهم والمحاماة لها والانتصار،﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الخالية على الضلال ﴿عَمَلَهُمۡ﴾عملهم الذي كانوا فيه، ولكل جماعةٍ اجتمعت على عملٍ من الأعمال من طاعة الله ومعصيته، عملَهم الذي هم عليه مجتمعون، لأنة بمنزلة قوله: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾[النحل: ١٠٨] والدليل على ذلك، قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾[فاطر: ٨] ، وهذه أكبر مجازاة وعقوبة للضالين فإن من زين له سوء عمله عمي عن غيره

إلا أنه سيأتي اليوم الذي يكشف الله عن حقيقة ما هم فيه لذلك قال : ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ﴾

(١) - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٣٢) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٠٦) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٠٩) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٦٠) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٢٥) مع تصرف وإضافة من الباحثة

(٢) - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٠٩) مع إضافة من الباحثة .

ثم مرجعهم بعد ذلك ومصيرهم إلى ربهم ، المحسن إليهم بالحلم عنهم وهم يتقوون بنعمه على معاصيه، وأمرهم مفوض إلى الله تعالى، وإن الله تعالى عالم بأحوالهم، مطلع على ضمائرهم، ورجوعهم يوم القيامة إلى الله لا إلى غيره ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فيُوقفهم ويوبخهم ويعاتبهم ويعاقبهم ، ويخبرهم بأعمالهم التي كانوا يعملون بها في الدنيا، ثم يجازيهم بها، إن كان خيراً فخيراً، وإن كان شرّاً فشرّاً، أو يعفو بفضله، ما لم يكن شركاً أو كفراً ، وذلك يتضمن وعداً جميلاً للمحسنين ، ووعيدا ثقيلاً للمسيئين ، وعبر عن الأصنام وهي لا تعقل بـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ على معتقد الكفرة فيها.[1]

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. تأديب الدعاة بعدم التشاغل بما لا فائدة له في المطلوب ؛ لأن وصف الأوثان بأنها جمادات لا تنفع ولا تضر يكفي في القدح في إلهيتها، فلا حاجة مع ذلك إلى شتمها.[2]

٢. إن كان الكافر في منعة وخيف أن يسب الإسلام أو النبي عليه السلام أو الله عز وجل، فلا يحل لمسلم أن يسب صلبانهم ولا دينهم ولا كنائسهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك؛ لأنه بمنزلة البعث على المعصية[3] ، فلقد نهانا اللَّه – عَزَّ وَجَلَّ – عن سبِّ من يستحق السبَّ؛ مخافة سبِّ من لا يستحق السبَّ[4].

٣. في هذه الآية ضرب من الموادعة، ودليل على وجوب الحكم بسد الذرائع، وفيها دليل على أن المحق قد يكف عن حق له إذا أدى إلى ضرر يكون في الدين [5]

٤. وفي الآية دليل أن الإنسان إذا أراد أن يأمر بالمعروف فيقع المأمور به في أمر هو شر مما هو فيه من الضرب أو الشتم أو القتل، ينبغي أن لا يأمره ويتركه على ما هو فيه. [6]

---

(١) - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٣٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٨١) الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٦) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٣٢) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١١٠) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٦١) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٧٧) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٧٧) تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٥) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٢٨)

(٢) - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١١٠)

(٣) - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٦١)

(٤) - تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٠٧)

(٥) - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٦١)

(٦) - بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٧٤)

٥. يجب أن تكون المخاطبة مع المعارض بلسان الحجة والتزام الدلائل ونفى الشبهة، لا على موجب نوازع النّفس والعادة، فيحملهم ذلك على ترك الإجلال لذكر الله.[١]

٦. تنبيه على أن خصمك إذا شافهك بجهل وسفاهة لم يجز لك أن تقدم على مشافهته بما يجري مجرى كلامه فإن ذلك يوجب فتح باب المشاتمة والسفاهة وذلك لا يليق بالعقلاء [٢].

٧. جاء الخطاب ليربي الإنسان نفسه ، ويكون إماماً لأبناء جنسه، فإن الاقتداء لا يتم إلا بمن يعمل، بما يعمله، ويأتمر بما يأمر .[٣]

٨. التوجيه الإلهي لرسول الله ﷺ بما يحدد المجال الذي يتناوله اهتمام الرسول ﷺ وعمله ، كما يحدد هذا المجال لخلفائه وأصحاب الدعوة إلى دينه في كل أرض وفي كل جيل[٤].

٩. إن صاحب الدعوة لا يجوز أن يعلق قلبه وأمله وعمله بالمعرضين عن الدعوة، المعاندين، الذين لا تتفتح قلوبهم لدلائل الهدى وموحيات الإيمان ، إنما يجب أن يفرغ قلبه، وأن يوجه أمله وعمله للذين سمعوا واستجابوا[٥].

١٠. الحاجة إلى بناء الكيان الإنساني كله على قاعدة العقيدة ، والحاجة لإنشاء تصور لهم كامل عميق عن الوجود والحياة على أساس هذه العقيدة ، والحاجة إلى بناء أخلاق الأمم وسلوكهم وبناء مجتمعهم الصغير على هذا الأساس نفسه ، وهذا كله يحتاج إلى الجهد ، ويستحق الجهد. [٦]

١١. حين ينمو الحق في ذاته فإن الله يجري سنته، فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، يجب على الحق أن يوجد ومتى وجد الحق في صورته الصادقة الكاملة، فإن شأن الباطل هين، وعمره كذلك قريب! [٧]

١٢. مع أمر الرسول ﷺ بالإعراض عن المشركين، فقد وجه المؤمنين إلى أن يكون هذا الإعراض في أدب، وفي وقار، وفي ترفع، يليق بالمؤمنين[٨].

---

(١) – لطائف الإشارات للقشيري (١/ ٤٩٤)

(٢) – مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٠٩)

(٣) – تفسير المراغي (٧/ ٢١١)

(٤) – في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١١٦٩)

(٥) – المرجع السابق (٢/ ١١٦٩)

(٦) – المرجع السابق (٢/ ١١٦٩)

(٧) – المرجع السابق (٢/ ١١٦٩)

(٨) – المرجع السابق (٢/ ١١٦٩)

١٣. إن الطبيعة التي خلق الله الناس بها، أن كل من عمل عملاً، فإنه يستحسنه، ويدافع عنه! فإن كان يعمل الصالحات استحسنها ودافع عنها ، وإن كان يعمل السيئات استحسنها ودافع عنها ، وإن كان على الهدى رآه حسناً، وإن كان على الضلال رآه حسناً كذلك! فهذه طبيعة في الإنسان.[١]

١٤. أن الحق يعلو متى ظهر بالقول والعمل مع الإخلاص، ولا يضره الباطل بتزيينه بزخارف الأقوال ولا بالانكباب على خرافات الأعمال .[٢]

١٥. أن من مقتضى سنة الله في البشر ألا يتفقوا على دين لاختلاف استعدادهم وتفاوتهم فى درجات الفهم والفكر [٣].

١٦. إن تزيين الأعمال للأمم سنة من سنن الله جل شأنه سواء فى ذلك أعمالها وعاداتها وأخلاقها الموروثة والمكتسبة[٤].

١٧. قال الحكماء: النصح ثقيل فلا نرسله جبلاً ولا تجعله جدلاً، والحقائق مُرّة، فاستعيروا لها خفة البيان ، والخفة في النصح تؤلف قلب المنصوح، وحسبك منه أن تخلعه عما ألف وأحبّ إلى ما لم يتعود، فلا يكون خلعه مما ألف بأسلوب عنيف[٥].

١٨. إن الحق سبحانه يريد أن يعلمك أيها الداعية اللطف في منهج الدعوة؛ لأنك تريد أن تحنن قلوبهم لتستميلهم إلى الإيمان ولن يكون ذلك إلا بالأسلوب الطيب[٦].

١٩. يعلمنا الحق كيف نسير في منهج الدعوة ،ليتذكر المؤمن القيمة النهائية وهي الخير للدعوة. وليسأل الله أن يرزقه الصبر على المشركين[٧].

٢٠. إن الحق سبحانه وتعالى يريد ألا يترك الرسول ﷺ لغرائزهم مكاناً للإباء عليه، وألا يجدوا وسيلة لينفروا من الدعوة. ولهذا يعلمنا هذا الأسلوب الوارد في الآيات .[٨]

٢١. إذا ثار المرء في وجه الخصم وتعصب فإنه يجعل له عذراً في الحفيظة عليه ، والغضب منه والهجوم عليه ، وفي الانصراف عن منهج الله.[٩]

---

[١] - المرجع السابق (٢/ ١١٦٩)

[٢] - تفسير المراغي (٧/ ٢١١)

[٣] - المرجع السابق (٧/ ٢١٢)

[٤] - المرجع السابق (٧/ ٢١٤)

[٥] - تفسير الشعراوي (٦/ ٣٨٥٧)

[٦] - المرجع السابق (٦/ ٣٨٥٨)

[٧] - المرجع السابق (٦/ ٣٨٥٨)

[٨] - المرجع السابق (٦/ ٣٨٦٠)

[٩] - المرجع السابق (٦/ ٣٨٦١)

٢٢. يعلمنا الحق الجدل اللطيف للدعوة فهذا تزيين للدعوة، والدعوة في ذاتها جميلة؛ لذلك لابد أن يكون عرضها جميلاً. [١]

٢٣. في الآيات تهذيب أخلاقي، وسمو إيماني، وترفع عن مجاراة السفهاء الذين يجهلون الحقائق، وتخلو أفئدتهم من معرفة الله وتقديسه[٢].

---

[١] - المرجع السابق (٦/ ٣٨٦١)

[٢] - التفسير المنير للزحيلي (٧/ ٣٢٧)

المطلب الرابع : تعنت المشركين وعنادهم في قبول الحق (١٠٩ – ١١٧)

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ
أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى
طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ
لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ
وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾
وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ
ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ
مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ
هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

أولاً : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

لما حكى تعالى عن الكفار شبهة توجب الطعن في نبوته، وهي قولهم إن هذا القرآن إنما جئتنا به ؛ لأنك تدارس العلماء، وتباحث الأقوام الذين عرفوا التوراة والإنجيل ، ثم تجمع هذه السور وهذه الآيات بهذا الطريق، ثم أنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة بما سبق، ذكر في هذه الآية شبهة أخرى من شبههم الواهية ؛ وهي قولهم له إن هذا القرآن كيفما كان أمره، فليس من جنس المعجزات البتة، ولو أنك يا محمد جئتنا بمعجزة قاهرة وبينة ظاهرة لآمنّا بك، وحلفوا على ذلك ، وبالغوا في تأكيد ذلك الحلف [١].

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

يقول تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ ﴾ وحلف ﴿ بِٱللَّهِ ﴾ هؤلاء العادلون بالله ﴿ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ جَهْد حَلِفهم، واجتهدوا في المبالغة فى اليمين ، وذلك أوكدُ ما قدروا عليه من الأيمان وأصعبُها وأشدُّها ، وانتهت إليها قدرتهم ، ولقد كان الكفرة لا يحلفون باللّه إلا عند العظيم من الأمور، والجليل منها، وفي غير ذلك كانوا

[١] - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١١١)

يحلفون بدونه؛ فسمي اليمين باللّه جهد اليمين؛ تعظيماً لله وتبجيلاً ، ثم ذكر ما حلفوا عليه ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ قالوا: نقسم بالله لئن جاءتنا آية من مقترحاتنا تصدِّق ما تقول يا محمد، مثلُ الذي جاء مَنْ قبلنا من الأمم ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ قالوا: لنصدقن بمجيئها بك، وأنك لله رسولٌ مرسل، وأنّ ما جئتنا به حقٌّ من عند الله.

والداعي لهم إلى هذا القسم والتأكيد فيه التحكم على الرسول ﷺ في طلب الآيات ، واستحقار ما رأوا منها ، ثم جاء الرد الرباني فقال : ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد على جهة الرد والتخطئة ﴿إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنتاً وكفراً وعناداً، لا على سبيل الهدى والاسترشاد: إنما مرجع هذه الآيات إلى الله، إن شاء أجابكم، وإن شاء ترككم، ولفظ ﴿عِندَ﴾ يدل على أنه تعالى هو المختص بالقدرة على أمثال هذه الآيات دون غيره ؛ لأن المعجزات الدالة على النبوات شرطها أن لا يقدر على تحصيلها أحد إلا الله سبحانه وتعالى ، وهو القادر على إتيانكم بها دون أحد من خلقه ، فهو الذي يرسلها وينزلها على موجب الحكمة ، وأنا لا أملك إرسالها ولا إنزالها ، ثم قال : ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾وما يعلمكم وما يدريكم فأنتم لا تعلمون الغيب ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا تدرون أنهم يؤمنون ، فلعل الآيات إذا جاءت هؤلاء المشركين لا يؤمنون ، فقد تكون قلوبهم حينئذ كما كانت عند نزول القرآن وغيره من الآيات مطبوعاً عليها ، فلا يؤمنوا بها فيعاجلوا بالنقمة والعذاب عند ذلك، ولا يؤخَّروا به ، فهم الذين آيس الله نبيَّه من إيمانهم[1].

وبعد أن أخبر عن هؤلاء الذين قال عنهم : ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ إذا جاءتهم الآيات القاهرة التي اقترحوها ، وعرفوا كيفية دلالتها على صدق الرسول ﷺ ؛ كان الواجب عليهم أن يؤمنوا إذا جاءتهم الآية ، فعرفوها بقلوبهم ، ورأوها بأبصارهم، إلا أنه تعالى إذا قلب قلوبهم وأبصارهم عن ذلك الوجه الصحيح الذي يجب أن يكون عليه، فلم يعتبروا به ولم يؤمنوا عاقبهم الله تعالى بتقليب أفئدتهم فيزيغها عن الإيمان، وأبصارَهم عن رؤية الحق ومعرفة موضع الحجة ؛ حيث قال : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ .

---

(1) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٣٧) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٨١) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢١٤) الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٦) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٣٣) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١١٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٦٢) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٧٧) تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٦) الجواهر الحسان للثعالبي (٢/ ٥٠٦)

والمراد بالتقليب التحويل عن الحق والهدى والترك في الضلالة والكفر، وإن جاءتهم الآية التي سألوها، فلا يؤمنوا بالله ورسوله وما جاء به من عند الله ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ بتقليبنا إياها قبلَ مجيئها مرّة قبل ذلك ، فبقوا على الكفر ، ولم ينتفعوا بتلك الآيات .

ثم تخصيص الأفئدة والأبصار دون غيرها من الجوارح؛ لأن القلب والبصر لا يقع إلا على ما يشهد به على وحدانية اللّه وألوهيته.

وإنما قدم الله تعالى ذكر تقليب الأفئدة على تقليب الأبصار ؛ لأن موضع الدواعي والصوارف هو القلب، فإذا حصلت الداعية في القلب انصرف البصر إليه ؛ شاء أم أبى ، وإذا حصلت الصوارف في القلب انصرف البصر عنه ، فهو وإن كان يبصره في الظاهر ، إلا أنه لا يصير ذلك الإبصار سبباً للوقوف على الفوائد المطلوبة.

وقوله : ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ دليل على أنه قد جاءتهم آيات قبل هذا على غير سؤال، فلم يؤمنوا بها؛ فكذلك إن جاءتهم بالسؤال، فلا يؤمنون بها.

وإذا علم أنهم لا يؤمنون، وثبتوا على كفرهم تركهم في ظلمات ضلالتهم والتخبط في الشر والإفراط فيما هم فيه يعمهون، ويتحيرون، ويتردَّدون في حيرتهم، فلا يهتدون لحق، ولا يبصرون صوابًا، قد غلب عليهم الخِذْلان، واستحوذ عليهم الشيطانُ ، وزاد تمرُّدهم على الله واعتدائهم في حدوده لذا ختم الآية بقوله : ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [1].

ثم بين تفصيل ما ذكره على سبيل الإجمال في قوله: ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حيث جاء إعلام من الله يُزيل بها طمع النبي ﷺ من أن يؤمن هؤلاء العادلون بربهم الأوثانَ، الذين سألوا الآية وأقسموا إنهم يؤمنون إذا نزلت، فيا محمد آيسْ من فلاح هؤلاء العادلين بربهم الأوثانَ والأصنام، القائلين لك:﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ فـ ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ فبين أنه تعالى لو أعطاهم ما طلبوه من إنزال الملائكة حتى يروها عيانًا؛ تخبرهم بالرسالة من الله تعالى بتصديق الرسل، ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وكلمهم الموتى بإحيائنا إياهم حُجَّةً لك، ودلالة على نبوّتك وصدقك ، وأخبروهم أنك محقٌّ فيما تقول، وأن ما جئتهم به حقٌّ من عند الله، بل بصدق ما جاءتهم به الرسل ، بل لو زاد في ذلك ما لا يبلغه اقتراحهم بأن يحشر﴿عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ أفواجاً، قبيلاً قبيلاً ، وتعرض عليهم كل أمة بعد أمة ، فتخبرهم بصدق الرسل فيما جاؤوهم به

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٤٥) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢١٧) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٧٥) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٣١١) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٣٤) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١١٤) الجواهر الحسان للثعالبي (٢/ ٥٠٦)

كانت النتيجة ذاتها ﴿ مَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أخبر الله نبيه ﷺ بما سبق في علمه ، وقضائه من الشقوة عليهم، وأنهم لا يؤمنون بالله تعالى، ولا صدّقوك ولا اتبعوك إلا أن يهديهم الله ويسهل ذلك عليهم، ويشاء أن يؤمنوا فيؤمنوا.

إذ أن سؤالهم الآيات سؤال تعنت واستهزاء وعناد، لا سؤال استرشاد؛ لأنهم قد جاءتهم آيات لو لم يعاندوا لآمنوا بها، ثم إذا علم منهم أنهم لا يؤمنون، مما جعل فيهم خصالاً على الخذلان من نحو قساوة القلب، ذكر الله تعالى هذا الكلام بياناً لكذبهم ، وأنه لا فائدة في إنزال الآيات بعد الآيات وإظهار المعجزات بعد المعجزات ، بل المعجزة الواحدة كافية ؛ ليتميز الصادق عن الكاذب ، فأما الزيادة عليها فتحكم محض ولا حاجة إليه ، وإلا فلهم أن يطلبوا بعد ظهور المعجزة الثانية ثالثة وبعد الثالثة رابعة ، ويلزم أن لا تستقر الحجة ، وأن لا ينتهي الأمر إلى مقطع ومفصل وذلك يوجب سد باب النبوات.

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون أن ذلك كذلك، ولا ينتفعون بعلمهم ، يحسبون أن الإيمان إليهم، والكفرَ بأيديهم، متى شاؤوا آمنوا، ومتى شاؤوا كفروا، وليس ذلك كذلك، بل ذلك بيد الله ، لا يؤمن منهم إلا من هداه له فوفقه، ولا يكفر إلا من خذله عن الرشد فأضله ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ فيقسمون .(1)

وكل ما تقدم إنما هو مما يحزن النبي ﷺ فيقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ، مسلِّيه بذلك عما لقي من كفرة قومه في ذات الله، وحاثّاً له على الصبر على ما نال فيه ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ كما جعلنا لك أعداء من المشركين يخالفونك، ويعادونك ﴿ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ ﴾ ممن تقدمك من الأنبياء أعداء ؛ لما فيه من الابتلاء الذى هو سبب ظهور الثبات والصبر وكثرة الثواب والأجر ﴿ عَدُوًّا ﴾ بأن جعلنا لهم ولك أعداء ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي ﴾ يوسوس ، ويلقي الشر ﴿ بَعْضُهُمْ ﴾ بعضهم في اختفاء كالمناجاة والسرار ﴿ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ لأن أصل الوحي: الإعلام والدلالة بِسَتر وإخفاء ، ثم بين ما يلقي الملقي منهم القولَ حيث كان ﴿ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ الذي زيّنه وحسّنه بالباطل إلى صاحبه، ليغترّ به من سمعه، فيضلّ عن سبيل الله ، فيكونُ من الجن وحياً إلى الإنس، ومن الإنس إلى الخلق قولاً ودُعاء.

والزخرف في قوله تعالى : ﴿ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ ﴾هو المزيَّن والمحسن والموشَّى بالباطل، فهو الذي يكون باطنه باطلاً وظاهره مزيناً ظاهراً ، وكل شيء حسن مموه فهو مزخرف ، وهو المزوّق الذي يغتر سامعه من

(1)- انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٤٦) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٨٤) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢١٨) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢١٥٢) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٣١٢) الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٣٥) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١١٧) تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٨)

الجهلة بأمره، والغرور في قوله تعالى : ﴿غُرُورًا﴾ هو الذي يعتقد في الشيء كونه مطابقاً للمنفعة والمصلحة ، مع أنه في نفسه ليس كذلك ، فالغرور إما أن يكون عبارة عن عين هذا الجهل ، أو عن حالة متولدة عن هذا الجهل ، فيوهمون لهم أنهم على شيء والأمر بخلاف ذلك ، ولم يكن ذلك منهم إلا ليصدُّوهم بمجادلتهم إياك بذلك عن اتباعك والإيمان بك وبما جئتهم به من عند ربّك، كذلك ابتلينا من قبلك من الأنبياء والرسّل، بأن جعلنا لهم أعداءً من قومهم يؤذُونهم بالجدال والخصومات.

فهذا الذي امتحنتك به، لم تخصص به من بينهم وحدك، بل قد عممتهم بذلك معك ؛ لأبتليهم وأختبرهم، مع قدرتي على منع من آذاهم من إيذائهم، فلم أفعل ذلك إلا لأعرف أولي العزم منهم من غيرهم ، حيث إن الامتحان هو سبب ظهور الثبات والصبر، وكثرة الثواب والأجر.

وأما ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ فإنهم مَرَدتهم، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا﴾ولو شئتُ يا محمد أن يؤمن الذين كانوا لأنبيائي أعداءً من شياطين الإنس والجن فلا ينالهم مكرهم ، ويأمنوا غوائلهم وأذاهم، وايحاء الزخارف؛ فعلتُ ذلك، ولكني لم أشأ ذلك؛ لأبتلي بعضهم ببعض، فيستحق كل فريق منهم ما سبق له في الكتاب السابق ، فالله يمتحن بما يعلم أنه أبلغ في الحكمة وأجزل في الثواب ، ثم جاء الأمر الإلهي والذي يحمل في طياته التهديد حيث قال : ﴿فَذَرْهُمْ﴾ فاصبر عليهم ودع الشياطين الذين يجادلونك بالباطل من مشركي قومك ، ويخاصمونك بما يوحي إليهم أولياؤهم من شياطين الإنس والجن ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾وما يختلقون من إفك وزور وافتراء علي وعليك فإني مخزيهم وناصرك ، وإني من وراء عقابهم ، واختلاقهم علي وعليك الكذبَ والزور ، وهذا يخرج على الوعيد لهم .

وهذا القول يتضمن التحذير الشديد من الكفر ، والترغيب الكامل في الإيمان ، ويقتضي زوال الغم عن قلب الرسول ﷺ من حيث يتصور ما أعد الله للقوم على كفرهم من أنواع العذاب ، وما أعد له من منازل الثواب بسبب صبره على سفاهتهم ولطفه بهم[1].

ولم يفعلوا من التزيين الا ليغرّوا به المؤمنين من أتباع الأنبياء فيفتنوهم عن دينهم ، لكن هيهات فقد بين تعالى من يصغي إليهم فقال : ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ ولتميل قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة إلى زخرف القول ؛ الذي كان يوحي ويلقي شياطين الإنس والجن ، ويوحي بعضهم إلى بعض ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسهم هذا الباطل الموسوس به من قبل الشياطين ، حيث إنه لما كان الذي أوحى وألقى بعضهم إلى بعض من زخرف القول الذي يوافق هواهم، وكل من ظفر بما يوافق هواه ومَالَ قلبه إليه فإنه يرضى به؛ وإن لم يكن مرضياً.

---

(1) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٥٠) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٢١) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٧٦) الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٩) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٣٦) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٦٨) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٢١) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٧٨) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٣٠) التسهيل لابن جزي (١/ ٢٧٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٨)

وكان نتيجة رضاهم به داخلياً في قلوبهم أن ظهر أثره خارجياً على تصرفاتهم فقال : ﴿ وَلِيَقْتَرِفُواْ ﴾ ليواقعوا وليجترحوا وليختلقوا وليكذبوا، وليكتسبوا من الأعمال ﴿ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ ما هم مكتسبون من القول الغرور والزخرف [1].

ولما حكى عن الكفار أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها أجاب عنه بأنه لا فائدة في إظهار تلك الآيات ؛ لأنه تعالى لو أظهرها لبقوا مصرين على كفرهم ، ثم أنه تعالى بين أن الدليل الدال على نبوته قد حصل وكمل فكان ما يطلبونه طلبا للزيادة وذلك مما لا يجب الالتفات إليه ، لا سيما أن الدليل الدال على نبوته قد حصل ؛ لأن الله قد حكم بنبوته من حيث إنه أنزل إليه الكتاب المفصل المبين المشتمل على العلوم الكثيرة والفصاحة الكاملة ، وقد عجز الخلق عن معارضته ، فظهور مثل هذا المعجز عليه يدل على أنه تعالى قد حكم بنبوته لذا يقول تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ قل يا محمد لهؤلاء العادلين بالله الأوثان والأصنام : إنكم تتحكمون في طلب سائر المعجزات ، فهل يجوز في العقل أن يطلب غير الله حكما؟ بل أأرتضي حكماً غيره وأطلب القضاء من غير الله ليصغى إليه قلبي ؟ فإن كل أحد يقول إن ذلك غير جائز ، فليس لي أن أتعدّى حكمه وأتجاوزه؛ لأنه لا حَكَم أعدل منه، ولا قائل أصدق منه ، ولفظ "حَكَماً" أبلغ من حاكم ، ولذلك لا يوصف به غير العادل ، ثم قل إنه تعالى حكم بصحة نبوتي حيث ﴿ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ مبينًا فيه الحكم بالحجج والبراهين ما يعرف كل عاقل لم يكابر عقله أنه من عند اللّه نزل ، ومُفَصَّلًا بالأمر، والنهي، والتحليل، والتحريم، فيه ما يؤتى وما يتقى، فخصني بمثل هذا الكتاب المفصل الكامل البالغ إلى حد الإعجاز ، وهو كفاكم مئونة المسألة في الآيات بما أنزله إليكم من الكتاب المفصل ، وقد حكم بذكر آلهتكم بما يكون صدّاً عن عبادتها، فلا حاجة تقع إلى غير اللّه ، وفيه البيان فيما تختصمون فيه من أمري وأمركم ، وفيه الفصل بين الحق والباطل، والشهادة لي بالصدق وعليكم بالافتراء ، بحيث ينفي التخليط والالتباس. وفيه تنبيه على أن القرآن بإعجازه وتقريره مغنٍ عن سائر الآيات.

ثم عضد الدلالة على أنّ القرآن حق بعلم أهل الكتاب؛ لتصديقه ما عندهم وموافقته ، فإن أنكر هؤلاء العادلون بالله الأوثان من قومك توحيدَ الله، وأشركوا معه الأندادَ، وجحدوا ما أنزلته إليك، وأنكروا أن يكون حقاً ، وكذَّبوا به فالذين ﴿ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وهو التوراة والإنجيل، من بني إسرائيل ،كذلك كفار قريش يعلمون أنه منزل من ربك بالحق؛ لما عجزوا عن إتيان مثله وتأليفه ، فالجميع ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ يعني: القرآن وما فيه تأييداً لدلالة الإعجاز على أن القرآن حق منزل من عند الله سبحانه وتعالى،

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٥٧) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٨٥) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٢٤) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٥٩) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٣٦) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٧٨)

ويعلم أهل الكتاب به لتصديقه ما عندهم مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يمارس كتبهم ولم يخالط علماءهم، وإنما وصف جميعهم بالعلم ؛ لأن أكثرهم يعلمون ومن لم يعلم فهو متمكن منه بأدنى تأمل ، ثم بين صفة تنزيل هذا الكتاب عند من علموا به وأنه إنما أنزل ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ فصلاً بين أهل الحق والباطل، يدلُّ على صدق الصادق في علم الله، وكذبِ الكاذب المفتري عليه ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾فلا تكونن يا محمد من الشاكين في حقيقة الأنباء التي جاءتك من الله في هذا الكتاب، وغيرِ ذلك مما تضمنه؛ لأن الذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنَّه منزل من ربك بالحق ، مع علمهم أن رسوله لا يكون من الممترين؛ ليعلم الخلق أنه إذا نهى رسوله عن مثل هذا، فغيره أحق ، وطالما تعاضدت الأدلة على صحته وصدقه، فما ينبغي أن يمترى فيه أحد ، وفيه تثبيت ومبالغة وطعن على الممترين ، والإشهاد بمؤمنيهم والطعن والتنبيه على مشركيهم وحسدتهم[١].

ثم يتابع حديثه عن القرآن ليزيل الشبه فيقول : ﴿ وَتَمَّتۡ ﴾ وكملت واستمرت وصحت ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ يعني القرآن ﴿صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ وبلغت الغاية من الصدق والعدل – صدقا في الأنباء والوعد، وعدلا في الأحكام – بالحجج والبراهين؛ حتى يعرف كل أحد صدق أنبائه وعدلَ أحكامه ، ويعرف كل من تأمل فيها ونظر صدقها وعدلها ، وأنها من اللّه ، ومجموع القرآن كلمة واحدة في كونه حقاً وصدقاً ومعجزاً [٢] ويتبين أن كل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة .

ووصف هذه الكلمة بالتمام ؛ لأنها كافية وافية بكونها معجزة دالة على صدق محمد ﷺ ، ولأنها كافية في بيان ما يحتاج المكلفون إليه إلى قيام القيامة عملاً وعلماً ، وحكم الله تعالى هو الذي حصل في الأزل ولا يحدث بعد ذلك شيء ؛ لأن ذلك الذي حصل في الأزل هو التمام ، والزيادة عليه ممتنعة .

ولا مغيِّر لما أخبر في كتبه أنه كائن من وقوعه في حينه وأجله الذي أخبر الله أنه واقع فيه، وكذلك معنى قوله: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾فلا مغيِّر لما أخبرَ عنه من خبر أنه كائن، فيبطل مجيئه وكونه ووُقوعه على ما أخبرَ جل ثناؤه؛ لأنه لا يزيد المفترون في كتب الله ولا ينقصون منها ، وكلمات الله لا يردُ عليها النقص ولا الجور ولا الخلف، ليس ككلمات الخلقِ؛ حيث إنها تبدل وتنقص وتمنع؛ لما يكون فيها من النقصان والفساد، فإنها تبدل وتنقص ، ويعجزون عن وفاء ما وعدوا، ويمنعون عن ذلك، فاللَّه يتعالى عن أن يبدل كلماته، أو يمنع عن وفاء ما وعد وأنبأ ، ومن المعلوم أن اليهود والنصارى لا شك أنهم أهلُ كتب الله التي

---

(١) - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٦٠) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٢٥) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٧٧) الكشاف للزمخشري (٢/ ٦٠) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٣٧) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٢٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٧٠) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٧٩)

(٢) – ولقد فصل القول في هذا الأمر الإمام فخر الدين الرازي في كتابه مفاتيح الغيب (١٣/ ١٢٥)

أنزلها على أنبيائه، وقد أخبر جل ثناؤه أنهم يحرِّفون غيرَ الذي أخبر أنَّه لا مبدِّل له ، وذلك ضمان لها من الله سبحانه وتعالى بالحفظ ، وأنه لا نبي ولا كتاب بعدها ينسخها ويبدل أحكامها .

وإن كان هؤلاء الكفار يلقون الشبهات في كونها دالة على صدق محمد ﷺ إلا أن تلك الشبهات لا تأثير لها في هذه الدلائل التي لا تقبل التبديل البتة ؛ لأن تلك الدلالة ظاهرة باقية جلية قوية ، لا تزول بسبب ترهات الكفار وشبهات أولئك الجهال.

ثم ختم الآية بقوله : ﴿ وَهُوَ ﴾أي لا غيره ﴿ٱلسَّمِيعُ ﴾ أي البالغ السمع لجميع ما يمكن سمعه من الأقوال والأفعال ؛ منها الترهات هذه التي يقولها هؤلاء العادلون بالله، المقسمون بالله جهد أيمانهم: لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، وغير ذلك من كلام خلقه ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي البالغ العلم لجميع ذلك، فهو إذن الكامل القدرة ، النافذ الأمر في جميع الأسباب والموانع، فلا يدع أحداً يغير شيئاً منها وإن دلس أو شبه. ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بما تؤول إليه أيمانهم من برٍّ وصدق وكذب وحِنْثٍ، وغير ذلك من أمور عباده.[1]

ولما تحقق اختصاصه تعالى بالحكمية لاستقلاله بما يوجبها من إنزال الكتاب الكامل الفاصل بين الحق والباطل وتمام صدق كلامه وكمال عدالَةِ أحكامِهِ ، وامتناع وجود من يبدل شيئاً منها ، وانفراده تعالى بالإحاطة التامة بجميع المسموعات والمعلومات ، ولما ذكر عناد المشركين ، وعداوتهم للرسول ﷺ ، وولايتهم للشّياطين ، ورضاهم بما توسوس لهم شياطين الجنّ والإنس ، واقترافهم السيّئات طاعةً لأوليائهم ، وما طَمْأن به قلب الرّسول ﷺ من أنّه لقي سنّة الأنبياء قبلَه من آثار عداوة شياطين الإنس والجنّ ، وأجاب عن شبهات الكفار ، وبين بالدليل صحة نبوة محمد ﷺ أعقبه بذكر ما يُهَوِّن على الرّسول ﷺ والمسلمين ما يرونه من كثرة المشركين وعزّتهم ، ومن قلّة المسلمين وضعفهم ، مع تحذيرهم من الثّقة بقولهم ، والإرشاد إلى مخالفتهم في سائر أحوالهم ، وعدم الإصغاء إلى رأيهم ، لأنَّهم يُضِلّون عن سبيل الله وعن الطريق الموصل إليه ، وأمرِهم بأن يلزموا ما يرشدهم الله إليه ، فبعد زوال الشبهة وظهور الحجة لا ينبغي أن يلتفت العاقل إلى كلمات الجهال ، ولا ينبغي أن يتشوش بسبب كلماتهم الفاسدة ، فامض يا محمد لما أمرت به وانفذ لرسالتك فإن أكثر أهل الأرض كانوا ضلالاً ، متصفون بنقائض تلك الكمالات من النَّقائص التي هي الضلال والإضلال ، واتباع الظنون الفاسدة الناشئ مِن الجهل والكذب على الله سبحانه وتعالى إبانةً لكمال مباينةِ حالهم لما يرومونه ، وتحذيراً عن الركون إليهم والعمل بآرائهم فقال : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ لا تطع يا محمد هؤلاء العادلين بالله الأنداد، وأشكالَهم

---

(1) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٦٢) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٢٦) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٣٧) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٢٤) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٧٩) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٢) الجواهر الحسان للثعالبي (٢/ ٥٠٩) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٣٨)

من أهل الزيغ والضلال ، فيما دعوك إليه من أكل ما ذبحوا لآلهتهم، وأهلُّوا به لغير ربهم، وعبادة الأوثان واتباع ملة الآباء والأجداد فإنك إن ﴿تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ عن دين الله، ومحجة الحق والصواب، فيصدُّوك عن عن الطريق التي تؤدي إلى ثواب الله.

وإنما قال الله لنبيه: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من بني آدم؛ لأنهم كانوا حينئذ كفاراً ضلالاً فقال له جل ثناؤه: لا تطعهم فيما دعوك إليه، فإنك إن تطعهم ضللت ضلالهم، وكنتَ مثلهم؛ لأنهم لا يدعونك إلى الهدى وقد أخطأوه ، فإن الضال في غالب الأمر لا يأمر إلا بما فيه ضلال ، وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم في ظنون كاذبة ، وحسبان باطل ، ثم أخبر جل ثناؤه عن حال الذين نَهَى نبيه عن طاعتهم فيما دعوه إليه في أنفسهم، فقال:﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾فأخبر جل ثناؤه أنهم من أمرهم على ظن عند أنفسهم ، وجهالاتهم وآراؤهم الفاسدة وهوى ، غير قاطعين بصحة مذاهبهم ، لم يأخذوه عن بصيرة وحجة، وحسبان على صحة عزمٍ عليه، وإن كان خطأً في الحقيقة ، ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ ما هم إلا متخرِّصون، يظنون ويوقعون حَزْرًا، لا يقينَ علمٍ[1] ، يكذبون على الله سبحانه وتعالى فيما ينسبون إليه ؛كاتخاذ الولد ، وجعل عبادة الأوثان وصلة إليه، وتحليل الميتة وتحريم البحائر .

ثم الخطاب وإن كان لرسول اللّٰه في الظاهر، فهو لكل مؤمن؛ إذ معلوم أن رسوله لا يطيعهم فيما يدعونه إلى عبادة الأوثان في الأرض[2].

ثم يقول تعالى لنبيه : يا محمد، إن ربك الذي نهاك أن تطيع هؤلاء العادلين بالله الأوثانَ، لئلا يُضِلوك عن سبيله، ودينه وعن شرائع الإسلام ، فـ ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾ منك ومن جميع خلقه ﴿مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ﴾ أيُّ خلقه يَضلّ عن سبيله بزخرف القول الذي يوحِي الشياطين بعضُهم إلى بعض، فيصدُّوا عن طاعته واتباع ما أمر به ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ وهو أعلم أيضاً منك ومنهم بمن كان على استقامة وسدادٍ، لا يخفى عليه منهم أحد ، فاتبع يا محمد ما أمرتك به، وانته عما نهيتك عنه من طاعة مَنْ نهيتك عن طاعته، فإني أعلم المهتدي والضال من خلقي منك ، فلا تكن في قيدهم بل فوض أمرهم إلى خالقهم فهو يجازي كل واحد بما يليق بعمله [3].

---

[1] – فان قيل: كيف يجوز تعذيب من هو على ظنٍ من شركه، وليس على يقينٍ من كفره! فالجواب: انهم لما تركوا التماس الحجة، واتبعوا أهواءهم، واقتصروا على الظن والجهل، عُذِّبوا، زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٧٠)

[2] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٦٤) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٢٨) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٣٨) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٢٧) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٧١) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٧٩) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٢) تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٢ / ٤٣٥) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٨ / ٢٢)

[3] – جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٦٥) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٧٧) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٢٧)

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. إن الهداية إليه، لا إلى أحد من خلقه ؛ بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته، وسلطانه وقهره وغلبته.[١]

٢. وجوب اتباع دلالات القرآن، لأنه حق لا يمكن تبديله بما يناقضه، لأنه من عند حكيم لا يخفى عليه شي من الأمور كلها [٢]

٣. توجيه النبي ﷺ والمؤمنين ، وتنبيههم عن اتباع الكفار والمشركين وإن كان لهم الكثرة والعدد ، لأنهم لا حُجَّةَ ولا برهان عندهم على ما يَدَّعونه من كفرٍ وآراء فاسدة ، بل ما عندهم إلا الشُّبَه التي يريدون بها إضلال أهل الإيمان .

٤. أكثر من في الأرض ليسوا على الإيمان الصحيح ، وأنّ العبرة ليست بالعدد والكَمّ ؛بل بالكَيْفِ واتباع الحق المنزل من الله تعالى .

٥. في الآيات دليل على أنه كان في الأرض من يعبد اللَّه وكان على دين الأنبياء والرسل[٣].

٦. كلّما كان المحلّ أعلى كانت البلايا أوفى، والمطالبات أقوى، فلمّا كانت رتب الأنبياء- عليهم السلام- أشرف كانت العداوة معهم أشد وأصعب[٤].

٧. أهل الله قليلون عدداً كثيرون وزناً وخطراً، وأمّا الأعداء ففيهم كثرة. [٥]

٨. تقاصرت علوم الخلق عن إدراك غيبه إلا بقدر ما عرّفهم من أمره، والذي لا يخفى عليه شيء فهو الواحد سبحانه. [٦]

٩. شياطين الإنس أشد تمرداً من شياطين الجن ؛ لأن شيطان الجن إذا عجز عن إغواء المؤمن الصالح استعان على إغوائه بشيطان الإنس ليفتنه [٧].

١٠. من لم يقنعه ما جاء به القرآن من الدلائل العقلية والبراهين العلمية لا يقنعه ما يراه بعينيه من الآيات الحسية[٨].

---

[١] - تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٨)

[٢] - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٧١)

[٣] - تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٢٨)

[٤] - لطائف الإشارات للقشيري (١/ ٤٩٥)

[٥] - المرجع السابق (١/ ٤٩٦)

[٦] - المرجع السابق (١/ ٤٩٦)

[٧] - مراح لبيد لمحمد نووي (١/ ٣٤٢)

[٨] - تفسير المراغي (٧/ ٢١٦)

١١.	بيان سنن الله الحكمية فى ربط المسببات بأسبابها، فرسوخ الكفار في الطغيان الذي هو غاية الكفر والعصيان هو سبب تقليب القلوب والأبصار [١].

١٢.	شاء الله أن يكون الإنس والجن على استعداد لقبول الحق والباطل والخير والشر، وأن يكونوا مختارين سلوك أي الطريقين كما قال : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾[البلد: ١٠]. [٢]

١٣.	القرآن الكريم هو أقوى الأدلة على رسالة نبيه من جميع ما اقترحوا، وهو الذي يجب الرجوع إليه فى أمر الرسالة واتباع حكمه فيها، دون أولئك الضالين المبطلين، من شياطين الإنس والجن. [٣]

١٤.	كما أن سنة الله تعالى قد مضت بأن يكون للرسل أعداء من شياطين الإنس والجن، تمت كلمته بنصر المسلمين وخذلان الأعداء المفسدين. [٤]

١٥.	أن كل جزئية صغيرة في الحياة الإنسانية يجب أن تخضع خضوعاً مطلقاً لحاكمية الله المباشرة الممثلة في شريعته. وإلا فهو الخروج من هذا الدين جملة، من أجل الخروج على حاكمية الله المطلقة في تلك الجزئية الصغيرة .. وهذا يدل على مدى الأهمية التي ينوطها هذا الدين بتخليص مظهر الحياة كله من ظلال حاكمية البشر في أي شأن من شؤون البشر- جل أم حقر، كبر أم صغر- وربط أي شأن من هذه الشؤون بالأصل الكبير الذي يتمثل فيه هذا الدين.. وهو حاكمية الله المطلقة التي تتمثل فيها ألوهيته في الأرض، كما تتمثل ألوهيته في الكون كله بتصريف أمر هذا الكون كله بلا شريك[٥].

١٦.	أن الإيمان أو الكفر. والهدى أو الضلال ... لا تتعلق بالبراهين والأدلة على الحق، فالحق هو برهان ذاته. وله من السلطان على القلب البشري ما يجعله يقبله ويطمئن إليه ويرضخ له.. ولكنها المعوقات الأخرى هي التي تحول بين القلب والحق . [٦]

١٧.	إن موحيات الإيمان كامنة في القلب ذاته وفي الحق كذلك بذاته وليست متعلقة بعوامل خارجية ، فيجب أن تتجه المحاولة إذن إلى ذلك القلب لعلاجه من آفاته ومن معوقاته. [٧]

١٨.	أن مشيئة الله هي المرجع الأول والأخير في أمر الهدى والضلال. فقد اقتضت هذه المشيئة أن تبتلي البشر بقدر من حرية الاختيار والتوجه في الابتداء وجعل هذا القدر موضع

---

[١] – المرجع السابق (٧/ ٢١٧)

[٢] – المرجع السابق (٨/ ٧)

[٣] – المرجع السابق (٨/ ٩)

[٤] – المرجع السابق (٨/ ١١)

[٥] – في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/ ١١٨٠)

[٦] – المرجع السابق (٣/ ١١٨٦)

[٧] – المرجع السابق (٣/ ١١٨٦)

ابتلاء للبشر وامتحان. فمن استخدمه في الاتجاه القلبي إلى الهدى والتطلع إليه والرغبة فيه- وإن كان لا يعلم حينئذ أين هو- فقد اقتضت مشيئة الله أن يأخذه بيده ويعينه ويهديه إلى سبيله. ومن استخدمه في الرغبة عن الهدى والصدود عن دلائله وموحياته، فقد اقتضت مشيئة الله أن يضله وأن يبعده عن الطريق وأن يدعه يتخبط في الظلمات.. وإرادة الله وقدره محيطان بالبشر في كل حالة، ومرد الأمر كله إليه أولاً وآخراً . [١]

١٩. أن الطائعين والعصاة في قبضة الله سواء، وتحت قهره وسلطانه سواء. فهم لا يملكون جميعاً أن يحدثوا شيئاً إلا بقدر الله وفق مشيئته التي جرت بتلك السنن في تصريف أمر العباد. [٢].

٢٠. أن الذين يقفون بالعداوة لكل نبي ويقفون بالأذى لأتباع الأنبياء.. هم «شياطين» !. شياطين من الإنس ومن الجن.. وأنهم يؤدون جميعاً- شياطين الإنس والجن- وظيفة واحدة! [٣]

٢١. أن الابتلاء بالأعداء أمر أراده الله كذلك وجرى به قدره. لما وراءه من التمحيص والتجربة. ولما فيه من إعطاء كل أحد فرصته ليعمل لما هو ميسر له ويستحق جزاءه بالعدل والقسطاس..ثم لتصلح الحياة بالدفع ويتميز الحق بالمفاصلة ويتمحض الخير بالصبر ويحمل الشياطين أوزارهم كاملة يوم القيامة.. وليجري الأمر كله وفق مشيئة الله.. أمر أعدائه وأمر أوليائه على السواء.. إنها مشيئة الله، والله يفعل ما يشاء.. [٤]

٢٢. إن الله لم يترك شيئاً غامضاً ولم يجعل العباد محتاجين إلى مصدر آخر، يحكمونه في ما يعرض لهم من مشكلات الحياة ، فقد نزل هذا الكتاب مفصلاً، محتوياً على المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الحياة جملة. كما أنه تضمن أحكاماً تفصيلية في المسائل التي يريد الله تثبيتها في المجتمع الإنساني مهما اختلفت مستوياته الاقتصادية والعلمية والواقعية جملة.. وبهذا وذلك كان في هذا الكتاب غناء عن تحكيم غير الله في شأن من شؤون الحياة. [٥]

٢٣. هذا التوجيه وأمثاله وهذا التثبيت على الحق ونظائره تدل على ضخامة ما كان يلقاه ﷺ والجماعة المسلمة معه من الكيد والعنت والتكذيب والجحود ورحمة الله- سبحانه- به وبهم بهذا التوجيه والتثبيت.. [٦]

---

[١] - المرجع السابق (٣/ ١١٨٦)

[٢] - المرجع السابق (٣/ ١١٨٧)

[٣] - المرجع السابق (٣/ ١١٩٠)

[٤] - انظر المرجع السابق (٣/ ١١٩١)

[٥] - المرجع السابق (٣/ ١١٩٤)

[٦] - تفسير المراغي (٨/ ٧)

٢٤. أن الذي يحكم على العباد بأن هذا مهتد وهذا ضال هو الله وحده؛ لأن الله وحده هو الذي يعلم حقيقة العباد، وهو الذي يقرر ما هو الهدى وما هو الضلال ، فلا بد من قاعدة للحكم على عقائد الناس وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم ونشاطهم وأعمالهم ، لا بد من قاعدة لتقرير ما هو الحق وما هو الباطل في هذا كله- كي لا يكون الأمر في هذه المقومات هو أمر هوى الناس المتقلب واصطلاحهم الذي لا يقوم على علم مستيقن.. ثم لا بد من جهة تضع الموازين لهذه المقومات، ويتلقى منها الناس حكمها على العباد والقيم سواء ، والله- سبحانه- يقرر هنا أنه هو- وحده- صاحب الحق في وضع هذا الميزان. وصاحب الحق في وزن الناس به، وتقرير من هو المهتدي، ومن هو الضال. [١]

٢٥. أن الله سبحانه هو من تكفل بحفظ القرآن الكريم ، وليس ذلك للبشر ؛ لأن القرآن معجزة، والمعجزة لا يكون للمكلَّف عمل فيها أبداً. وعليك أيها المكلف أن تَطْمَئِن على أن القرآن الذي بين يديك إلى أن تقوم الساعة هو هو لن تتغير فيه كلمة .[٢]

٢٦. جاء التشريع الإسلامي لينمي في صاحب الفطرة السليمة فطرته أو يؤكدها له، ويعدل في صاحب النزعة السيئة ليعود به إلى الفطرة الحسنة. [٣]

٢٧. من اتبع الناس فسوف يضلونه ؛ لأنهم لا يملكون دليلاً علمياً، ولاحقاً يقينياً، بل يتبعون الظن إن كان الأمر راجحاً، ويخرصون ويخمنون حتى ولو كان الأمر مرجوحاً. [٤]

٢٨. ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن أبداً، وبهذا تقررت ربوبيته وألوهيته للأولين والآخرين. [٥]

٢٩. التحذير من التمويه والتغرير فإن أمضى سلاح للشياطين هو التزيين والتغرير. [٦]

٣٠. القلوب الفارغة من الإيمان بالله ووعده وعيده في الدار الآخرة أكثر القلوب ميلاً إلى الباطل والشر والفساد. [٧]

٣١. اتباع أكثر الناس يؤدي إلى الضلال فلذا لا يتبع إلا أهل العلم الراسخون فيه[٨].

---

[١] - في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/ ١١٩٦)

[٢] - تفسير الشعراوي (٧/ ٣٨٩٠)

[٣] - المرجع السابق (٧/ ٣٨٩٦)

[٤] - المرجع السابق (٧/ ٣٨٩٦)

[٥] - أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ١٠٧)

[٦] - المرجع السابق (٢/ ١٠٩)

[٧] - المرجع السابق (٢/ ١٠٩)

[٨] - المرجع السابق (٢/ ١٠٩)

٣٢. أن العقاب أمر يقتضيه العدل المطلق للتّمييز بين المحسنين الأبرار وبين المسيئين الأشرار، فلا يعقل التّسوية بين من لازم الطاعة، فعمل والتزم أوامر الله، وبين من قارف المعصية، فأعرض واستكبر، وعتا وعاند، وتنكّر لأوامر الله ولم يأبه بما حظره الله ومنعه، وأهمل نداء الحقّ والخير[1].

(1) - التفسير المنير للزحيلي (٨/ ١١)

المطلب الخامس : مخالفة أهل الجاهلية في بعض العادات الذميمة (١١٨ – ١٢١)

يقول الله سبحانه تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

أولاً : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

بعد أن أبطل ما ألقاه المشركون من الشّبهة على المسلمين في تحريم الميتة في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (١) ، إذ قالوا للنبي ﷺ : تزعم أن ما قتلتَ أنت وأصحابك وما قتل الكلب والصّقر حلال أكلُه ، وأنّ ما قتل اللّهُ حرام «(٢)» وأنّ ذلك ممّا شمله قوله تعالى : ﴿ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾ ، ونهى الله عن اتباع المضلين الذين يحرمون الحلال ويحللون الحرام، وسمّى شرائعهم خرصاً ، فرّع عليه هنا الأمر بأكل ما ذكر اسم الله عليه ، أي عند قتله ، أي ما نُحر أو ذُبح وذُكر اسم الله عليه ، والنّهيَ عن أكل ما لم يُذكر اسم الله عليه ، ومنه الميتة .

وذلك ليبين شرائع هدى للمهتدين ، وإبطالِ شرائع شَرَعها المضلّون ، تبييناً يزيل التّشابه والاختلاط ، ولذلك خللت الأحكام المشروعة للمسلمين، بأضدادها الّتي كان شرعها المشركون وسلَفُهم. وما تُشعر به الفاء من التفريع يقضي باتّصال هذه الجملة بالّتي قبلها(٣) .

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

---

(١) من الآية (١١٦) من سورة الأنعام

(٢) أخرجه أبو داود في السنن ، كتاب : الضحايا ، باب : أكل ذبائح أهل الكتاب بلفظ :جاءت اليهود إلى النبي صلى الله عليه فقالوا : نأكل ممّا قتلنا ، ولا نأكل ممّا قتل الله ؟ فأنزل الله ﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ ﴾ إلى آخر الآية (٣/ ١٦٧)برقم:٢٨١٩ قال الشيخ الألباني : صحيح لكن ذكر اليهود فيه منكر والمحفوظ أنهم المشركون.

ورواه النسائي في السنن ، كتاب : الضحايا ، باب : تأول قول الله عز وجل ﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ ﴾ . بلفظ : خاصمهم المشركون فقالوا : ما ذبح الله فلا تأكلوه ، وما ذبحتم أنتم أكلتموه (٧ / ٢٧٢) برقم : ٤٤٤٩ قال الشيخ الألباني : صحيح الإسناد .

(٣) – نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٤٢) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٨ / ٣٠)

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ وعباده المؤمنين به وبآياته: ﴿فَكُلُوا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ مما ذكّيتم من ذبائحكم ، وذبحتموه الذبح الذي بينت لكم أنه تحلّ به الذبيحة لكم، وذلك ما ذبحه المؤمنون بي من أهل دينكم دين الحق، أو ذبحه مَنْ دان بتوحيدي من أهل الكتاب، دون ما ذبحه أهل الأوثان ومَنْ لا كتاب له من المجوس ، ولما كان هذا الأمر لا يقبله إلا من زال دين الشرك وجميع توابعه من قبله؛ قال: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ﴾ إن كنتم بحجج الله التي أتتكم وأعلامه، بإحلال ما أحللت لكم، وتحريم ما حرمت عليكم من المطاعم والمآكل ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ مصدّقين ، وكنتم بأحكامه وأوامره آخذين، فإن الإيمان بها يتضمن ، ويقتضي الأخذ بها والانقياد لها ، ودَعوا عنكم زخرف ما توحيه الشياطين بعضها إلى بعض من زخرف القول لكم، وتلبيس دينكم عليكم غروراً.[1]

ثمَّ أبلغَ في إباحة ما ذبح على اسم الله بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ وأيُّ شيء يمنعكم أن ﴿تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ؟ وأي غرض لكم في أن تتحرجوا عن أكله ، وذلك أنّ الله تعالى ذكره تقدّم إلى المؤمنين بتحليل ما ذكر اسم الله عليه، وإباحة أكل ما ذبح بدينه أو دين من كان يدين ببعض شرائع كتبه المعروفة، وتحريم ما أهلّ به لغيره، من الحيوان وزجرهم عن الإصغاء لما يوحي الشياطين بعضهم إلى بعض من زخرف القول في الميتة والمنخنقة والمتردية، وسائر ما حرم الله من المطاعم. ثم قال: وما يمنعكم من أكل ما ذبح بديني الذي ارتضيته، ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ وقد أزيل عنكم اللبس والشك، وفصّلت لكم الحلال من الحرام فيما تطعمون، وبينته لكم ، فلا لبس عليكم في حرام ذلك من حلاله، فتتمنعوا من أكل حلاله حذراً من مواقعة حرامه ، ثم قال تعالى : ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ والذي يعني أن ما أضطررنا إليه من المطاعم المحرّمة التي بيَّن تحريمها لنا في غير حال الضرورة، لنا حلال ما كنا إليه مضطرين، حتى تزول الضرورة.

ثم بين تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة، من استحلالهم الميتات، وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى فيقول تعالى ذكره: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ وإن كثيرًا من الناس الذين يجادلونكم في أكل ما حرم الله عليكم، أيها المؤمنون بالله، من الميتة، ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾ أتباعهم ﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ وشهواتهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ من غير تعلق بشريعة ، ومن غير علم منهم بصحة ما يقولون، ولا برهان عندهم بما فيه يجادلون، إلا ركوبًا منهم لأهوائهم وشهواتهم ، واتباعاً منهم لدواعي نفوسهم، اعتداءً وخلافاً لأمر الله ونهيه، وطاعة للشياطين، فبين عز وجل أن ضلالهم من أقبح الوجوه .

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٦٧) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٣٨) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٨٠) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٤٢) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٨ / ٣٠)

والتعبير بلفظ ﴿كَثِيرًا﴾ دل على أن الكل منهم لم يكونوا يضلون؛ ولكن البعض، هم الأئمة منهم والرؤساء؛ لأن الأتباع منهم كانوا لا يضلون الناس؛ إنما كانوا يضلون الكبراء منهم والعظماء ، وهذه العبارة بهذا السياق أبلغ في ذمهم ؛ لأن كل مضل ضال ، وليس كل ضال مضلاً وهذا معنى إسناد إضلال غيرهم إليهم .

ثم توعدهم تعالى بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد الذي أحلَّ لك ما أحلَّ وحرَّم عليك ما حرم، ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ هو أعلم بمن اعتدى حدوده فتجاوزها إلى خلافها، وذلك بمجاوزة الحق إلى الباطل والحلال إلى الحرام، وهو لهم بالمرصاد ، فهو العالم بما في قلوبهم وضمائرهم من التعدي وطلب نصرة الباطل والسعي في إخفاء الحق، وإذا كان عالماً بأحوالهم ، وكان قادراً على مجازاتهم فهو تعالى يجازيهم عليها والمقصود من هذه الكلمة التهديد والتخويف [1].

و لما بين تعالى أنه فصل المحرمات أتبعه بما يوجب تركها بالكلية حيث جاء نهي عام جميع الآثام فقال : ﴿وَذَرُواْ﴾ ودعوا أيها الناس فلا تقربوا ﴿ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾ علانية الإثم، وذلك ظاهره، سواء كان ظاهراً بالنسبة لفاعله بمعنى ما يعمله الإنسان بالجوارح من الذنوب، أو ظاهراً بالنسبة للناس بحيث يفعله بمرأى غيره فيراه الخلق .

وسرّه وذلك باطنه ، سواء كان ذلك باطناً بالنسبة لفاعله وهو ما ينويه ويقصده بقلبه كالمصر على الذنب القاصد له ، أو كان باطناً لغيره فلا يفعله بمرأى من أحد ، بل يختلي بالمعصية ليفعلها ؛ ليظهر بذلك أن الداعي له إلى ترك ذلك الإثم خوف الله لا خوف الناس ، و"الإثم" كل ما عُصِي الله به من محارمه، وقد يدخل في ذلك سرُّ الزنى وعلانيته، ومعاهرة أهل الرايات وأولات الأخدان منهن، ونكاحُ حلائل الآباء والأمهات والبنات، والطواف بالبيت عرياناً، وكل معصية لله ظهرت أو بطنت ، وكان جميعُ ذلك"إثمًا"، وكان الله عمّ بقوله: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ جميع ما ظهر من الإثم وجميع ما بطن ، لم يكن لأحد أن يخصّ من ذلك شيئاً دون شيء، إلا بحجة للعذر قاطعة.

ثم أوعد على فعل الإثم بالجزاء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ﴾إن الذين يعملون بما نَهاهم الله عنه، ويركبون معاصيَ الله ويأتون ما حرَّم الله ﴿سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾ سيحاسبهم الله يوم

[1] - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٦٨) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٨٧) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٤٣) الوجيز للواحدي (ص: ٣٧٢) الكشاف للزمخشري (٢/ ٦١) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٣٨) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٣٠) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٨٠) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٣٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٣)

القيامة ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿يَقْتَرِفُونَ﴾ يعملون من معاصيه، سواء كان ظاهراً أو خفياً، فإن الله سيجزيهم عليه.(١)

ولما بين تعالى أنه يحل أكل ما ذبح على اسم الله ، ذكر بعده تحريم ما لم يذكر عليه اسم الله ويدخل فيه الميتة ويدخل فيه ما ذبح على ذكر الأصنام والمقصود منه إبطال ما ذكره المشركون فقال : ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ لا تأكلوا، أيها المؤمنون ، من ما مات فلم تذبحوه أنتم، مما لم يخلص ذبحه لله عز وجل، بحيث لم يذبحه موحِّدٌ يدين لله بشرائع شَرَعها له في كتاب منزل، فإنه حرام عليكم ولا ما أُهلَّ به لغير الله مما ذبَحه المشركون لأوثانهم، فإن أكل ذلك ﴿لَفِسْقٌ﴾ أي أكْل ما لم يذكر اسم الله عليه من الميتة، وما أهل به لغير الله، معصية واستحلاله كفر.

ثم بين تعالى أسباب كل ذلك فقال مخبراً : ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ فيلقون في قلوبهم ؛ ليجادلوا المؤمنين ويخاصموهم بالباطل ، في تحريمهم أكل الميتة، بما ذكرنا من جدالهم بالباطل وجائز أن يكون الموحون شياطين الإنس يوحون إلى أوليائهم منهم وهم النصراء والظهراء، وجائز أن يكونوا شياطين الجن أوحوا إلى أوليائهم من الإنس ، وجائز أن يكون الجنسان كلاهما تعاونا على ذلك، كما أخبر الله عنهما في الآية الأخرى التي يقول فيها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [سورة الأنعام: ١١٢] ، فالله أخبر نبيه أنه جعل له أعداء من شياطين الجن والإنس، كما جعل لأنبيائه من قبله، يوحي بعضهم إلى بعض المزيَّن من الأقوال الباطلة، ثم أعلمه أن أولئك الشياطين يوحون إلى أوليائهم من الإنس ليجادلوه ومن تبعه من المؤمنين فيما حرمَ الله من الميتة عليهم ، بل في وحدانية اللَّه تعالى وفي إثبات الرسالة، والبعث بعد الموت، وغير ذلك (٢) .

وأما قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في أكل الميتة وما حرم عليكم ربكم؛﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ إنكم إذًا مثلهم، إذ كان هؤلاء يأكلون الميتة استحلالاً ، فإذا أنتم أكلتموها كذلك فقد صرتم مثلهم مشركين ، حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك(٣) .

---

(١) - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٧٢) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٣١٦) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ١٥٥) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٣٩) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٣٠) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٣)

(٢) – ومن ذلك أيضاً قولهم : ما قتله الله أحق بالأكل مما قتلتموه أنتم وجوارحكم – ونحو ذلك، وأهل الحرم لا ينبغي أن يقفوا في غيره، والغريب لا ينبغي أن يساويهم في الطواف في ثيابه، والنذر للأصنام كالنذر للكعبة، ونحو هذا من خرافاتهم التي بنوا أمرهم فيها على الهوى الذي هم معترفون بأنه مضل مضر، ومبالغون في الذم باتباعه والميل إليه، ويكفي في هدم جميع شبههم إجمالاً أن صاحب الدين ومالك الملك منع منها . نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٤٧)

(٣) - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٧٦) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٨٧) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٧٩) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٣٠) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٧٧) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٩)

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. كلُّ من أضلَّ غيره فهو ضَالٌ، وليس كل من ضلَّ أضلَّ غَيْرَهُ[1]

٢. أن مِن سِمات أهل الإيمان ذكر الله – هو دَيْدَنهم – في ذبائحهم وفي صلاتهم وغيرها من شؤون حياتهم ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ([2]) وأن أهل الإشراك لا يذكرون الله ، لا في ذبائحهم ولا في غيرها . والله أعلم

٣. الدليل على أن كل من أحل شيئاً مما حرم الله عليه أو حرم شيئاً مما أحل الله له فهو مشرك.

٤. لو أحل محلٌّ الميتة في غير اضطرار، أو أحل الزنا لكان مشركاً بإجماع الأمة، وإن أطاع الله في جميع ما أمر به، وإنما سمي مشركاً لأنه اتبع غير الله، فأشرك بالله غيره،[3]

٥. أن الله تعالى جعل المهَلَّ لغير اللَّه ميتةً حراماً، وجعل المذكور اسم اللَّه عليه ذكيّاً حلالاً؛ فدل أن التسمية شرطٌ في أكل الذبيحة؛ لأنه لو لم تكن شرطاً في حل الذبيحة لم يكن الْمُهلُّ به لغير اسم اللَّه ميتة حراماً ، ولأنه سمى ما لم يذكر اسم اللَّه عليه فسقاً، والفسقُ هو الخروج عن أمر اللَّه؛ فدل أن التسمية شرط فيها ، ولهذا يحل لنا ذبائح أهل الكتاب إذا سمعناهم يذكرون اسم اللَّه عليه، وإن كانوا ما يذكرون في الحقيقة غير اللَّه؛ لأنهم لا يعرفون اللَّه حقيقة، ولكن إذا ذكروا اسم اللَّه عليه تحل لنا.[4]

٦. أن جميع الخلق لله تعالى وله الحكم عليهم؛ فأحل لهم هذا وحرم عليهم هذا ، ولا يقال لأحد في ملكه: لم فعلت ذا؟ ولم تفعل ذا؟[5]

٧. أن الله تعالى تعبدنا بذكر اسمه عليها؛ فصار فيما ذكر اسم اللَّه إقامة عبادة تعبدنا بها، وفيما لم يذكر لم يكن عبادة؛ لذلك حل لنا ما كان في ذلك إقامة عبادة، ولم يحل لنا ما لم يكن فيها إقامة عبادة[6]

٨. أن استحلال الحرام، وتحريم الحلال يوجب الكفر.[7]

---

(١) - الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢١٦٦)

(٢) الآية (١٦٢) من سورة الأنعام .

(٣) - معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٨٧)

(٤) - تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٣٤)

(٥) - تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٣٩)

(٦) - المرجع السابق (٤/ ٢٣٩)

(٧) - تفسير السمعاني (٢/ ١٤٠)

٩. إذا تاب المذنب من الذنب توبة صحيحة لم يعاقب ، وإذا لم يتب فهو في مشيئة الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه بفضله[١].

١٠. في الآية إيماء إلى تحريم القول فى الدين بالتقليد ؛ لأن ذلك من اتباع الأهواء، بغير علم، إذ المقلد غير عالم بما قلّد فيه[٢].

١١. أن الله لم يحرم على عباده إلا ما كان ضاراً بالأفراد في أنفسهم أو فى أموالهم أو في عقولهم أو في أعراضهم أو في دينهم، أو ضاراً بالجماعات في مصالحهم السياسية أو الاجتماعية[٣].

١٢. حلل الحق ما أراد وحرم ما شاء ليجعل الكون منضبطاً بقدرة الحكيم القادر. [٤]

١٣. الذي يصون المجتمع هو التقنين السماوي، فالمنهج لا يحمي الإنسان ممن حوله فحسب ولكنه يقنن لحركة الإنسان لتكون صحيحة. [٥]

١٤. المنهج الإسلامي فيه تحييد لأهل الإسلام، وتوفير لاستقلال شخصيتهم، وإبراز ذاتيتهم، بالرغم من أن أكثر أهل الأرض كانوا ضلالاً بسبب غلبة الشرك على عقائدهم[٦].

١٥. تحريم ارتكاب جميع المعاصي، سواء في السرّ أو في العلن، وسواء أفعال الجوارح كاليد والرجل، وأفعال القلوب كالحسد والحقد. [٧]

---

(١) - مراح لبيد لمحمد نووي (١/ ٣٤٤)
(٢) - تفسير المراغي (٨/ ١٥)
(٣) - المرجع السابق (٨/ ١٥)
(٤) - تفسير الشعراوي (٧/ ٣٩٠٤)
(٥) - المرجع السابق (٧/ ٣٩٠٨)
(٦) - التفسير المنير للزحيلي (٨/ ١٩)
(٧) - المرجع السابق (٨/ ٢٤)

المطلب السادس : مظاهر الصدود والإعراض وأسباب ذلك (١٢٢ – ١٣٠)

يقول الله سبحانه تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

أولا : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

ولما حَذَّرَ اللهُ المسلمين من دسائس أولياء الشّياطين ومجادلتهم في الدّين ، بتحسين أحوال أهل الشّرك ، وتقبيح أحكام الإسلام الّتي منها : تحريم الميتة ، وتحريم ما ذُكر اسم غير الله عليه بقوله : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

ولما كان معنى التحذير من طاعة المشركين أنكم إن فعلتم كنتم قد رددتم أنفسكم إلى ظلام الضلال بعد أن منحتم نور الهداية، فكان التقدير: أفمن كان هكذا كان كمن نصح لنفسه باتباع الأدلة وتوقي الشبه، عطف عليه قوله: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ حيث أعقَب ذلك بتفظيع حال المشركين، ووصَفَ حُسْنَ

حالة المسلمين حين فارقوا الشّرك ، فجاء بتمثيلين للحالتين ، ونفَى مساواة إحداهما للأخرى؛ تنبيهاً على سوءِ أحوال أهل الشّرك وحسنِ حال أهل الإسلام .[1]

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

لما ذكر في الآية الأولى أن المشركين يجادلون المؤمنين في دين الله ذكر مثلاً يدل على حال المؤمن المهتدي ، وعلى حال الكافر الضال فقال : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾

وهذا الكلام من الله جلّ ثناؤه يدل على نَهيه المؤمنين برسوله يومئذ عن طاعة بعض المشركين الذين جادلوهم في أكل الميتة، بما ذكرنا عنهم من جدالهم إياهم به، وأمره إياهم بطاعة المؤمن منهم الذي كان كافراً، فهداه جلّ ثناؤه لرشده، ووفقه للإيمان ، فقال لهم: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا﴾أطاعة من كان ميتاً، يقول: من كان كافراً ؟ فجُعل لانصرافه عن طاعته، وجهله بتوحيده وشرائع دينه، وتركه الأخذ بنصيبه من العمل لله بما يؤديه إلى نجاته، بمنزلة"الميت" الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه نازلة ﴿فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ فهديناه للإسلام ، فصار يعرف مضارّ نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سَخَط الله وعقابه في معاده.

﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ جعلنا له ديناً وهدى وإيماناً، فكتاب الله بينة من الله عز وجل مع المؤمن بها يعمل وبها يأخذ وإليها ينتهي ، وبه يكون إبصار المؤمن للحق بعد عَمَاه عنه، ومعرفته بوحدانيته وشرائع دينه بعد جهله بذلك، فهو حياة وضياء يستضيء به ويهتدي به في الناس، فيمشي على قصد السبيل، ويمشي به بين الناس إلى الجنة ينشر به دينه ومنهج الطريق السوي ، ويعلم كيف يسلك، وكيف يتصرف به ، فبين أن المؤمن المهتدي بمنزلة من كان ميتاً فأنقذه من الضلال ، وجعله حياً بعد ذلك وأعطي نوراً الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل ، ويهتدى به في مصالحه وأكرمناه بالمعرفة ، ومنحناه التوفيق لليقين الذي يميز به بين المحق والمبطل والمهتدى والضال .

هل حاله ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة ، لا يدري كيف يتوجه، وأي طريق يأخذ، لشدة ظلمة الليل وإضلاله الطريق. ﴿لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ إلى نور الإسلام أبداً، لا يهتدي إلى منفذ، ولا مخلص مما هو فيه، فكذلك هذا الكافر الضال في ظلمات الكفر، منغمس فيها ، لا يبصر رشداً ولا يعرف حقّاً، ولا خلاص له منها ، فيكون خابطاً متحيراً على الدوام لا ينفك من الظلمات المحيطة به ،كالذي ضل طريقه في ظلمة الليل فهو لا يجد مخرجاً ولا يهتدي طريقاً.

[1] – انظر : بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٧٩) الكشاف للزمخشري (٢/ ٦٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٤١) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٨٠) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٥٢) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٨ / ٤٣)

ففي الآية تمثيلٌ مَسوقٌ لتنفير وتحذير المسلمين من طاعة المشركين حيث إنكم إن فعلتم كنتم قد رددتم أنفسكم إلى ظلام الضلال بعد أن منحتم نور الهداية وأنتم مستضيئون بأنوار الوحي الإلهي ، والمشركون خابطون في ظلمات الكفرِ والطغيانِ فكيف يُعقل إطاعتُهم لهم ، وذلك ليبين عز وجل الفرق بين الطائفتين والبون بين المنزلتين .

أفَطَاعة هذا الذي هديناه للحق وبصَّرناه الرشاد، كطاعة من مثله مثل من هو في الظلمات متردّد، لا يعرف المخرج منها، في دعاء هذا إلى تحريم ما حرم الله، وتحليل ما أحل، وتحليل هذا ما حرم الله، وتحريمه ما أحلّ؟

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ حسَّنا لهم ما هم فيه من الجهالة والضلالة، وهذا قدر من الله وحكمة بالغة، فكما خذلت هذا الكافر الذي يجادلكم أيها المؤمنون بالله ورسوله، في أكل ما حرّمت عليكم من المطاعم عن الحق، فسنعاقب من اختار الكفر على الإيمان بأننا نختم على قلبه مجازاة لكفره ؛ وذلك بتزيين سوءَ عمله له ليراه حسناً ؛ ليستحق به ما أعددت له من أليم العقاب، كذلك زيَّنت لغيره ممن كان على مثل ما هو عليه من الكفر بالله وآياته، ما كانوا يعملون من معاصي الله، ليستوجبوا بذلك من فعلهم، ما لهم عند ربهم من النَّكال.

وإنما جعل الكفر موتاً ؛ لأنه جهل ، والجهل يوجب الحيرة والوقفة ؛ فهو كالموت الذي يوجب السكون ، والواقف في الظلمات يبقى متحيراً لا يهتدي إلى وجه صلاحه ، فيستولي عليه الخوف والفزع والعجز والوقوف ، وأيضا الميت لا يهتدي إلى شيء والجاهل كذلك ، والهدى علم وبصر والعلم والبصر سبب لحصول الرشد والفوز بالنجاة[١]

ثم يصبر رسوله ﷺ على ذلك ؛ ليعلم أنه ليس بمخصوص هو بهذا دون غيره من الأنبياء ، فيقول جل ثناؤه: وكما زينا للكافرين ما كانوا يعملون ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ﴾ كذلك جعلنا بكل قرية عظماءَها ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ أهل الشرك بالله والمعصية له ؛ كما جعل في قريتك أكابر مجرميها؛ فلقد كان مجرمي مكة أكابر .

﴿لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ ليتكبروا فيها بالباطل والخديعة ، والفجور، والغدر، والخلاف، ويكذبوا رسلهم ويصدّوا النَّاس عن الإيمان بغرور من القول أو بباطل من الفعل، ويفعلون ذلك بدين الله وأنبيائه ؛ لأن الأكابر ما هم فيه من الرياسة والسعة أدعى لهم إلى المكر والكفر، والدليل على ذلك قوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ

---

(١) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٨٨) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٨٠) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ١٨٦) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢١٧٣) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٣١٨) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٧٤) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٣٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٠)

﴿ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٢٧] وقوله: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٣] ، ولأنهم أقوى على استتباع الناس ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ ﴾ وما يحيق مكرهم ذلك، إلا بأنفسهم؛ لرجوع وبال ذلك عليهم ؛ لأن الله تعالى من وراء عقوبتهم على صدّهم عن سبيله ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾وهم لا يشعرون ولا يدرون ما قد أعدّ الله لهم من أليم عذابه، فهم في غيِّهم وعتوِّهم على الله يتمادَوْن ، فكأن الذي لا يشعر نفي عنه أن يعلم علم حس .

وهذه تسلية لرسول الله ﷺ وتقديم موعد بالنصرة عليهم.

وهذه سنة الله في كل قرية، ومن سننه: أنه جعل ضعفاءهم أتباع الأنبياء، كما قال في قصة نوح: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١] وروي : " أن هرقل سأل أبا سفيان بن حرب – حين قدم عليه – عن حال النبي، فكان فيما سأله عنه أنه قال: من أتباعه ضعفاؤهم أم العلية؟ فقال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم؛ فقال هرقل: هم أتباع الأنبياء " [(١)] [(٢)]

ولما قرر هذا، أتبعه بمقالة لهم تدل على تعظيمهم وتكبرهم فقال عاطفاً مخبراً عن مكر هؤلاء الأكابر وحسدهم وعن غاية سفههم وتعنتهم وأنهم على علم يعاندون ويتكبرون على رسول اللّه فيقول : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ﴾ وإذا جاءت هؤلاء المشركين الذين يجادلون المؤمنين بزخرف القول فيما حرم الله عليهم، ليصدّوا عن سبيل الله ﴿ ءَايَةٌ ﴾ حجة من الله ومعجزة قاهرة على صحة ما جاءهم به محمد ﷺ من عند الله وحقيقته ، وعلامة ودليل على صحة الشرع وتدل على نبوته تشططوا وتسحبوا ،و﴿ قَالُواْ ﴾ لنبي الله وأصحابه: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ ﴾ لن نصدق بما دعانا إليه محمد ﷺ من الإيمان به، وبما جاء به من تحريم ما ذكر أنّ الله حرّمه علينا ﴿ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ حتى يحصل لنا مثل هذا المنصب من عند الله ، وحتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما تأتي إلى الرسل ، وهذا يدل على نهاية حسدهم ، وأنهم إنما بقوا مصرين على الكفر لا لطلب الحجة والدلائل بل لنهاية الحسد ، وقد علموا أن الرسالة لا تجعل إلا في المعظم عند اللّه ، والمفضل لديه حيث تمنوا أنهم لا يؤمنون حتى يؤتوا من الآيات مثل ما أوتي رسل اللّه، ولو لم يكن

---

(١) - ورد هذا الموقف في رواية مطولة أخرجها الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ؟ (١/ ٩) برقم : (٧)

(٢) - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٩٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٨٨) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٥٠) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٨٠) الوجيز للواحدي (ص: ٣٧٤) تفسير السمعاني (٢/ ١٤١) الكشاف للزمخشري (٢/ ٦٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٤١) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٧٤) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٨١) مع تصرف وإضافة من الباحثة

كذلك لم يكونوا يتمنون إيتاء ما أوتي الرسل، وعلموا أن هذا القرآن الذي أنزل على مُحَمَّد ﷺ آية وحجة، وأنه من عند اللَّه نزل؛ حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ، وعلموا – أيضًا– أن الرسالة لا تجعل إلا في عظماء من البشر وكبرائهم ، الذين هم عند الخلق عظماء ، وهم الأكابر التي تقدم ذكرهم في الآية السابقة .

والمعنى أن الله علم أن محمداً ﷺ أهل للرسالة، فخصه بها، وعلم أنهم ليسوا بأهل لها فحرمهم إياها.

ولما ذكر اسم الجلالة إيذاناً بعظيم ما اجترؤوا عليه لعماهم – بما طمس على أنوار قلوبهم من ظلمات الهوى – عما للرسل من الجلال الذي يخضع له شوامخ الأنوف، أعادها أيضاً تهويلاً للأمر وتنبيهاً على ما هناك من عظيم القدر، فقال رداً عليهم فيما تضمن قولهم من دعوى التعلم بالحكمة والاعتراض على الله عز وجل: ﴿اللَّهُ﴾ أعلم من يصلح بمن يختص للرسالة ، ومن هو مأمون عليها وموضع لها ، فآيات الأنبياء والرسل لن يُعطاها من البشر إلا رسول مرسل، وليس العادلون بربهم الأوثان والأصنام منهم فيعطوها ، فيقول جل ثناؤه: فأنا أعلم بمواضع رسالاتي، ومن هو لها أهل، فليس لكم أيها المشركون أن تتخيَّروا ذلك عليّ أنتم؛ لأن تخيُّر الرسول إلى المرسِلِ دون المرسَل إليه، والله أعلم إذا أرسل رسالةً بموضع رسالاته.

فلا تجعل الرسالة فيمن يضيعها وليس هو بأهل لها ولا موضعها؛ لأنه لو جعل لكان في ذلك تضييع الرسالة، يقول ﷺ : (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل. واصطفي قريشاً من كنانة، واصطفي من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)[1] .

ثم يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ معلِّمَه ما هو صانع بهؤلاء المتمردين عليه لكونهم موصوفين بهذه الصفات الذميمة : ﴿سَيُصِيبُ﴾ يا محمد، ﴿الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ الذين اكتسبوا الإثم بشركهم بالله وعبادتهم غيره وتكبر على رسول اللَّه وعانده يكن له عند اللَّه ﴿صَغَارٌ﴾ وإن كانوا أكابر، فَستُصِيبهُم ذلَّة وهوان عند الله ، وعذاب شديد؛ بصنيعهم الذي صنعوا ، وبما كانوا يكيدون للإسلام وأهله بالجدال بالباطل، والزخرف من القول غروراً لأهل دين الله وطاعته.

وإنما قدم ذكر الصغار على ذكر الضرر بالعذاب ؛ لأن القوم إنما تمردوا عن طاعة محمد ﷺ طلبا للعز والكرامة فالله تعالى بين أنه يقابلهم بضد مطلوبهم فأول ما يوصل إليهم إنما يوصل الصغار والذل والهوان ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ لما كان المكر غالباً إنما يكون خفياً، وهو التلطف في التحيل

(1) – أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ،كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبي ﷺ ، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة عن واثلة بن الأسقع – رضي الله عنه – : (٤/ ١٧٨٢) ، برقم (٢٢٧٦)

والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد جزاء وفاقاً، وهذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد، لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به .[1]

ولما تقدم أنه تعالى أعلم بمن طبع على قلبه فلا ينفك عن الضلال، ومن يقبل الهداية في الحال أو المآل، وأن مكر المجرمين إنما هو بإرادته ونافذ قدرته، علم أن الأمر أمره، والقلوب بيده، فيقول تعالى ذكره: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ﴾ للإيمان به وبرسوله وما جاء به من عند ربه، وإلى نيل الثواب واستحقاق الكرامة. فإنه يوفقه إلى الدلائل المؤدية إلى الحق ، فـ ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ يوسع قلبه ويلينه لقبول الإسلام، ويدخل فيه نور الإسلام وحلاوته، ويفسح صدره لذلك ويهوِّنه عليه، ويسهِّله له، بلطفه ومعونته، حتى يستنير الإسلام في قلبه، فيضيء له، ويتسع له صدره بالقبول وتسكن إليه نفسه ويحب الدخول فيه . وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر عن نفسه أنه يشرح صدرَ من أراد هدايته للإسلام، وعبر بالإسلام إذ هو أعم .

﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ ومن أراد الله إضلاله عن سبيل الهدى فإنه يصرفه عن الهداية إلى الحق، وعن نيل الثواب واستحقاق الكرامة ، ويَشغله بكفره وصدِّه عن سبيله، و ﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ الإسلام ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ من ضيقه عن الإيمان كأنه قد كلف أن يصعد إلى السماء إذا دعي إلى الإسلام من ضيق صدره عنه نبوا على الإسلام واستماع الحكمة ولا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان والخير فلا يدخله وليس فيه منفذ فيجزيه بذلك، وهذا مثل من الله تعالى ذكره، ضربه لقلب هذا الكافر في شدة تضييقه إياه عن وصوله إليه، مثل امتناعه من الصُّعود إلى السماء وعجزه عنه، لأن ذلك ليس في وسعه.

ووصف الله تعالى قلب المؤمن بالسعة؛ لما انتفع بقلبه في الدنيا والآخرة، والكافر لم ينتفع بقلبه؛ فوصفه بالضيق والحرج، وهو كما وصف الكافر بالصمم والبكم والخرس؛ لما لم ينتفع بهذه الحواس، وكذلك سماه ميتًا؛ لما لم ينتفع بحياته، وسمى المؤمن حيًّا؛ لما انتفع بحياته؛ فعلى ذلك هذا: وصف الكافر بضيق الصدر؛ لما لم ينتفع به.

﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ كذلك يسلّط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبَى الإيمان بالله ورسوله، فيغويه ويصدّه عن سبيل الحق ، ويصيبه الخذلان ومنع التوفيق،

---

(1) - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٩٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٨٩) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٥٢) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٨٠) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢١٧٦) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٤٢) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٣٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٨٠) التسهيل لابن جزي (١/ ٢٧٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٢) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٥٦) مع تصرف وإضافة من الباحثة

واللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة ، وكل ما لا خير فيه ، ويصيب ذلك أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله، فيغويه ويصده عن سبيل الله .

وفي الآية الدليلُ الواضح على أن السَّبب الذي به آمن المؤمنون بالله ورسله، وأطاعه المطيعون، غير السبب الذي كفر به الكافرون بالله وعصاه العاصون، وأن كِلا السببين من عند الله وبيده؛ لأنه أخبر –جل ثناؤه – أنه هو الذي يشرح صدرَ هذا المؤمن به للإيمان إذا أراد هدايته، ويضيِّق صدر هذا الكافر عنه إذا أراد إضلالَه.(١)

و لما ذكر تعالى طريقة الضالين عن سبيله، الصادين عنها، نبه على أشرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق فيقول تعالى ذكره: ﴿وَهَٰذَا﴾ الذي بيّنا لك من القرآن والشرع ، يا محمد في هذه السورة وغيرها من سور القرآن والذي يشرح به صدر المؤمن هو ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ طريق ربّك، ودينه الذي ارتضاه ديناً، وجعله ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ قائماً برضاه لا اعوجاج فيه ،عادلاً مطرداً، الذي لم يشبه هوى، ولم يشبه خلل ، والذي اقتضته حكمته فاثبُتْ عليه، وحرِّم ما حرمته عليك، وأحلل ما أحللته لك، وإضافة الصراط إلى الرب على جهة أنه من عنده وبأمره مع استجماع الكمالات كلها من العطف والإحسان واللطف .

ولما كان جميع ما في هذا الصراط على منهاج العقل ليس شيء منه خارجاً عنه ، وكان فيه ما لا يستقل بإدراكه العقل، بل لا بد له فيه من إرشاد الهداة من الرسل الآخذين على الله، قال مبيناً لمدحه مرشداً إلى انتظامه مع العقل: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ قد بيّنا ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ وفسرنا العلامات والحجج على حقيقة ذلك وصحته ، ووضحنا وفصلنا الآيات في أمر القلوب والهدى والضلالة ، وذكرها فصلاً فصلاً بحيث لا يختلط واحد منها بالآخر ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون ويتفكرون في توحيد الله تعالى لأنهم هم أهل التمييز والفهم، وأولو الحجى والفضل ، الذين يعدون أنفسهم للنظر ويسلكون طريق الاهتداء ، وهم كل من له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله ، ويتذكر ما احتجَّ الله به عليه من الآيات والعبر فيعتبر بها ، ويقبل مواعظ الله تعالى وانتهوا عما نهاهم الله عنه ، فهم يعلمون أن القادر هو الله سبحانه وتعالى وأن كل ما يحدث من خير أو شر فهو بقضائه وخلقه، وأنه عالم بأحوال العباد حكيم عادل فيما يفعل بهم.

---

(١) - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٩٨) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٨٩) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٥٤) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٨٠) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٦٥) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ١٥٨) الكشاف للزمخشري (٢/ ٦٤) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٤٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٧) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٥٨)

فلا عذر لأحد في التخلّف عن الإيمان ؛ لأن الله تعالى قد بيّن طريق الهدى، وقد بيّن العلامات في ذلك لمن كان له عقل وتمييز، وفي هذه الآية أبينُ البيان لمن وُفّق لفهمهما، عن أن السبب الذي به يُوصل إلى الإيمان والطاعة، غير السبب الذي به يُوصل إلى الكفر والمعصية، وأن كلا السببين من عند الله تعالى .[1]

ولما بين عظيم نعمه في الصراط المستقيم ، وبين أنه تعالى معد مهيئ لمن يكون من المذكورين؛ بين الفائدة الشريفة التي تحصل من التمسك بذلك الصراط المستقيم ،وجزاء هؤلاء الذين يتذكرون فقال سبحانه وتعالى :﴿لَهُمْ﴾ للقوم الذين يذكرون آيات الله فيعتبرون بها، ويوقنون بدلالتها على ما دلت عليه من توحيد الله ومن نبوّة نبيه محمد ﷺ وغير ذلك، فيصدِّقون بما وصلوا بها إلى علمه من ذاك ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ دار الله التي أعدَّها لأوليائه في الآخرة، جزاءً لهم على ما أبلوا في الدنيا في ذات الله، وهي جنته.و﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾ اسم من أسماء الله تعالى، وسميت بذلك ووصفت هاهنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم، المقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام ، ولأن كل حالة من حالات أهلها مقرونة بالسلام فاما ابتداء دخولها فقوله : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحجر: ٤٦] وبعد ذلك قوله: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾[الرعد: ٢٣ – ٢٤] وبعده قوله : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾[يونس: ١٠] وبعده قوله : ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ ﴾[مريم: ٦٢]وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ [الواقعة: ٢٥ – ٢٦] وبعده قوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٤] وقوله : ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[إبراهيم: ٢٣] وبعد ذلك : ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾[يس: ٥٨] .

وقوله : ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يشعر بأن ذلك الأمر المدخر موصوف بالقرب من الله تعالى ، وهو يدل على أن ذلك الشيء بلغ في الكمال والرفعة بالشرف والعلو والرتبة إلى حيث لا يعرف كنهه إلا الله تعالى ونظيره قوله

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ١١٣) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٥٥) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٨١) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢١٨١) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٣٢٢) الكشاف للزمخشري (٢/ ٦٤) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٤٤) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٤٥) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٨٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٧) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٦٤)

تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[السجدة: ١٧] وذلك يدل على أن حصول كمال صفة العبودية بواسطة صفة العندية.

وقوله: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ يدل على قرب الله منهم ولا درجة أعلى من هذه الدرجة للعبد ، وإنما أدخلوها لأنه ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾حافظهم ومواليهم وناصرهم. وهذا يفيد الحصر ؛ أي لا ولي لهم إلا هو ، وكيف لا وهذا التشريف إنما حصل لهؤلاء الأقوام ؛ لأنهم قد عرفوا من هذه الآية أن المدبر والمقدر ليس إلا هو ، وأن النافع والضار ليس إلا هو ، وأن المسعد والمشقي ليس إلا هو ، وأنه لا مبدئ للكائنات والممكنات إلا هو ، فلما عرفوا هذا انقطعوا عن كل ما سواه ، فما كان رجوعهم إلا إليه ، وما كان توكلهم إلا عليه وما كان أنسهم إلا به ، وما كان خضوعهم إلا له ، فلما صاروا بالكلية لا جرم قال تعالى: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ وهذا إخبار بأنه تعالى متكفل بجميع مصالحهم في الدين والدنيا ، ويدخل فيها الحفظ والحراسة والمعونة والنصرة ، وإيصال المنافع إليهم والخيرات ، ودفع الآفات والبليات ، وهو وليهم في الآخرة بالثواب ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾جزاء على أعمالهم الصالحة ، وبسبب ما كانوا يقدمون من الخير، ويفعلون من الطاعة لله والبر ، ويتبعون رضوانه في الدنيا ، تولاهم وأثابهم الجنة، بمنه وكرمه وإنما ذكر ذلك لئلا ينقطع المرء عن العمل فإن العمل لا بد منه[1] .

ولما بين حال من يتمسك بالصراط المستقيم ، وذكر ثواب القوم الّذين يتذكّرون بالآيات ، وهو ثواب دار السّلام ، ناسب أن يعطفَ عليه ذكر جزاء الّذين لا يتذكّرون ، وهو جزاء الآخرة أيضاً ، حيث بين بعده حال من يكون بالضد من ذلك لتكون قصة أهل الجنة مردفة بقصة أهل النار ، وليكون الوعيد مذكوراً بعد الوعد وقد صُوّر هذا الخبر في صورة ما يقع في حسابهم يوم الحشر ، ثمّ أفضي إلى غاية ذلك الحساب ، وهو خلودهم في النّار .

كما أنه كما ذكر موقفاً من مواقف الآخرة من ولاية الله تعالى القوي لمن هم خاصته ممن تبعوا دينه واستجابوا لرسله في الآية السابقة ، جاء في هذه الآية وذكر ولاية من نوع آخر وهي ولاية ضعيف لضعيف ليشترك ضعيفان لا يغني أحدهما عن الآخر فقال : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ ويوم يحشر هؤلاء العادلين بالله الأوثانَ والأصنامَ وغيرَهم من المشركين، مع أوليائهم من الشياطين الذين كانوا يُوحون إليهم زخرف القول غروراً ليجادلوا به المؤمنين، فيجمعهم ﴿ جَمِيعًا ﴾في موقف القيامة يقول للجن: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ١١٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٩٠) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٥٦) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٨٢) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ١٨٩) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٤٤) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٧٧) التفسير الكبير (٥ / ١٤٧) تفسير نظم الدرر (٢ / ٧١٤) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٨ / ٦٦) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٤٦) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٨٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٧) مع تصرف وإضافة من الباحثة

﴿ ٱلۡإِنسِ ﴾ والمراد أنكم أضللتم كثيرًا من الإنس، وهم قد استكثروا من الأتباع من الإنس في عبادة غير اللَّه، ومخالفة أمر الله وتوحيده أو: قد استكثرتم عباداً من الإنس.

فيجيب أولياءُ الجن من الإنس فيقولون: ﴿ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ ﴾ في الدنيا وذلك بطاعة بعضهم بعضاً ، وموافقة بعضهم بعضاً ، واستمتاع الجن بالإنس إغراء الجن الإنس ، وذلك بتزيين الجنّ للإنس ما كانوا يهوونه حتى يسهل عليهم فعله ، وما كان من الإنس إلا قبول منهم ما كانوا يغرونهم به من الضّلالة واتباعهم ، فاستمتع بعضهم بصحبة بعض في التعاون والتعاضد ، فيما زينوه من اتباع الأهواء وارتكاب المعاصي ، فوصفوا أنفسهم بالتوفر على منافع الدنيا والاستمتاع بلذاتها إلى أن بلغوا هذا المبلغ الذي عنده أيقنوا بسوء عاقبتهم فقالوا: ﴿ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ ﴾ا بلغنا الوقتَ الذي وقَّتَّ لموتنا. وإنما يعني جل ثناؤه بذلك: أنهم قالوا: استمتع بعضنا ببعض أيّام حياتنا إلى حال موتنا.

وهذا الكلام اعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين ، واتباع الهوى والتكذيب بالبعث واستسلام لربهم وتحسر على حالهم .

ثم جاء خبر من الله تعالى ذكره عمّا هو قائل لهؤلاء الذين يحشرهم يوم القيامة من العادلين به في الدنيا الأوثان، ولقُرَنائهم من الجن، فأخرج الخبر عما هو كائنٌ، مُخْرَج الخبر عما كان، لتقدُّم الكلام قبلَه بمعناه والمراد منه، فقال الله لأولياء الجن من الإنس الذين قد تقدَّم خبرُه عنهم: ﴿ ٱلنَّارُ ﴾ نار جهنم ﴿ مَثۡوَىٰكُمۡ ﴾ مأواكم ومنزلكم أنتم وأولياؤكم الذي تثوون فيه، أي تقيمون فيه ، ثم ذكر مدة هذه الإقامة فقال : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ لابثين ومقيمين فيها ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ من قَدْر مُدَّة ما بين مبعثهم من قبورهم إلى مصيرهم إلى جهنم، فتلك المدة التي استثناها الله من خلودهم في النار ، ولما كان السياق – في مثل هذه المقاولة في مجمع الحكم – للحكمة والعلم، وكان النظر إلى الحكمة في تنزيل كل شيء منزلة أعظم قدم وصفها فقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ فيما يفعل بأوليائه وأعدائه من جزاء ، وحكيم في غيره كتدبيره في خلقه، وفي تصريفه إياهم في مشيئته من حال إلى حال، وغير ذلك من أفعاله ، لا يفعل شيئاً إلا بموجب الحكمة ﴿ عَلِيمٞ ﴾ بعواقب أفعالهم وتدبيره إياهم، وبمقدار مجازاتهم وما إليه صائر أمرهم من خير وشر ، وبأن الكفار يستوجبون عذاب الأبد ، وهذا القول منه تعالى بعد الحشر لا يكون إلا تبكيتاً وبياناً لجهة أنهم وإن تمردوا في الدنيا فينتهي حالهم في الآخرة إلى الاستسلام والانقياد والاعتراف بالجرم.

وكما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن، كذلك نفعل بالظالمين، نسلط بعضهم على بعض، ونهلك بعضهم ببعض، وننتقم من بعضهم ببعض، جزاء على ظلمهم وبغيهم ، ونجعل

بعض الظالمين لبعضٍ أولياء ، ونسلطهم بعضهم على بعض ، ونكل بعضهم إلى بعض ، ولا نعينهم؛ لأن الله ذكر قبل هذه الآية ما كان من قول المشركين، فقال جل ثناؤه: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾أنّ بعضهم أولياء بعض، ثم عقب خبره ذلك بخبره عن أن ولاية بعضهم بعضاً بتوليته إياهم، فقال: وكما جعلنا بعض هؤلاء المشركين من الجن والإنس أولياء بعض يستمتع بعضهم ببعض﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾كذلك نجعل بعضَهم أولياء بعض في كل الأمور ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من معاصي الله ويعملونه.

وهنا حض على التذكر تنبيهاً على أن كل ما في القرآن مما يهدي إليه العقل ، فغير مركوز في كل عقل؛ أن العبدِ يخدم غير سيده بغير أمر سيده وإلاّ عاتبه وعاقبه ، فهم يعبدون غير مالكهم وتولوا ما يضرهم ؛ لأنهم تبعوا شهواتهم ، وكان من المعلوم أنهم .[1]

ويستمر السياق في توبيخ الكفار يوم القيامة وتقريعهم ، ويبين أنه لا يكون لهم إلى الجحود سبيل فيشهدون على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين وإنهم لم يعذبوا إلا بالحجة، فيقول تعالى يوم القيامة لهؤلاء العادلين به من مشركي الإنس والجن : ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾يقرءون ويعرضون عليكم آياتي ، ويخبرونكم بما أوحي إليهم من تنبيهي إياكم على مواضع حججي، وتعريفي لكم أدلّتي على توحيدي، وتصديق أنبيائي، والعمل بأمري، والانتهاء إلى حدودي ،ويبينون لكم ما في آيات وحدانيته وألوهيته، وآيات البعث الذي تنكرون﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ يحذّرونكم لقاء عذابي في يومكم هذا، وعقابي على معصيتكم إيّاي، فتنتهوا عن معاصيَّ.

وهذا من الله جل ثناؤه تقريع وتوبيخ لهؤلاء الكفرة على ما سلف منهم في الدنيا من الفسوق والمعاصي. ومعناه: قد أتاكم رسلٌ منكم ينبِّهونكم على خطأ ما كنتم عليه مقيمين بالحجج البالغة، وينذرونكم وعيدَ الله على مقامكم على ما كنتم عليه مقيمين، فلم تقبلوا ذلك، ولم تتذكروا ولم تعتبروا.

ثم جاء خبر من الله جل ثناؤه عن قول مشركي الجن والإنس عند تقريعه إياهم أنهم يقولون ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ بأن رسلك قد أتتنا بالحجة وبآياتك، وأنذرتنا لقاء يومنا هذا وبلغتنا ، فكذبناها وجحدنا

---

[1] - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ١١٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٩١) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٥٧) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٨٢) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ١٩٠) الوجيز للواحدي (ص: ٣٧٥) الكشاف للزمخشري (٢/ ٦٥) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٧٨) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٤٧) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٨٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٩) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٦٩)

رسالتها، ولم نتبع آياتك ولم نؤمن به ، وهذا إقرار لما كان منهم بالكفر والتكذيب ، واعتراف أي شهدنا على أنفسنا بالتقصير ، وهو اعتراف منهم بالكفر واستيجاب العذاب.

وإنما وقعوا في ذلك الكفر بسبب أن الحياة الدنيا غرت هؤلاء العادلين بالله الأوثان والأصنام وخدعتهم هم وأولياءَهم وأشبعتهم وأطعمتهم بحلوائها ، وطلبُ الرياسة فيها والمنافسة عليها، وإمهالهم فيها حتى يسلموا لأمر الله فيطيعوا فيها رسله، وظنوا أنها تدوم، وخافوا زوالها عنهم إن آمنوا ؛ فاستكبروا وكانوا قومًا عالين ؛ لذا قال : ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾

واكتفى بذكر﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾من ذكر المعاني التي غرَّتهم وخدَعتهم فيها، إذ كان في ذكرها مكتفًى عن ذكر غيرها؛ لدلالة الكلام على ما تُرك ذكره ، وهنا إلتفاتة فصيحة تضمنت أن كفرهم كان بأذم الوجوه لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم ، وهو الاغترار الذي لا يواقعه عاقل، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات المخدجة، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾بالكفر والاستسلام لربهم واستيجاب عذابه المخلد ، وإنما قال ذلك تحذيراً للسامعين من مثل حالهم ، لتتم حجَّة الله عليهم بإقرارهم على أنفسهم بالكفر وبما يوجب عليهم عقوبته وأليمَ عذابه ، فهم وإن بالغوا في عداوة الأنبياء والطعن في شرائعهم ومعجزاتهم إلا أن عاقبة أمرهم ما ذكر .

وتحقيق القول في الآية أنه تعالى إنما بكت الكفار بهذه الآية ؛ لأنه تعالى أزال العذر وأزاح العلة بسبب أنه أرسل الرسل إلى الكل مبشرين ومنذرين ، فإذا وصلت البشارة والنذارة إلى الكل بهذا الطريق فقد حصل ما هو المقصود من إزاحة العذر ، وإزالة العلة فكان المقصود حاصلاً .[١]

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. صرحت الآيات بأن الهداية والإضلال متعلّقة بإرادة الله تعالى ، وفي هذا رد على القدرية. [٢]

٢. إذا وُجِد الإيمان في الإنسان فإنه يُحييه الحياة الحقيقية ، وإن عُدِم فإن القلب يصبح ميتاً ولو كان ظاهره الحياة ، فالإيمان هو مادة الحياة الأساسية .

---

(١) - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ١٢٠) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٦٠) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٨٣) الكشاف للزمخشري (٢/ ٦٦) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٤٧) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٧٩) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٥٠) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٨٧) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٨٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٠)

(٢) - زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٧٦)

٣. بيان كمال حكمة الله تعالى ؛ لأنه وإن كان تعالى رحيماً ، واسع الجود ، كثير الإحسان ، فإنه حكيم لا يضع جوده إلا عند أهله .[١]

٤. حذّر تعالى من اتباع وطاعة الشياطين وأوليائهم ، لأنهم لا يأمرون إلاّ بكلِّ شرٍّ ومنكر ؛ مِمّا يجعل القلب بعيداً كل البعد عن الإيمان قريباً من الشرك والكفر والنفاق والعصيان .

٥. مَن أراد الهداية فعليه الحذر مِن الشيطان وخطواته قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾[٢].

٦. أن الله تعالى يجعل لأهل الإيمان نوراً يَسيرون عليه ، فهم على بصيرة من أَمْرِ دينهم ودنياهم ، وأن أهل الكفر والنفاق قد انغمسوا في ظلمات الجهل والكفر فهم في تخبطٍ في حياتِهم ، وأما في الآخرة فحالهم كما ذَكَر تعالى عنهم : ﴿ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴾[٣] والله أعلم .

٧. هذا الاستثناء في قوله تعالى : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ هو أنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه بجنة أو نار .[٤]

٨. التحذير من طاعة المشركين، والأخذ بطاعة المؤمنين.[٥]

٩. الآية تدل على أن الرعية متى كانوا ظالمين فالله تعالى يسلط عليهم ظالماً مثلهم، فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم .[٦]

١٠. تهديد الظالم لكي يمتنع عن ظلمه؛ لأنه لو لم يمتنع يسلط الله عليه ظالماً آخر، ويدخل في الآية جميع من يظلم ومن ظلم في رعيته أو التاجر يظلم الناس في تجارته أو السارق وغيرهم.[٧]

١١. أن مَن لَمْ يكن سائراً في الدنيا على الصراط المستقيم وكان مُتَّبِعاً سُبُلَ الشياطين كان عاقبة أمرِهِ إلى خسران – والله أعلم – .

---

[١] – الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦ / ٢١٤)

[٢] – من الآية (٢١) من سورة النور .

[٣] – الآية (١٣) من سورة الحديد .

[٤] - الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ١٩٠) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٩)

[٥] - الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢١٧٢)

[٦] - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٥٠)

[٧] – بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٨٢)

١٢. الأبلغ في تصديق الرسل أن لا يكونوا قبل مبعثهم مَطاعين في قومهم ؛ لأن الطعن كان يتوجه إليهم فيقال: إنما كانوا أكابر ورؤساء فاتُّبِعُوا. (١)

١٣. إعلام الله بأن كفار قريش لا يستحقون التشريف بالنبوة ، فهو تعالى يعلم من يستحق الرسالة فيشرفه بها، ويعلم من لا يستحقها ، وهم ليسوا أهلا لها، ولأن النبوة لا تحصل لمن يطلبها خصوصاً لمن عنده حسد ومكر وغدر. (٢)

١٤. من يرد الله أن يهديه قوّى قلبه في ما يدعوه إلى الإيمان، بأن اعتقد أن نفعه زائد وخيره راجح وربحه ظاهر، فمال طبعه إليه وقويت رغبته في حصوله، وحصل في القلب استعداد شديد لتحصيله، ومن يرد أن يضله ألقى في قلبه ما يصرفه عن الإيمان ويدعوه إلى الكفر، بأن اعتقد أن شر الإيمان زائد وضرره راجح فعظمت النفرة عنه فإن الكافر إذا دعي إلى الإسلام شق عليه جداً.(٣)

١٥. ينبغى للمسلم أن يكون حياً عالماً على بصيرة فى دينه وأعماله وحسن سيرته، وأن يكون القدوة والأسوة للناس فى الفضائل والخيرات والحجة على فضل دينه على سائر الأديان.(٤)

١٦. سنة الله قد جرت بأن عاقبة المكر السيء تحيق بأهله فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فبما ثبت فى القرآن من نصر المرسلين وهلاك الكافرين المعاندين، ومن علو الحق على الباطل، ومن هلاك القرى الظالمة، وبما أيده الاختبار ودلّت عليه نظم العمران من أن تنازع البقاء يقضى ببقاء الأمثل والأصلح ، وأما فى الآخرة فالأمر واضح والنصوص متظاهرة على ذلك. (٥)

١٧. تولي الناس بعضهم لبعض إنما هو أثر مترتب على الاتفاق فى الاعتقاد ، والأخلاق واشتراك المنفعة بحسب تقديره تعالى وسنته فى نظم الحياة البشرية .. وهذا شأن الأفراد والجماعات أن يميل كل منهم إلى من كان على شاكلته ويتولاه بالتعاون والتناصر فيما هم فيه مشتركون ويناوئون من يخالفهم فى ذلك. (٦)

١٨. المعركة بين الحق والباطل محتومة ؛ لأنها تقوم على أساس التناقض الكامل بين القاعدة الأولى في دين الله- وهي رد الحكم كله لله- وبين أطماع المجرمين في القرى. بل بين وجودهم أصلا.. (٧)

(١) – بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٨٢)
(٢) – انظر : مراح لبيد لمحمد نووي (١/ ٣٤٦)
(٣) – المرجع السابق (١/ ٣٤٦)
(٤) – تفسير المراغي (٨/ ١٩)
(٥) – المرجع السابق (٨/ ٢٠)
(٦) – انظر المرجع السابق (٨/ ٣١)
(٧) – انظر : في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/ ١٢٠٢)

١٩. شهادة الكفار على أنفسهم بالكفر والضلال حيث لا تجدي المكابرة والإنكار.. فأي مصير أبأس من أن يجد الإنسان نفسه في هذا المأزق، الذي لا يملك أن يدفع عن نفسه فيه، ولا بكلمة الإنكار! ولا بكلمة الدفاع! [١]

٢٠. خاطب الله تعالى نبيه ﷺ بأنك أنت أولى من الأنبياء السابقين بالصبر؛ لأن مشقاتك على قدر مهمتك الرسالية في الكون كله، فكل رسول إنما جاء لأمة محدودة ليعالج داءً محدوداً في زمان محدود. وأنت قد جئت للأمر العام زماناً ومكاناً إلى أن تقوم الساعة، فلابد أن تتناسب المشقات التي تواجهك مع عموم رسالتك التي خصك الله بها. [٢]

٢١. الإجرام هو الإقدام على القبائح اقداماً يجعل الإنسان عازلاً نفسه عن خير مجتمعه؛ لأنه يريد كل شيء لنفسه. ومادام كل شيء لنفسه فعامل التسلط موجود فيه، ويرتكب الرذائل. ولأنه يرتكب الرذائل فهو يريد من كل المجتمع أن تنتشر فيه مثل هذه الرذائل؛ لكي لا يشعر أن هناك واحداً أحسن منه. [٣]

٢٢. الذي اقتنع بالدلالة وآمن سهلت عليه تبعات التكليف .[٤]

٢٣. لابد من صراط معبد ومستقيم ليكون أقصر طريق إلى الغاية وبلا متاعب .[٥]

٢٤. من يحسن استقبال قدر الله في نفسه يُعطِ الله له من العمل كل الخير. [٦]

٢٥. على الإنسان – إذن – أن يتذكر كيف يأخذ من المقدمات التي أمامه ما يوصل إلى النتائج، ولابد أن يأخذ المقدمات السليمة ليصل إلى الغايات الفطرية. [٧]

٢٦. التكافل في التذكير يعصم كل مؤمن من نفسه؛ فإن حصل عندي قصور من سهو أو من غفلة أو من هوى يعدله غيري. وهذه قضية كونية لو استقرأت الوجود كله وجدتها لا تتخلف أبداً .[٨]

٢٧. المؤمن المهتدي كمن كان ميتاً فأحياه الله، فهو الذي ينعم بحق بالحياة الصحيحة السوية المتكاملة المطمئنة ؛ لأنه على بصيرة تامة بواقعة وعمله وسيرته، وعلى معرفة دقيقة بدينه وما ينتظره من مستقبل حافل بالآمال العذبة، والخيرات المغدقة، والنعيم الخالد ، والكافر الضال يعيش

---

(١) – انظر : المرجع السابق (٣/ ١٢٠٩)

(٢) – تفسير الشعراوي (٧/ ٣٩١٥)

(٣) – المرجع السابق (٧/ ٣٩١٥)

(٤) – المرجع السابق (٧/ ٣٩٢٨)

(٥) – المرجع السابق (٧/ ٣٩٣٤)

(٦) – المرجع السابق (٧/ ٣٩٣٦)

(٧) – المرجع السابق (٧/ ٣٩٣٦)

(٨) – المرجع السابق (٧/ ٣٩٣٦)

في الواقع في ظلمات بعضها فوق بعض، ظلمة الكفر، وظلمة المنهج والطريق، وظلمة المستقبل الغامض، المحفّل بشتى ألوان العذاب والضيق والحيرة والقلق والاضطراب.[1]

٢٨. لا بد للناس من أمير وحاكم ؛ لأنه تعالى إذا كان لا يخلي أهل الظلم من أمير ظالم، فبأن لا يخلي أهل الصلاح من أمير يحملهم على زيادة الصلاح كان أولى.[2]

[1] - التفسير المنير للزحيلي (٨/ ٣١)

[2] - المرجع السابق (٨/ ٤٩)

المطلب السابع : سنة الله تعالى في الإبقاء على الأمم أو إهلاكها (١٣١ – ١٣٥)

يقول الله سبحانه تعالى :﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

أولاً : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

يلتفت السياق بالخطاب إلى رسول الله ﷺ ومن وراءه من المؤمنين وإلى الناس أجمعين ليعقب على هذا الحكم الصادر بجزاء الشياطين من الإنس والجن وبإحالة هذا الحشد الحاشد إلى النار وعلى إقرارهم بأن الرسل قد جاءت إليهم، تقص عليهم آيات الله، وتنذرهم لقاء يومهم هذا.. ليعقب على هذا المشهد وما كان فيه، بأن عذاب الله لا ينال أحدا إلا بعد الإنذار وأن الله لا يأخذ العباد بظلمهم إلا بعد أن ينبهوا من غفلتهم وتقص عليهم الآيات، وينذرهم المنذرون .

فلقد اقتضت رحمة الله بالناس ألا يؤاخذهم على الشرك والكفر حتى يرسل إليهم الرسل، على الرغم مما أودعه فطرتهم من الاتجاه إلى ربها- فقد تضل هذه الفطر- وعلى الرغم مما أعطاهم من قوة العقل والإدراك.

فالعقل قد يضل تحت ضغط الشهوات- وعلى الرغم مما في كتاب الكون المفتوح من آيات- فقد تتعطل أجهزة الاستقبال كلها في الكيان البشري.

لقد ناط بالرسل والرسالات مهمة استنقاذ الفطرة من الركام، واستنقاذ العقل من الانحراف، واستنقاذ البصائر والحواس من الانطماس. وجعل العذاب مرهونا بالتكذيب والكفر بعد البلاغ والإنذار.

وهذه الحقيقة كما أنها تصور رحمة الله بهذا الإنسان وفضله، كذلك تصور قيمة المدارك البشرية من فطرة وعقل وتقرر أنها- وحدها- لا تعصم من الضلال، ولا تهدي إلى يقين، ولا تصبر على ضغط الشهوات ما لم تساندها العقيدة وما لم يضبطها الدين .

وهنا الإشارة إلى ما كان من رحمة الله تعالى بعباده، من إنس وجنّ، وذلك بإرسال الرسل إليهم، ودعوتهم إلى الله، وكشف معالم الطريق إليه.. فإنه سبحانه وتعالى لا يؤاخذ عباده إلا بعد أن يعذر إليهم بإرسال رسله، مبشرين ومنذرين، حتى ينتبهوا من غفلتهم، فلا يكون لهم عذر إذا أخذهم الله بالعقاب الذي يستحقونه على كفرهم وضلالهم..

فلما بين أنه ما عذب الكفار إلا بعد أن بعث إليهم الأنبياء والرسل بين بهذه الآية أن هذا هو العدل والحق والواجب [1].

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

لقد بدأ الله تعالى هذه الآية الكريمة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ للإشارة إلى ما تقدم من بعثة الرسل إليهم ، وإنذارهم سوء العاقبة ، أي ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل وأمر عذاب من كذب بها ؛ لأنه ﴿لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾حتى يبعث إليهم رسولاً ، أي: إنما أرسلنا الرسل يا محمد إلى من وصفتُ أمرَه، وأعلمتك خبره من مشركي الإنس والجن، يقصون عليهم آياتي وينذروهم لقاء معادهم إليَّ، فالأمر ما قصصناه عليك لانتفاء كون ربك مهلك القرى بظلم ، فلم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم من ينبههم على حجج الله عليهم، وينذرهم عذاب الله يوم معادهم، ولم يكن بالذي يؤاخذهم غفلة إنما فعلنا ذلك من أجل أنَّا لا نهلك القرى بغير تذكيرٍ وتنبيه.

فسنته قد مضت في الأمم الماضية: أنه لا يهلك قومًا إهلاك تعذيب واستئصال إلا بعد ما يسبق منه وعيد وإنذار، والعلم لهم بالظلم، وظهور العناد منهم والمكابرة، والسؤال بالعذاب سؤال تعنت، وذلك منه فضل ورحمة، لا أنه لا يسعه ذلك ، لذلك لما قال : ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ ليس المراد من هذه الغفلة أن يتغافل المرء عما يوعظ به ، بل معناها أن لا يبين الله لهم كيفية الحال ولا أن يزيل عذرهم وعلتهم.

ولو أهلكهم وهم غافلون لم ينبهوا برسول وكتاب، لكان ظالماً وهو متعال عن الظلم وعن كل قبيح [2].

ولما شرح أحوال أهل الثواب والدرجات وأحوال أهل العقاب والدركات ذكر كلاماً كلياً فقال: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ عامل في طاعة الله أو معصيته من الأنس والجن ﴿دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾منازل ومراتب من عمله يبلغه الله إياها، ويثيبه بها، إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً ، فلكل واحد من المؤمنين فضائل في الجنة بعضهم أرفع درجة من بعض، وللكافرين درجات بعضهم أشد عذاباً من بعض.

وإنما سُمِّيت درجات لتفاضلها كتفاضل الدَرَجِ في الارتفاع والانحطاط.

---

[1] - انظر : مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٥٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/ ١٢٠٩ - ١٢١٠) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب لعبد الكريم الخطيب (٤/ ٣١٢)

[2] - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ١٢٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٩٣) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٦١) الكشاف للزمخشري (٢/ ٦٧) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٥٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤١)

ولما تقدم أنه تعالى لا يهلك المجرمين إلاّ بعد الإعذار إليهم، وتضمن ذلك إمهالهم، وختم أحوالهم بأنهم موضع لثبوت الغفلة ودوامها، نفى أن يسلم شيء من ذلك بجناب عظمته على وجه أثبت له ذلك إحاطة العلم بجميع أعمالهم فقال: ﴿ وَمَا رَبُّكَ ﴾المحسن إليك بإعلاء أوليائك وإسفال أعدائك، وأغرق في النفي لإثبات مزيد العلم فقال:﴿ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴾ وكل ذلك من عملهم يا محمد بعلم من ربّك، يحصيها ويثبتها لهم عنده؛ ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه ، فهو ليس بساه عنه ، ولا يخفى عليه مقاديره وأحواله ، وما يستحق عليه من الأجر ، وليس بغافل عن أعمالهم التي يعملونها في معصية اللّه تعالى ولكن يؤخر تعذيبهم؛ رحمة منه ، وهو كقوله: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٍ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَـٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٢] ولن ينسى الطاعة من المطيعين، ولا المعصية من العاصين، ويجازي كل نفس بما عملت ، قدر ما يستحق به من ثواب أو عقاب [١].

ولما بين ثواب أصحاب الطاعات وعقاب أصحاب المعاصي والمحرمات ، وذكر أن لكل قوم درجة مخصوصة ومرتبة معينة ؛ بين أن ما سبق ذكره من الإرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد وتأسيس لما بعده ، وأن تخصيص المطيعين بالثواب والمذنبين بالعذاب ليس لأجل أنه محتاج إلى طاعة المطيعين أو ينتقص بمعصية المذنبين ، فإنه تعالى غني لذاته عن جميع العالمين ، ومع كونه غنياً فإن رحمته عامة كاملة ، فيقول جل ثناؤه: ﴿ وَرَبُّكَ ﴾ يا محمد الذي أمر عباده بما أمرهم به، ونهاهم عما نهاهم عنه، وأثابهم على الطاعة، وعاقبهم على المعصية﴿ ٱلۡغَنِيُّ ﴾عن العباد والعبادة ، وهي صفة ذات لله عز وجل ؛ لأنه تبارك وتعالى لا يفتقر إلى شيء من جهة من الجهات، ثم تليت هذه الصفة بقوله : ﴿ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ ﴾فأردف الاستغناء بالتفضل وهذا أجمل تناسق، فهو الغني عن عباده وعن عبادة عباده الذين أمرهم بما أمر، ونهاهم عما نهى، وعن أعمالهم جميعاً ، وهم المحتاجون إليه ؛ لأنه بيده حياتهم ومماتهم، وأرزاقهم وأقواتهم، ونفعهم وضرهم .

فلم يخلقهم ولم يأمرهم بما أمرهم به، وينهاهم عما نهاهم عنه، لحاجة له إليهم، ولا إلى أعمالهم، ولكن ليتفضَّل عليهم برحمته، ويثيبهم على إحسانهم إن أحسنوا، فهو ذو الرَّأفة والرحمة ، ومن ينظر في كل ما سبق وفي غيره يجد أنه من رحمته لم يأمرهم بما يفوق طاقتهم ، ويترحم عليهم بالتكليف تكميلاً لهم ويمهلهم على المعاصي .

---

[١] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ١٢٥) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٦٢) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٨٤) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٧٢) الكشاف للزمخشري (٢/ ٦٧) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٥٣) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٨٣) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٧٤)

ثم عقب بهذه الألفاظ المضمنة الوعيد المحذرة من بطش الله عز وجل في التعجيل بذلك ، والذي يدل على عدم حاجته لكم أنه قال : ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾حيث إنه لما وصف نفسه بأنه ذو الرحمة فقد كان يجوز أن يظن ظان أنه وإن كان ذا الرحمة إلا أن لرحمته معدناً مخصوصاً وموضعاً معيناً ، فبين تعالى أنه قادر على وضع الرحمة في هذا الخلق ، وقادر على أن يخلق قوماً آخرين ويضع رحمته فيهم ، وعلى هذا الوجه يكون الاستغناء عن العالمين أكمل وأتم ، والتنبيه على أن تخصيص الرحمة بهؤلاء ليس لأجل أنه لا يمكنه إظهار رحمته إلا بخلق هؤلاء.

﴿إِن يَشَأْ﴾ ربُّك يا محمد الذي خلق خلقه لغير حاجة منه إليهم وإلى طاعتهم إياه ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يهلك خلقه هؤلاء الذين خلقهم من ولد آدم ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ ويأت بخلق غيركم وأمم سواكم، يخلفونكم في الأرض إن يشأ مثلكم، وإن يشأ أطوع منكم ﴿مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ من بعد فنائكم وهلاككم وهو قادر على ذلك، سهل عليه، يسير لديه ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلَكم، ولكنه لم يهلككم رحمة منه، لترجعوا وتتوبوا [(١)].

ثم يتابع تهديده لهم فيقول تعالى للمشركين به: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾أيها العادلون بالله الأوثانَ والأصنامَ، إن الذي يُوعدكم به ربكم من عقابه على إصراركم على كفركم ﴿لَأَتٍ﴾واقعٌ بكم وكائن لا خلف فيه ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لا تخرجون عن قدرته وحكمه ، ولن تعجزوا ربّكم هربًا منه في الأرض فتفوتوه عن تعذيبكم وعقوبتكم ؛ لأنكم حيث كنتم في قبضته، وهو عليكم وعلى عقوبتكم بمعصيتكم إيّاه قادر ، فاحذرُوه وأنيبوا إلى طاعته، قبل نزول البلاء بكم.[(٢)]

ولما بين بقوله: إن ما توعدون لآت أمر رسوله من بعده أن يهدد من ينكر البعث عن الكفار ، فيقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ:﴿قُلْ﴾يا محمد لقومك من قريش الذين يجعلون مع الله إلها آخر﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ اعملوا على حِيالكم وناحيتكم ، وعلى حالاتكم التي أنتم عليها وعلى تمكنكم من أمركم ، وأقصى استطاعتكم وإمكانكم ، وعلى الطريقة الضالة التي ارتضيتموها وسلكتموها ، على عمى منكم واقيموا على ما أنتم عليه إن رضيتم العذاب بالنار ، وإن كنتم تظنون أنكم على هدى .

---

(١) - انظر :جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ١٢٦) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٨٤) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٤٧) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٥٣) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٨٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٢)

(٢) - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ١٢٨) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٦٤) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٨٤) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٥٦)

والتهديد بصيغة الأمر مبالغة في الوعيد كأن المهدد يريد تعذيبه مجمعاً عليه ، فيحمله بالأمر على ما يفضي به، إليه، وتسجيل بأن المهدَّد لا يتأتى منه إلا الشر كالمأمور به الذي لا يقدر أن ينقضي عنه ، ولما كان أدل شيء على النصيحة مبادرة الناصح إلى مباشرة ما نصح به ودعا إليه، قال مستانفاً أو معللاً: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ ما أنا عامله على مكانتي ، وإني ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم ، وعلى الطريقة الصحيحة المستقيمة المرضية التي ارتضاها الله لنا وأمرنا بها ، وسلكناها على هدى وبصيرة وبينة من الله ؛ وهو أمر تهديد ووعيد ودليله قوله ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي يقع لكم بوعد لا خلف فيه العلم، فسترون عاقبة عملكم الفاسد ، وسوف تعلمون عند نزول نقمة الله بكم، أيُّنا كان المحقّ في عمله، والمصيب سبيلَ الرشاد، أنا أم أنتم أيها الكفرة بالله، وذلك عند معاينتكم العذابَ، ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ العاقبة المحمودة التي يحمد صاحبها عليها، ومن له النصر في دار الإسلام، ومن له وراثة الأرض ، والجنة ومآل الآخرة منا ومنكم ، ومن الذي تُعْقبه دنياه ما هو خير له منها أو شر منها، بما قدَّم فيها من صالح أعماله أو سَيِّئها ، ولما كان وقوع المتوعد به سبباً للعلم بالعاقبة، وكان السياق لعدم تذكرهم وغرورهم وقلة فطنتهم، حسن إثبات الفاء في قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ دون إسقاطها ؛ لأن الاستئناف يتعطف للسؤال .

ثم بين الأمر غاية البيان والوضوح إلى ما سيؤول أمرهم إليه من العاقبة جراء عملهم فقال : ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إنه لا ينجح ولا يفوز بحاجته عند الله مَنْ سعى وعمل بخلاف ما أمره الله به من العمل في الدنيا وذلك معنى:"ظلم الظالم" في هذا الموضع.

وهذا طريق من الإنذار لطيف المسلك، فيه إنصاف في المقال وأدب حسن، مع تضمن شدّة الوعيد، والوثوق بأنّ المنذر محق والمنذر مبطل ، وأن هؤلاء الكفار لا يفلحون ولا يفوزون بمطالبهم البتة ، ووضع الظالمين موضع الكافرين ؛ لأنه أعم وأكثر فائدة. [1]

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

[1] - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ١٢٨) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٩٤) الوجيز للواحدي (ص: ٣٧٦) الكشاف للزمخشري (٢/ ٦٨) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٤٨) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٥٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٨٩) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٨٣) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٣٩) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٣) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٧٧) مع تصرف وإضافة من الباحثة

١. الإشارة إلى قصر الأمل، ومن قصر أمله حسن عمله، وكل ما هو آت فقريب أجله. [١]

٢. من سنن الله تعالى أنه لا يأخذ أحداً بالذنب إلا بعد وجود الذنب، وإنما يكون مذنباً إذا أمر فلم يأتمر، ونهى فلم ينته، ودعي فلم يجب.[٢]

٣. تقرير لأمر رحمة الله تعالى ؛ لأن القادر إذا اراد النقمة أخذ على غرة ولم يهدد، وإذا أراد الرحمة تقدم بالوعيد ليحذر الفائزون ويستسلم الخاسرون. [٣]

٤. تخصيص الله المطيعين بالثواب والمذنبين بالعذاب ليس لأجل أنه تعالى محتاج إلى طاعة المطيعين أو ناقص بمعصية المذنبين ، فإنه تعالى غني لذاته عن جميع العالمين ، ومع كونه تعالى غنياً فإن رحمته عامة كاملة[٤].

٥. من رحمته تعالى على الخلق ترتيب الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية، ومن رحمته تعالى إرسال الرسل وعدم استئصالهم بالهلاك بذنوبهم في وقت واحد[٥] .

٦. كل ما تعلق بالوعد من الثواب والعقاب فهو آت لا محالة[٦] .

٧. بعث الله الرسل ليقصوا على الأمم آيات الله لإصلاح حال الأفراد والجماعات فى شئونهم الدنيوية والأخروية، وينذروهم يوم الحشر والجزاء[٧]

٨. بيان أنه يسبق هلاك كل أمة إرسال رسول يبلغها ما يجب أن تكون عليه من الصلاح والحق بما يقصه عليها من آيات الوحى فى عصره، أو بما ينقله إليها من يبلغونها دعوته من بعده، إذ من حكمة الله فى الأمم جعل ما يحل بها من عقاب جزاء على عمل استحقته به، فيكون عقابها تربية لها وزجرا لسواها. [٨]

٩. هلاك الأمم يكون بما يغلب عليها من الظلم أو الفسق والفجور الذي يفسد الأخلاق ويقطع روابط المجتمع ويجعل بأس الأمة بينها شديدا. [٩]

١٠. أن مناط السعادة والشقاء هو عمل الإنسان ومشيئته، فإن شاء عمل عمل النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، فكان من الذين سمعوا القول واتبعوا أحسنه، فجازاه الله أحسن

---

[١] – لطائف الإشارات للقشيري (١/ ٥٠٤)

[٢] – تفسير السمعاني (٢/ ١٤٦)

[٣] – نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٧٦)

[٤] – مراح لبيد لمحمد نووي (١/ ٣٤٨)

[٥] – المرجع السابق (١/ ٣٤٨)

[٦] المرجع السابق (١/ ٣٤٩)

[٧] – تفسير المراغي (٨/ ٣٤)

[٨] – المرجع السابق (٨/ ٣٤)

[٩] – المرجع السابق (٨/ ٣٥)

الجزاء، وإن شاء تنكب عن جادّة الدين ، ورمى أحكامه وراءه ظهر يا ، وسار فى غلواء الضلال، فكان من الأشقياء الذين كبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون. [1]

١١. كل ما عدا الله تعالى فهو محتاج إليه فى وجوده وبقائه، ومحتاج إلى الأسباب التي جعلها سبحانه قوام وجوده. [2]

١٢. أن أحوال الأمم مرتبة بحسب أعمالها، وأن أعمالها منبعثة من عقائدها وصفاتها النفسية، وأن عاقبة كل عمل نتيجة حتمية له، إن خيرا فخير وإن شرا فشر. [3]

١٣. حال الظالمين للناس أشد من حال الظالمين لأنفسهم، وكلهم لا يفوزون بفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة، وإنما يفوز به أهل الحق والعدل الذين يؤدون حقوق الله وحقوق أنفسهم، ولا يكمل مثل هذا إلا لرسل الله وجندهم من المؤمنين. [4]

١٤. بيان أن مهمة الرسل هي استنقاذ الفطرة من الركام، واستنقاذ العقل من الانحراف، واستنقاذ البصائر والحواس من الانطماس. وجعل العذاب مرهوناً بالتكذيب والكفر بعد البلاغ والإنذار. [5]

١٥. تصور الآيات قيمة المدارك البشرية من فطرة وعقل ، وتقرر أنها- وحدها- لا تعصم من الضلال، ولا تهدي إلى يقين، ولا تصبر على ضغط الشهوات.. ما لم تساندها العقيدة وما لم يضبطها الدين[6].

١٦. أن بقاء الأمم معلق بمشيئة الله ، وأن ما في أيديهم من سلطان إنما خولهم الله إياه، فليس هو سلطاناً أصيلاً ، ولا وجوداً مختاراً ؛ فما لأحد في نشأته ووجوده من يد ، وما لأحد فيما أعطيه من السلطان من قدرة ، وذهابهم واستخلاف غيرهم هين على الله. [7]

١٧. التهديد من الرسول ﷺ لقومه دليل على أنه واثق مما هو عليه من الحق، واثق من منهجه وطريقه، واثق كذلك مما هم عليه من الضلال، وواثق من مصيرهم الذي هم إليه منتهون [8]

---

[1] – المرجع السابق (٨/ ٣٦)

[2] – المرجع السابق (٨/ ٣٨)

[3] – المرجع السابق (٨/ ٣٩)

[4] – المرجع السابق (٨/ ٤٠)

[5] – في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/ ١٢١٠)

[6] – المرجع السابق (٣/ ١٢١٠)

[7] – المرجع السابق (٣/ ١٢١٠)

[8] – المرجع السابق (٣/ ١٢١١)

١٨.   عذاب الكفار عدل وحق وواجب، ومادام أن الله عادل أتم العدل وأكمله ، فهو لا يعذبهم إلا بعد بيان وإنذار، ولا يعاقبهم إلا بعد بعثة الأنبياء والرسل إليهم ، فإرسال الرسل أمر حتمي ضروري . [١]

١٩.   لا تكليف ولا إيجاب قبل ورود الشرع، وأن العقل المحض لا يدل على التكليف والإيجاب أصلاً. [٢]

٢٠.   أن المصير مختلف بين أهل الطاعة وأهل المعصية، فالعاقبة الحسنة المحمودة لمن آمن بالإسلام وأطاع الله، والمصير المشؤوم لمن كفر بالله وعصاه ورفض أوامره وتحدى رسله. [٣]

---

[١] – انظر : التفسير المنير للزحيلي (٨/ ٤٩)

[٢] – المرجع السابق (٨/ ٥٠)

[٣] – المرجع السابق (٨/ ٥٠)

المبحث الرابع : نعم الله تعالى على المشركين وموقفهم منها ويشتمل على أربعة مطالب (١٣٦ ـ ١٥٠) :

تناسق هذا المبحث مع المبحث السابق :

لقد جاءت الآيات السابقة لتبين أن دعوة الخلق إلى عبادة الله بطريقين :

أحدهما : إقامة البراهين بخلقهم وخلق السموات والأرض والمطر .

والثاني ملاطفة جميلة بذكر ما لله عليهم من الحقوق ومن الإنعام فذكر سبحانه أولاً ربوبيته لهم ثم ذكر خلقته لهم وآبائهم لأن الخالق يستحق أن يعبد ثم ذكر ما أنعم به عليهم من جعل الأرض فراشاً والسماء بناء وإنزال المطر وإخراج الثمرات لأن المنعم يستحق أن يعبد ويشكر .

فيأمر تعالى عباده بعبادته وحده ولم يخص بذلك نوعًا من أنواع العبادة، لا دعاء ولا صلاة ولا غيرهما، ليعم جميع أنواع العبادة، ونهى عن الشرك به، ولم يخص أيضًا نوعًا من أنواع العبادة بجواز الشرك فيه ، فإنه الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الحالات، فهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا من مخلوقاته.

وله سبحانه في تكليف عباده وأمرهم ونهيهم من الحكم البالغة ما يقتضيه ملكه التام وحمده وحكمته، ولو لم يكن من ذلك إلا أنه يستوجب من عباده شكر نعمه التي لا تحصى، ومننه التي لا تستقصى بحسب قواهم وطاقتهم، لا بحسب ما ينبغي له، فإنه أعظم وأجل من أن يقدر خلقه عليه؛ لكان كافيا. فلا شيء أحسن في العقول والفطر من شكر المنعم ولا أنفع للعبد منه، فهذان مسلكان آخران في التكليف، والأمر والنهي، أحدهما يتعلق بذاته تعالى وصفاته، وأنه أهل لذلك، والثاني يتعلق بإحسانه وإنعامه ولا سيما مع غناه عن عباده، وأنه إنما يحسن إليهم رحمة منه، وجودا وكرما لا لمعارضة ولا لاستجلاب منفعة، ولا لدفع مضرة، فأي المسلكين سلكه العبد أوقعه على محبته وبذل الجهد في مرضاته.

ولقد سلك القرآن الكريم في محاربة الشرك أساليب كثيره منها أسلوب التذكير بنعم الله تعالى ، فإن النفوس قد جبلت على حب من أحسن إليها وتعظيمه ، ومن تعظيم الله تعالى وكمال حبه إفراده بالعبادة ، وتنزيهه عن الشرك ، ففي الآيات ينبه الله تعالى عباده إلى ما أنعم به عليهم من النعم العظيمة في الدنيا والآخرة ،كما سخر لهم ما في الأرض من المنافع ، وعمهم بوافر النعم الظاهرة والباطنة ،

ثم مع هذا كله يوجد من الناس من يكفر بهذه النعم ؛ حيث يجادل في توحيد الله تعالى وحده ، وإرساله الرسل ، بغير علم عنده ، ولا هدى يبين صحة ما يقول ، ولا كتاب من الله منير مبين للحق ، وإنما حجتهم الوحيدة هي التقليد الأعمى لآبائهم الأقدمين الذين أضلهم الشيطان ، وزين لهم سوء أعمالهم[1].

---

[1] — انظر : لوامع الأنوار البهية (١/ ٣٥٦- ٣٥٧) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد (ص: ٤٣) مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية (ص: ٦٩) حاشية كتاب التوحيد (ص: ١٥) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام (١/ ٤٦٤) عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي (١/ ٦٢٤) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم (ص: ١٤٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٧) بتصرف وإضافة من الباحثة .

وفي هذا أكبر دليل على أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة ، فالشرك تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله ، والمنعم يحب على قدر إنعامه والله سبحانه وتعالى هو المنعم على الإطلاق فيجب أن يحب على الإطلاق ولا يعادل حبه شيء آخر ، حيث إنه من الظلم عبادة غير المنعم من الآلهة والأوثان المصنوعة ، وفي ذلك جحود بنعمة الله وكفر به .

والعبادة عبارة عن الإتيان بأكمل وجوه التعظيم، وذلك لا يليق إلاّ بمن صدر عنه أكمل وجوه الإنعام، فلما كان الخالق الحق، والمنعم الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى، وجب أنْ لا تكون العبادة إلا له، ولما كانوا لا يستطيعون القول بأنها تستحق هذه العبادة، كما لا يستطيعون القول بأنا نعبدها لأجل أنْ الإله الخالق المنعم أمرنا بعبادتها .

والنعم كلها تدل على وحدانية الله واستحقاقه لأن يشكر ويفرد بالعبادة، لأنه هو وحده المنعم المستحق علينا الطاعة والعبادة لا من لا يقدر على الإنعام ولا يضر ولا ينفع، فهذه النعم كلها تنبيه منه تعالى لخلقه على حججه عليهم في توحيده وأنه لا ينبغي الألوهية إلا له، ولا تصلح العبادة لشيء سواه. ولذلك نعى الله على المشركين الذين أشركوا به ، وحكموا بغير شرعه فيها .

ومن المعلوم بالضرورة أنه يجب التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله في جميع المنازعات والخصومات وشؤون الحياة؛ وهذا هو مقتضى العبودية والتوحيد؛ لأن التشريع حق لله وحده؛ والمراد بالتشريع: ما ينزِّلُه الله لعباده من المنهج الذي يسيرون عليه في العقائد والمعاملات وغيرها؛ ومن ذلك التحليل والتحريم، فليس لأحد أن يحل إلا ما أحله الله، ولا يحرم إلا ما حرم الله، وقد نهى الله عن التحليل والتحريم؛ بدون دليل من الكتاب والسنة، وأخبر أن ذلك من الكذب على الله، كما أخبر سبحانه أنَّ من أوجَبَ شيئًا أو حرَّمَ شيئًا من غير دليل فقد جعل نفسه شريكًا لله فيما هو من خصائصه، وهو التشريع ، ومن أطاع هذا المشرِّع من دون الله وهو يعلم بذلك ووافقه على فعله وإلا فإنه محاد لله ورسوله مضاد لشرعه، بل كافر بشرع الله عز وجل ، وأشرك مع الله غيره فيما هو من خصائص الله عز وجل؛ ولذلك قال الشافعي عليه رحمة الله: من شرع فاستحسن فقد كفر ، وهذا ما بينته الآيات التالية التي تم تقسيمها إلى المطالب التالية :

المطلب الأول : شريعة الجاهلية في الزروع والثمار والأنعام وقتل الأولاد (١٣٦ - ١٤٠)

المطلب الثاني : بعض فضائل الله على عباده في الحرث والانعام (١٤١ — ١٤٤)

المطلب الثالث : المطعوم المحرّم على المسلمين والمحرّم على اليهود (١٤٥ - ١٤٧)

المطلب الرابع : نسبة المشركين الشرك والتحريم إلى الله تعالى وإقامة الحجة عليهم (١٤٨ - ١٥٠)

وانظر : الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد (ص: ٨٧) عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك (ص: ٤٩)

المطلب الأول : شريعة الجاهلية في الزروع والثمار والأنعام وقتل الأولاد (١٣٦ - ١٤٠)

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

أولا : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

لما بين قبح طريقة المشركين في إنكارهم البعث والقيامة ذكر عقيبه أنواعاً من جهالاتهم ، وركاكات أقوالهم مما زينه الشيطان وسوّله لهم، تنبيهاً على ضعف عقولهم ، وقلة محصولهم ، وتنفيراً للعقلاء عن الالتفات إلى كلماتهم ، فمن جملتها أنهم يجعلون لله من حروثهم كالتمر والقمح ومن أنعامهم كالضأن والمعز والإبل والبقر نصيباً ، ويجعلون لشركائهم نصيباً أكبر وأفضل . (١)

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

لقد أخبر الله تعالى أن المشركين كانوا يجعلون ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾

وللأصنام نصيباً ، مما كان لله تعالى في الحقيقة ، حيث إنهم علموا وأقروا أن اللّه هو الذي أنشأ لهم تلك الأشياء وهو ذرأها، وبثها في الأرض، فالله كان أولى بأن يجعل له الزاكي ؛ لأنه هو الذي ذرأه وزكاه،

(١) - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٥٧) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٨٩)

ولا يرد إلى ما لا يقدر على ذرئه ولا تزكيته ،والحرث يريد به الزرع والأشجار وما يكون من الأرض ﴿ فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾

فجعلوا لله جزءاً ولشركائهم جزءاً ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ﴾ فإذا ذهب ما لشركائهم بالإنفاق عليها وعلى سدنتها عوضوا منه ما لله سبحانه وتعالى ، وإذا ذهب ما لله تعالى بالإنفاق على الضيفان والمساكين لم يعوضوا منه شيئاً ، وقالوا: الله مستغن عنه وشركاؤنا فقراء ، ثم إن رأوا ما عينوا لله أزكى بدلوه بما لآلهتهم ، وإن رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها حباً لآلهتهم ، وكان هذا من جهالاتهم وبزعمهم ، فيسفههم ؛ لأنهم إذا علموا أن اللَّه تعالى هو الذي ذرأ لهم تلك الأشياء وأنشاها لهم، فإليه الاختيار في جعل ذلك لا إليهم إذ علموا، أنهم إنما يملكون هم بجعل الله لهم، وهو المالك عليها حقيقة. فالله جل ثناؤه أخبر أنهم جعلوا لله من حرثهم وأنعامهم قسمًا مقدرًا، فقالوا:"هذا لله" فكانوا إذا زكا ما لله، ولم يزكُ ما لشركائهم، ردوا الزاكي على أصنامهم، وقالوا: هذه أحوج، والله غني وإذا زكا ما للأصنام، ولم يزكُ ما لله، أقروه على ما به ، وكانوا يَصرفون ما جعلوا لله إلى الضِّيفان والمساكين.

وقال : ﴿بِزَعْمِهِمْ ﴾ أي بكذبهم واعتقادهم الفاسد مما اخترعوه بقولهم أنه لله ، فعبر بلفظ ﴿ بِزَعْمِهِمْ ﴾ لأن الله لم يأمرهم بذلك ولا شرع لهم تلك القسمة التي هي من الشرك؛ وهم أشركوا بين الله وبين أصنامهم في القربة ، فقد جعلوا مثله لشركائهم، وهم أوثانهم وعبر عن ذلك بقوله حكاية عنهم بلفظ : ﴿لِشُرَكَآئِنَا﴾ ويريد به الأصنام والأوثان، وسموهم شركاء على معتقدهم فيهم أنهم بساهمونهم في الخير والشر ويكسبونهم ذلك .

ثم حكمه على تصرفه هذا فقال : ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ وهو خبر من الله تعالى عن فعل هؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم بأنهم قد أساؤوا في حكمهم، بإيثار آلهتهم على الله تعالى وعملهم ما لم يشرع لهم.

وإنما عنى بذلك تعالى ذكره الخبرَ عن جهلهم وضلالتهم، وذهابهم عن سبيل الحق، وذلك لأنهم ساووا من خلقهم وغذاهم، وأنعم عليهم بالنعم التي لا تحصى، بما لا يضرهم ولا ينفعهم، حتى فضّلوه في أقسامهم عند أنفسهم بالقَسْم عليه ، فبئس الحكم حكمهم حيث صرفوا ما جعلوا لله على جهة التبرر إلى الأوثان ، ورجحوا جانب الأصنام في الرعاية والحفظ على جانب الله تعالى ، وجعلوا بعض النصيب لله وجعلوا بعضه لغيره مع أنه تعالى الخالق للجميع ، ولا تأثير للأصنام في حصول الحرث والأنعام ، ولا قدرة لها

أيضاً على الانتفاع بذلك النصيب ، فكيف يقسم لهم نصيب ! بل ماهو إلا من باب العبث ، وذلك الحكم حكم أحدثوه من قبل أنفسهم ولم يشهد بصحته عقل ولا شرع ، وكان كل ذلك من السوء والسفه[1].

وبعد أن بين جعلهم لله نصيباً وللشركاء نصيباً بأنه نهاية في الجهل بمعرفة الخالق المنعم ، بين أن إقدامهم على قتل أولاد أنفسهم نهاية في الجهالة والضلالة وكل ذلك يفيد التنبيه على أن أحكام هؤلاء وأحوالهم يشاكل بعضها بعضاً في الركاكة والخساسة ، فيقول : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ وكما زيَّن شركاء هؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام ما زينوا لهم ؛ لأنهم يقتلون أولادهم مخافة الفقر والحمية، ويدفنون بناتهم أحياء ، فزين لهم الشيطان ذلك، كما زيّن لهم تحريم الحرث والأنعام.

فلقد كان الرجل في الجاهلية يحلف بالله لئن ولد له كذا غلاماً لينحرنّ أحدهم كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله ﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ ليهلكوهم ﴿ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ فعلوا ذلك بهم، ليخلطوا عليهم وليشبهوا عليهم ، وليُدخلوا عليهم الشك في دينهم ؛ حيث إنهم كانوا على دين إسماعيل – عليه السلام – فرجعوا عنه ، ونتيجة ذلك فإنه يلتبس عليهم ، فيضلوا ويهلكوا، بفعلهم ما حرم الله عليهم ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ ولو شاء الله أن لا يفعلوا ما كانوا يفعلون من قتلهم لم يفعلوه، بأن كان يهديهم للحق، ويوفقهم للسداد، فكانوا لا يقتلونهم، ولكن الله خذلهم عن الرشاد فقتلوا أولادهم، وأطاعوا الشياطين التي أغوتهم.

ثم يقول الله لنبيه متوعداً لهم على عظيم فريتهم على ربهم فيما كانوا يقولون في الأنصباء التي يقسِمونها:"هذا لله وهذا لشركائنا"، وفي قتلهم أولادهم ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ فدعهم واجتنبهم وما هم فيه، يا محمد ﴿ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ وما يتقوّلون عليَّ ويختلقون من الكذب والزور، في تشرعهم بذلك واعتقادهم أنها مباحات لهم، فإني لهم بالمرصاد، ومن ورائهم العذاب والعقاب، وأن ضرر ذلك الافتراء عليهم، ليس علينا ولا عليك ، والله تعالى مع قدرته عليهم قد تركهم إلى وقت قدرهم، فاتركهم أنت أيضاً إلى الوقت الذي تؤمر بقتالهم ،وإنّ لهم موعداً بين يدي الله تعالى يحكم الله بينك وبينهم ويحاسبهم ويجازيهم بما عملوا.

فالشفقة التي جعل اللّه في الخلق لأولادهم والرحمة التي جبلت طبائعهم عليها تمنعهم عن قتلهم، وخاصة أولادهم الضعفاء والصغار، وكذلك الشهوة التي خلق فيهم تمنعهم عن تحريم ما أحل اللّه لهم، لكن

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ١٣٤) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٦٦) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٨٥) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٣٢٦) الكشاف للزمخشري (٢/ ٦٨) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٤٨) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٨٠) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٥٨) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٨٩) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٨٤) مع تصرف وإضافة من الباحثة .

زين لهم ذلك شركاؤهم، وحسنوا عليهم تحريم ما أحل لهم وقتل أولادهم، فما حسن عليهم الشركاء وزين لهم من تحريم ما أحل لهم وقتل أولادهم غلب على الشفقة التي جبلت فيهم، والشهوة التي خلق ومكن فيهم.

و"الشركاء" هاهنا الشياطين الآمرون بالسوء ، المزينون له ، والحاملون عليه أيضاً من بني آدم ، الناقلين له عصراً بعد عصر إذ كلهم مشتركون في قبح هذا الفعل وتباعته في الآخرة

وإنما سمي المتبوعون شركاء ؛ لأنهم أطاعوهم في معصية الله تعالى، وأضيفت الشركاء إليهم لأنهم اتخذوها، كقوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[الأنعام: ٢٢] .(١)

ثم ذكر نوعاً ثالثاً من أحكامهم الفاسدة ، حيث عدد ما شرعه هؤلاء الجهلة من المشركين لأنفسهم ، والتزموه على جهة القربة كذباً منهم على الله وافتراء عليه، فقد كانوا يحرمون ويحللون من قِبَل أنفسهم، من غير أن يكون الله أذن لهم بشيء من ذلك .

فلما ذكر إقدامهم على ما قبحه الشرع، ولامه على تقبيحه العقلُ من قتل الأولاد، أتبعه إحجامهم عما حسنه الشرع من ذبح بعض الأنعام لنفعهم، وضم إليه جملة مما منعوا أنفسهم منه ودانوا به لمجرد أهوائهم فيقول تعالى: ﴿وَقَالُواْ ﴾وقال هؤلاء العادلون بربهم من المشركين، جهلا منهم لأنعام لهم وحرث: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ ﴾يعني بـ"الأنعام" و"الحرث" ما كانوا جعلوه لله ولآلهتهم، التي قد مضى ذكرها في الآية قبل هذه ﴿حِجْرٌ ﴾ حرام محجر ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ ﴾ لا يأكلها ﴿إِلَّا مَن نَّشَآءُ ﴾ وهم خُدام الأوثان وسدنتها، والرجال دون النساء ، كل ذلك قالوه ﴿بِزَعْمِهِمْ ﴾ وافترائهم من غير حجة ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ حيث حرّم هؤلاء الجهلة من المشركين ظهورَ بعض أنعامهم، وامتنعوا عن الانتفاع بها فلا يركبون ظهورها، وهم ينتفعون برِسْلِها ونِتَاجها ، وسائر الأشياء منها غير ظهورها للركوب ،ويعني البحائر والسوائب والحوامي، ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ وحرموا من أنعامهم أنعاماً أخر، فلا يحجُّون عليها، ولا يذكرون اسم الله عليها إن ركبوها بحالٍ، ولا إن حلبوها، ولا إن حملوا عليها ، فكانوا لا ينتفعون بها؛ ليعرفوا نعم اللّه تعالى ، ويشكروه عليها ، ثم بين أن كل ذلك إنما هو ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ﴾ ففعل هؤلاء المشركون ما فعلوا من تحريمهم ما حرموا، وقالوا ما قالوا من ذلك، كذبًا على الله، وتخرّصاً الباطلَ عليه في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه؛ فإنه لم يأذن لهم في ذلك ولا رضيه منهم، فهم أضافوا ما كانوا يحرّمون من ذلك، على ما وصفه عنهم جل ثناؤه في كتابه، إلى أنّ الله هو الذي حرّمه، فنفى الله ذلك عن نفسه، وأكذبهم، وأخبر نبيه والمؤمنين أنهم كذبة فيما يدّعون ، ولم يتركهم الله تعالى على فعلهم هذا بل بين ما سيلاقونه عند الله جراء أعمالهم الشنيعة تلك فقال :

(١) - انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ١٣٥) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٦٧) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٨٦) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ١٩٤) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٣٢٧) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٤٩) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٨١) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٥٨) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٥)

﴿سَيَجۡزِيهِمۡ﴾ سيجزيهم ربُّهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ويختلقون على الله الكذبَ ، ويجزيهم على ذلك جزاءهم [(١)].

ثم ذكر نوعاً رابعاً من أنواع قضاياهم الفاسدة ، فأخبر عن هؤلاء الكفرة أنهم قالوا في أنعام بأعيانها ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ في أجنة البحائر والسوائب ما ولد منها حياً فهي ﴿خَالِصَةٞ﴾ خلص حياً فهو حِلٌّ ﴿لِّذُكُورِنَا﴾لذكورنا ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَا﴾دون إناثنا ، فكانوا يؤثرون بذلك رجالهم لا تأكل منها الإناث وما ولد ميتا يشترك حينئذ في أكله الذكور والإناث .

﴿وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ﴾ إن ولدت ميتة ﴿فَهُمۡ﴾ أي الذكور والإناث ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ فإنه يعني أن الرجال وأزواجهم شركاء في أكله، لا يحرمونه على أحد منهم .

ثم بين نتيجة فعلهم ذلك عند الله فأعقب تعالى بوعيدهم على ما وصفوا أنه من القربات إلى الله تعالى وشرعوه من الباطل والإفك : ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ﴾سيكافئ هؤلاء المفترين عليه الكذب في تحريمهم ما لم يحرّمه الله، وتحليلهم ما لم يحلله الله، وإضافتهم كذبهم في ذلك إلى الله ﴿وَصۡفَهُمۡ﴾الكذبَ على الله، حيث إنه لما كان ذلك كله وصفاً منهم للأشياء في غير مواضعها التي يحبها الله قال: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡ﴾ بأن يضع العذاب الأليم في كل موضع يكرهون وصفه فيه، حتى يكون مثل وصفهم الذي لم يزالوا يتابعون الهوى فيه حتى صار خلقاً لهم ثابتاً ، فهو يريهم وخيم أثره، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن الله في مجازاتهم على وصفهم الكذب وقيلهم الباطل عليه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، وفي جزائهم وفي سائر تدبيره في خلقه فلا يجازى على الشيء إلا بمثله ويضعه في أحق مواضعه وأعدلها ﴿عَلِيمٞ﴾ بقليل ما تقولوه من ذلك وكثيره وعليم بأعمال عباده من خير وشر، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء ، وعليم بما يصلحهم، وبغير ذلك من اعتقادهم وأمورهم ، وعلى أيّ وجه يفعل، وعلى أيّ كيفية يكون أتم وأكمل ، فالله أحكم وأعلم من أن يفعل ذلك مما ذكروه من الفرية عليه فيما سبق.[(٢)]

ثم بين تعالى نتيجة كل أفعالهم السابقة فقال : ﴿قَدۡ خَسِرَ﴾ قد هلك ﴿ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ﴾ هؤلاء المفترون على ربهم الكذبَ، العادلون به الأوثانَ والأصنام، الذين زين لهم شركاؤهم قتل أولادهم،

---

(١) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ١٣٩) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٧١) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٥٠) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٥٩) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٨٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٦) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٨٤)

(٢) - جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ١٤٨) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٩٥) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٣٢٩) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٥٢) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٦٠) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٤٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٦) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٨٦) البحر المديد لابن عجيبة (٢/ ١٧٦) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ١٩١)

طاعة لها ، ﴿سَفَهًا﴾ فعلوا ما فعلوا من ذلكَ جهالة منهم بما لهم وعليهم، ونقصَ عقول وخفتها ، وضعفَ أحلام منهم، وقلة فهم بعاجل ضرّه وآجل مكروهه، من عظيم عقاب الله عليه لهم ، ولما ذكر عظيم ما أقدموا عليه، ذكر جليل ما أحجموا عنه فقال: {وحرموا ما رزقهم الله} وتحريم ما أنعمت به عليهم من أموالهم، فحرّموا ما أحل الله لهم ، وجعله لهم رزقاً من أنعامهم أي الذي لا ملك سواه رحمة لهم، من تلك الأنعام والغلات، بغير شرع ولا نفع بوجه بل ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ للكذب على الله تعالى ، وتخرصاً عليه الباطل بغير حجة منهم ، وكان نتيجة ذلك أنهم ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ قد تركوا محجة الحق في فعلهم ذلك، وزالوا عن سواء السبيل وعن الطريق القويم الذي هو هدي رب العالمين ، لذى نفى عنهم الهداية بقوله ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ولم يكن فاعلو ذلك على هدى واستقامة في أفعالهم التي كانوا يفعلون قبل ذلك، ولا كانوا مهتدين للصواب فيها، ولا موفقين له ، فخذلهم الله بذلك الفعل .

فقد يضل الإنسان عن الحق ثم يعود إلى الاهتداء ، إلا أنه تعالى بين أنهم قد ضلوا ، ولم يحصل لهم الاهتداء قط ، فثبت أنه تعالى ذم الموصوفين بقتل الأولاد ، وتحريم ما أحله الله تعالى لهم بهذه الصفات الموجبة لأعظم أنواع الذم وذلك نهاية المبالغة.

وهذه تتضمن التشنيع بقبح فعلهم والتعجب من سوء حالهم في وأدهم البنات وحجرهم الأنعام والحرث، حيث إنه تعالى ذكر فيما تقدم قتلهم أولادهم وتحريمهم ما رزقهم الله ، ثم إنه تعالى جمع هذين الأمرين في هذه الآية وبين ما لزمهم على هذا الحكم ، وهو الخسران والسفاهة ، وعدم العلم ، وتحريم ما رزقهم الله ، والافتراء على الله ، والضلال وعدم الاهتداء ، فهذه أمور وخلال ، وكل واحد منها سبب تام في حصول الذم .[١]

---

[١] - جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ١٥٣) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٨٧) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٥٢) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٦١) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٨٥) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٨٧) **تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٨ / ١١٣)**

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. أن مَن عارَضَ الشَّرْعَ واقترف ما نهى الله عنه ، ولَم يَتَّبع سبيل المؤمنين فقد ضلَّ، وأهلَكَ نفسَه وكان من الخاسرين .

٢. أخبرت الآيات عن أشياء ابتدعها المشركون على ما أرادوا، وأمور شرعوها على الوجه الذي اعتادوا، ثم أضافوا ذلك إلى الحق بغير دليل، وشرعوها بلا حجة من إذن رسول، والاشارة فيه أن من نحا نحوهم فى زيادة شيء فى الدين، أو نقصان شيء من شرع المسلمين فمضاه لهم فى البطلان، ينخرط فى سلكهم فى الطغيان. [1]

٣. في الآيات دليل على أن العالم ينبغي له أن يتعلم قول من خالفه وإن لم يأخذ به، حتى يعرف فساد قول، ويعلم كيف يرد عليه؛ لأن الله تعالى أعلم النبي ﷺ وأصحابه قول من خالفهم من أهل زمانهم، ليعرفوا فساد قولهم. [2]

٤. أن الولد نعمة عظيمة من الله على العبد ، فإذا سعى في إبطاله استحق الذم العظيم في الدنيا. [3]

٥. كل أنواع السفاهة إنما تنشأ من الجهل الذي هو أعظم المنكرات. [4]

٦. أن تحريم الحلال من أعظم أنواع الحماقة ؛ لأنه يمنع نفسه تلك المنافع ، ويستحق ذلك المنع أعظم أنواع العقاب ، وأن الجراءة على الله أعظم الذنوب ، وهم قد ضلوا عن الرشد في مصالح الدين ومنافع الدنيا ولم يحصل لهم الاهتداء قط[5]

٧. ما جعل قربة لله يجب أن يكون خالصاً له وحده لا يشرك معه غيره فيه، وأن يكون بإذنه ؛ لأنه دين، والدين لله ومن الله وحده .[6]

٨. التحذير من الاعتداء على الله بالتشريع بما لم يأذن به. [7]

٩. التفاوت في الآراء والمعتقدات،فلا يمكن الاجتماع على رأي أو دين واحد. [8]

١٠. أن حكمته تعالى فى الخلق وعلمه بشئونهم، جعلت عقابهم عين ما يقتضيه وصفهم ونعتهم الروحي، إذ لكل نفس فى الآخرة صفات تجعلها فى مكان معين سواء أكان فى أعلى عليين أم فى أسفل سافلين. [9]

---

[1] – لطائف الإشارات للقشيري (١/ ٥٠٦)

[2] – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٩٦)

[3] – مراح لبيد لمحمد نووي (١/ ٣٥٠)

[4] – المرجع السابق (١/ ٣٥٠)

[5] – المرجع السابق (١/ ٣٥١)

[6] – انظر : تفسير المراغي (٨/ ٤٢)

[7] – انظر : المرجع السابق (٨/ ٤٣)

[8] – انظر : المرجع السابق (٨/ ٤٥)

[9] – انظر : المرجع السابق (٨/ ٤٧)

١١. أن منشأ جزاء النفس باعتبار عقائدها،وسائر صفاتها التي يطبعها عليها العمل.[١]

١٢. قتل الأولاد يستلزم خسران كل ما كان يرجى من العزة والنصرة والسرور والغبطة، والبر والصلة، وخسران العاطفة الأبوية ورأفتها، واستبدال القسوة والغلظة بها، إلى نحو أولئك من مساوى الأخلاق التي يضيق بها العيش فى الدنيا، وبها يحل العقاب فى الآخرة. [٢]

١٣. الولد نعمة من الله على العبد، فإذا سعى العبد فى زوالها فقد خسر خسرانا عظيما، إذ هو قد استحق الذم فى الدنيا وقال الناس فيه إنه قتل ولده خوف أن يأكل طعامه، والعقاب فى الآخرة، لأنه ألحق أعظم أنواع الأذى بأقرب الناس محبة إليه. [٣]

١٤. من أقبح القبائح والمنكرات عدم العلم بما ينفع وما يضر وما يحسن وما يقبح.[٤]

١٥. من أعظم الافتراء على الله من يجعل دينا يتقرّب به إليه — ما لم ينزله - وهو جراة عليه، وذلك من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر. [٥]

١٦. أن الضلال المبين هو عدم الرشاد إلى مصالح الدين ولا منافع الدنيا. [٦]

١٧. ذكرت الآيات مجموعة التصورات والمزاعم والتقاليد التي كانت تصبغ وجه المجتمع العربي في الجاهلية، والتي يتصدى هذا السياق القرآني الطويل- في سورة مكية- للقضاء عليها، وتطهير النفوس والقلوب منها، وإبطالها كذلك في الواقع الاجتماعي. [٧]

١٨. ظاهر في هذه التصورات والتصرفات أثر المصلحة للشياطين في هذا الذي يزينونه لأوليائهم ، فأما مصلحة شياطين الإنس- من الكهنة والسدنة والرؤساء- فهي متمثلة أولاً في الاستيلاء على قلوب الأتباع والأولياء، وتحريكهم على هواهم وفق ما يزينونه لهم من تصورات باطلة وعقائد فاسدة! ومتمثلة ثانياً في المصالح المادية التي تتحقق لهم من وراء هذا التزيين ، والاستهواء لجماهير الناس وهو ما يعود عليهم مما يقسمه هؤلاء الأغرار المغفلون للآلهة! .. وأما مصلحة شياطين الجن فتتمثل في نجاح الإغواء والوسوسة لبني آدم حتى يفسدوا عليهم حياتهم، ويفسدوا عليهم دينهم، ويقودوهم ذللاً إلى الدمار في الدنيا والنار في الآخرة! [٨]

---

[١] – انظر : المرجع السابق (٨/ ٤٧)

[٢] – انظر : المرجع السابق (٨/ ٤٧)

[٣] – انظر : المرجع السابق (٨/ ٤٨)

[٤] – المرجع السابق (٨/ ٤٨)

[٥] – انظر : المرجع السابق (٨/ ٤٨)

[٦] – انظر المرجع السابق (٨/ ٤٨)

[٧] – في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/ ١٢١٤)

[٨] – المرجع السابق (٣/ ١٢١٨)

١٩. الجاهلية هي كل وضع يتصرف في شؤون الناس بغير شريعة من الله ، ولا عبرة بعد ذلك باختلاف الأشكال التي يتمثل فيها هذا التصرف.. [١]

٢٠. أن التصورات المتلبسة بالدين والعقيدة- وما هي منها- بكل ثقلها وعمقها، تتعاون مع العرف الاجتماعي المنبثق منها، وتنشئ ثقلا ساحقا لا تقف له جماهير الناس. ما لم تعتصم منه بدين واضح وما لم ترجع في أمرها كله إلى ميزان ثابت. [٢]

٢١. أن الجاهلية تختلف أشكالها وصورها، وتتحد جذورها ومنابعها، وتتماثل قوائمها وقواعدها. [٣]

٢٢. العقيدة المنحرفة تكلف الناس حتى فلذات أكبادهم،فوق ما تكلفهم من تعقيد الحياة واضطرابها،والسير فيها بلا ضابط،سوى الوهم والهوى والتقليد،وأمامهم التوحيد البسيط الواضح يطلق الضمير البشري من أوهام الوهم والخرافة ويطلق العقل البشري من عقال التقليد الأعمى ويطلق المجتمع البشري من الجاهلية وتكاليفها ويطلق «الإنسان» من العبودية للعبيد ؛ سواء فيما يشترعونه من قوانين، وما يصنعونه من قيم وموازين ، ويحل محل هذا كله عقيدة واضحة مفهومة مضبوطة، وتصوراً واضحاً ميسراً مريحاً، ورؤية لحقائق الوجود والحياة كاملة عميقة، وانطلاقاً من العبودية للعبيد، وارتفاعا إلى مقام العبودية لله وحده؛ المقام الذي لا يرتقي إلى أعلى درجاته إلا الأنبياء! [٤]

٢٣. لا يجوز أن يُتصرف في المال إلا بإذن الله تعالى ممثلا في شرعه ، وشرعه ممثل فيما جاء به رسوله من عنده، لا فيما يدعي الأرباب المغتصبون لسلطان الله أنه شريعة الله! [٥]

٢٤. حرمة الابتداع في الدين والتشريع المنافي لشرع الله،وإن لم ينسب إلى الله تعالى [٦].

٢٥. ما ينذره الجهال اليوم من نذور للأولياء وإعطائهم شيئاً من الأنعام والحرث والشجر هو من عمل المشركين زينه الشيطان لجهال المسلمين. [٧]

٢٦. حرمة قتل النفس لأي سبب كان وتحديد النسل اليوم وإلزام الأمة به من بعض الحكام من عمل أهل الجاهلية الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم كقتل البنات خشية العار والأولاد خشية الفقر. [٨]

---

[١] - المرجع السابق (٣/ ١٢١٨)

[٢] - المرجع السابق (٣/ ١٢١٩)

[٣] - المرجع السابق (٣/ ١٢١٩)

[٤] - المرجع السابق (٣/ ١٢٢٢)

[٥] - المرجع السابق (٣/ ١٢٢٢)

[٦] - أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ١٢٧)

[٧] - المرجع السابق (٢/ ١٢٧)

[٨] - المرجع السابق (٢/ ١٢٧)

المطلب الثاني : بعض فضائل الله على عباده في الحرث والانعام (١٤١ – ١٤٤)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢) ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٤) ﴾

أولاً : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

جعل الله تعالى مدار هذا الكتاب الشريف على تقرير التوحيد والنبوة والمعاد ، وإثبات القضاء والقدر ، وأنه تعالى بالغ في تقرير هذه الأصول وانتهى الكلام إلى شرح أحوال السعداء والأشقياء ، ثم انتقل منه إلى تهجين طريقة من أنكر البعث والقيامة ، ثم أتبعه بحكاية أقوالهم الركيكة وكلماتهم الفاسدة في مسائل أربعة، والمقصود التنبيه على ضعف عقولهم وقلة محصولهم ، وتنفير الناس عن الالتفات إلى قولهم والاغترار بشبهاتهم ؛ فلما تم هذه الأشياء عاد بعدها إلى ما هو المقصود الأصلي وهو إقامة الدلائل على تقرير التوحيد ، فالكفار لما افتروا على الله الكذب وأشركوا معه وحللوا وحرموا دلهم على وحدانيته بأنه خالق الأشياء، وأنه جعل هذه الأشياء أرزاقا لهم ، فهو الخالق لكل شيء، من الزروع والثمار والأنعام التي تصرف فيها المشركون بآرائهم الفاسدة وقسموها وجزءوها، فجعلوا منها حراماً وحلالاً. فاحتج الله على المشركين ونبه على عظم ما أتوه في أن أقدموا على الكذب على الله وأقدموا على أن شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله افتراء على الله ، وهو المحدث للأشياء ، الفاعل ما لا يقدر أحد على الإتيان بمثله، وهو ما قررته الآيات السابقة والتالية ، والتي فيها إعلام من الله تعالى ما أنعم به عليهم من فضله، وتنبيهٌ منه لهم على موضع إحسانه، وتعريفٌ منه لهم ما أحلَّ وحرَّم ، وقسم في أموالهم من الحقوق لمن قسم له فيها حقًّا[1].

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

[1] – انظر : مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٦٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٩٩) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٧)

يقول عز وجل: ﴿ وَهُوَ ﴾ وربكم، أيها الناس ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ ﴾ أحدث وابتدع خلقاً، لا الآلهة والأصنام ﴿ جَنَّٰتٍ ﴾ بساتين ﴿ مَّعۡرُوشَٰتٍ ﴾ وهي ما عَرَش الناس من الكروم ﴿وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ ﴾ غير مرفوعات مبنيَّات، ويشمل كل ما ينبت منبسطاً متروكاً على وجه الأرض لا ينبته الناس ولا يرفعونه، ولكن الله يرفعه وينبته وينمِّيه، ولما ذكر الجنات الجامعة، خص أفضلها وأدلها على الفعل بالاختيار، وبدأ بأشهرها عند المخاطبين بهذه الآيات فقال: ﴿وَٱلنَّخۡلَ ﴾ وأنشأ النخل ﴿وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ ﴾ أي وخلق النخل والزرع مختلفاً ما يخرج منه ؛ مما يؤكل من الثمر والحب ﴿ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ أن تكون الثمار يشبه بعضها بعضاً في النظر وتختلف في الطعوم ، منها الحلو، والحامض، ثم جاء التعنيف لمن حرم ما رزقه الله والأمر بالأكل من حلال ما أنعم به ، والنهي عن تركه تديناً فقال تعالى هنا : ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ ﴾ كلوا من رطبه ما كان رطبًا ثمره، وإنما قال :﴿إِذَآ أَثۡمَرَ ﴾ وقد علم أنه إذا لم يثمر لم يؤكل منه ؛ ليعلم أن أول وقت الإباحة وقت إطلاع الشجر الثمر؛ لئلا يتوهم أنه لا يباح إلا إذا أدرك وأينع .

ولما بين انتفاع النفس بهذا الحلال بين أنه يجب نفع الغير منه فقال : ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ ﴾ واعزموا على إيتاء الحق، واقصدوه واهتموا به يوم الحصاد، حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء ، وأريد بالحق ما كان يتصدّق به على المساكين يوم الحصاد، فيحمل على حق سوى الزكاة ، وهو حق في المال سوى العشر المفروض، وأمر بإتيانه ، فإنه لا زكاة فيما ذكر من الرمان وجميع ما هو في معناه، وهذه الآية وآية الزكاة لا تتعارض بل تنبني هذه على الندب وتلك على الفرض .

ولقد قدم ذكر الأكل تسهيلاً لإيتاء حقه، وتغليباً لحقهم ، وافتتاحاً بنفعهم بأموالهم ، لينهى عن فعل الجاهلية في زروعهم من تحريم بعضها ، ولأن رعاية النفس مقدمة على رعاية الغير ، وليبين أن الابتداء بالنعمة كان من فضله قبل التكليف .

ثم بين تعالى منهجاً آخر يجب أن يسلك في باب المباحات فقال :﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ ﴾ حيث نهى عن جميع معاني"الإسراف" ، يقول ﷺ : (كلوا واشربوا وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده) [1].

وفي الآية لم يخصص منها معنى دون معنى ، فهذا النهي يتضمن أفراد الإسراف، فيدخل فيه الإسراف في أكل الثمرة حتى لا يبقى شيء منها للزكاة، والإسراف في الصدقة حتى لا يبقى لنفسه ولا لعياله شيئاً ،

[1] – أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ،كتاب الأطعمة (٤/ ١٥٠) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " ووافقه الذهبي .

فالإسراف هو الذي لا ينتفع به أحد، ويدخل فيه ما كانوا جعلوا لشركائهم لا ينتفعون به هم ولا انتفع به أحد[1] .

و"قد سبق ذكر هذا الدليل في هذه السورة وهو قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الانعام: ٩٩] فالآية المتقدمة ذكر تعالى فيها خمسة أنواع وهي: الزرع والنخل وجنات من أعناب والزيتون والرمان ، وفي هذه الآية التي نحن في تفسيرها ذكر هذه الخمسة بأعيانها لكن على خلاف ذلك الترتيب ؛ لأنه ذكر العنب ثم النخل ثم الزرع ثم الزيتون ثم الرمان ، وذكر في الآية المتقدمة: ﴿ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ وفي هذه الآية: ﴿ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ ثم ذكر في الآية المتقدمة: ﴿ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ فأمر تعالى هناك بالنظر في أحوالها ، والاستدلال بها على وجود الصانع الحكيم ، وذكر في هذه الآية: ﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ فأذن في الانتفاع بها وأمر بصرف جزء منها إلى الفقراء ، فالذي حصل به الامتياز بين الآيتين أن هناك أمر بالاستدلال بها على الصانع الحكيم ، وهاهنا أذن في الانتفاع بها ، وذلك تنبيه على أن الأمر بالاستدلال بها على الصانع الحكيم مقدم على الإذن في الانتفاع بها ؛ لأن الحاصل من الاستدلال بها سعادة روحانية أبدية ، والحاصل من الانتفاع بهذه سعادة جسمانية سريعة الانقضاء ، والأول أولى بالتقديم فلهذا السبب قدم الله تعالى الأمر بالاستدلال بها على الإذن بالانتفاع بها " — والله تعالى أعلم – [2]

ولما كان السياق للمآكل من الحرث والأنعام من حلال وحرام، وفرغ من تقرير أمر الحرث الذي قدم في الجملة الأولى ذكر كيفية إنعامه على عباده بالمنافع النباتية ؛ لأنه مادة الحيوان، أتبعها بذكر إنعامه عليهم بالمنافع الحيوانية ، فقال وأنشأ من :﴿ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾ مع ما أنشأ من الجنات المعروشات وغير المعروشات، و"الحمولة"، ما حمل عليه من الإبل وغيرها، و"الفرش"، صغار الإبل التي لم تدرك أن يُحْمَل عليها ، ولما استوفى القسمين أمر بالأكل من ذلك كله على وجه يشمل غيره مخالفة للكفار فقال: ﴿

(١) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ١٥٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٩٦) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٧٣) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٧٨) تفسير السمعاني (٢/ ١٥٠) الكشاف للزمخشري (٢/ ٧٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٥٣) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٨٤) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٦٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٩٩) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٩٠)

(٢) - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٦٢)

﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي لا تحرموا ما حرمتم مما جرى ذكره من هذه الثمار واللحوم، واركبوا هذه الحمولة، أيها المؤمنون، واعرفوا نعمه التي أنعمها عليكم، ووجهوا شكر نعمه إليه، ولا توجهوها إلى غيره ، فإن وجهتموها لغيره ، فإنه يحذركم بقوله : ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ لا تسلكوا طريقه التي يدعوكم إليها من كفر وضلال ، وفي تحريم الحلال وتحريم الحرام على أنفسكم ، مثل ما حرم هؤلاء الجهلة بغير أمري إياهم بذلك.

وإنما عبر بلفظ الخطوات ؛ لأن فيه الانتقال من معصية إلى أخرى حتى يستوعب جميع المعاصي ، مأخوذ من خطو القدم: وهي انتقالها من مكان إلى مكان.

ثم علل النهي عن ذلك بتقرير عداوة الشيطان لابن آدم، فقال : ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن الشيطان ﴿لَكُمۡ عَدُوٌّ﴾ يبغي هلاككم وصدكم عن سبيل ربكم ﴿مُّبِينٌ﴾ قد أبان لكم عدواته، بمناصبته أباكم بالعداوة، حتى أخرجه من الجنة بكيده، وخدَعه حسداً منه له، وبغياً عليه ، فلا تسلكوا الطريق الذي يسوله لكم الشيطان.

فإنه فيما يدعوكم إلى تحريم ما أحل اللَّه لكم ورزقكم يقصد قصد إهلاككم وتعذيبكم، لا قصد منفعة لكم في ذلك، وكل من قصد إهلاك آخر فهو عدوّ له، فكيف تؤخذ النصائح من العدو ! .[1]

ولما رد دين المشركين وأثبت دينه، وكانوا قد فصلوا الحرمة بالنسبة إلى ذكور الآدمي وإناثه، ألزمهم تفصيلها بالنسبة إلى ذكور الأنعام وإناثه، ففصل أمرها في أسلوب أبان فيها أن فعلهم رث القوى ، هلهل النسيج ، بعيد من قانون الحكمة، فهو موضع للاستهزاء وأهل للتهكم، فقال بياناً لـ﴿حَمُولَةً وَفَرۡشًا﴾ بتقريعٌ من الله – جل ثناؤه – للعادلين به الأوثان من عبدة الأصنام، الذين بحروا البحائر، وسيَّبوا السوائب، ووصلوا الوصائل ، وتعليم منه نبيَّه ﷺ والمؤمنين به، فاحتج الله تعالى عليهم بهذه الآية والتي بعدها، في تحريمهم من الأنعام التي منها حمولة وفرشاً ؛ لأنهم كانوا يحرِّمون أجناساً من النعم، بعضها على الرجال والنساء، وبعضها على النساء دون الرجال.

فقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ فذلك أربعة ؛ لأن كل واحد من الأنثيين من الضأن زوج وهي ذوات الصُّوف ، فالأنثى منه زوج الذكر، والذكر منه زوج الأنثى، وكذلك ذلك من المعز ، فلذلك قال جل ثناؤه: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ كما قال: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ١٧٨) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٩٨) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٨٩) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٨٠) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٣٣٠) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٥٤) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٦٥) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٩٣)

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[سورة الذاريات: ٤٩] ؛ لأن الذَّكر زوج الأنثى، والأنثى زوج الذكر، فهما وإن كانا اثنين فيهما زوجان .

ثم قال لهم:﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين حرّموا ما حرموا من الحرث والأنعام اتباعًا للشيطان، من عبدة الأوثان والأصنام الذين زعموا أن الله حرم عليهم ما هم محرمون من ذلك : ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ حرم ربكم أيها الكذبة على الله، من الضأن والمعز؟ فإنهم إن ادعوا ذلك وأقرّوا به، كذبوا أنفسهم وأبانوا جهلهم ؛ لأنهم إذا قالوا:"يحرم الذكرين من ذلك"، أوجبوا تحريم كل ذكرين من ولد الضأن والمعز، وهم يستمتعون بلحوم الذكران منها وظهورها ، وفي ذلك فساد دعواهم وتكذيب قولهم ، ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ فإنهم إن قالوا:"حرم ربنا الأنثيين"، أوجبوا تحريم لحوم كل أنثى من ولد الضأن والمعز على أنفسهم وظهورها، وفي ذلك أيضًا تكذيب لهم، ودحض دعواهم أنّ ربهم حرم ذلك عليهم، إذ كانوا يستمتعون بلحوم بعض ذلك وظهوره ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أم حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، يعني أرحام أنثى الضأن وأنثى المعز، فلذلك قال: ﴿أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ وفي ذلك أيضاً لو أقرُّوا به فقالوا:"حرم علينا ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين"، بُطولُ قولهم وبيان كذبهم، ؛ لأنهم كانوا يقرّون بإقرارهم بذلك أنّ الله حرّم عليهم ذكور الضأن والمعز وإناثها، أن يأكلوا لحومها أو يركبوا ظهورها، وقد كانوا يستمتعون ببعض ذكورها وإناثها ، وهذا احتجاج عليهم ، حيث بين الله عز وجل به فريتهم وكذبهم فيما ادعوه من الباطل ، ومتى كان كذلك لزمكم تحريم الكل ، فلم تلزموا شيئاً مما أوجبه هذا التقسيم ،فلم تمشوا على نظام ، ولما علم أنه لا نظام لهم فعلم أنهم جديرون بالتوبيخ، لذا زاد في توبيخهم وتعجيزهم فقال:﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ﴾ أخبروني بأمر لا مطعن فيه معلوم من جهة الله تعالى يدل على تحريم حرمه ربكم عليكم ما حرّمتم وكيف حرم؟ ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ فيما تنحلونه ربكم من دعواكم، وتضيفونه إليه من تحريمكم، فليس عندهم علم يعلمون ذلك وينبئونه ، فمن أين جاء هذا التحريم ، وأنتم لا علم لكم ؛ لأنكم لا تؤمنون ولا تعترفون بنبوة أحد من الأنبياء ، فكيف تثبتون هذه الأحكام المختلفة؟

وهذا إعلامٌ من الله جل ثناؤه نبيَّه أنّ كل ما قاله هؤلاء المشركون في ذلك وأضافوه إلى الله، فهو كذب على الله، وأنه لم يحرم شيئاً من ذلك، وأنهم إنما اتّبعوا في ذلك خطوات الشيطان، وخالفوا أمره. (١)

---

(١) — انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ١٨٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٩٩) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٩١) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٩٠) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢٢٢١) الوجيز للواحدي (ص: ٣٧٩) الكشاف للزمخشري (٢/ ٧٤) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٨٦) التسهيل لابن جزي (١/ ٢٧٨) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٩٤) مع تصرف وإضافة من الباحثة

وكذلك الاحتجاج في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ فهذه أربعة أزواج، على نحو ما بيّنا من الأزواج الأربعة قبلُ من الضأن والمعز، فذلك ثمانية أزواج، كما وصف جل ثناؤه ، ثم تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله، من تحريم ما حرموه من ذلك فقال : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ هل شاهدتم أن الله قد حرم هذا إذ كنتم لا تؤمنون برسول! فأيَّ هذه سألتكم عن تحريمه حرم ربكم عليكم من هذه الأزواج الثمانية؟ فإن أجابوك عن شيء مما سألتهم عنه من ذلك، فقل لهم: أخبرًا قلتم:"إن الله حرم هذا عليكم"، أخبركم به رسول عن ربكم ؟ أم شهدتم ربكم فرأيتموه فوصَّاكم بهذا الذي تقولون وتزوّرون على الله؟ فإن هذا الذي تقولون من إخباركم عن الله أنه حرام بما تزعمون على ما تزعمون، لا يعلم إلا بوحي من عنده مع رسول يرسله إلى خلقه، أو بسماع منه، فبأي هذين الوجهين علمتم أنّ الله حرم ذلك كذلك ؟ برسول أرسله إليكم، فأنبئوني بعلم إن كنتم صادقين؟ أم شهدتم ربكم فأوصَاكم بذلك، وقال لكم:"حرمت ذلك عليكم"، فسمعتم تحريمه منه، وعهدَه إليكم بذلك؟

فليس لكم شهداء على تحريم ما تحرمون: لا من جهة الكتاب، ولا رسول، ولا استدلال؛ لأن العلوم ثلاثة:

علم استدلال وهو علم العقل، وعلم المشاهدة والعيان وهو علم الحس، وعلم السمع والخبر؛ فيخبر أنه ليس لهم من هذه العلوم شيء.

أما علم الاستدلال: فلا عقل يدل على تحريم ما حرمتم.

ولا علم مشاهدة؛ لأنكم لم تشاهدوا اللّه حرم ذلك.

ولا علم من جهة السمع والخبر؛ لأنهم كانوا لا يؤمنون بالكتب، ولا صدقوا الرسل فيقولون: أخبرنا الرسل بتحريم ذلك، أو وجدنا في الكتب حُرْمتها، فبهتوا في ذلك وضجروا ، فإنه لم يكن واحدٌ من هذه فلم يبقى إلا أنكم تختلقون ذلك اختلاقاً من عند أنفسكم ، فبين أنهم فعلوا ذلك كذباً على الله حيث قال : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ليعلم أن هذا إذا كان في التحريم والتحليل كان الكذب فيقول: فمن أشد ظلمًا لنفسه، وأبعد عن الحق ممن تخرّص على الله قيلَ الكذب، وأضاف إليه تحريم ما لم يحرّم، وتحليل ما لم يحلل ،وهو في الظاهر استفهام، ولكن في الحقيقة إيجاب؛ لأنه لا يحتمل الاستفهام؛ كأنه قال: لا أحد أفحش ظلماً ممن افترى على اللّه كذباً على الإيجاب.

ولما كان يلزم من شرعهم لهذه الأمور إضلال من تبعهم فيها عن الصراط السوي، وكانوا يدعون أنهم أفطن الناس وأعرفهم بدقائق الأمور في بداياتها ونهاياتها وما يلزم عنها، جعل غاية فعلهم مقصوداً لهم تهكماً بهم فقال: ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ليصدّهم عن سبيله ، وليصرف الناس عن حكم الله تعالى بالجهل ؛ لأنه يقصد بالافتراء على اللّه قصد إضلال الناس وإغوائهم﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ

﴿١٤٤﴾ لا يوفّق الله للرشد من افترى على الله ، وقال عليه الزُّور والكذب، وأضاف إليه تحريم ما لم يحرّم، كفراً بالله، وجحوداً لنبوة نبيِّه محمد ﷺ ، فلا يهديهم وقت اختيارهم الكفر والظلم ، ولو افترى أحد فرية على الله تعالى لغير معنى لكان ظلماً عظيماً فكيف إذا قصد بهما إضلال أمة ! .[١]

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. في الآيات دلالة أن الحكم إذا وجب لعلة، فذلك الحكم واجب ما دامت العلة قائمة موجودة، وفيه الأمر بالمقايسة. [٢]

٢. إثبات المناظرة في العلم؛ لأن الله تعالى أمر نبيه عليه السلام بأن يناظرهم، ويبين لهم فساد قولهم. وفيها إثبات القول بالنظر والقياس ، وفي الآيات الكريمة دليل بأن القياس إذا ورد عليه النص بطل القول به. [٣]

٣. إذا ثبت أن من افترى على الله الكذب في تحريم مباح استحقّ هذا الوعيد الشديد فمن افترى على الله الكذب في مسائل التوحيد ومعرفة الذات والصفات والنبوات والملائكة ومباحث المعاد كان وعيده أشد وأشق [٤].

٤. من افترى على الله تعالى جاهلاً بصدور التحريم عنه تعالى مع احتمال الصدور عنه كان أظلم ظالم ، فما ظنك بمن افترى عليه تعالى وهو يعلم أنه لم يصدر عنه[٥].

٥. أن الله سبحانه هو الذي بث الحياة فى هذه الأرض ، ونّوعها هذا التنويع ، وجعلها مناسبة للوظائف التى تتطلبها حياة الناس في الأرض.. فكيف يذهب الناس– فى مواجهة هذه الآيات وهذه الحقائق– إلى تحكيم غير الله فى شأن الزروع والأنعام والأموال؟[٦]

[١] - جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ١٨٨) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٩٩) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٩١) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٩٠) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٣٣١) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٥٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٢) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٩٧)

[٢] - تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٢٩٠)

[٣] - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ١١٤)

[٤] - مراح لبيد لمحمد نووي (١/ ٣٥٢)

[٥] – المرجع السابق (١/ ٣٥٢)

[٦] - في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/ ١٢٢٣)

٦. إن المنهج القرآني يكثر من عرض حقيقة الرزق الذى يختص الله بمنحه للناس، ليتخذ منها برهاناً على ضرورة إفراد الله سبحانه بالحكم فى حياة الناس؛ فإن الخالق الرازق الكافل وحده هو الحقيق بأن تكون له الربوبية والحكم والسلطان وحده.. بلا جدال[١].

٧. في الآيات مواجهة دقيقة يتتبع بها مكامن الأوهام الجاهلية، ليلقي عليها الضوء، ويستعرضها واحداً واحداً، وجزئية جزئية ؛ فيكشف فيها عن السخف الذي لا يمكن تعليله ، ولا الدفاع عنه والذي قد يخجل منه صاحبه نفسه، حين يكشف له في النور ، وحين يرى أن لا سند له فيه من علم ولا هدى ولا كتاب منير .[٢]

٨. الشئون المتعلقة بالدين لا يفتى فيها بالظن، ولا يقضى فيها بالحدس، ولا يشرع فيها بغير سلطان معلوم. [٣]

٩. لا ينبغي أن يكون هناك تحريم بغير أمر من الله مستيقن، وبهذا يرد أمر التشريع كله إلى مصدر واحد.. [٤]

١٠. أن الله تعالى كشف لهم في الآيات عما في معتقداتهم وتصوراتهم وتصرفاتهم من وهن وسخف وهزال، وقد بين لهم أنها لا تقوم على علم ولا بينة ولا أساس. [٥]

١١. إباحة أكل التمر والعنب والرمان والزيتون. [٦]

١٢. جواز الأكل من الثمر قبل جذاذه وإخراج الزكاة منه. [٧]

١٣. حرمة الإسراف في المال بأن ينفقه فيما لا يعنى، أو ينفقه كله ولم يترك لأهله شيئاً. [٨]

١٤. إباحة أكل بهيمة الأنعام وهي ثمانية أزواج، ضأن وماعز، وإبل وبقر وكلها ذكر وأنثى. [٩]

١٥. إبطال تشريع الجاهلية في التحريم والتحليل؛ فالحلال ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله رسوله. [١٠]

---

[١] - المرجع السابق (٣/ ١٢٢٣)

[٢] - المرجع السابق (٣/ ١٢٢٤)

[٣] - المرجع السابق (٣/ ١٢٢٤)

[٤] - المرجع السابق (٣/ ١٢٢٤)

[٥] - المرجع السابق (٣/ ١٢٢٤)

[٦] - أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ١٣١)

[٧] - المرجع السابق (٢/ ١٣١)

[٨] - المرجع السابق (٢/ ١٣١)

[٩] - المرجع السابق (٢/ ١٣١)

[١٠] - المرجع السابق (٢/ ١٣١)

١٦.   المنّة من الله سبحانه علينا، فلو شاء إذ خلقنا ألا يخلق لنا غذاء، وإذ خلقه ألا يكون جميل المنظر طيّب الطّعم، وإذ خلقه كذلك ألا يكون سهل الجني، فلم يكن عليه أن يفعل ذلك في ابتداء الخلق لأنه لا يجب عليه شيء. [١]

١٧.   جواز الجدال والحجاج لإحقاق الحق أو إبطال الباطل[٢]، وإثبات المناظرة في العلم لأن الله تعالى أمر نبيّه عليه الصّلاة والسّلام بأن يناظرهم، ويبيّن لهم فساد قولهم. [٣]

١٨.   إثبات القول بالنظر والقياس، وأنّ القياس إذا ورد به النّص بطل القول به.[٤]

---

(١) - التفسير المنير للزحيلي (٨/ ٧٣)

(٢) - أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ١٣١)

(٣) - التفسير المنير للزحيلي (٨/ ٧٦)

(٤) - المرجع السابق (٨/ ٧٦)

المطلب الثالث : المطعوم المحرّم على المسلمين والمحرّم على اليهود (١٤٥ – ١٤٧)

يقول الله سبحانه تعالى :﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

أولا : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

لما بين فساد طريقة أهل الجاهلية فيما يحل ويحرم من المطعومات أتبعه بالبيان الصحيح في هذا الباب ، فأعلم أن التحريم والتحليل إنما يثبت بالوحي والتنزيل ، فقد يتوجّه سؤالُ سائلٍ من المسلمين عن المحرّمات الثابتة ، إذْ أبطل المحرّمات الباطلة ، وبين فساد طريقة أهل الجاهلية فيما يَحِلُّ ويَحْرُمُ من المطعومات، فخُوطِبَ الرّسولُ ﷺ ببيان المحرّمات في شريعة الإسلام بعد أن خُوطِبَ ببيان ما ليس بمحرّم ممّا حرّمه المشركون بما يَتَقَوَّلونه في أمْر التحريم افتراءٌ بحتٌ في قوله : ﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾[1]

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

أخبر الله تعالى نبيه أن يقول لهؤلاء الذين حرموا ما منَّ به الله عزّ وجلّ على عباده بإنشاء الأنعام لمنافعهم وبإباحتها لهم، ويعترض بالاحتجاج على من حرّمها : ﴿ قُل ﴾ قل يا محمد : إني ﴿ لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ من كتابه وآي تنزيله شيئاً ﴿ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ ﴾ على آكل يأكله مما تذكرون أنه حرمه من هذه الأنعام بزعمكم ، وهنا تنبيه على أنّ التحريم إنما يثبت بوحي الله تعالى وشرعه، لا بهوى الأنفس .

[1] — انظر : تفسير محاسن التأويل (٤ / ٥١١)تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٨ / ١٣٧)التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٣٣١) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٦٨)

ثم ذكر ما حرم فقال : ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً﴾ قد ماتت بغير تذكية ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ منصبَّاً مُسَالاً مُهَرَاقاً ،﴿أَوۡ﴾ إلا أن يكون ﴿لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ نجس في نفسه لا يقبل الذكاة أصلاً .

ولما ذكر المحرم لعينه ذكر المحرم لعارض، فقال مبالغاً في النفي عنه بأن جعله نفس المعنى الذي وقع النهي لأجله:﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أو إلا أن يكون فسقاً، سمى ذلك فسقاً؛ للخروج عن أمر الله تعالى ، وذلك ما ذبحه ذابحٌ من المشركين من عبدة الأوثان لصنمه وآلهته، فذكر عليه اسم وثنه، فإن ذلك الذبح فسقٌ نهى الله عنه وحرّمه، ونهى من آمن به عن أكل ما ذبح كذلك .

وهذا إعلام من الله جل ثناؤه للمشركين الذين جادلوا نبيَّ الله وأصحابه في تحريم الميتة بما جادَلوهم به، أن الذي جادلوهم فيه من ذلك هو الحرام الذي حرّمه الله، وأن الذي زعموا أنّ الله حرمه حلالٌ قد أحلَّه الله، وأنهم كذبة في إضافتهم تحريمه إلى الله ، وبين أن التحريم والتحليل إنما يقبله بالوحي والتنزيل .

ثم ذكر لطفه بهذه الأمة في إباحته لهم في حال الضرورة كل محرم رحمة منه لهم ، وستراً لتقصيرهم فقال : ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ إلى أكلِ ما حرَّم الله من أكل الميتة ، والدم المسفوح ، أو لحم الخنزير، أو ما أهل لغير الله به ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ في أكله إيّاه تلذذاً، لا لضرورة حالة من الجوع، غير قاصد لتحليل ماحرم الله تعالى ﴿وَلَا عَادٖ﴾ في أكله بتجاوزه ما حدَّه الله ، وأباحه له من أكله، وذلك أن يأكل منه ما يدفع عنه الخوف على نفسه بترك أكله من الهلاك، لم يتجاوز ذلك إلى أكثر منه، فلا حرج عليه في أكله ما أكل من ذلك ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ﴾ فيما فعل من ذلك، فالله ساتر عليه بتركه عقوبته عليه، ولو شاء عاقبه عليه ﴿رَّحِيمٞ﴾ بإباحته إياه أكل ذلك عند حاجته إليه، ولو شاء حرّمه عليه ومنعه منه. (١)

ثم بين تعالى طرفاً آخر من رحمته فبين أنه لم يحرم عليهم ما حرمه على اليهود من أشياء أخرى سوى هذه الأربعة فقال :﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا﴾ وحرّمنا على اليهود ﴿كُلَّ ذِي ظُفُرٖ﴾ كل ذي مخلب من الطير ، وكل ذي حافر من الدواب . ﴿وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ﴾ وحرم على اليهود من البقر والغنم شحوم بطونهما ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ﴾ إلا شحوم الجَنْب وما علق بالظهر، أو ما حملت حواياهما، فإنها لم تحرَّم عليهم بل أحللنا ذلك لهم ، وإلا ما اختلط بعظم شحم الألية والجنب، ، فهو لهم أيضاً حلال، فكل شحم سوى ما استثناه الله في كتابه من البقر والغنم،

---

(١) — انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ١٩٠) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٠٠) تفسير السمعاني (٢/ ١٥٢) الكشاف للزمخشري (٢/ ٧٤) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٢٩٩) الفواتح الإلهية للنخجواني (١/ ٢٣٧)

فإنه حُرِّم عليهم ، ثم ذكر سبب هذا التحريم فقال : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡ ﴾ وما حرمناه عليهم من الطيبات كان عقوبة منّا لهم، وجزاء على أعمالهم السيئة، وبغيهم على ربهم، وقتلهم الأنبياء ، وصدهم عن سبيل الله وأخذهم الربا واستحلالهم أموال الناس بالباطل ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ في خبرنا هذا عن هؤلاء اليهود عما حرمنا عليهم من الشحوم ولحوم الأنعام والطير التي ذكرنا أنّا حرمنا عليهم ما كان حلالاً أصلاً ، وصادقون في غير ذلك من أخبارنا عن بغيهم ، وهم الكاذبون في زعمهم أن ذلك إنما حرمه إسرائيل على نفسه، وأنهم إنما حرموه لتحريم إسرائيل إياه على نفسه ، وفي هذا تهديد عظيم لقريش وغيرهم إن هم فعلوا بفعل اليهود ، فسيكون الجزاء من جنس عملهم . (١)

ولقد ذكر لهم ما حُرِّم على المسلمين وما حرِّم على اليهود ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ يا محمد كل من اليهود فيما أخبرناك أنا حرمنا عليهم وحللنا لهم، وكذبك قومك فيما تدعوهم إليه وتأمرهم به ؛ من التصديق، والتوحيد له، والربوبية ﴿ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ ﴾ لأهل طاعته ، وبتأخير العذاب عنهم، لا بترك أصل العذاب، وهو يمهلكم على التكذيب ، ويرحمكم إذا رجعتم عن التكذيب، وصدقتم وعرفتم أنه واحد لا شريك له، يغفر لكم ما كان منكم في حال الكفر، ويكفر عنكم سيئاتكم التي كانت ، ورحمة بمن كان به مؤمناً من عباده ،وغيرهم من خلقه ، وصفة هذه الرحمة أنها ﴿ وَٰسِعَةٖ ﴾ تسع جميع خلقه، المحسنَ والمسيء، لا يعاجل من كفر به بالعقوبة، ولا من عصاه بالنِّقمة، ولا يدع كرامة من آمن به وأطاعه، ولا يحرمه ثواب عمله، رحمة منه بكلا الفريقين، ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ ولكن مع سعة رحمته إلا أن بأسه وسطوته وعذابه إذا أحله عند غضبه على المجرمين فلا يردّه عنهم شيء ، فلا تغتروا بإمهاله فإنه لا يهمل. و"المجرمون" هم الذين أجرَموا فاكتسبوا الذنوب واجترحوا السيئات ، فلا تغترّ برجاء رحمته عن خوف نقمته. (٢)

---

(١) ــ انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ١٩٨) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ٢٠٢) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ١٦٧) الكشاف للزمخشري (٢/ ٧٥) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٧١)

(٢) ــ انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢٠٦) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣٠٤) الوجيز للواحدي (ص: ٣٨٠) تفسير السمعاني (٢/ ١٥٤) الكشاف للزمخشري (٢/ ٧٦) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٨٧)

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. أن الله تعالى ذو رحمة واسعة للمطيعين وذو بأس شديد على المجرمين .[١]

٢. صدق الله تعالى في الإخبار عن التحريم وعلته ؛ لأن أخباره صادرة عن العلم المحيط بكل شيء، ولأن الكذب محال عليه ، لأنه نقص فلا يصدر عنه. [٢]

٣. إصابة الناس بالمحق والشدائد عقاباً لهم على جرائم ارتكبوها، قد تكون رحمة بهم، وقد تكون عبرة وموعظة لغيرهم ؛ لينتهوا عن مثلها، وهذا العقاب من سنن الله المطردة فى الأمم وإن لم يطرد فى الأفراد. [٣]

٤. رحمته- سبحانه- تسع المحسن والمسيء وهو لا يعجل على من استحق العقاب حلماً منه ورحمة، فإن بعضهم قد يتوب إلى الله.. ولكن بأسه شديد لا يرده عن المجرمين إلا حلمه، وما قدره من إمهالهم إلى أجل مرسوم. [٤]

٥. أن الله يحرم بعض عباده من بعض ما كان حلالاً لهم تأديباً لهم ؛ لأنهم ظلموا في أخذ غير حقوقهم .[٥]

٦. الباغي يجب أن يأخذ حظه من الجزاء؛ حتى يفكر ماذا يحقق له البغي من النفع، وماذا يمنع عنه من النفع أيضاً، وحين يقارن بين الاثنين قد يعدل عن بغيه.[٦]

٧. قد يُحْرم العبد بالذنوب من كثير من الطيبات كما حصل لليهود. [٧]

٨. أن الحلال والحرام لابد أن يكونا بطريق الشَّرع فقط ،لا بالهوى أو بالتشهي ، فمَن أحلَّ الحرام أو حرَّم الحلال بِهواه فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً ، وجعلَ إلهه هواه كما قال تبارك وتعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [٨] والله أعلم

---

(١) - مراح لبيد لمحمد نووي (١/ ٣٥٣)

(٢) - تفسير المراغي (٨/ ٥٩)

(٣) - المرجع السابق (٨/ ٦٠)

(٤) - في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/ ١٢٢٦)

(٥) - تفسير الشعراوي (٧/ ٣٩٧٥)

(٦) - المرجع السابق (٧/ ٣٩٧٧)

(٧) - أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ١٣٥)

(٨) الآية (٤٣) من سورة الفرقان .

المطلب الرابع : نسبة المشركين الشرك والتحريم إلى الله تعالى وإقامة الحجة عليهم (١٤٨ – ١٥٠)

يقول الله سبحانه تعالى :

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

أولا : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

لما حكى عن أهل الجاهلية إقدامهم على الحكم في دين الله بغير حجة ولا دليل ، وألزمهم الحجّة وتبيّنوا وتيقنوا باطل ما كانوا عليه من الشرك بالله ، وتحريم ما لم يحرمه الله ؛ وتم ذلك ، علم أن إقدامهم على الأحكام الدينية بغير حجة أصلاً، واقتضى الحال أن يقال: قد بطل بالعقل والنقل جميع ما قالوه في التحريم على وجه أبطل شركهم، فهل بقي لهم مقال؟ فأخبر سبحانه بشبهة يقولونها اعتذاراً عن جهلهم على وجه هو وحده كاف في الدلالة على حقية ما يقوله من الرسالة، فوقع طبق ما قال عن أهل الضلال، وقال مخبراً بما سيقولونه قبل وقوعه دلالة على صدق رسله ، وكذب المشركين فيما يخالفونهم ، وحكى عنهم عذرهم في كل ما يقدمون عليه من الكفريات ، فجاء الموقف التالي منهم الذي ينم عن العناد والكبر والتبرير ، وجاءت مناظرتهم التي ذكرها الله تعالى والشبهة التي تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا؛ حيث قالوا : إن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه، وقالوا : إنه هو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان، أو يحول بيننا وبين الكفر، فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا ذلك – تعالى الله عن ذلك –

.

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

يقول تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾وهم العادلون بالله الأوثان والأصنام من مشركي قريش لما لزمتهم المناقضة ، وانقطع حجاجهم فزعوا عند ذلك إلى هذا القول: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾قالوا احتجازاً من الإذعان للحق بالباطل من الحجة، لما تبين لهم الحق، وعلموا باطل ما كانوا عليه مقيمين من شركهم، وتحريمهم ما كانوا يحرّمون من الحروث والأنعام، على ما قد بيّن تعالى ذكره في الآيات الماضية قبل

ذلك: لو أراد الله منا الإيمان به، وإفراده بالعبادة دون الأوثان والآلهة، وتحليل ما حرم من البحائر والسوائب وغير ذلك من أموالنا، ما جعلنا لله شريكاً، ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ ولا جعل ذلك له آباؤنا من قبلنا، ﴿وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾ من ما نحرمه من هذه الأشياء التي نحن على تحريمها مقيمون ؛ لأنه قادر على أن يحول بيننا وبين ذلك، حتى لا يكون لنا إلى فعل شيء من ذلك سبيل: إما بأن يضطرنا إلى الإيمان وترك الشرك به، وإلى القول بتحليل ما حرمنا ، وإما بأن يلطف بنا بتوفيقه، فنصير إلى الإقرار بوحدانيته، وترك عبادة ما دونه من الأنداد والأصنام، وإلى تحليل ما حرمنا، ولكنه رضي منا ما نحن عليه من عبادة الأوثان والأصنام، واتخاذ الشريك له في العبادة والأنداد، وأراد ما نحرّم من الحروث والأنعام، فلم يَحُلْ بيننا وبين ما نحن عليه من ذلك ، فجعلوا هذا القول حجة في إقامتهم على شركهم ، ولقد حكى الله تعالى مقولتهم في موضع آخر من القرآن حيث يقول تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾[النحل: ٣٥].

ثم جاء الرد الإلهي عليهم حيث قال الله مكذبًا لهم في قيلهم:"إن الله رضي منا ما نحن عليه من الشرك، وتحريم ما نحرّم" ورادّاً عليهم باطلَ ما احتجوا به من حجتهم في ذلك ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ كما كذب هؤلاء المشركون، يا محمد ما جئتهم به من الحق والبيان، كذب من قبلهم من فسقة الأمم الذين طَغَوا على ربهم ما جاءتهم به أنبياؤهم من آيات الله وواضح حججه، وردُّوا عليهم نصائحهم ، وقالوا بنحو هذه الشبهة من ظنهم أن إمهال الله تعالى لهم دليل على رضاه بحالهم ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا﴾ حتى أسخطونا فغضبنا عليهم، فأحللنا بهم بأسنا فذاقوه، فعطبوا بذوقهم إياه، فخابوا وخسروا الدنيا والآخرة ، يقول: وهؤلاء الآخرون مسلوك بهم سبيلهم، إن هم لم ينيبوا فيؤمنوا ويصدقوا بما جئتهم به من عند ربهم.

وبهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء ، وهي حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه، ودمر عليهم، وأذاق المشركين من أليم الانتقام.

وقل لهم :﴿هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ﴾بدعواكم ما تدعون على الله من رضاه بإشراككم في عبادته ما تشركون، وتحريمكم من أموالكم ما تحرمون علمُ يقينٍ من خبر مَنْ يقطع خبره العذر، أو حجة توجب لنا اليقين من العلم ﴿فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآ﴾ فتظهروا ذلك لنا وتبينوه، كما بينا لكم مواضع خطأ قولكم وفعلكم، وتناقض ذلك واستحالته في المعقول والمسموع ، ثم بيّن الله أنهم قالوا ذلك بغير حجة وبيان فقال: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ قل لهم: إن تقولون ما تقولون، أيها المشركون، وتعبدون من الأوثان والأصنام ما

تعبدون، وتحرمون من الحروث والأنعام ما تحرّمون، إلا ظنّاً وحسباناً أنه حق، وأنكم على حق، وهو باطلٌ، وأنتم على باطل ﴿وَإِنْ أَنتُمْ ﴾وما أنتم في ذلك كله ﴿إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ تقدّرون أن الأمر كما تزعمون وتكذبون ، وتتقوّلون الباطل على الله، ظنّاً بغير يقين علم ولا برهان واضح ، لتوهموا ضعفتكم أن لكم حجة .

وهذا من التهكم بهم وتوقيف لهم وتعجيز، فليست لهم حجة ولا بيان على ما يدعون من الأمر والدعاء إلى ذلك، والترك على ما هم عليه من الرضا به. (١)

ولما خبّروا بهذه المقالة فإن كان الأمر كما زعمتم أن ما أنتم عليه بمشيئة الله ، فإن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ بتوقيف المشركين على موضع عجزهم ، بأمره إياه بأن يقول مبيناً مفصحاً بإثبات بطلان أقوالهم وأفعالهم السابق ذكرها ، وأنها لا حقيقة لها ، وانتفى أن يكون لهم حجة، وثبت أن الأمر إنما هو لله، وثبت أنه المختص بالحجة الواضحة، فقال مسبباً عن ذلك: ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد تعظيماً وإجلالاً لله ﴿ فَلِلَّهِ ﴾ الذي حرم عليكم أن تشركوا به شيئاً، وأن تتبعوا خطوات الشيطان في أموالكم من الحروث والأنعام ﴿ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ الحجة الوثيقة التامة الكافية القاهرة ، الظاهرة على كل شيء، الغالبة على خلقه دونكم أيها المشركون التي إذا بلغت كل شبهة أزالتها، وكل غافل نائم نبهته وأيقظته ، وبلغت غاية المتانة والقوة على الإثبات ، ولم تبلغ شيئًا إلا قهرته وغلبته ، وبها يبلغ صاحبها صحة دعواه ، وهي التي تبلغ مراده في ثبوتها على مَنْ احتج بها عليه من خلقه، وقَطْعِ عُذْرِهِ إذا انتهت إليه فيما جُعِلت حجة فيه ، وهي تبيينه أنه الواحد وإرساله الأنبياء بالحجج التي يعجز عنها المخلوقون ، فلا يعذب أحداً ولا يعاقبه إلا لحجة تلزم، لا يعاقب بهوى أو انتقام أو شهوة على ما يعاقب في الشاهد ولا غيره، وما من أحد من الخلائق إلا ولله عليه الحجة البالغة، وهو هذا القرآن وما جاء فيه ، والذي أنزله على رسول اللّه ﷺ آية معجزة وحجة بالغة ، عجز الخلائق عن إتيان مثله، فدل عجزهم عن إتيان مثله على أنه آية من آيات اللّه، وحجة من حجج اللّه تعالى أرسلها إلى نبيه ﷺ .

إضافة إلى أنه جعل في كلية الخلائق والأشياء ما يشهد أن الخلائق والأشياء كلها له شهادة خلقه، وتدل كلية الأشياء على وحدانيته، فهو حجة بالغة.

وكذلك ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾في تحريم الأشياء وتحليلها، ليس لهؤلاءِ الذين يحرمون أشياء لهم في تحريمهم حجة، إنما يحرمون ذلك بهوى أنفسهم، ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فلو شاء ربكم لوفّقكم أجمعين للإجماع على إفراده بالعبادة، والبراءة من الأنداد والآلهة، والدينونة بتحريم ما حرم الله ، وتحليل ما

---

(١) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢٠٨) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٠٢) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣٠٥) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٩٣) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ٢٠٢) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٣٣٤) الكشاف للزمخشري (٢/ ٧٧) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٥٩) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٧٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ١٢٨) التسهيل لابن جزي (١/ ٢٧٩) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٧) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٣١٠) مع تصرف وإضافة من الباحثة

حلله الله، وترك اتباع خطوات الشيطان، وأكرمكم بالهدى لو كنتم أهلاً للإسلام، وغير ذلك من طاعاته، ولكنه لم يشأ ذلك ولم يوفقهم ، فخالف بين خلقه فيما شاء منهم، فمنهم كافر ومنهم مؤمن.

ثم إن تعليقكم دينكم بمشيئة الله يقتضى أن تعلقوا دين من يخالفكم أيضاً بمشيئته، فتوالوهم ولا تعادوهم، وتوافقوهم ولا تخالفوهم؛ لأنّ المشيئة تجمع بين ما أنتم عليه وبين ما هم عليه. (١)

ولما أبطل على الكفار جميع انواع حججهم بين أنه ليس لهم على قولهم شهود البتة فقال : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المفترين على ربهم من عبدة الأوثان، الزاعمين أنّ الله حرم عليهم ما هم محرموه من حروثهم وأنعامهم ﴿ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ﴾ احضروهم وأتوا بهم وقربوهم ، فدعاهم إلى أن يأتوا بالحجة، وقدوتهم في ذلك، واستحضارهم ليلزمهم الحجة ، ويظهر بانقطاعهم ضلالتهم ، وأنه لا متمسك لهم كمن يقلدهم، ولذلك قيد الشهداء بالإضافة ،ووصفهم بما يقتضي العهد بهم ﴿ فَإِن شَهِدُواْ ﴾ فإذا أقاموا الشهادة ﴿ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ فلا تصدقهم فيه ، ولا توافقهم على دينهم ومقالتهم، ولا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم، فإنهم شهدوا بباطل وهم كذبة وشهود زور في شهادتهم بما شهدوا به من ذلك على الله ، وذلك أنهم يعلمون أن التحريم إلى اللّه، ليس إلى أحد من الخلائق، فإن جاءوك بشهداء يشهدون أن الله حَرَّم ما يزعمون أن الله حرمه عليهم ، وافترى لهم أحداً ، وزور شهادة أو خبراً عن نبوة ونحو ذلك ، فتجنب أنت ذلك ، حيث كانت شهادتهم هذه باطلة، ولا يجوز قبول شهادتهم ؛ لأنهم يقولون بأهوائهم .

وإنما نهاه عن الشهادة ؛ لأنه إذا سلم لهم فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم ، وكان واحداً منهم ، وفي تسلميه موافقة لهم في الشهادة الباطلة.

وإنما أمر بإتيان الشهود ؛ ليظهر أن لا شاهد لهم على تحريم ما حرموه ،ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجر، ويظهر للمشهود لهم بانقطاع الشهداء أنهم ليسوا على شيء ؛ لتساوي أقدام الشاهدين والمشهود لهم في أنهم لا يرجعون إلى ما يصح التمسك به ، فهم على محض الهوى لا غير لذلك حذر من اتباعهم فقال : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ ولا تتابعهم على ما هم عليه من التكذيب بوحي الله وتنزيله، في تحريم ما حرم، وتحليل ما أحل لهم، ولكن اتبع ما أوحي إليك من كتاب ربك ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ودل أن ما كانوا يحرمون إنما يحرمون بهواهم، لا بحجة وبرهان ، ولو اتبعوا الدليل لم يكونوا إلا مصدقين بالآيات موحدين لله تعالى ، ووضع المظهر موضع المضمر للدلالة على أن مكذب الآيات متبع الهوى لا غير، وأن متبع الحجة لا يكون إلا مصدقاً بها .

---

(١) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢١١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٠٣) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣٠٧) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٩٣) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ٢٠٢) الكشاف للزمخشري (٢/ ٧٧) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٦٠) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٨٨) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٣١٣) مع تصرف وإضافة من الباحثة

ثم زاد في تقبيح ذلك حيث وصفهم بصفة أخرى ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾ وكانوا ممن ينكرون البعث والنشور ، وزاد في تقبيحهم ﴿ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ بأنهم يساوون المشركون بربهم فيجعلون له شركاء ، فيجعلونها له عِدْلا ، ويتخذونها له ندّاً ويعبدونها من دونه. [1]

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. بيان أن شبه الكفار لو كانت صحيحة لم تحل بهم العقوبة ، ولدفعت عنهم العذاب ؛ لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه ، فعلم أنها حجة فاسدة ، وشبهة كاسدة . [2]

٢. أن الحجة لابد أن تكون مستندة إلى العلم والبرهان ، فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن والخرص الذي لا يغني من الحق شيئاً فإنها باطلة [3].

٣. أن الله تعالى لم يجبر العباد على أفعالهم ، بل جعل أفعالهم تبعاً لاختيارهم ، فإن شاؤوا فعلوا ، وإن شاؤوا كفوا ، وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر ، وأنكر المحسوسات ، فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية ، وإن كان الجميع داخلاً في مشيئة الله تعالى ، ومندرجاً تحت إرادته [4] .

٤. أن الله أعطى كل مخلوق قدرة وإرادة ، يتمكن بها من فعل ما كلف به ، فلا أوجب الله تعالى على أحد ما لا يقدر على فعله ، ولا حرم على أحد ما لا يتمكن على تركه ، فالاحتجاج بعد هذا بالقضاء والقدر ظلم محض وعناد صرف[5] .

٥. أن احتجاج أهل الشرك والمعاصي بالقضاء والقدر ليس مقصوداً ، ويعلمون أنه ليس بحجة ، وإنما المقصود منه دفع الحق ، ويرون أن الحق بمنزلة الصائل ، فهم يدفعونه بكل ما يخطر ببالهم من الكلام وإن كانوا يعتقدونه خطأ . [6]

---

[1] — انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢١٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٠٣) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣٠٩) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٩٣) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ٢٠٢) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٣٣٥) الكشاف للزمخشري (٢/ ٧٧) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٦٠) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٧٦) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٨٨) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٤٦)

[2] – انظر : الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦ / ٢٢٨)

[3] – الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦ / ٢٢٨)

[4] – المرجع السابق (٦ / ٢٢٩)

[5] – المرجع السابق (٦ / ٢٢٩)

[6] – الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦ / ٢٢٩)

٦. لله الحجة الواضحة التي تقطع عذر المحجوج وتزيل الشك عمن نظر فيها وهي إنزال الكتب وإرسال الرسل [١]

٧. إن لله أوامر ونواهي معلومة علماً قطعياً، فلماذا يتركون هذه المعلومات القطعية، ليمضوا وراء الحدس والخرص في واد لا يعلمونه؟ [٢]

٨. فلقد جاء هذا الدين ليحقق واقعاً عملياً تحدده أوامر ونواه واضحة. [٣]

٩. إن طبيعة أي حقيقة هي التي تحدد منهج تناولها، وأسلوب التعبير عنها كذلك[٤].

١٠. أن هذا الدين يسوي بين الشرك العلني الواضح باتخاذ آلهة أخرى مع الله وبين الشرك الآخر الذي يتمثل في مزاولة حق الحكم والتشريع للناس بما لم يأذن به الله[٥].

١١. النصوص حاسمة وصريحة وواضحة في وجوب إفراده- سبحانه- بالحكم في حياة البشر الواقعية، واتخاذ شريعته وحدها قانوناً، وتعبيد الناس له وحده بالشرع النافذ والحكم القاهر. [٦]

١٢. الذي يؤمن بالآخرة، ويوقن أنه ملاق ربه يوم القيامة، لا يمكن أن يعتدي على ألوهية الله، ويدعي لنفسه حقه الذي يتفرد به، وهو حق الحكم المطلق في حياة البشر، ممثل في قضائه وقدره، وفي شريعته وحكمه. [٧]

١٣. تعذيب المكذبين برهان دالّ على صدق الرسل فى دعواهم وبطلان شبهات المشركين المكذبين لهم. [٨]

١٤. لله تعالى الحجة البالغة على ما أراد من إحقاق الحق وإزهاق الباطل بما بينه فى هذه السورة وغيرها من الآيات البينات على أصول العقائد وقواعد التشريع الموافقة للعقول الحكيمة والفطر السليمة وسننه فى الاجتماع البشرى، ولكن لا يهتدى بهذه الآيات إلا المستعدّ للهداية، المحب للحق، الحريص على طلبه، الذي يستمع القول فيتبع أحسنه، دون من أعرض عن النظر فيها استكبارا عنها وحسدا للمبلّغ الذي جاء بها، وجمودا على تقليد الآباء واتباع الرؤساء. [٩]

---

[١] - مراح لبيد لمحمد نووي (١/ ٣٥٤)

[٢] - في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/ ١٢٢٧)

[٣] - المرجع السابق (٣/ ١٢٢٧)

[٤] - المرجع السابق (٣/ ١٢٢٧)

[٥] - المرجع السابق (٣/ ١٢٢٨)

[٦] - المرجع السابق (٣/ ١٢٢٨)

[٧] - المرجع السابق (٣/ ١٢٢٨)

[٨] - تفسير المراغي (٨/ ٦٢)

[٩] - المرجع السابق (٨/ ٦٣)

١٥.	الإنسان قادر على توجيه الطاقة الموهوبة له من الله الصالحة للخير أو الشر ،فاختيار الإنسان إما ان يدخله إلى الإيمان وإما أن يتجه به إلى الكفر.[١]

١٦.	لا حجة إلا في ما قام على أساس العلم الصحيح. [٢]

١٧.	الحكمة في عدم هداية الخلق كلهم مع قدرة الله تعالى على ذلك هو التكليف والابتلاء. [٣]

١٨.	مشروعية الشهادة وحضور الشهود. [٤]

١٩.	عدم إقرار شهادة الباطل وحرمة السكوت عنها. [٥]

٢٠.	حرمة اتباع أصحاب الأهواء الذين كذبوا بآيات الله. [٦]

٢١.	إن اعتذار الكافرين عن كفرهم بما يشبه قول الجبرية: لو شاء الله منا ألا نشرك لم نشرك اعتذار مرفوض لم يقبله الله تعالى لأنه سبحانه أعطاهم عقولا كاملة، وأفهاما وافية، وأقدرهم على الخير والشر، وأزال الموانع بالكلية عنهم، فإن شاؤوا عملوا الخيرات، وإن شاؤوا عملوا المعاصي والمنكرات. [٧]

٢٢.	يكفي في التكليف أن يكون العبد بحيث لو أراد أن يفعل ما أمر به لأمكنه، ولا مانع يمنعه، فهو مستطيع الإيمان، قادر على نبذ الكفر ، ولو كان الإنسان مجبرا على الكفر والمعصية كالريشة في مهب الرياح كما يزعم الجبرية، لما اقتضى العدل الإلهي تكليفه بشيء، وإثابته وعقابه في الآخرة. [٨]

---

[١] - تفسير الشعراوي (٧/ ٣٩٧٩)

[٢] - أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ١٣٧)

[٣] - المرجع السابق (٢/ ١٣٧)

[٤] - المرجع السابق (٢/ ١٣٨)

[٥] - المرجع السابق (٢/ ١٣٧)

[٦] - المرجع السابق (٢/ ١٣٧)

[٧] - التفسير المنير للزحيلي (٨/ ٩١)

[٨] - المرجع السابق (٨/ ٩١)

المبحث الخامس : الاعتصام بالله تعالى والوسائل المعينة على ذلك والجزاء المترتب عليه ويشتمل على ستة مطالب (١٥١ – ١٦٥) :

تناسق المبحث مع المبحث السابق :

بعد بيان ظلمات الشرك التي وقع فيها المشركون ، وقيام حجة الله تعالى عليهم ، وبعد التحذير والتهديدات للمشركين ، ومن تحذير الأمة من سلوك مسلكهم ، قد يتساءل الإنسان ما الطريق إلى بر الأمان ، ما السبيل إلى النور وهي العقيدة وما هي فائدتها ؟ وكيف السبيل إلى تحقيقها وترسيخها ؟!

إن للعقيدة أثر فعال ، يؤثر تأثيراً واضحاً في سلوك الإنسان ، حيث إن الانقياد القلبي والإذعان النفسي هما ما ينشأ عنهما السلوك ، فلقد ربط القرآن الكريم العقيدة بالسلوك برباط وثيق لا ينفصم عراه حتى لا يكون الإيمان مجرد تصديق ذهني ، أو شعور وجداني مفرغاً من محتواه الواقعي العملي .

لقد ركزت الآيات السابقة على معالجة الخلل الفكري والنفسي في الاعتقاد ، وتصويبه ، وذلك عن طريق كشف جذور هذا الخلل ، ثم العمل على اجتثاثها من أصولها ، ومن ثم القيام على تصويبها وبناءها على وجه صحيح مما يؤدي إلى استقامة السلوك الإنساني .

فالطغيان والفساد في ألأرض والتكذيب والكبر والعناد هو انحراف سلوكي ناشيء عن التقليد الأعمى والتعصب بالاعتقاد الجازم داخل القلب أن ما كان عليه الآباء والأجداد هو الحق والصواب ، فينتج عنه أقوال وأفعال ظالمة ، وتخبط وعشوائية ، تخلو من العدل النظام .

وكذلك الاحتكام إلى غير شريعة الله تعالى هو انحراف سلوكي ناشيء عن انحراف فكري عن مفهوم علم الله تعالى وحكمته وخبرته فينشأ عنه انحراف نفسي يتجه بالإنسان إلى النفور من شريعة الله تعالى ، واتباع الأهواء البشرية المتخلفة المتخبطة ، فعالج القرآن هذا بتصحيح مفهوم أحقية الله تعالى بالتشريع والحكم في النفوس .

إن العقيدة الإسلامية حين تبنى بناء صحيحاً ومحكماً في ضوء المنهج القرآني ، فإن آثارها الايجابية في السلوك سرعان ما تتبدى وتظهر إلى حيز الوجود ، لتكون هذه الآثار تجسيداً عملياً للفضائل ، وتعبيراً حياً وواقعياً للمباديء السامية والمثل العليا التي اعتقد بها الإنسان بقلبه – فكراً ووجداناً ، تصديقاً وتسليماً – ، حيث سينقاد الإنسان طواعية إلى عبادة الله وحده وطاعته والاستجابة له ، وتقوى الله عز وجل وخشيته وتوقيره وتعظيمه ، والتي تبعث على اجتناب محارمه ، والاستغناء عن المصادر البشرية القاصرة المحدودة في كل شيء ، بل يلجأ إلى الاحتكام إلى شريعة الله تعالى في التحليل والتحريم فيما رزقه الله تعالى ، وعدم مخالفتها ، وهي التي جاء بها الرسول ﷺ من عند الله تعالى ، ويعتقد اعتقاداً جازماً أن الوحي قد استوفى كل ما تحتاجه البشرية ويحقق كفايتها .

أضف إلى ذلك القيام بعهد الاستخلاف وفق عهد الله وشرطع من عمارة الأرض ، وإصلاحها وعدم الطغيان والفساد فيها ، ويتبع السيئة الحسنة ويصلح سيئاته بالأعمال الصالحة ، والشكر لله تعالى فيما يقدره له من النعم ، واستخدامها في طاعته ومرضاته ، وعدم كفرانها أو الاستعانة بها على معصيته .

فصحة الاعتقاد من التصديق الجازم والتسليم المطلق لمفاهيم العقيدة المنبثقة من الوحي الإلهي ، لها أثر فعال وقوي في تحريك الطاقات والملكات البشرية ، وتوجيهها إلى العمل الصالح النافع المثمر ليتحقق بذلك ما أراده الله تعالى من البشر .

لقد كانت آيات السورة نبراساً مضيئاً ، ينير للإنسان الطريق الصحيح إلى الله تعالى ، وذلك حين يوجهه إلى طريق الهداية ومكارم الأخلاق والفضائل الخلقية السامية الرفيعة ، حين توجه رغائب النفس نحو كل خير ، والأخذ بالأسباب الموصلة إليها ، وتوجه لاجتناب طريق الضلالة وترك الأسباب الموصلة إليها . وتضبط الغرائز والشهوات بما يحفظها من الانفلات والانحلال الخلقي ، وتصوب علاقاته الاجتماعية مع الآخرين وتحميها من نوازع الهوى والطيش ، كل ذلك يعود على الفرد والجماعة الإنسانية بالخير والصلاح والسعادة في الدنيا والآخرة ، فتتحقق الخلافة المثلى في الأرض ، والنهضة بالحياة الإنسانية إعماراً وإصلاحاً ، وهذا ما قررته الآيات التالية ، والتي تم تقسيمها كالتالي :

المطلب الأول : الوصايا العشر والواجب تجاهها (١٥١ – ١٥٣)

المطلب الثاني : الحديث عن القرآن وتهديد المكذبين به (١٥٤ – ١٥٨)

المطلب الثالث : ذم الاختلاف في الدين والتفرق،والجزاء المترتب على الاتفاق والافتراق(١٥٩-١٦٠)

المطلب الرابع : اتباع ملة إبراهيم عليه السلام في التوحيد والعبادة والإخلاص (١٦١ – ١٦٤)

المطلب الخامس : الاستخلاف في الأرض (١٦٥)

المطلب الأول : الوصايا العشر والواجب تجاهها (١٥١ – ١٥٣)

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾

أولا : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

لما أبطل دينهم كله أصولاً وفروعاً في التحريم والإشراك ، وبين فساده بالدلائل النيرة ، ناسب أن يخبرهم بالدين الحق مما حرمه الملك الذي له الخلق والأمر ، فليس التحريم لأحد غيره ، فانتقل من إبطال تحريم ما ادّعوا تحريمه من لحوم الأنعام ، إلى دعوتهم لمعرفة المحرّمات ، التي عِلْمُها حقّ ، وهو أحقّ بأنْ يعلموه ممّا اختلقوا من افترائهم وموّهوا بجدلهم ، والمناسبة لهذا الانتقال ظاهرة فالمقام مقامُ تعليم وإرشاد ، ولذلك ابتدئ بأمر الرّسول عليه الصّلاة والسّلام بفعل القول استرعاء للأسماع كما تقدّم آنفاً [١]

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

يقول تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا ﴾ وأقبلوا أيها القوم ﴿ أَتْلُ ﴾ أقرأ ﴿ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ ما حرم ربكم حقاً يقيناً، وأبين لكم ما حرم بحجة وبرهان، لا تخرُّصَكم الباطل والكذبَ والفريةَ ظنّاً على الله تعالى ، ولكن وحياً من الله أوحاه إليّ وتنزيلاً أنزله علي ، بأن ما حرمتم أنتم حرمتم تقليداً منكم لآبائكم، أو حرمتم بهوى أنفسكم، لا حرمتم بأمر أو حجة وبرهان ، حيث أنزل عليّ: ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ أن لا تشركوا بالله شيئاً من خلقه، ولا تعدلوا به الأوثان والأصنام، ولا تعبدوا شيئاً سواه ، فهم إذا حرموا ما أحل الله فقد جعلوا غير الله – في القبول منه – بمنزلة الله جل وعز فصاروا بذلك مشركين.

[١] – تفسير نظم الدرر (٢ / ٧٤٠) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٨ / ١٥٥)

والشرك حرام بالعقل، ويلزم كل من عقل التوحيد ومعرفة الرب؛ لما كان منه من تركيب الصور وتقويمها بأحسن صور ، وهم يرون ويعرفون أنه لم يصورها أحد سواه، ولا يشركه آخر في ذلك، وما كان منه إليكم من أنواع الإحسان والأيادي، فكيف تشركون غيره في ألوهيته وربوبيته؟! فذلك حرام بالعقل والسمع.

ثم قال : ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وأوصى بالوالدين إحساناً ،والإحسان تأدية حقوقهما ، ومجانبة عقوقهما ، والمحافظة على برهما ، فإنكم تعرفون بالعقل أن الإحسان إلى الوالدين واجب، والإساءة إليهما حرام عليكم، ولم يكن منهما إليكم من الإحسان أكثر ممّا كان من اللّه إليكم، فكيف تختارون الإساءة إلى اللّه والإشراك في عبادته غيره، ولا تختارون الإساءة إلى الوالدين؟! بل تختارون الإحسان إليهما ، وإنما ثنى بهذا التكليف ؛ لأن أعظم أنواع النعم على الإنسان نعمة الله تعالى ويتلوها نعمة الوالدين ؛ لأن المؤثر الحقيقي في وجود الإنسان هو الله سبحانه ، وفي الظاهر هو الأبوان ، ثم نعمهما على الإنسان عظيمة ؛ وهي نعمة التربية والشفقة ، والحفظ عن الضياع والهلاك في وقت الصغر.

ثم قال : ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ ولا تئدوا أولادكم ، فتقتلوهم من خشية الفقر على أنفسكم بنفقاتهم ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فإن الله هو رازقكم وإياهم، ليس عليكم رزقهم، فتخافوا بحياتهم على أنفسكم العجزَ عن أرزاقهم وأقواتهم.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ولا تقربوا الظاهرَ من الأشياء المحرّمة عليكم، التي هي علانية بينكم لا تناكرون ركوبها، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ والباطنَ منها الذي تأتونه سرّاً في خفاء لا تجاهرون به، فإن كل ذلك حرام ، وفي قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ دقيقة وهي: أن الإنسان إذا احترز عن المعصية في الظاهر ، ولم يحترز عنها في الباطن دل ذلك على أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته ، ولكن لأجل الخوف من مذمة الناس وذلك باطل ؛ لأن من كان مذمة الناس عنده أعظم وقعاً من عقاب الله ونحوه فإنه يخشى عليه من الكفر ، ومن ترك المعصية ظاهراً وباطناً دل ذلك على أنه إنما تركها تعظيماً لأمر الله تعالى ، وخوفاً من عذابه ورغبة في عبوديته.

ثم قال : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ يعني بالنفس التي حرم الله قتلها، نفسَ مؤمن أو مُعاهد وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ يعني بما أباح قتلها به ، من أن تقتل نفساً فتقتل قَوَداً بها، أو تزني وهي محصنة فترجم، أو ترتدَّ عن دينها الحقِّ فتقتل ، وهي داخلة ضمن ماذكر قبلها فذلك"الحق" الذي أباح الله جل ثناؤه قتل النفس التي حرم على المؤمنين قتلها به ، يقول ﷺ : (لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا

إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك للجماعة)[١] .

ثم إنه تعالى لما بين أحوال هذه الأقسام الخمسة أتبعه باللفظ الذي يقرب إلى القلب القبول فقال:﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ ﴾ أي بحفظه ؛ لما في هذه اللفظة من اللطف والرأفة ، وكل ذلك ليكون المكلف أقرب إلى القبول .

ويعني بهذه الأمور التي عهد إلينا فيها ربُّنا أن لا نأتيه وأن لا ندعه، هي الأمور التي وصَّانا والكافرين بها أن نعمل جميعًا به ، ثم أتبعه بقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي وصاكم بذلك ؛ لتعقلوا عظم ما وصاكم به ربكم ، وفوائد هذه التكاليف ومنافعها في الدين والدنيا، وأنه لم يحرم إلا ما ذكر ، ولم يحرم ما حرمتم ، فتعملون عمل من يعقل وهو ترك ما أوجب العقاب من هذه المحرمات. [٢]

ولما ذكر تعالى في الآية الأولى خمسة أنواع من التكاليف وهي أمور ظاهرة جلية لا حاجة فيها إلى الفكر والاجتهاد ، ذكر تعالى في هذه الآية أربعة أنواع من التكاليف وهي أمور خفية يحتاج المرء العاقل في معرفته بمقدارها إلى التفكر والتأمل والاجتهاد.

فذكر المال عديل الروح من حيث إنه لا قوام لها إلا به، فابتدأ الآية التي تليها بالأموال، ولما كان أعظمها خطراً وحرمة مال اليتيم لضعفه وقلة ناصره، ابتدأ به فنهي عن قربه فضلاً عن أكله أو شربه فقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ إلا بما فيه صلاحه وتثميره،بالحفظ والتعاهد له، فيقرب ماله بطلب الزيادة له والنماء وذلك ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ فإذا بلغ أشده فادفعوه إليه، وبلوغ أشده أن يؤنس منه الرشد مع أن يكون بالغاً ، ويبلغ الوقت الذي يتولى أموره؛ وكلمة "الأشد"وقعت هنا مطلقة حتى تشمل قوته في البدن، والمعرفة بالتجربة .

وإنما خص مال اليتيم بالذكر وإن كان مال غيره في التحريم بمثابته ؛ لأن الطمع فيه لقلة مراعيه أقوى ، فكان بالذكر أولى ، وخص اليتيم بهذا الشرط لغفلة الناس عنه .

﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ وأمر أن يوفوا لهم الكيل والميزان، ونهاهم ألا يوفوا لهم على ما نهاهم عن قربان مالهم إلا بالتي هي أحسن، وهذا على وجه خاص ، والعام منه بأن لا تبخسوا الناس الكيلَ

---

(١) – أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ،كتاب الديات ، باب قول الله تعالى: {أن النفس بالنفس .. الآية} [المائدة: ٤٥] عن عبد الله بن مسعود (٩/ ٥) برقم : (٦٨٧٨)

(٢) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢١٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٠٤) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣١٠) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ٢٠٣) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢٢٣٩) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٨٥) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٨٧) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٦١) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٧٨) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٨٩) مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٥٤٧) التسهيل لابن جزي (١/ ٢٨٠) مع تصرف وإضافة من الباحثة

إذا كلتموهم، والوزنَ إذا وزنتموهم، ولكن أوفوهم حقوقهم، وإيفاؤهم ذلك؛ إعطاؤهم حقوقهم تامة ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ يعني بالسوية وبالعدل، ثم بين إيفاء الكيل والوزن كيف يكون إلى جانب كونه بالقسط فقال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ إلا ما يسعها فيحلّ لها ولا تحرَجُ فيه ، وذلك أن الله جل ثناؤه، علم من عباده أن كثيراً منهم تَضيق نفسه عن أن تطيب لغيره بما لا يجبُ عليها له، فأمر المعطي بإيفاء رب الحق حقَّه الذي هو له، ولم يكلِّفه الزيادة ؛ لما في الزيادة عليه من ضيق نفسه بها. وأمر الذي له الحق، بأخذ حقه، ولم يكلفه الرضا بأقل منه ؛ لما في النقصان عنه من ضيق نفسه ، فلم يكلف نفساً منهما إلا ما لا حرج فيه ولا ضيق، فأمر الله المعطي بإيفاء ذي الحق حقه من غير نقصان وأمر صاحب الحق بأخذ حقه من غير طلب الزيادة فلذلك قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾

ثم ثلث بالعدل في القول ؛ لأنه الحكم على الأموال وغيرها فقال : ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾ وإذا حكمتم بين الناس وشهدتم فتكلمتم فقولوا الحق بينهم، واعدلوا وأنصفوا ولا تجوروا، ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ ولو كان الذي يتوجه الحق عليه والحكم ذا قرابة لكم، ولا تحملنكم قرابة قريب أو صداقة صديق حكمتم بينه وبين غيره، أن تقولوا غير الحق فيما احتكم إليكم فيه ، وأمكن أن يكون هذا في اليتامى أيضاً، أي: إذا قلتم قولاً لليتامى، فاعدلوا في ذلك القول، وإن كان ذا قربى منكم ، والقول أحق أن يحفظ فيه العدالة من الفعل؛ لأنه به تظهر الحكمة من السفه، والحق من الباطل؛ فهو أولى ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْ﴾ وبوصية الله التي أوصاكم بها في هذه المواضع وغيرها فأوفوا، وإيفاء ذلك يكون بملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع ؛ بأن يطيعوه فيما أمرهم به ونهاهم عنه ، وأن يعملوا بكتابه وسنة رسوله ﷺ ، وذلك هو الوفاء بعهد الله ، وأضاف ذلك العهد إلى الله تعالى من حيث قد أمر بحفظه ، والوفاء به .

ثم يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : قل للعادلين بالله الأوثان والأصنام من قومك:﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ هذه الأمور التي ذكرت لكم في هاتين الآيتين ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ هي الأشياء التي عهد إلينا ربنا، ووصاكم بها ربكم، وأمركم بالعمل بها لا بالبحائر، والسوائب، والوصائل، والحام، وقتل الأولاد، ووأد البنات، واتباع خطوات الشيطان ، كل ذلك ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ لتتذكروا عواقب أمركم، وخطأ ما أنتم عليه مقيمون، فتنزجروا عنها، وترتدعوا وتُنيبوا إلى طاعة ربكم ، وتأخذوا بها .(١)

---

(١) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢٢١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٠٥) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣١٦) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٨٧) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٣٣٨) الكشاف للزمخشري (٢/ ٧٩) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٦٣) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٣/ ١٧٩) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ١٣٤) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٨٩) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٣١٨) مع تصرف وإضافة من الباحثة

ولما بين في الآيتين المتقدمين ما وصى به أجمل في آخره إجمالاً يقتضي دخول ما تقدم فيه ، ودخول سائر الشريعة فيه ، وكل ما بينه الرسول ﷺ من دين الإسلام وهو المنهج القويم فقال : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾ وهذا الذي وصاكم به ربكم، أيها الناس، في هاتين الآيتين من قوله:﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ وأمركم بالوفاء به، وما ذكر في السورة بأسرها في إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة. هو"صراطه" يعني: طريقه ودينه الذي ارتضاه لعباده ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ قويماً لا اعوجاج به عن الحق .

والصراط هو الطريق ؛ لأنه يؤدي إلى الجنة فصار طريقاً إليها ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ فاعملوا به، واجعلوه لأنفسكم منهاجاً تسلكونه، واتبعوا جملته وتفصيله في الحذر من الضلالات ؛ لأن الرسل يدعون إلى ما يدعون بالحجج والبراهين ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ ولا تسلكوا طريقاً سواه، ولا تركبوا منهجاً غيره، ولا تعدلوا عنه ولا تبغوا ديناً خلافه ؛ من اليهودية والنصرانية والمجوسية وعبادة الأوثان، وغير ذلك من الملل والأديان المختلفة أو الطرق التابعة للهوى، فإنها بدع وضلالات ، وإن مقتضى الحجة واحد ومقتضى الهوى متعدد ؛ لاختلاف الطبائع والعادات ،﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فتضلِّكم ، وتزيلكم ، وتشتت بكم عن صراط الله المستقيم وعن طريقه ودينه الذي شرعه لكم وارتضاه، وهو الإسلام الذي وصّى به الأنبياء، وأمر به الأمم قبلكم ، وذلك إن اتبعتم السبل المحدثة التي ليست لله بسبل .

فأمر – عَزَّ وَجَلَّ – باتباع ما ذكر من الصراط المستقيم، ونهى عن اتباع السبل؛ لأن غيره من الأديان المختلفة والأهواء المتشتتة لا حجة عليها ولا برهان، وما ذكر من الصراط المستقيم هو دين بحجة وبرهان، لا كغيره من الأديان، وإن كان يدعي كلٌّ مِنْ ذلك أن الذي هو عليه دين اللّه وسبيله .

ثم قال : ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ هذا الذي وصاكم به ربكم في الكتاب ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تجتنبون المعاصي والضلالات والأهواء المختلفة ، ولتتقوا الله في أنفسكم فلا تهلكوها بالتفرق عن الحق ، وتحذروا ربكم فيها ، فلا تسخطوه عليها، فيحل بكم نقمته وعذابه .

وفي الحديث : خط لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً، – وخطه لنا عاصم – فقال: (هذا سبيل الله)، ثم خط خطوطاً عن يمين الخط – وعن شماله فقال : (لهذه السُّبُل، وهذه سُبُل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه) ثم تلا هذه الآية [(١)]، وقال ﷺ : (إن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً، على كنفي الصراط داران لهما أبواب مفتحة، على الأبواب سُتور وداعٍ يدعو على رأس الصراط وداع يدعو فوقه (والله يدعو إلى دار السلام

[(١)] – أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين بنحوه ،كتاب التفسير ، تفسير سورة الأنعام (٢/ ٣٤٨) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) والأبواب التي على كنفي الصراط حدود الله فلا يقع أحد في حدود الله حتى يُكشف السِّتر، والذي يدعو من فوقه واعظ ربه) [1].

وذكر في الآية الأولى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لأن التكاليف الخمسة المذكورة في الأولى أمور ظاهرة جلية فوجب تعقلها وتفهمها ، وأما التكاليف الأربعة المذكورة في هذه الآية فأمور خفية غامضة لا بد فيها من الاجتهاد والفكر حتى يقف على موضع الاعتدال فلهذا السبب قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فإذا عقلوا تفكروا واتعظوا، وعرفوا ما يصلح وما لا يصلح فإنهم يتقوا المحرمات وما لا يصلح الذلك ختمت آخر آيات الوصايا هنا بقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [2]

ومن حيث كانت المحرمات الأول لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله، جاءت العبارة: لعلكم تعقلون، والمحرمات الأخر شهوات، وقد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر، وركوب الجادة الكاملة يتضمن فعل الفضائل، وتلك درجة التقوى [3].

يقول ﷺ : (من يبايعني على هذه الآيات ، ثم قرأ : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حتى ختم الآيات الثلاث، فمن وفى فأجره على الله، ومن انتقص شيئاً أدركه الله بها في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخر إلى الآخرة، كان أمره إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له) [4]

---

(1) - أخرجه الإمام الترمذي في سننه ، أبواب الأمثال ، باب ما جاء في مثل الله لعباده (٤/ ٤٤١) برقم : (٢٨٥٩) وقال : هذا حديث حسن غريب.

(2) — انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢٢٨) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣١٨) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٩٥) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٨٨) الكشاف للزمخشري (٢/ ٨٠) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٩٣) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٤/ ١٨٥) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٨٩)

(3) - الجواهر الحسان للثعالبي (٢/ ٥٣٠)

(4) - أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الأنعام ، عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - (٢/ ٣٤٨) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. خوف الفقر قرينة الكفر، وحسن الثقة بالرب سبحانه نتيجة الإيمان.[١]

٢. هذه الآيات أمر من الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام بأن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرم الله، وهكذا يجب على من بعده من العلماء أن يبلغوا الناس ، ويبينوا لهم ما حرم الله عليهم مما حل.[٢]

٣. جاءت هذه الآيات لبيان المحرمات من الأقوال والأفعال ، حتى يُحَصِّنَ الإنسانُ نفسَه مِمّا دخل في جوفه وهي المطعومات ، ومِمّا خرج منه وهي الأقوال والأفعال ، فالمسلم كما يجب عليه الحرص على سلامة مَطْعَمِهِ ، فكذلك يجب عليه الحرص على أفعاله وأقواله ؛ لأن سلامة المطعم سبب من أسباب استجابة الدعاء ، فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [يا أيها الناس ! إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ ﴾ [المؤمنون: ٥١]وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ ﴾[البقرة: ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر. أشعث أغْبَر. يَمُدّ يديه إلى السماء : يا ربِّ ! يا ربِّ ! ومطعمه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِيَ بالحرام ، فأنّى يُستجاب لذلك] [٣]والله أعلم

٤. إعلام أهل الأهواء والبدع والشذوذ في الفروع ، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، أنهم عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد [٤].

٥. إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع ، فالواجب عليه أن يعطي كل ذي حق حقه ، وأن يبين ما فيها من الحق والباطل ، ويعتبر قربها من الحق وبعدها منه . [٥]

٦. أن القاضي يجب عليه العدل بين الخصمين ، في لحظه ولفظه . [٦]

---

[١] – الجواهر الحسان للثعالبي (٢/ ٥٢٩)

[٢] – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ١٣١)

[٣] – رواه مسلم ،كتاب : الزكاة ، باب : قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (ص / ٤٢٩) برقم : (١٠١٥)

[٤] – المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٦٤)

[٥] – الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦ / ٢٣٢)

[٦] – الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦ / ٢٣٢)

٧. أن الله تعالى لا يكلف أحداً ما لا يطيق ، وأن من اتقى الله فيما أمر ، وفعل ما يمكنه من ذلك ، فلا حرج عليه فيما سوى ذلك . [١]

٨. أن الله وحده هو الذي له حق التحريم والتشريع، والنبي ﷺ مبلغ عنه بإذنه وقد أرسله بذلك. [٢]

٩. خص التحريم بالذكر مع أن الوصايا أعم ؛ لأن بيان المحرمات يستلزم حل ما عداها. [٣]

١٠. لقد بدأ الله تعالى بأكبر المحرمات وأعظمها وأشدها إفساداً للعقل والفطرة، وهو الشرك بالله، سواء أكان باتخاذ الأنداد له أو الشفعاء المؤثّرين فى إرادته، أو بما يذكّر بهم من صور وتماثيل وأصنام وقبور، أو باتخاذ الأرباب الذين يتحكمون فى التشريع فيحللون ويحرمون .[٤]

١١. يلزم أن يعبد الله وحده بما شرعه على لسان رسوله لا بأهواء أحد من الخلق أمثالكم.[٥]

١٢. كفى دلالة على عظيم عناية الشارع بأمر الوالدين أن قرنه بعبادته وجعله ثانيها فى الوصايا . [٦]

١٣. الوصية أن يعهد إلى إنسان بعمل خير أو ترك شر، ويقرن ذلك بوعظ يرجى تأثيره. [٧]

١٤. في الآيات تعريض بأن ما هم عليه من الشرك وتحريم السوائب وغيرها مما لا تعقل له فائدة، ولا تظهر فيه لذوى العقول الراجحة مصلحة. [٨]

١٥. النهى عن كل تعدّ على مال اليتيم وهضم لحقوقه من الأوصياء وغيرهم حتى يبلغ سن القوة بدنا وعقلا، إذ قد دلت التجارب على أن الحديث العهد بالاحتلام يكون ضعيف الرأى قليل الخبرة بشئون المعاش يخدع كثيرا فى المعاملات. [٩]

١٦. كان الناس فى الجاهلية لا يحترمون إلا القوة، ولا يعرفون الحق إلا للأقوياء، لذا بالغ الشارع فى الوصية بالضعيفين: المرأة، واليتيم. [١٠]

---

[١] – المرجع السابق (٦ / ٢٣٢)

[٢] – تفسير المراغي (٨/ ٦٦)

[٣] – المرجع السابق (٨/ ٦٦)

[٤] – المرجع السابق (٨/ ٦٦)

[٥] – المرجع السابق (٨/ ٦٦)

[٦] – المرجع السابق (٨/ ٦٦)

[٧] – المرجع السابق (٨/ ٦٨)

[٨] – المرجع السابق (٨/ ٦٩)

[٩] – المرجع السابق (٨/ ٦٩)

[١٠] – المرجع السابق (٨/ ٧٠)

١٧. القاعدة الشرعية: أن التكليف إنما يكون بما فى وسع المكلف بلا حرج ولا مشقة عليه، ولو اتبع المسلمون هذه الوصية وعملوا بها لاستقامت أمور معاملاتهم وعظمت الثقة والأمانة بينهم .[١]

١٨. بالعدل تصلح شئون الأمم والأفراد، فهو ركن ركين فى العمران، وأساس فى الأمور الاجتماعية، فلا يحل لمؤمن أن يحابى فيه أحدا لقرابة ولا غيرها، فالعدل كما يكون فى الأفعال كالوزن والكيل يكون فى الأقوال. [٢]

١٩. من آمن برسل من رسله فقد عاهد الله حين الإيمان به أن يمتثل أمره ونهيه، وما شرعه للناس ووصاهم به فهو مما عهده إليهم، وما التزمه الإنسان من عمل البر بنذر أو يمين فهو عهد عاهد عليه ربه .. وكذلك من عاهد السلطان وبايعه على الطاعة فى المعروف، أو عاهد غيره على القيام بعمل مشروع، وجب عليه الوفاء إذا لم يكن من قبيل المعصية. [٣]

٢٠. إن ما جاء في الآيات من الأوامر والنواهي وصى الله به رجاء أن يذكره بعض المكلفين لبعض فى التعليم والتواصي الذي أمر الله به.[٤]

٢١. الصراط المستقيم لا يضل سالكه، ولا يهتدى تاركه، فيتبع وحده، ولا تتبع السبل الأخرى التي تخالفه وهى كثيرة، فتتفرق الأمة عن سبيله، بحيث يذهب كل منهم فى سبيل ضلالة ينتهى بها إلى الهلكة، إذ ليس بعد الحق إلا الضلال...فعلى الأمة أن تتبعه إن كانوا تؤثرون الاستقامة على الاعوجاج ويرجحوا الهدى على الضلال. [٥]

٢٢. جعل الله الصراط المستقيم واحداً، والسبل المخالفة متعددة؛ لأن الحق واحد والباطل وهو ما خالفه كثير، فيشمل الأديان الباطلة سواء أكانت وضعية أو سماوية محرفة أو منسوخة.[٦]

٢٣. نهى الله تعالى عن التفرق فى صراط الحق وسبيله؛ لأن التفرق فى الدين الواحد وجعله مذاهب يتشيع لكل منها شيعة وحزب ينصرونه ويتعصبون له ويخطئون من خالفه ويرمون أتباعه بالجهل والضلال- سبب لإضاعته، إذ كل شيعة تنظر فيما يؤيد مذهبها ويظهرها على مخالفيها، ولا يهمها إثبات الحق وفهم النصوص، والحق لا يكون وقفاً على عالم معين ولا على أتباعه، بل كل باحث يخطىء ويصيب، وذلك ما دل عليه العقل وأثبته الكتاب والسنة والإجماع. [٧]

---

[١] - المرجع السابق (٨/ ٧١)
[٢] - المرجع السابق (٨/ ٧١)
[٣] - المرجع السابق (٨/ ٧٢)
[٤] - المرجع السابق (٨/ ٧٢)
[٥] - المرجع السابق (٨/ ٧٣)
[٦] - المرجع السابق (٨/ ٧٣)
[٧] - المرجع السابق (٨/ ٧٣)

٢٤. لما كان اتباع الصراط المستقيم وعدم التفرق فيه يجمع الكلمة ويعز أهل الحق كان التفرق فيه سبب ضعف المتفرقين وذلهم وضياع حقهم. [١]

٢٥. أن التقوى اسم لكل ما يتقى من الضرر العام والخاص مهما يكن نوعه.[٢]

٢٦. أيها المؤمنون وصاكم ربكم به ليهيئكم لاتقاء كل ما يشقي ويردى في الدنيا والآخرة، ويوصلكم إلى السعادة العظمى والحياة الصالحة. [٣]

٢٧. سعى الإسلام إلى تنقية الضمير من أوشاب الشرك، وتنقية العقل من أوشاب الخرافة، وتنقية المجتمع من تقاليد الجاهلية، وتنقية الحياة من عبودية العباد للعباد. [٤]

٢٨. تقرير وحدة السلطة التي تأمر وتنهى في الناس ، وربط الأوامر والنواهي بهذه السلطة التي تجعل للأمر والنهي وزنه في ضمائر الناس! كذلك تجيء فيه الإشارة إلى التعقل. فالعقل يقتضي أن تكون هذه السلطة وحدها هي التي تعبد الناس لشرعها. [٥]

٢٩. الدلالة على طبيعة هذا الدين، وتسويته بين العقيدة والشريعة، وبين العبادة والمعاملة، في أنها كلها من مقومات هذا الدين، المرتبطة كلها في كيانه الأصيل. [٦]

٣٠. أيها المخاطب أنت تقبل على أوامر الله لتعلوا وترتفع عن حضيض تشريع البشرية؛ فلا تأخذ قوانينك من حضيض تشريع البشر؛ لأن الشرط الواجب في المشرع ألاّ يكون مساويًّا لمن شرَّع له، وألاّ يكون منتفعاً ببعض ما شرَّع، وأن يكون مستوعباً فلا تغيب عنه قضية ولا يغفل عن شيء والمشرع من الخلق لا يشرع إلا بعد اكتمال عقله ونضجه. ولا يقدر أن يمنع نفسه من الانتفاع بالتشريع. [٧]

٣١. الوصية لا تكون إلا للأمور المهمة التي لا تستقيم الحياة إلا بالقيام بها، إنها في أمهات المسائل التي لا يصح أن نغفلها. [٨]

٣٢. من لا يقدر على قرب مال اليتيم بالتي هي أحسن فليبتعد عنه. [٩]

٣٣. الدين الإسلامي يشجع الناس ألا يتركوا السفيه يبدد ماله فتكون خسارة للمجتمع كله، فمادام هو في سفه فانظر إلى المال كأنه مالك، ولتكن أميناً عليه أمانتك على مالك. [١٠]

---

(١) - المرجع السابق (٨/ ٧٤)

(٢) - المرجع السابق (٨/ ٧٤)

(٣) - المرجع السابق (٨/ ٧٤)

(٤) - في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/ ١٢٢٩)

(٥) - المرجع السابق (٣/ ١٢٣٢)

(٦) - المرجع السابق (٣/ ١٢٣٣)

(٧) - تفسير الشعراوي (٧/ ٣٩٨٣)

(٨) - المرجع السابق (٧/ ٣٩٨٨)

(٩) - المرجع السابق (٧/ ٣٩٩٢)

(١٠) - المرجع السابق (٧/ ٣٩٩٣)

٣٤.	أيها المخاطب إذا قلت بالحق أمكنك أن تعدل ميزان حركة الحياة؛ فميزان حركة الحياة لا يختل إلا إن رجح باطل على حق؛ لأنك إذا حكمت لواحد بشيء لا يستحقه فقد أعطيته ما ليس له، وإنك بعملك هذا تجعل المتحرك في الحياة يزهد في الحركة لكن إذا ما حافظت على حركة كل متحرك، وأخذ كل واحد حظه من الحياة بقدر ما يعمل اتزنت كل الأمور، ولم يعد هناك قوم يعيشون على جهد غيرهم وعرق سواهم، إذن فقول العدل هو مناط حركة الحياة الثابتة المستقيمة الرتيبة الرشيدة . [1]

٣٥.	التوصية تخصيص للتشريع؛ لأن التشريع يعم احكاماً كثيرة جدًّا، ولكن الوصية التي يوصي الله بها تكون هي عيون التشريع. [2]

---

[1] - المرجع السابق (٧/ ٣٩٩٦)

[2] - المرجع السابق (٧/ ٣٩٩٨)

المطلب الثاني : الحديث عن القرآن وتهديد المكذبين به (١٥٤ – ١٥٨)

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

أولاً : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

بعد أن ذكر الحجج العقلية على أصول هذا الدين ودحض شبهات المعاندين، وقفى على ذلك بذكر الوصايا العشر وذكر الصراط المستقيم فى الآيات الثلاث التي قبل هذه الآيات ، جاء الحديث في الآيات التالية تكملة للحديث عن صراط الله المستقيم ؛ للإيحاء بأن هذا الصراط ممتد من قبل في رسالات الرسل– عليهم الصلاة والسلام– وشرائعهم ، وأقرب شريعة كانت هي شريعة موسى – عليه السلام – وقد أعطاه الله كتابا فصل فيه كل شيء، وجعله هدى ورحمة لعل قومه يؤمنون بلقاء الله في الآخرة ، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى شريعة موسى مبينة مع شريعة القرآن ليعلم العرب أن ما جاء به النبي ﷺ وما نزل عليه من قرآن هو تكملة للرسالة الإلهية، كما أخبر عن الغاية من إنزال التوراة على موسى عليه السلام لاشتهارها عند مشركي العرب وسماعهم أخبارها، ثم ذكر مكانة القرآن وكونه كتاب هداية، وأمر بوجوب اتباعه، ورد على عذر المشركين بعدم الانقياد له، مما لا يصلح عذراً بعد جعل القرآن مباركا كثير الخير والفضل.

كما نبه هنا إلى مكانة القرآن من الهداية وإلى وجوب اتباعه، وذكر أعذار المشركين بما يعلمون أنها لا تصلح لهم عذراً عند الله، وافتتح هذا التنبيه والتذكير بذكر ما يشبه القرآن فى التشريع ويسير على نهجه فى الهداية، وهو كتاب موسى عليه السلام الذي اشتهر عند مشركى العرب وعرفوا بالسماع خبره[1].

---

[1] – انظر : تفسير المراغي (٨/ ٧٦) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/ ١٢٣٦) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥/ ٢٧٤٤) التفسير المنير للزحيلي (٨/ ١٠٧)

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

يقول تعالى عاطفاً بثم : ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ حيث صح عطفه على ما جاء قبله بثم ، و إن كان الإيتاء قبل التوصية بدهر طويل ؛ لأن هذه التوصية قديمة، لم تزل توصاها كل أمّة على لسان نبيهم، لذلك قل بعد ذلك يا محمد: أن ربك آتى موسى الكتابَ ، فقصَّ ما حرم عليهم وأحلّ ؛ لأن محمدًا ﷺ لا شك أنه بُعث بعد موسى بدهر طويل، وأنه إنما أمر بتلاوة هذه الآيات على مَنْ أمر بتلاوتها عليه بعد بعثته ، ومعلوم أن موسى — عليه السلام – أوتي الكتاب من قبل ، فأمر الله محمداً ﷺ بتلاوة هذه الآيات على مَنْ أمر بتلاوتها عليه ، فذكرت كلمة"ثم" لتأخير الخبر عن الخبر لا لتأخير الواقعة والنزول..

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا ﴾ للنعمة والكرامة عنده ،وأيادينا قِبَله ، وبالحجة والبيان، وتماماً بالحكمة والعلم ، على الذي أحسن موسى في قيامه بأمرنا ونهينا ؛ لأن ذلك أظهرُ معانيه في الكلام، وأن إيتاء موسى كتابه نعمةٌ من الله عليه ومنة عظيمة ، فأخبر جل ثناؤه أنه أنعم بذلك عليه وأكرمه لما سلف له من صالح عمل ، وإحسانه وحُسن طاعته لربِّه في التبليغ ، وقيامه بما كلّفه من شرائع دينه .

﴿ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ وتبييناً ﴿ لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ من أمر الدين الذي أمروا به من شرائع دينه ، ﴿ وَهُدًى ﴾ وهدًى ونعمة لمن اتبعه، وتقويمًا لهم على الطريق المستقيم، وبيانًا لهم سُبُل الرشاد لئلا يقعوا في الضلال والشبهات ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ منا بهم ورأفة ؛ لننجيهم من الضلالة وَعمى الحيرة لمن كان منهم ضالاً ، وليؤمن بلقاء ربه بعد مماته، فيطيع ربه، ويصدِّق بما جاءه به نبيه موسى ﷺ إذا سمع مواعظ الله التي وعظ بها خلقه فيه، فيرتدع عما هو عليه مقيمٌ من الكفر به، فينجو من العذاب والعقاب .

وأما قوله: ﴿ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ليكونوا مؤمنين بالبعث بعد الموت ، وليصدقوا بالثواب والعقاب ، الذي الإيمان به نهاية تصديق الأنبياء صلوات الله عليهم .[1]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ ﴾ وهذا القرآن الكريم الذي ﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ أنزلناه إلى نبينا ورسولنا محمد ﷺ ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ وهو ما يأتي من قبله الخير الكثير ،حيث إن البركة هي التي من تمسك بها أوصلته إلى كل خير ،وعصمته من كل شر، ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ واجعلوه إماماً تتّبعونه،وتعملون بما فيه،أيها الناس ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ﴾ واحذروا الله في أنفسكم، أن تضيعوا العمل بما فيه، وتتعدّوا حدودَه، وتستحلُّوا محارمه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ لترحموا، فتنجوا من عذاب الله، وأليم عقابه ، بواسطة اتباعه وهو العمل بما فيه.[2]

---

(1) — انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢٣٢) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣١٩) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٣٣٩) الكشاف للزمخشري (٢/ ٨٠) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٦٥) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٤/ ١٨٦)

(2) — انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢٣٨) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٠٦) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣٢٠) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٩٠)

وإنما أنزلنا هذا القرآن ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ ﴾ كراهة أن تقولوا ﴿ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا ﴾ إنما أنزل الكتاب على أهل التوراة وأهل الإنجيل دوننا ، فأنزلناه لتنقطع حجتهم، وإن كانت الحجة لله عز وجل ؛ لأن الكتب التي أنزلت قبل النبي ﷺ قد كانت فيها الحجة، ولم يكن الله عز وجل ليترك خلقه سدى بغير حجة، ولكن في تنزيل الكتاب والنبي ﷺ غاية الحجة، والزيادة في الإبانة ، ﴿ وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ ﴾ وقد كنا عن تلاوة الطائفتين للكتاب الذي أنزلت عليهم ﴿ لَغَٰفِلِينَ ﴾ لا ندري ما هي، ولا نعلم ما يقرؤون وما يقولون، وما أنزل إليهم في كتابهم؛ لأنهم كانوا أهله دوننا، ولم نعن به ولم نؤمر بما فيه، ولا هو بلساننا ، فجعلوا ذلك حجة لهم، فقطع الله بإنزاله القرآنَ على نبيه محمد ﷺ حجتهم تلك.(١)

كذلك أنزل القرآن لئلا يقولوا: ﴿ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ لو أنّا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على هاتين الطائفتين من قبلنا، فأمرنا فيه ونُهينا، وبُيِّن لنا فيه خطأ ما نحن فيه من صوابه ﴿ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ ﴾ لكنا أشدَّ استقامة على طريق الحق، واتباعاً للكتاب، وأحسن عملاً بما فيه، من الطائفتين اللتين أنزل عليهما الكتاب من قبلنا ؛ لأنهم كانوا متميزين بالأذهان وحسن الأفهام، وذلك أنهم يحفظون أشعارهم وأخبارهم وآثارهم، وهم أميون لا يكتبون ، فيقول الله لهم مقيماً الحجة عليهم : ﴿ فَقَدۡ جَآءَكُم ﴾ فقد جاءكم كتابٌ بلسانكم عربيٌ مبين ﴿ بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ حجة عليكم واضحة بيّنة من ربكم وتقطع الشبهات عنكم ، وهذا تبكيت لهم ، فهو لا يغيب عنكم كما غاب عنكم ما أنزل على الطائفتين من قبلكم، إذ هو بغير لسانكم .

وإنما قال: ﴿ جَآءَكُم ﴾ ولم يقل: "جاءتكم" ؛ لأنه انصرف إلى المعنى يعني: ما فيه من البيان للحلال والحرام ، وقطع الشبهات عنكم ، وليس فقط البيان بل أيضاً ﴿ وَهُدٗى ﴾ لما في القلوب من الضلالة وفُرْقانٌ بين الصواب والخطأ ﴿ وَرَحۡمَةٞ ﴾ من الله بعباده ونعمة لمن تأمل فيه ، واتبعه وعمل بما فيه ، فهو في رحمة من العذاب ، ولما تقرر أن البينة قد جاءت ، والحجة قد قامت حسن بعد ذلك أن يقع التقرير بقوله : ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ ﴾ وأشنع فعلاً وأشدّ عدواناً منكم، أيها المشركون ﴿ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ البينات ، وبحجج الله وأدلته بعد ما عرف صحتها وصدقها ﴿ وَصَدَفَ عَنۡهَا ﴾ حاد وراغ وأعرض عنها بعد ما أتته، فلم يؤمن بها، ولم يصدِّق بحقيقتها.

(١) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢٤١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٠٦) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢٢٤٩) الكشاف للزمخشري (٢/ ٨١)

وأخرج جل ثناؤه الخبر بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مخرج الخبر عن الغائب، والمعنيّ به المخاطبون به من مشركي قريش.

ثم أوعدهم على اعراضهم وعنادهم وتكذيبهم فقال : ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ سيصيب الذين يعرضون عن آياته وحججه ولا يتدبرونها، ولا يتعرفون حقيقتها فيؤمنوا بما دلتهم عليه من توحيد الله، وحقيقة نبوة نبيه، وصدق ما جاءهم به من عند ربهم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ شديد العقاب وقبيحه، وذلك عذاب النار التي أعدَّها الله لكفرة خلقه به ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ يفعل الله ذلك بهم جزاء بما كانوا يعرضون ، ويصدون عن آياته في الدنيا، فلا يقبلون ما جاءهم به نبيهم محمد ﷺ .

ولو كان لهم العذر والاحتجاج بهذا، لكان للعجم الاحتجاج والعذر في ترك اتباع القرآن؛ لما لم ينزل بلسان العجم، ولم يعرفوا هم لسانهم، أعني: لسان العرب، ثم لم يكن للعجم الاحتجاج بذلك؛ لما جعل لهم سبيل الوصول إلى معرفته؛ فعلى ذلك لا عذر للعرب في ترك اتباع ما في الكتب التي أنزلت بغير لسانهم؛ لما في وسعهم الوصول إلى معرفتها، والتعلم منهم، والأخذ عنهم .[١]

ولما بين أنه إنما أنزل الكتاب إزالة للعذر وإزاحة للعلة وإقامة للحجة ، وبين أنهم لا يؤمنون ألبتة ، وشرح أحوالا توجب اليأس عن دخولهم في الإيمان ، أخبر إن لم يؤمنوا فماذا ينتظرون ؟!

هل ينتظر هؤلاء العادلون بربهم الأوثان والأصنام ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بالموت فتقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ يا محمد بين خلقه في موقف القيامة ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ طلوعُ الشمس من مغربها ، حيث جاء عن النبي ﷺ قوله : (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها)[٢]، وقال ﷺ : (من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها، تاب الله عليه) [٣].

---

[١] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢٤٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٠٧) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣٢٢) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٩٦) الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ٢٠٧) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢٢٥٠) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٣٤٠) الكشاف للزمخشري (٢/ ٨١) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٦٦) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٩٥) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٩٠) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٠)

[٢] – أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب تفسير القرآن ، باب {لا ينفع نفسا إيمانها} [الأنعام: ١٥٨] عن أبي هريرة – رضي الله عنه – : (٦/ ٥٨) برقم : (٤٦٣٦) .

[٣] – أخرجه الإمام أحمد في مسند ، من مسند أبي هريرة – رضي الله عنه – (١٥/ ٦٦) برقم : (٩١٣٠) قال شعيب الأرنؤوط : حديث صحيح، وهذا إسناد قوي .

﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ لا ينفع في ذلك الوقت من كان قبل ذلك مشركاً بالله أن يؤمن بعد مجيء تلك الآية ؛ لأنه ليس بإيمان اختيار في الحقيقة ، إنما هو إيمان دفع العذاب والبأس عن أنفسهم .

﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ وهو المسلم الذي يعمل في إيمانه خيراً كان لم يعمل عمله قبل ذلك، فإنه لا يقبل منه بعد ذلك إن عمله . ومن كان يعمل من قبل ذلك فإنه يقبل منه بعد ذلك أيضاً ، أو كانت النفس مؤمنة ولم تكن كسبت خيراً قبل ذلك الوقت لا ينفعها الخير بعد. والخير الذي تكسبه يشمل تأدية الفروض على أكمل أحوالها. والتطوع بالنوافل بعد الفروض.

وإنما كان الأمر كذلك في ذلك الحين ؛ لأنها حالة لا تمتنع نفسٌ من الإقرار بالله، لعظيم الهول الوارد عليهم من أمر الله، ولأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس، وتفتر كل قوة من قوى البدن، فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدنو القيامة في حال من حضره الموت في انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم، وبطلانها من أبدانهم، فمن تاب في مثل هذه الحال لم تقبل توبته، كما لا تقبل توبة من حضره الموت ، فحكم إيمانهم كحكم إيمانهم عند قيام الساعة، وتلك حال لا يمتنع الخلق من الإقرار بوحدانية الله، لمعاينتهم من أهوال ذلك اليوم ما ترتفع معه حاجتهم إلى الفكر والاستدلال والبحث والاعتبار، ولا ينفع مَنْ كان بالله وبرسله مصدِّقاً، ولفرائض الله مضيعاً، غير مكتسب بجوارحه لله طاعة، إذا هي طلعت من مغربها أعمالُه إن عمل، وكسبُه إن اكتسب، لتفريطه الذي سلف قبل طلوعها في ذلك كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر: ٨٤ – ٨٥] وعلى ذلك رُويَ عن رسول الله ﷺ قال: (ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض) (١) .

﴿ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ فانتظروا مع إقامتكم على الكفر أن تأتيكم الملائكة بالموت فتقبض أرواحكم بالموت الذي بعده أشد العذاب ، أو أن يأتي ربكم لفصل القضاء بيننا وبينكم في موقف القيامة، والأخذات المعهودة لله عز وجل، أو أن يأتيكم طلوع الشمس من مغربها، فتطوى صحف الأعمال، وترفع التوبة ويعلم قرب القيامة.

فلا يقبل توبة كافر بالإيمان، ولا توبة فاسق بالرجوع عن الفسق ولا ينفعكم إيمانكم حينئذ إن آمنتم، حتى تعلموا حينئذ المحقَّ منا من المبطل، والمسيءَ من المحسن، والصادقَ من الكاذب، وتتبينوا عند

---

(١) – أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ،كتاب الإيمان ، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان عن أبي هريرة – رضي الله عنه – (١/ ١٣٧) برقم : (٢٤٩)

ذلك بمن يحيق عذاب الله وأليم نكاله، ومَنْ الناجي منا ومنكم ومَنْ الهالك ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ لذلك ؛ ليجزل الله لنا ثوابه على طاعتنا إياه، وإخلاصنا العبادة له، وإفرادناه بالربوبية دون ما سواه، ويفصل بيننا وبينكم بالحق، وهو خير الفاصلين ، وفي هذا وعيد وتهديد. (١)

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. لو بعث الله على كل من لم يؤمن عذابا، لاضطر الناس إلى الإيمان به: وسقط التكليف والجزاء. (٢)

٢. من أحسن فيما آتاه اللَّه، تمت عليه كرامة اللَّه في جنته ورضوانه، ومن لم يحسن فيما آتاه اللَّه، نزع اللَّه ما في يده، ثم أتى اللَّه ولا عذر له. (٣)

٣. بيان أن علم القرآن الكريم أجل العلوم وأبركها وأوسعها ، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم ، هداية تامة لا يحتاج معها إلى تخرص المتكلمين ، ولا إلى أفكار المتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين(٤) .

٤. بيان ما كان عليه الجاهلية قبل نزول القرآن من الجهل العظيم ، وعدم العلم بما عند أهل الكتاب ، الذين عندهم مادة العلم ، وغفلتهم عن دراسة كتبهم . (٥)

٥. الوعيد أكيد لمن سوَّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك. (٦)

٦. في الآيات دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى كالاستواء والنزول والإتيان لله تعالى من غير تشبيه له بصفات المخلوقين . (٧)

٧. أن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه ، فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتنمو إذا كان مع العبد إيمان فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شيء من ذلك . (٨)

---

(١) — انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢٤٥) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣٢٧) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٩٦) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٩١) تفسير السمعاني (٢/ ١٦٠) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٤/ ١٨٨) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ١٤٦)

(٢) – معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٠٨) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٣٤٠)

(٣) – تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣١٩)

(٤) – الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦ / ٢٣٥)

(٥) – الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦ / ٢٣٥)

(٦) – تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٦)

(٧) – الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦ / ٢٣٦)

(٨) – المرجع السابق (٦ / ٢٣٧)

٨.	القرآن الكريم كتاب مبين للحق بالحجج والبراهين فى العقائد والفضائل والآداب وأمهات الأحكام بما به تصلح أمور البشر وشئون الاجتماع، وهو هاد لمن تدبره وتلاه حق تلاوته إذ يجذب ببلاغته وبيانه قلوب الناظرين فيه إلى الحق الذي فصله أتمّ تفصيل، وإلى عمل الخير والصلاح الذي بين فوائده ومنافعه، وهو رحمة عامة لمن يستضيئون بنوره، وتنفذ فيهم شريعته، إذ هم يكونون فى ظلها آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، أحراراً فى عقائدهم وعباداتهم، يعيشون فى بيئة خالية من الفواحش والمنكرات. (١)

٩.	أن إنزال الكتاب إزالة للعذر، وإزاحة للعلة، وقرن هذا الإعذار بالإنذار الشديد والوعيد بسوء العذاب. (٢)

١٠.	وفى الآيات إيماء إلى تماديهم فى تكذيب آيات الله، وعدم اعتدادهم بها وأنه لا أمل فى إيمانهم البتة. (٣)

١١.	أن التكليف يستدعى الإرادة والاختيار بالتمكن من الإيمان والكفر وعمل الخير والشر، وبذا يكون الثواب والعقاب. (٤)

١٢.	إن أردتم أيها الناس أن يتم الله عليكم الحسن والكرامة والنعمة، فلابد أن تعلنوا الإيمان بمحمد ﷺ (٥)

١٣.	حين تقارن القرآن بالتوراة في الحجم تجده أصغر منها ، ولكن لو رأيت البركة التي فيه فستجدها بركة لا تنتهي؛ فكل يوم يعطي القرآن عطاءه الجديد ولا تنقضي عجائبه، ويقرأه واحد فيفهم منه معنى، ويقرأه آخر فيفهم منه معنى جديداً. وهذا دليل على أن قائله حكيم، وضع في الشيء القليل الفائدة الكثيرة، فكل كتاب له زمن محدود وعصر محدود وأمة محدودة، أما القرآن فهو يواجه من يوم أن أنزله الله إلى أن تقوم الساعة قضايا متجددة يضع لها حلولاً. والمهم أن القرآن قد جاء على ميعاد مع طموح البشريات، وحضاراتها وارتقاءاتها في العقول؛ لذلك كان لابد أن يواجه كل هذه المسائل مواجهة تجعل له السبق دائماً ولا يكون ذلك إلا إذا كانت فيه البركة.(٦)

١٤.	القرآن هو الكتاب الذي له من الأوصاف الكثيرة والتي تريح الخلق من عناء التشريع لأنفسهم ويضم كل الخير،(٧)

---

(١) – تفسير المراغي (٨/ ٧٩)

(٢) – المرجع السابق (٨/ ٨٠)

(٣) – المرجع السابق (٨/ ٨١)

(٤) – المرجع السابق (٨/ ٨١)

(٥) – تفسير الشعراوي (٧/ ٤٠٠٦)

(٦) – المرجع السابق (٧/ ٤٠٠٨ – ٤٠٠٩)

(٧) – المرجع السابق (٧/ ٤٠٠٩)

١٥. إثبات صفة الإتيان في عرصات القيامة للرب تبارك وتعالى لفصل القضاء. [١]

١٦. تقرير أشراط الساعة ، ومن هذه الأشراط طلوع الشمس من مغربها، وأنها متى ظهرت أغلق باب التوبة. [٢]

١٧. تعظيم كفر من كذب بآيات الله، ومنع عنها نفسه وغيره من الإيمان بها لأن الأول ضلال، والثاني منع عن الحق وإضلال. [٣]

١٨. لا أمل في إيمان الكفار المعاندين، لتماديهم في تكذيب آيات الله. [٤]

١٩. لا ينفع الإيمان الاضطراري عند رؤية العذاب في الدنيا، أو عند مجيء بعض علامات القيامة. [٥]

---

[١] – أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ١٤٧)

[٢] – الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦ / ٢٣٧)

[٣] – التفسير المنير للزحيلي (٨/ ١١١)

[٤] – المرجع السابق (٨/ ١١٤)

[٥] – المرجع السابق (٨/ ١١٤)

المطلب الثالث : ذم الاختلاف في الدين والتفرق ، والجزاء المترتب على كل من الاتفاق والافتراق (١٥٩ - ١٦٠)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠) ﴾

أولاً : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

الهدف من تثبيت العقيدة التي تحدث عنها في ما سبق من الآيات هو جعل الأمة على عقيدة واحدة قوية صحيحة ، حيث إن التفرق على عدة عقائد يقضي على الوحدة المطلوبة من البشرية .

إن الإسلام أراد أن يبني أمة قوية متماسكة على اساس العقيدة الواحدة الثابتة ، لا على أسس زائفة بالية .

أمة أنشأها وحي الله تعالى ، وتعهدتها تعاليمه وأحكامه الحقة ، وهي الأمة الداعية إلى الاتحاد ، والبعد عن الاختلاف والفرقة ، وكل ما يمزق الجماعة ، أو يفرق الكلمة من العداوة الظاهرة ، أو البغضاء الباطنة ، حيث إنه وبلا شك أن الاختلاف في الدين من أعظم أسباب انحطاط الأمم وتخلفها .

ولهذه الخطورة جاءت الأدلة تترى في كتاب الله تعالى منذرة ومحذرة من الاختلاف ومنبهة إلى أن الاختلاف الذي يؤدي إلى الفرقة ، وشتات كلمة المسلمين ، وبعدهم عن الاجتماع على كلمة الحق يكون بمستوى الشرك الذي يعد أعظم الذنوب عند الله تعالى حيث قال تعالى في موضع آخر من كتابه ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) ﴾ [الروم: ٣٠ - ٣٢] ، منها ما في الآية التي بين أيدينا ، لذا جاءت الآيات التالية لتنهى عن ما يفرقها ، ويباعد بين أفرادها ، ويقضي على مجتمعاتها .

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ ﴾الذي يوصلهم الى التوحيد الإلهي بلا منازعة ولا مخالفة ﴿ وَكَانُواْ شِيَعٗا ﴾

اى صاروا فرقاً وأحزاباً مختلفة متعصبة كما قال صلّى الله عليه وسلّم : (افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة) (١) وبالجملة فإنك ﴿ لَّسۡتَ ﴾أنت يا أكمل الرسل ﴿ مِنۡهُمۡ ﴾ من أمرهم وشأنهم وإصلاحهم ﴿ فِي شَيۡءٍ ﴾ إعلام من الله نبيَّه محمدًا ﷺ أنه من مبتدعة أمته الملحدة في دينه بريء، ومن الأحزاب من مشركي قومه، ومن اليهود والنصارى(٢)، بل ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ ﴾وشأنهم مفوض ﴿ إِلَى ٱللَّهِ ﴾المنتقم الغيور الحكيم حين عرضوا عليه وحشروا نحوه ، فليس بيدك توبتهم ولا عذابهم ولا لهم بك تعلق ، إنما أمرهم في الإمهال والإنظار والجزاء والمكافأة، والاستئصال والإهلاك إلى الله تعالى ، فأنا الذي إليَّ أمر هؤلاء المشركين الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعاً ، والمبتدعة من أمتك الذين ضلوا عن سبيلك، دونك ودون كل أحد، إما بالعقوبة إن أقاموا على ضلالتهم وفُرْقتهم دينهم فأهلكهم بها، وإما بالعفو عنهم بالتوبة عليهم والتفضل مني عليهم ﴿ ثُمَّ ﴾ بعد استيفاء ما ضرب لهم من الآجال ﴿ يُنَبِّئُهُم ﴾ تنبئة عظيمة جليلة مستقصاة بعد أن يحشرهم إليه داخرين ويخبرهم ﴿ بِمَا كَانُواْ ﴾جبلة وطبعاً ﴿ يَفۡعَلُونَ ﴾ أي من تلك الأشياء القبيحة التي كان لهم إليها أتم داعية ، غير متوقفين في إصدارها على علم مع ادعاء التدين بها، وذلك في الآخرة عند ورودهم عليَّ يوم القيامة ، فيجازي كلا منهم بما كانوا في الدنيا يفعلون، المحسنَ منهم بالإحسان، والمسيء بالإساءة.(٣)

(١) – أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ،كتاب العلم ، فصل: في توقير العالم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – (١/ ٢١٧). وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وله شواهد قال الذهبي : على شرط مسلم .

(٢) - وليس في إعلامه ذلك ما يوجب أن يكون نهاه عن قتالهم، لأنه غير محال أن في الكلام:"لست من دين اليهود والنصارى في شيء فقاتلهم. فإن أمرهم إلى الله في أن يتفضل على من شاء منهم فيتوب عليه، ويهلك من أراد إهلاكه منهم كافرًا فيقبض روحه، أو يقتله بيدك على كفره، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون عند مقدَمهم عليه". وإذ كان غير مستحيل اجتماع الأمر بقتالهم، ولم يكن في الآية دليلٌ واضح على أنها منسوخة، ولا ورد بأنها منسوخة عن الرسول خبرٌ كان غير جائز أن يُقْضَى عليها بأنها منسوخة، حتى تقوم حجةٌ موجبةٌ صحةَ القول بذلك، لما قد بينا من أن المنسوخ هو ما لم يجز اجتماعه وناسخه في حال واحدة، في كتابنا كتاب:"اللطيف عن أصول الأحكام".

(٣) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢٦٩) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٠٨) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣٣٢) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٩٨) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٣٤١) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٦٧) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٤/ ١٨٩) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٣٣٦) الفواتح الإلهية للنخجواني (١/ ٢٤٠)

وأضيف الدين إليهم من حيث كان ينبغي أن يلتزموه، إذ هو دين الله الذي ألزمه العباد، فهو دين جميع الناس بهذا الوجه .

ووصفهم «بالشيع» إذ كل طائفة منهم لها فرق واختلافات، حيث تهود بعض وتنصر آخرون، وتمجس بعض ، فالنصارى بعضها يكفر بعضاً وكذلك اليهود، وهم أيضا أهل التوراة، وبعضهم يكفر بعضاً، أعني إليهود تكفر النصارى، والنصارى تكفر إليهود. وذلك هو"التفريق" بعينه، ومصير أهله شيعاً متفرقين غير مجتمعين، فهم لدين الله الحقِّ مفارقون، وله مفرِّقون.

ولقد قال رسول الله ﷺ لعائشة: " يا عائشة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا ﴾ هم أصحاب البدع وأهل الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ".

حيث أخبر الله نبيه ﷺ أنه بريء ممن فارق دينه الحق وفرقه، وكانوا فرقاً فيه وأحزاباً شيعاً، وأنه ليس منهم ولا هم منه ؛ لأن دينه الذي بعثه الله به هو الإسلام، دين إبراهيم الحنيفية، كما قال له ربه وأمره أن يقول: ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ فكان من فارق دينه الذي بعث به ﷺ من مشرك ووثنيّ يهودي ونصرانيّ ومتحنِّف، مبتدع قد ابتدع في الدين ما ضلّ به عن الصراط المستقيم ، والدين القيم ملة إبراهيم المسلم، وهو بريء من محمد ﷺ ، ومحمد ﷺ منه بريء، وهو داخل في عموم قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ ﴾ .

ثم ذكر أنه من جاء يوم القيامة من هؤلاء الذين فارقوا دينهم البافين على فرقتهم ومن تاب منهم ، وغيرهم ممن التزموا دينهم ولم يتفرقوا أنه ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ ﴾فمن وافى ربَّه يوم القيامة في موقف الحساب، من هؤلاء الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعاً، بالتوبة والإيمان والإقلاع عما هو عليه مقيم من ضلالته، وذلك هو الحسنة التي ذكرها الله فقال: من جاء بها ﴿ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا ﴾ أمثال حسنته التي جاء بها ، وإيجاب الجزاء والثواب في الحسنات والخيرات إفضالٌ وإحسان؛ لأنه قد سبق من اللّه تعالى إلى كل أحد من النعم ما يكون منه تلك الخيرات جزاء لما أنعم عليه وشكراً له، ولا جزاء للجازي إلا من جهة الإفضال والإكرام.

﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ ومن وافى يوم القيامة منهم بفراق الدِّين الحقّ والكفر بالله ﴿ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا ﴾ فلا يجزى إلا ما ساءه من الجزاء، كما وافى الله به من عمله السيئ ، وجزاء السيئة مما توجبه الحكمة عليه؛ فيستوجب بالكفران العقوبة والجزاء على ذلك؛ لما خرج الفعل منه مخرج الكفران لما أنعم الله عليه ﴿ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ ولا يظلم الله الفريقين، لا فريق الإحسان، ولا فريق الإساءة، بأن يجازي المحسن بالإساءة والمسيء بالإحسان، ولكنه يجازي كلا الفريقين من الجزاء ما هو له ، لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً ولا

يُزادون على سيئاتهم شيئاً ، وعليه لا ينقص من ثوابهم ولا يزاد على عقابهم. ؛ لأنه جل ثناؤه حكيمٌ لا يضع شيئاً إلا في موضعه الذي يستحق أن يضعه فيه، ولا يجازي أحداً إلا بما يستحقّ من الجزاء. [1]

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. أن كل ضالّ فلدينه مفارق، وقد فرّق الأحزابُ دينَ الله الذي ارتضاه لعباده ، والذي أمروا به ودعا إليه الرسل والأنبياء – صلوات الله عليهم – [2].

٢. أصل الحسنات التوحيد، وأصل السيئات الكفر بالله جل وعز. [3]

٣. الحث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة، وأن لا يتفرقوا في الدين وأن لا يبتدعوا البدع ما استطاعوا[4].

٤. دعوة الله لأهل الإسلام أن يترفعوا عن الاختلاف الذي وقع به غيرهم ، فمزقهم شر ممزق ، ويأخذوا بنعمة الله وإكرامه لهم بالاسلام .

٥. تذكير هذه الأمة بما هى عرضة له بحسب سنن الاجتماع من إضاعة الدين بعد الاهتداء بالتفرق فيه بالمذاهب والآراء والبدع التي تجعلها أحزابا وشيعا تتعصب كل منها لمذهب أو إمام، فيضيع الحق وتنفصم عرا الوحدة وتصبح بعد أخوّة الإيمان أمما متعادية كما حدث لمن قبلهم من الأمم. [5]

٦. وما يمكن أن يختلط هذا الدين بغيره من المعتقدات والتصورات ولا أن تختلط شريعته ونظامه بغيره من المذاهب والأوضاع والنظريات.. وما يمكن أن يكون هناك وصفان اثنان لأي شريعة أو أي وضع أو أي نظام.. إسلامي.. وشيء آخر..!!! إن الإسلام إسلام فحسب. والشريعة الإسلامية شريعة إسلامية فحسب. والنظام الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي الإسلامي إسلامي فحسب. [6]

---

[1] – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢٧٤) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣٣٣) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٩٩) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٣/ ٢٢٥٦) الكشاف للزمخشري (٢/ ٨٣)

[2] – جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢٦٩)

[3] – معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣١٠)

[4] – المرجع السابق (٢/ ٣٠٨)

[5] – تفسير المراغي (٨/ ٨٣)

[6] – في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/ ١٢٣٩)

٧. أن الدين إنما جاء ليجمع لا ليفرق، والدين جاء ليوحد مصدر الأمر والنهي في الأفعال الأساسية فلا يحدث بيننا وبين بعضنا أي خلاف .[١]

٨. براءة الرسول ﷺ ممن فرقوا دينهم وترك الأمر لله يحكم بينهم بحكمه العادل.[٢]

٩. مضاعفة الحسنات، وعدم مضاعفة السيئات عدل من الله ورحمة.[٣]

١٠. إن شرع الله واحد وكل لا يتجزأ، فلا يصح أخذ بعضه، وترك بعضه، وتعطيل حكم أو ادعاء عدم صلاحيته للعصر، فمن اعتقد ذلك فهو كافر.[٤]

---

[١] – تفسير الشعراوي (٧/ ٤٠١٦)

[٢] – أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ١٤٨)

[٣] – المرجع السابق (٢/ ١٤٨)

[٤] – التفسير المنير للزحيلي (٨/ ١١٧)

المطلب الرابع : اتباع ملة إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – في التوحيد والعبادة والإخلاص (١٦١ – ١٦٤)

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

أولا : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

لما علم رسوله أنواع دلائل التوحيد ، والرد على القائلين بالشركاء والأنداد والأضداد ، وبالغ في تقرير إثبات التوحيد وتصحيحه بالأدلة القاطعة ، وتحقيق أمر القضاء والقدر، والرد على أهل الجاهلية في أباطيلهم ، وإبطال جميع أديان الضلال ، ووصفها بتفرق أهلها الدال على بطلانها واعوجاجها ؛ انتقل من مجادلة المشركين ، وما تخلّلها ، إلى فذلكةِ ما أُمر به الرّسول ﷺ في هذا الشّأن بأن الله هداه إلى الدين المستقيم وهو دين إبراهيم – عليه السلام – ، و أمره أن يعلن أصول دينه ، وأن يصف دينه الذي شرعه له وهداه إليه بما فيه من المحاسن ؛ تحبيباً فيه وحثاً عليه ، وتكرّر الأمر بالقول ثلاث مرّات تنويهاً بالمقول ، وغَلقاً لباب المجادلة مع المعرضين ، وإعلاناً بأنّه قد تقلّد لنفسه ما كان يجادلهم فيه ليتقلّدوه ، وأنّه ثابت على ما جاءهم به ، وأنّ إعراضهم لا يزلزله عن الحقّ وكل ذلك من نتيجة هذه السورة .

وفيه إيذان بانتهاء السّورة ؛ لأنّ الواعظ والمناظر إذا أشبع الكلام في غرضه ، ثمّ أخذ يبين ما رَضِيه لِنفسه وما قَرّ عليه قَراره ، عَلّمَ السّامعَ أنّه قد أخذ يطوي سجلّ المحاجّة ، ولذلك غيّرَ الأسلوب ، حيث أمره أن يختم الكلام بهذا التحذير الذي لا شيء أقوم منه ولا أعدل وبالإعلان به ، وأن يصف دينه الذي شرعه له وهداه إليه بما فيه من المحاسن تحبيباً فيه وحثاً عليه ، ولأن ذلك من نتيجة هذه السورة . فقال : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [(١)]

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

لقد أمر الله عز وجل نبيه عليه السلام بالإعلان بشريعته والانتباه من ما سواها من أضاليلهم، ووصف الشريعة بما هي عليه من الحسن والفضل والاستقامة فقال : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم

(١) – مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٤/ ١٩٠) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩ / ١٣٧) نظم الدرر للبقاعي (٢ / ٧٥٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٨ / ١٩٧)

الأوثان والأصنامَ ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى﴾ أرشدني ربي إلى الطريق القويم، ودلّني على الدين الذي هو دين الله الحق الذي ابتعثه به، وعرّفني به وتلك هي الحنيفية المسلمة ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ قائماً مستقيماً ثابتاً بالحجج والبراهين لا عوج فيه ، وهو ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ دين إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ ليناً هيناً سهلاً قابلاً للاستقامة ؛ لكونه ميالاً مع الدليل غير جاف ، ﴿وَمَا كَانَ﴾ إبراهيم – عليه السلام – ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله ؛ لأنه لم يكن ممن يعبد الأصنام.

وأهل الأديان جميعًا يدَّعون أن الذي هم عليه هو دين إبراهيم، فأخبر أن دين إبراهيم هو الدين الذي عليه رسول اللَّه ﷺ لا هم ، فلقد كان حنيفاً خالصاً لله مخلصًا لم يشرك أحداً في ربوبيته ولا في عبادته، على ما فعل أُولَئِكَ الكفرة ، وفي الآية ذكر منَّته بما هداه، والاستسلام إلى شكر ما أنعم عليه. [1]

وكما عرَّفه الدين المستقيم عرَّفه كيف يقوم به ويؤديه ، حيث أمره الله عز وجل أن يعلن لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام، الذين يسألونه أن يتبع أهواءهم على الباطل من عبادة الآلهة والأوثان فقال : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

﴿قُلْ﴾ يا محمد، ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾مقصدي وخضوعي وثنائي وإخلاصي ، وديني وعبادتي وطاعتي من ذلك ذبحي الذي أتقرب به إلى الله ﴿وَمَحْيَاىَ﴾ وطاعتي في حياتي لله بل كل أموري في حياتي ﴿وَمَمَاتِى﴾ ووفاتي وجزائي بعد مماتي من الله ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إنما يتقرب بالصلاة وسائر المناسك كلها إلى الله وحده ، وإرادة وجهه وطلب رضاه خالصاً ، دون ما أشركتم به أيها المشركون، من الأوثان حيث كانوا يذبحون لأصنامهم، ثم بين أنه لا يكفي في العبادات أن يؤتى بها كيف كانت بل يجب أن يؤتى بها مع تمام الإخلاص وأكده بقوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ في شيء من ذلك من خلقه، ولا لشيء منهم فيه نصيب ؛ لأنه لا ينبغي أن يكون ذلك إلا له خالصاً ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ الإخلاص في القول والعمل ﴿أُمِرْتُ﴾ وبذلك أمرني ربي ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وأنا أوّل من أقرَّ وأذعن وخضع من هذه الأمة لربه ، وعمل بالذي أمرت أن أبلغ؛ في جميع أحوال محياي ومماتي ، ومن المعلوم أن إسلام كل نبيّ متقدّم لإسلام أمّته .

وفي الآية دليل من أقوى الدلائل على أن شرط صحة الصلاة أن يؤتى بها مقرونة بالإخلاص.

[1] - جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢٨١) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣٣٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٢/ ٣٦٨) زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٩٧) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٠) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٣٣٧)

وفي إعلان النبي ﷺ بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسي به حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله عز وجل[1] .

ولما أمر محمدا ﷺ بالتوحيد المحض وهو أن يقول: إن صلاتي ونسكي إلى قوله:﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ لا شـــريك له أمره بأن يذكر ما يجري مجرى الدليل على صـــحة هذا التوحيد وتقريره من وجهين فقـال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثـان، الـداعيك إلى عبادة الأصـــنام واتباع خطوات الشيطان باستفهام يقتضي التقرير والتوقيف والتوبيخ ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ أفيحسن عندكم أن أطلب إلهاً وسيداً سوى الله يسودني؟ فأشركه في عبادتي وهو جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم ، ثم بين السبب والعلة في ذلك الأمر ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ وهو سيد كل شـيء دونه ومدبّره ومصـلحه ، وفي كل أحد أثر ربوبيته وألوهيته قائم ظاهر، فهو يربيني ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري، فلا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شـيء ومليكه، وله الخلق والأمر ، وفيما تدعونني إليه أجد آثار العبودية والربوبية لله فيه، فكيف أتخذ ربا سـواه؟! وصـريح العقل يشـهد بأنه لا يجوز جعل المربوب شـريكاً للرب ، وجعل المخلوق شريكاً للخالق ، وكل ما سواه مربوب مثلي لا يصلح للربوبية.

ثم إنه تعالى لما بين بهذا الدليل القاهر القاطع هذا التوحيد بين أنه لا يرجع إليه من كفرهم وشركهم ذم ولا عقاب فقال ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ ولا تجترح نفس إثمًا إلا عليها، ولا يؤخذ بما أتت من معصـية الله تبارك وتعالى، وركبت من الخطيئة سـواها، بل كل ذي إثم فهو المعاقب بإثمه والمأخوذ بذنبه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولا تأثم نفس آثمة بإثم نفس أخرى غيرها، ولكنها تأثم بإثمها، وعليه تعاقب، دون إثم أخرى غيرها.

وإنما يعني بذلك المشـــركين الذين أمرَ الله نبيه ﷺ أن يقول هذا القول لهم أننا لســـنا مأخوذين بآثامكم، وعليكم عقوبة إجرامكم، ولنا جزاء أعمالنا ، وهذا كما أمره الله جل ثناؤه في موضـــع آخر أن يقول لهم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ٦﴾ [سورة الكافرون:٦] ،ثم جاء بتهديد ووعيد حيث بين تعالى أن رجوع هؤلاء المشركين إلى موضع لا حاكم فيه ولا آمر إلا الله تعالى فقال : ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ أيها الناس ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾ ثم إليه مصيركم ومنقلبكم ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ فيعلمكم أن العقاب على الاعوجاج تبيين لموضع لحق ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ بتبيين الرشـــد من الغي ، وتمييز المحق من المبطل في الدنيا من الأديان

---

[1] - جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢٨٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣١١) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣٣٨) تفسير السمعاني (٢/ ١٦١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري (٢/ ٨٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٢/ ٣٦٩) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٤/ ١٩١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢/ ١٩١) .

والملل، إذ كان بعضكم يدين باليهودية، وبعضٌ بالنصرانية، وبعض بالمجوسية، وبعض بعبادة الأصنام وادّعاء الشـــركاء مع الله والأنداد، ثم يجازي جميعَكم بما كان يعمل في الدنيا من خير أو شـــر، فتعلموا حينئذ من المحسنُ منَّا والمسيء ، فاعملوا ما أنتم عاملوه .

ولقد بينت لكم في هذه السورة من أولها إلى آخرها ما ينبغي أن يكون منكم تجاه الله تعالى ، ثم تجاه أنفسكم بأن تنقذوها مما يسبب هلاكها وعذابها . [1]

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. أن هذه الآية جاءت بعدما ذكر تعالى في هذه السورة أصول الدين الصحيح ، وذَكَر ما يَنقُضُ حُجَجَ وشُبَهَ المشـركين وما يُبْطِلُ معتقداتِهم المنحرفة ، فبعد هذا كله جاءت هذه الآية خاتمة لجميع ما ســبق ، وهو أنه ﷺ على دين إبراهيم عليه الســـلام ، وهو الدِّين القيم والصراط المستقيم ، وأنه عليه الصلاة والسلام داعياً لهذا الدين بالقول والعمل .

٢. أن المناظر إذا رأى أنه قد أوصل فكره ودعوته إلى من أراد إيصالها إليهم ، فعليه إنهاء الكلام ؛ لأنه كما قيل : بأن الكلام إذا طال أنسى آخِرُهُ أوّلَهُ ، وعليه أيضاً أن يختم كلامه بأهم ما فيه وهو توحيد الله تعالى – والله أعلم – .

٣. من كان إماما في الضلالة ودعا إليها واتبع عليها فإنه يحمل وزر من أضله من غير أن ينقص من وزر المضل شي. [2]

٤. في إعلان النبي ﷺ بكل ما أمر بقوله ما يلزم المؤمنين التأسي به حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله عز وجل[3].

[1]- جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢٨٥) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣٤٠) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٢/ ٣٧٠) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٤/ ١٩١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢/ ١٩١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٣)

[2] - تفسير القرطبي (٧/ ١٥٨)

[3] - الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي (٢/ ٥٣٥)

المطلب الخامس : الاستخلاف في الأرض (١٦٥)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾

أولا : تناسق هذا المقطع مع المقطع السابق :

لقد أقرت الآيات السابقة ما كان قد ابتليت به الأمة العربية من تخلف شديد ، ووثنية هابطة لا مثيل لها ، وانحرافات خلقية واجتماعية ، وفوضى حياتية ، ومن ثم فقد قل شأنهم ، وصاروا يعيشون على هامش التاريخ ، ولا يتعدون في أحسن الأحوال أن يكونوا تابعين للدولة الفارسية أو الدولة الرومانية ، وقد امتلأت قلوبهم بتعظيم تراث الآباء والأجداد ، واتباع ما كانوا عليه ، والاعتزاز به مهما يكن فيه من زيغ وانحراف وضلال [(١)].

لذا ختم كل ذلك بأنه لو تحققت العقيدة السليمة الصحيحة فإن هذه الأمة ستتولى زمام سيادة الأمم ، وقيادتها نحو بر الأمان ، نحو السعادتين الدنيوية والأخروية .

ثانياً : تفسير الآيات وفق التناسق بين الكلمات والجمل في الآيات :

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد وأمته: ﴿ وَهُوَ ﴾ والله ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ بأن أهلك مَنْ كان قبلكم من القرون والأمم الخالية، واستخلفكم؛ لأن النبي عليه السلام خاتم النبيين، وأمته قد خلفوا جميع الأمم، فجعلكم خلائف منهم في الأرض، تخلفونهم فيها، وتعمرُونها بعدَهم ، بعضهم خلائف بعض في الوجود وفي الأحوال في الحياة، والموت، والغناء، والفقر، والصحة، والسقم، وفي العز، والذل، وفي كل شيء، وفي الصغر، والكبر؛ ليكون لهم في ذلك عبرٌ ، ودليل على معرفة منشئهم وخالقهم؛ لأنه لو أنشأهم جميعاً معاً لم يعرفوا أحوال أنفسهم ، وتغيرهم من حال إلى حال، ولكن أنشأهم واحداً بعد واحد ، وقرناً بعد قرن؛ ليعرفوا أحوال أنفسهم وانتقالهم من حال إلى حال؛ ليكون لهم بمن تقدمهم عبرة في التحذير والترغيب، ويكون لهم بمن تقدمهم قدوة وعبرة .

وإنما كان يحسن أن تسمى أمة محمد عليه السلام بجملتهم خلائف للأمم؛ لأنه ليس لهم من يخلفهم إذ هم آخر الأمم وعليهم قيام الساعة.

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان، وخالف بين أحوالكم، فجعل بعضكم فوق بعض، بأن رفع هذا على هذا، بما بسط لهذا من

---

(١) – منهج القرآن الكريم في تحصين الأمة من الفرقة والاختلاف للصميدعي ، ص : ٢١ .

الرزق ففضّله بما أعطاه من المال والغِنى، على هذا الفقير فيما خوَّله من أسباب الدنيا، وهذا على هذا بما أعطاه من الأيْد والقوة على هذا الضعيف الواهن القُوى، فخالف بينهم بأن رفع من درجة هذا على درجة هذا، وخفض من درجة هذا عن درجة هذا ، وله الحكمة في ذلك .

وإنما فعل ذلك ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ليختبر شكركم على ما أعطاكم ، وفيما خوَّلكم من فضله، ومنحكم من رزقه، ويختبر أعمالكم فيما مكنكم فيه ، فيعلم المطيع له منكم فيما أمره به ونهاه عنه، والعاصي ، ومن المؤدِّي مما آتاه الحق الذي أمره بأدائه منه، والمفرِّط في أدائه.

وليبتلي الموسر بالغِنَى ويطلب منه الشكر، ويبتلي المعْسِر بالفاقة ويطلب منه الصبر ، وهو جل ثناؤه عالم بما يكون منهم قبل ذلك، إلا أنه اختبرهم ليظهر منهم ما يكون عليه الثواب والعقاب.

والابتلاء من اللَّه تعالى على وجهين: إما أمراً بالشكر على ما أنعم ، أو صبراً على ما ابتلاه بالشدائد، والابتلاء منه هو ما بين السبيلين جميعاً ؛ سبيل الحق وسبيل الباطل، وبين أن كل سبيل إلى ماذا أفضاه لو سلكه، فلو سلك سبيل الحق أفضاه إلى النعم الباقية والسرور الدائم، وإن سلك سبيل الباطل أفضاه إلى عذاب شديد وحزن دائم.

وإنما أخبر عز وجل بهذا ليفسح للناس ميدان العمل ، وليحضهم على الاستباق إلى الخير ، ثم توعد ووعد تخويفاً منه وترجية فقال : ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن أسخطه بارتكابه معاصيه، وخلافه أمره فيما أمره به ونهاه، ولمن ابتلى منه فيما منحه من فضله وطَوْله، تولِّياً وإدباراً عنه، مع إنعامه عليه، وتمكينه إياه في الأرض، كما فعل بالقرون السالفة .

وحسن أن يوصف عقاب الآخرة بـ﴿سَرِيعُ﴾ لما كان متحققاً مضمون الإتيان والوقوع، فكل آت يحكم عليه بالقرب ويوصف به ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ﴾ وإنه لساتر ذنوبَ مَنْ ابتلى منه إقبالاً إليه بالطاعة عند ابتلائه إياه بنعمة، واختباره إياه بأمره ونهيه، فمغطٍّ عليه فيها، وتارك فضيحته بها في موقف الحساب ﴿رَّحِيمٌ﴾ بتركه عقوبته على سالف ذنوبه التي سلفت بينه وبينه، إذ تاب وأناب إليه قبل لقائه ومصيره إليه.

ووصف العقاب ولم يضفه إلى نفسه، ووصف ذاته بالمغفرة وضم إليه الوصف بالرحمة، وأتى ببناء المبالغة واللام المؤكدة تنبيهاً على أنه تعالى غفور بالذات معاقب بالعرض ، كثير الرحمة مبالغ فيها ،كثير العقوبة مسامح فيها.

ولقد جمع بين ما يقتضي الرهبة من سرعة العقاب وبين ما يقتضي الرغبة من الغفران والرحمة؛ لأن الجمع بين الرغبة والرهبة أبلغ في الإنقياد إلى الطاعة والإقلاع عن المعصية ، وهذا في كتاب الله كثير ليبين لطف الله تعالى بعباده – والله عز وجل أعلم – . (١)

---

(١) – انظر : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/ ٢٨٧) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣١٢) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣٤٢) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٥٠١) النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٩٧) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٧١) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٩٢) التسهيل لابن جزي (١/ ٢٨٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٤) مع تصرف وإضافة من الباحثة

ثالثاً : أهم ما ترشد إليه الآيات من هدايات :

١. أهمية دراسة علم التاريخ و علوم من سبق ، والإطلاع على كل ما حل بهم ، وما حصل لهم ، وأن ذلك يسهم مساهمة في استغلال الحاضر لبناء مستقبل زاهر ، يرفع من قدر الأمة ؛ لتكون أمة الخلافة على الأرض ، مطبقة لأحكام الله ؛ لترتقي بجميع الأمم حسياً ومعنوياً.

٢. التأديب لهذه الأمة والتذكير بالإنعام عليهم بالاستخلاف .[١]

٣. قد جرت سنته فى أن سعادة الناس أفراداً وجماعات فى الدنيا والآخرة أو شقاءهم فيهما تابعة لأعمالهم وتصرفاتهم.[٢]

٤. ابتلاء الناس بعضهم ببعض، ليتنافسوا فى العلوم والأعمال النافعة، وإعلاء كلمة الحق والدين ورفعة شأنه وإعزاز أهله. [٣]

٥. من متطلبات الخلافة أننا لا نكون متماثلين متطابقين، حيث أراد سبحانه أن نكون متكاملين في المواهب، وفي الكماليات؛ لأن الناس لو كانوا صورة مكررة في المواهب، لفسدت الحياة، فلابد أن تختلف مواهبنا، لأن مطلوبات الحياة متعددة [٤]

٦. تفاوت الناس في الغنى والفقر والصحة والمرض، والبر والفجور وفي كل شيء مظهر من مظاهر تدبير الله تعالى في خلقه. ينتفع به الذاكرون من غير أصحاب الغفلة والنسيان. [٥]

٧. الناس خلفاء الأرض، يخلف بعضهم بعضا، فكل جيل يخلف من قبله من الأمم الماضية والقرون السالفة. [٦]

٨. أن الله تعالى سريع العقاب، شديد العذاب للكفار والعصاة، غفور رحيم بالطائعين التائبين. وهذا ترهيب وتحذير من ارتكاب الخطيئة، وترغيب في الطاعة والإنابة والتوبة. [٧]

---

[١] - نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٣٤٥)

[٢] - تفسير المراغي (٨/ ٩٣)

[٣] – المرجع السابق (٨/ ٩٦)

[٤] – تفسير الشعراوي (٧/ ٤٠٢٩)

[٥] – أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ١٥٠)

[٦] – التفسير المنير للزحيلي (٨/ ١٣٢)

[٧] – المرجع السابق (٨/ ١٣٢)

الفصل الثاني : مناسبات السورة الكريمة .

المبحث الأول: مناسبة اسم السورة لموضوعاتها.

إن تناول قضية الأنعام في سورة الأنعام إنما هو مترتب على ماجاء فيها من الأمور التي أقام الله تعالى الحجة والبرهان على أحقيته بها ، وكل ما يتعلق من التقرب بها والتعامل معها وبها إنما هو أمر مترتب على الاعتقاد الجازم باستحقاق كل ذلك لله تعالى وحده دون شريك له .

وقضية الأنعام الذي منها قوتهم وطعامهم ومتاعهم ، وغير ذلك مما هو له أهمية في حياتهم كانوا يتفاخرون بها وتعني لهم الكثير ، فعظموها على طريقتهم الباطلة ، فجاء الإسلام وعظمها أكثر وهذبها على طريقة الحق ، وصرفها لمستحقها ، بعد أن أدخلها أهل الجاهلية في ظلماتهم ، حيث أخرجها الإسلام من تلك الظلمات إلى نوره ، وجاءت هذه السورة فنظمتها على مبدأ من الرحمة والعدل والمساواة ، والتي تعتبر من أبسط الأمور ليدل أن ما فوقها وأعلى منها ، أهم أن يراعى حق الله فيها .

وطالما أنه يطعم ولا يطعم فكان من حقه البت في قضية الأنعام ، ومن حقه أن تصرف هذه العبادة — ذبح النسك — له وحده .

وواضح أن سياق الآيات التي ورد فيها الاسم يتناول جانب التحليل والتحريم والاحتكام إلى الشريعة ، والتحليل والتحريم من الأمور الخطيرة الهامة التي لا ينبغي لأحد من الناس أن يدعيها لنفسه أو لأحد من البشر ، فهي ليست من شأن البشر ، بل هي منوطة بالله تعالى ، فهو وحده الخالق الحاكم ، الذي يعلم خصائص الأمور ، والذي خلق كل شيء لغايته ، فهو وحده الخالق الحاكم ، وله وحده الخلق والأمر ، وعلى الناس جميعاً أن يلتزموا حدود ما شرع الله تعالى لهم ، فهو أعلم بما يصلح لهم .

ومن المعلوم أن التعدي على هذا الحق الثابت لله تعالى وحده دون شريك له ، وإعطاؤه لأحد آخر شرك بالله تعالى .

والعرب الذين نزل عليهم القرآن الكريم كان عندهم بقايا من دين إبراهيم وإسماعيل — عليهما السلام – ، و لكنهم أدخلوا في عقائدهم وشرائعم كثيراً من الأمور الشركية ، فجاءت هذه السورة المكية لتعالج هذا الانحراف الذي يؤدي إلى كثير من التصرفات السلبية التي أوردتها سورة الأنعام ، لا سيما وقد ذكرت توحيد أباهم إبراهيم — عليه السلام — وبراءته من الشرك وأهله .

والأصل أن التحليل والتحريم لا يكون إلا عن طريق الوحي الإلهي ، والشرع النبوي ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾[١٤٥] .

ولقد ذكر سيد قطب عبارات رائعة في بيان هذا الأمر فقال : " والقضية الكبيرة التي تعالجها السورة هي قضية الألوهية والعبودية في السماوات والأرض. في محيطها الواسع، وفي مجالها الشامل.. ولكن المناسبة الحاضرة في حياة الجماعة المسلمة حينذاك، المناسبة التطبيقية لهذه القاعدة الكبيرة الشاملة، هي ما تزاوله الجاهلية من حق التحليل والتحريم في الذبائح والمطاعم، ومن حق تقرير بعض الشعائر في النذور من الذبائح والثمار والأولاد " (١)

ومن يتأمل سورة الأنعام يجد أن الحديث يكثر حول أحقية الله تعالى وحده في التشريع للبشر ، والاحتكام له سبحانه في كافة نواحي الحياة ، والأنعام رمز لتصرف البشر بوحي من شركائهم في حق الله تعالى وحده في التحليل والتحريم .

ونرى أن الآيات في سورة الأنعام قد احتشدت للتدليل على حق الله وحده ، بما له من صفات تستلزم أن يكون له حق التشريع والعبادة ، وليس لأحد سواه الحق فيهما ، ومن هذه الصفات ما يلي :

١. العلم الشامل التام الكامل حيث جاءت في السورة الكريمة عدة آيات تثبت هذه الصفة منها قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [٥٩] ، وقوله : ﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ ﴾ [٨٠] ، ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [١٠١] وغيرها .

٢. القدرة والسيطرة والقهر ، ومن الآيات التي تثبت هذه الصفات قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [١٧ – ١٨] ، وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا ﴾ [٦٥] وغيرها .

٣. الهداية حيث جاءت آيات في السورة الكريمة تخبر أن الهداية من قبله ، يقول تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ [١٢٢] ، ويقول : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ ﴾ [١٢٥] .

٤. الإبداع في الخلق ، حيث جاءت هذه الصفة في عدد من الآيات ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ﴾ [٩٥] ،

(١) – في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ١٠١٨)

ويقول : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ [٩٩] ، ويقول : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [١٠١] ، ويقول : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ ﴾ [١٤١] وغيرها .

٥. الرحمة ، حيث جاءت آيات في السورة الكريم لتقرر هذه الصفة ، يقول تعالى : ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [١٢] ، ويقول : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [١٦٥] وغيرها .

٦. المجازاة في الآخرة حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ [٦٢] ، ويقول : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [٩٣] وغيرها .

٧. الملك والحكم حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [٦٢]، ويقول : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ﴾ [١٢] ، وغيرها .

ومن يتأمل مواضع ذكر الأنعام في القرآن يجد أنها وردت رمزاً لأمرين وهما النعمة وضعف الإدراك . أما بالنسبة للنعمة فإن فوائد الأنعام كثيرة جداً ، لا يستغني عنها البشر ، وقد فصلت سورة النحل هذه الفوائد في قوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [٥ – ٨] ، ومن المعلوم أن النعمة تستوجب الشكر ، وأعظم الشكر أن يضعها الإنسان في موضعها ، ويؤدي حقها ، ملتزماً ما أمر به الله المنعم ، وبالذات فيما يتعلق بالنعمة نفسها ، ومن حق المنعم سبحانه أن يكون له وحده تعالى التحليل والتحريم ، وقد جاءت السورة حاشدة بالتوجيهات المتعلقة بكيفية أداء شكر هذه النعم ، فيبتدئ تعالى السورة بقوله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ

﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [١] والذي يخبر فيها باستحقاقه لأتم الشكر ، ثم يخبر بالواجب تجاه حق هذه النعم حيث يقول تعالى : ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ ﴾ [١٤١] ليبين أنه يجب أداؤه دون تأخير هذا الحق ، وبين كيفية الانضباط في استعمال النعم دون تجاوز الحد المقبول فقال : ﴿ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [١٤١] ، وبين أن التصرف في هذه النعم إنما يكون وفق ما أراده الله وحده المنعم علينا بهذه النعم ، فيجب بناء على هذا الالتزام بأوامر الله تعالى وحده ومن هذه الأوامر ما جاء في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ [١٤٢] ، كذلك فلا يحق لأحد أن يحرم ما أنعم الله لعباده وأحله لهم ، وفي هذا يقول تعالى : ﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٤٠ ﴾ [١٤٠] .

أما بالنسبة لكون الأنعام رمزاً للبله وضعف الإدراك فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ، ويقول : ﴿ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤ ﴾ [الفرقان: ٤٣ – ٤٤] وذلك يتناسب مع آيات عديدة في السورة الكريمة التي تتحدث عن عدم استفادة المشركين من الآيات الكونية والشرعية ، مع أن الله تعالى أعطاهم ومنحهم الأدوات التي يستطيعون بها إدراك هذه الآيات ، وما أحاطهم به من دلالات ، كما أنه يتكرر في السورة الحديث عن الشرك والشركاء ، والذي يدل على غاية البله والغباء في استبدال هؤلاء الشركاء بالله تعالى ، والمواضع في السورة كثيره ، تحدثت عنها في الدراسة التحليلية للسورة(١).

---

(١) – من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم لوادي ومهنا ، ص : (٧٢ – ٧٨) بتصرف وإضافة من الباحثة .

المبحث الثاني: مناسبة فاتحة السورة لموضوعاتها.

ابتدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ ﴾

وابتدأ الله تعالى الآية بقوله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ وهي جملة اسمية تدل على الدوام والثبوت ، وتفيد أن الحمد على الإطلاق من المتكلم وغيره دون تحديد فاعل معين ، والدليل على ذلك قوله سبحانه : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[الإسراء: ٤٤]، ويقول : ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ [الرعد: ١٣] .

فالإطلاق الوارد في الجملة الاسمية يحدث الشمول الذي لا يشمل البشر فقط ، بل يتجاوزهم إلى كل ما في الكون ، والحمد في الجملة الاسمية مطلق،مستمد غير منقطع،مناسب بلا نقصان ، وتفيد استحقاق الله تعالى للحمد تأكيداً ، وتفيد الجملة الاسمية أن الحمد والثناء حق لله تعالى ،وملك له سبحانه،فهو ثابت له،وهو يستحقه لذاته ولصفاته ولما أنعم من آلائه ؛ لذا فإن إتيان المكلف بالحمد بالجملة الاسمية فإنه يكون صادقاً ، وإن كان قلبه غافلاً لاهياً ؛ لأنها تفيد أن الحمد حق لله ،وهذا حاصل سواء أعقل أم غفل.

ثم إنه لم يأت الحمد مقترناً باسم من أسماء الله تعالى سوى لفظ الجلالة " الله " ، فلم يقل : "الحمد للحي، الحمد للرحيم، الحمد للبارئ، .. " بل اختص الحمد بالاسم العلم (الله) بالذكر، دون سائر أسمائه االحسنى وصفاته ، حيث إنه لو حدث وجاء مقترناً بأي اسم سوى لفظ الجلالة " الله " لأفهم أن الحمد إنما استحقه لهذا الوصف دون غيره، فجاء بالاسم العلم ليدل على أنه استحق الحمد لذاته هو لا لصفة من صفاته .

. ثم إن ذكر لفظ الجلالة "الله " يناسب سياق الآيات، ومناسب للعبودية، لأنه مأخوذ من لفظ الإله أي المعبود، وقد اقترنت العبادة باسمه أكثر من خمسين مرة في القرآن كقوله تعالى: ﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ ﴾[الرعد: ٣٦]

هذا والمجيء بوصف غير لفظ الجلالة ليس فيه تصريح بأن المقصود هو الله عز وجل ، فمن منا مهما بلغ من فصاحة وبلاغة وبيان ، ومن منا يستطيع أن يأتي بكلام فيه هذا الإحكام وهذا الاستواء مع حسن النظم ودقة الانتقاء، فكل كلمة في موقعها جوهرة ثمينة منتقاة بعناية لتؤدي معاني غزيرة بكلمات يسيرة، كل واحدة واسطة عقد لا يجوز استبدالها ولا نقلها ولا تقديمها ولا تأخيرها وإلا لاختل المعنى أو ضعف أو فقد بعض معانيه؟

إنه الإعجاز الإلهي الذي يتجلى في الكون كله، ويحف بالقرآن كله، مجموعه وجزئياته، كلماته وحروفه، معانيه وأسراره، ليكون النور الذي أراد الله أن يهدي ويسعد به كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ثم إن في الاستهلال بالحمد تنويه بأن النعم جميعها من الله تعالى وحده ، وبالتالي فهو وحده من له حق التصرف والتشريع ، وذلك لما تقدم الحديث عن استحقاقه لهذا التصرف المطلق .

وهذا أيضاً تحميدٌ مخصوصٌ بنوع خاصٍ من النعمة وهي نعمة العلم والمعرفَةِ والهِدايَةِ والقرآن، وبالجملة النعمُ الحاصلةُ بسَبَب بعثةِ الرُّسُلِ – عليهم الصلاة والسلام – . [١]

ومن المعلوم أن الحمد عبادة يجب أن تصرف لمستحقها وهو الله تعالى ، وهذه العبادة إنما علمنا من هو مستحقها عن طريق الرسل التي كانت وظيفتهم التبليغ ، الذين بلغونا أنه يجب صرفها لله تعالى دون غيره ، إلا أن المشركين خالفوا ما جاء به الرسل فصرفوا عباداتهم جميعها وعلى رأسها الحمد لغير الله تعالى ، وهذا هو أشارت إليه السورة الكريمة من خلال حديثها عن المشركين .

فالحمد ليست كلمة تقال باللسان ، بل هي نابعة من اعتقاد الفرد بأن الله وحده هو من يستحق أن تصرف له هذه العبادة .

---

(١) - اللباب لابن عادل (٨/ ٧) ، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم لوادي ومهنا ، ص : (٧٨)

المبحث الثالث : مناسبة خاتمة السورة لفاتحتها .

لقد بدأت سورة الأنعام بقوله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ١﴾[١] والذي يحكي عن استحقاقه للحمد المطلق ، وقال في آخرها ، منة من منن الله تعالى على البشرية ألا وهي إقامة خلافة الله تعالى على الأرض بما أمر الله تعالى .

وقال : ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾حيث ذم الشرك وأهله ، وقال في آخر السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [١٦٤] حيث بيّن براءة النبي ﷺ من الشرك ، وبين سبب ذلك وذلك لأنه ﴿رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ، ويدخل فيه خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور وذلك ذكره في أول السورة في قوله تعالى :﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾

والذي يفيد أن الله وهب السابقين خلافة الأرض ومكنهم منها ، لكن ما رعوا هذه الأمانة حق رعايتها ، ثم بعد أن بين في ثنايا آيات السورة الكريمة ما ينبغي على الخليفة ، ذكرهم بما هو منوط بهم تجاه البشرية ؛ ألا وهو قيادة الإنسانية إلى بر الأمان حيث قال : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [١٦٥] .

وقال في أول السورة : ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ٣﴾[٣] ثم قال في آخر السورة : ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [١٦٤] والذي يقرر أن نتيجة كل عمل يعود إلى فاعله ، لا ينفع ولا يضر به غيره سواء كان سراً أو جهراً ، والتي قررت كذلك علم الله تعالى بما تكسبه النفس البشرية ، ويعلم من صاحب الوزر فيحمله عن نفسه دون أن يحمل غيره به ، ثم بين في آخر السورة الدليل على علمه بالأعمال حيث إنه سيبخبرهم به يوم القيامة لذلك قال : ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ١٦٤﴾ .

وذكر آخر السورة الكريمة ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ [١٦٥] حتى يؤكد على أن من كان على الشرك الذي ذكره في قوله : ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ومات عليه فإنه سريع العقاب له ، أما من تاب وأقلع عن الشرك فإن أبواب رحمته مفتوحة لذلك قال : ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ، وهذا الإحسان منه يستحق أعلى وأفضل المحامد لذلك ابتدأ السورة بقوله : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مع ما يتصف به من العظمة

الذي دل عليه خلقه للسماوات والأرض ، وإيجاد الظلمات والنور ، وكل ذلك ورد في بداية السورة حكاه تعالى بقوله : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ .

ولقد بين تعالى هدف من أهداف خلقه السماوت والأرض الذي ذكرها في قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ وذلك حتى يعمرها الإنسان ويكون خير خليفة ؛ لينشر نور الله تعالى ، ويزيل ظلمات الجهل والغي والضلال .

التوازن بين عمل الدنيا والآخرة ، فلا تعزله الآخرة عن مطالب الدنيا ، ولا تطغيه الدنيا عن مطالب الآخرة، بل يوفق بينهما ؛ لأن التوفيق بينهما إحسان ، وإلا كان هو الفساد بعينه .

ثم إن الله تعالى "بين أنه على غناه عن الكل ؛ أسبل ذيل غفرانه ورحمته بإمهاله العصاة ، وقبوله اليسير من الطاعات مع أنه خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور منافع لهم ثم هم به يعدلون! ولولا غفرانه ورحمته لأسرع عقابه لمن عدل به غيره ، فأسقط عليهم السماوات ، وخسف بهم الأرضين التي أنعم عليهم بالخلافة فيها ، وأذهب عنهم النور وأدام الظلام، فقد ختم السورة بما به ابتدأها، فإن قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ هو المراد بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢] وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] هو معنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]." (١)

وماكان مفتتحاً به كان أجدر أن يختم به ، وذلك للتأكيد على أهميته ، وأن ما ورد بينهما إنما ورد ليقررهما، ويؤكدهما .

(١) - نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٣٤٦)

المبحث الرابع : مناسبة خاتمة السورة لموضوعاتها .

استحق الإنسان بما زوده الله تعالى من قدرات ، ووهبه من خصائص واستعدادات ، لأن يكون محور الحياة في هذا الكون ، وأن يكون موضع التكريم الإلهي ، وأن يصطفيه الله تعالى للخلافة في الأرض ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠] .

وتبعاً لصفة الاستخلاف النافذة بأمر الله تعالى ومشيئته ، اختص الانسان المستخلف بواجبين ، وتحمل مسؤولية مزدوجة ؛ الأولى : مسؤولياته وواجباته حيال ربه ، والأخرى : واجباته ومسؤولياته الناشئة عن علاقته بالعالم[1] وتفصيله ما يلي :

١. إن طبيعة الإنسان مكونة من جسد وروح ، والإنسان بهذا الجسد المادي يتدرج في جملة الكائنات الأرضية ، وتجري عليه نواميسها ، وهو بروحه يتصل بالعالم الروحاني ، ويتناسب وكائناته العلوية في عالم أرفع من هذا العالم ، وكما أن به حاجة إلى مدد يستبقي وجوده المادي عن طريق التغذي والتنفس ، كذلك هو بحاجة إلى مدد روحي يستديم به صلته بالعالم العلوي ، وكما أن الإنسان ينحل جثمانه ويزول بحرمانه من المدد المادي ، كذلك هو يخرج عن إنسانيته ، ويهبط إلى عالم الحيوانية ، إن حرم من المدد المناسب لروحه [2]. وإذا تحولت الإنسانية إلى بهيمية هوجاء فأي خلافة ستكون حينئذ ، بل إن البشرية جمعاء ستكون هلكى ، والمخلوقات أجمع لن تكون في موضع نجاة منه .

٢. أن استخلاف الإنسان لم يخل من الابتلاء بتبعة التكليف ، وحرية الإرادة ، ومسؤولية الاختيار ، وهو الاستخلاف الذي أخبر الله تعالى به في قوله : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[البقرة: ٣٠][3]وفي سبيل ذلك أرسل الله تعالى الرسل والأنبياء لتذكير الإنسان بما ينبغي أن يكون عليه نحو خالقه ومولاه حتى يظل معتصماً بحبل الله تعالى ، قادراً على القيام بأعباء الرسالة المقدسة التي ناطها الله تعالى به ، وكرمه من أجلها أعظم تكريم ، وسخر الكون كله لمصلحة الإنسان [4].

---

[1] – الاستخلاف والحضارة لقريبع (ص : ٥٢)

[2] – المرجع السابق (ص : ٥٣)

[3] – المرجع السابق (ص : ٥٦)

[4] – المرجع السابق (ص : ١٣٨)

٣.	على الإنسان أن يعي أنه لا يملك صلاحيات المالك الحقيقي – الله تعالى – بل عليه أن يفهم ويتقيد أن الملك يزول زولاً تكوينياً أو تشريعياً بإساءة التصرف فيه ، كما حصل لبعض الأمم السابقة التي تناولت سورة الأنعام بعضاً من أنبائها[١] .

٤.	أن الاستخلاف الرباني للإنسان يعني انتماء العباد إلى محور واحد وهو المستخلف أي الله تعالى ، الذي استخلفهم على الأرض ، بدلاً من كل الانتماءات الأخرى ، والإيمان بسيد واحد ، ومالك واحد للكون وكل مافيه ، وهذا هو التوحيد الخالص الذي قام على أساسه الإسلام ، وحملت لواءه كل ثورات الأنبياء تحت شعار التوحيد ، ومن ثم إقامة العلاقات الاجتماعية على أساس العبودية الخالصة لله تعالى ، وتحرير الإنسان من عبودية ما سواه [٢].

٥.	لما ابتعد الإنسان عن هذا المنهج الذي رسمه الله تعالى له استلزم أن يرسل الله تعالى إليه الرسل والأنبياء حتى يكون مؤهلاً لشرف الاستخلاف ، ولا يتردى في ظلمات النفس الأمارة بالسوء ، فدعوة الناس إلى توحيد الله تعالى ، وإخلاص العبودية له ، والخضوع لحكمه هي القضية الأولى التي ركزت عليها سورة الأنعام ، والتي من أجلها بعث الله سبحانه وتعالى الأنبياء والمرسلين ، وأمرهم أن يوجهوا الناس إليها في كل زمان ومكان[٣]،حيث كان استخلاف الإنسان مشروطاً باتباع المنهج الذي رسمه الله تعالى له من خلال ما جاء في الكتب والرسل الذين أرسلهم الله تعالى إلى البشر .

٦.	نجد في القرآن الكريم وفي سورة الأنعام خاصة بيان دعوة هؤلاء الأنبياء لأممهم وأقوامهم ، والسير في الأرض والنظر في عاقبة الأمم الماضية ، وتبيان ما لاقاه أولئك الانبياء من إنكار وتكذيب من قبل أقوامهم في سبيل إظهار دعوة الله الحق والجهر بها ، وعلى ذلك يرتب الإسلام ما يحل بالمجتمع البشري على الفعل الإنساني رقياً أو انهياراً ، فإذا التزمت الأمة المبادئ العقدية والأخلاقية وغير ذلك مما تنص عليه الشريعة الإلهية ، فإن مثل هذه المباديء تكفل للمجتمع وحدته وقوته وسلطانه .[٤]

٧.	الاستخلاف يحرص على قضية التعبد في الإسلام والمفهوم الحيوي الأساسي للتوحيد ، وتلك الروحية الإيجابية الفياضة التي تستمد مقوماتها من جوهر الدين ، والتي تتساند في

---

(١) – المرجع السابق (ص : ١٤١ – ١٤٢)

(٢) – المرجع السابق (ص : ١٤٥)

(٣) – المرجع السابق (ص : ١٦٤-١٦٥)

(٤) – مقدمة ابن خلدون ص : ٦٣٦ ، بتصرف .

تناسق مبدع على تنمية وازع المسؤولية في الفرد والجماعات ، من أجل صياغة المجتمع الإسلامي ، والحفاظ على مقوماته ، وضمان استقراره والحيلولة دون انقراضه واعتلاله .[١]

٨. أن عبادة الله تعالى وحده تعني الحرية الإنسانية والكرامة البشرية ، سواء في مجال الاعتقاد ، أو في مجال التعبير والتفكير ؛ لأنه حينما يخلص الإنسان في عبادة الله وحده ، ويقصرها عليه ، يعني هذا تجرده من الخضوع والتذلل لغيره ، وهذا هو معنى الحرية والكرامة التي تظهر في شتى مجالات الحياة[٢]، ولا يطلب منه إلا أن يكون إنساناً يحقق ما أراده الله تعالى منه من عبادة خالصة ، واستخلاف في الأرض لتعميرها ، والعمل على استمرار الحياة فيها وفق ما يحبه الله تعالى ويرضاه.

٩. الواجب على الخليفة تقويم السلوك بالثواب والعقاب وقد بينته السورة الكريمة في أكثر من موضع وبأكثر من وجه ، وسعت إلى تحقيق الطمأنينة الإيمان بالغيب لتملأ القلب والنفس سعادة ، إنه نظام الحياة ، وفطرة مركوزة في الأنفس والآفاق ، تتشربه النفوس المؤمنة ، فتنشرح وتحس بطمأنينة وسكينة لا يعرفها إلا من ذاق حلاوة الإيمان ، فتعيش تلك النفوس في أمان واستقرار لا تعرف القلق والاضطراب ، وهذا ما يجب على الخليفة أن ينشره في الأرض عن طريق إقامة دين الله .

١٠. أن التقوى تبني المجتمع الإنساني الذي ينشده الإسلام ، المتكون من الأفراد الأتقياء الأنقياء .

١١. دور الإيمان بالبعث والحساب ، فطالما اعتقد الإنسان ذلك فإنه يبتعد عن الشهوات والفساد في الأرض ، ويتفانى في سبيل الله ، والقيم الإنسانية ، ولا يخشى مغبة الحياة .

١٢. الاستخلاف هو أن يحقق الإنسان القيم التي يؤمن بتوحيدها جميعاً في الله تعالى الذي استخلفه واسترعاه أمر الكون ، فصفات الله تعالى الواردة في السورة الكريمة هي المؤثرات للسلوك في مجتمع الاستخلاف ، وأهداف للإنسان المستخلف في الأرض . [٣]

١٣. إن الخليفة عليه أن ينشر عقيدة الإسلام ونظامه ، وينشيء حياة سوية ، وحضارة تقدم للإنسانية المثال الحي لاجتماع الدين والدنيا ، وامتزاج المادة والروح ، والتوفيق بين الرقي الحضاري والسمو الأخلاقي ، وتكون هي اللبنة الأولى لقيام الخلافة الصحيحة ، التي توحد الأمة الإسلامية تحت راية القرآن ، وتسيرها على منهج الله الذي فيه اسعاد البشرية . [٤]

---

[١] – وازعية التغيير الإجتماعي في الإسلام لمحمد اهاشمي ، رسالة دكتوراه ، ص : ٣٢٧ .

[٢] – الاستخلاف والحضارة لقريبع (ص : ١٩٦)

[٣] – المرجع السابق (ص : ١٤٨) .

[٤] – منهج القرآن الكريم في تحصين الأمة من الفرقة والاختلاف للصميدعي ، ص : ١٦٣ بتصرف .

١٤. الوجهة واحدة وهي إرضاء الله تعالى ، وبذلك تتحرر من أسر الأهواء والشهوات ، وتعتق من استبداد الظالمين ، ولا أظلم ممن أشرك بالله وافترى عليه وهذه الحقيقة حكاه الله تعالى في السورة الكريمة في أكثر من موضع ، وذلك لتعيش النفس البشرية حرة طليقة في كنف العبودية لله تعالى وحده ، والتحرر من العبوديةة للأهواء الذي حكى عنها قوله تعالى ، والعبودية للعبيد ، وبذلك يحفظ الإنسان كرامته وإنسانيته ، وينطلق ليحقق أمانة الاستخلاف في الأرض .[١]

١٥. أن تعليم الدين وحده لا يكفي إقامة حضارة يأمن الناس مخاطرها ، بل لابد من اقتران ذلك التعليم بالتربية ، وتزكية النفوس بتطهيرها من الشرك والوثنية ، ومن الأخلاق الذميمة ، والعادات القبيحة ، وتنميتها بالتوحيد والفضائل ومكارم الأخلاق .[٢] وهذه هي حقيقة التوحيد الذي هو الأساس الأول من أسس عقيدة الإسلام .

١٦. الأخذ بالأسباب والسنن الكونية والاجتماعية التي قدرها الله تعالى في هذا الوجود ، وتعقلها ودراستها وتأملها ، والعمل على استثمارها في تحسين الحياة وتنميتها ، وفي إصلاح الأرض وعمارتها وفق منهج الله تعالى الذي أمر به عباده ، وعدم مخالفة هذه السنن ؛ لأن ذلك يؤدي إلى فساد الحياة وخراب الأرض التي يعيش عليها البشر .

١٧. على الخليفة عدم التنصل من مسؤوليات وتبعات أفعاله ، والرجوع إلى النفس بالمحاسبة واللوم على التقصير وارتكاب الذنوب ، وتطهيرها من الرذائل التي حكت عنها سورة الأنعام ، وتزكيتها بالفضائل لا سيما ما ذكر في الوصايا العشر .[٣]

١٨. على الخليفة أن يتحلى بالصدق والأمانة والوفاء بالعهود ، وتحري العدالة في كل أقواله وأفعاله ، واجتناب الظلم والبغي والفساد في الأرض ، والتأسي بالأنبياء والمرسلين والاقتداء بهم والسير على خطاهم، وتبليغ رسالة الله تعالى والدعوة لدينه بالحكمة والموعظة ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، والصبر على تكاليف الدعوة لدين الله والثبات في المواقف . إلى غير ذلك – والله أعلم – .

---

[١] – سنن الله في إحياء الأمم لشرفه (ص : ٢٦٥) بتصرف

[٢] – المرجع السابق (ص : ٢٨٠) بتصرف

[٣] – أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني للشول (ص : ٤٠٢ ، ٤٢١ ،

المبحث الخامس : مناسبة موضوعات السورة لمقاصد السورة .

سورة الأنعام سورة جليلة تعالج أهم قضية وهي قضية العقيدة الأساسية ، قضية الألوهية والعبودية، فهي تطوف بالقلب البشري في هذه الآماد والآفاق، وفي هذه الأغوار والأعماق ، تمضي في هذا كله على منهج القرآن المكي ، إنها لا تهدف إلى تصوير نظرية في العقيدة ولا إلى جدل لاهوتي يشغل الأذهان والأفكار ، إنما تهدف إلى تعريف الناس بربهم الحق لتصل من هذا التعريف إلى تعبيد الناس لربهم الحق ، وتعبيد ضمائرهم وأرواحهم، وتعبيد سعيهم وحركتهم، وتعبيد تقاليدهم وشعائرهم، وتعبيد واقعهم كله لهذا السلطان المتفرد ، وهو سلطان اللّه الذي لا سلطان لغيره في الأرض ولا في السماء .

فيكاد اتجاه السورة كله يمضي إلى هذا الهدف المحدد ، من أولها إلى آخرها ، فاللّه هو الخالق. واللّه هو الرازق ، واللّه هو المالك ، واللّه هو صاحب القدرة والقهر والسلطان. واللّه هو العليم بالغيوب والأسرار، واللّه هو الذي يقلب القلوب والأبصار كما يقلب الليل والنهار ، وكذلك يجب أن يكون اللّه هو الحاكم في حياة العباد وألا يكون لغيره نهي ولا أمر، ولا شرع ولا حكم، ولا تحليل ولا تحريم. فهذا كله من خصائص الألوهية، ولا يجوز أن يزاوله في حياة الناس أحد من دون اللّه، لا يخلق، ولا يرزق، ولا يحيي ولا يميت، ولا يضر ولا ينفع، ولا يمنح ولا يمنع، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً في الدنيا ولا في الآخرة ..

وسياق السورة يسوق على هذه القضية أدلته في تلك المشاهد والمواقف والإيقاعات البالغة حد الروعة الباهرة والتي تواجه القلب بالحشود الحاشدة من المؤثرات الموحية، من كل درب ومن كل باب![1]

فبينت كل ذلك عن طريق إقامة الحجج الساطعة والبراهين القاطعة ، ودحض شبهات المخالفين ، وتصحيح المفاهيم ، والدعوة إلى النظر والتفكر ونبذ التقليد الأعمى والتعصب المقيت والتحرر من الأهواء.

"فالإسلام يعترف بوجود الاختلاف ، وعدم إمكانية جمع الناس على دين واحد، ويطلب من الدعاة ورثة الأنبياء القيام بواجب البلاغ في الدنيا واستفراغ الوسع في الإرشاد والنصح للعالمين، ثم الله يتولى – بحكمه وعدله – يوم القيامة حساب المعاندين وجزاء المؤمنين"[2].

وسورة الأنعام أصلٌ في محاجة جميعِ الكفارِ، وكشف ما هم عليه من ضلالٍ وتفنيد شبهاتهم، وبيان العقيدة الصحيحة وإثباتها بالأدلةِ والبراهين، فالسورة الكريمة زادٌ للدعاةِ ومنهجٌ للمحاورِين ويتبين ذلك مما يلي :

---

[1] – القرآن الكريم وقضايا العقيدة (ص: ٧٩ – ٨٠) بتصرف .

[2] – الحوار مع أتباع الأديان ، مشروعيته وآدابه (ص: ١٧)

١. عالجت السورة القضية الكبيرة التي هي في السماوات والأرض ، في محيطها الواسع، وفي مجالها الشامل[1] ، وأن الضعيف الزائل لا يستحق الألوهية فثبت أن القوي الباقي هو من يستحق صفات الألوهية والكمال .

٢. بينت الآيات المناسبة الحاضرة في حياة الجماعة المسلمة حينذاك، المناسبة التطبيقية لقضية الألوهية والعبودية وهي ما تزاوله الجاهلية من حق التحليل والتحريم في الذبائح والمطاعم، ومن حق تقرير بعض الشعائر في النذور من الذبائح والثمار والأولاد ، والذي يدل على مدى الأهمية التي ينوطها هذا الدين بتخليص مظهر الحياة كله من ظلال حاكمية البشر في أي شأن من شؤون البشر – جل أم حقر، كبر أم صغر – وربط أي شأن من هذه الشؤون بالأصل الكبير الذي يتمثل فيه هذا الدين .. وهو حاكمية اللّه المطلقة التي تتمثل فيها ألوهيته في الأرض، كما تتمثل ألوهيته في الكون كله بتصرف أمر هذا الكون كله بلا شريك.[2]

٣. بينت السورة مواقف الإشهاد على العقيدة، ومواقف الإشهاد على الشريعة .. كلتاهما سواء ، ففي أول السورة عند الحديث عن العقيدة في محيطها الشامل ، حتى إذا جاء السياق إلى المناسبة الخاصة في السورة، المتعلقة بالعقيدة في قضية التحريم والتحليل أقام مشهداً آخر، ودعا إلى إشهاد على هذه القضية الخاصة، كالإشهاد على تلك القضية العامة، للدلالة على أنها هي هي من ناحية الموضوع ولضمان التناسق الذي هو طابع التعبير القرآني العام ، فهذا الدين شريعته كعقيدته في تقرير صفة الشرك أو صفة الإسلام. بل إن شريعته من عقيدته في هذه الدلالة ، بل إن شريعته هي عقيدته ، إذ هي الترجمة الواقعية لها ، كما تتجلى هذه الحقيقة الأساسية من خلال النصوص القرآنية، وعرضها في المنهج القرآني .[3]

٤. بينت الآيات في السورة الكريمة وجوب اتخاذ الله تعالى وحده رباً ومولى معبوداً يدين له العبد بالعبودية ممثلة في الخضوع لحاكميته وحده ، ويدين له بالعبادة ؛ فيقدم له شعائرها وحده ، واتخاذه وحده ناصراً يستنصر به ويعتمد عليه، ويتوجه إليه في الملمات ، إن هذه القضية هي قضية العقيدة في صميمها. فإما إخلاص الولاء للّه – بهذه المعاني كلها – فهو الإسلام. وإما إشراك غيره معه في أي منها، فهو الشرك الذي لا يجتمع في قلب واحد هو والإسلام ،فأي منطق يسمح بأن يتخذ غير اللّه ولياً؟ إن كان يتولاه لينصره ويعينه، فاللّه هو فاطر السماوات والأرض،

---

(١) – القرآن الكريم وقضايا العقيدة (ص: ٨٠)

(٢) – القرآن الكريم وقضايا العقيدة (ص: ٨٠، ٨١)

(٣) – انظر : «**التصوير الفني في القرآن**» القرآن الكريم وقضايا العقيدة (ص: ٩٨)

فله السلطان في السماوات والأرض ، وإن كان يتولاه ليرزقه ويطعمه، فاللّه هو الرازق المطعم لمن في السماوات ومن في الأرض. ففيم الولاء لغير صاحب السلطان الرزاق؟ [١]

٥. حكت الآيات محاورة رسول أعلن التوحيد ، وناظر في ابطال الشرك ، بالحجة الدامغة ، والمناظرة الساطعة ، ولأنها أعدل حجة في تاريخ الدين ، إذ كانت محاورة رسول لأبيه ولقومه ، وكانت أكبر حجة على المشركين من العرب بأن أباهم لم يكن مشركاً ، ولم يكن مقراً للشرك في قومه ، فلقد كان موقف إبراهيم عليه السلام نبذ مظاهر الشرك ، وقدم مثالاً عظيماً لسعة الخلق ، ورحابة الأفق ، والصبر على محاجة الخصم ، وتتبع غروره ، وجهله وعناده إلى آخر الشوط في الحوار ، وهو الذي يجب أن يكون عليه المحاجج في دين الله [٢] ، فلقد آثر إبراهيم عليه السلام في استعراض العقائد الشائعة في زمان آثر النظر والاستدلال المبني على إظهار التردد الذي يقتضي المحاجة للكشف عن تهافت مذهب الخصم ، فاصطنع مثل هذا المنهج الشكلي الاستدلالي ، كما يرشد إلى ذلك سير الآيات التي تصور هذا الموقف ؛ حيث أشار إلى حجة مستنبطة من دلالة أحوال الموجودات على وجود صانعها ، وعظمة سلطانه ، وحقيقتها الدالة على أنه لا خالق ولا متصرف سوى الله تعالى ؛ ليكون بذلك نوذجاً حياً في الاستدلال واستعمال الحجة الدامغة لرد الشبه المثارة ، والشكوك تجاه الذات الإلهية ، وما يتعلق بها ، وما يستحقه الله تعالى من الكمال المطلق ، وحري بكل ما جاء في هذه السورة خاصة ، وفي القرآن عامة من الحجج والبراهين أن تكون مكبتة ملجئة لاعتراف كل مشرك بفساد معتقده ، وفي كل ذلك استعان ابراهيم عليه السلام بربه في إدراك الحق ، فإنه لا يهتدى إليه إلا بتوفيقه .

٦. أقر تعالى حقيقة تقتضي التنبيه على أن موافقة جمع كثير على ضلالة لا تعضد الاعتقاد الفاسد ، ولا تشكك من ينكر عليه .

٧. لابد على المحاجج أن يثق بما هو عليه ، ومن قوة حججه وبراهينه ، والثبات على ذلك ، وعدم السماح لأي أمر بزعزعة ذلك في نفسه ، حيث أمر الله رسوله ﷺ أن يقذف بهذا الاستنكار العنيف، وبهذا الحسم الصريح، وبهذا التقرير الذي لا يدع مجالا للتمييع ، وأمر كذلك أن يقذف في قلوبهم بالرعب والترويع في الوقت الذي يعلن فيه تصوره لجدية الأمر والتكليف ولخوفه هو من عذاب ربه، إن عصاه فيما أمر به من الإسلام والتوحيد .

٨. تنوع أساليب المحاجة وفق الخصم المحاجج ، وكشف الشبهات والرد على الأباطيل؛ لإظهار الحق وإزهاق الباطل، وتبديد ما عليه المشركون من أوهامٍ وضلالات، والتحذير من طرق

[١] - القرآن الكريم وقضايا العقيدة (ص: ٨٧) بتصرف .

[٢] - أساليب المحاورة في القرآن الكريم لفيتور وطالب إسماعيل ، ص : ١٥١ وما بعدها .بتصرف وإضافة من الباحثة .

الضلال، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [٥٥] ولابد من ارخاء العنان للخصم ليصلوا إلى تلقي الحجة ، ولا ينفروا من أول وهلة ، ولابد من إقامة الاستدلال على المشاهدة ، فالمشاهدة أقوى مما هو معروف في العقول ، والتصريح بالبراءة ، والتقريع عليهم بعد قيام الحجة ، وتبلج الحق ، وبلوغه في الظهور غاية المقصد ، وإثبات العقيدة عن طريق الاحتجاج بالآيات الكونية أي بما هم يقرون به حتى يصل بهم إلى مالا يقرون به ، فيبدأ من نقطة اتفاق معهم ثم يستدرجهم إلى سماع حجته ، فيوهمهم أولاً أنه موافق لهم على زعمهم ، ثم يكر عليهم بالنقض ، بانياً دليله على الحس والعقل؛ ليعرفهم جهلهم وخطأهم في عبادة غير الله ، وفي هذا أبين طريق في كيفية ابتداء المحاجة .

٩. بينت السورة الكريمة مؤهلات من يقوم بالحجة حيث لا ينبغي أن يتصدى للمحاجة إلا من تأهل له بعدة أمور وهي كالتالي :

- التزود بالعلم النافع الشرعي، حتى يكون حوارُه على علم وبصيرة، فلا قيمة للمحاجة الذي لا ينبني على أُسسٍ علميةٍ ولا يجري وفق موازينَ ثابتة . وكما يتزود المحاجج بمعرفة الحق الذي ينافح عنه ويدعو إليه؛ فلا بد له من التسلح بمعرفة أساليب وطرق أهل الكفر والضلال حتى يتمكن من إقامة الحجة عليهم. فالمحاجة ميدانٌ فاصلٌ من ميادين المواجهة وسلاحه العلم، فإذا اقتحمه من لا علم له كان: كَساعٍ إلى الهَيْجا بغَيْرِ سِلاح ، ومع العلم الكافي: لا بدَّ من الفهم الصحيح؛ ليدرك المتحدث حجج الخصم، ويعرف نقاط الضعف فيها وكيفية نقضِها بأسلوبٍ علميٍّ رصينٍ ، فلابد أن يكون المحاجج على بصيرة في محاجته لخصومه ، وأن يكون ذكياً، سريع البديهة ، وأن يستغل نقاط ضعف خصمه لينفذ إليه من خلالها .

- الاستقامة على المنهج لابد للمحاور المسلم أن يكون مستقيما على منهج الحق الذي يدعو إليه؛ فإن ذلك أدعى إلى قبول كلامه والتسليم له، فالمبادئ والأفكار إن لم تترجم إلى الواقع تظل خاويةً هامدةً مطويَّةً في بطون الكتب أو على ألسنةِ الناسِ، لكن المنهج الرباني منهجٌ واقعيٌّ عمليٌّ.

- الإخلاص والتجرد ، وذلك بأن يقصد المحاورُ بحوارِهِ وجه الله تعالى، فلا يبتغي بعلمه وحواره غرضا دنيويًّا، كتحصيل مال أو جاه أو تحقيق شهرة بل يتجرَّد للوصول إلى الحق، ويقبل على الحوار بنية خالصةٍ؛ فالإخلاص باب التوفيق والسداد، ومنار الهدى والرشاد، ومفتاح القبول، والمسلم في كل حركاته وسكناته وجميع أقواله وأفعاله يبتغي مرضاةَ ربِّه تعالى، ويرجو رحمته ورضاه ، إلى جانب تبرؤه من كل شرك ، وإتباع تلك البراءة ببيان عقيدة التوحيد ، وسبل التمسك بها .

- التلطف والرفق والرحمة: فالرحمة والرفق والإشفاق على المخالف: من أهمِّ آداب المحاجة ؛ إذ يجب على المحاجج أن يسعى لهداية الآخرين واستقامتهم، كما يجب عليه أن ينصح لهم، وأن يشفق عليهم، ووجود الرحمة في قلب المحاور دليل على تجريد الإخلاص لله عز وجل في نشر دينه، وعلامة على الصدق في الدعوة، والاستقامة على المنهج.

أضف إلى ذلك أن الرحمة " جسرٌ بين المحاور والطرف الآخر ومفتاح لقلبه وعقله، وخاصة عندما يشعر بها ويلمسها فتخرج ما في نفسه من أمراض الكبر والبطر والحقد والحسد ونحوها، فهي بذلك وسيلة لجمع القلوب وتأليف الأفئدة، وكلما ظهرت الرحمة على المحاور واتضحت معالمها كلما انشرح صدر الخصم واقترب من محاوره وأوشك على الإذعان والاقتناع"[1]

كذلك لابد عليه من انصاف الخصوم ، وعدم التعصب لمذهبه ، وأن يبتعد عن التصريح بخطأ الخصم الذي ربما يدعو إلى اللجاج والعناد ، فعليه التلطف بالآخر والرفق به والإشفاق عليه، وقد يضطر المحجج إلى التحدي مع الخصم ، لكن ليحترس من تنفير ذلك الخصم ؛ لأن ذلك أدعى إلى الحق ، فيحاور ويحاجج ويداري بتلطف ، ويرخي لخصمه العنان حتى يصل إلى ما يريد بألطف وجه ، وأحسن طريق ، ثم يكر عليه بإبطال حجته بما أوتي من حجج وبراهين ، وقوة إقناع ، مع التمسك بطرف حبل المحاجة ، كي لا يفلت زمامها ، فلا يلجأ الخصم إلى قطعها ، وعليه أن يعلم أن من أثر في قلب القريب يكون أقدر على التأثير في من بعد عنه .

١٠. بينت الآيات أصول المحاجة والتي تتركز فيما يلي :

- التدرج في المحاجة والبدء بالأهم، والتنزل مع الخصم في الحوار ومجادلته بالحجج القريبة إليه ، فالمحاور الناجح هو الذي يصل إلى هدفه بأقرب طريق، ولا يضيع وقته فيما لا فائدة منه، ولا علاقة له بأصل الموضوع، فمعرفة الأهم والبدء به يختصر الطريق ، ومن يتأمل في ترتيب سورة الأنعام، نجدها قد بدأت أولا بتقرير العقيدة، ثم بعد ذلك بتقرير الأحكام ، بولما كانت القضية الأساسية في القرآن المكي هي تقرير العقيدة فلقد دارت معظم آيات السورة حول هذا الهدف الأساسي كما اشتملت السورة الكريمة على ذكر بعض الأحكام العملية وجملة من الأصول الشرعية ن فنجد السورة الكريمة وقد تعرضت لجميع مسائل العقيدة: الإيمان بالله تعالى وملائكته، ورسله وكتبه واليوم الآخر والقدر[2].

---

[1] – الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة يحي زمزمي (ص ٢٠٧)

[2] – انظر : الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ١٢) ، الحوار مع أتباع الأديان ، مشروعيته وآدابه (ص: ٥٦) ، آداب الحوار وقواعد الاختلاف (ص: ١٩)

- تقديم الأدلة المثبِتة، أو المرجّحة للدعوى مع الالتزام بصحة النقل ، فمن واجبات المتحاورين التزام الطرق الإقناعية الصحيحة ، ولقد نعى الله على المشركين قولهم بغير علمٍ وبين أنه محضُ افتراءٍ [١] .
- تقديم الأصول على الفروع: فلا يتم الشروع في مناقشة الفرع قبل الاتفاق على الأصل؛ إذ لا بد من البدء بالأهم من الأصول وضبطها والاتفاق عليها، ومن ثم الانطلاق منها لمناقشة الفروع والحوار حولها، وهذه سورة الأنعام بدأت بتقرير العقيدة، ثم انتقلت إلى تقرير الأحكام الشرعية، فجاء الحديث عن أصول العقيدة (من الآية الأولى وحتى الآية ١١٦) ثم باقي السورة (من الآية ١١٧ إلى ١٦٥) أيضاً في تقرير العقيدة إلى جانب الأحكام الشرعية العملية التي ذكرت فيها، ومن الملاحظات على كثيرٍ من الحوارات المعاصرة بين الأديان إغفالها لمناقشة الأصول، وهذا مخالفٌ لمنهجِ الإسلام، إذ العقيدةُ أولا، فلا خير في أي حوارٍ لا يتطرّقُ إليها.
- التخلية قبل التحلية حيث إنه بعد نقض العقائد الباطلة وإثبات زيفها وبطلانها ينتقل المحاجج إلى تقرير العقيدة الصحيحة، فلما بيَّن تعالى في السورة الكريمة فسادَ ما كان عليه أهل الجاهلية من تحريم ما أحل الله بدون حجة ولا برهان؛ بيَّنَ تعالى أن طريق معرفة الحلال والحرام هو الوحي،وبعد إبطال حجج المخالفين وبيان ما هم عليه من زيغٍ وضلالٍ، ونقضِ معتقداتهم الفاسدة وتقاليدهم الراكدة، جاءت الآياتُ بالمنهج القويم والطريق المستقيم، المتمثِّل في تلك الوصايا الخالدة، الجامعة لأسسِ العقيدة وأصول الشريعة ومكارمِ الأخلاق[٢]، وحول هذا المعنى يقول الإمام البقاعي: " ولما أبطل دينهم كلَّه أصولاً وفروعاً في التحريم والإشراك، وبين فساده بالدلائل النيرة، ناسب أن يخبرهم بالدين الحق "[٣].
- البدء بالنقاط المشتركة وتحديد مواضع الاتفاق ، حيث إنه بين كلِّ متناظرينِ مختلفينِ حدٌّ مشترك من النقاط المتفق عليها والتي يسلِّمُ بها الطرفان، وهذا الاتفاق يكون مبنياً على أصل يرجع إليه، والمرجعية العليا عند كل مسلم هي: الكتاب والسنة، والضوابط المنهجية في فهم الكتاب والسنة ، والواجب على دعاة الإسلام أن ينبهوا على التركيز على مواطن الاتفاق قبل كل شيء، وأن يرفعوا شعار (التعاون فيما نتفق عليه) فإن هذا التعاون فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الدين وضرورة يحتمها الواقع، والمحاجج الناجح هو الذي يظهر مواطن الاتفاق، ويُفَضِّلُ البدءَ بالأمورِ المتفقِ عليها، مما يساعدُ على تقليلِ الفجوة، ويوثق الصلة بين الطرفين، ويعيد الحوار هادئًا هادفًا ، أما إذا كان البدء بذكر مواضع الخلاف وموارد النزاع: فإن فرص التلاقي تقلُّ، وفجوة

---

[١] — انظر : الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ١٢) ، وسطية الإسلام ودعوته إلى الحوار (ص: ٢٣)

[٢] – الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ١٣)

[٣] – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٧/ ٣١٦)

الخلاف تتسع، كما أنه يغيِّرُ القلوبَ، ويثيرُ التعصُّبَ والأهواء، فينبغي البدءُ بالنقاط المشتركة، لتحرير محلِّ النزاع، وتحديد نقاط الخلاف ، فمن تأمل في مقدمة سورة الأنعام يجد أنه بدأ بركيزةٍ أساسيةٍ هي موضعُ اتفاقٍ ونقطةُ تلاقي، وهي توحيد الربوبية الذي يقرُّ به المشركون، فيلزم من إقرارِهم به إقرارُهم بتوحيد الألوهية؛ فمن آمن بأنه تعالى لا ربَّ غيره يلزمه الإيمان بأنه سبحانه لا معبود سواه ، فلابد من الارتكاز على القضايا المسلمة والمسائل المتفق عليها، وجعلها منطلقا لما بعدها [1].

- التسليم بالنتائج السليمة والصحيحة التي يتوصل إليها المتحاجون، والالتزام الجادُّ بها، وبما يترتب عليها، فإذا لم يتحقق هذا الأصل كانت المناظرة ضرباً من العبث الذي يتنزه عنه العقلاء، يقول ابن عقيل: " وليقبل كلُّ واحدٍ منهما من صاحبه الحجة؛ فإنه أنبل لقدره، وأعون على إدراك الحق وسلوك سبيل الصدق، وقال الشافعي رحمه الله: ما ناظرتُ أحداً فقبل مني الحجَّة إلا عَظُمَ في عينيّ، ولا ردَّها إلا سقط في عيني " [2] .

١١. جاءت في السورة الكريمة عدة صور من المحاجة منها ما يلي :

- محاجة الله تعالى للمشركين ، فمنذ سطع نور الإسلام على الدنيا أدرك المسلمون طبيعة دينهم وعالمية رسالته، فقاموا يدعون الناس إلى هديه، فبدأ الحوار بين المسلمين ومشركي قريش، وسجل القرآن في آياته الكثير من هذه الحوارات، وتولى فيها الرد على المشركين ، وتفنيد الشبه التي يثيرونها والإجابة عن مقترحاتهم وأسئلتهم المتنعتة، وفي السورة مشاهد ومواقف مع المشركين سيقت لترهيبهم من هول يوم القيامة ، وتحذيرهم من عاقبة بقائهم على الشرك، ودعوتهم إلى الإقرار بالحق ،والتسليم له قبل فوات الأوان، ولو كانوا صادقين مع أنفسهم لتجردوا للحق وأخلصوا في طلب الهداية حتى يهتدوا لكنهم خدعوا أنفسهم قبل أن يخدعوا غيرهم[3].
- مجادلة المشركين الباطلة للرسول ﷺ الذين يغلب عليه من جهتهم طابع الجدل وإثارة الشبهات والافتراءات ، بل هو جدل عقيم صادر عن طائفة غير مؤمنة ، والفرق بين حوار الدنيا وحوار الآخرة واضحٌ جليٌّ، في الدنيا يطغى على أسلوب المشركين الكبر والعناد والغرور ، والإعراض والصد عن سبيل الله، أما في الآخرة فيظهر في صوتهم نبرة الحزن والأسى على ما فاتهم والمذلة

---

[1] – انظر : الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ١٣) آداب الحوار وقواعد الاختلاف (ص: ٥ ، ٥١) .

[2] – علم الجدل ص ١٤ .

[3] – انظر : الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ١٥) ، الحوار مع أتباع الأديان ، مشروعيته وآدابه (ص: ١٩)

والهوان والخزي والعار والحسرة والندامة على ما يكابدونه في هذا اليوم، فضلاً عن التجرد والتعري والمصارحة والإقرار(١).

- محاجة إبراهيم عليه السلام لقومه ، وهو ما حكته الآيات من (٧٤ – ٨٣)
- محاجة الرسول ﷺ للمشركين ، وهو ظاهر من أول السورة إلى آخرها ، بل هو غرض السورة الأساسي الذي لأجله نزلت هذه السورة الكريمة .
- تلقين الله الحجة لرسوله ﷺ ، وفيها يتجلى خطاب الحبيب للحبيب، الذي يهدف إلى التسلية والتسرية والتثبيت .

ومع تنوع هذه الحوارات فلا تعارض بينها بل يكمل بعضها بعضاً ، ويشبه بعضها بعضاً في بلاغتها وروعتها ومقاصدها وأهدافها وما تضمنته من معانٍ وفوائد ، وهي منسجمةٌ مع مقاصد السورة وأهدافها ومحورها وسياقها ، وهي حوارات واقعية حقيقية، هادفة بناءة، خالدة متجددة، تخاطب العقل وتثير الوجدا وهي كذلك واضحةٌ جلية مع ما اشتملت عليه من دقائق المعاني ولطائفِ المعارف وروائع الأساليب البيانية ، بالرغم أنها متباينة متفاوتة؛ بتباين أطرافها وأهدافها.

١٢. بينت الآيات موقف المشركين من الحجج الإلهية حيث أنهم قابلوها بالامتراء، والسخرية والاستهزاء، والتكذيب والافتراء، والجحود والمكابرة، والصدود والإعراض، والصدوف، والتضليل و زخرفة الأباطيل وتمويه الحقائق، والاغترار، والمساومة، واتباع الظن والتسرع في إصدار الأحكام، واتباع الهوى، والتعصب، والتقليد الأعمى .

١٣. وردت في السورة الكريمة أساليب عديدة للمحاجة جاءت لتقرير الحق بالبرهان والدليل، ومواجهة ما عليه المشركون من شبهٍ وأباطيل، منها ما يلي :

- السبر والتقسيم ويعني حصر الأوصاف للموضوع الذي يجري التحاور فيه، ثم بيان عدم وجود وصفٍ من هذه الأوصاف تُسوِّغُ قبولَ الدعوى فتبطلُ دعوةُ الخصم (٢).
- الانتقال وهو أن ينتقل المستدل إلى استدلال آخر؛ لكون الخصم لم يفهم وجه الدلالة من الأول، أوليزداد المحَاوَر اقتناعاً ، والذي يوجب العدولَ إلى دليلٍ يفضحُ معارضته ويقطعُ حجاجه، ومتى كان الخصم بهذه الصفة جاز لخصمه الانتقال إلى دليلٍ آخر أقرب إلى الفهم وأفلج للحجة ، والمتأمل في السورة الكريمة يلمس تسلسل الأدلة وتتابعها، وتناسبها مع جميع المخاطبين على اختلاف مداركهم ومعتقداتهم وثقافاتهم والحوار الناجح قائم على هدف واضح ، وهو الوصول إلى الحق

(١) – انظر : الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ١٥) الحوار مع أتباع الأديان – مشروعيته وآدابه (ص: ٨٠)

(٢) – الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ٣٢)

(١)،" فالمحاجة والمجادلة إنما فائدتها طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلى الحق ومن الجهل إلى العلم، ومن العمى إلى الإبصار " (٢)

- إخراج الكلام بصيغة الاستفهام وذلك ليكون أوقع في النفس، وأبلغ في فهم المحاوَر، وأدعى إلى اقتناعه وتسليمه، وإخراج الكلام بصيغة الاستفهام أبلغ في فهم المتعلم، فإن الإنسان إذا سئل عن مسألة لا يعلمها ثم أخبر بها بعد الامتحان بالسؤال عنها فإن ذلك أوعى لفهمها واستيعابها وحفظها ، وهذه الاستفهامات تشعر الخصم بأهمية ذلك الأمر ، وليستخرج منه القرارات السليمة؛ لأن هناك أموراً واضحة لا تتطلب جهداً ، فإذا ضعفت النفس البشرية ، وأرادت ما يخالف طبيعتها ، رجعت بالاستفهامات إلى جبلتها الفطرية وحب الخير. (٣).
- ضرب المثل الذي يعتبر وسيلةٌ من وسائلِ الإقناعِ وأسلوبٌ من أساليبِ التقريرِ لما فيها من تقريب المعاني وترسيخها في الأذهان، وصياغتها في صورٍ حيةٍ محسوسةٍ ومشاهدَ واقعيَّةٍ ملموسة، فتأتي تلك الأمثال ملامسةً للواقع الذي يعيشُه المخاطبُ، مما يجعلها أكثر الأساليب تأثيرا على الوجدان(٤).
- سرد القصص حيث إن للقصص القرآني مقاصد سامية ، وأغراض حكيمة ، وفوائد متعددة تتواكب وتتناسب مع المقصد العام للقرآن الكريم: وهو هداية البشرية إلى ما يصلحها في عاجلها وآجلها، في معاشها ومعادها . وفيها عظة وعبرة وهداية ورحمة وتفصيل وبيان، وتثبيت للقلوب وتزكية للنفوس وسمو بالأرواح، والقصص القرآني حجة ساطعة وآية قاطعة تشهد على صدق رسول الله ﷺ فيما جاء به، وكل قصة قرآنية تعد دليلاً واضحاً على نبوته ﷺ ،كذلك فإن القصص القرآني أسلوب من أساليب الدعوة إلى الله تعالى نتعرف من خلاله على مناهج الأنبياء في الدعوة وأساليبهم في المحاجة ، فهو زاد للدعاة إلى الله تعالى ونبراس لهم (٥).
- التفكر في المصنوع يدل على بعض صفات الصانع وفي السورة الكريمة حوار مفصل حول آيات الأنفس والآفاق ، ودلالتها على قدرة الخالق عز وجل ووحدانيته وعظمة سلطانه وواسع علمه ولطائف حكمته وروائع صنعتِهِ، ولفتِ الأنظار إلى هذه الآيات، والترهيب من الغفلةِ أو الإعراض(٦).

---

(١) – انظر : الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ٣٦) ، استخراج الجدال من القرآن الكريم (ص: ٦٧) ، أسلوب الحوار من خلال سيرة مصعب بن عمير – رضي الله عنه – وتطبيقاته التربوية (ص: ٩٣)

(٢) – إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/ ٢٥٤)

(٣) – انظر : الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ٣٦) ، أسلوب الحوار من خلال سيرة مصعب بن عمير – رضي الله عنه – وتطبيقاته التربوية (ص: ٤٨)

(٤) – الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ٣٧)

(٥) – الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ٣٨)

(٦) – الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ٣٨)

- براعة الاستهلال ، قال السيوطي في الإتقان: " وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه ويشير إلى ما سبق الكلام لأجله "[١]ومن براعة الاستهلال في السورة الكريمة استفتاحها ببيان استحقاقه تعالى للحمد فهو تعالى المتفرد بالكمال والجلال وهو المحمود ولا يزال على ما أبدى من النعم وأسدى من الكرم، ومن نعمه الجلية خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ومع ذلك ينصرف المشركون عن عبادته إلى عبادة الأصنام التي يسوُّونها به تعالى ، من هنا فإن مدار السورة الكريمة حول تقرير العقيدة الصحيحة ونقض عقائد الشرك وجهالات المشركين كما هو واضح من مطلع السورة، وهكذا ينبغي للمحاجج أن يُعنى باستفتاح الحجة بما يناسبُ موضوعه، ويثيرُ الانتباه فتُصْغِي القلوبُ مع الأسماع[٢].
- الالتفات وفيه لفتُ الأنظار وتصريفُ القولِ وحسنُ الانتقال من موضوع إلى موضوعٍ آخر، وقد يكون من الخطاب إلى الغيبة ونحو ذلك أو الالتفات من موضوعٍ لموضوعٍ.[٣]
- حسن الختام حيث إن للخاتمة وقعُها في النفوس وأثرُها الذي يبقى في الأذهان فهي آخر عهد المستمع بالمتكلم ، وشأن هذه السورة الكريمة شأن غيرها من السور، حيث حسن الخاتمة، ويعني بذلك ختام مقاطعها وموضوعاتها وكذا ختام السورة الكريمة[٤].

فمن تأمل في ختام السورة الكريمة وهي تقترب من نهايتها، حيث التناسق بين خاتمة السورة وما اشتملت عليه من موضوعات ، كذلك من تأمل في نهاية كل حوارٍ ورد في السورة سيجد كثيراً من الفوائد وتخرج بالكثير من العبر والقواعد.

- مباغتة الخصم وقطع الطريق عليه وهو فنٌّ بديعٌ من فنونِ المحاجة [٥].
- الإسجال وهو أن تثبت وتضبط على لسان الخصم ألفاظاً في سياق آخر تسجل به عليه ما كان عنده محلُّ شبهةٍ، ومن بديعِ صورهِ في هذه السورة الكريمة أن القرآن الكريم يسجل عليهم إقرارهم واعترافهم في مشاهد القيامة، مع ما كان منهم في الدنيا من جحودٍ وإنكار، إذ لا مفر من الإقرار في هذا الموقف الرهيب ، وفي مثل هذا اللون من التسجيل إثارة لوجدان المتشككين والمنكرين وإثارة الخوف في أنفسهم، حين يسمعون اعتراف من على شاكلتهم، ويدفعهم الخوف إلى التأمل، عساهم يهتدون. [٦].

---

[١] - الإتقان للإمام جلال الدين السيوطي : (١/ ٣٥٤)

[٢] - الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ٣٩)

[٣] - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير الكاتب : (١/ ١٤٨)

[٤] - الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ٤٠)

[٥] - الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ٤١)

[٦] - الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ٤٢) ، من بلاغة القرآن (ص: ٢٨٢)

١٤. بينت السورة الكريمة سمات الحجة الصحيحة التي تدورُ مع الخصائص العامة لهذا الكتاب، الذي نزل هدايةً ورحمةً، وتبصرةً وذكرى، ودلالة وبرهاناً، فضلا عن كونه المعجزةَ الخالدةَ والآيةَ المتجددةَ التي تحدَّى اللهُ بها العربَ والعجمَ، بلهَ الإنس والجن، ومن هذه السمات ما يلي :

- العموم وذلك في مخاطبتُه لجميع الناس على اختلاف مداركهم، مع الجمع بين الوضوحِ والبيانِ والدقَّةِ والإتقان، فتراه متلائماً متوافقاً مع تفاوت العقول ، وتعدد الثقافات ، وتنوع الاهتمامات ، واختلاف المواهب والملكات ، مع ذلك لا تلقى فيه تعارضاً أو تناقضاً أو تفاوتاً في روعة الأساليب ورفعتها وجلالها ودقتها، فمن بديهات الإسلام وصفاته الأصلية أنَّه جاء لعموم البشر ولم يأت لطائفة معينة منهم، أو لجنس خاصٍّ من أجناسهم ، وعموم الإسلام هذا غير مقصور على فترة معينة من الزمن، أو جيل خاصٍّ من البشر، وإنما هو عموم في الزمان كما هو عموم في المكان، ولهذا فهو باقٍ لا يزول ولا يتغير ولا ينسخ ؛ لأن النسخ يجب أن يكون في قوة المنسوخ، سواء أكان النسخ كليّاً أو جزئياً، وحيث إنَّ الإسلام ختم الشرائع السابقة كلها، وإنَّ محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، فمعنى ذلك أنَّ الشرائع الإلهية انقطعت، وأنَّ الوحي الإلهي لم يعد ينزل على أحد ، وعلى هذا لا يتصوَّر أن ينسخ الإسلام أو يغيره شيء ، والمتأمل في السورة الكريمة وما اشتملت عليه من حُجَجٍ يَلْحَظُ التنوع في المحاجة والتفنن في الأساليب بما يتلاءم مع تنوع الناس وتفاوتِ مداركهم، ففيهم العاميُّ وفيهم العالم، وفيهم من له عناية بعلم من العلوم أو فن من الفنون، فجاء الخطاب في السورة متنوعا لمراعاة تنوع المخاطبين ، والمحاجج الفطن يعرف من يحاجحه ، وبالتالي يعرف الطريقة التي ينبغي له أن يناقشه بها ويحاوره ، من هنا كان هذا التنوعُ العجيبُ في عرض الحجج والبراهين التي تناسب جميع العقول وتتواكب مع سائر العصور والأجيال [1] .
- الشمول حيث إن حجج القرآن الكريم متنوعة شاملةٌ، تحيطُ بجميع جوانب الدين من عقيدة وشريعة وأخلاق ومعاملاتٍ، وتستوعب النفس البشرية بكل كيانها وسائر مداركها ومراكز التأثير فيها ، وحين نطبق ذلك على سورة الأنعام نلمس هذا الشمولَ واضحاً جلياً في تنوع الخطابِ الذي يوجَّهُ إلى العقل والوجدانِ في آنٍ واحدٍ، وقد يوجَّهُ إلى كلٍّ وحدةٍ منهما على حدة، فتراه تارةً يحاور العقول والأفهام، وتارةً يناجي المشاعر والوجدان، وتارةً يدعو إلى النظر والتأمل والاعتبار في آيات الأنفس والآفاق، وأخرى ينقلُ المستمع – نقلاً حيًّاً – إلى أجواء يوم القيامة فيعيش مع هذا الحدث الجليل بكل كيانِهِ ، فالإسلام ليس مقصورًا فقط في الصلاة والصوم مثلًا بل إن الإسلام يجب أن يحكم في كل صغيرة وكبيرة. وبهذا يكون المدعو في هذا الطور قد حول جميع حركاته وسكناته وفق شرع الله عز وجل[2].

---

[1] – انظر : الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ٥٧) ، أصول الدعوة (ص: ٥٧) .

[2] – انظر : الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ٤٤) ، الدعوة الفردية وأهميتها في تربية الأجيال (ص: ١٤)

- الموضوعية ويعني الالتزام بالموضوع الأساسي للمحاجة ، وأن لا ينتقل إلى غيره إلا بعد استيفائه، وهذا المنهج تراه واضحاً في الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم بوجهٍ عام، وكذا وحدة الموضوع في السورة الواحدة ، ومن الموضوعية الالتزام بموضوع المحاجة وأن لا يحيد عنه، كما يفعل بعض الناس فيراوغون ويتهرَّبون من المواجهة والمناقشة الجادة، ولربما يتفلتون من الحوار الهادف بالسخرية والتهكم والهزل، وإثارة الزوابعِ وتشتيت الأذهان، وهنا ينبغي الإعراض عنهم ، كذلك من الموضوعية الدقة والتحري في النقل، والتوثيق. (١)
- الواقعية من حيث عرضه للعقيدة التي يتسلحُ بها المؤمنُ في مواجهةِ واقعِهِ ؛ فكل ما جاء به من تشريعات، تناسبُ الواقعَ، وتعالجُ النوازلَ والوقائعَ من خلال قصصه وأمثاله التي نستلهمُ منها العبرَ، ونستمدُّ المواعظَ، ونستخلصُ الفوائدَ ، وكذا حِكَمِهِ ووصاياهُ التي تَشْحَذُ الهِمَمَ وتسمُو بالأرواحِ ، وتُقِيمُ الحياةَ وتنهضُ بالمجتمعاتِ ، كذلك حديثه عن حقيقةِ الإنسانِ وما يتعلقُ به من حيثُ المبدأُ والمعاشُ والمعادُ، وما أَوْدَعَ اللهُ فيه من غرائزَ وعواطفَ ، ومن واقعية المنهج القرآني نزوله منجماً حسب الوقائع والأحداث، ومتابعته لكل ما يستجد على ساحة الدعوة على مدار مرحلتيها المكية والمدنية ، مع مراعاة مايلمسُ واقع الناسِ، ويربطُ الماضي بالحاضر، ويسلِّطُ الأضواءَ على المستقبلِ القريبِ والبعيدِ، والإسلام لا يغفل طبيعة الإنسان وتفاوت الناس في مدى استعدادهم لبلوغ المستوى الرفيع الذي يرسمه لهم، وفي ضوء هذا النظر الواقعيّ جعل الإسلام حدًّا أدنى أو مستوى أدنى من الكمال لا يجوز الهبوط عنه؛ لأن هذا المستوى ضروري لتكوين شخصية المسلم على نحوٍ معقول؛ ولأنه أقل ما يمكن قبوله من المسلم ليكون في عداد المسلمين؛ ولأنه وضع على نحو يستطيع بلوغه أقل الناس قدرة على الارتفاع بها، وهي المسماة بالفرائض، كما يشمل جملة معان يجب هجرها، وهي المسماة بالحرمات. إن هذه الفرائض والمحرمات جعلت بقدر طاقة أقل الناس استعدادًا لفعل الخير، وابتعادًا عن الشر، ومن ثَمَّ يستطيع كل واحد الوفاء بمقتضاه، ولا يعذر في التخلف عنها، ولكن بجانب هذا المستوى الإلزامي الواجب بلوغه على كل مسلم، وضعت الشريعة مستوى آخر أرفع منه وأوسع منه، وحببت إلى الناس بلوغ هذا المستوى العالي، فإلزامهم به إرهاق لهم وحرج شديد، والحرج في شرع الإسلام مرفوع؛ لأنه يخالف نظرة الإسلام الواقعية، (٢).
- القوة حيث إن قوة الحق وسلطانه على النفوس وتأثيره في القلوب وتغلغله في الصدور، تجعل المحاجج ثابتاً مطمئناً واثقاً مستيقناً بأن الله تعالى يؤيده بالحجج ويُمُدُّه بالثبات أمام خصوم الدعوةِ، فلا يأبه بهم ولا يلتفت لتهديداتهم التي يلجئون إليها حين تُعْيِيهم الحجج وتُلجمُهم البراهين، فالذي يدعو إلى الله تعالى يؤيده تعالى ويعضِّده ويُجري الحقَّ على لسانه ، والمغالطات لا تثبت أمام قوة الحق،

(١) – الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ٤٤) .

(٢) – الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ٤٥) ، أصول الدعوة (ص: ٧٤)

ونحن يكفينا أن نقيم هذه الأدلة من كتبهم على صدق الدعوى، ولا يهمنا أن يذعن القوم لما نقول فحسبك من خصمك أن تثبت باطل ما يدعيه أمام الحق الذى تدافع عنه ، والفاصل بيننا . فى النهاية . هو الله الذى لا يُبدل القول لديه[1] .

- الوضوح والتأثير والبيان والصراحة فالرسالة الدعوية الناجحة لن تلقى القبول إذا كانت غامضةً أو معقدةً، لأن مصيرها في هذه الحالة الإهمال والإعراض وقد تكون الرسالة واضحة ولكنها لا روح فيها ولا تأثير ، كذلك لا بدَّ للمحاجج أن يكون واضحاً أمام الآخرين في نهجه ومقصده وذلك لأن المائل إلى دقيق المحاجة: هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام؛ فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم يتخطَّ إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلُّون، ولم يكن ملغزاً، فأخرج تعالى مخاطباته في محاجَّة خلقه في أجلِّ صورة تشتمل على أدقِّ دقيق؛ لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة، وتفهم الخواصُّ من أثنائها ما يوفي على ما أدركه فهمُ الخطباء[2] .
- تكرار المعاني والأخبار لإخراج المعنى الواحد في قوالب مختلفة من الألفاظ والعبارة، وبأساليب مختلفة تفصيلاً وإجمالاً، وتصريف الكلام في ذلك حتى يتجلى إعجازه، ويستبين قصور الطاقة البشرية عن تقليده، ولا نكادُ نعثر في القرآن كله على معنى يتكرر في أسلوب واحد من اللفظ، ويدور ضمن قالب واحد من التعبير، فلا بدّ أن نجد في كل مرة أسلوباً جديداً وعرضاً جديداً وتركيزاً على جانب من جوانب المعنى تظهره الآيات؛ ذلك أن في الناس من لا يكفيه الموجز من القول حتى يسمع الموضوع مفصَّلاً، والعكس صحيح، والقرآن نزل مناسباً للجميع.[3] والتكرار مستحبٌ في كلام الخالقِ جلَّ وعلا ، له حلاوتُه وطلاوتُه وله تأثيرُه وعُذوبتُه، وله فوق ذلك مقاصده وأهدافه ، وهو وسيلةٌ من وسائل الإقناع ومنهجٌ تربوي أصيلٌ، وفيه موعظةٌ وتذكيرٌ ولا غنى في ذلك عن التكرارِ وفيه زيادةُ تفصيلٍ وبيانٍ ، وإذا كان التكرار في كلام البشر ربما يملُّ منه القارئ والسامع فإن التكرار في القرآن سمةٌ من سماتِهِ الرائعة وأساليبه البديعة، ودليلُ على صدقه وبرهان على أنه من كلام الخالق جل وعلا [4].
- التنوع بإبراز المعنى الواحد في قوالب متعددة وصياغاتٍ متنوعةٍ وفي سياقاتٍ مختلفةٍ ؛ لتقرير هذه المعاني وترسيخِها أو لدحض شبهٍ عالقةٍ بالأذهان وتفنيدها، مع مراعاة السياقِ الذي به تنتظم

---

[1] – انظر : الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ٤٦) ، شبهات المشككين (ص: ٩٧)

[2] – انظر : الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ٤٧) ، البرهان في علوم القرآن للزركشي النوع الثالث والثلاثون في معرفة جدله : (٢/ ٢٤)

[3] – الحوار في القرآن معالمه وأهدافه للدكتورة سناء عابد : (١/ ١٥٨) بتصرف.

[4] – انظر : الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ٤٨) .

المعاني، والمتأمل في السورة الكريمة يلمس هذا التنوع في موضوعاتها وفي أطرافها، وفي أمكنتها وأزمنتها، وفي عرضها وأسلوبها وفي تناسبها واتساقها مع أهداف السور ومحاورها، ونرى التنوع أيضا في الموضوعات التي تطرقت إليها فنجدها تطرقت أولاً إلى قضية العقيدة بجميع محاورِها، كما استطردَ إلى تقرير الأحكام ومكارم الأخلاق، " إن القرآن الكريم بحواره يخاطب الكائن البشري كلَّه؛ عقله وضميره ووجدانه، يحرك الفكر والتأمل، ويلمس الحسَّ والبصيرة، ويثير الانفعال والشعور، فيستغلُّ في الإنسان كلَّ طاقاته ومواهِبِهِ، وينفذُ إلى صميمه من كلِّ منافذه، ويؤثر فيه بكل المؤثرات، لم يقتصر الحوار على خطاب العقل، فالعقل نافذةٌ واحدةٌ من نوافذه، لم يسلك سبيل الإقناع الذهني المجرد، ولم يعتمد قط على أقضية المنطق الجافة، إنما ارتفع بأسلوبه إلى مجال الفطرة الشاملة، وقصد به إلى منطقة الوجدان "[1].

هذا فضلا عن تناسب هذا الحوار ومواكبته لجميع العصور ومراعاته لتفاوت العقول واختلاف الثقافات، فالقرآن الكريم رسالة خالدة ودعوةٌ عالميةٌ وهدايةٌ شاملةٌ للبشريةِ: " وأي حوارٍ في الدنيا يمكن أن يستوعب أفهام البشرية جميعا في عصور متباينةٍ على اختلاف مدارك الناس وتنوع ثقافاتهم؟ أيُّ حوار يمكن أن يكون كذلك إلا الحوار الإلهي المعجز " [2].

- التداخل أو الامتزاج والتلاحق في السورة الكريمة دونما فواصل بينها، متمازجةً متداخلةً متعانقةً، ومع تنوع موضوعاتها إلا أنها يجمعها موضوع رئيسي فهي في جملتها تدور حول ترسيخ العقيدة في القلوب والوجدان وتقريرها في العقول والأذهان، مع ما يتعلقُ بها ويترتب عليها من أحكامٍ عمليةٍ، فهي حواراتٌ متعددة ومتنوعةٌ ينتظمُها حوارٌ واحد، والحقيقة أن هذه الميزة في الحوار القرآني إنما هي مظهرٌ من مظاهر تفرده واستقلاله عن كلِّ ما سواه ، ولقد أورد القرآن الكريم من أفانين القول في سياق محاجّة الكفار، ما يخرج عن طوق البشر الإحاطة بمثل هذه الأساليب في أوقات متقاربة أو متباعدة، فالنفس الإنسانية لا تستطيع التحوُّل في لحظات عابرة في جميع الاتجاهات بل تتأثر بحالة معينة، ولا تستطيع التحول عنها إلى اتجاه معاكس إلا ضمن بيئة ملائمة، أما الأسلوب القرآني فيلاحظ فيه الانتقال في شتى الاتجاهات في لحظات متقاربة متتالية، وأحيانا تكون مترادفة[3].

---

(1) – منهج القصة في القرآن محمد شديد ، (ص ١٣) .

(2) – زاد الدعاة عبد المهيمن الطحان (ص : ٦٩) .

(3) – انظر : الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ، (ص : ٥٠) .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمه تتم الصالحات ، حمداً يملأ الأرض والسماوات ، على ما أنعم من الفضائل والخيرات، وعلى نبيه محمد أفضل التسليم وأتم الصلوات ، الذي جاء بالهدى وبلغ الآيات البينات ، وعلى آله وصحبه أصحاب المناقب والكرمات ، وبعد :

فإنني إذ أضع رحالي في بحثي المتواضع الذي عشت فيه مع سورة الأنعام والذي أسأل الله عز وجل كما أعانني على تدبرها وتأملها والتفكر في مواضيعها ومعانيها وألفاظها ، أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يأجرني ويتجاوز عنى لفرط جهلي ، وعظيم تقصيري ، وأن ينفع به الأمة ، ويجعله مباركا ،

وسأسوق فيما يلي أهم النتائج والتوصيات في هذا البحث.

١. أظهر هذا البحث الفرق بين التناسب والتناسق الموضوعي في القرآن الكريم ، فالتناسب يكون في الألفاظ والجمل والآيات ، والتناسق يكون بين موضوعات السورة الواحدة .

٢. من خلال دارسة التناسق الموضوعي في سورة الأنعام تبين أن التناسق الموضوعي هو الطريق لمعرفة الوحدة الموضوعية في السورة ، واستجلاء المحور الرئيسي والموضوع الكلي في السورة.

٣. من خلال دراسة التناسق الموضوعي في سورة الانعام اتضح أن النظم القرآني يشمل أربع مصطلحات بعضها أخص من بعض ، فنظام القرآن هو أعم تلك المصطلحات ثم يدخل تحته التناسب ، ثم يدخل تحت التناسب التناسق ، ثم يدخل تحت التناسق الوحدة الموضوعية، فكلها مبنية على التي قبلها .

٤. تبين أن هناك تناسقاً بديعاً ، وتناسباً لطيفاً ، بين آيات سورة الأنعام وبين معانيها وألفاظها ، وبين موضوعات السورة وترابطها الوثيق ، فهي كلها تمضي في سياق متآلف ، وبأسلوب متناسق ومترابط ، وهناك ترابط وثيق بين سورة الأنعام وما سبقها وما جاء بعدها .

٥. أن مقاصد سورة الأنعام وأهدافها مكملة لبعضها البعض ، وخاصة عندما نتأمل المناسبات بينها ، ونمعن النظر في تناسق موضوعاتها ، فهي في ذلك تمثل جزءا من سلسلة مقاصد سور القرآن الكريم وأهدافه الشرعية ، والإيمانية ، والاجتماعية ، والاقتصادية .

٦.	أن سورة الأنعام اختصت بأسلوبها الحجاجي في مواجهة بيئة الدعوة في العهد المكي ، ومواجهة الذي آل إليه حال مشركي مكة وتطور وتفاقم في التكذيب والاعتراض .

٧.	أن المحاجة ضرورة عصرية: ففي هذا العصر الذي أضحى العالم فيه مع تنائي الديار وتباعد الأقطار كالقرية الصغيرة، أصبح الحوار ضرورة تفرضها علينا تلك الثورة الهائلة التي لم تكن تخطر على بال.

٨.	حاجة الداعية إلى فن المحاجة وأصولها: فمعرفة ذلك لا غنى عنه لمن يسلك طريق الدعوة، إذ أن الدعوة إلى الله تعالى مبنية على المحاجة وقائمةٌ عليها، وميادين الدعوة ومساراتها متعددة ومتنوعة، ومن المتطلبات الضرورية للداعية حاجته إلى فهم أصول الجدال، والحوار، والمناظرة؛ فإن كثيراً من الناس بدافع المحبة والعاطفة للإسلام يفسد أكثر مما يصلح، إما بالسبِّ والشتم للمقابل، أو بعدم التمكن من المجادلة لسرعة غضبه وحمقه، وقد يكون البعض من الدعاة صيداً ثميناً لخاتل مارق يريد أن يفسد عليه، وذلك بإثارته، والتشغيب عليه، وجره إلى شبهات ينهزم أمامها في أول جولة، إن لم تتزعزع ثوابته، وتختلط عليه الأمور .

٩.	لابد من التعرف على أطروحات الطرف الآخر ووجهات نظره وحججه في القضايا التي هي موضوع المحاجة ، في مقابل تعريفه بما يغيب عنه أو يلتبس عليه من أصول ديننا ومحاسنه.

١٠.	دلت السورة الكريمة على طلب الحق والتوصُّل إلى الحقيقة الثابتة ومن ثَمَّ التسليم بها ثُمَّ الدعوة إليها .

١١.	بينت السورة الكريمة لوناً من ألوان الجهاد وهي المحاجة والتي تنتصر فيه قوة الحجة والبرهان دون خسائر بشرية أو مادية فلا يحتاج إلى إعداد الجيوش وتجهيزها، ولا يبدد ثروات الشعوب وإمكاناتها في سباق التسلُّح.

١٢.	الحاجة إلى تأصيل المحاجة تأصيلاً شرعياً من خلال سور القرآن عامة ومن سورة الأنعام والعودة به إلى المنبع الصافي والمورد العذب الشافي، الكتاب والسنة، مع الاقتداء بسلفنا الصالح وسائر الدعاة والمصلحين والمجددين.

١٣.	من خلال دراسة التناسق الموضوعي في سورة الأنعام تبين أن فهم آيات السورة في ضوء الترابط والتناسق الموضوعي فيها يعطي شمولية في الفكر والنظر ، وتظهر دلالة هذا الفهم عند إرادة التطبيق الواقعي لمنهج القرآن في حياة الناس ، وتصحيح المفاهيم الخاطئة التي تعارفوا عليها ، وتشبثوا بها دون الاستهداء بنصوص الوحي .

١٤.	إن الوقوف على معاني كلام الله تعالى ، وإظها التناسق الموضوعي يدفع المسلم لمعرفة معاني كتاب الله تعالى مما يبرز أثر ذلك في سلوكه وتعاملاته .

١٥.	في تقرير التناسق الموضوعي شحذ للهمم للتمسك بتعاليم هذا الدين لأنه يبرز للمتأمل في ذلك التناسق عظمة هذا الدين ، وهيمنته على الأديان كلها بما في ذلك أنظمتها وقوانينها ؛ لأنه مخاطب به كل مسلم على مر العصور والدهور .

١٦.	إن إبراز التناسق الموضوعي في السورة الكريمة يدعو إلى مزيد من التأمل والتدبر لآيات الذكر الحكيم من أجل الوقوف على هدايات القرآن الكريم في المجالات المختلفة التي تحتاج فيها الأمة إلى حلول مناسبة وصالحة للتطبيق .

١٧.	بعد دراسة التناسق الموضوعي في سورة الأنعام تبين أن بالتناسق الموضوعي يدرك العبد المسلم عظم كل لفظة وكل جملة بل كل حرف من حروف القرآن الكريم ، ويعطيه ذوقاً مرهفاً يؤثر في الاحساس والشعور عند سماعه لكلام ربه العزيز .

وختاما : أحمد الله تعالى على توفيقه وامتنانه ، وعلى فضله وإنعامه ، فله الحمد في الأولى والآخرة، أحمده حمداً كثيراً مباركاً فيه ، واسأله سبحانه وتعالى كما أنعم وتفضل أن يسدد القصد ، ويحسن النية ، وأن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم ، لا حظ لأحد فيه ولا نصيب ، وأن يجزي علماء الأمة السابقين واللاحقين خير الجزاء على ما قدموا للأمة من علمهم الوفير ، وأن ينفعني والمسلمين بالعلم النافع والعمل الصالح .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ، ومن اهتدى بهديهم ، واستن بسنتهم إلى يوم الدين .

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الاتقان في علوم القرآن لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م

٢. أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني لزكريا إبراهيم الشلول ، دار الكتاب الثقافي ، اربد – الأردن ، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

٣. أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني من الشلول لزكريا ابراهيم الشلول ، دار الكتاب الثقافي، ٢٠٠٥ م

٤. الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن إبراهيم علي السيد علي عيسى، دار السلام للنش والتوزيع والترجمة . ط٥ ، ٢٠١٠ م

٥. أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي ، دار الفكر للطباعة والنشر – لبنان ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا .

٦. آداب الحوار وقواعد الاختلاف لعمر بن عبد الله كامل ، الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية

٧. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى ، دار إحياء التراث العربي – بيروت

٨. الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد لصالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان ، دار ابن الجوزي ، الطبعة: الرابعة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

٩. أساس البلاغة لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله ، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

١٠. أساليب المحاورة في القرآن الكريم لعمران إسماعيل فيتور ، وطالب محمد إسماعيل، دار زهران للنشر والتوزيع ، عمان – الأردن ، ط ١ ، ١٤٣١ هـ – ٢٠١٠ م .

١١.	أسباب نزول القرآن لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي ، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان ، دار الإصلاح – الدمام ، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

١٢.	استخراج الجدال من القرآن الكريم لعبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب الجزري السعدي العبادي، أبو الفرج، ناصح الدين ابن الحنبلي ، تحقيق : الدكتور زاهر بن عواض الألمعي، مطابع الفرزدق التجارية ، الطبعة: الثانية، ١٤٠١ هـ .

١٣.	الاستخلاف والحضارة – دراسة في الاستخلاف الإلهي للإنسان في ضوء القصص القرآني – لمحمد عياد قريبع ، ط١ ، دار زهران للنشر والتوزيع ، ٢٠١٣م .

١٤.	الاستخلاف والحضارة : دراسة في الاستخلاف الإلهي للإنسان في ضوء القصص القرآني لمحمد عياد قريبع، ط١، دار زهران للنشر والتوزيع، ٢٠١٣م .

١٥.	الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي ، تحقيق: علي محمد البجاوي ، دار الجيل، بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .

١٦.	أسد الغابة في معرفة الصحابة لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير ، تحقيق : علي محمد معوض – عادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤ م

١٧.	أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان لمحمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء ، المحقق: عبد القادر أحمد عطا ، مراجعة وتعليق: أحمد عبد التواب عوض ، دار النشر: دار الفضيلة

١٨.	أسرار ترتيب القرآن لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ، دار الفضيلة للنشر والتوزيع .

١٩.	الإسلام دين العلم والمدنية لمحمد عبده دار المدى للثقافة والنشر ، الطبعة: الاولى ١٩٩٣.

٢٠.	أسلوب الحوار من خلال سيرة مصعب بن عمير – رضي الله عنه – وتطبيقاته التربوية ، عدنان بن سليمان بن مسعد الجابري، أطروحة للماجستير في التربية الإسلامية بقسم التربية – الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، بإشراف: د عبد الرحمن بن رجاء الله الأحمدي ، عام النشر: ١٤٣٣/ ١٤٣٤هـ .

٢١.	أسماء سور القرآن لمحمد عبد الرحمن الشايع ، دار كنوز اشبيليا للنشر والتوزيع ، الرياض – السعودية ، ط١ ، ١٤٣٢ – ٢٠١١ .

٢٢.	أسماء سور القرآن وفضائلها لمنيرة محمد ناصر الدوسري ، تقديم / الأستاذ الدكتور فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي ، دار ابن الجوزي ، رسالة ماجستير في التفسير وعلوم القرآن ، من كلية الآداب للبنات بالدمام ، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ

٢٣.	إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز لبديع الزمان سعيد النورسي ، المحقق: إحسان قاسم الصالحي ، شركة سوزلر للنشر – القاهرة ، الطبعة: الثالثة، ٢٠٠٢.

٢٤.	الإصابة في تمييز الصحابة لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني ، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤١٥ هـ.

٢٥.	أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة التاسعة ١٤٢١هـ-٢٠٠١م .

٢٦.	أصول السرخسي لمحمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي ، دار المعرفة – بيروت .

٢٧.	إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي ، دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة الثامنة – ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٥ م.

٢٨.	إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين بن أحمد مصطفى درويش ، دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، (دار اليمامة – دمشق – بيروت) ، (دار ابن كثير – دمشق – بيروت) الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥ هـ

٢٩.	إعلام الموقعين عن رب العالمين لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية ، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم ، دار الكتب العلمية – ييروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩١م .

٣٠.	الأعلام لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي ، دار العلم للملايين ، الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو ٢٠٠٢ م .

٣١.	أعيان العصر وأعوان النصر لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، المحقق: الدكتور علي أبو زيد، الدكتور نبيل أبو عشمة، الدكتور محمد موعد، الدكتور محمود سالم محمد ، قدم له: مازن عبد القادر المبارك ، دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، دار الفكر، دمشق – سوريا ، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨ م .

٣٢. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية .

٣٣. إمعان النظر في نظام الآي والسور لمحمد عناية الله أسد سبحاني ، دار عمار للنشر والتوزيع ، عمان — الأردن ، ط١ ، ١٤٢٤هـ — ٢٠٠٣م .

٣٤. إمعان النظر في نظام الآي والسور لمحمد عناية الله أسد سبحاني ، دار عمار ، عمان — الأردن ، ٢٠٠٣ م .

٣٥. أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ،المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي — بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ

٣٦. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير لجابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري ، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية ، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

٣٧. الإيمان لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي، عمان، الأردن ، الطبعة: الخامسة، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

٣٨. بحر العلوم لنصر بن محمد بن أحمد أبو الليث السمرقندي، دار النشر: دار الفكر - بيروت، تحقيق: د.محمود مطرجي .

٣٩. البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ، دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م ، ط ١ ، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق ١) د.زكريا عبد المجيد النوقي ٢) د.أحمد النجولي الجمل .

٤٠. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لأبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي ،المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان ، الناشر:الدكتور حسن عباس زكي — القاهرة ، الطبعة: ١٤١٩ هـ

٤١. بدائع التفسير الجامع لما فسره الإمام ابن قيم الجوزية ، جمعه وخرج أحاديثه : يسري السيد محمد ، راجعه صالح أحمد الشامي ، دار ابن الجوزي – الرياض .

٤٢. البرهان في علوم القرآن لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م ، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه

٤٣. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى ، تحقيق: محمد علي النجار ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة .

٤٤. البلاغة العربية لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي ، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .

٤٥. البناية شرح الهداية لأبي محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى،دار الكتب العلمية ،بيروت، لبنان ط١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .

٤٦. بيان المعاني [مرتب حسب ترتيب النزول] لعبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني ، مطبعة الترقي – دمشق ، الطبعة: الأولى، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٥ م

٤٧. البيان في عدّ آي القرآن لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني ، المحقق: غانم قدوري الحمد ، مركز المخطوطات والتراث – الكويت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م .

٤٨. تاج التراجم لأبي الفداء زين الدين أبو العدل قاسم بن قُطلُوبغا السودوني (نسبة إلى معتق أبيه سودون الشيخوني) الجمالي الحنفي ، المحقق: محمد خير رمضان يوسف ، دار القلم، دمشق ، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ -١٩٩٢م

٤٩. تاج العروس من جواهر القاموس ، لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)

٥٠. التاريخ الأوسط لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله ، المحقق: محمود إبراهيم زايد ، دار الوعي ، مكتبة دار التراث - حلب ، القاهرة ، الطبعة: الأولى، ١٣٩٧ - ١٩٧٧

٥١. تاريخ بغداد لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي المحقق: الدكتور بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م

٥٢. تأويلات أهل السنة لمحمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي ، المحقق: د. مجدي باسلوم ، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .

٥٣. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي ، الدار التونسية للنشر – تونس ، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ

٥٤. تحقيق: مجموعة من المحققين ، دار الهداية .

٥٥. تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ، حققه: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي ، دار طيبة .

٥٦. التسهيل لعلوم التنزيل لأبي القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي ، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ.

٥٧. التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ، دار الشروق، ١٣٩٥ – ١٩٧٥ .

٥٨. التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية لعلي علي صبح ، المكتبة الأزهرية للتراث .

٥٩. تعريف اهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني ، المحقق: د. عاصم بن عبدالله القريوتي ، مكتبة المنار – عمان ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣ – ١٩٨٣.

٦٠. التعريفات لعلي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ) حققه وضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر ، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان ، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م .

٦١. تفسير أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني ، دار الكتب العلمية ، دراسة وتحقيق: د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى، سنة ١٤١٩هـ.

٦٢. تفسير أحمد بن مصطفى المراغي ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م .

٦٣. تفسير الإمام الشافعي لأبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي ، جمع وتحقيق ودراسة: د. أحمد بن مصطفى الفرَّان (رسالة دكتوراه) ، دار التدمرية - المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى: ١٤٢٧ - ٢٠٠٦ م .

٦٤. التَّفْسِيرُ البَسِيْط لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي ، أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم

قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه ، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ

٦٥. التفسير الحديث [مرتب حسب ترتيب النزول] لدروزة محمد عزت ، دار إحياء الكتب العربية — القاهرة ، الطبعة: ١٣٨٣ هـ .

٦٦. تفسير الشعراوي — الخواطر لمحمد متولي الشعراوي ، مطابع أخبار اليوم .

٦٧. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) لمحمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة النشر: ١٩٩٠ م .

٦٨. تفسير القرآن العزيز لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي ، المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز ، الفاروق الحديثة - مصر/ القاهرة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .

٦٩. تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي ، تحقيق: سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م .

٧٠. تفسير القرآن العظيم لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم ، المحقق: أسعد محمد الطيب ، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية ،الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ.

٧١. تفسير القرآن الكريم : الأجزاء العشرة الأولى لمحمود شلتوت، ط. ٥.دار الشروق، ١٣٩٣ = ١٩٧٣.

٧٢. تفسير القرآن لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني ، دار الوطن، الرياض - السعودية - ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م ، ط ١ ، تحقيق : ياسر بن إبراهيم و غنيم بن عباس بن غنيم.

٧٣. تفسير القرآن لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء ، المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي ، دار ابن حزم — بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٧٤. التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم يونس الخطيب ، دار الفكر العربي — القاهرة.

٧٥. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنه لوهبة بن مصطفى الزحيلي ، دار الفكر المعاصر — دمشق .

٧٦. التفسير الواضح للحجازي، محمد محمود ، دار الجيل الجديد – بيروت ، الطبعة: العاشرة – ١٤١٣ هـ .

٧٧. تفسير سورة الأنعام لمحمد البهي ، ط١ ، دار الفكر ، ١٩٧٤ .

٧٨. التفسير لمحمد ثناء الله المظهري ، المحقق: غلام نبي التونسي ، مكتبة الرشدية – الباكستان ، ١٤١٢ هـ .

٧٩. تفسير مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي أبو الحسن ، المحقق: عبد الله محمود شحاته ، دار إحياء التراث – بيروتالطبعة: الأولى – ١٤٢٣ هـ .

٨٠. تقريب التهذيب لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، دار الرشيد – سوريا – ١٤٠٦ هـ– ١٩٨٦م ، ط ١ ، تحقيق: محمد عوامة .

٨١. تكملة المعاجم العربية لرينهارت بيتر آن دُوزِي ، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمَّد سَليم النعَيمي وجمال الخياط ، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية ، الطبعة: الأولى، من ١٩٧٩ – ٢٠٠٠ م .

٨٢. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي ، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ، محمد عبد الكبير البكري ، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب ، ١٣٨٧ هـ .

٨٣. التناسق الموضوعي في السورة القرآنية للدكتور محمد بن عمر بن سالم بازمول ، بحث منشور على موقع فضيلة الدكتور .

٨٤. تهذيب الكمال ليوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج المزي ، مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م ، ط ١ ، تحقيق: د. بشار عواد معروف

٨٥. تهذيب اللغة لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور ، تحقيق: محمد عوض مرعب ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م .

٨٦. التوقيف على مهمات التعاريف لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري ، عالم الكتب ٣٨ عبد الخالق ثروت–القاهرة ، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ–١٩٩٠م .

٨٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي ، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولى ، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠ م .

٨٨.	جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري ، المحقق: أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .

٨٩.	الجامع الصحيح المختصر لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ .

٩٠.	الجامع الكبير امحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى ، المحقق: بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي – بيروت ، ١٩٩٨ م .

٩١.	الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية – القاهرة ، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م .

٩٢.	الجدول في إعراب القرآن الكريم لمحمود بن عبد الرحيم صافي ، دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت ، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ .

٩٣.	الجرح والتعديل لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ) ، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن – الهند ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٢٧١ هـ ١٩٥٢ م.

٩٤.	جلاء العينين بمحاكمة الأحمدين "ابن تيمية - ابن الهيتمي" للعلامة أبي البركات خير الدين نعمان بن محمود الألوسي ، تحقيق الداني بن منير آل زهوي ، ط ١ ، ١٤٢٧ المكتبة العصرية .

٩٥.	جمال القراء وكمال الإقراء لعلي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني المصري الشافعي، أبو الحسن، علم الدين السخاوي ، دراسة وتحقيق: عبد الحق عبد الدايم سيف القاضي (أصل الكتاب رسالة دكتوراة بإشراف د محمد سالم المحيسن) مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.

٩٦.	جمهرة اللغة لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي تحقيق: رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م.

٩٧.	الجواهر الحسان في تفسير القرآن لعبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت .

٩٨. حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي ، المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي ، دار صادر – بيروت .

٩٩. حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح لأحمد بن محمد بن إسماعيل الطحطاوي الحنفي ، المحقق: محمد عبد العزيز الخالدي ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

١٠٠. حاشية كتاب التوحيد لعبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي القحطاني الحنبلي النجدي ، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ .

١٠١. الحراك الحواري في القرآن الكريم وأبعاده العقائدية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية لتيسير محجوب الفتياني ، بيت الأفكار الدولية ، عمان – الأردن ، ٢٠٠٥ م .

١٠٢. حصول المأمول بشرح ثلاثة الأصول لعبد الله بن صالح الفوزان ، مكتبة الرشد .

١٠٣. حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر لعبد الرزاق البيطار ، المحقق: محمد بهجة البيطار ، ط٢ ، دار صادر - بيروت - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٤١٣ – ١٩٩٣.

١٠٤. حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر لعبد الرزاق البيطار ، تحقيق : محمد بهجة البيطار ، ط٢ ، دار صادر - بيروت - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٤١٣ – ١٩٩٣ .

١٠٥. الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة ليحيى زمزمي ، دار المعالي عمان، ط ٢، ١٤٢٢هـ.

١٠٦. الحوار في القرآن معالمه وأهدافه للدكتورة سناء بنت محمود عبد الله عابد ط دار الأندلس الخضراء ١٤٢٥ هـ. ، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة الطبعة: الثانية .

١٠٧. الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام "دراسة موضوعية "بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي حول الحوار مع الآخر في الفكر الإسلامي ، بجامعة الشارقة ، إعداد : أحمد محمد الشرقاوي ، أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك ، بجامعة الأزهر وجامعة القصيم ، ١٤٢٨ هـ .

١٠٨. الحوار مع أتباع الأديان - مشروعيته وآدابه ، منقذ بن محمود السقار ، رابطة العالم الإسلامي .

١٠٩. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون لأبي العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي ، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

١١٠. الدر المنثور في التفسير بالمأثور لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، دار الفكر – بيروت .

١١١. درة التنزيل وغرة التأويل لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي ، دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها (٣٠) معهد البحوث العلمية مكة المكرمة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .

١١٢. درة الحجال في أسماء الرجال ، لأبي العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي ، دار التراث القاهرة ، المكتبة العتيقة ، تونس ،١٣٩٠هـ. راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو ، دار الكلم الطيب، بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

١١٣. الدعوة الفردية وأهميتها في تربية الأجيال لعقيل بن محمد بن زيد المقطري ، الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية.

١١٤. رجال صحيح مسلم لأحمد بن علي بن محمد بن إبراهيم، أبو بكر ابن مَنْجُويَه، المحقق: عبد الله الليثي ، دار المعرفة – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ .

١١٥. رسالة التوحيد لمحمد عبده بن حسن خير الله ، دار الكتاب العربي .

١١٦. ركائز الإيمان بين العقل والقلب لمحمد الغزالي ط. ٤.دار الاعتصام، ١٩٧٦م .

١١٧. روح البيان لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، المولى أبو الفداء ، دار الفكر – بيروت .

١١٨. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي ، تحقيق : علي عبد الباري عطية.

١١٩. الروض الداني (المعجم الصغير) لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير ، المكتب الإسلامي ، دار عمار - بيروت ، عمان ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ - ١٩٨٥

١٢٠. زاد الدعاة عبد المهيمن الطحان ، دار المنارة جدة ١٤١١هـ.

١٢١. زاد المسير في علم التفسير لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، المحقق: عبد الرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي – بيروت.

١٢٢. زهرة التفاسير لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة ، دار الفكر العربي .

١٢٣. السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير لشمس الدين،محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، مطبعة بولاق ،الأميرية– القاهرة ، ١٢٨٥ هـ .

١٢٤. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (السلسلة الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف، ١٤١٥ – ١٩٩٥ .

١٢٥. سنن أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني ، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت .

١٢٦. السنن الصغير لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي ، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي ، جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي . باكستان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

١٢٧. السنن الكبرى لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي ، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي ، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط ، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

١٢٨. سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة لحسين شرفه / مؤسسة الرسالة ناشرون ، بيروت – لبنان ، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨ م .

١٢٩. سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة لحسين شرفه ، رسالة دكتوراه، ط ١.مؤسسة الرسالة ناشرون، ٢٠٠٨ م .

١٣٠. السنن لسليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي ، المحقق: شعَيب الأرنؤوط - مِحَمَّد كامِل قره بللي ، دار الرسالة العالمية ، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

١٣١. السنن لمحمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني المعروف بابن ماجه المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد - محمَّد كامل قره بللي - عَبد اللّطيف حرز الله ، دار الرسالة العالمية ، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

١٣٢. سورة الأنعام والأهداف الأولى للإسلام لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد المدني ، بدون طبعة .

١٣٣. سير أعلام النبلاء لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي ، حققه مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ، الطبعة : الثالثة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

١٣٤. السير والمغازي لمحمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني ، تحقيق: سهيل زكار ، دار الفكر – بيروت ، الطبعة: الأولى ١٣٩٨هـ /١٩٧٨م .

١٣٥. السِّيرةُ النَّبَويَّةُ الصَّحِيْحَةُ مُحَاوَلَةٌ لِتَطبِيْقِ قَوَاعِدِ المحَدِّثِيْنَ فِيْ نَقْدِ رِوَايَاتِ السِّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ لأكرم ضياء العمري ، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة الطبعة: السادسة، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م .

١٣٦. شبهات المشككين لمجموعة من المؤلفين ، موقع وزارة الأوقاف المصرية .

١٣٧. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف ، علق عليه: عبد المجيد خيالي ، دار الكتب العلمية، لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م .

١٣٨. شخصية سورة الأنعام د . صلاح عبدالفتاح الخالدي ، ضمن مواضيع على مائدة القران ، مجلة الفرقان .

١٣٩. شذرات الذهب في أخبار من ذهب لعبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح ، تحقيق : محمود الأرناؤوط ، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط ، دار ابن كثير، دمشق – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

١٤٠. شرح العقيدة الواسطية لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين ، المحقق: سعد فواز الصميل ، دار ابن الجوزي، الرياض، المملكة العربية السعودية .

١٤١. شرح ثلاثة الأصول لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين ، دار الثريا للنشر ، الطبعة الرابعة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

١٤٢. شعب الإيمان لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي ، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند ،الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م .

١٤٣. الشعر والشعراء لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، دار الحديث، القاهرة ، ١٤٢٣ هـ .

١٤٤. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم لنشوان بن سعيد الحميرى اليمني ، المحقق: د حسين بن عبد الله العمري - مطهر بن علي الإرياني - د يوسف محمد عبد الله ، دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية) الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .

١٤٥. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين – بيروت ، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

١٤٦. الصحيح لمسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي

١٤٧. الصفدية لتقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي ، المحقق : محمد رشاد سالم ، مكتبة ابن تيمية، مصر ، الطبعة : الثانية، ١٤٠٦هـ .

١٤٨. الضعفاء الضعفاء والمتروكون لأبي الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني تحقيق: د. عبد الرحيم محمد القشقري، أستاذ مساعد بكلية الحديث بالجامعة الإسلامية ، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

١٤٩. الضعفاء الكبير لأبي جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي المكي ، المحقق: عبد المعطي أمين قلعجي ، دار المكتبة العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

١٥٠. الضعفاء والمتروكون لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي ، تحقيق : محمود إبراهيم زايد ، دار الوعي – حلب ، الطبعة: الأولى، ١٣٩٦هـ.

١٥١. الضعفاء والمتروكون لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ) تحقيق: عبد الله القاضي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ .

١٥٢. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع لشمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي ، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت ، الطبعة: الخامسة، ١٤١٩هـ .

١٥٣. طبقات الشافعية لأبي بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشهبي الدمشقي، تقي الدين ابن قاضي شهبة ، تحقيق : د. الحافظ عبد العليم خان ، عالم الكتب – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ هـ .

١٥٤. الطبقات الكبرى لأبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .

١٥٥. طبقات المفسرين العشرين لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ، المحقق: علي محمد عمر ، مكتبة وهبة – القاهرة ، الطبعة: الأولى، ١٣٩٦ .

١٥٦. طبقات المفسرين لأحمد بن محمد الأدنه وي من علماء القرن الحادي عشر ، المحقق: سليمان بن صالح الخزي ، مكتبة العلوم والحكم – السعودية ، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م .

١٥٧. طبقات المفسرين لمحمد بن علي بن أحمد، شمس الدين الداوودي المالكي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، راجع النسخة وضبط أعلامها: لجنة من العلماء بإشراف الناشر .

١٥٨. طيبب الكلام بفوائد السلام للإمام نور الدين علي بن عبد الله بن أحمد السمهودي الحسني الشافعي ٩١١ هـ ، دار المنهاج للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٤٣٠ – ٢٠٠٩ م جدة – السعودية .

١٥٩. عدد آي القران للمكي والمدنيين والكوفي والبصري والشامي المتفق عليه والمختلف فيه لأبي الحسن علي بن محمد بن إسماعيل بن بشر التميمي الأنطاكي ، ط. ١. مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، لندن – انجلترا ، ٢٠١١ م .

١٦٠. العظمة لأبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري المعروف بأَبِي الشيخ الأصبهاني ، المحقق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري ، دار العاصمة – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ .

١٦١. عقيدة التوحيد في القرآن الكريم لمحمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي ، مكتبة دار الزمان ، الطبعة: الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

١٦٢. عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك لصالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان .

١٦٣. عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي لصالح بن عبد الله العبود ، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية ، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م .

١٦٤. علم الجدل لنجم الدين سليمان عبد القوي بن عبد الكريم الطوفي ، تحقيق : محمد عثمان ، مكتبة الثقافة الدينية ، ٢٠١٤ م .

١٦٥. علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع» لأحمد بن مصطفى المراغي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط٣ ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م .

١٦٦. العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري تحقيق: د مهدي المخزومي د إبراهيم السامرائي دار ومكتبة الهلال .

١٦٧. غرائب التفسير وعجائب التأويل لمحمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء ، دار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت .

١٦٨. غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري ، المحقق: الشيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلميه — بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ .

١٦٩. غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري ، المحقق: الشيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلميه — بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ .

١٧٠. غريب الحديث لإبراهيم بن إسحاق الحربي أبو إسحاق ، تحقيق: د. سليمان إبراهيم محمد العايد ، جامعة أم القرى - مكة المكرمة ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ .

١٧١. غريب الحديث لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، تحقيق: الدكتور عبد المعطي أمين القلعجي ، دار الكتب العلمية - بيروت — لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ - ١٩٨٥ .

١٧٢. الفتاوى لعثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، تقي الدين المعروف بابن الصلاح ، المحقق: د. موفق عبد الله عبد القادر ، مكتبة العلوم والحكم ، عالم الكتب — بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ

١٧٣. فتاوى ورسائل سماحة الشيخ عبد الرزاق عفيفي - قسم العقيدة جمع وليد بن إدرييس منسي - السعيد بن صابر بن عبده دار ابن حزم - دار الفضيلة ط٢ ، ١٤٢٠ - ١٩٩٩

١٧٤. فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩ ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي ، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب ، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز .

١٧٥. فتحُ البيان في مقاصد القرآن لأبي الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي ، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري ، المكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

١٧٦. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني ، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ

١٧٧. فتح رب البرية بتلخيص الحموية لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين ، دار الوطن للنشر، الرياض .

١٧٨. فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب المعروف بحاشية الجمل (منهج الطلاب اختصره زكريا الأنصاري من منهاج الطالبين للنووي ثم شرحه في شرح منهج الطلاب) لسليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري، المعروف بالجمل ، دار الفكر .

١٧٩. الفرائد الحسان في عد آي القرآن ومعه شرحه نفائس البيان لعبد الفتاح بن عبد الغني القاضي ، مكتبة الدار - المدينة المنورة ، ط ١ ، ١٤٠٤ .

١٨٠. الفروق اللغوية لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري ، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم ، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر .

١٨١. الفصول في الأصول لأحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي ، وزارة الأوقاف الكويتية ، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .

١٨٢. فضائل القرآن لأَبُي العَبَّاسِ جَعْفَرُ بنُ مُحَمَّدِ بنُ المعْتَزِّ بنِ مُحَمَّدِ بنِ المسْتَغْفِرِ بنِ الفَتْحِ بنِ إِدْرِيْسَ المسْتَغْفِرِيُّ، النَّسَفِيُّ تحقيق: أحمد بن فارس السلوم ، دار ابن حزم ، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨ م .

١٨٣. فضائل القرآن لأبي عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي ، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين ، دار ابن كثير (دمشق - بيروت) الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ -١٩٩٥ م .

١٨٤. فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة لأبي عبد الله محمد بن أيوب بن يحيى بن الضريس بن يسار الضريس البجلي الرازي تحقيق: غزوة بدير ، دار الفكر، دمشق – سورية ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

١٨٥. فقه السنة لسيد سابق ، دار الكتاب العربي، بيروت — لبنان ، الطبعة: الثالثة، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

١٨٦. الفكر التربوي عند الشيخ محمد ناصر الدين الألباني وتطبيقاته في الواقع المعاصر عابد بن احمد بن عبد الله المفضلي ، رسالة ماجستير ، جامعة أم الثرى ، ٢٠١٣ .

١٨٧. الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية لنعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان ، دار ركابي للنشر - الغورية، مصر ، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م .

١٨٨. الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة لأبي علي الحسين بن علي بن طلحة الرجراجي الشوشاوي. دراسة وتحقيق الأستاذ إدريس عزوزي. نشر وزارة الوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

١٨٩. في ظلال القرآن لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي ، دار الشروق - بيروت- القاهرة ، الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ .

١٩٠. في معاني التنزيل لعلي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الخازن ، دار الفكر ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

١٩١. القاموس المحيط لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى ، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت — لبنان . الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

١٩٢. القرآنُ الكريمُ وقَضايا العقيدةِ لعلي بن نايف الشحود ، الطبعة: الأولى، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.

١٩٣. القول المسدد في الذب عن المسند للإمام أحمد لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني ، مكتبة ابن تيمية — القاهرة ، الطبعة: الأولى، ١٤٠١هـ .

١٩٤. الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف للحافظ ابن حجر العسقلاني / دار عالم المعرفة بيروت.

١٩٥. الكامل في التاريخ لعز الدين أبي الحسن ابن الأثير ، دار الكتاب العربي ، بيروت — لبنان ، ط٦ ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٦م .

١٩٦. الكامل في ضعفاء الرجال لأبي أحمد بن عدي الجرجاني ، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود-علي محمد معوض ، شارك في تحقيقه: عبد الفتاح أبو سنة ، الكتب العلمية - بيروت- لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ -.١٩٩٧م .

١٩٧. كتاب الضعفاء الصغير لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، المحقق: أبو عبد الله أحمد بن إبراهيم بن أبي العينين، مكتبة ابن عباس ، الطبعة: الأولى ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .

١٩٨. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم لمحمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي ، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم ، تحقيق: د. علي دحروج ، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي ، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني ، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٩٩٦م.

١٩٩. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله ، دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ .

٢٠٠. الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق ، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ، الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م .

٢٠١. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي ، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري ، مؤسسة الرسالة – بيروت .

٢٠٢. الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين لفضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين ، مطبعة كتاب ناشرون ، ط١ ، ١٤٣١ هـ – ٢٠١٠ م ، بيروت - لبنان ، اعتنى به وخرج أحاديثه أبو عبد الرحمن عادل بن سعد .

٢٠٣. لباب النقول في أسباب النزول لعبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي أبو الفضل، ضبطه وصححه: الاستاذ أحمد عبد الشافي ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان .

٢٠٤. اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٩ هـ -١٩٩٨ م ، ط ١ ، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض .

٢٠٥. لسان العرب لمحمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى ، دار صادر – بيروت ، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ .

٢٠٦. لطائف الإشارات لعبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري ، المحقق: إبراهيم البسيوني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر ، الطبعة: الثالثة .

٢٠٧. للقرآن الكريم لمحمد سيد طنطاوي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة ، الطبعة: الأولى .

٢٠٨. لمحات الأنوار ونفحات الأزهار وري الظمآن لمعرفة ما ورد من الآثار في ثواب قارئ القرآن لأبي القاسم محمد بن عبد الواحد بن إبراهيم بن مفرج الغافقي الأندلسي ، تحقيق : رفعت فوزي عبد المطلب ، ط١ ، دار البشائر الإسلامية ، ١٤١٨ = ١٩٩٧ .

٢٠٩. لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية لشمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي ، مؤسسة الخافقين ومكتبتها – دمشق ، الطبعة: الثانية - ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

٢١٠. لوهبة بن مصطفى الزحيلي،دار الفكر، دمشق ، الطبعة : الأولى - ١٤٢٢ هـ.

٢١١. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لنصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب ن المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت ،١٤٢٠ هـ

٢١٢. المجددون في الإسلام لعبد المتعال الصعيدي ، مصر .

٢١٣. المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي تحقيق: محمود إبراهيم زايد ، دار الوعي – حلب ، الطبعة: الأولى، ١٣٩٦هـ .

٢١٤. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي تحقيق: حسام الدين القدسي ، مكتبة القدسي، القاهرة ، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م

٢١٥. مجمل اللغة لابن فارس لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي أبو الحسين، دراسة وتحقيق:زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

٢١٦. مجموع الفتاوى لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .

٢١٧. المجموع شرح المهذب ((مع تكملة السبكي والمطيعي)) لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي ، دار الفكر.

٢١٨. محاسن التأويل لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي دار الكتب العلميه - بيروت ، ط١ ، ١٤١٨ هـ ، تحقيق: محمد باسل عيون السود .

٢١٩. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ .

٢٢٠. المحكم والمحيط الأعظم لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي تحقق: عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .

٢٢١. مختار الصحاح لزين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي ، تحقيق: يوسف الشيخ محمد ، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا ، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .

٢٢٢. مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية لأبي محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد المحسن السلمان ، الطبعة الثانية عشر، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

٢٢٣. مدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي ، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي .

٢٢٤. مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد لمحمد بن عمر نووي الجاوي البنتني إقليما، التناري بلدا ، المحقق: محمد أمين الصناوي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤١٧ هـ.

٢٢٥. مرشد الخلان إلى معرفة عد آي القرآن " شرح وتوجيه نظم (الفرائد الحسان للشيخ عبد الفتاح القاضي) لعبد الرزاق علي إبراهيم موسى ، المكتبة العصرية ، بيروت – صيدا، ط١ ، ١٤٠٩ – ١٩٨٩ .

٢٢٦. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري ، دار الفكر، بيروت – لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .

٢٢٧. المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠ .

٢٢٨. المسك الأذفر في نشر مزايا القرنين الثاني عشر والثالث عشر لأبي المعالي محمود شكري بن عبدالله بن محمود الآلوسي ، المحقق: عبدالله الجبوري ، الدار العربية للموسوعات الطبعة: الأولى - ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م .

٢٢٩. المسك الأذفر لمحمود شكري الآلوسي ، مطبعة الآداب ، بغداد – العراق ، ١٣٤٨ هـ – ١٩٣٠ م .

٢٣٠. مسند أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم الحنظلي المروزي المعروف بـ ابن راهويه تحقيق : د. عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي ، مكتبة الإيمان – المدينة المنورة ، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ — ١٩٩١.

٢٣١. المسند لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون ، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .

٢٣٢. المسند لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي ، المحقق: نبيل هاشم الغمري

٢٣٣. مشارق الأنوار على صحاح الآثار لعياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل المكتبة العتيقة ودار التراث .

٢٣٤. مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي ، حققه ووثقه وعلق عليه: مرزوق على ابراهيم ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع — المنصورة ، الطبعة: الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .

٢٣٥. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير لأحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس ، المكتبة العلمية — بيروت .

٢٣٦. معارج التفكر ودقائق التدبر لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، دار القلم — دمشق ، ط١ ، ١٤٢٥- ٢٠٠٤ .

٢٣٧. معالم التنزيل لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ، دار المعرفة - بيروت، تحقيق : خالد عبد الرحمن العك .

٢٣٨. معاني القرآن وإعرابه لإبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج ، عالم الكتب ، بيروت — لبنان ، ط١ ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

٢٣٩. معترك الأقران في إعجاز القرآن لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية - بيروت — لبنان ، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٢٤٠. المعجزة الكبرى القرآن لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة ، دار الفكر العربي .

٢٤١. المعجم الأوسط لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ، دار الحرمين — القاهرة .

٢٤٢. معجم الشيوخ الكبير لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي ، المحقق: الدكتور محمد الحبيب الهيلة ، مكتبة الصديق، الطائف – المملكة العربية السعودية ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

٢٤٣. معجم الصحابة لأبي القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرْزُبان بن سابور بن شاهنشاه البغوي ،المحقق: محمد الأمين بن محمد الجكني ، مكتبة دار البيان — الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م ، طبع على نفقة: سعد بن عبد العزيز بن عبد المحسن الراشد أبو باسل .

٢٤٤. المعجم الفلسفي (بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية)لجميل صليبا، الشركة العالمية للكتاب — بيروت ، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤م .

٢٤٥. المعجم الكبير لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني ، تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي

٢٤٦. معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحالي لعادل نويهض ، قدم له سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣م

٢٤٧. المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) ، دار الدعوة.

٢٤٨. معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٢٤٩. معرفة أنواع علوم الحديث لعثمان بن عبد الرحمن، أبوعمرو، تقي الدين المعروف بابن الصلاح ، المحقق: عبد اللطيف الهميم – ماهر ياسين الفحل ، دار الكتب العلمية ، الطبعة: الأولى ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م .

٢٥٠. المغرب في ترتيب المعرب لناصر بن عبد السيد أبى المكارم ابن على، أبو الفتح، برهان الدين الخوارزمي المِطَرِّزِىّ ، دار الكتاب العربي .

٢٥١. المغني في الضعفاء لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي ، تحقيق : الدكتور نور الدين عتر

٢٥٢. مفاتيح العلوم لمحمد بن أحمد بن يوسف، أبو عبد الله، الكاتب البلخي الخوارزمي تحقيق: إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الثانية .

٢٥٣. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ

٢٥٤. المقدمة لعبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون ، ط٤ ، دار القلم – دمشق ، ١٤٠٢ – ١٩٨٢

٢٥٥. الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني ، مؤسسة الحلبي .

٢٥٦. من بلاغة القرآن لأحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي ، نهضه مصر – القاهرة ، عام النشر: ٢٠٠٥

٢٥٧. من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم لعيسى إبراهيم وادي ومحمود عبد الكريم مهنا ، تقديم د/ أحمد نوفل ، مراجعة : بسم جرار ، ط١ ، ٢٠١٢ – ١٤٣٣ ، دار الرضوان للنشر والتوزيع ، عمان – الأردن ، دار الأمين للنشر والتوزيع ، رام الله – البيرة .

٢٥٨. من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم لعيسى إبراهيم وادي ، ومحمود عبد الكريم مهنا ، دار الرضوان للنشر والتوزيع ، عمان – الأردن ، ط١ ، ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م .

٢٥٩. مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزُّرْقاني ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الثالثة .

٢٦٠. منهج القرآن الكريم في تحصين الأمة من الفرقة والاختلاف لمحمود محمد داود الصميدعي ، دار النهضة للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق – سوريا ، ط١ ، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م .

٢٦١. منهج القرآن الكريم في تحصين الأمة من الفرقة والاختلاف لمحمود محمد داود الصميدعي، ط. ١ ، دار النهضة، ٢٠٠٨ م .

٢٦٢. منهج القرآن الكريم في محاربة الشرك لإبراهيم بن صالح بن عبد الله الحميضي ، دار التدمرية ، ط١ ، ١٤٣٤ – ٢٠١٣م .

٢٦٣. منهج القصة في القرآن محمد شديد، دار عكاظ جدة ١٤٠٤هـ.

٢٦٤. المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ليوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين ، حققه ووضع حواشيه: دكتور محمد محمد أمين ، تقديم: دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٢٦٥. الموافقات لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي ، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ، دار ابن عفان ، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م .

٢٦٦. الموسوعة القرآنية لإبراهيم بن إسماعيل الأبياري ، مؤسسة سجل العرب الطبعة: ١٤٠٥ هـ ، دار البشائر (بيروت) الطبعة: الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

٢٦٧. النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم لمحمد بن عبد الله دراز ، اعتنى به : أحمد مصطفى فضلية ، قدم له : أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني ، دار القلم للنشر والتوزيع ، طبعة مزيدة ومحققة ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م

٢٦٨. نظرات في القرآن لمحمد الغزالي دار الكتب الحديثة،١٣٨٠ = ١٩٦١ .

٢٦٩. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي ، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة

٢٧٠. نظم العقيان في أعيان الأعيان لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المحقق: فيليب حتي ، المكتبة العلمية – بيروت

٢٧١. النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير ، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي

٢٧٢. نهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام لحمود بن أحمد بن فرج الرحيلي ، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م

٢٧٣. نواهد الأبكار وشوارد الأفكار - حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي - لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ، جامعة أم القرى - كلية الدعوة وأصول الدين ، المملكة العربية السعودية (٣ رسائل دكتوراة) ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٥ م .

٢٧٤. نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي ، الطبعة الأولى ، طرابلس - كلية الدعوة الإسلامية - ١٩٨٩ م .

٢٧٥. الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه لأبي محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي ، المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة

الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي ، مجموعة بحوث الكتاب والسنة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م

٢٧٦. وازعية التغيير الإجتماعي في الإسلام لمغلي محمد البشير الهاشمي – رسالة دكتوراه – ١٩٩٨ م .

٢٧٧. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي ، تحقيق: صفوان عدنان داوودي ، دار القلم ، الدار الشامية – دمشق، بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ .

٢٧٨. وحدة النسق في السورة القرآنية: فوائدها وطرق دراستها لرشيد الحمداوي ، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية – العدد ٣ ، ١٤٢٨ .

٢٧٩. وسطية الإسلام صالح حبيب الله (تشي شيوه ي) الصيني ، الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية .

٢٨٠. وسطية الإسلام ودعوته إلى الحوار لـ أ. د. عبد الرب نواب الدين آل نواب ، الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية .

٢٨١. الوسيط في تفسير القرآن المجيد لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس ، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي ، دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م

٢٨٢. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي ، المحقق: إحسان عباس ، دار صادر — بيروت

٢٨٣. يسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، المحقق: زهير الشاويش ، المكتب الاسلامي، بيروت، دمشق ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م

فهرس المحتويات

إهداء ٢
شكر وتقدير.. ٣
ملخص الرسالة.. ٤
المقدمة ٦
أهداف البحث :.. ٧
أسباب اختيار الموضوع :.. ٧
الدراسات السابقة للموضوع : ٨
الجانب الأول : الدراسات العامة :... ٨
الجانب الثاني : الدراسات السابقة والمؤلفات المتعلقة بسورة الأنعام خاصة :............ ٩
منهج البحث : ١٧
خطة البحث : ١٨
الباب الأول:.. ٢١
التناسق الموضوعي ٢١
مقدمات تعريفية.. ٢١
التمهيد.. ٢٢
التعريف بالتناسق الموضوعي في السورة لغة واصطلاحاً ٢٣
أولاً : التعريف بكلمة التناسق لغة واصطلاحاً :.................................... ٢٣
ثانياً : التعريف بكلمة الموضوعي لغة واصطلاحاً : ٢٥
ثالثاً : تعريف السورة لغة واصطلاحاً : ٢٦
رابعاً : التعريف بالتناسق الموضوعي في السورة كعلم ٢٨
خامساً : فوائد التناسق الموضوعي في السورة القرآنية :............................. ٢٩
الفصل الأول:.. ٣١
اسم السورة وفضلها.. ٣١
وعدد آياتها وتاريخ نزولها ٣١
المبحث الأول: اسم السورة الكريمة وما اشتهر لها من أسماء.......................... ٣٢

المبحث الثاني: ما ورد في فضل السورة أو بعض آياتها من أحاديث........................ ٣٧
المبحث الثالث: عدد آيات السورة واختلاف العلماء في ذلك.......................... ٤١
المبحث الرابع: تاريخ نزول السورة الكريمة.................................. ٤٣
الفصل الثاني:.. ٤٦
مكي السورة ومدنيها ومناسبتها لما قبلها وما بعدها ووجه اختصاصها بما اختصت به............ ٤٦
المبحث الأول: المكي والمدني في السورة. ٤٧
المبحث الثاني: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها................................. ٦٦
المبحث الثالث: وجه اختصاص السورة بما اختصت به ١١١
الفصل الثالث:... ١٤٤
أسباب النزول الواردة في السورة ومقاصدها وأهدافها................................ ١٤٤
المبحث الأول: أسباب النزول الواردة في السورة. ١٤٥
المبحث الثاني : مقاصد السورة وأهدافها. ١٥٣
الباب الثاني:.. ١٥٦
التناسق الموضوعي في سورة الأنعام – دراسة تطبيقية – ١٥٦
الفصل الأول:... ١٥٧
موضوعات السورة وتناسقها ١٥٧
المبحث الأول : الربوبية والألوهية والموقف منها والشهادة على ذلك ويشتمل على أربعة مطالب
تشمل على الآيات من (١ إلى ٢٤) ١٥٨
المبحث الثاني : اختلاف مواقف الخلق تجاه الألوهية ، وما جاء من عنده تعالى من الرسالة
والوحي وما يلزم ذلك ويشتمل على ستة مطالب (٢٥ – ٩٤) :........................ ٢٢٦
المبحث الثالث : الذات الإلهية والدلالة عليها ، وذكر ما يليق بها وما لا يليق ويشتمل على خمسة
مطالب (٩٥ – ١٣٥) : ٣٥٩
المبحث الرابع : نعم الله تعالى على المشركين وموقفهم منها ويشتمل على أربعة مطالب (١٣٦
– ١٥٠) :... ٤٢٩
المبحث الخامس : الاعتصام بالله تعالى والوسائل المعينة على ذلك والجزاء المترتب عليه ويشتمل
على ستة مطالب (١٥١ – ١٦٥) :... ٤٦٠
الفصل الثاني : مناسبات السورة الكريمة ٤٩٤
المبحث الأول: مناسبة اسم السورة لموضوعاتها..................................... ٤٩٥
المبحث الثاني: مناسبة فاتحة السورة لموضوعاتها................................... ٤٩٩

المبحث الثالث : مناسبة خاتمة السورة لفاتحتها ٥٠١
المبحث الرابع : مناسبة خاتمة السورة لموضوعاتها ٥٠٣
المبحث الخامس : مناسبة موضوعات السورة لمقاصد السورة ٥٠٧
الخاتمة... ٥٢١
فهرس المصادر والمراجع.. ٥٢٤

تم بحمد الله